موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

سورة المائدة

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (01-49): تفسير الآية 1 ، الوفاء بالعقود
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-08

بسم الله الرحمن الرحيم

الترابط الدقيق والعميق بين الآيات في السورة الواحدة وبين السور في المصحف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من دروس سورة المائدة ومع الآية الأولى وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

أولاً أيها الأخوة، ترتيب الآيات في السورة الواحدة توقيفي من الوحي، وترتيب السور فيما بينها توقيفي، بمعنى أن الله عن طريق جبريل تولى ترتيب الآيات في السورة الواحدة، وترتيب السور في المصحف، ذلك لأن هناك ترابط دقيق وعميق بين الآيات في السورة الواحدة، وبين السور في المصحف، فحينما جاء في سورة النساء عقود كثيرة كعقد النكاح، وعقد الصداق، وعقد البيع، وعقود أيضاً أخرى، فجاءت مقدمة هذه السورة أن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

شيء آخر، إن الله سبحانه وتعالى كما أذكر دائماً يخاطب الناس بأصل الإيمان ويخاطب المؤمنين بالتكاليف، فالتكاليف يخاطب بها المؤمنون والناس يخاطبون بأصل الإيمان.

مخاطبة الله عز وجل الناس بأصول الدين والمؤمنين بالتكاليف :

إذاً حيثما قرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ينبغي أن تعلم هذا من التكليف، وهذا التكليف طبيعي جداً لمن آمن بالله، مثلاً طالب في جامعة عاش مع أستاذه سنوات عديدة، وانتقل معه من سنة إلى سنة، فحينما يأمر هذا الأستاذ بكتابة بحث، أو مراجعة كتاب، فهذا الأمر مبني على أن هذا الطالب عرف قيمة أستاذه، وعرف علمه، وعرف حرصه، وعرف رغبته أن يرقى بتلميذه، فكل هذه الحيثيات في ذهن الطالب حينما يأمر هذا الأستاذ تلميذه بكتابة هذا البحث، أو مراجعة هذا الكتاب، أو تلخيص هذا الموضوع، أما هذا الأستاذ نفسه لو مشى في الطريق ورأى إنساناً عادياً قد يكون أمياً وقال له: اكتب البحث الفلاني، معك أسبوع، كلام

ليس له معنى إطلاقاً، يسألك: من أنت؟ من أنت حتى تأمرني؟ هذا الأستاذ لا يستطيع أن يخاطب إلا طلابه بتفاصيل الأوامر، لكن الإنسان العادي يقال له: هل فكرت في الكون؟ هل تعرفت إلى الله؟ ألست مسلماً؟ ينبغي أن تصلي، فدائماً وأبداً الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الإيمان، بأصول الدين.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)

[سورة الطور: 35]

أما إذا خاطب المؤمنين يخاطبهم بالتكاليف، إذاً شرف كبير أن تكون مشمولاً بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

ما من مرتبة ينالها الإنسان كأن يكون منسوباً إلى الله عز وجل :

بل هناك أبلغ من ذلك، أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(قُلْ لِعِبَادِيَ)

[سورة إبراهيم: 31]

هذه الياء ياء النسب، وقد نسب العباد إلى الله عز وجل، عبادي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

هذه نسبة شرف وتكريم، أي ما من مرتبة ينالها الإنسان كأن يكون منسوباً إلى الله عز وجل، أي من باب الاعتزاز أن تقول: أن ابن فلان، أنا من بيت علم فرضاً، أنا منسوب إلى العالم الفلاني، فحينما تنسب إلى خالق الأرض والسماوات فهذا أعظم تكريم وتشريف للإنسان:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

[سورة الزمر: 53]

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

هكذا، بقي شيء آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

العقود هي التي وردت في سورة النساء، ثم إن معنى أوفوا بالعقود تأتي بمعنى آخر؛ أي عقد بينك وبين الله حينما تذهب إلى العمرة أو إلى الحج، وتقف أمام الحجر الأسود وتشير إليه وتقول: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً لكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، يا رب أعاهدك على التوبة النصوح، يا رب أعاهدك ألا آكل المال الحرام ما حييت، يا رب أعاهدك على غض البصر ما حييت، يا رب أعاهدك على فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، يعود إلى بلده وكأن شيئاً لم يكن، لذلك قال الله تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

على الإنسان أن يعاهد الله وأن يبقى عند عهده :

شيء مؤلم جداً أن تعاهد الله ثم تنسى، أن تعاهد الله ثم تخلف هذا العهد، الله عز وجل كأنه يعاتبنا أو يأمرنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

الشيء الذي يهز مشاعر الإنسان قوله تعالى:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفى ما عليه، أي رائع جداً أن تعاهد الله وأن تبقى عند عهدك.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

المؤمن لا يبدل لا في الشدة، ولا في الفقر، ولا في المرض، ولا في القلق، عاهد الله على طاعته، فهو على عهده قائم في الشدة والرخاء، في الغنى والفقر، قبل الزواج وبعد الزواج، قبل المرض وبعد المرض، أخذ قراراً مصيرياً بطاعة الله عز وجل، أما هؤلاء المتقلبون الذين يعبدون الله على حرف، تارة يقبلون وتارة يعرضون، تارة يتمسكون وتارة يتفلتون، هؤلاء في مرتبة دنيا.

كل أمر ونهي في القرآن الكريم هو عقد بين الإنسان وربه يجب أن يلتزم به :

حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم: 4]

أي هو في الأعماق، ورائع جداً أن تكون في الأعماق، لا تتأثر لا بحدث ولا بمصاب ولا بفقر ولا بغنى، راض عن الله عز وجل.

إني وإنْ فتتوا في حبهمْ كبدي باقٍ على ودهمْ راضٍ بما فعلوا

* * *

هؤلاء الذين تساق لهم الشدة ويصبرون هؤلاء عند الله في أعلى مكان، انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، معظم الناس في الرخاء يشكرون الله، لكن الشدة تفرزهم إلى مؤمن وإلى ضعيف الإيمان، والأحداث الأخيرة كأنها فرزت بعض الناس، فحينما لم يتحقق ما كان المسلمون يصبون إليه، أصبحت حالة الإحباط منتشرة بين المسلمين، هناك من ترك الصلاة، هو يصلي إذا في انتصار، ثم لا يصلي إن لم يحقق هذا الانتصار، هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، فالعقود هي العقود مع الله، ومن أدق معاني العقود أن الله حينما أمرك بالعبادات هي عقود إيمانية، وحينما أمرك بالصدق هي عقود تعاملية، وحينما أمرك ببعض الأوامر الأخلاقية هي عقود أخلاقية، فأنت مكلف أن تفي بالعقود الإيمانية والعقود التعاملية والعقود الأخلاقية، وكل أمر في القرآن الكريم يعني عقداً بينك وبين الله، ينبغي أن توفيه، وكل نهي في القرآن الكريم يعني عقداً بينك وبين الله ينبغي أن تبتعد عنه، وكل دعوة من الله عز وجل إلى عمل صالح هو عقد مع الله ينبغي أن تفعله، وقد قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أريتم إلى هذه الآية، كأن الله سبحانه وتعالى يقول: أقرضوني يا عبادي، أقرضني معالجة هر أصابه حادث ولا أحد يهتم به، إنك إن أخذت هراً إلى طبيب بيطري وعالجته أقرضت هذا لله عز وجل، أقرض الله عملاً صالحاً تبتغي به وجه الله عز وجل.

الوفاء بالعهد أو العقد من أرقى الصفات الأخلاقية :

أيها الأخوة:

(أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

أي نفذوا هذه العقود، أما (أوفوا) هذا الفعل ثلاثي لكنه غير مستعمل كثيراً (وفى)، ورد منه اسم تفضيل على وزن أفعل.

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة: 111]

إلا أن الفعلين اللذين يستخدمان في اللغة فعل (وفى):

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفي فعل (أوفى):

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

ما من صفة ترقى بالإنسان كالوفاء بالعهد والعقد، وما من صفة تحطمه وتلغي إنسانيته كأن يتنكر لعقوده ولوعوده، أي مرةً سمعت تصريحاً لمستشارة لدولة كبرى تقول: من يلزمنا أن نفي بعهودنا ومواثيقنا.

أنت حينما تشعر بقوتك وتلغي عهودك ومواثيقك أنت لا تنتمي إلى بني البشر، والوفاء بالعهد أو العقد من أرقى الصفات الأخلاقية.

العقود هي بيننا وبين الله :

أذكر أن إنساناً عرض بيته للبيع فجاء من يشتريه بمبلغ، ولحكمة أرادها الله عز وجل بعد حين جاء من يدفع له ثلاثين بالمئة زيادة عن هذا المبلغ، فالذي اشترى البيت بلغه أن فلان عرض على صاحب البيت هذا المبلغ فأيقن يقيناً قطعياً أنه لن يبيعه البيت، بحسب أخلاق الناس الآن، جاء وقت تنفيذ الوعد وكتابة العقد فذهب إليه ومعه المبلغ الأول، استقبله بترحاب وكتب العقد ووقعه، وهو يعلم علم اليقين أن زيداً دفع له ثلاثين بالمئة من ثمن البيت، بعد أن وقع العقد ونقضه المبلغ، قال له: لي عندك سؤال، ألم يُعرَض عليك ثمن أعلى؟ قال نعم، ولكني لا أبيع ديني.

هكذا كان المسلمون، يوفون بعهودهم ومواثيقهم وعندئذٍ يرفعهم الله عز وجل، أما حينما نقلد التائهين، نقلد الشاردين، ونتنكر لعقودنا ومواثيقنا ولا نعبأ بها بقي الدين اسماً، والقرآن رسماً، وانتهى المسلمون وسقطوا من عين الله عز وجل، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من أن يسقط من عين الله، فإذا عقدت عقداً ينبغي أن تنفذه، وإذا عاهدت عهداً ينبغي أن تنفذه، وهذا يرفعك عند الله عز وجل، والدنيا تذهب وتأتي، ولكنك إذا سقطت من عين الله لن تستطيع أن تفعل شيئاً بعد ذلك يقربك من الله عز وجل إلا أن تتوب توبة نصوحة، وأن تعاهده ثانية على الوفاء بالعهد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

إذاً العقود هي بينك وبين الله، وقد توسع المفسرون بفهم كلمة العقد، فعبادات أمرت بها كالصيام والصلاة والحج والزكاة، هي عقود إيمانية أمرك الله بها، والأوامر والنواهي التعاملية أمرك الله بها كالصدق والأمانة والعفو والإنصاف والعدل والرحمة، وحينما تتخلق بأخلاق رسول الله هذه عهود أخلاقية أمرك الله بها، أنت مع عقود الله وعهوده، وأحياناً قد تبرم عقداً مع إنسان، هذا العقد مع الإنسان ينبغي أن تنفذه، لذلك المؤمن لا يتسرع بتوقيع العقد، أما إذا وقع انتهى، وفي القضاء الإنسان مأخوذ بإقراره، وهبتك وهَبتك انتهى الأمر، أعطيتك أعطيتك، بعتك بعتك، وكان السلف الصالح يتغنون بوفائهم للعقود أما الجيل المعاصر فيفتخر بأنه نقض عهده ولم ينفذ هذا البيع.

العهد بين الإنسان و ربه و بين الإنسان و الناس يرفع الإنسان عند الله :

هذا الذي يرفع الإنسان عند الله العهد الذي بينك وبين الله، والعهد الذي بينك وبين الناس، وكلا العقدين واجب التنفيذ، وربنا عز وجل يقول:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

هو قدوة لنا، العقد يبدو غير معقول.

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: 102]

ومع ذلك وضعه وتله للجبين، والله جل جلاله فداه بذبح عظيم، لكن بلغ أعلى مستوى يبلغه إنسان، وأنت حينما تفي بوعدك وتنفذ عهدك لك عند الله مقام كبير، وحينما تتنكر لعهدك وعقدك تسقط من عين الله.

سمعت قصة أن امرأة خطبت من شاب، هكذا سمعت، من شاب مؤمن يعمل مهندساً في بلد نفطي، وتمت الخطبة وعقد العقد وانتهى كل شيء، وهناك رسائل واتصالات هاتفية بين الخاطب وبين مخطوبته، وهي زوجته بعد العقد، جاء من يخطبها وهو غني كبير ماذا فعلت الأم؟ أمرت ابنتها أن تقطع اتصالها بخطيبها وزوجها وأرسلت الهدايا إلى بيت أهل الخاطب، وكانت قطيعة بين الزوجة والزوج، وقيل له: لا بد من تطليقها لا نريدك، فلما رأى إصرارهم طلقها، أعطيت لهذا الخاطب الغني، ولحكمة أرادها الله عز وجل هذا الغني طلقها، ثم تزوجت ثالثاً وطلقها، وهي في هذا الوقت عانس تعيش مرارة العنوسة لأنها طمعت بالمال وكانت أداة بيد أمها.

فالوفاء بالعهد والعقد صفة في الإنسان رفيعة، لا يعلم إلا الله كم لصاحبها من مكانة عند الله عز وجل، فالإنسان يعيش بسمعته، يعيش بأخلاقه، يعيش بدينه، عند الله محمود وعند الناس محمود، ومن ألطف ما فسره المفسرون لكلمة محمود: محمود عندك، أنت محمود عند نفسك، ومحمود عند الله، ومحمود عند الناس، إذا كنت وفياً بالعقود والعهود.

قصص من الواقع عن الوفاء بالعهد :

سمعت قصة أخرى؛ مفيد جداً أن نتابع هذا الموضوع، شابان كانا على مقعد دراسة واحد، الأول صار من كبار تجار البناء، والثاني بقي ذا دخل محدود، عنده دكان صغيرة يرتزق منها، لما كبرا الثاني الفقير أراد الزواج ليس عنده بيت، فذهب إلى صديقه الذي كان معه على مقعد الدراسة ورجاه أن

يؤجره بيتاً من بيوته، تاجر بناء كبير، قال له بلطف بالغ: والله أنا لا أؤجر البيوت أنا أبيعها فقط، فاعذرني، ألح عليه ثانية فاعتذر، ألح عليه ثالثة فاعتذر، قال له مرة: عهداً لله إن أجرتني بيتاً وجاء من يشتريه أسلمك إياه في يوم واحد، يبدو أن الصديق الثاني صدقه ورقت نفسه وأسكنه هذا البيت في أحد أرقى أحياء دمشق وكانت أسعار البيوت متدنية جداً، بعد أربع سنوات جاء من يشتري البيت برقم فلكي، ارتفعت الأسعار، فجاء صاحب البيت وطرق باب صديقه المسلم، الأول غير مسلم، قال له: أين عهدك؟ أنت وعدتني أن تخرج بيوم واحد، أنا أعطيك مهلة ستة أشهر، فما قولك؟ قال له: حاضر، بعد يوم واحد يفاجئ صاحب البيت أن هذا الصديق الذي استأجر بيته طرق الباب وقدم المفتاح، بعد يوم، وقد منحه ستة أشهر، لم يصدق، انطلق إلى البيت فإذا البيت في أعلى درجة، نظيف، كل الوسائل التي أعطاه إياها سليمة، فسئل ـ القصة دقيقة جداً ـ لما فتح الباب ودخل وخرج، فتح الجيران الباب وسألوه: كم دفعت له من المال حتى خرج؟ قال: والله ما دفعت له شيئاً، إلا أنه وعدني ووفى بوعده، قالوا: عجيب باع كل أثاث بيته في سوق في الشام بأبخس الأثمان وسكن مع أهله في فندق، قال: هكذا ؟ قالوا: والله هكذا، فذهب إليه لأنه قال له: عهد الله علي أن أسلم البيت بعد يوم من طلبك إياه، هذا الرجل كبر عنده هذا العمل، هذا عمل بطولي، فالتقى به في الفندق وأقسم له بكل ما يؤمن أن يعود إلى البيت وقد باعه إياه بثمن البيت يوم سكنه، وبأبخس الأسعار، وأن كل الأجر الذي دفعه من ثمن البيت، والأثاث تكفل أن يؤسس له أثاثاً جديداً، هذه القصة وقعت في دمشق.

هذا وفاء العهد، كان في دمشق أكثر من سبعمئة ألف بيت مغلقة لا تؤجر لأن هناك أزمة ثقة بين الناس، يسكن البيت ويقسم بأبلغ الأيمان ثم يتحكم بالبيت ولا يعبأ بشيء ولا يخرج ولا بأية وسيلة، فالمشكلة أيها الأخوة بيننا مشكلة ثقة، فإذا كان المسلمون عند عهودهم ومواثيقهم والله تحل آلاف المشكلات، والله تحل كل المشكلات.

الحياة مع المؤمنين جنة والحياة مع المتفلتين جحيم لا يطاق :

بلغني أنه في بلد غربي تقليد رائع لك مثلاً تعويض عشرة آلاف، وأنت بحاجة ماسة إليه، فتأتي إلى المحاسب وتوقع توقيعاً خاصاً اسمه توقيع شرف أن لك هذا المبلغ وتقبضه، والمعاملة تمشي على الرخاء، أي هذا التوقيع مقدس، إذا وقعته معنى ذلك أنك صادق مئة بالمئة، تحل بهذا التوقيع كل المشكلات.

أحياناً الإنسان يدفع ثمناً باهظاً كبيراً لتعقيد في المعاملات، أما إذا كان هناك صدق وأمانة والله الحياة مع الناس جنة، أما الآن من ضعف دين الناس، وضعف وفائهم بعقودهم، وعهودهم، ومواثيقهم، كل

إنسان لغم لا تعرف متى ينفجر، أي إذا ما وقعت ووثقت وبكاتب العدل ومع ذلك تخضع لمحاكمة قد تطول عشر سنوات، مع التوثيق والشهود والعقود والعهود والتسجيل، الحياة مع المتفلتين جحيم لا يطاق، والله في زحمة أزمة السكن الحادة التي ينتج عنها أن إنساناً سكن بيتاً لا يخرج منه مهما كلف الأمر، مهما كان ديناً انتهى هذا البيت ملكه.

أعرف رجلاً أعطى بيتين لمؤمنين والقوانين كلها مع المستأجرين بعد سنتين طلب البيتين فأخذ البيتين بكلمة واحدة، أريد البيت، تفضل، هذا العهد.

بيت فارغ، كم بيت قبل قانون الإيجار الأخير مغلق، سبعمئة ألف بيت في دمشق مغلق لا تعطى لأحد لأن هناك أزمة ثقة بين الناس، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

والله الذي لا إله إلا هو أنت حينما تفي بعهدك وتنفذ العقد الذي بينك وبين مسلم تشعر برضا الله عز وجل.

لي جار هنا في الحي كان يحضر عندنا، له مكانة كبيرة، وله عمل رسمي بأعلى مستوى، انتهت مدة خدمته، محمي، موظف، يقول صاحب البيت طرق بابه هذا المفتاح جزاك الله خيراً، كاد توازن صاحب البيت يختل، معقول من دون سبب، من دون ثمن، من دون أن تستعصي بالبيت أبداً، هذا بيتك، وهذا المفتاح، ولك الشكر.

المؤمن الحقيقي هو من يفي بوعده وينفذ عهده :

الحياة مع المؤمنين جنة والله أيها الأخوة، لأن المؤمن يفي بعهده، ويحترم وعده ووعد الحر دين، والوفاء بالعقد عمل عظيم، وتنفيذ العهد عمل عظيم، والله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

الآن نوقع ألف عقد إذا الأسعار ارتفعت، كل هذه العقود تصبح باطلة، يقول لك: لا أطوب إلا بمئة ألف، ألم نتفق على السعر، والبيت انتهى، لم تدفع شيئاً بعد ذلك، يقول لك: ارتفعت الأسعار. والله سمعت قصة أنا أروي بعض القصص في هذا الدرس لأن الآية واحدة لكنها تحتاج إلى إغناء، إنسان أظنه صادقاً عند الله وأظنه شريفاً، بنى بناء ضخماً جداً في أحد أحياء دمشق، والبناء يزيد عن مئة وحدة سكنية، وباع البيوت كلها، قبل ثلاثة وعشرين عاماً، هناك عقبات إدارية حالت بين صاحب هذا المشروع وبين تسليم البيوت لأصحابها في السجلات الرسمية هم ماذا ظنوا؟ ظنوا كبقية تجار العقارات، أنه لا يسجل إلا بمبلغ كبير، لكن الفرق ما هو؟ بيت بيع بخمسة عشر ألف ليرة ثمنه الآن

خمسة ملايين، قصة قديمة جداً كان الثمن رخيص جداً، هم توهموا وغلب على ظنهم أنه لا يسجل لهم إلا ليأخذ مبلغاً ضخماً، إنسان بيته بخمسة عشر مليوناً وجد أنه إذا دفع مليون وطوبه هو الرابح، والله الذي عرض عليه هذا المبلغ أحد أخوتنا، له بيتين لابنه بيت ولصهره بيت، عرض على هذا الإنسان تقريباً مئة مليون كي يسجل هذا المشروع في الشهر العقاري، مباع من ثلاث وعشرين سنة ثمن البيت ارتفع مئة ضعف، فقال هذه الكلمة، قال: والله أنا ليس لي عندكم شيء، أنا بعتكم البيوت بأسعارها الصحيحة وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، وأنا حينما يتاح لي فرصة أسجلها لكم، إنسان ركل بقدمه مئة مليون، لأن هذا المبلغ ليس له حق فيه أبداً، باعهم وربح منهم وقبض الثمن كاملاً، هل تظن هذا الإنسان بطل؟ لا ليس بطلاً، هذا إنسان عادي، وهو من أخوتنا لكن لأن العمل الصالح أصبح نادراً جداً، والاستقامة نادرة جداً كأنه أصبح بطلاً، هو ليس بطلاً، لأنه قال: أنا ليس لي عندكم أي شيء، أنا بعتكم وقبضت الثمن وربحت عليكم وليس لي عندكم شيء، وبعد شهرين فيما أعلم سجل كل هذه البيوت لأصحابها بعد أن زالت العقبات. هذا هو المؤمن، وهناك مؤمنون معاصرون، ينفذون عقودهم ومواثيقهم ولا يعبؤون بأي قرار، أحياناً القرار يحميك لكن من يحميك في القبر؟ في الحياة الدنيا هناك بعض القوانين تحمي بعض الناس، لكن من يحمي الإنسان في القبر؟ لمَ فعلت هذا؟!!

البطولة أن تهيئ لله يوم القيامة جواباً عن كل عمل تعمله :

أخواننا الكرام، أنا أتمنى دائماً أن تسأل نفسك إذا عملت عملاً هل هيأت لله جواباً لو سألك؟ أنا أقول لكم: البطل هو الذي يهيئ لله يوم القيامة جواباً عن كل عمل يعمله، قد تستطيع أن تتحكم بالآخرين لأن القوانين إلى جانبك ولكن من يحميك من الله عز وجل؟

أنا لا أنسى كلمة قالها الحسن البصري لوالي البصرة، حينما كان زائراً عنده جاءه توجيه من يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه فيه ظلم شديد، فإذا نفذه أغضب الله عز وجل، وإذا لم ينفذه أغضب الخليفة وربما أزاحه من مكانه، وقع في حيرة شديدة، وكان عنده الحسن البصري، قال: يا إمام ماذا أفعل؟ قال كلمة والله أتمنى على كل واحد منكم أن يجعلها شعاراً له، قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.

أنت حينما تشعر أن القوانين إلى جانبك وساق الله لهذا الإنسان مرضاً خبيثاً ماذا يفعل؟ ما قيمة المال عندئذٍ؟!!

مرة كنت عند طبيب قلب، وجاءه اتصال هاتفي وسمعت المكالمة جهاز قديم صوته عال جداً، قال له:

أي مبلغ ندفع وإلى أي مكان نذهب به، قال له: والله ليس هناك أمل السرطان من الدرجة الخامسة، لا أمل في شفائه.

فإذا ساق الله للإنسان شدة وكان قد أخلف وعوده ومواثيقه، أناس كثيرون اغتصبوا شيئاً ليس لهم، ودخلوا مع أصحاب هذا البيت في محاكم لسنوات طويلة، ثم صدر حكم لصالحهم لأن القانون معهم، والله بعد الحكم بيومين وافته المنية، ولم يستمتع بالبيت.

أحياناً الإنسان يعمل عمل يلعنه الله والملائكة والناس أجمعين، فأنا أتمنى عليكم آية قصية جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

نفذ وعدك، نفذ عهدك، حتى مع الصغير، تعال هاك، قال النبي الكريم لإحدى قريباته: ماذا أردت أن تعطيه، قالت: تمرة في يدي، قال: أو إنك لو لم تفعلي لعدت عليكِ كذبةً.

لي قريب مقيم في أمريكا جاء زائراً قبل سنوات، له ابن صغير جداً، لعب كثيراً وشوش على الناس كثيراً، قالت له جدته: اجلس حتى آخذك إلى مكان جميل في المساء، فجلس وسكت، وفي المساء وجد أن جدته تكذب فقال لها: أنت كاذبة، هذا الطفل الصغير، انتبه لو طفل صغير إن وعدته ينبغي أن تفي له، أبداً.

أحد علماء الحديث جاء من المدينة إلى البصرة ليتلقى حديثاً من إنسان رآه يرفع ثوبه ليوهم فرسه أن في ثوبه علفاً، فلما وصلت إليه قبض عليها وأرخى ثوبه، فعاد إلى المدينة، هذا الذي يكذب على الفرس لا يمكن أن آخذ منه حديثاً عن رسول الله.

أيها الأخوة، ما أتمنى إلا أن تنقلب هذه الآية، أن تترجم إلى سلوك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

نفذ العقد لكن كن دقيقاً قبل كتابة العقد، أي بالتعبير التجاري شطارتك قبل العقد لا بعد العقد، كل شطارتك وذكائك قبل العقد، لكن بعد العقد بعدما وقعت انتهى كل شيء، لذلك العوام يقولون ألف قلبة ولا غلبة، هؤلاء العوام الشياطين، أما المؤمنون ألف غلبة ولا قلبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (02-49) : شرح الآيات 1-2 ، شعائر الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-08-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الأنعام غير مكلفة ومذللة ومسخرة للإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من دروس سورة المائدة الآية الأولى التي شرح بعضها في الدرس السابق بتوفيق الله عز وجل هي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

فالله سبحانه وتعالى الذي عقد لنا عقوداً وأمرنا أن نطبقها، والعقود كما تحدثت في درس سابق واسعة جداً منها عقود إيمانك بالله، وعقود طاعتك له، وعقود الأحكام الشرعية، هذه العقود ينبغي أن نفي بها، وذكرت لكم تفاصيل دقيقة حول هذه الآية، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحل لنا وهو الذي يحرم علينا، هو الخبير، هو الخبير بما يسعدنا والخبير بما يسلمنا من أخطار تتأتى من مخالفة تعليمات الصانع:

(بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ)

الإبل والبقر والغنم والماعز، هذه الأنعام أحلت لنا، لكن فضلاً عن أنها أحلت لنا هي مذللة. لو أحل لك لحم الضبع مثلاً غير مذلل، لكن في أصل تركيب هذه الأنعام أنها مذللة، وهناك حالات استثنائية قد تمرض بعض هذه الأنعام فتجن كما هو جنون البقر.

حدثني أخ كريم أن بقرة عند صديق له أصابها الجنون فقتلت رجلين وكادت تقتل الثالث أطلق عليها النار وأنهى حياتها، إذاً حينما ترى بقرة مذللة، حينما ترى غنمة مذللة، شاة مذللة، بعيراً مذللاً، قد لا ننتبه أن التذليل نعمة أخرى غير أن الله سخرها لنا، سخرها لنا وذللها لنا، أما العقرب صغير غير مذلل، لدغته قاتلة، والأفعى صغيرة غير مذللة لكن لدغتها قاتلة، إذاً هذا التناسب بين الحِل وبين التذليل:

(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ)

أي الأنعام ليست مكلفة، هذه الأمور مبهمة عليها ونحن لا نفقه مرادها لكن نرى أنها تأكل الحشيش نطعمها الحشيش، الأمور مبهمة عليها، لأنها غير مكلفة، لم يعطها الله قوة إدراكية، أما الإنسان مكلف بحمل الأمانة، مكلف أن يعرف الله عز وجل، أعطاه الله قوة إدراكية، بينما الأنعام ليست مكلفة، إنما

اختارت ألا تقع في معصية وأن تملأ حياتها هذه الشهوات التي أودعت بها، فالأنعام غير مكلفة ومذللة ومسخرة للإنسان، ولحمها حلال لأن لحمها متوافق مع حاجة الإنسان.

الله عز وجل حرم علينا الدم والميتة ولحم الخنزير وما كان في حكم الميتة :

قال تعالى:

(إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الله عز وجل حرم علينا الدم والميتة ولحم الخنزير وما كان في حكم الميتة، المتردية والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع، فهذا الذي تلاه الله علينا محرم:

(أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

لكن الإنسان إذا كان محرماً، هذا المكان مكان مقدس هو بيت المنعم، لذلك إما أن تكون مع المنعم وإما أن تكون مع النعم، منعت منك بعض النعم لتكون مع المنعم، فمحرم عليك وأنت محرم أن تلبس مخيطاً، أن أو تقص شعرك، أو أن تتعطر، ومحرم عليك أن تصطاد فكل من في الحرم يجب أن يكون آمناً:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

نحن عبيد لله عز وجل، والله عز وجل هو الخالق، وهو الآمر وهو الناهي، والأمر بيده، وهو الذي يعلم، وهو الذي يحكم:

(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)

شعائر الله ما يدل على الله بالمعنى الواسع :

أيها الأخوة، لكن الوقفة المتأنية التي ينبغي أن نقفها هي وقفة مع الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

شعائر الله ما يدل على الله بالمعنى الواسع، مثلاً هذا الوطن له علم فهذا العلم من شعائر الوطن، له نسر هذا النسر من شعائر الوطن، له اسم، له عاصمة، له نظام هذه كلها من علامات هذا الوطن، للتقريب؛ الدين، القرآن من شعائر الله، الصلاة من شعائر الله، الصيام من شعائر الله، الحج من شعائر الله، كل شيء يدل على هذا الدين العظيم، وعلى خالقنا العظيم هو من شعائر الله، فتعظيم شعائر الله من

تقوى القلوب، والاستخفاف بشعائر الله من أكبر العيوب في إيمان المؤمنين، لذلك ومن يعظم الله يعظم شعائره، ومن يستخف بشعائر الله ففي إيمانه خلل خطير.

كل شيء يدل على أن هذا الإنسان مسلم هو من شعائر الله :

قال تعالى:

(لَا تُحِلُّوا)

لا تستخفوا، هناك شيء يستخف به، هناك شيء يعظم، كلما عرفت من هو الآمر تعظم أمره، وكلما ضعفت معرفتك بالآمر تستخف بأمره، فتعظيم الأمر وعدم تعظيمه يتأتى من تعظيم الآمر أو عدم تعظيمه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا)

إذاً الكلمة الأولى تعني كل شيء يدل على الله هو من شعائر الله، المصحف من شعائر الله، بيت الله الحرام من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، الآذان من شعائر الله، والله أنا دائماً والفضل لله لو كنت في درس وشرع المؤذن في الآذان أسكت إلى أن ينتهي الآذان تعظيماً لهذه الشعيرة، فالآذان من شعائر الله، والصلاة من شعائر الله، الصيام من شعائر الله، الحج من شعائر الله، النطق بالشهادتين من شعائر الله، المسجد من شعائر الله، القرآن من شعائر الله، كل شيء يدل على أن هذا الإنسان مسلم هو من شعائر الله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا)

لا تحلوا بمعنى لا تستهينوا، لا تستخفوا، لا تهملوا:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

بدليل الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[سورة الحج:32]

المعنى الواسع والمعنى الضيق لشعائر الله :

لكن الذي اشتهر أن الشعائر تعني مناسك الحج، الإحرام أن تحرم، أن تخلع المخيط وأن ترتدي ثوباً غير مخيط وغير محيط، وأن تمتنع عن التطيب، أن تمتنع عن قص الشعر، أن تمتنع عن قص الأظافر، أن تأتي بيت الله الحرام، أن تطوف حول البيت، أن تسعى بين الصفا والمروة، أن تقف في

عرفات، أن تقف عند المشعر الحرام، أن تجلس في منى أياماً ثلاثة، أن ترمي الجمار، هذه كلها من شعائر الله، فشعائر الله لها معنىً واسعاً؛ أن كل شيء يدل على الله هو من شعائر الله، ولها معنىً ضيقاً؛ هي مناسك الحج:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

لا تستخفوا بهذه الشعائر، بل وأنت في هذه الشعائر ينبغي أن تكون لك مشاعر، فلا معنى لأداء الشعائر إن لم تكن لك فيها مشاعر، فالوقوف في عرفة هو مناجاة، والطواف حول الكعبة هناك شعور خاص بها، والسعي بين الصفا والمروة.

بالمناسبة أيها الأخوة، حكمة الحج أن كل المسلمين على اختلاف مراتبهم وأعراقهم وأنسابهم ومراتبهم الاجتماعية، أو مراتبهم المالية، أو مراتبهم الإدارية كلهم من دون استثناء يجب أن يخلعوا ثيابهم لأن ثيابهم تشير بشكل أو بآخر إلى مرتبتهم، أو إلى غناهم، أو إلى مكانتهم، فليس في الحرم دنيا، الناس سواسية كأسنان المشط، وليس هناك طواف خاص بالسلك الدبلوماسي، وطواف خاص مع عامة المسلمين، لا، ولا في مسعى للمهمات ومسعى لبقية المسلمين، لو جاء ملك يجب أن يطوف مع المسلمين، وأن يسعى مع المسلمين، في هذه الشعائر تتوحد المشاعر، وتزال كل الفروق بين الطبقات، لا فرق بين أمير وخفير، ولا بين قوي وضعيف، ولا بين رجل من أدنى سلم اجتماعي ورجل في أعلى سلم اجتماعي.

الحج صلح مع الله وصلح مع الناس جميعاً وصلح مع كل مخلوقات الله عز وجل :

أيها الأخوة، هذا البيت الحرام ومعه الحرم ما يحيط بالبيت هذا مكان مقدس بمعنى أن الله اتخذه بيتاً له، فالله عز وجل خلق العباد كلها سواسية كأسنان المشط لا يقبل تمايزاً في بيته، شيء آخر، أرادك أن تبتعد عن النعم لتقترب من المنعم، لو أنك غارق في النعم ابتعدت عن المنعم، الشيء الثاني.

الشيء الثالث، أرادك أن تكون مع كل الخلق على صلة واحدة، أنت في بلدك هناك جندي غر، وهناك لواء لا يستطيع أن يصل إليه، هناك حواجز، أرادك في بيته الحرام أن تكون أنت وبقية الخلق سواء، بل أرادك أن تصطلح مع كل المخلوقات، لا تستطيع في الحرم أن تصيد شيئاً الصيد محرم في الحرم، إما محرم وأنت محرم، أو محرم في أرض الحرم، أي أرض الحرم أوسع، أي إنسان محرماً كان أو غير محرم مُحَرم عليه أن يصيد في الحرم، إذاً أنت اصطلحت مع حيوانات الحرم، لا صيد، واصطلحت مع نباتات الحرم لا يمكن أن تقطع نباتاً، بل اصطلحت مع أحجار الحرم أرادك الله أن تقبل الحجر الأسود وقد قيل الحيوان في خدمة الإنسان، والنبات في خدمة الحيوان، والجماد في خدمة

النبات، فأقل شيء بعيد عن خدمتك هو الحجر أرادك أن تقبله مرةً وأن ترجمه مرةً، في رمي الجمار ترجم حجراً، وحول المسعى تقبل حجراً، إذاً ليست القدسية في الحجر ولكن لرب الحجر، أمرك أن تقبل هنا وأن ترجم هنا، إذاً الحج صلح مع الله، وصلح مع الناس جميعاً، وصلح مع كل مخلوقات الله عز وجل من جماد إلى بنات إلى حيوان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ)

لا تستخفوا بها، وعلامة إيمان المؤمن أن أمر الله عنده كبير، وأن المؤمن يغضب لله ويرضى لله، ويعطي لله ويمنع لله:

(وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

الحكمة من تحريم القتال في الأشهر الحرم :

خالق البشر أعلم بطبيعة النفوس، الإنسان حينما يدخل في حرب مع إنسان آخر يفور الدم بينهما ولا أحد مستعد أن يوقف القتال، وقد يدمر الاثنان بعضهما بعضاً، وقد تأتي الحرب على الأخضر واليابس، وقد تفني ملايين، والحرب لا تقف، شاءت حكمة الله أن يجعل في شرعه العظيم ـ لكنه الآن غير مطبق ـ أن يجعل أشهراً حرماً، الأشهر الحرم؛ ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أربعة أشهر، هذه الأشهر القتال مستعر، دخلنا في الشهر الحرام لا قتال، حفاظاً على كرامة الطرفين، الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، أربعة أشهر، فشاءت حكمة الله أن كل قتال دخل في شهر حرام ينبغي أن يقف، وهذا الوقوف لا يخدش كرامة واحد من الطرفين، لا القوي ولا الضعيف، فإذا دخل هذا الشهر أو هذه الأشهر شعر الناس بقيمة السلام، فحافظوا عليه وكأن الله الذي خلق الإنسان وخلق جبلته هو الذي شرع له أن يوقف أي قتال في الأشهر الحرم، لكن العرب في الجاهلية كانوا إذا دخلوا في قتال يغيروا الشهر الحرام حتى يتم النصر، فقال الله عز وجل:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)

[سورة التوبة: 36]

الذي لا يعبأ بهذا الأمر الدقيق يغير في مواقيت هذه الأشهر تبعاً لمصلحتهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

هناك إشارات في القرآن الكريم قلّما ننتبه إليها :

حينما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الحجرات: 9]

أيضاً هذا تشريع، لو أن بلدين مسلمين تقاتلا كما جرى بدلاً من أن يأتي الطرف الآخر فيأكلنا جميعاً، ويأخذ كل ثرواتنا، ينبغي نحن أن نصلح بينهما:

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى)

قاتلنا جميعاً التي تبغي:

(حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ)

أي أن المشكلة يجب أن تحل بين المسلمين لا بين الإسلام والطرف الآخر، هذا تشريع الله عز وجل لكنه غير مطبق، فما أروع الأشهر الحرم يقف القتال، كم حرب أهلية استمرت عشر سنوات، وحرقت كل شيء، حرب أخرى بين بلدين مسلمين استمرت ثماني سنوات، مليونا قتيل، لو طبقوا الأشهر الحرم وقف القتال، ثلاثة أشهر شعر الناس بالسلم، حافظوا عليه، حقنت الدماء لا غالب ولا مغلوب، القوي لا يستطيع أن يتجبر، والضعيف لا يسحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ)

يوجد إشارات في القرآن الكريم قلما ننتبه إليها، حينما ركب ثمانية وثلاثون عالماً كبيراً بعد أن تخرجوا من أكاديميات عسكرية في بلد بعيد ركبوا جميعاً في طائرة واحدة والطائرة أسقطت، ماذا ينبغي أن يفعلوا؟

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ)

[سورة يوسف: 67]

ينبغي أن يأتي كل منهم برحلة، أما حينما تجمعوا برحلة واحدة، صيد ثمين؛ ثمانية وثلاثون عالماً تخصصوا في علوم عسكرية وهم مسلمون، إذاً سولت للطرف الآخر نفسه أن يُسقط هذه الطائرة.

أنواع الهدي :

قضية الأشهر الحرم قضية تشريع رائع، أولاً يحقن الدماء، ويحفظ كرامة المتخاصمين، ويقصر أمد الحرب، الأشهر الحرم:

(لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ)

الهدي جمع هدية، والحاج قد يقدم هدية إلى الله عز وجل هي هذا الكبش الذي يذبحه، فهذا هدي، والهدي أنواع: هناك هدي تمتع، وهدي جزاء، وهدي قران، إذا الإنسان جمع بين العمرة والحج عليه هدي قران هدي شكر، إذا جمع بين العمرة والحج وقد أتاه الله قوة وصحة واستمر محرماً من العمرة إلى الحج فعليه هدي شكر، هذا هدي القران، وإذا تمتع واعتمر أولاً ثم خلع ثياب الإحرام وتمتع كما يتمتع أي إنسان في بلده وفي اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم هذا متمتع عليه هدي جبر، هدي القران هدي شكر، وهدي التمتع هدي جبر، فإذا ارتكب مخالفة في الحج عليه هدي جزاء، وكل هذا الهدي هو هدية إلى الله عز وجل، والهدي جمع هدية، وفي هدي آخر معلَّم؛ أي عليه قلادة أن هذا هدي لبيت الله الحرام، قربة إلى الله عز وجل، قال: هذا الهدي وتلك القلائد لا تستخفوا بها، لا تذبحوها قبل أن تتحللوا من حجكم.

(وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

ولا تمنعوا حجاجاً أرادوا أن يحجوا بيت الله الحرام، لا تمنعوا أناساً أرادوا أن يحجوا بيت الله الحرام تقرباً من الله عز وجل.

الفرق بين رضوان الله وبين فضله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

أخواننا الكرام، كل الخلق ينالهم فضل الله، لكن ما كل الخلق ينالهم رضوان الله، فرق كبير بين رضوان الله وبين فضله، الكافر يتمتع بفضل الله، أليس له قلب ينبض؟ أليس له عينان؟ أليس له جسم يتحرك؟ أليس له عقل يدرك؟ أليس له لسان ينطق؟ أليس أمامه طعام يأكله؟ هذا فضل الله عز وجل، لكن المؤمن وحده يتمتع برضوان الله:

(وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)

قد يذهب هناك تاجر ويبيع الحجاج هذا جاءه نفع في الحج، هذا ابتغى فضل من الله، لكن ما ابتغى رضواناً، أما الحاج المخلص يبتغي من الله فضلاً ورضواناً، إذاً لا تقف حجر عثرة أمام من أراد أن يحج بيت الله الحرام:

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)

إذا انتهى الحج بالتحلل الأصغر أو الأكبر:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

ممنوع أن تدرك وأن تنفعل مع المرأة في الحج إلا إذا أحلّ الله لك :

أخواننا الكرام، قضية دقيقة جداً أنت بإمكانك أن تدرك لو نظرت إلى وردة جميلة، تدرك أنها وردة، فإذا اقتربت منها تنفعل بجمالها، صار هناك إدراك أنها وردة، ثم تأثرت بجمالها، لكن إذا مددت يدك لتقطعها وليست في حديقة دارك هذا عدوان، مسموح لك أن تدرك وأن تنفعل وغير مسموح لك أن تقوم بعمل عدواني، هذا مطبق في جميع الحالات، لك أن تنظر إلى شيء جميل أن تدرك جمال هذا الشيء، ثم أن تنفعل بهذا الجمال، لكن ليس لك أن تعتدي عليه، إلا مع المرأة منعت من المرحلة الأولى لأن المرأة إذا أدركت جمالها وانفعلت به تغيرت كيمياء دمك وصار الطريق مغرياً إلى الوصول إليها، فقال الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور: 30]

فقط مع الطرف الآخر مع المرأة، ممنوع أن تدرك وأن تنفعل إلا إذا أحل الله لك.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[سورة المؤمنين: 5-6]

إذاً مسموح لك أن تدرك، مسموح لك أن تنفعل، ممنوع أن تعتدي، إلا مع المرأة ممنوع أن تدرك، ممنوع أن تنفعل، ممنوع أن تفعل شيئاً لا يرضي الله عز وجل، ما قيمة هذه المقدمة لهذه الآية؟ قال:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ)

يجرمنكم بمعنى يحملنكم، والشنآن البغض الشديد، الإنسان من حقه أن يبغض كافراً، كل واحد منا هناك شخص يكونه وشخص يتمنى أن يكونه كمثله الأعلى، وشخص يكره أن يكونه، إن كنت صادقاً تكره الكاذب، وإن كنت أميناً تكره الخائن، وإن كنت شجاعاً تكره الجبان، وإن كنت كريماً تكره البخيل، وإن كنت مؤمناً تكره الكافر، شيء طبيعي، فالله عز وجل ما منعهم أن يبغضوا.

لا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب في الله ويبغض في الله :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ)

من هم القوم الذين يبغضونهم المؤمنون؟ لا يمكن أن يكون هناك فاعلان لفاعل واحد، النحاة يأتون بمثل طريف هل لك أن تقول: أكلوني البراغيث، صارت البراغيث فاعلاً والواو فاعلاً، يجب أن تقول: أكلتني البراغيث، لا أكلوني البراغيث، فلا يجوز أن يكون هناك فاعلان للفعل، إذاً سمح الله لك أن تبغض بل إن هذا البغض في الله، لا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويعطي لله ويمنع لله، ويصل لله ويقطع لله، سمح الله لك أن تبغض إنساناً خائناً، إنساناً خسيساً، إنساناً قذراً، إنساناً دنيئاً، إنساناً متلاعباً، إنساناً مختالاً متكبراً قاسي القلب بطاشاً، ليس له عهد، طبيعي جداً، لكن أنت منهي عن أن يحملك هذا البغض على أن تعتدي عليه.

سيدنا عمر هناك رجل قتل أخاه زيد بن الخطاب، ثم أسلم قاتل أخيه، قال له: أتحبني؟ قال له: والله لا أحبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي، قال: لا والله، بغضي لك لا يمكن أن يمنع عنك حقك، قال: إذاً إنما يأسف على الحب النساء، هنا:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

أي لا يحملنكم:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

أي لك أن تدرك أن هذا عدو، ولك أن تبغض، لكن ليس لك أن تعتدي، هذه الآية تذكرنا بآية ثانية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

اعدل مع هذا الذي تبغضه فلعل عدلك يقربه إلى الله، ولعل عدلك يقربه إليك فيسلم، أي لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن صلوات، مساجد، كلام، مكتبات، مؤتمرات، لكن ما في استقامة، ما في التزام، والله ما خرج الإسلام من مكة، فلأنه كان إسلام قيم، وإسلام مبادئ وصل إلى أطراف الدنيا.

أمثلة من التاريخ الإسلامي عن المساواة في الإسلام :

عندما أسلم ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم على يدي سيدنا عمر، هذا الملك في أثناء الطواف حول البيت داس بدوي طرف إزاره فانخلع الإزار من كتفيه، فغضب والتفت إلى هذا البدوي وضربه ضربة هشمت أنفه، لم يجد هذا البدوي من يشتكي إليه إلا عمر، فجاء لعمر وشكا ملك الغساسنة، تصور أحدهما في قمة المجتمع ملك والآخر في الدرجة الدنيا من المجتمع لكن هذا هو الإسلام، فاستدعي هذا الملك ـ هناك من صاغها شعراً ـ قال:أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ فقال جبلة: لست ممن ينكر شيئاً، أنا أدبت الفتى، أدركت حقي بيدي، قال: أرضي الفتى لا بد من إرضائه، ما زال ظفرك

عالق بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك. قال: كيف ذاك يا أمير هو سوقة ـ هذا من عامة الناس، ألا يقول لك الشارع العربي، هذا من الشارع ـ هو سوقة وأنا عرش وتاج ـ قمم ـ كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً؟ فقال له: نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها، أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساووا الناس لدينا أحراراً وعبيداً. قال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ـ هكذا ـ أنا مرتد إذا أكرهتني. قال له: عنق المرتد بالسيف تحز، عالم نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

هذا هو الإسلام، سيدنا بلال اشتراه الصديق من سيده قال له: سيده والله لو دفعتَ به درهماً لبعتكه ـ لا قيمة له عندي ـ فقال الصديق عن سيدنا بلال: والله لو طلبت به مئة ألف لأعطيتكها، هذا أخي في الله، وضع يده تحت إبط بلال وقال: هذا أخي في الله، وكان الصحابة الكرام إذا ذكروا الصديق قالوا: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، هذا الإسلام، الإسلام فيه عدل، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

سأل سيدنا عمر: لمن هذه الإبل؟ إبل سمينة، قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: أتوني به، كان غاضباً، فلما رآه غاضباً قال له: ماذا فعلت يا أبتِ هي إبل اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن، فماذا فعلت؟ قال له: ويقول الناس ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين، تعلم لماذا سمنت إبلك؟ لأنك ابني، بع هذه الإبل، وخذ رأس مالك ورد الباقي لبيت مال المسلمين، هذا هو الإسلام.

هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

والله الذي لا إله إلا هو لو طبق هذا الدين، ماذا أقول لكم؟! هؤلاء الطغاة لكانوا تحت أقدامنا والله تحت أقدامنا، الأمر ليس كذلك الآن، لهم علينا ألف سبيل وسبيل، هان أمر الله علينا فهنا على الله.

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

لهم علينا ألف سبيل وسبيل:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)

أما الآية التي أحرص عليها حرصاً شديداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

إن شاء الله في درس قادم نمضي الدرس في هذه الآية التي نحن الآن في أمس الحاجة إليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (03-49) : تفسير الآية 2 ، التعاون على البر والتقوى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-08-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أي أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب وأي نهي يقتضي الترك :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من دروس سورة المائدة ومع قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أيها الأخوة، بادئ ذي بدء إن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، أي أمر يقتضي الوجوب، وأي نهي يقتضي الترك، إلا إذا كان أمر تهديد كقوله تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

فليكفر لام الأمر، هذا أمر تهديد، أو إذا كان أمر إباحة.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

[سورة البقرة: 187]

أو إذا كان أمر ندب.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

[سورة النور: 32]

التناقض بين الطبع و التكليف ثمن الجنة :

إن لم يكن هناك ندب ولا إباحة ولا تهديد فالأمر يقتضي الوجوب، وكيف أن الله أمرك أن تصلي والصلاة فرض، لأن الله أمرك أن تصلي، في قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)

[سورة طه: 14]

كذلك الأمر بالتعاون فرض، أمر يقتضي الوجوب، وتعلمون أيها الأخوة أن في الإنسان طبعاً ومعه تكليف، وبديهي أن الطبع يتناقض مع التكليف، فإذا أمرك الله أن تصلي الصلوات الخمس وأول هذه الصلوات صلاة الفجر ينبغي أن تستيقظ وجسمك يطلب أن تبقى نائماً، فهناك تناقض بين الرغبة في النوم والاستيقاظ لصلاة الفجر، وكما أن الله أمرك أن تغض البصر والنفس تميل إلى إطلاق البصر،

فهناك تناقض بين الطبع وبين التكليف، وهذا التناقض بين الطبع وبين التكليف هو ثمن الجنة، وكيف أن الله أمرك أن تنفق المال والطبع يقتضي أن تأخذه وهذا التناقض بين الطبع وبين التكليف هو ثمن الجنة، وكيف أن الله أمرك أن تتعاون والطبع يقتضي الفردية، أن تؤكد فرديتك، أن تؤكد ذاتك، أن تعيش وحدك ويموت الناس، فالإنسان مكلف أن يتعاون وطبعه فردي، لذلك بقدر طاعتك لله تتعاون، وبقدر معصيتك له تكون فردياً، والمجتمعات الجاهلية مجتمعات فردية، الأنا مسيطرة، والمجتمعات الإسلامية مجتمعات تعاونية، مصلحة المجموع تغلب فردية الفرد.

أول شيء أيها الأخوة أن فعل تعاونوا أمر، وهذا أمر يقتضي الوجوب، وأن التعاون تكليف، يناقضه الطبع الفردي، فأنت حينما تقوم لتصلي وجسمك يميل إلى الراحة، حينما تغض البصر وأنت تميل إلى إطلاق البصر، حينما تغالب النوم وتستيقظ لتصلي هذا هو عند الله ثمن الجنة.

الإنسان مقهور أن يكون مع أخيه :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

أما كلمة (وتعاونوا) فعل أمر من عاونَ، عاون على وزن فاعل، صيغة مشاركة، وفي اللغة العربية صيغ المشاركة من أبرزها وزن فاعل، مثل: قاوم وقاتل ودافع، أي الفاعل يكون تارةً فاعل وتارةً مفعول به، لماذا الأمر بالتعاون؟ لمَ لم يقل: أعينوا؟ أعينوا الفعل من طرف واحد، لكن شاءت حكمة الله أن تتقن شيئاً في حياتك، وقد تتقن شيئين أو ثلاثة، لكن هذا الشيء الذي تتقنه محدود، أنت بحاجة إلى مليون خبرة، تتقن واحدة، أوضح مثل هذا الرغيف الذي تأكله صباحاً، اشتريته من البقال، البقال جاء به من الفرن، الفرن في الليل عجن الطحين، وخمر العجين، ورقق الأرغفة، ووضعها في الفرن، هذا الطحين جيء به من المطحنة، المطحنة أخذت القمح وغسلته، وهيأته، وطحنته، والمطحنة جاءت بالقمح من الفلاحين الذين زرعوه، لو عددت الذين ساهموا في هذا الرغيف الذي تأكله صباحاً، وفي طبق الطعام، هذه المداجن الكثيرة التي تأتي بالفراخ وتربيها، وتعتني بها، تدفئها، تطعمها، تعالجها من أمراضها، أنت بحاجة إلى مليون خبرة وحاجة، تتقن حاجة واحدة، من أجل أن ترتدي ثياباً هناك معامل للقماش، هناك معامل أصبغة لصبغ القماش، هناك معامل لغزل الخيوط، هناك من يحصد القطن، ثوب تلبسه يدخل في إعداده آلاف الأشخاص، من أجل أن تعالج ابنك عند الطبيب، هذا الطبيب درس ثلاثين سنة، علم التشريح، وعلم الفزيولوجيا، وعلم الأمراض، وعلم الأدوية، ثم التدريب العملي، ثم جاء بالدبلوم، ثم ماجستير، ثم دكتوراه، ثم بورد، درس من ثلاثين إلى خمس وثلاثين سنة حتى يستطيع أن

يقول لك: أعطِ ابنك هذا الدواء، فالطبيب أتقن شيئاً، ومعلم ابنك في الرياضيات درس سنوات طويلة حتى أتقن الرياضيات، وعلمه المعادلات والجبر والهندسة وما إلى ذلك، وأستاذ الجغرافيا، وأستاذ التاريخ، وأستاذ الفلسفة، وأستاذ اللغة العربية، ثم الكليات المتنوعة في الجامعة، ثم من أجل أن تنتقل تحتاج إلى مركبة وهذا المعمل للمركبات عمره مئة عام، كل سنة فيه تحسين، فشبكة العلاقات العقل لا يصدقها، ستة آلاف مليون إنسان كل إنسان يتقن شيء ويسهم بشكل أو بآخر في تقديم هذه الحاجة، حينما تشرب كأس من الشاي هل تدري أنه لولا أن البحار تدفع الأجسام إلى الأعلى لما كان هناك سفن، ولا كان هناك ملاحة في البحر، بواخر تحمل آلاف الأطنان من الشاي تنقله من الهند إلى الشرق الأوسط، هذه البواخر الضخمة العملاقة بعضها يحمل مليون طن كيف صنعت؟ من صمموها؟ كيف يقودها؟ كيف خطط لها؟ أنت فكر بكل شيء تستخدمه، أحياناً ترتدي قميص، هذا الزر الذي خيط معه له معامل أنشأته، هذا المقص الذي تقلم به أظافرك معامل صنعته، هذه الشفرة التي تستخدمها أحياناً، هذه الفرشاة التي تصنعها، معامل، أي أنت أمام مليون مِليون مليون حاجة وسمح الله لك أن تتقن حاجة أو أكثر، فأنت مقهور أن تكون مع أخيك، ابنك يحتاج إلى مدرسة، وانتقاله يحتاج إلى مركبة، والمدرسة يحتاج إلى من ينظف هذه المدرسة، وإلى من يعلم، وإلى من يدير المدرسة، وإلى من يراقب، ويحتاج الطفل إلى شيء يأكله في النهار، إذاً هناك من يبيعه الطعام، يحتاج إلى شيء يعينه على استذكار الدروس؛ يحتاج إلى آلة حاسبة فرضاً، أو إلى أجهزة كثيرة.

في الإسلام عبادات جماعية من أجل أن نكون مع المجموع :

إذاً، حينما قال الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا)

أي أن التعاون قدر أولاً، شئت أم أبيت إن لم تتعاون لا تعيش في الحياة، لكن شاءت حكمة الله أن يكون هذا القهر في الاجتماع طريقاً إلى الجنة، أنت من خلال وجودك مع البشر يمكن أن تكون صادقاً كما يمكن أن تكون كاذباً، يمكن أن تكون مخلصاً كما يمكن أن تكون خائناً، يمكن أن تكون متقناً ويمكن أن تكون غير متقن، يمكن أن تفي بوعدك أو لا تفي، يمكن أن تنجز عهدك أو لا تنجزه، فأنت مقهور بوجودك مع البشر، ولا يستطيع واحد في الأرض أن يعيش وحده، لذلك نجد في الإسلام عبادات جماعية، أنت حينما تصلي بالمسجد صلاة الجماعة تفوق صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفاً، والحج جماعي، والصيام جماعي، والصلاة جماعية، وأحاديث كثيرة جداً تأمرك أن تكون مع المجموع.

((عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ))

[رَوَاهُ ابنُ المُبَارَكِ عن محمدِ بن سُوقَةَ]

((فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

أمرك أن تتعاون، والتعاون فعل مشاركة أي تعينه ويعينك، تقدم له خدمة ويقدم لك خدمة، تنصحه وينصحك، تمنحه ويمنحك، تعطيه خبرتك ويعطيك خبرته، أوضح مثل الإنسان يشعر بالاضطراب في صحته فيذهب إلى الطبيب، في هذا الموقف هو أدنى من الطبيب، وقد يذهب إنسان بمنصب رفيع جداً يشكو ألماً في قلبه يقف أمام الطبيب وهو متأدب، لأن الطبيب في هذا الموقف أعلى من المريض، الطبيب نفسه يسمع صوتاً غريباً في مركبته فيذهب إلى الميكانيكي، ويقف بأدب ويسأله ألهذه المشكلة حل أم لا بد من تغيير المحرك؟ في هذا الموقف الطبيب دون الميكانيكي، فأنت في النهار الواحد مئات المرات دون إنسان وفوق إنسان، باختصاصك أنت فوق، بغير اختصاصك أنت تحت، أحياناً تمسك تخطيط قلب أنت عالم كبير ودارس عقيدة وفقه ومواريث وعلم تفسير وعلم حديث وفقه مقارن وتاريخ التشريع الإسلامي وعندك فلسفة عميقة جداً تُعطى تخطيط قلب فلا تفهم منه شيئاً، أُمِّي، أنت أمام هذا التخطيط أُمِّي، والذي معه أعلى شهادة بأمراض القلب أمام آية أُمِّي، يقول لك: ما معنى هذه الآية يا أستاذ؟ حرت في معنى هذه الآية.

القيم التي جاء بها الدين هي الدين نفسه :

كل إنسان باختصاصه أستاذ، بغير اختصاصه طالب علم أو أُمِّي قد يكون، هكذا شاءت حكمة الله أن تكون الحياة متشابكة، لكن وأنت مقهور أن تكون في مجتمع ينبغي أن تكون صادقاً ليكون الصدق سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون متقناً ليكون الإتقان سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون أميناً لتكون الأمانة سبب دخول الجنة، ينبغي أن تكون مخلصاً ليكون الإخلاص سبب دخول الجنة، فهذه القيم التي جاء بها الدين هي الدين.

كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان ـ الآن دققوا ـ وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء.

أنت مقهور أن تكون مع المجموع، شئت أم أبيت، أحببت أم كرهت، فبين أن يكون هذا المجتمع طريقاً إلى الجنة وبين أن يكون هذا المجتمع طريقاً إلى النار، أنت بلقائك مع الناس إما أن يكون هذا اللقاء وهذا التعاون وفق منهج الله سبباً لدخول الجنة وإما أن يكون هذا التعامل مع الناس سبباً لدخول النار،

فهذا الذي يعتدي، يأخذ ما ليس له، يكذب، يدلس، ينافق، يشتم، يوقع الأذى بالآخرين، هذا يمشي في دركات النار، وهذا الذي يصدق، ويؤتمن، ويحسن، وينصح، هذا في طريق الجنة، فالله عز وجل يقول:

(وَتَعَاوَنُوا)

لأنني أردتكم أن تكونوا مجتمعين، الشيء الدقيق أيها الأخوة، أن هذا التعاون ليس بين المؤمنين فقط، المطلق في القرآن على إطلاقه، ممكن تتعاون مع أي إنسان، فالتعاون شيء والود شيء آخر، ودك محبتك للمؤمنين، لكن تعاونك مع كل الخلق.

وجوب معاملة كل الناس بالعدل حتى ولو كانوا غير مسلمين :

قال تعالى:

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)

[سورة التوبة: 7]

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ)

[سورة الممتحنة: 8]

أنت مكلف أن تتعاون مع كل الناس، وعلاقات العمل لا شائبة فيها ما دام العمل منضبط بالمنهج الإلهي، ولا يوجد أي مخالفة شرعية، لك أن تتعامل مع أي إنسان، مع المسلمين ومع غير المسلمين، بل إنك إن تعاملت مع غير المسلمين ولم تكن عادلاً معهم وقعت في إثم كبير، لأن الله عز وجل يقول:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

[سورة المائدة: 8]

مع من؟ مع من تكرهونهم، ولا يحملنكم بغض قوم عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، العدل فوق الجميع، يجب أن تعامل كل الناس بالعدل.

سيدنا عمر له أخ قتله إنسان في الجاهلية ثم أسلم، انتهى، قال له: أتحبني؟ قال له: والله لا أحبك ـ ما في مجاملات هنا ـ قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، لا يمكن أن أمنعك حقك.

الود شيء والتعاون شيء آخر :

المسلم منفتح، المسلم متعاون مع كل الناس، هذا أمر موجه لكل البشر لا للمسلمين فقط:

(وَتَعَاوَنُوا)

أي سكان بلدة فيها عدة أديان فرضاً، المفروض أن يتعاونوا لصلاح هذه البلدة، لتأمين فرص العمل، لتأمين مصالح الناس، تأمين أغذيتهم، مساكنهم هذا مندوب أيضاً:

(وَتَعَاوَنُوا)

الود والحب شيء آخر، الود والحب للمؤمنين، لكن التعاون لجميع الناس:

(وَتَعَاوَنُوا)

الإنسان أحياناً لضيق أفقه، ولجهله بأحكام هذا الدين لا يتعاون إلا مع المؤمنين، طبعاً إذا قادني التعاون مع غير المؤمنين إلى معصية ممنوعة المعصية، أنت تمتنع لا عن التعاون تمتنع عن المعصية فقط، أما لو أن التعاون وفق منهج الله، أي لو أن بلدة بحاجة إلى مشروع وفتح باب للتبرع، ما الذي يمنع أن تسهم مع كل سكان هذه البلدة في إنشاء هذا المشروع الحيوي هذا ضمن الدين؟ والنبي عليه الصلاة والسلام حضر حلف الفضول، وحلف الفضول حلف ليس إسلامياً لكنه حلف يقوم على تحقيق العدل للمجتمع بأكمله، هذه العقلية لو ملكها المسلمون لكانوا في حال غير هذه الحال، أي أن يكون في الحياة مسلم وغير مسلم هذا واقع، وهذا الغير مسلم ما دام في قواسم مشتركة، ما دام هناك وسائل منهجية شرعية ينبغي أن نتعاون.

البر هو الفطرة :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

على ماذا؟ هنا المشكلة، هذا الكلام كله عن التعاون هذا الكلام كله عن معنى التعاون، فعل أمر، وأمر يقتضي الوجوب، والمطلق على إطلاقه والصيغة مشاركة، تعينه ويعينك، لكن على ماذا أتعاون؟ عرف من المتعاون، الأمر موجه إلى المسلم، ومن الذي ينبغي أن تتعاون معه لكل الناس، والفعل مشاركة، لكن على ماذا؟ قال:

(عَلَى الْبِرِّ)

ما هو البر؟ البر بتعريف النبي صلى الله عليه وسلم التعريف الجامع المانع؛ البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس، طبعاً إضافة الماء للحليب لا تكون أمام الشاري، مستحيل، تكون في غرفة سرية، إضافة الماء للحليب تكون بمعزل عن المشتري، إذاً هذا إثم، فأي عمل تفعله تحت ضوء الشمس ولا تخشى أن يلومك أحد عليه، أي فعل تفعله وأنت واثق أن الناس

لن ينالوا منك هو البر، أي الفطرة، لمَ سمى الله المعروف معروفاً؟ لأن الفطرة السليمة تعرفه ابتداءً، ولمَ سمى الله المنكر منكراً؟ لأن الفطرة السليمة تنكره ابتداءً.

أنا لا أنسى ووقت مناسب جداً لسوق هذه القصة، سمعت من صديق لي أن محطة فضائية عرضت مقابلة مع شاب مجرم اغتصب أكثر من خمس عشرة فتاة ثم قتل كل هؤلاء الفتيات، حُكِم عليه بالإعدام، باحثة اجتماعية طلبت من النيابة العامة إجراء حوار مع هذا الشاب، فالذي جرى أنها سألته: أتقرأ وتكتب؟ قال: لا، جاهل، قالت له: أتصلي؟ قال: لا أعرف الصلاة، قالت له: أتعرف الفاتحة؟ قال: لا، قالت: هل شهدت أنه لا إله إلا الله في حياتك مرة؟ قال: ما هي الشهادة؟ قالت: لا إله، قال لها: كلمة كلمة، حتى أتقن لا إله إلا الله أكثر من دقيقتين، سقت هذه التفاصيل لتعلموا أنكم أمام إنسان لا يفقه شيئاً، كتلة جهل، فسألته: لمَ تغتصب هؤلاء الفتيات ثم تذبحهن؟ قال: من لباسهن، قالت له: وإذا رأيت فتاة محجبة؟ قال: والله الذي يتكلم معها كلمة أقتله، أرأيتم إلى هذا الجهل المطبق! هذه الفطرة، أن هذه إنسانة محجبة محترمة لا تثير غرائز الشباب، لا تثير عواطفهم ومشاعرهم، لا تعتدي على أحد، المرأة حينما تظهر مفاتنها تعتدي على من ينظر إليها، تعتدي عليه، تلجئه إلى الانحراف، هذا الشاب الجاهل المجرم المحكوم بالإعدام قال:: السبب من ثيابهن، فأنا خطر في بالي مصطلح جديد اسمه تحرش الفتيات بالشباب عن طريق الثياب فقط، فلما سألته: وهذه التي تراها محجبة؟ قال: من يكلمها كلمة أقتله، هذه فطرة، هذه إنسانة شريفة، هذه طاهرة، هذه امرأة لزوجها، لأولادها، لمحارمها، مفاتنها ليست لكل الناس، هي تعتدي في المجتمع.

التعاون يجب أن يكون على البر وعلى ما ترتاح له الفطر السليمة :

أيها الأخوة، صار معنى التعاون على البر، على ما ترتاح له الفطرة، على ما هو معروف من قبل الفطر السليمة، لو أنَّا أنشأنا بناء بشكل متعاون، ما في مانع، مقبول، لو أنشأنا جمعية خيرية، مقبول، لو أنشأنا جمعية لمكافحة التسول، مقبول، لو أنشأنا مستوصف دار أيتام، دار عجزة، لو أنشأنا مكتب لفرص العمل، جيد، لو أنشأنا مكتب للزواج جيد جداً، لو أنشأنا بناء على طرق السفر لينام فيه المسافرون، جيد، أي شيء تقبله الفطر السليمة وترتاح له النفس يجب أن نتعاون عليه، أرأيتم إلى هذا الشمول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

البر ما اطمأنت إليه النفس، ترتاح، في مشاريع رائعة، كل واحد منا فرضاً يكون في وليمة يشعر أن هذه الوليمة دفع ثمنها مبلغاً كبيراً جداً، وأن هذا الطعام لم يؤكل خمسه، فإذا أنشأت جمعية لجمع هذا

الطعام الزائد، وإعادة تصنيعه بإضافة بعض المواد الأساسية، ثم وضعه في علب وتقديمه للفقراء، أليس هذا العمل رائعاً، هل يعترض أحد؟ أبداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

أيها الأخوة، البر الأعمال التي ترضاها الفطر السليمة، وتعرفها ابتداءً من دون تعليم، ألف عمل يقوم به إنسان ولا يتكلم أحد كلمة من مئة مليون، عمل طيب، لو أننا أنشأنا مستشفى، وجئنا بأطباء متخصصين لمعالجة الأمراض، جيد، لو فتحنا مدارس، لو نظمنا حياتنا، لو نظمنا أمورنا، لو جعلنا لكل شيء نظام دقيق نمشي عليه كي يعيش الناس براحة وسهولة وبيسر هذا هو المطلوب:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

البر هو صلاح الدنيا أما التقوى فصلاح الآخرة :

لكن الدنيا محدودة، ستون سنة عشت حياة رائعة، بعد ذلك يوجد أبد، قال لك: والتقوى؟ التقوى طاعة الله عز وجل، يجب أن تبذل جهداً كبيراً جداً فضلاً عن صلاح الدنيا بصلاح الآخرة، أن تطلب العلم، أن تعلم العلم، أن تأمر بالمعروف، أن تنهى عن المنكر، أن تقوي ارتباط الإنسان بالله عز وجل، أن تشد همته إلى الله عز وجل هذا مطلوب، فكل إنسان يتعلم القرآن ويعلمه، يتعلم الفقه ويعلمه، يتعلم الحديث ويعلمه، يكون قدوة لغيره، يدعوك إلى الله عز وجل، إلى معرفته، إلى طلب العلم هذا أيضاً مشمول بهذا الأمر:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

أي على صلاح الدنيا:

(وَالتَّقْوَى)

التقوى صلاح الآخرة، أي لعل الأجانب اقتصروا على صلاح الدنيا فقط، مجتمعات فيها تعاون كثير جداً والتعاون عندهم، يربون أبناءهم عليه في سن مبكرة جداً، حتى إنهم إذا أرادوا موظفاً من الشروط التي تلفت النظر أن يصلح للعمل ضمن فريق يتعاون، والبلاد المتخلفة ـ وهذا شيء مؤلم جداً ـ فضلاً عن أنها متخلفة أفرادها لا يتعاونون، يحطمون بعضهم بعضاً، فالتعاون رقي، والتعاون دين، والتعاون خلق، والتعاون حضارة، والتعاون قوة، ألا ترى إلى المسلمين ماذا حل بهم من فرقتهم، ومن عدم تعاونهم؟ ومن أن بأسهم بينهم، ومن أن كل واحد منهم يريد أن يعلو على الآخرين، أرأيت إلى هذه النتائج التي لا ترضي صديقاً ولا عدواً؟

الشياطين يتعاونون على الإثم والعدوان :

قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

وفي آية أخرى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال: 46]

تضعفوا:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

لكن الشياطين يتعاونون:

(عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

يتعاونون على إفساد البشرية، سبعمئة مليون امرأة وطفل يعملون في الدعارة، سبعمئة مليون في العالم يعملون في الدعارة، وقد غرر بهم، هؤلاء يتعاونون على جلب أموال خيالية، وأول تجارة في العالم تجارة المخدرات، أربح تجارة، تحتاج إلى تعاون، إلى مراقبة الطريق، وإلى إخفاء المهربات بشكل ذكي جداً:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

مثلاً إنسان خرج إلى المطار ليسافر ورجله مكسورة، وهي مجبرة، وجاء من يتصل أن هذا المسافر على الطائرة الفلانية بالرحلة الفلانية مهرب مخدرات، فانتبهوا أوقفوه، كسروا الجبصين ما في شيء، فتشوه لا شيء أبداً، اعتذروا منه، ذهب بالرحلة الثانية، بالرحلة الثانية وضع المخدرات، أليس هذا عمل ذكي! عمل ذكي جداً، في تعاون على تهريب المخدرات، على إيقاع الفتيات الغافلات بفخ الدعارة، في تعاون على إيهام الشاري.

الإثم أن تنقطع عن الله عز وجل :

والله أخ قال لي: قبل يومين أناس يلعبون بالقمار على الرصيف، وهو ماشي قطع مسافة جيدة، يأتي إنسان ينبهه أن هذا مسكين أتى من بلاد بعيدة معه قرشين أخذوهم منه، وصف له وصفاً يدمى له القلب، وقابض قبضة، رجع حتى يسأله، اعتبروه شريك بالمقامرة وضربوه وأخذوا منه النقود، تمثيل، والآخرين تمثيل، أنا أتيت بحالات حادة طبعاً، لكن هناك مليون تعاون على الباطل، مليون تعاون على

الإثم، مليون تعاون على العدوان، مليون تعاون على أكل الحقوق، مليون تعاون على تحقيق ربح غير شرعي:

(وَلَا تَعَاوَنُوا)

إله يقول:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم أن تنقطع عن الله عز وجل، يقول لك: أنا لا أؤذي أحد، كلام طيب، إيماني بقلبي أستاذ، لا أؤذي أحد أبداً، فعلاً لطيف ناعم، إذا خلا ارتكب كل المحرمات فيما بينه وبين نفسه، لم يفعل شيئاً، هذا إثم، أي هذا الأمر قطعك عن الله عز وجل، قطعك عن الذي خلقك، قطعك عن سبب التوفيق، أحياناً إنسان لا يؤذي أحداً لا يعتدي لكن هو يقع في الإثم، أي أحياناً أنت مهمتك الوحيدة أن تصلح هذه الأجهزة وتأتي بالمحطات البعيدة، هذا عملي، ماذا تفعل أنت بالمجتمع؟ تهيأ للناس بسهراتهم أن تأتيهم بأبعد المحطات ليغرقوا في الإثم، أليس كذلك؟

((إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب))

[رواه البزار عن حذيفة]

واستجملوا مهنكم، أنا أبيع مثلاً طاولة زهر مربحة مئة بالمئة، لكن أنت تعين الناس على هدر أوقاتهم وإيقاع العداوة بينهم، من لعب النرد فكأنما غمس يده في دم خنزير ولحمه، فقد تبيع شيئاً محرماً، تصلح شيئاً محرماً، تتاجر بشيء محرم، تبيع شيء أنت لا تقبله، دار نشر، في كتب فيها ضلالات، أحدهم قال كلمة هي تبدو مستهجنة جداً: لئن تبيع الخمر أهون من أن تبيع كتاب فيه ضلالات، شارب الخمر يتوب، لكن هذا الذي اعتقد خطأ وسار على خطأ طوال حياته، هذا لا يتوب، أنت تقول: أنا أبيع كتاباً لا علاقة لي، لا، لك علاقة، تبيع كتاباً فيه ضلالات، تبيع كتاباً فيه شبهات، تبيع كتاباً يدعو إلى معصية، تبيع كتاباً يحلل الربا فرضاً، تبيع كتاباً يظهر الدين على أنه سلوك غيبي متخلف لا يتناسب مع العصر، تحت اسم مكتبة هذا لا يصح.

أي عمل ينشأ عنه معصية أو مخالفة هذا العمل له حساب عند الله عز وجل :

قال تعالى:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أحياناً تجمع بعملك شباب وشابات، هل تدري ماذا يحصل بينهم من مخالفات شرعية؟ فالقضية لا ترونها تضيقاً، لا والله ولكن سلامة أيها الأخوة، إذا كان عملك ممكن أن ينتج عنه معصية، قد تقول:

مطعم، أحل عمل المطعم؟ في زوايا إضاءة خافتة، من يأتي إلى هذا المكان؟ يأتي إلى هذا المكان من عنده شبهة، عنده مشكلة، فأنت يجب ألا تكون سبباً لمعصية، لمخالفة شرعية، لإثم، لعدوان:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتق أن تعصي الله:

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

أنا أستميحكم عذراً ذكرت بعض المهن لا على سبيل أنني أعد هذه المهنة محرمة لا، لكن أية مهنة، أية حرفة إذا لابسها حرام فالحرام هو الحرام لا الحرفة، أن تبيع طعام هذا عمل حلال مئة بالمئة، لكن إذا رافق بيع الطعام علاقات لا ترضي الله عز وجل فالذي جمع هؤلاء في مكان عليه مسؤولية، أي عمل ينشأ عنه معصية أو بعد عن الله أو مخالفة هذا العمل له حساب عند الله عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

لكن لا يوجد نظام من دون ـ بالتعبير الفقهي ـ المؤيد القانوني، مثلاً قانون السير، اقرأ قانون السير: من يقود مركبة بلا شهادة تسحب الإجازة منه تسحب المركبة ويدفع مبلغ كذا، من يقف في مكان ممنوع، كل أمر ونهي فيه عقوبة، الله عز وجل قال لك:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

يجب ألا نبني ثرواتنا على فساد أخلاق المجتمع :

إنسان صاحب دار سينما حدثني أحد أقربائه كان طالباً عندي، قال: كل ما كان الفلم فيه إثارة أكثر فيه أرباح أكثر، فكان يتعمد أن يأتي بالأفلام المثيرة جداً، والشباب ينخرطون بهذه الشهوة الحرام، وقد ينحرفون بعد الفلم ما لا يعلمه إلا الله، فجمع ثروة كبيرة جداً، وهو في مقتبل الحياة أصابه مرض خبيث، فقال لقريبه وهو تلميذه، قال له: جمعت أموالاً طائلة حتى أتمتع بخريف عمري فإذا أنا أموت بهذا السن، أيقن أنه ميت، ومات:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لا تبنِ ثروتك على فساد أخلاق المجتمع، لا تبنِ ثروتك على إفقار الناس، لا تبنِ ثروتك على إضلال الناس، لا تبنِ ثروتك على فساد ذات البين، والله هناك أعمال أيها الأخوة لا يعلمها إلا الله تفرق بين الزوجين، تفسد العلاقة بين الأزواج، تفسد العلاقة بين الآباء والأبناء، أعمال كثيرة جداً، مثلاً قد تعمل عملاً يجلب الشباب، من لا يجد معه يسرق، شيء ممتع وليس له فائدة إطلاقاً، ألعاب ما لها فائدة إطلاقاً، ممتعة، فهذا الشاب أنفق المال الذي معه، لم يكفه، أخذ من أمه، بعد ذلك أخذ من أبيه بإلحاح،

بعد ذلك دون أن يعلموا، دخل بالحرام حتى تربح أنت، وعمل غير مجدٍ، اختر حرفة فيها نفع للناس، اختر حرفة تكون حلالاً مئة بالمئة، أنا لست متشدداً بهذا الموضوع ولكنني أضع النقاط على الحروف، الآن هناك حرف لا تعد ولا تحصى، أكثرها يبنى الربح فيها على فساد الأخلاق، أو على فساد العلاقات، أو على ضياع الشباب وانحرافهم.

أيها الأخوة، أتمنى على الله عز وجل أن تنقلب هذه الآية إلى سلوك يومي:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والمؤيد القانوني:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

نجد قصصاً كثيرة جداً عن هذا الذي بنى مجده على أنقاض الناس، أو على فساد أخلاقهم، أو على فساد علاقاتهم، أو بنى ثروته على فقرهم، له نهاية عند الله سواء في الدنيا أو في الآخرة، ليس شرطاً في الدنيا لأن الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (04-49) : شرح الآية 3 ، الحكمة من التحريم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة من التحريم في الآية التالية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من دروس سورة المائدة ومع قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أيها الأخوة:

السؤال الأول: من الذي حرم الميتة والدم ولحم الخنزير؟ الله جل جلاله، لما قال: حُرِّمت عليكم، على البناء للمجهول؟ هذا سؤال يقتضي الجواب، ذلك أن المؤمن حينما آمن بالله، وحينما عرفه، يتلقى عنه كل شيء، فهو قانع أن هذا الشيء من عليم، وأنه من خبير، وأنه من رحيم، وأنه من محب، فكأن هناك مشاركة في هذا التحريم، الله عز وجل حرَّم وأنت قبلت، فالقضية ليست قصراً وليست ضغطاً ولكنها قضية مبنية على قناعة، فقال تعالى: حُرمتْ عليكم، لم يقل: حَرَّمتُ عليكم، أنت حينما تتلقى أمراً ممن لا تحب، أو ممن يظلمك، أو ممن يريد أن يأخذ كل ما عندك تشعر بقسوة هذا الأمر، أما عندما تتلقى أمراً ممن تحب، من أحب الناس إليك، وأنت واثق من علمه، ومن حكمته، ومن خبرته، ومن رحمته، ومن محبته، لا تأخذ هذا الأمر على أنه أمر ضاغط لكن على أنه أمر أنت محتاج إليه، وهو ينبع من مصلحتك ويصب في نتائج نجاحك في الدنيا والآخرة، هذا معنى قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ)

الفرق الكبير بين الموت وبين القتل :

قال تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ)

أيها الأخوة، لعلي ضربت مثلاً قبل أشهر أن مصباح الكهرباء ينطفئ لحالتين؛ ينطفئ إذا قطعت عنه الكهرباء، أو إذا كسرته، الحالة الأولى هي الموت، انقطاع الإمداد الإلهي يموت الإنسان، أما إذا كانت العضوية قد اختلت وليست صالحة لاستيعاب هذه الروح تقتل فيموت الإنسان، إما أن يموت حتف أنفه على فراشه، وإما أن يموت بتخريب عضويته بحيث لا تستطيع أن تستقبل إمداد الله عز وجل، فرق كبير بين الموت وبين القتل، القتل عطب يصيب العضوية فلا تستطيع أن تستقبل إمداد الله عز وجل فيموت الإنسان، أما الموت حتف الأنف، الموت على فراش الموت أساسه انقطاع الإمداد الإلهي، فهذه الدابة الميتة محرم أكلها لأن دمها فيها، والدم هذا السائل الذي ينقل المواد الغذائية والأكسجين ويأخذ نتائج الاحتراق من حموض سامة كحمض البول ومن مواد سامة ومن ثاني أكسيد الكربون هو يأخذ الغذاء والأكسجين ويعود بثاني أكسيد الكربون ونواتج الاحتراق، ولاسيما حمض البول، فما من سائل في جسم الإنسان هو بؤرة لنمو الجراثيم كالدم، كل عوامل المرض في الدم، وكل المواد السامة في الدم، وكل المواد التي تؤذي في الدم، وفيه المواد النافعة، وفيه الأكسجين.

لكن الدم في الجسم يصفى بأجهزة ثلاثة بالغة التعقيد؛ يصفى عن طريق الرئتين، فالرئتان تعطيان الدم الأكسجين، والدم يطرح في الرئتين غاز الفحم، فالشهيق أخذ الأكسجين والزفير طرح غاز الفحم، فالدم يصفى من السموم الغازية عن طريق الرئتين، ثم إن الدم يمر على الكليتين في اليوم خمس مرات، ويمشي في طريق طوله مئة كيلو متر في الكليتين كي يأخذ منه حمض البول، فالإنسان يطرح في بوله المواد السامة المؤذية، فهذا الدم مادام في الجسم فهو طاهر لأنه يصفى، أما إذا سفح فهو بؤرة فيها من الجراثيم والمواد السامة وحمض البول الشيء الكثير، لذلك لا يصح أكل الدابة إلا إذا زكيت، زكيت بمعنى خرج منها دمها كلياً.

الحكمة من إبقاء رأس الدابة متصلاً بجسمها بعد ذبحها :

حدثتكم من قبل وهذه الآية مناسبة لإعادة هذا الموضوع وهو: أن النبي عليه الصلاة والسلام نهانا أن نقطع رأس الدابة في أثناء ذبحها، أمرنا أن نبقي رأسها متصلاً بجسمها وأن نقطع أوداجها فقط، لا في حياة النبي ولا في أي مركز علمي في الأرض في عصر النبي ولا بعد مئة عام ولا بعد خمسمئة عام ولا بعد ألف عام ولا بعد ألف وثلاثمئة عام ولا بعد ألف وأربعمئة عام في العالم من بحوث علمية يمكن أن تكشف حكمة هذا التوجيه النبوي، والشيء القطعي الثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، لا ينطق لا عن تجربة، ولا عن ثقافة، ولا عن خبرة، ولا عن معطيات بيئة، إنما ينطق من وحي السماء، الآن اكتشف أن مهمة القلب ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم، هذا الضخ يعتمد على

نبض، وهذا النبض يتلقى أمر من القلب نفسه، لأن القلب أخطر أعضاء الجسم لا يمكن ربطه بالشبكة العامة الكهربائية، لا بد من مولد ذاتي، ففي قلب الإنسان مولد كهربائي أساسي، فإذا تعطل هناك مولد احتياطي آخر، فإذا تعطل هناك مولد احتياطي ثالث، ثلاث مولدات كهرباء في القلب تمد القلب بالنبض النظامي ثمانين نبضة في الدقيقة، أما الإنسان حينما يواجه جهداً طارئاً، أو يتبعه عدو مخيف، لا بد من بذل جهد عضلي عالٍ جداً؛ النبض النظامي لا يكفي لإمداد العضلات بالدم فلا بد من أن يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، بالمناسبة القلب ينبض من ستين إلى ثمانين نبضة بشكل نظامي، أما إذا واجه الإنسان خطراً قد يرتفع النبض إلى مئة وثمانين نبضة، كيف يرتفع النبض؟ العينان ترى الخطر، ينطبع الخطر كأفعى أو كحيوان أو كعدو أو إنسان يشهر مسدس، ينطبع الخطر على شبكية العين إحساساً ثم ينتقل إلى الدماغ إدراكاً، الدماغ فيه مفهومات؛ لو أن الإنسان رأى أفعى، الأفعى لها ملف في الدماغ، هذا الملف ما الذي أملاه؟ قصص سمعها أو دراسة درسها أو شيء رآه، يتكون من مجموعة الدراسات مفهوم الأفعى، فالدماغ يدرك الخطر يعطي أمراً عن طريق تحت السرير البصري إلى ملكة الغدد، الغدة النخامية، الغدة النخامية ملكة الغدد، ملكة النظام الهرموني تعطي أمراً إلى الكظر فوق الكليتين، الكظر مسؤول عن مواجهة الخطر، يعطي أمراً إلى القلب برفع النبض، وأمراً إلى الرئتين لرفع الوجيب، وأمراً إلى الأوعية المحيطة بتضييق اللمعة، فالخائف يلهث ويرتفع نبض قلبه ويصفر لونه، ويعطي أمراً إلى الكبد بطرح كمية من السكر زائدة ويعطي أمراً إلى الكبد أيضاً لطرح هرمون التجلط هذا كله يتم في ثوان، فالإنسان حينما يدرك الخطر يرتفع نبض قلبه إلى مئة وثمانين ولحكمة بالغة بَالغة بالغة أرادها الله جعل نظام الحيوان مشابهاً لنظام الإنسان، إنك ترى أدق الأجهزة عند القصاب، ترى القلب والكليتين والكبد والطحال، وترى الأوتار والعضلات والعظام، فالدابة إذا قطعت أوداجها فقط وبقي رأسها متصلاً يأتي الأمر الاستثنائي من الدماغ إلى الكظر إلى القلب فيرتفع نبض القلب.

ما مهمة القلب بعد الذبح؟ إفراغ الدم بالنبض النظامي، الدم لا يخرج إلا قسم منه أما بالأمر الاستثنائي يخرج الدم كله من الدابة، فإذا هي وردية اللون طاهرة، وهذا ما يسمى بالتزكية؛ أي إخراج الدم من الدابة، أما الدابة التي تصعق كما في المسالخ الغربية، أو الدابة التي يقطع رأسها وتعلق من أرجلها، هذه الدابة ليست مزكاة لأن معظم الدم يبقى فيها، ويبقى فيها معظم عوامل المرض، والدم فيه مواد سامة، فإذا أكل الإنسان لحماً غير مزكىً انتقلت إليه المواد السامة، وربما ترسبت في مفاصله وفي أجهزته الحساسة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، أمرنا أن نقطع أوداج الدابة دون أن نقطع رأسها.

الدم هو سبب تحريم أكل الدابة :

هذه الميتة لماذا حرم أكلها؟ لأن دمها فيها إذاً ليست مزكاة.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)

الدم هو أصل التحريم، كان العرب في الجاهلية يأخذون دم الدابة ويضعونه في الأمعاء، ثم يأكلون هذه الأمعاء مع الدم، وحينما أعطي البقر الدم المجفف وطحين اللحم جن البقر، وما جنون البقر إلا من جنون البشر. بريطانيا اضطرت إلى إتلاف ثلاثة عشر مليون بقرة إحراقاً، وقيمة هذه الأبقار التي تم إحراقها ثلاثة وثلاثين مليار جنيه إسترليني، ومرض جنون البقر ليس عنا ببعيد، وكل منتجات البقر تؤذي الإنسان أشد الإيذاء، هذا الذي جن. والله عز وجل يقول:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)

لأن دمها فيها، ولأن كل عوامل المرض في الدم، والدم فيها، حدثني صديق ذهب ليشتري صفقةً من اللحوم من بلاد شرق آسيا، فكان لهذه الدواب سعران؛ سعر دمها فيها، وسعر إذا ذبحت على الطريقة الإسلامية، لأن الدم قد يصل وزنه إلى خمسة كيلو غرام.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ)

لأنه الأصل في التحريم، ولحم الخنزير، الآن إذا أرادوا أن يستنبتوا الجراثيم يضعونها في جزر من الدم، ما من وسط مساعد على نمو الجراثيم كالدم؛ السائل الأول الذي يرعى الجراثيم وينميها بأعداد، بسلسلة هندسية وليست حسابية.

علة أي أمر أنه أمر :

لحم الخنزير؛ يمكن أن نتحدث عن لحم الخنزير وعن حكمة التحريم، ولكن لو أنك أردت أن تفهم التحريم بتفسير علمي فقط هذا طريق مسدود، تقول لمن تحاوره: إن في الخنزير دودةً شريطية، يقول لك: عقمناه، تقول له: إن الخنزير يعيش في الأماكن الموبوءة، في القمامة، يقول: لا نحن نربيه في مزارع نظيفة جداً، أما قل له: إن الذي خلقنا والذي أوجد هذا الكون والذي أنزل هذا القرآن والذي شرع لنا حرمه علينا، لذلك أروع جواب سمعته من عالم غربي أسلم، التقى بعالم من بلاد المشرق وجرى حوار طويل حول حرمة لحم الخنزير، فهذا العالم المشرقي أسهب وأفاض في الحديث عن حكمة التحريم، فأجابه العالم الغربي إجابة جامعة مانعة قاطعةً شافيةً قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرَّمه، لأن المحرم هو خالق الأكوان، أنت دون أن تشعر إن دخلت إلى عيادة دكتور وقال لك: دع الملح، لا تفكر لثانية واحدة أن تناقشه، إنك مستسلم لعلمه، وقد يقول لك: بع بيتك الذي في الطابق الرابع

واشتري بيتاً أرضياً، لا تتردد ساعة، تعرض البيت للبيع، أيعقل أن تصدق الطبيب وألا تناقشه وألا تحاوره وألا تصدق الله عز وجل؟!!

فعلة أي أمر أنه أمر، الحقيقة الخنزير له وظائف، أي مجهز بجهاز هضمي بالغ التعقيد يمكن أن يأكل الجيف، وكأن هذا الحيوان سخره الله لتنظيف الفلاة من الجيف ومن الحيوانات الميتة، ولكن الطرف الآخر أعجبه ولم يجد طعاماً أطيب منه.

حدثني أخ درس في بلاد الشرق يحمل دكتوراه وصار عميد كلية الطب، قال لي: هناك بحوث كثيرة جداً عن انتقال طباع الحيوان إلى آكليه، فهناك حيوانات لا تسمح لأحد أن يرى لقاءها مع أنثاها، وهناك حيوانات تمارس هذا اللقاء أمام جمع غفير؛ منها الخنازير، فالذي يأكل هذا اللحم لعله يأخذ من طباع هذا الحيوان، على كل نحن مسلمون، نحن متبعون.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

الخنزير محرم لذاته بينما الشاة الميتة محرمة لعلة الموت :

هناك حقيقة دقيقة جداً وهي: أنك إذا اقتنيت مكيفاً وأنت تحمل دكتوراه في الفيزياء، أو في التبريد، من أرقى جامعات العالم، فإذا ضغطت على الزر وعمل هذا المكيف، وجاءك الهواء البارد، أنت تعلم بدقة بالغة ماذا يجري في هذا المكيف؟ مبدأ الغاز، ومبدأ التبريد، ومبدأ التبديل، ومبدأ الدفع، لكن إذا جاء إنسان لا يقرأ ولا يكتب، أمِّي، ووضعت في غرفته هذا المكيف، وضغط على الزر وجاءه الهواء البارد، ألا ينتفع هذا الذي لا يعلم كما ينتفع الذي يعلم، لذلك قالوا: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، أي أنت بمجرد أن تطيع الله عن فهم عميق أو عن عبادة لله فأنت تقطف ثمار هذا المنهج، السلف الصالح شأن الدين عندهم كبير جداً، فإذا حرم الله شيئاً انتهى، هذا محرم.

قال له: كان يكفيك أن تقول لي: إن الله حرمه، أنا لا أنصح أن تدخل مع الطرف الآخر في مناقشة علمية حول حكمة تحريم لحم الخنزير، كلما جئته بعلة نقضها لك، الخنزير حرمه الله علينا، والله هو العليم، وهو الحكيم، وهو الخبير، مضطر لمثل جزئي ولكن معبر: كنت مرةً عند إنسان لتصليح مركبتي، فوجد قطعة حديدية رماها أرضاً، وقال: لا لزوم لها في هذا المكان، قلت له: أعدها، قلت له: أنا لا أستطيع أن أناقشك فيما تفعل، ولكن لا أصدق أن خمسة آلاف مهندس في هذه الشركة الصانعة أنت أفهم منهم، أعدها إلى مكانها.

غير معقول خالق الأكوان يقول لكم:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

وأنا أناقش! علة أي أمر أنه أمر.

أيها الأخوة، هذه الأشياء الثلاث محرمة؛ الميتة والدم ولحم الخنزير، طبعاً لحم الشاة حلال أكله، أما إذا ماتت محرم أكله، لكن لحم الخنزير سواء أذبح أو لم يذبح، أريق دمه أو لم يرق محرم أكله، يقول العلماء: الخنزير محرم لذاته بينما الشاة الميتة محرمة لعلة الموت، ليست محرمة لذاتها محرمة لغيرها.

ينبغي أن تُذبح الدابة على اسم الله تعالى وأن نقول الله أكبر :

يوجد عندنا تحريم عقدي أو عقائدي قال تعالى:

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

أي دابة ذبحت على شرف فلان؛ باسم اللات والعزة نذبح هذه الدابة، من اللات والعزة هنا؟ ليس التحريم تحريم ضرر لكن تحريم عقدي، بمعنى الآن أنت مشرك أنت حينما تذبح دابة ولم تقل: الله أكبر، معنى الله أكبر أي أن الله سخرها لي وسمح لي أن آكل لحمها لأنني مخلوق مكلف، وهذه الدابة مخلوق مسخر، ولعل ما ينتظرها من عطاء إلهي لأنها سخرت لهذا الإنسان، فأنا حينما آكل دابة وأذبحها أنا أفعل ما أمرني الله به، فأقول: الله أكبر الذي سخرها لي، الله أكبر الذي ذللها لي، الله أكبر الذي سمح لي أن آكلها.

لا تأكلوا مما عليه أما إذا ذبحنا هذه الدابة لزيد أو عبيد أو فلان أو علان أو تعظيماً لهذا هذا تحريم لأنه مبني على شرك.

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

ينبغي أن تُذبح الدابة على اسم الله تعالى، أن تقول: الله أكبر.

(وَالْمُنْخَنِقَةُ)

التي خنقت بقي دمها فيها، إذاً هي تشبه الميتة.

(وَالْمَوْقُوذَةُ)

التي وقذت أي ضربت فكانت على وشك الموت.

(وَالْمُتَرَدِّيَةُ)

التي وقعت من مكان مرتفع.

(وَالنَّطِيحَةُ)

التي نطحت إذاً حرمت أيضاً.

خمسة أنواع من الدواب محرم أكلها :

قال تعالى:

(وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)

أي حيوان مفترس نهش شاةً فبين الموت والحياة، خمسة أنواع من الدواب محرم أكلها؛ المنخنقة دمها فيها، والموقوذة التي ضربت، والمتردية التي وقعت، والنطيحة التي نطحت، وما أكل السبع:

(إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)

كيف؟ للفقهاء رأي دقيق في الموضوع، أنت حينما ترى دابة نطحت وهي على وشك الموت، فإذا ذبحتها وسال الدم منها وتحركت، فهي مزكاة وكأنها ليست نطيحة، أما إذا ذبحتها والدم لم يسل منها ولم تتحرك فهي ميتة، علامة تزكية النطيحة والمتردية والموقوذة وما أكل السبع والمنخنقة أن الدم يسيل منها بغزارة، وأنها تتحرك، فإن لم تتحرك ولم يخرج الدم منها بغزارة فهذه ميتة محرم أكلها، لذلك في بعض المسالخ يخففون عن الدابة ألمها فتصعق بمخدر، عندنا جيء ببعض العلماء ليأخذوا رأيه في هذه الطريقة في الذبح فأجاب الإجابة التالية: إذا صعقت ولم تذبح فماتت محرم أكلها، أما إذا صعقت وذبحت فانهار الدم منها وتحركت معنى ذلك أنها لم تمت، علامة تزكية الدابة المنخنقة أو الموقوذة أو المتردية أو النطيحة أو ما أكل السبع علامة تذكيتها أن ينهمر الدم منها وأن تتحرك، لو تحرك ذيلها أو رجلها أو رأسها فالحركة دليل الحياة، وخروج الدم منهمراً دليل الحياة.

الذبح على النصب والاستقسام بالأزلام :

إذاً:

(وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)

قال بعض العلماء: إلا ما زكيتم لا تنسحب على الميتة والدم ولحم الخنزير، إلا ما زكيتم فقط للمنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع، ولم يذكر الله عز وجل أن هذا الوقت الضرب كان على رأسها أو في بطنها أو في أي مكان آخر، أي مكان إذا ضربت الدابة بدت كأنها ميتة سارعنا إلى ذبحها، فإذا انهمر الدم منها وتحركت فهي دابة مزكاة وكأنها لم توقذ ولم تخنق. والعرب كانوا يضعون الحجارة فوق بعضها بعضاً على شكل هرم ويذبحون الدابة باسم اللات والعزة.

(وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ)

حينما يقدس الناس إلهاً غير الله عز وجل، يعبدونه من دون الله، فالدابة التي ذبحت على نصب تعظيماً لغير الله أيضاً محرم أكلها، لكن هذا التحريم عقائدي، تحريم بالتعبير الدقيق عقدي لا تحريم علمي.

(وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

الاستقسام بالأزلام أي العرب كانوا في جاهليتهم يأتون بسهام أو نبال يكتبون على أحدها أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وعلى الثالث لا شيء، فيأتي هذا الإنسان إن أراد السفر، أو أراد الزواج، أو أي عمل، يأتي إلى الكاهن يعطيه كيساً فيه الأسهم فيسحب، فإن جاء أمرني ربي يسافر، وإن جاء نهاني لا يسافر، وإن جاء بسهم فارغ يعيد القرعة، يعيد السحب، كلام لا معنى له إطلاقاً، نحن عندنا ضوابط، فالإسلام جاء بمنهج، جاء بضوابط، جاء بأمر ونهي، أما أنا أن أفعل لصدفة لا تستند لأي شيء علمي هذا شيء محرم.

(وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

أيضاً كانوا يذبحون ناقة وفي عدد من السهام كبير، يقطعون هذه الناقة إلى ثلاثين جزءاً تقريباً، ففي سهم عليه جزء واحد له اسم معين يأخذ من أصابه هذا السهم قطعة من لحم هذه الناقة، وسهم عليه جزأين له اسم خاص لم أحفظه يأخذ قطعتين، وسهم يأخذ ثلاثة، وسهم أربعة، وسهم خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، ومن يدفع ثمن الناقة لا يأخذ شيء، هذا ظلم، إنسان أخذ معظم الناقة صدفة، والثاني دفع ثمنها ولم يأخذ شيئاً، هذا كان سائداً في الجاهلية.

أمور الدين تناقش في أصولها أما في فروعها فهي أمر ونهي لحكمة أرادها الله عز وجل:

قال الله عز وجل:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ)

إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام شرع لنا القرعة في المباحات لا في التحريم والتحليل، أول خصائص القرعة أنها في المباحات، أي عندك ولدان لهما غرفة، فسرير إلى جانب النافذة وله إطلالة وسرير داخلي فاختصما فالحل القرعة، عندك سفر ولك زوجتان وتنافستا على أن ترافقانك في هذا السفر، كان عليه الصلاة والسلام يستخدم القرعة، القرعة تطيب القلوب لا تحرج أحداً، فهناك أشياء مباحة في عليها تنافس؛ إما تنافس شرف، أو تنافس مصلحة، على كلٍ يمكن أن تستخدم القرعة لحل بعض المشكلات لا لتحليل الحرام أو تحريم الحلال، الشيء الآخر نحن في هذه التحريمات:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

هذا التحريم تَحريم تفصيلي، المحرمات لا تناقش لكن يناقش أصل الدين، أنت إذا آمنت بالله خالقاً، مربياً، مسيراً، موجوداً، واحداً، كاملاً، آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى قال:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ)

انتهى كل شيء، كما لو دخلت على طبيب وقبل أن تأتيه سألت عنه آلاف الأشخاص، تأكدت من علمه، ومن إخلاصه، ومن تدينه، ومن خبرته، ومن مهارته، دخلت إليه لا ينبغي أن تناقشه، عقلك أوصلك إليه، لكن عقلك ينبغي أن يتوقف عن العمل حينما تأتيك التوجيهات منه، فأمور الدين تناقش في أصولها أما في فروعها فهي أمر ونهي لحكمة أرادها الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (05-49) : تفسير الآية 3 ، ديننا ثابت لأنه دين الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-09-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين ليس طرفاً من أطراف أهل الأرض بل من عند الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من دروس سورة المائدة ومع تتمة الآية الثالثة وهي قوله تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ)

تتمة هذه الآية:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

الكلمات في هذه الآية تعني أن هذا الدين هو دين الله في الأرض، قوى كثيرة وبينها خصومات وبينها حروب وتنتصر هذه القوة مرةً وتلك مرةً، ولكن الدين له شأن خاص، هذا الدين هو دين الله عز وجل، فإذا كان الإنسان متمسكاً بدينه فالله معه، وإذا كان معه فمن عليه، أي مستحيل أن يكون الدين طرفاً كأطراف الأرض، هذه فكرة خطيرة جداً، الدين ليس طرفاً من أطراف أهل الأرض، هذا الدين من عند الله عز وجل، فإذا كان الذين يتمسكون به يتمسكون به مخلصين وصادقين ومطبقين لا يمكن أن يهزموا، بدليل قوله تعالى:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

على مستوى المعارك والحروب لا يمكن أن يهزموا.

عدم انتصار المسلمين إما لخلل في عقيدتهم أو لخلل في استقامتهم :

قال تعالى:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

[سورة النور: 55]

أي أن يكون هذا الدين طرفاً من أطراف قوى الأرض يفوز مرةً وينهزم مرةً من غير سبب من المتمسكين به هذا مستحيل، لكن أحياناً لا ينتصر المسلمون؛ إما لخلل في عقيدتهم، أو لخلل في استقامتهم، لخلل في عقيدتهم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

[سورة التوبة: 25]

ولخلل في استقامتهم كيوم أحد إذ لم ينتصر المؤمنون لأنهم عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما لو تصورنا ليس هناك خللاً في العقيدة، ولا خطأ في السلوك، وهؤلاء متمسكون بهذا الدين، فهذا الدين لا يُوازى مع قوى الأرض، خالق الأكوان هو الذي يرعاه ويؤيده وينصره، فإذا كنت مع الله كان الله معك، طبعاً هذا المعنى القتالي.

المعنى العقائدي لا يمكن أن يأتي العلم أو التطور بشيء يناقض ما جاء به القرآن إلى أن ييئس الذين كفروا أن يستطيعوا تقويض دعائم هذا الدين.

على المؤمن أن يطمئن أنه لن يظهر تطور في الأرض ينقض الدين :

الحقيقة أيها الأخوة: شدة الضغط على الدين في هذه الأيام من قِبل العالَم كله لأنه دين الله، لأنه متغلغل في أعماق الإنسان، أعداء الدين الألداء أيقنوا أنه لا سبيل لمواجهة هذا الدين، لذلك غيروا خططهم فجعلوا أبرز خططهم تفجيره من داخله، أي اصطناع اتجاهات منحرفة إن في العقيدة أو في السلوك ودعمها، وعرضها على الناس على أن هذا هو الدين، فأي اتجاه منحرف في الدين، منحرف في العقيدة، أو في السلوك، ترى من يرعاه من أعداء الدين، يرعونه لا حباً بالدين ولكن حباً في تفجيره من داخله، فكلمة:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي هذه معركة مع الدين خاسرة تقريباً، للتقريب: إنسان لا يستطيع بأي شكل أن يواجه دولةً، لا يستطيع، أضعاف مضاعفة، قوى، جيوش، طيران، بحرية، جوية، أجهزة، إنسان واحد لا يتمكن أن يواجه دولة، فكذلك للتقريب: جهة في الأرض مهما علت، مهما عظمت، لا تستطيع أن تواجه دين الله عز وجل إلا بأساليب ملتوية، إلا بتفجيره من داخله، أو باصطناع اتجاهات منحرفة في العقيدة والسلوك وعرضها على الناس على أنها هي الدين، قد ينجح أعداء الدين بمعركة إعلامية فيصورون أهل الدين على أنهم إرهابيون، أو على أنهم مجرمون، أو على أنهم قتلة، وقد يصطنعون مثل هذه المواجهات

اصطناعاً، والحقيقة التاريخ الحديث يكشف خطط جهنمية لأعداء الدين قد لا تصدق، حينما يقول الله عز وجل:

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

فأنت إذا كنت مع الدين، وكنت صادقاً، ومستقيماً، ومخلصاً، يجب أن تتأكد وأن تطمئن إلى أنه لن ـ لن لتأبيد النفي ـ لن يظهر تطور في الأرض ينقض الدين، ذلك لأن الكون خلْق الله عز وجل، ولأن القرآن الكريم كلامه، ولأن العقل مقياس أودعه فينا، ولأن الفطرة جبلة جبلنا عليها، فكل هذه الأطراف من عقل إلى واقع، إلى فطرة، إلى جبلة، إلى كون، هذه من أصل واحد هو الله عز وجل، توافق قوانين الكون مع قوانين القرآن الكريم توافق تام، وتوافق قوانين الفطرة مع قوانين القرآن الكريم توافق تام، وتوافق مبادئ العقل مع مبادئ الكون والقرآن توافق تام، يجب أن تطمئن.

يجب أن ييئس الذين كفروا من إلغاء هذا الدين :

يحضرني في هذه المناسبة أن إنساناً في فرنسا كان رئيس وزارة، وهو من أرقى عائلات باريس، وله سمعة طيبة، ولم يضبط بمخالفة للقوانين، وهو في سن السبعين انتحر، أذكر أنني قرأت حول هذا الخبر أن مئة باحث وصحفي أرادوا تعليل سبب انتحاره فلم يهتدوا، لا اختلاس، ولا فضيحة، ولا أي مشكلة، إنسان متوازن، ذكي، من أرقى العائلات، متوازن جداً لماذا انتحر؟ إلا أن صحفياً واحداً كشف السر، هذا أمضى سبعين عاماً وهو يعتقد أنه لا إله، فلما اكتشف أنه كان مضللاً، وأنه كان غائباً عن الحقيقة سبعين عاماً احتقر نفسه.

لو عاش مسلم مئة سنة مستحيل أن يظهر شيء في الأرض ينقض إسلامه، مستحيل، بالعكس كلما تقدم العلم، وكلما تطورت الأمور أكدت حقائق هذا الدين لأنه دين الله، هذه نعمة أيها الأخوة لا تعدلها نعمة، أنك مطمئن أنه لن يظهر في الأرض تطور علمي أو اكتشاف علمي يرفض ما تعتقده، بينما إذا اعتقدت مذهباً أرضياً، أو اتجاهاً أرضياً، فقد تفاجأ أنك على خطأ ولو أمضيت باعتقاده سنوات وسنوات، هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي معركة رأوها خاسرة، هذا الدين الذي أكرمنا الله به كم مؤامرة دبرت عليه؟ والله آلاف المؤامرات، كم فرق ضالة ظهرت كي تحيده عن مساره الصحيح؟ ظهرت وانقرضت وبقي الدين شامخاً، هذا الدين دين الله، كم إنسان ادعى أنه أتى بقرآن آخر؟ الآن ببعض المواقع المعلوماتية في كلام عن قرآن ليس بكتاب الله عز وجل، يكفي أن تقرأه لا تملك إلا أن تضحك، لا تملك إلا أن تضحك لأن هناك فرقاً كبيراً

بين كلام الله وبين كلام خلقه، أي محاولة حاولها الطرف الآخر لمحو هذا الدين، في بلاد إسلامية في الشمال جاء رجل أراد إلغاء الإسلام كلياً، قام بأشياء تفوق حد الخيال؛ لا آذان، ولا قرآن، ولا مسجد، ولا شيء ينتمي إلى الدين، حتى الحروف غيَّرها، إذا سافرت إلى هذه البلاد تجدها بلاداً مسلمة، وكل ما فعله هذا الذي أراد إلغاء الإسلام لم يجدِ إطلاقاً.

النقطة الدقيقة هذا دين الله، دين الله لا تستطيع جهة في الأرض مهما تكن قويةً أن تلغيه، يجب أن ييأس الذين كفروا من إلغاء هذا الدين.

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

يجب على المؤمن أن يطمئن إلى تحقق وعد الله عز وجل :

الآن أيها الأخوة، هذه المحاولات التي تجري لتغيير مناهج المسلمين، لقمع نشاطاتهم، لتجفيف منابع الخير فيهم، هذه المحاولات لا تنجح لأنه لا يعقل ولا يقبل أن يسمح الله لجهة في الأرض أن تفسد على الله خطته في هداية الخلق مستحيل، الله عز وجل فعال لما يريد، بيده كل شيء، كن فيكون زل فيزول، أيسمح الله لجهة في الأرض قوية بلغت قوتها ما بلغت أن تلغي الدين في الأرض؟ أن تحول بين الناس وبين هدايتهم؟ هل تستطيع جهة أرضية أن تفسد على الله هدايته لخلقه؟ مستحيل، لكن الله لحكمة أرادها يسمح لهؤلاء الأعداء أن يتكلموا فقط، أن يتكلموا، لن ينالكم إلا أذى.

لكنك ينبغي أن تطمئن إلى أن هذا الدين دين الله، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمحوه، سيدنا رسول الله كان مهاجراً من مكة إلى المدينة، وقد أهدر دمه، ووضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وتبعه سراقة، فإذا بأقدام الخيل تغوص في الرمل حتى لامس بطنها الرمل، وعلم سراقة أن هذا الإنسان الذي أمامه والذي أراد قتله ممنوع منه، قال له النبي الكريم ـ وهذه قصة ثابتة في التاريخ ـ قال له: يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟

ما هذا الكلام! إنسان ملاحق، مهدور دمه، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، يقول لسراقة الذي يتبعه: سوف أصل إلى المدينة، وسوف أنشئ دولةً، وسوف أحارب أكبر دولتين في العالم، وسوف أنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ويا سراقة سوف تلبس سواري كسرى.

لولا أنه رسول الله، ويرى أن الكون كله بيد الله، وأن الفعل كله فعل الله، وأنه لا ناصر إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، يقول هذا الكلام؟ يتورط بهذا الكلام؟ لو لم يكن رسول الله لكان متورطاً، ما هذا الكلام؟ وفعلاً وصل إلى المدينة، وأسس دولةً، وفتح البلاد، وفي عهد عمر جاءت

كنوز كسرى، وطلب سراقة، وألبسه بيده سواري كسرى، وقال: بخ بخ، أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، وتحقق وعد الله عز وجل.

أيها الأخوة، يجب أن تطمئن أنك لست مع جهة أرضية تقوى وتضعف لا، أنت مع خالق الأكوان، لست مع جهة أرضية تتقدم وتتأخر، تزيد وتنقص، تقوى وتضعف، تغتني وتفتقر، لا، أنت مع خالق الأرض والسماوات، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟

في الكون جهة واحدة ينبغي أن نخشاها هي الله تعالى :

أخواننا الكرام، المؤمن يتمتع بمعنويات عالية جداً، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران: 139]

في تاريخ المسلمين من أدلة أن هذا الدين دين الله، وأن الناصر هو الله، ما لا يعد ولا يحصى، المسلمون حينما فتحوا الأرض كانوا قلة؛ أربعون ألفاً يواجهون ثلاثمئة ألف وينتصرون عليهم، إذا كنت مع الله كان الله معك، ومهما تصورتم ضعف المسلمين الآن، وضعف قوتهم، وقلة حيلتهم، مهما تصورتم هوان المسلمين على بقية الناس، مثلاً يموت إنسان، وتُتهم جهة أنها أسقطت هذه الطائرة، ديته خمسمئة مليون ليرة سورية سوف تدفع بعد أيام، كل إنسان مات بهذه الطائرة يأخذ خمسمئة مليون، أي أن ديته عشر ملايين دولار، والآلاف المؤلفة الذين قتلوا في حروب، وفي أعمال بلا ثمن، مهما تصورتم ضعف المسلمين، وقلة حيلتهم، وهوانهم على الناس، ومع ذلك الله عز وجل لا يتخلى عنهم، ولكن نحن في محنة مع أنفسنا.

أيها الأخوة، إذا كنت مع الله كان الله معك، إذا كنت مع الله أنت أقوى جهة في الأرض، قال تعالى:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)

بالكون هناك جهة واحدة ينبغي أن تخشاها هي الله، الله وحده ينبغي أن تخشاه، لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه، فكأن الله يطمئن المؤمنين أنتم إذا كنتم معي لا تخافوا من أية جهة، فلا تخشوهم واخشوني إن كنتم مؤمنين.

كلما تقدم العلم جاء بكشوف تبين عظمة هذا القرآن وأنه من عند الواحد الديان :

تصور حلبة مركبات كهربائية وأصحابها يصطرعون، هناك إنسان بيده قطع التيار، مهما احتدم الصدام بحركة من هذا الإنسان يقف التيار الكهربائي، انتهى كل شيء، هذا مثل صارخ، حلبة مواجهة بين سيارات كهربائية في بعض الألعاب، فإذا قطع التيار توقف كل شيء، فالأمر بيد الله عز وجل.

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ)

أي يئسوا من أن ينتصروا على دينكم؛ إما انتصار عقائدي، أو انتصار ميداني، هناك انتصار علمي، أحياناً قد يأتي إنسان بفكرة يروج له بعض الصحف والمجلات، هي تضرب الدين في بعض مبادئه، هذا الشيء الذي ظهر ليكون مأخذاً على الدين يتلاشى وحده، سمعتم قبل سنة أنا سميتها فقاعة إعلامية بموضوع الاستنساخ، أين الاستنساخ الآن؟ ماذا جرى؟ فقاعة وانتهت، لم يظهر حتى الآن شيء يمكن أن يزحزح قناعة المسلمين عن حرف في القرآن الكريم، كلما تقدم العلم جاء بكشوف تبين عظمة هذا القرآن وأنه من عند الواحد الديان، ثم يقول الله عز وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

الإكمال نوعي والإتمام عددي، أكملت لكم دينكم فلا زيادة، وأتممت عليكم نعمتي فلا نقص، لا في الدين زيادة ولا فيه نقص، أو مجموع القضايا التي عالجها الدين تام عدداً، طريقة المعالجة كاملة نوعاً، هذا الدين لا يستدرك على الله فيه شيء، لأن القضية لم تذكر استدركناها على الله.

الآية التالية أصل بأن هذا الدين كماله مطلق :

الإله كماله مطلق:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

اليوم أكملت لكم دينكم فلا نقص، إذاً أي إضافة إلى الدين يعد بدعة، وأي زيادة يعد بدعة، هذا دين الله، لكن هناك من يقول ويتحدث عن التجديد في الدين، كلمة ممكن أن نتداولها ولكن بشرط التجديد، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه هذا هو التجديد، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، أما أن نضيف شيئاً فهذا عمل خطير، أو أن نحذف شيئاً فهذا عمل أخطر، لا زيادة ولا حذف لأنه دين الله، ولأن الله علمه مطلق وخبرته مطلقة، فإذا أضفنا كأننا نتهم الله بأنه أنقص شيئاً في الدين أكملناه نحن، وإذا حذفنا كأننا نتهم الله عز وجل بأنه زاد في الدين شيئاً ينبغي أن نحذفه، فلا زيادة ولا نقصان، ولكن التجديد يعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه. هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة، ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

هذه الآية أيها الأخوة أصل بأن هذا الدين كماله مطلق، ولعلماء العقيدة كلمات لطيفة في هذا الموضوع: الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، والأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل. لا زيادة ولا نقص، الزيادة بدعة والنقص بدعة والبدعة ضلالة والضلالة في النار، البدعة التي هي ضلالة هي البدعة في الدين، أما لو كبرنا الصوت هذا بدعة ولكن لا علاقة لها لا بالعبادات ولا بالعقائد، هذه بدعة في اللغة لا شيء فيها يحكمها الشرع، فإذا كانت مباحة أبيحت، وإذا ابتدعنا شيئاً محرماً ابتدعنا شيئاً واجباً فهي واجب.

البدعة نوعان؛ بدعة في اللغة وبدعة في الدين :

البدعة نوعان بدعة في اللغة وبدعة في الدين، في الدين لا زيادة ولا نقص، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

في الدين يوجد التزام في النص الذي جاء به القرآن، وبشرح هذا النص الذي ورد عن النبي العدنان، فهذا هو مبدأ كبير من مبادئ عقيدة المسلم؛ لا يقبل زيادة ولا نقصان، الزيادة اتهام بالزيادة، والنقصان اتهام بالنقصان، فلا نزيد ولا ننقص.

معنى آخر: الإتمام عددي، أي عدد القضايا التي عالجها الدين تام عدداً والإكمال نوعي طريقة معالجة الدين للموضوعات التي عالجها كاملة نوعاً، فالمعالجة كاملة والعدد تام، فلا زيادة في العدد ولا نقص، ولا معالجة أعمق ولا معالجة أطول المعالجة كاملة والعدد تام:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

هذه الآية أصل في أن هذا الدين لا يضاف عليه شيء ولا يحذف منه شيء، وحينما تضيف أو تحذف إنك تتهم الله وهو الكامل، فالذات الكاملة تتهمها إما بزيادة لا مسوغ لها أو بنقص ضروري أن نستكمله، وهذا بحق الله عز وجل وبحق كماله مستحيل على الله عز وجل.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي)

لكن هناك بدعة في اللغة، يمكن أن نكبر الصوت في المسجد، لم يكن على عهد رسول الله، هذا لا علاقة له بالدين هذا له علاقة بالدنيا، يمكن أن نكيف الجو في المسجد، يمكن أن نحسن الإضاءة في المسجد، يمكن أن نأتي بماء ساخن في الشتاء، وماء بارد في الصيف، هذه بدع لكنها بدع لغوية، وهناك

بدع موقوفة على طريقة استخدامها، فكما أن هذا الجهاز يكبر الصوت كذلك يكبر صوت المغني، فهذا متوقف على نوع استخدام هذا الجهاز.

الضرورات تبيح المحظورات :

إذاً:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً)

لكن الله يعلم أن هناك حالات قد تعتري الإنسان، هذا الإنسان كائن يأكل فإذا منع عنه الأكل لسبب أو لآخر وأشرف على الموت جوعاً له أن يأخذ بالمحظورات، الضرورات تبيح المحظورات:

(فَمَنْ اضْطُرَّ)

المضطر:

(فِي مَخْمَصَةٍ)

أي في حالة جوع شديد، طبعاً علاقة نهاية مع أولها:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ)

بعض بنود الضرورة الشرعية :

قال تعالى:

(فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ)

في حالة جوع شديد يفضي به إلى الموت، الجوع الذي ينتهي بصاحبه إلى الموت:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ)

أي يأكل من لحم الميتة وهو كاره، غير متجانف: غير مائل، المتجانف: المائل، غير مائل إلى أكل هذا اللحم لكنه مضطر:

(فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ)

في حالة جوع شديد:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ)

غير مائل لإثم:

(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لأن الله سبحانه و تعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

هو الذي خلقنا ويعلم حاجتنا إلى الطعام، ففي حالات قد تكون نادرة جداً إنسان ضل الطريق وكاد يموت من الجوع فلم يجد إلا دابة ميتة، هل بإمكانه أن يأكل منها؟ نعم، يأكل عند الضرورة الشرعية التي يخشى بها الموت، أو فقد أحد الأعضاء، أو التعذيب الذي لا يحتمل، أو فقد المال كله، هذه بعض بنود الضرورة الشرعية. في مخمصة وغير مائل، الذي يترك المعاصي ثم تتاح له فيفرح ليس هذا، يأكل وهو متألم أشد الألم:

(غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الله عز وجل يعفو عنه لأن الحياة مقدمة على كل شيء، رأسمال الإنسان حياته، فهذا من دفع الحرج عن المؤمنين، في حالات نادرة جداً في إمكانه أن يأخذ بالذي حرمه الله عليه للضرورة القصوى الشرعية، وكره هذا الشيء.

يوجد شيء آخر: العلماء قالوا الضرورة تقدر بقدرها، إذا كاد يختنق في غصة في حلقه فرأى كأساً من الخمر فشرب منه كمية قليلة جداً دفعت هذه الغصة لا ينبغي أن يشرب كل الكأس، الذي يسمح له أن يمرر هذه الغصة، فالضرورة تقدر بقدرها، والضرورات الشرعية تبيح المحظورات، وهذا الأصل في كتاب الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (06-49) : تفسير الآيتان 4-5 ، السؤال علامة الإيمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-09-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من دروس سورة المائدة ومع الآية الرابعة وهي قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

أيها الأخوة، من صفات المؤمن أنه يسأل لأنه أراد أن يطيع الله، هذا قرار أولي، أراد أن يقبل عليه، وسيلته الطاعة، لذلك الفرق بين المؤمن وبين غير المؤمن، غير المؤمن لا يسأل استغنى عن طاعة الله لأنه كذب بالحسنى.

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل: 6-10]

لماذا استغنى أن يطيع الله؟ لأنه كذب باليوم الآخر، لذلك أيها الأخوة: يكاد يكون الإيمان باليوم الآخر لا يقل أهمية عن الإيمان بالله، لأن أهل الأرض قاطبة إلا فئة شاذة عطلت عقولها لم تؤمن به، لو آمنت أن هناك يوماً آخر، وأنه في هذا اليوم سيحاسب كل إنسان بما عمل، سيكافأ المحسن وسيعاقب المسيء، لا يمكن أن يعصي الإنسان الله عز وجل، فلذلك حيثما ورد في القرآن الكريم من أركان الإيمان بنود وجدت الإيمان بالله واليوم الآخر متلازمين.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

القضية تبدأ من هنا؛ أن إنساناً آمن بالله، آمن أن لهذا الكون إلهاً موجوداً كاملاً، أسماؤه حسنى وصفاته فضلى، وأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، فلا يعقل أن يكون غني وفقير، وقوي وضعيف، وصحيح ومريض، ووسيم ودميم، أن يكونوا سواء، أن تنتهي الحياة الدنيا ولا شيء بعد الدنيا، هذا شيء يتناقض مع كمال الله، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، هذا الكون يدل على إله عظيم، ومن لوازم عظمة الله عز وجل أن يكون هناك يوم تسوى فيه الحسابات، لأن الإنسان آمن بالله واليوم

الآخر، هو يبحث عن الأمر والنهي، تأتي كلمة يسألون، فمن لم يسأل ليس مؤمناً باليوم الآخر، والذي يسأل علامة إيمانه باليوم الآخر أنه يسأل، ما حكم الشرع؟ ماذا يرضي الله؟ وقد قال الله عز وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

من هم أهل الذكر؟ أهل القرآن الكريم، ومن لوازم أهل الذكر، أهل القرآن الكريم أو أهل الفقه، لأنك بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، كون ينطق بعظمة الله، وشرع هو صراط مستقيم يوصلك إلى الله، يسألونك فسؤالك عن هذا الموضوع دليل إيمانك، وعدم سؤالك دليل عدم إيمانك، هذا الذي لا يبالي أأكل حلالاً أم حراماً؟ هل ارتكب معصية أم طاعة؟ أكان عمله يرضي الله أم يغضب الله؟ هذا الذي لا يبالي ليس مؤمناً وقد وصفه الله عز وجل بأنه استغنى عن طاعة الله، بينما المؤمن محتاج أن يطيع الله عز وجل طلباً للسلامة وللسعادة.

المؤمنون حريصون على طاعة الله وسلامتهم من عقاب الله :

يسألونك؛ مادام الله عز وجل يقول:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه آية الدرس الخامس، هؤلاء المؤمنون الحريصون على طاعة الله وسلامتهم من عقاب الله، الطامعون بما عند الله، يسألونك:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

وفي آية ثانية:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

ينبغي أن أوضح لكم أن الدين واسع جداً، وأن الإنسان لو أمضى حياته كلها في طلب العلم يحقق مساحة محدودة في مساحة الدين، لذلك لا بد من تعاون العلماء فيما بينهم، لا يوجد عالم أحاط بكل علوم الدين، ما من عالم إلا وتفوق في جانب وهو بحاجة إلى أخيه العالم الآخر ليستأنس برأيه، فلذلك هناك من يعرف الله معرفة دقيقة وعميقة يمكن أن نسمي هؤلاء علماء بالله تعالى قال:

(فاسْألْ بِهِ خَبيراً)

[سورة الفرقان: 59]

كلمة(يسألونك) وردت في عدد من الآيات الكريمة تزيد عن عشر آيات :

هناك علماء بالقرآن الكريم وبالسنة وبالأحكام الفقهية وبالسيرة وبتاريخ التشريع، أبواب الدين واسعة جداً ولا يستطيع واحد أن يحصلها كلها، لكن كل واحد تفوق في جانب وأخوه تفوق في جانب آخر، فإذا تعاونوا نجحوا وارتقوا عند الله وكبروا في أعين الناس جميعاً، وإذا تنافسوا سقطوا من أعين الله عز وجل وسقطوا من عين الأتباع.

(فاسْألْ بِهِ خَبيراً)

[سورة الفرقان: 59]

إذا القضية متعلقة بالله عز وجل فاسألوا به الخبير، متعلقة بالأحكام الشرعية:

(فاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

لكن يسألونك هذه الآية وردت مثيلاتها في عدد لا بأس به من الآيات الكريمة تزيد عن عشر آيات:

(يَسْألُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

(يَسْألُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ)

[سورة البقرة: 215]

(وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ)

[سورة البقرة: 220]

(وَيَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

(يَسْألُونَكَ عَنِ الْأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

ليس بين المسلم و ربه حجاب أو وسيط :

إلا آية واحدة إن قرأتها يقشعر جلدك:

(وَإذَا سَألَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإنِّي قَرِيبٌ)

[سورة البقرة: 176]

أي أنه ليس بينك وبين الله حجاب ولا وسيط، إذا قال العبد يا رب وهو راكع قال الله له لبيك يا عبدي، وإذا قال العبد يا رب وهو ساجد قال الله له لبيك يا عبيدي، وإذا قال العبد يا رب وهو عاص يقول الله له لبيك ثم لبيك ثم لبيك، أنا أنتظرك.

لو يعلم المعرضون انتظاري لهم وشوقي لترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟!!

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

آية قرآنية! لمن؟ لفرعون.

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

هذا الإنسان قولا له قولاً ليناً، فإذا أخطأ إنسان في المسجد في حكم لا يعرفه أيعقل أن تقيم عليه الدنيا ولا تقعدها؟!!

شروط الدعاء :

هناك فرق بين أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد في الحرب في ساحة المعركة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

لكن في ساحة الدعوة:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

[سورة البقرة: 186]

معنى ذلك أن شروط الدعاء أن تؤمن بالله الإيمان الذي يحملك على طاعته، ومن شروط الدعاء أن تستجيب له بطاعته، والائتمار بأمره والانتهاء عما عنه نهى، ومن شروط الدعاء أن تدعوه حقيقة ومخلصاً، إلا أن إنسانين مستثنيان من شروط الدعاء؛ المظلوم يستجيب الله له لا لأهليته ولكن بحكم اسم العدل، والمضطر يستجيب الله له لا لأهليته ولكن باسم الرحمة، باسم الرحمن.

في المعاملات الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

والسؤال مفتاح العلم، أنت تستطيع أن تستعير عقول الرجال بالسؤال، لا تستطيع في أي مجال آخر غير مجال الدين أن تسأل بلا أجرة، لا تستطيع أن تدخل لعيادة طبيب إلا وفي جيبك مبلغ من المال ليغطي أجور المعالجة، ولا تستطيع الدخول إلى مكتب محامي إلا وفي جيبك أتعاب الدعوة، ولا تستطيع أن تدخل لمحل تجاري إلا ومعك الثمن إلا إذا دخلت لبيوت الله، لك أن تسأل ما شئت ومن دون ثمن لأن العلم مبذول، أنت إذا سألت استعرت عقول الرجال، من علامة المؤمن أنه يسأل ويتحرى ويتأكد ويستوثق لأن دينه غالٍ عليه:

((ابن عمر دينك ديْنك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[ابن عدي عن ابن عمر]

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

أيها الأخوة، عندنا قاعدتان أصوليتان: الأصل في الأشياء الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، ليس هناك دليل على الإباحة بل دليل على التحريم، إذا قلت: هذا محرم، يجب أن تأتي بالدليل، أما أكل التفاح لا يحتاج للدليل، وشرب الماء البارد لا يحتاج لدليل، لأن الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، بالعبادات بالعكس الأصل فيها الحظر، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، أن تخترع صلوات وعبادات وأذكار وتلزم أخوانك بما لم يلزم رسول الله أصحابه هذا ممنوع، الأصل في الأشياء الإباحة ولا يحرم شيء إلا بالدليل، والأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولأن الله عز وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

العبادات الأصل فيها الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل :

طريقة معالجة الدين لقضايا الحياة كاملة لا تعدل ولا تطور، وعدد القضايا التي عالجها الدين تامة تماماً عددياً وكمالاً نوعياً، وأية إضافة على الدين اتهام له بالنقص، وأي حذف من الدين اتهام له بالزيادة، ويوم حذفنا من الدين فرائض كنا آخر الأمم، استبيحت أراضينا، نهبت ثرواتنا، قتل أبنائنا، لما

عطلنا فريضة من مئتي عام وأضفنا على الدين ما ليس فيه اختصمنا، إن أضفت اختصمت وإن حذفت ضعفت، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ....))

[سنن النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

في العبادات لا تشرع عبادة إلا بالدليل وفي المعاملات الأصل في الأشياء الإباحة:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ)

فجاء الجواب عاماً:

(قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ)

الأشياء التي تطيب به نفوسكم، هذا ينقلنا إلى أن العلاقة بين الأمر وبين نتيجته علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين النهي وبين نتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، لأن هذا أمر خالق الأكوان وأمر الخبير، لا يوجد أمر رمزي، كل شيء منعك الله منه يبدد سلامتك وسعادتك، وكل شيء أمرك الله به تطيب به نفسك.

الفقه الحقيقي أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله :

هذا الكلام يقودنا إلى المثل التالي: إنك تمشي في الطريق فإذا بلوحة كتب عليها: حقل ألغام ممنوع التجاوز، لا شك أن معظم الناس يشعرون بامتنان لواضع هذه اللوحة، لا يرون فيها حداً لحريتهم بل يرون فيها ضماناً لسلامتهم، وأنت حينما تعتقد أن كل شيء نهاك الله عنه من أجل سلامتك وسعادتك وآخرتك، وأن كل شيء أمرك الله به هو قوام سلامتك وسعادتك هذا هو الفقه الحقيقي، أن ترى أن الحسن ما شرعه الله والقبيح ما حرمه الله، فماذا أحل لكم؟ قل الطيبات طعام تطيب نفسك به، لكن طعام يمرضك لا يحل لك، كمٌ يمرضك لا يحل لك أن تسرف فيه، هناك نوع يفسد جسمك كلحم الخنزير ينبغي ألا تأكله، وهناك كمٌّ من لحم الضأن يؤذي صحتك فينبغي ألا تسرف، فهناك شيء محرم نوعاً وشيء منهي عنه كماً، فحينما تعتقد أن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع لأنه من عند الخبير، أو لأنه من الجهة الصانعة، أنت دون أن تشعر ودون أن تفكر حينما تقتني آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، بالغة التعقيد، تحترم هذه الورقة التي جاءت معها وتنظر إليها على أنها من عند الصانع ومن الشركة الصانعة من عند الخبير، فتحرص على ترجمتها والتقيد بتفاصيلها، لأنك حريص على

سلامة الآلة، وأنت أعقد آلة في الكون ولك صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم له تعليمات التشغيل والصيانة فينبغي أن تتبع التعليمات.

الكلاب إذا تعلمت لها مكانة وجاء اسمها في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

هذه حالة كانت فائدة من قبل، فكان الكلب المعلم، الكلب يُعلّم، وقد بلغني قبل حين أن تكاليف تعليم الكلب يتجاوز الخمسين ألفاً أحياناً، الكلب المعين متميز، فقد يُعلّم الكلب أن يأتي بالصيد دون أن يأكل منه، فالكلب إذا أرسل هو أو الطائر الصقر ليصطاد وصاحب الكلب سمى وجاء الكلب بهذا الصيد دون أن يأكل منه فهذا صيد حلال تناوله، حتى الكلاب إذا تعلمت لها مكانة! جاء اسمه في القرآن الكريم قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ)

الكلاب أو الصقور أو ما شابه ذلك، لها أنياب تجرح.

(وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ)

أي أن هذا الكلب أصبح خبيراً في هذا الصيد.

(تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

على المؤمن التقيد بكلام الله عز وجل :

أيها الأخوة، أعاد الله عز وجل أنه أحل إلينا الطيبات:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ)

أجاز أكثر العلماء أن ذبائحكم حل لكم، لكن المشكلة أن هؤلاء الذين ذكر اسمهم في القرآن الكريم على أنهم أهل كتاب قد لا تجدهم أحياناً، الإنسان حينما يكفر بالله عز وجل وبكتابه وبنبيه، وينكر وجود الله أصلاً، ولا يتقيد بشيء، هذا ليس من أهل الكتاب، تماماً كما لو أطلعك واحد على أنه مسلم في الهوية وهو ينكر وجود الله عز وجل ولا يصلي ولا يصوم ولا يعبأ بما حرمه الله، هل يعد هذا مسلماً؟ لا والله. لذلك أيها الأخوة، أهل الكتاب الذين آمنوا بسيدنا عيسى، والذين آمنوا بالإنجيل، أما إذا آمن من يكفر

بوجود الله أصلاً، ولا يعبأ بأي منهج أنزله الله، فهذا ليس من أهل الكتاب، هذا تحفظ لا بد منه، يقول لك: أن تتزوج كتابية، الله عز وجل قال:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

هذه ليست محصنة، قد لا تجد في العالم الغربي من مئة ألف فتاة، فتاة عذراء هي ليست محصنة، فلا بد من التقيد بكلام الله عز وجل.

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ)

يوجد ملاحظة: طعام أهل الكتاب حل لنا قطعاً، أما طعام الملحد الذي لا يؤمن بالله أصلاً ولا بمنهجه ثانياً، قد يكون هذا الطعام قد تم صعقه وبقي الدم فيه ولم يزكى، فهناك إشكال في هذا الموضوع، لا أخوض في تفاصيل هذا الموضوع لأن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا وجعلنا نقيم في بلاد المسلمين، لا مشكلة عندنا، لكن هذه المشكلة كبيرة جداً في بلاد الغرب بالنسبة للمسلمين، الأصل أنه حلال ما لم يثبت أنه صعق ولم يذبح ولم يزكّى إطلاقاً، على كل هناك من يفتي بحله ولو كان قد صعق، قضية خلافية لا مجال للخوض في تفاصيلها.

سدّ الذرائع :

من المسلمات طبعاً:

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)

يجوز الزواج منهم، لكن هناك حكم ورد عند بعض العلماء المعاصرين في شيء طيب، الأصل أن الأولاد يتبعون أقوى الأبوين، فإذا كان أقوى الأبوين هي الزوجة وهي ليست مسلمة وفي الأعمّ الأغلب سيكون أولادها تبعاً لها وسينشؤون على دينها، وفي أية لحظة تأخذهم وتمضي ولا تملك من أمرهم شيئاً، فهناك إشكال في تطبيق هذا الحكم على إطلاقه لا بد من التحفظ، هذا في الفقه يسمى لسد الذرائع، تزرع العنب حلال مئة في المئة، لكن إذا غلب على يقينك قطعاً أن هذا العنب مآله إلى الخمارة ليكون خمراً هنا ينشأ حكم طارئ ليس في أصل الحكم، الأصل إباحة، لكن إذا كان العنب في هذه المنطقة لا يورد إلا للخمارات ليغدو خمراً ينشأ حكم استثنائي طارئ سداً للذريعة، لا يجوز أن تزرع العنب ازرع شيء آخر، كذلك إذا غلب على اليقين أنك إذا تزوجت كتابية من العالم الغربي فمآل أولادها إلى الكفر كالإباحية مثلاً، إذا غلب على يقينك هذا فينبغي أن تتمهل وتتوقف وتسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم.

الإحصان وفق منهج الله أما السفاح فخلاف منهج الله :

قال تعالى:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ)

أجورهن المهر، مسافحين هو الزنى، والإحصان هو الزواج، الإحصان وفق منهج الله، والسفاح خلاف منهج الله.

(مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ)

هناك من يقول: صداقة بريئة بين شاب وفتاة، من قال لك: بريئة؟ ليس هناك صداقة بريئة.

(وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

نعيد الآيات:

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

يكفر بالإيمان، من كفر بالإيمان وما ينتج عنه من أمر ونهي حبط عمله وكان عمله سيئاً يستوجب النار، أو لو أن له عملاً في ظاهره جيد ونواياه شركية يفقد العمل قيمته، فالعمل إما أن يفقد قيمته أو صورته، إما أن تكون صورة العمل سيئة أو نية العمل سيئة.

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (07-49) : تفسير الآية 6 ، شروط الصلاة وثمارها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

في الصلاة كل أركان الإسلام وهي عماد الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من دروس سورة المائدة، ومع الآية السادسة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، لا بد من وقفة متأنية عند الصلاة، الذي يعد الوضوء شرطاً لها.

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى أن أركان الإسلام خمسة: صوم وصلاة وحج وزكاة ونطق بالشهادة، النطق بالشهادة مرة واحدة، ينطق بالشهادة مرة واحدة، والحج يسقط عن المريض وعن الفقير، والصيام يسقط عن المسافر والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير.

ما الفريضة المتكررة التي لا تسقط بحال؟ إنها الصلاة، الفرض الأول الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، والصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، وبين المؤمن والكافر ترك الصلاة، وفي الصلاة معنى الصيام، لأن الصائم يدع الطعام والشراب، بينما المصلي يدع الطعام والشراب والكلام والحركة، وفي الصلاة معنى الحج، لأن المصلي يتوجه إلى بيت الله الحرام، وفي الصلاة معنى الزكاة، لأن المصلي يقتطع من وقته وقتاً ليصلي، والوقت أصل في كسب المال، وفي الصلاة نطق بالشهادة، إذاً في الصلاة كل أركان الإسلام، وهي عماد الدين، هي غرة الطاعات، وسيدة القربات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات.

العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة :

أيها الأخوة، يمكن أن يفهم واحد الدين على أنه فكر، هذا فهم قاصر، فقد تجد إنساناً تفكيره إسلامي، تفكيره يقتنع بالدين، وبالفكر الديني، وبالمبادئ الدينية، وبالقيم الدينية، ولكن ما لم يتصل فلا قيمة لهذه

الأفكار التي يعتقدها، وأدق دليل على ذلك أن الإنسان حينما يصاب بمرض جلدي ويقول له الطبيب: شفاؤك الوحيد أن تتعرض لأشعة الشمس، فهذا الإنسان لو اعتقد أن الشمس ساطعة، وأن الشمس مشرقة، وأن الشمس مفيدة، وأن أشعتها مطهرة، ما لم يتعرض لأشعة الشمس فلا قيمة لكل هذه الاعتقادات وتلك الأفكار، صار الآن إسلام فكري، كل المذاهب الوضعية سقطت، ولم يبقَ في الميدان إلا الإسلام، وأصبح الإسلام الآن ورقة رابحة بأيدي جميع الناس.

ذكرت لكم أن أحد العلماء الذي زار بريطانيا وهو مسلم التقى بالجالية الإسلامية وقال لها: أنا أستبعد أن يستطيع المسلمون اللحاق بالعالم الغربي في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني أعتقد أن العالم بأكمله سوف يركع أمام أقدام المسلمين، لأن خلاص العالم بالإسلام، لكن عليهم أن يحسنوا فهم دينهم، وأن يحسنوا تطبيقه، وأن يحسنوا عرضه للناس.

إذاً أن تقتنع أن الإسلام حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ولا تتحرك وفق قناعاتك، أنا الآن أضع يدي على جراح المسلمين، لو التقيت بمليون مسلم، بمئة مليون، بألف مليون، بمليارات المسلمين ما منهم واحد إلا وهو مقتنع أن الإسلام حق، وأنه دين الله، وأنه من عند الله، وأنه كلام الله، وأن النبي معصوم، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ما لم تتحرك وفق قناعاتك فلا قيمة لقناعاتك، ذلك لأن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة.

أيها الأخوة، يمكن أن نتحدث عن الصلاة من زاوية فقهية، وهذا شيء بين أيديكم، بل إن مناهج التربية الإسلامية في التعليم الإعدادي والثانوي تتحدث عن الصلاة، وعن فرضتها، وعن شروطها، وعن واجباتها، وعن سننها، وعن مستحباتها، وعن دخول الوقت، هذا شيء معروف بين أيدي الناس جميعاً.

ولكن أيها الأخوة، هناك إنسان يعلم علم اليقين الأحكام الفقهية المتعلقة بالصلاة، وهناك إنسان آخر يعلم كيف تستطيع أن تتصل بالله، وهناك إنسان ثالث اتصل بالله، تماماً كمن يملك خارطة قصر، ومن يعرف الطريق الموصل إليه، ومن يدخله، فلا أريد في هذا الدرس أن نبقى في الأحكام التي بين أيدي الناس جميعاً، بل نريد أن نرقى بها قليلاً إلى الطريق، أحكام الصلاة كخارطة القصر، نريد أن نصل إلى القصر، ما الطريق؟

الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر :

أيها الأخوة، من الثابت أن المسلم إذا كان متلبساً بمعصية، إذا كان مخالفاً لحكم، إذا كان مقصراً في واجب، إذا كان في كسبه شبهة، إذا كان في إنفاقه شبهة، إذا كان في علاقاته معصية، فإن هذا التقصير، وتلك المخالفات، وهذه المعاصي تحجبه عن الله، فليست العبرة أن أقف منتصب القامة، وأن أفتتح

الصلاة بالتكبير، ثم أن أقرأ قراءة صحيحة، ثم أن أركع مطمئناً، ثم أن أسجد مطمئناً، ثم أن أقعد القعود الأخير، وأن أتلو الكلمات، وأن أؤدي الحركات بالتمام والكمال، على أن الصلاة مجموعة أعمال وأقوال تفتتح بالتكبير وتختتم بالتسليم، وانتهى الأمر، يجب أن نعلم أن هذا الخالق العظيم الذي أمرك أن تصلي في اليوم خمس مرات لا يكون أمره أمراً شكلياً، تقف وتقرأ، وتركع، وتسجد، ثم تسلم، وانتهى الأمر، وأنت لا تجد فرقاً بين مسلم يصلي وإنسان لا يصلي، لكن إن لم يكن الفرق شاسعاً بين الذي يصلي والذي لا يصلي فليست هذه الصلاة التي أمرنا الله بها.

أيها الأخوة الكرام، يعني من تعريفات النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة أنها عماد الدين، والذي رأى خيمة في حياته، الخيمة أيها الأخوة في وسطها عمود لو سحبته لانتهت الخيمة، قيام هذه الخيمة بهذا العمود، قد تجد خيمة دائرية واسعة كبيرة، كل هذه الخيمة لولا هذا العامود لكانت قطعاً من القماش لا تسمى خيمة، فقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي عن عمر رضي الله عنهما]

هذه واحدة، الدين صلاة، وأن الدين اتصال هذا المخلوق الحادث الضعيف الجاهل الفاني بمبدع الكون، أنت لا شيء والله كل شيء، فأنت بالله قوي، وبالله غني، وبالله عالم، فما لم تجد فرقاً صارخاً بين المصلي وغير المصلي فلا يمكن أن تكون الصلاة من دون أن ترى أثرها في السلوك، وفي الأخلاق، وفي المعاملات، لا يمكن أن تكون الصلاة بهذه الطريقة التي يؤديها المصلون بالمستوى الذي أراده الله عز وجل:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي عن عمر رضي الله عنهما]

هل يمكن للمصلي أن يكذب؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يخون؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يحتال؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يأخذ ما ليس له؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يظلم؟ مستحيل، هل يمكن للمصلي أن يخادع؟ مستحيل.

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت: 45]

إن الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر.

الصلاة طهور :

أيها الأخوة، يمكن أن يقوم نظام بالغ الدقة على نظام الردع، لكن الصلاة تعطي النظام الإسلامي طابع الوازع، الإنسان يخاف أن ينقطع عن الله فلا يكذب، ولا يغش، ولا يحقد، ولا يظلم، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، إما نهياً إرادياً، أو نهياً ذاتياً، إما أنك تخشى أن تنقطع عن الله عز وجل فلا تظلم، ولا تفعل شيئاً يقطعك عن الله، وإما أن الكمال الذي حصلته بالصلاة يدفعك إلى أن تكون في أعلى مقام عند الله عز وجل، هذه واحدة.

الآن الصلاة طهور، أريد من هذا الدرس أيها الأخوة أن يكون درسَ تطبيقٍ عملي، الصلاة تطهر قلب المؤمن من الأدران فالمصلي لا يحقد، الصلاة تطهر قلب المصلي من الحقد، تطهر قلب المصلي من الحسد، تطهر قلب المصلي من الغل، تطهر قلب المصلي من كل رذيلة نفسية أو قلبية، لأن الصلاة طهور، فالمصلي عنده براءة أطفال، بريء صافٍ ليس ساذجاً، وليس غبياً، لأن سيدنا عمر يقول: (لست بالخب، ولا الخب يخدعني)، لست من الخبث حيث أخدع، ولا من السذاجة حيث أخدع، (لست بالخب، ولا الخب يخدعني)، فالمصلي بعد أن اتصل بالله عز وجل تراه سليم القلب، طاهر الفؤاد، لا يحقد، ولا يحسد، ولا يحتال، ولا يكذب، ولا يظلم.

أيها الأخوة، هذه ثمار الصلاة، لكنك تجد أناساً كثيرين غارقين في معاصٍ وآثام واعتداءات على حقوق من حولهم، ومع ذلك يصلون، هذا الذي يحير العالم اليوم، العالم الإسلامي يعد ملياراً وثلاثمئة مليون ليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، ما السبب؟ إنهم لا يصلون كما كان الصحابة يصلون، إنهم لم تطهر قلوبهم بالصلاة التي هي في الأصل، كما قال الله عز وجل:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

[سورة العنكبوت: 45]

الصلاة نور :

قال الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي أكبر ما فيها، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصلاة نور))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

ما من سلوك منحرف إلا وتسبقه رؤية غير صحيحة، فالذي يسرق لماذا يسرق؟ لأنه رأى أن السرقة تعطيه مالاً كثيراً بجهد قليل، فظن نفسه أذكى من كل من حوله فسرق، الصلاة نور، تهبك نوراً تمشي به في الناس.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

الصلاة نور، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تركب مركبة في الليل ولها أضواء كاشفة وأن تقع في حفرة، أو أن ترتطم بجدار، أو أن تقع في مشكلة، لأن هذا النور يكشف لك الطريق، وهكذا المؤمن، الصلاة نور، نور يقذف في قلب المؤمن في أثناء الصلاة، لذلك تجد أن هذا القرآن حينما يطبقه المؤمن يهدي المؤمن سبل السلام، لأنه طبق تعليمات الصانع، يهدي القرآن المؤمنين سبل السلام، في سلام مع نفسه، ليس فيه ضيق داخلي، ولا اختلال توازن، ولا شعور بالذنب، ولا عقدة، لأنه مستقيم على أمر الله، ينام خالي البال، لذلك في بعض الفنادق كتب على زاوية السرير: إن تقلبت في الفراش ولم تنم فليست العلة في فرشنا، إنها وثيرة، ولكن العلة في ذنوبك، إنها كثيرة، الإنسان حينما يخرج عن منهج الله يخرج عن فطرته.

الصلاة ميزان فمن وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها :

أكاد أقول لكم: والله اعلم أن الصلاة يمكن أن تكون ميزاناً لاستقامتكم، إن فعلت هذا الفعل هل تستطيع أن تصلي بعده؟ قطعاً لا، تستطيع أن تقف، وأن تقرأ الفاتحة، وأن تركع، وأن تسجد، وأن تسلم، وأن تقول لمن حولك: تقبل الله، ولكن لا تستطيع أن تتصل بالله، فكأن الصلاة ميزان، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها بالضبط، كأن الصلاة ميزان من وفى الاستقامة حقها، استوفى من الصلاة ثمراتها.

إذاً أول بند: هي عماد الدين، ثاني بند: هي طهور، مستحيل أن يكون هناك أمراض في قلب المؤمن وهو يصلي، أما أن يصلي صلاة شكلية عنده من الحقد، والحسد، والبغض، والنكد، والتطاول، والظلم، والاحتيال ما لا يعد ولا يحصى، طهور ونور، المصلي مستنير، يقذف الله في قلبه النور، يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[تفسير ابن كثير]

أرنا، والرؤية تحتاج إلى نور، ما قيمة عينين حادتي البصر في مكان مظلم؟ يستوي في المكان المظلم الأعمى والبصير، الأعمى والبصير يستويان تماماً في مكان مظلم، لكن المؤمن باتصاله بالله يقذف الله في قلبه نوراً، وهذا كلام فيه آيات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

الحق واضح والباطل واضح، الخير واضح والشر واضح، الاستقامة واضحة والانحراف واضح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد: 28]

الصلاة حبور :

النور من ثمرات الصلاة، الصلاة حبور، فيها سعادة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أرِحْنا بها يا بلالُ))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

(ألاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

القلب لا يسعد، ولا يطمئن، ولا يتوازن، ولا يستقر، ولا يأمن إلا بذكر الله:

(ألاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد: 28]

لذلك:

((أرِحْنا بها يا بلالُ))

[رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

أصبحت البنود أربعة.

الصلاة عقل :

الآن الصلاة عقل، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها))

[أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن أبي داود والنسائي]

وهذا الحديث تدعمه آية يقول الله فيها:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

فهذا الذي لا يعلم ما يقول في حكم السكران:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

فينبغي أن تعلم ما تقول في الصلاة، تقول:إياك نعبد وإياك نستعين، تقول:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

[سورة الفاتحة: 1-7]

كأن القرآن كله جمع في الفاتحة، وكأن الفاتحة جمعت في:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

أنت حينما تقرأ الفاتحة وتقرأ آية:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

[سورة الإسراء: 53]

الله أكبر، سبحان ربي العظيم، أنت الآن سألت الله أن يهديك الصراط المستقيم، وجاء الرد الإلهي:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هذا هو الأمر، فإذا ركعت كأنك خضعت لله عز وجل، وإذا سجدت كأنك طلبت العون من الله. لذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لكل سورة حظها من الركوع والسجود، أية سورة تقرأها بعد الفاتحة لها ركوع خاص بها، ولها سجود خاص بها، فالركوع خضوع، والسجود طلب العون من الله عز وجل، الركوع والسجود ترجمة عملية لقولك في الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

إياك نعبد في الركوع سمعاً وطاعة يا رب، وإياك نستعين في السجود. إذاً الصلاة وعي، وإدراك، وعقل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها))

[أخرجه أحمد بإسناد صحيح]

الصلاة ذكر:

الآن: الصلاة ذكر.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أكبر شيء في الصلاة أن تذكر الله، أكبر شيء في الصلاة على الإطلاق أن تذكر الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

لكن بعض العلماء يقول في تفسير قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

إن ذكر الله لك أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته عبدته، لكنه إذا ذكرك وفقك، إذا ذكرك طمأنك، إذا ذكرك أمنك، إذا ذكرك ألهمك الحكمة، إذا ذكرك ألقى في قلبك السكينة، إذا ذكرك أسعدك، إذا ذكرك جعلك ذا هيبة، إذا ذكرك جعلك من الموفقين، إذا ذكرك أجرى على يديك الخير، إذا ذكرك قربك إليه، لذلك في تفسير قوله تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي ذكر الله لعبده في الصلاة أكبر من ذكر العبد لربه، أنت تقوم بواجب، لكن عطاء الله يكون حينما يمنحك من أسباب السعادة والتوفيق ما لا سبيل إلى وصفه.

الصلاة قرب من الله :

إذاً من معاني الصلاة الذكر، ومن معاني الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

القرب من الله.

(أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

[سورة فصلت: 44]

فالإنسان إما أن يكون بعيداً عن الله أو قريباً منه، بالصلاة تقترب من الله، أيها الأخوة كيف أن الإنسان أحياناً يتقرب إلى إنسان يراه عظيماً أحياناً بهدية، هديتك إلى الله في الصلاة أن تكون محسناً لخلقه، هذا معنى إشاري بعيد:

(يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف: 31]

طبعاً المعنى البسيط الواضح الذي يلزم من كلمات هذه الآية أن تكون نظيفاً، وذا هيئة حسنة، ولكن الإنسان أحياناً يتزين بهدية إذا زار عظيماً، فالهدية أيضاً من معاني الزينة حينما تخدم عباد الله، حينما ترحمهم، حينما تنصحهم، حينما تدلهم على الله، حينما تكرمهم، حينما تطعمهم، حينما تواسيهم، حينما تجبر كسرهم، فالله عز وجل ينتظرك في الصلاة ليكرمك جزاء إكرامك لهم، لأن الله شكور.

الصلاة عروج إلى الله عز وجل :

إذاً من معاني الصلاة أيضاً أنها قرب من الله عز وجل، والصلاة أيضاً عروج إلى الله عز وجل، وقد ورد أيضاً في بعض الآثار أن:

((الصلاة معراج المؤمن))

[ورد في الأثر]

تعرج أنت في الصلاة إلى رب الأرض والسماوات، فمن أنها عماد الدين، إلى أنها طهور، إلى أنها نور، إلى أنها حبور، إلى أنها ذكر، إلى أنها قرب، إلى أنها عقل، إلى أنها عروج، إلى أنها مقياس ميزان، إلى أنها الدين كله، الصلاة عماد الدين ولكن يحضرني هنا أيها الأخوة حديث شريف أنا أكرره كثيراً، هو في الحقيقة حديث قدسي فقد روى النبي عن ربه أن الله سبحانه وتعالى يقول:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

فالصلاة تحتاج إلى تعظيم لله عز وجل، والتفكر في خلق السماوات والأرض يجعلك تعظم الله عز وجل.

((أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود، أحب عبادي إلى نقي القلب ونقي الكفين، لا يأتي إلى أحد بسوء، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب! إنك لتعلم أني أحبك، وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال؛ ذكرهم بآلائي، وبلائي، ونعمائي))

[أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة]

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي))

يفكر في خلق السماوات والأرض وهو مستقيم على أمر الله، التفكر والاستقامة.

((ولم يصر على معصيتي))

سريع التوبة، تواب.

أخواننا الكرام، الحديث دقيق جداً:

((ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي))

أي فكر في خلق السماوات والأرض، وتعرف إلى الله عز وجل، وإلى عظمته، وإلى أسمائه الحسنى وصفاته العلى،

((وكف شهواته عن محارمي))

استقام على أمر الله، تفكر في خلق الله، واستقام على أمره.

((ولم يصر على معصيتي))

المؤمن مذنب تواب سريع التوبة.

الأعمال الصالحة تفكرٌ واستقامةٌ وعملٌ صالحٌ وصلاة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

[سورة آل عمران: 135]

هذه ثلاثة، تعرف إلى الله بالتفكر، واستقام على أمره، وبادر إلى التوبة النصوح.

((وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب))

هذه الأعمال الصالحة تفكر، استقامة، عمل صالح، صلاة، أربع نقاط في الدين، كلها مرتكزات، أن تفكر في خلق السماوات والأرض فتعرفه، وأن تستقيم على أمر الله فيكون الطريق سالكاً إليه، وأن تعمل الأعمال الصالحة فتتحرك إليه.

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

العمل حركة، والاستقامة إزالة العقبات.

الشيء الأخير: أن تتصل به فتسعد في الدنيا والآخرة، إذاً:

((وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب وآوى الغريب ـ الإخلاص ـ كل ذلك لي))

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً)

[سورة الإنسان: 9]

((كل ذلك لي))

ثمار الصلاة:

الآن ثمار الصلاة:

((وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلماً))

غضوب صار حليماً، بخيل صار كريماً، محتال صار مستقيماً،

((على أن أجعل الجهالة له حلماً ـ الأخلاق السيئة له حلماً ـ والظلمة نوراً ـ كان في عمى فصار في هداية، كان في ظلماء فصار في مكان منير وضاح،

((على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه))

صار مستجاب الدعوة.

((ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلأه بقربي، وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

ونختم هذا الدرس بآية كريمة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج: 10]

شديد الخوف.

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج: 10]

حريصاً على ما في يديه، خائر القوى إن استمع إلى خبر سيئ.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 19-22]

المصلي معافى من الهلع والحرص، لكن قبل قليل ماذا قلت؟ ليس كل مصلٍّ يصلي:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج: 22]

كل مَن وقف، وكبر، وقرأ الفاتحة، وركع، وسجد يصلي، لكن كلما نضيف صفة تضيق الدائرة.

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج: 22-23]

ضاقت الدائرة.

كلما نضيف صفة تضيق الدائرة :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ)

[سورة المعارج: 24-35]

كي تتضح جلياً إنسان: ستة آلاف مليون، الآن قل: إنسان مسلم: مليار ومئتا مليون، إنسان مسلم عربي: أربعمئة مليون، إنسان مسلم عربي مثقف: مليون، إنسان مسلم عربي مثقف طبيب: مئتا ألف، كلما تضيف صفة تضيق الدائرة.

فهذه الصلاة التي تنجيك من الهم والغم والحزن والقلق والانهيار، وأن تكون منوعاً وجزوعاً، ليس كل مصل يصلي، اقرأ هذه الآية، واقرأ تفصيلاتها، ثم انظر أية صلاة تقطف ثمارها؟ التي ترافقها هذه الخصائص.

أيها الأخوة، في درس قادم إن شاء الله نتناول الوضوء، وتفاصيل أحكام الوضوء، وأحكام الغسل الذي هو شرط أساسي من شروط الصلاة، وقد قال علماء الأصول القاعدة التالية: إنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (08-49) : تفسير الآية 6 ، أحكام الوضوء والتيمم.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2003-10-10

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن بينه وبين الله عقد إيماني :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثامن من دروس سورة المائدة ومع الآية السادسة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، في العالم اليوم ثلاثمئة مليون إنسان مريض بمجموعة أمراض تحت عنوان: أمراض القذارة، العالم الإسلامي يعد تجاه هذا المرض، أو تجاه هذه الأمراض حزاماً أخضر بسبب الوضوء والغسل، ثلاثمئة مليون إنسان مصاب بمجموعة أمراض تحت عنوان: أمراض القذارة، العالم الإسلامي بسبب فرائض الغسل والوضوء والمبالغة في النظافة يعد حزاماً أخضر تجاه هذه الأمراض، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أي مؤمن يستمع إلى هذه الآية أو إلى مثيلاتها ينبغي أن يعلم علم اليقين أنه معني بهذا الخطاب، لأن بينه وبين الله عقداً إيمانياً آمن بالله، آمن بكتابه، آمن بالملائكة، آمن بأنبيائه ورسله، آمن باليوم الآخر، آمن بالقدر بخيره وشره من الله تعالى، إذاً بدأ يتلقى عن الله.

العقل هو أداة معرفة الله من أجل أن نؤمن ثم يأتي دور النقل والتلقي :

العملية أيها الأخوة: تؤمن فتتلقى، تستخدم عقلك وهو أداة معرفة الله من أجل أن تؤمن، فإذا آمنت جاء دور النقل، دور التلقي، فأي آية في القرآن الكريم تبتدئ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

أي يا من آمنت بوجودي، يا من آمنت بوحدانيتي، يا من آمنت بكمالي، يا من آمنت بعلمي، يا من آمنت برحمتي، يا آمنت بحكمتي، يا من آمنت أنك مخلوق للجنة، افعل كذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

علامة إيمان المؤمن أنه إذا قرأ قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يشعر بكل خلية في جسمه، وبكل قطرة في دمه أنه معني بهذا الخطاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

أي إذا أردتم أن تصلُّوا، وهي كقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

الصلاة لقاء مع الله فيجب على الإنسان أن يكون طاهراً ومتجملاً :

إن أردت أن تقرأ القرآن، هذه حالة دقيقة:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

أي إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله، إن أردت أن تصلي فافعل كذا وكذا، لذلك القاعدة الأصولية: "ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض "، الوضوء فرض، لأن الصلاة وهي فرض لا تتم إلا به، وما لا يتم الواجب به فهو واجب، وما لا تتم السنة به فهو سنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

لأن الصلاة لقاء مع الله، فينبغي أن تكون طاهراً، بل ينبغي أن تكون متجملاً، وقد ذكرت في درس سابق أن قوله تعالى من بعض معانيه الإشارية:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)

[سورة الأعراف:31]

فضلاً عن الطهارة والنظافة والتطيب والتجمل ينبغي أن يكون معك عمل صالح تضعه بين يديك في هذا اللقاء مع الله.

ينبغي على الإنسان أن يتوضأ

سواء أكان طاهراً أم محدثاً :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ)

لا بد من بعض التفصيلات، قال فريق من العلماء: هذا لفظ عام في كل قيام إلى الصلاة، هذا أول اتجاه في فهم هذه الآية، أنه ينبغي أن تتوضأ، سواء أكنت طاهراً أم محدثاً:

(إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

هناك أثر آخر، أن ابن سيرين يقول: كان الخلفاء الراشدون يتوضؤون لكل صلاة، وقال بعضهم: الخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون: المراد بالآية الوضوء لكل صلاة طلباً للفضل، أي أفضل شيء أن تتوضأ لكل صلاة، وحملوا هذا الأمر على الندب لا على الوجوب، مندوب أن تتوضأ لكل صلاة، أنا أعطيكم آراء العلماء نحو هذه الآية، وكان كثير من الصحابة الكرام منهم ابن عمر يتوضؤون لكل صلاة طلباً للفضل.

وكان عليه الصلاة والسلام لأنه المشرع يفعل ذلك، إلى أن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد، لأنه مشرع رحمة بأمته، لك أن تأخذ بسنة النبي، ولك أن تتوضأ لكل صلاة من باب زيادة الفضل، ومن باب الندب لا من باب الوجوب.

وقال بعض العلماء: إذا قمتم إلى الصلاة من النوم فيجب أن تتوضؤوا، قولاً واحداً، إذا قمتم إلى الصلاة من النوم، من المضاجع، لكن جمهور العلماء يقول: معنى الآية: إذا قمتم إلى الصلاة محْدَثين لستم على وضوء، وإذا قمتم بمعنى: أردتم الصلاة، كقوله تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)

[سورة النحل: 98]

أي إن أردت أن تقرأ القرآن، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام، وهو المشرع صلى خمس صلوات يوم الفتح بوضوء واحد، هذه هي السنة، إن أردت الفضل على أن الأمر ندب وليس أمراً فلك أن تتوضأ لكل صلاة، إذا كنت في أيام الصيف، وفي مكان جميل، والمياه غزيرة، وأنت في حالة شعور بالحر، وتوضأت وأنت متوضئ فلا مشكلة، أما إذا كنت في أيام البرد، أو في وضع صعب، لك أن تأخذ بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، كان يتوضأ لكل صلاة، وصلى خمس صلوات بوضوء واحد، هذه وتلك.

ذكر الله في الوضوء أربعة أعضاء :

الموضوع الثاني في هذه الآيات:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

ذكر الله في الوضوء أربعة أعضاء، الوجه؛ وفرضه الغسل من شحمة الأذن إلى شحمة الأذن، ومن منبت الشعر إلى الذقن، هذا هو الوجه، والوجه يغسل غسلاً، فلو قلنا لإنسان: اغسل لنا هذا الكأس،

فذهب، ووضعها تحت الصنبور، وجاء بها، هل هذا هو الغسل؟! أما أن يعالجها بيديه أو بشيء آخر مرةً ومرةً وَمرةً حتى تغدو نظيفة، فالنبي عليه الصلاة والسلام فهم من قول الله عز وجل:

(فَاغْسِلُوا)

أن تغسل مرة أولى وثانية وثالثة، أول مرة يصب عليها الماء، والمرة الثانية تدلِك، والمرة الثالثة يصب عليها الماء كي يزول الماء الذي استخدم في دلكِها وغسلها:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ)

ذكر الله تعالى أربعة أعضاء، الوجه؛ وفرضه الغسل، واليدين كذلك، قبل أن تستخدم اليدين لغسل الوجه، لا بد من أن تغسل اليدين، أرأيت إلى الترتيب الذي فهمه النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الماء الذي تتوضأ به هل يجوز أن تتوضأ به، رجل أعلن إسلامه في مصر، والتحق بمسجد ليتعلم الفقه، أبقاه الشيخ الذي يعلمه الفقه ستة أشهر في أحكام المياه فخرج من جلده، وكاد يعود عن هذا الدين، إلى أن التقى بعالم أوتي الحكمة، قال له: الماء الذي تشربه توضأ منه.

اتفق جمهور العلماء على أن الوضوء لا بدّ له من نية :

حينما تمضمض النبي عليه الصلاة والسلام هذه المضمضة فضلاً عن أنها تطهير للفم، الماء الذي لا تستسيغ أن تضعه في فمك إياك أن تتوضأ منه.

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما استنشق الماء الذي يتوضأ به معنى ذلك فضلاً عن تنظيف الأنف، الماء الذي لا تستطيع أن تشم رائحته إياك أن تتوضأ منه، أي أن المضمضة والاستنشاق والاستنثار فضلاً عن تطهير وتنظيف الفم من بقايا الطعام، والأنف من بقايا التنفس، ينبغي أن تعلم أن حكمة المضمضة والاستنشاق أن الماء الذي لا تستطيع أن تضعه في فمك، ولا تستطيع أن تضعه في أنفك إياك أن تتوضأ منه. فذكر الوجه وفرضه الغسل، واليدين كذلك، والرأس وفرضه المسح اتفاقاً:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

واختلف بالرجلين، لم يذكر سوى هذه الأعضاء الأربعة، إذاً هذه فرائض الغسل، وفيما سوى ذلك سنن وآداب ومستحبات.

أيها الأخوة، رأى جمهور العلماء على أن الوضوء لا بد له من نية، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

وفسر بعضهم قوله تعالى:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)

[سورة الإسراء: 84]

أي على نيته، وقيمة عمله من قيمة نيته، فالوضوء يحتاج إلى نية على رأي جمهور العلماء، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

فالنية أصل كل عمل، وكتوضيح؛ لو وضعنا على الطريق ليرة ذهبية، ووقف مصور، فجاء إنسان، والتقط هذه الليرة، ووضعها في جيبه، فصوره المصور صورة متحركة ملونة، ثم وضعنا ليرة ثانية على الرصيف، ووقف مصور، رآها إنسان آخر، التقطها، ووضعها في جيبه، وصوره المصور، عرضنا الصورتين، الصورتان متشابهتان تمام التشابه، إلا أن الأول نوى أن يبحث عن صاحبها، والثاني نوى أن يأكلها، أي أن يأخذها، العمل في صورته مشابه للآخر تماماً، ولكن في حقيقته واحد يعلو، والثاني يسقط:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ]

الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها

بل هو أداة لعبادة كبرى وهي الصلاة :

بعض العلماء قال: الوضوء لا يحتاج إلى نية، لماذا؟ قال: لا تجب النية إلا في الفروض المقصودة لذاتها، الوضوء ليس فرضاً مقصود بذاته، ليس هناك إنسان يتوضأ ويجلس، ويقول: الحمد لله أدينا ما علينا، الوضوء تعقبه صلاة، فالوضوء ليس مقصوداً لذاته، بل مقصود كوسيلة إلى الصلاة. الإمام الشافعي وتابعه في ذلك أبو حنيفة: أن العبادة التي ليست مقصودة لذاتها لا تحتاج إلى نية، النية للعبادة المقصودة لذاتها.

إذاً الوضوء شرط لصحة الصلاة، كملمح لطيف التكبير شرط أو ركن، الركن يؤدى، وتنتقل إلى ركن آخر، الوقوف ركن، والركوع ركن، والسجود ركن، الركن تنتقل به إلى ركن آخر، أما الشرط فيدوم طوال الصلاة، فاستقبال القبلة ينبغي أن يستمر طول الصلاة، والطهارة من الحدث ينبغي أن تستمر طول الصلاة، هل تكبيرة الإحرام ركن أم شرط؟ قال بعضهم: شرط، لأنه ينبغي أن تستحضر عظمة الله طول الصلاة، أما الذي قال: هي ركن، الركن ينقضي، القصد من كلمة الله أكبر أنك في الصلاة،

وهذا أكبر عمل من أي شيء آخر، أكبر من إنهاء الحسابات، أكبر من لقائك مع زيد أو عبيد، الله أكبر تركت الدنيا كلها، وانغمست في صلة مع الله عز وجل، والدليل على أن الوضوء لا يحتاج إلى نية أنه من لا صلاة له لا يحتاج الوضوء، لو أن امرأة في أيام العذر تسقط عنها الصلاة هل يجب عليها الوضوء؟ لا، إذاً الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها، بل هو أداة لعبادة كبرى، هي الصلاة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا)

المرفق داخل في الغسل، أما (إلى) فتفيد انتهاء الغاية، المرفق دخل أم لم يدخل، قال قوم: لا يدخل المرفق، لكن بعضهم قال: ما بعد (إلى) إذا كان من جنس ما قبلها يدخل، أي هنا من الرسغ إلى المرفق يد، وما بعد المرفق يد، من الرسغ إلى المرفق لحم وجلد وعضلات، وما بعد المرفق جلد وعضلات ولحم، إذا كان ما بعد (إلى) نوع ما قبلها فالمرفق داخل.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما توضأ أدار الماء على مرفقيه :

لكن ما قيمة هذه المناقشة المنطقية إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أدار الماء على مرفقيه، قضية حاسمة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما توضأ أدار الماء على مرفقيه. فعن جابر:

((أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه))

[الجامع الصغير عن جابر]

ما فهم أحد مقطع المسألة إلا القاضي أبو محمد، حيث قال: إن قوله إلى المرافق حد للمتروك من اليدين لا للمغسول فيهما، إذاً المرافق تدخل في الغسل:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

باء للإلصاق، أمسكت بيده، وهناك معنى لطيف استنبطه العلماء حينما قالوا في شرح قوله تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة النساء: 36]

ينبغي أن يكون إحسانك إلى والديك بذاتك مباشرة، لا أن تقول لواحد: اذهب إلى أبي وأعطه هذه الحاجة، أو خذه إلى نزهة، لا، ينبغي أن تباشر الإحسان إلى الوالدين بذاتك، ينبغي أن يكون إحسانك ملاصقاً لوالديك، إحسانك أن تقوم أنت بالذات بهذا الإحسان.

في القرآن من التوجيهات والآداب ما لا يصدقه العقل :

هناك استنباطات أيها الأخوة مذهلة، استنبط بعض العلماء أن قوله تعالى:

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

[سورة هود: 43]

عن سيدنا نوح، حينما أراد الله أن يغرق ابنه الذي أبى أن يؤمن بالله عز وجل، وأن يركب معه في السفينة، قال:

(يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)

[سورة هود: 43]

أيها الأخوة، حينما أراد الله إغراقه جاءت موجة حالت بينه وبين أبيه، فالله عز وجل رحمة بالأب لم يغرق ابنه تحت مرأى عينه، ماذا نستنبط؟ هذه التي استشهدت قبل أيام في حيفا، قتل أخوها أمامها، وأمام أبيه وأمه، وقد رجا الأب أن يأخذوه، لا، لا بد من أن تقتله أمام أمه وأبيه وأخته، أرأيتم إلى أدب القرآن الكريم! ما الذي حدث أن هذه الفتاة لم تر للحياة طعماً حتى فعلت ما فعلت، فلو أننا تأدبنا بأدب القرآن لكنا في حال غير هذا الحال.

طائرة تحمل ثمانية وثلاثين عالماً كبيراً، تدربوا على أحدث الأسلحة، وركبوا جميعاً في طائرة واحدة، وقد أسقطت الطائرة.

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)

[سورة يوسف: 67]

لو قرأت القرآن بدقة وعناية لوجدت فيه من التوجيهات والآداب ما لا يصدقه العقل.

الدقة في اللغة العربية تتجلى بشكل رائع في القرآن الكريم :

طبعاً:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

الوجه من الرأس، فهل ينبغي أن تمسح وجهك بالماء، لأن آية مستقلة خصت الوجه بالغسل، إذاً من الرأس على الوجه، أي سطح الشعر:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ)

المسح لفظ مشترك، أما الرأس فهو عبارة عن الجملة التي يعلمها الناس ضرورة، ومنها الوجه، فلما ذكر الله عز وجل الوجه في الوضوء، وعين الوجه للغسل بقي باقيه للمسح، فمسح الرأس أي مسح

الشعر، ومسح ربع الرأس يجزئ، والباء للإلصاق، ينبغي أن تلصق يدك المبللة بربع رأسك، فهذا مما يتم تأدية هذه الفرائض في الوضوء:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

لو أن الآية: وامسحوا برءوسكم وأرجلِكم لكان المعنى أن الأرجل تمسح مسحاً، ولكن:

(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

(أَرْجُلَكُمْ) تابعة:

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

دقة اللغة العربية شيء رائع، مثلاً قال تعالى:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

[سورة التوبة: 40]

الآن هناك واو حرف عطف، لو أن القارئ قرأ: وكلمة الله هي العليا فالمعنى فاسد، أي كانت سفلى فأصبحت عليا، لا:

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، هذه جملة استئنافية.

الفرض في الرجلين الغسل دون المسح :

أيها الأخوة:

(وَأَرْجُلَكُمْ)

أي اغسلوا أرجلكم، فالفرض في الرجلين الغسل دون المسح، وهذا مذهب الجمهور، والكافة من العلماء، وهو ثابت في فعل النبي صلى الله عليه وسلم، واللازم من قوله في بعض أحاديثه الشريفة، وقد رأى قوماً يتوضؤون، وأعقابهم تلوح، فنادى بأعلى صوته:

((وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمرو]

أسبغوا الوضوء، فغسل الرجلين أجمع عليه جمهور العلماء، بل العلماء كافة، لأن هذا الحديث وهو في الصحاح، رواه الإمام بخاري ومسلم، ولازم هذا الحديث أن غسل الرجلين فرض في الوضوء:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

أي بالاغتسال بالماء طبعاً، هذه العبارة لمن؟

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا)

هذا الحكم لواجد الماء، تسكن في بيت وفيه ماء، فلا بد من أن تغتسل إذا كنت جنباً، أما الجنب عادم الماء فله أن يتيمم، هناك حكم لجنب واجد الماء، وهناك لجنب فاقد الماء.

كيفية التيمم وحالات تشريعه :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى)

لا تستطيع أن تتوضأ:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

لا تجد الماء في السفر:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ)

أي جاء من مكان منخفض قضى فيه حاجته:

(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

كناية عن جماعهن:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)

تضرب الصعيد الطيب الطاهر بيديك، وتمسح به وجهك ومرفقيك، هذا هو التيمم.

يجوز التيمم إن لم تجد الماء أو إن كان الماء يؤذيك :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى)

أي الماء يؤذيكم:

(أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

الماء مفقود، أو انتقض وضوؤكم وأنتم في سفر، أو مرضى، أي إذا كنتم مرضى أو على سفر، وأحدثتم حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر:

(وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ)

الحالة الأولى الماء يؤذيك، والحالة الثانية الماء لا تجده، وأصابك حدث أصغر، أي جئت من مكان منخفض بعد قضاء الحاجة:

(أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ)

كناية عن الجماع:

(فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

لا يجب الإسراع بالفتوى فإن لم نعلم فعلينا بسؤال أهل العلم :

أيها الأخوة، أذكر لكم حادثة وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أن صحابياً أصابته جنابة في سفر فسأل فقيل له: اغتسل، ويبدو أن الوقت كان بارداً جداً، فاغتسل فمات، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الخلق في لطفه وفي رحمته قال: قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذ لم يعلموا، ونص هذا الحديث عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ، فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ شَكَّ مُوسَى عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ))

[أبو داود عن جابر]

لا تسرع بالفتوى، إن لم تعلم فاسأل أهل العلم.

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

قال:

((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ))

لا أذكر ما إذا كان الجو بارداً جداً، أو جرحه بليغاً، فلما اغتسل أصاب الجرح التهاب فمات، فلما علم النبي ذلك قال:

((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))

إن كنت واثقاً من الحكم الشرعي فقل، وإلا فسأل:

(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ)

هم أهل الوحيين الكتاب والسنة:

(إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

الحقيقة أن الذين يحملون أنفسهم ما لا يطيقون هؤلاء ليسوا على حق، فقد كان عليه الصلاة والسلام في جهاد في أيام رمضان، وكان الحر شديداً، فأمسك بإناء، وأفطر، ورفع الإناء أمام كل أصحابه، ثم علم أن بعض أصحابه لم يفطر، فماذا قال؟ قال: أولئك العصاة، وفي الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أبو داود عن ابن عمر]

لا تكن متعنتاً، لا تكن متشدداً، لا تزايد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنبي شرب، وأفطر، فلما علم أن أناساً لم يفطروا قال: أولئك العصاة، لكن مرة أخرى أفطر النبي، ولم يرفع الإناء، هكذا، وكأنه أمر أصحابه أن يفطروا أفطر، بعض الأصحاب المتقدمين بالسن أفطروا، وبعض الأصحاب الشباب لم يفطروا، فالذين أفطروا وجاء وقت الطعام أعدوا الطعام لأخوانهم الصائمين، وجهدوا في إعداد الطعام، فسر النبي عليه الصلاة والسلام، فماذا قال؟ قال: ذهب المفطرون بكل الأجر.

لا تكن متعنتاً ولا متشدداً ولا تزايد على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مرةً دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى وليمة ومعه أحد الصحابة، فلما دعي إلى الطعام قال: إني صائم يا رسول الله، قال: أخوك دعاك، وتكلف لك، وتقول: إني صائم! أفطر وصم يوماً مكانه. هناك أناس متشددون يزايدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ))

[أحمد عَنِ ابْنِ عُمَرَ]

لذلك في بعض المذاهب القصر واجب، عند الأحناف واجب، ما دمت في سفر ولو نزهة يجب أن تقصر، لأن الله أرادك أن تخفف من الركعات في السفر، صل الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، فالله عز وجل حينما سمح لك أن تقصر ينبغي أن تقصر، إن سمح لك أن تتم ينبغي أن تتم،

هذه آية الوضوء أيها الأخوة أعيدها على أسماعكم في نهاية هذا الدرس بسم الله الرحمن الرحيم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

لتفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (09-49) : تفسير الآية 7 ، نعم الله علينا، ابتغاء الرفعة عند الله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الذاكرة من نعم الله تعالى على الإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع من دروس سورة المائدة ومع الآية السابعة، وهي قوله تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أيها الأخوة، من فضل الله على الإنسان أنه منحه ذاكرة، فالشيء الذي يراه ينطبع في ذاكرته، فكلمة: واذكروا، أي تذكروا نعم الله عليكم، أنت حينما تأكل، وحينما تشرب، وحينما تأوي إلى فراشك، وحينما ترى زوجتك وأولادك، وحينما تتمتع بطعم الطعام، وحينما ترى جمال الطبيعة، وحينما ترى ابنك بين يديك، هذه كلها نعم الله، وقد انطبعت في ذاكرتك، فأنت مكلف أن تذكر هذه النعم، أي أن تستحضرها من ذاكرتك، فالتذكر يعني الحفظ والتذكر، يعني الاسترجاع والذكر، يعني الكلام، والإنسان لا يتكلم إلا إذا انطبع شيء في ذاكرته، يتكلم من ذاكرته، لذلك إذا قال إنسان: ذكر فلاناً، أي تكلم كلاماً مأخوذاً من ذاكرته، ذكر كذا، ذكر كذا.

لكن أيها الأخوة، موضوع الذاكرة شيء عجيب، فيما قرأت عن ذاكرة الإنسان أن حجمها لا يزيد على حبة العدس، تتسع لسبعين مليار صورة، وأن هذه الذاكرة مبرمجة برمجة عجيبة، فهناك بؤرة لهذه الذاكرة، وهناك حواش، فقد توضع صورة في بؤرتها، وقد تنتقل صورة إلى حواشيها، لكن الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن يلتقط شيئاً واحداً، فإذا جاءه شيء، وهو مشغول بشيء ثان لا ينطبع، أنت داخل إلى المسجد تضع حذاءك في مكان، هذا المكان له مكان في الذاكرة، ليس الحذاء له مكان في الذاكرة، لا، مكان هذا الحذاء له في الذاكرة مكان، فإذا خرجت من المسجد دون أن تشعر تتجه إلى المكان الذي ركز في ذاكرتك، وتأخذ الحذاء وتمشي، أحياناً وأنت داخل يحدثك أخ حديثاً معيناً، فذاكرتك تتلقى من هذا الأخ، فإذا وضعت الحذاء في مكان فهذا المكان لا ينطبع في الذاكرة، فإذا خرجت تقول: أين وضعت حذائي؟ في وقت واحد لا تلتقط الذاكرة إلا شيئاً واحداً.

في الذاكرة بؤرة وحواش :

الآن أنت مشغول بموضوع، الموضوعات التي التقطت سابقاً موضوعة في الحواشي، ما لم تكن هناك مناسبة لا تذكرها، أنا التقيت مع إنسان من ثلاثين عاماً، أخ كريم رجاني أن أتوسط له، وهو قاض في موضوع، فذهبت إليه، قبل أيام كنت في عقد قران صافحني رجل، قال: لي هل تعرفني؟ غير أنني قبل هذا اللقاء لم أره من ثلاثين عاماً، قلت له: الأستاذ فلان، طبعاً ملامح وجهه تغيرت تغيراً كبيراً، لكن بقيت ملامح أساسية، ما هذه الذاكرة؟ من ثلاثين عاماً لقاء في ربع ساعة فقط تذكرت، فنعمة الذاكرة نعمة لا تقدر بثمن، قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

حدثني أخ توفي رحمه الله صاحب معمل، قال لي ابنه: والدي خرج من معمله، ونسي أين بيته؟ بقي ساعة يجول في شوارع دمشق، أين بيتي؟ لكنه تذكر بيت ابنه، ذهب إليه، ودله ابنه على بيته، حينما الإنسان يفقد ذاكرته لا يحتمل وضعه، قد لا يعرف أولاده، فنعمة الذاكرة نعمة كبيرة.

هذه الذاكرة لها بؤرة، ولها حواش، لو أنك تلقيت آلاف الأفكار والصور هذه تنطبع وتوضع بالحواشي بحسب أهميتها، والأهميات متنوعة، هناك درجة أولى، درجة ثانية، درجة ثالثة، درجة رابعة، وفي مكان ثمة سلة مهملات، سافرت إلى بلد، وأنت بعيد عن هذا النشاط التجاري كلياً، أعطاك واحد بطاقة فيها رقم هاتفه، قرأتها لا تذكرها أبداً، وضعتها في سلة المهملات، لكن أحياناً تبلغ أن رقم هاتفك كذا تحفظه مرة واحدة، ولا تنساه أبداً.

فصار في الذاكرة بؤرة وحواش، وفي الذاكرة مستويات، وفي الذاكرة سلة مهملات، فالذاكرة تقوم بعمل خطير جداً، أول شيء تحفظ، وتحفظ عدة مستويات، ولها بؤرة نشاط، ولها حواشي تخزين، ويوجد لها سلة مهملات، فموضوع الذاكرة موضوع دقيق جداً، وهو من أجلِّ نعم الله علينا، والإنسان من دون ذاكرة ينسى معلوماته كلها، تدرس الطب ذهبت المعلومات، أين معلوماتك؟ كل خبراتكم في الذاكرة، كل الخبرات والمعلومات والمهارات كلها في الذاكرة، من دون ذاكرة ما من إنسان له نشاط أبداً، تنتهي مهمة الإنسان في الحياة.

نِعم الله لا تعد ولا تحصى لكن أجلّ هذه النعم أنه خلقنا :

قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ)

[سورة يس: 67]

فالله عز وجل امتن علينا بنعمة الذاكرة، أحياناً صاحب محل تجاري يبيع قطع تبديل، قد يكون في محله عشرة آلاف نوع، يأتيه إنسان، عندك القطعة الفلانية؟ يقول لموظف عنده: اصعد إلى الأعلى في الدرج السابع، في الرف الأول هناك قطعة ائت بها، ما معنى ذلك؟ أن كل هذا المحل في ذاكرته، أكثر ربات البيوت تعرف ما عندها، تحتاج إلى مادة غذائية تقول لابنتها: اصعدي إلى المكان الفلاني ائت بقطعة. فهذه الذاكرة نعمة كبرى، لكن الله عز وجل يقول:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

أحبوا الله لما يغدوكم به من نعم، ذكرهم بأيام الله، طبعاً النعم لا تعد ولا تحصى، لكن أجلّ هذه النعم أنه خلقك، أجلّ هذه النعم أنك موجود، أنت موجود، لك حيز، لك اسم، منحت اختياراً، منحت حرية، كلفت بطاعة الله عز وجل، منحك نعمة الوجود، هذه أجلّ نعمة، لأن هذه النعمة تؤهلك لتكون في جنة الله إلى أبد الآبدين، منحك الله نعمة الوجود، وفوق نعمة الوجود منحك نعمة الإمداد، ما قولك لو أن الهواء بثمن؟ أمدك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بجو مناسب، أمدك بطرف آخر تسكن إليه، ويسكن إليك، أمدك بأموال وبنين، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ثم أنزل على نبيه قرآناً، نعمة المنهاج الإرشاد:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

الله عز وجل له أيام منها أنه أسمعنا الحق :

قال عز وجل:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

الله عز وجل له أيام، ذكرهم بأيام الله، من أيام الله عز وجل أنه امتن عليك فزوجك، من أيام الله عز وجل أنه أسمعك الحق، قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

من أيام الله عز وجل أنه جعلك من بيئة صالحة، من أم وأب مسلمين، وهذه نعمة كبرى، جعلك في زمن يمكن أن تعمل أعمالاً صالحة، اختيار وجودك في مكان وفي زمان من أم معينة ومن أب معين أيضاً هذه نعمة كبرى من نعم الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

طبعاً جاءت الكلمة مفردة، لأن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك لا تستطيع أن تحصي منافعها، نعمة هذا المفصل، لو لم يكن ثمة مفصل كيف تأكل؟ لا بد أن يأكل الإنسان كالقطة، ينبطح، ويأكل بلسانه مباشرةً، لولا هذا المفصل لا يأتي الطعام إلى فمه، هذا المفصل نحو الداخل، لكن مفصل الرجل نحو الخارج، حكمة بالغة، لولا المثانة كل عشرين ثانية هناك قطرتا بول، تحتاج إلى فوط الرجل السعيد، طبعاً المثانة تجمع هذا البول لخمس ساعات، لولا أن لهذه المثانة عضلات تحتاج إلى نصف ساعة، والبول لا ينزل، لأنه يحتاج إلى تنفيس، تحتاج إلى أنبوب، نعمة أن المثانة لها عضلات هذه نعمة لا تقدر بثمن.

العيون واللسان وغيرها بعض من نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

العين الواحدة ترى بعداً واحداً، ترى طولاً وعرضاً، ولكن لا تستطيع أن تضم إبرة بعين واحدة:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد: 8]

بالأذنين تعرف جهة الصوت، بأذن واحدة لا تعرف جهة الصوت، هناك جهاز دقيق بالدماغ يحسب لك تفاضل وصول الصوتين، والفرق بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية، وصل الصوت إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن، تعرف جهة الصوت، تستمع إلى بوق مركبة تنحرف نحو الجهة المعاكسة، من دلك أنها عن يمينك؟ جهة الصوت التي كشفها جهاز في الدماغ، نعمة السمع، نعمة البصر، نعمة الشم، نعمة الذوق، نعمة الدماغ، فيه مئة وأربعون مليار خلية لم تعرف وظيفتها بعد، أربعة عشر مليار خلية قشرية في الدماغ تقوم بوظائف تعجز عنها كل حواسيب العالم، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ)

[سورة البلد: 8-9]

هذا الكلام كل حرف تسهم في تشكيله سبع عشرة عضلة، فإذا كانت الخطبة نصف ساعة أو ساعة كم كلمة فيها؟ والكلمة كم حرف؟ دون أن تشعر تأكل وتنام، وتتم عمليات هضم، لو أن الله أوكل لك الهضم عندك سبع ساعات هضم، بنكرياس، الغدة الفلانية، الصفراء، تقع في عسر هضم وإسهال، وأنت نائم لو ترك لك الله نعمة التنفس بيدك لا تنام الليل تنام فتموت، تنام ملء العين والتنفس يعمل بانتظام.

يتجمع اللعاب في الفم، تذهب إشارة إلى الدماغ أن اللعاب تجمع في الفم، فيعطي الدماغ أمراً للسان المزمار ليفتح طريق المريء، ويغلق طريق القصبة الهوائية، فتبلع اللعاب، وأنت نائم دون أن تشعر.

النعمة الواحدة لو أمضينا كل حياتنا في متابعة دقائقها وفضائلها لا تنتهي :

من أعطى أمر للبروستات لتغلق طريق ماء الحياة، يكون طريق البول سالكاً في اللقاء الزوجي، يغلق طريق البول ويفتح طريق ماء الحياة، ماء طاهر، والمجرى سابقاً فيه بول، لا بد من مادة مطهرة؛ المزي، ومادة معطرة، ومادة مغذية دون أن تشعر هذه الغدة تعمل ثمانين عاماً، تفتح باب المثانة وباب الخصيتين، تفتح وتغلق وأنت لا تشعر:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

والله لو ذهبنا نتحدث عن نعم الله في أجسامنا تنقضي الأعمال ولا ينقضي الحديث عنها، نعمة واحدة، عيناك متألقتان بسبب أن هناك دمعاً مستمراً يغسل العينين، بقايا هذا الدمع الذي غسل عينيك أين يجري؟ يجري في قناة دقيقة دَقيقة إلى الأنف، لماذا الأنف تراه رطباً؟ من قناة الدمع؛ من العين إلى الأنف، لو أن هذه القناة انسدت لأصبحت الحياة لا تطاق، دائماً ينبغي أن تمسح الدموع من على خدك حتى لا ترسم الدموع مجرى ملتهباً على ظاهر الخد.

من جعل هذا الجفن يتحرك حركة آلية ويغسل العينين؟ هناك مرض اسمه مرض ارتخاء الجفون، لا ترى إلا بهذه الطريقة، ما قولك كلما أردت أن ترى إنساناً تمسك بإحدى يديك الجفن وترفع، من جعل الجفن يتحرك حركة عفوية آلية؟ أيها الأخوة، هذه أمثلة:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

اذكر أن لك ولداً، لك زوجة، اذكر ماءً عذباً فراتاً، اذكر الطعام، اذكر هذا الحليب المتوافق مع جسمك تماماً، الحديث يطول عن نعم الله عز وجل، ولكن النعمة الواحدة لو أمضينا كل حياتنا في متابعة دقائقها وخصائصها وفضائلها لا تنتهي، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم: 34]

تمام النعمة الهدى :

إن تعدوا نعمة، أنت من الممكن أن تقول لإنسان: خذ هذه الليرة فعدها، يمكن أن تقول له: خذ هذه الليرة فعدها، هكذا يقول الله:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة إبراهيم: 34]

معنى ذلك أن النعمة الواحدة فيها خيرات لا يعلمها إلا الله، لذلك إذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز، إذا جاء إنساناً غلام، وتلقى هدايا، جلس مع زوجته مساءً قال لها: هذه من أين؟ قالت له: من بيت فلان، وهذه من بيت فلان، أحصاها، أيهما أهون أن تحصي الهدايا أم أن تردها كلها؟ إحصاؤها سهل جداً، أما أن تقابل كل هدية بهدية فهذا شيء يحتاج إلى مبالغ كبيرة جداً، ووقت وشراء. إذا كنتم يا عبادي عاجزين عن إحصاء النعم فلأن تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، نعجز عن شكر نعمة واحدة يقول الله عز وجل:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الهدى بشكل مختصر، نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، ثم نعمة الهدى والرشاد، لكن تمام النعمة الهدى، لكن أصل النعم أن تعرف الله واحداً، لك زوجة صفر، لك أولاد صفر ثان، لك دخل صفر ثالث، لك مأوى صفر رابع، كنا بواحد صرنا بعشرة، بمئة، بألف، بعشرة آلاف، لك سمعة طيبة صفر خامس، وهبك الله أولاداً ذكوراً وإناثاً صفر سادس، اسحب الواحد الحياة كلها أصفار، أموات غير أحياء، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ)

ماذا تعني كلمة (واثقكم)؟ واثق على وزن فاعل تعني المشاركة، قتل غير قاتل، من يقول: قاتلت الحشرة؟ تقول: قاتلت العدو، لأن العدو معه سلاح قوي وأنت معك سلاح، فيوجد فعل مشاركة، أما الحشرة فتقول: قتلتها ولا تقول: قاتلتها، المقاتلة فيها معنى المشاركة.

الفطرة توافق برمجة النفس وجبلة النفس وخصائص النفس مع منهج الله عز وجل:

إذا قال الله عز وجل:

(وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ)

أي الله عز وجل أعطانا ميثاق الفطرة، فطرتك متوافقة مع منهج الله عز وجل، لا ترتاح نفسك إلا إذا أطعت ربك، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت وفق منهج الله، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت صادقاً، لا ترتاح نفسك إلا إذا كنت أميناً، الله عز وجل جبلك على حب الأمانة، وأمرك أن تكون أميناً، فجبلتك متوافقة لمنهج الله، جبلك على حب العدل، وأمرك أن تعدل، إذاً الميثاق الأول ميثاق الفطرة، وأنت في الأساس مؤمن بالفطرة من دون دليل، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون إلهاً، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون رباً، موجود في أصل فطرتك أن لهذا الكون مسيراً، موجود في أصل فطرتك أن هذا الإله

رحيم وعادل وحكيم، هذا جميعه بالفطرة، حينما يهتدي الإنسان إلى الله يهتدي إلى فطرته، مَركبة مصمّمة لطريق معبد، أنت إذا سرت بها في طريق وعر فيه أكمات وصخور وحفر، والأصوات العالية جداً التي تصدرها، والأصوات الشاذة التي تسمعها، كأنها تقول لك: هذا المكان ليس لي، هذا المكان لمدرعة، لمجنزرة، مكاني على الطريق المعبد، فإذا نقلتها إلى طريق معبد تختفي كل هذه الأصوات، وتنطلق بانسياب رائع، إذاً هذه المركبة مصممة للطريق المعبد، ارتفاع أسفل المركبة عن الأرض مسافة قليلة جداً، لأن الطريق معبد، العجلات مصممة على طريق معبد، أما إذا وجد تفاوت كبير بين الصواعد والنوازل فالطريق تحتاج إلى مجنزرة، فالفطرة توافق برمجة النفس، وجبلة النفس، وخصائص النفس مع منهج الله عز وجل، فكل إنسان يستقيم ترتاح نفسه، يطيع الله يطمئن قلبه، فهذا ميثاق، أي الله عز وجل منحك فطرة تدفعك دائماً إلى طاعة الله، لو أن الفطرة تخالف الإيمان بالله من الذي يرتاح عندئذ؟ الكافر، الآن من يرتاح؟ المؤمن، لأن أصل فطرتك إيمان بالله وعدل ورحمة وطاعة وإنصاف وإحسان، هكذا جبلت، هكذا صممت، هكذا خلقت، فهذا الميثاق الذي واثقكم به هو ميثاق الفطرة، سوف تسأل عنه.

الفطرة تدلنا على خطئنا وعقلنا يدلنا على الله :

الآن يوجد ميثاق ثان هو ميثاق العقل، أعطاك عقلاً، أي من منا يصدق بربكم هذه الطائرة العملاقة سبعمئة وسبعة وأربعين أنها وجدت من دون مصنع؟ من يصدق أن كتاباً ضخماً جداً مؤلف من ألف صفحة، قاموس فيه مواد وفيه دقة بالغة في التأليف واسم فاعل واسم مفعول واسم زمان واسم مكان واسم آلة، المصادر، ضبط المصادر، كتاب ضخم جداً أنه نتج بالانفجار في مطبعة، من يصدق؟ من يصدق أن هذه الطائرة سبعمئة وسبعة وأربعين إنما نتجت عن انفجار في مستودع معدني، طائرة بأربعة محركات، مقاعد ركاب، أجهزة، أجهزة تشغيل، أجهزة صوت، من يصدق؟ خلق الإنسان أعظم بكثير، فلذلك الميثاق الثاني ميثاق العقل، أعطاك عقلاً الله عز وجل، الفطرة تدلك على خطئك، وعقلك يدلك على الله، الفطرة والعقل في كل إنسان، بلغته رسالة أم لم تبلغه، جاءه نبي أو لم يأت إليه، كان بجزيرة، أم كان بمدينة، أم كان بقرية، التقى مع علماء أم لم يلتق، كان في مسجد أم لم يكن في مسجد، الميثاق أي الفطرة والعقل معاً، والذي لم تبلغه رسالة يحاسب على الفطرة التي أودعت به، والتي تكشف له خطأه، ويحاسب على العقل الذي ركز فيه، وهو كاف ليدله على الله. وبعض المفسرين لا أقول: كل المفسرين يفهم قوله تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 15]

الرسول هو العقل أحياناً، وأحياناً المصائب رسائل:

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

المصيبة هنا جاءت بمعنى الرسالة، فأحياناً هذا الضغط على المسلمين رسالة من الله، أنتم أيها المسلمون لستم على ما أرضى، يوجد ضغط، فإذا نقضوا عهد الله وعهد رسوله سلط الله عليهم عدواً يأخذ ما في أيديهم، تُحتل أرضهم، وتُنهب ثرواتهم، ويُقتل أبناؤهم، وجئنا كي نحرركم، هذه الرابعة أصعب، جئنا لننقذكم، لا طعام ولا شراب، ولا أمن ولا استقرار، ولا كهرباء ولا ماء، وجئنا من أجلكم، وبترولكم أصبح ملكنا، هذه رسائل أيضاً.

من الميثاق الإلهي الفطرة والعقل والكتاب والسنة :

من الميثاق الإلهي الفطرة، ومن الميثاق الإلهي العقل، ومن الميثاق الإلهي الكتاب والسنة، رسل الله عز وجل:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً)

[سورة آل عمران: 164]

هو أعطاهم العقل، وهو كاف لمعرفة الله، فطرهم فطرةً كاملةً كافيةً لمعرفة الخطأ والصواب، وفوق هذا وذاك منحهم التشريع، الأنبياء، والرسل، والكتب، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

من قبلكم سمعنا وأطعنا، ومن قبلنا الفطرة والعقل والتشريع، تحاسب على فطرتك وعلى عقلك، وإذا بلغتك رسالة تحاسب على تفاصيل الشريعة، وإن لم تبلغك رسالة تحاسب على الفطرة والعقل، وهما كافيان لمعرفة الله وطاعته، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

[سورة الأعراف: 172]

الله عز وجل منح الإنسان الفطرة والعقل والتشريع وعليه السمع والطاعة :

هذا هو الميثاق، منحك فطرة، منحك عقلاً، منحك رسالة الفطرة، وهو مقياس نفسي، والعقل أداة معرفة الله، والرسالة أمر تفصيلي، افعل ولا تفعل، فالذي لم تبلغه الرسالة محاسب على الفقرتين الأولى

والثانية؛ على الفطرة التي فطر عليها، وعلى العقل الذي منح إياه:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

قلنا: (واثقكم) فعل مشاركة، منكم السمعة والطاعة، ومن الله الفطرة والعقل والتشريع، الله منحك الفطرة والعقل والتشريع، هذا من الله، ومن العباد السمع والطاعة:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

أي اتقوا عذاب الله، اتقوا غضب الله، اتقوا سخط الله، اتقوا عقاب الله، إذا خرجتم عن فطرتكم لم تعدلوا، خرجتم عن فطرتكم لم ترحموا عباده، خرجتم عن فطرتكم لم تنصفوا، إذاً سوف تعاقبون عقاباً شديداً من الله عز وجل، وإذا خرجتم عن عقلكم الذي منحتم إياه، فلم تعملوا عقلكم في معرفتي، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى)

[سورة القيامة: 36-39]

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

[سورة المؤمنون: 115]

لولا الإيمان بالآخرة لكانت الحياة لا تحتمل فلابدّ من يوم تسوى فيه الحسابات :

أيعقل؟ في الميناء ترى رافعة تحمل ثمانين طناً، هذه الرافعة التي تحمل ثمانين طناً صممت لعلب فارغة أم لمعدات ثقيلة جداً؟ لا بد من تناسب، هذه الرافعة مصممة لمعدات ثقيلة جداً، قد تحمل قطاراً، قد تحمل مركبات كبيرة جداً، فأنت من حجم الرافعة، ومن استطاعات الرافعة تقرر المهمة التي صنعت من أجلها، هذا الكون العظيم من أجل أن تعيش أربعين سنة، خمسين سنة، كلها متاعب، وهناك قوي وضعيف، وغني وفقير، وذكي وغبي، وصحيح ومريض، وتنتهي الحياة، يأتي طاغية يقتل، يهدم بيوت، يقتل الآلاف، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعدها، والذي مات مات، والذي عاش عاش، والذي اغتنى اغتنى، والذي افتقر افتقر، ولا شيء بعد الموت، هل يقبل العقل ذلك؟ العقل لا يقبل، لا بد من تسوية الحسابات، ولولا الإيمان بالآخرة لم تحتمل الحياة، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة، هم غارقون في اللذائذ، والشعوب تموت من الجوع، وهؤلاء الأغنياء الأقوياء غارقون في لذائذهم ونعيمهم، وقد بلغوا من الإجرام درجة خطيرة جداً، هم الآن يجربون الأدوية على البشر، في الشعوب النامية تنتهي الحياة هكذا، لا شيء أبداً، لا شيء بعد الموت، العقل لا يقبل ذلك، بل إن الإمام

ابن القيم الجوزية رحمه الله يرى أن الإيمان باليوم الآخر عقلي، لكن تفاصيله نقلية، أما أصل الإيمان بالآخرة فعقلي، مستحيل أن تكون هذه الفتن وهذه الحروب وهذه الاجتياحات.

تلقى قنبلة ذكية تدمر مئات الأشخاص، الآن هناك قنابل تميت الأشخاص والبناء يبقى على حاله، كما لا يتأثر أبداً صانعو الأسلحة الجرثومية والكيماوية والقنابل الذرية، حينما ألقيت على هيروشيما وناكازاكي باليابان ثلاثمئة ألف ماتوا بثوان معدودة، وتنتهي الحياة، هكذا لا شيء أبداً، الذي أعطى أمراً بإلقائها مات وانتهى الأمر أين الله؟!! الله موجود، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا كلها إلا اسم العدل :

أخواننا الكرام: كلمة للتاريخ، أسماء الله الحسنى محققة في الدنيا كلها إلا اسم العدل، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ)

[سورة الروم: 27]

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)

[سورة طه: 15]

لكن اسم العدل متحقق جزئياً، قد يعاقب الله بعض العباد ردعاً للباقي، وقد يكافئ بعض العباد تشجيعاً للباقين، لكن تسوية الحسابات يوم القيامة، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)

[سورة مريم: 71]

أي ما منكم واحد إلا وسيرد النار، أعوذ بالله، كلنا، لكن العلماء قالوا: ورود النار غير دخولها، ورود النار ترى من فيها ولا تتأثر بوهجها، ترى عدل الله، لترى هؤلاء الطغاة أين هم؟ لتتأكد أن الله حينما قال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

ليست البطولة أن تنجو الآن بل البطولة من ينجو يوم العرض الأكبر على الله :

إذا قال الصادق المصدوق، والذي لا ينطق عن الهوى:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ: فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فما قولكم بما فوق الهرة؟

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

في التاريخ الحديث يقول لك: هذا قتل خمسين مليوناً، هذا أربعين مليوناً، هذا ثمانين مليوناً، الجماعة مرتاحون، وبراءة الأطفال في أعينهم، قتل خمسين مليون هكذا، لذلك الإيمان بالآخرة يجب أن يكون كإيمانك بوجودك، بطولتك ليس أن تنجو الآن بل يوم العرض الأكبر على الله، قال تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

[سورة الصافات:24]

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

بطولة الإنسان أن يكون عند الأمر والنهي :

ترى إنساناً، رب أشعث أغبر ذي طمرين، طالب علم ساكن في بيت صغير، دخله محدود، يسأل الله النجاة والرحمة، يقرأ القرآن الكريم، يصلي، يغض بصره، لا أحد يأبه له، لا أضواء، ولا كاميرات، ولا شيء، لا أحد يعلم به، هذا يوم القيامة في أعلى عليين.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

[سورة الصافات:24]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لا تهتم بالشهرة، أشهر واحد إبليس، لا أشهر منه بالعالم كله، الشهرة لا قيمة لها، لا تهتم أن تخطف الأضواء لا قيمة لها، لو أن أهل الأرض أثنوا عليك، وكان الله غاضباً عليك لا قيمة لكل ثنائهم، ابتغوا الرفعة عند الله، بطولتك أن تكون عند الأمر والنهي، هذا اسمه نصر، ولكنه نصر مبدئي، أنا ضعيف لأنني مستقيم، قتلت في بلاد إسلامية لأنني أدعو إلى الله، أنهوا لي حياتي، هذا منتصر، والذي قتلني

منهزم، أنا نصري أن أموت موحداً مطيعاً لله عز وجل، هذه الدنيا لا قيمة لها، صدقوا رسول الله، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

جناح بعوضة له قيمة، البعوضة كلها لها قيمة، جسمها، ورأسها، وأرجلها، وأجنحتها:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

الله عز وجل يعلم ما نخفي وما نعلن فهو عليم بما في الصدور :

لذلك:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ)

اتق غضب الله، اتق سخطه، اتق عقابه، اتق مصائب الدنيا، اتق مصائب الآخرة، اتق النار، معنى اتق الله اتق عقابه، اتق عدله، اتق انتقامه:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور)

تكلم ما شئت، نمق كلامك، الله ماذا يقول في القرآن الكريم؟ الله يقول:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ)

[سورة يس: 65]

أصبغ على الجريمة طابعاً إنسانياً، الهدف التحرير، الهدف الحرية، الهدف كذا:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور)

قرأت القرآن الكريم ليقال عنك قارئ، وقد قيل، خذوه إلى النار، تعلمت العلم ليقال عنك عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور)

من الممكن أن تقدم لمسجد أرضاً، والناس جميعاً يثنون عليك، يا أخي محسن كبير، وأنت هدفك أن يرتفع سعر الأرض، حينما تقدم أرضاً لمسجد يعاد تنظيم الأرض، ويرتفع سعرها، وعند الناس أنت محسن كبير، ولكن عند الله لست محسناً:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور)

البطولة أن تنجو من عذاب الله لا من عذاب الدنيا :

تكلم ما شئت، لكن الله عز وجل متكفل أن يضعك في حجمك الحقيقي، فلذلك لا تخفى عليه خافية، علم ما كان، وما سيكون، و ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، هذه الآية تكفي، قال تعالى:

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

طبعاً أنا تكلمت هذا الكلام لأن المسلمين في حالة إحباط شديد الآن، ما بيدنا شيء، لا بد من أن توقن بعدل الله عز وجل، والله البارحة جاءتني رسالة بالإيميل عن صورة فرعون الذي كان في عهد سيدنا موسى، صورة حقيقية، ثبت أنه هو نفسه محنطاً، ويده هكذا مربوطة، لكن صورة مؤثرة، أين جبروت فرعون؟ أين ما علمت لكم من إله غيري؟ أين أنا ربكم الأعلى؟ أين يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم؟ الصورة عندي، صورة حقيقة فوتوغرافية لجثة فرعون التي ذهبت إلى فرنسا، واستقبلت هناك كملك، ورئيس فرنسا انحنى له هكذا، هو ووزراؤه، ما كفاه في حياته، وعند مماته له زبائن، قال الله عز وجل:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً)

[سورة غافر: 46]

منذ ستة آلاف سنة ضرب اثنين اثني عشر ألف، والخير إلى الأمام، ويوم تقوم الساعة:

(أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

[سورة غافر: 46]

والله الصورة تأثرت بها تأثراً لا حدود له، مكبرة، ملونة كما هو، حتى يداه، كلها شاش مربوطة، رمموا يديه في فرنسا، كان فيها فطور، وربطوها بشاش، ماذا قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً)

[سورة يونس: 92]

البطولة أن تنجو من عذاب الله لا من عذاب الدنيا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

لا تهتم بالشهرة، لا تهتم بالغنى، هناك حساب دقيق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (10- 49): تفسير الآيات 8-10 ، العبادات التعاملية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يريدنا أن نكون قوامين لأن القوامة أعلى درجة من الاهتمام والإخلاص :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس العاشر من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة، كما هي الحقيقة دائماً، الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين، يلفت نظرهم إلى وجود الله عز وجل، وإلى وحدانيته، وإلى كماله، لكن الذين آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً، وواحداً، وكاملاً لهم خطاب آخر، يخاطبهم بفروع الدين، وكأن معنى الآية: يا من آمنتم بوجودي، ووحدانيتي، وكمالي، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى، وصفاتي الفضلى، افعلوا كذا وكذا، الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

كلكم يعلم أن اسم الفاعل له صيغة، والمبالغة لها صيغة، فالذي يقف على قدميه يقال له: قائم، والذي يعالج قطعة من الخشب مرة واحدة يقال له: ناجرٌ، والذي يصيد سمكة واحدة في حياته يقال له: صائد، أما الذي يعتاد صيد السمك فيقال له: صياد، والذي يبالغ في القيام يقال له: قوام، فالله عز وجل لا يريدنا أن نكون قائمين فحسب، بل يريدنا أن نكون قوامين، فهي أعلى درجة من الاهتمام، وأعلى درجة من الإخلاص، وأعلى درجة من التطبيق.

الجهد والسعي والمثابرة والإلحاح والصدق يجب أن يكون لله وحده :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

أي أن حركة الإنسان في الحياة يجب أن تكون سعياً حثيثاً، وجهداً كبيراً، وصبراً مبالغاً فيه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)


الحركة في الحياة يجب أن تكون سعيا حثيثا

لكن هذه الحركة، وهذا النشاط، وهذا الاهتمام، وهذا التصحيح، وتلك المراجعة، وهذه المتابعة، لمن؟ لله، أشخاص كثيرون يتحركون من أجل مصالحهم، يتحركون من أجل حظوظهم، من أجل شهواتهم، هناك فريق يسعى للسيطرة على الآخرين، هناك فريق آخر يسعى لجمع الدرهم والدينار، هناك فريق ثالث يسعى للانغماس في المتع الرخيصة، ولكن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يطلب منا أن يكون جهدنا ونشاطنا وحركتنا في الحياة بأعلى درجة من النشاط، وبأعلى درجة من الإخلاص:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ)

أحياناً الإنسان يسعى بجهد غير معقول لبلوغ هدف، هذا النموذج من الجهد والسعي والمثابرة والإلحاح والصدق والمتابعة والتصحيح، هذا الجهد يريدنا الله أن نقوم به ولكن لله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

حينما يؤمن المؤمن تصير كل أهدافه وميوله لله عز وجل :

أخواننا الكرام، ما من إنسان على وجه الأرض من ستة آلاف مليون إلا ويتحرك، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل: 1-4]

كل إنسان في ذهنه شيء يسعى إليه، وقلّما تجد إنساناً جهده، وسعيه، ومثابرته، وبحثه، ومراجعته تكون هذه الحركة المتعددة لله، يقول الله:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام: 162-163]

فكل إنسان يتحرك، وحركته إن كانت من دون إيمان لا ينتفع بها، فإذا مات انتهى كل شيء، لكن المؤمن يجعل حركته لله، حتى التي يألفها معظم الناس، المؤمن إذا تزوج يقصد مرضاة الله عز وجل، وإذا عمل يقصد كفاية نفسه، وأهله، وخدمة المسلمين، ونصحهم، وتقديم نموذج كامل للتاجر المسلم،

وحينما يؤمن المؤمن تصير كل أهدافه وميوله لله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

فالإنسان يطلب العلم، ويأتي من مكان بعيد ليستمع إلى تفسير كتاب الله، أو يقصد إنساناً ليعلمه أحكام الله، فيقدِّم من ماله، من وقته، من جهده، من عرقه الشيء الكثير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

عادات المؤمن عبادات وعبادات المنافق سيئات :

هذا الذي ينبغي أن نكون عليه، أن يكون جهدنا وسعينا، بل وحركتنا ونشاطنا وأوقات فراغنا لله عز وجل:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأنعام: 162-163]

أيها الأخوة الكرام، عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات، هل تستطيع أن تقصد بزواجك مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بدراستك الجامعية مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بحرفتك مرضاة الله عز وجل؟ وهل تستطيع أن تقصد بمعاملتك لأسرتك مرضاة الله عز وجل؟ هذا هو المؤمن حركته نشيطة ولله، المؤمن يتحرك، والذي لا يتحرك ليس مؤمناً، لأنه ما إن تنطبع حقيقة الإيمان في قلب المؤمن إلا وتعبر عن ذاتها بحركة نحو الخلق، فالمؤمن يعين أخاه، ويرشده، ويأخذ بيده، وينصحه، ويعفو عنه

يبحث عن عمل صالح يتقرب به إلى الله عز وجل، يطعم تارة المسكين، يأوي الغريب، يطعم الجائع، يكسو العاري، ينصح الضال، فهو في حركة ونشاط، حركة ظاهرة بل صارخة، هذا هو المؤمن، هذا معنى قوله تعالى:

يبحث المؤمن عن عمل صالح يتقرب به إلى الله

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

يجب أن تكون هذه الحركة في سبيل الله، لكن هذا العصر الذي نحن فيه حبطت فيه الأعمال، حتى لو رأيت عملاً إنسانياً طيباً، يقال لك: هذا العمل من أجل أصوات الناخبين، لم يبتغ به صاحبه وجه الله عز وجل، من أجل الانتخابات، حتى لو كنت دقيقاً في معاملتك من أجل أن تربح هذا التشويق، يحتاج إلى صدق، وإلى إتقان، وإلى أمانة، حتى القيم الأخلاقية العريقة التي هي سبب دخول الجنة فرغت من مضمونها، وأصبحت من نوع العمل، من نوع العمل الذي يعود على صاحبه بالربح:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

أيّ شيء يقرّبك إلى الله فهو عبادة :

أيها الأخوة الكرام، الحقيقة حرفتك لله، شراء ملابسك لله، ينبغي أن تظهر بمظهر يليق بالمؤمن، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك، إدارة بيتك لله ووفق منهج الله، إدارة مالك لله وفق منهج الله، إدارة وقتك لله وفق منهج الله:

(كُونُوا قَوَّامِينَ)

هناك إنسان نائم، وإنسان مستلقٍ على السرير كأنه نائم، لكنه لم ينم، وهناك إنسان مضطجع، وإنسان قاعد، وإنسان قائم، وإنسان قوام، حالات الحركة من نوم، وقبله، واستلقاء، وقبل اضطجاع، وقبله قعود، وقبله قيام، والمؤمن يجب أن يكون قواماً لله عز وجل، حركتك في الحياة هذه أوسع كلمة، وأشمل كلمة، حركتك في الحياة، شراء بيت، زواج، دراسة جامعية، تأسيس شركة، علاقات اجتماعية، احتفال، تعزية، كل حركاتك، وسكناتك، ومناسباتك، وإقامتك، وسفرك، وعملك، وجدّك، ونشاطك، وقت الجد، ووقت الفراغ لله، ليس معنى هذا أن تنقطع للعبادة، ولكن حينما تنفع المسلمين فأنت في عبادة، وحينما تقري الضيف فأنت في عبادة، وحينما تطعم الطعام فأنت في عبادة، وحينما تدعو أخوانك إلى جلسة يتلى فيها القرآن، وفيها ذكر الله عز وجل عبادة، فالعبادة منوعة جداً، أي شيء يقرّبك إلى الله فهو عبادة، إنْ في التفكر، وإنْ في المطالعة، وإنْ في اللقاء، وإنْ في إلقاء المحاضرة، وإنْ في السفر، وإنْ في الحضر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

حركتك لله، والله عز وجل يرضيه أن تكون إنساناً صالحاً، إنساناً خيراً، إنساناً معطاء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ)

كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً :


ضياع العدل هو ضياع لمعالم الحق

الآن إنْ لم يكن الإنسان قواماً لله، كان مقصراً، وكان منحرفاً، وكان مسيئاً، بل كان ظالماً، ما الذي يضمن أن يصحح الخطأ؟ ما الذي يضمن أن يزول الظلم؟ ما الذي يضمن أن يصحح المسار في المجتمع؟ أن تكون شاهداً بالعدل، لأن المنحرف إذا شهد له أناس على أنه ليس منحرفاً ضاعت معالم الحق، كما أنك مطالب أن تكون قواماً لله، مطالب أن تكون ناطقاً بالحق، وينبغي ألا تأخذك في الله لومة لائم، ينبغي أن تقول الحق ولو كان مراً، ينبغي أن تنطق بالحق ولو كان على أقرب الناس إليك، ينبغي أن تكون عدلاً، الأصل أن تكون قواماً لله، لو حدث انحراف أو تقصير، أو ظلم أو تعدٍّ، الآن موقفك أن تشهد بالعدل، فلو شهد الإنسان بالعدل اتضحت معالم الحق وانحسر الباطل، أما لو تواطأ الناس على أن يدعموا المنحرف بشهادة باطلة ضاعت معالم الحق، إذاً كما أنك مطالب أن تكون قواماً لله، مطالب أن تشهد بالعدل ولو كانت الشهادة تكلفك شيئاً كبيراً، لأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً:

(كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

وأحياناً أيها الأخوة، شهادة منصفة تحق حقاً، وتبطل باطلاً، شهادة حقٍّ تغيّر مجرى القضية بأكملها، متى ييأس الإنسان؟ إذا ضاع الحق في المجتمع.

أحد زعماء بريطانيا عقب الحرب العالمية الثانية جمع وزراءه، وسألهم واحداً وَاحداً، سأل وزير الصناعة: كيف المعامل عندك يا سيد فلان؟ قال: المعامل كلها محترقة، وسأل وزير الزراعة: كيف الزراعة عندك؟ قال: الحقول محترقة، سأل وزير الخزانة: كيف المال عندك؟ قال: الخزائن خاوية، ليس فيها شيء، سألهم واحداً وَاحداً، فلما وصل إلى وزير العدل سأله: كيف العدل عندك؟ قال: بخير، فقال هذا الزعيم البريطاني: كلنا إذاً بخير، فحينما يحق الحق، ويبطل الباطل، حينما تستطيع أن تأخذ حقك من أي إنسان كائناً من كان فنحن في خير، هذا الوضع الصحي الراقي الذي يليق ببني البشر مغطًى بهذه الكلمة:

(شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

تشهد بالعدل، ولو على نفسك.

إن لم نشهد شهادة عدل ضاعت الحقوق وإذا ضاعت الحقوق يئس الناس من هذا الدين:

يروي التاريخ أن قاضياً طلب شاهداً من سيدنا علي رضي الله عنه، فسيدنا عليُ لم يكن له شاهد في هذه القضية إلا ابنه، فالقاضي قال لسيدنا علي: يا أمير المؤمنين، لا تُقبل شهادة الابن لأبيه، فأتني بشاهد آخر، ليس عنده شاهد آخر، فحكَم للطرف الآخر وهو يهودي، عندئذ أسلم هذا اليهودي، أيعقل أن هذا القاضي يحكم لي على أمير المؤمنين، معه شهود، ولكن الشهود أولاده، وفي القضاء لا تقبل شهادة الابن لأبيه؟ الشهادة الإيجابية لا تقبل، فاعتذر، بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا انتصر المسلمون على أعدائهم، بالحق والعدل.

يروى أن قاضياً قال له غلامه: هذا الطبق من التمر من الرطب جاء به رجل، قال له: صفه لي، قال: صفته كيت وكيت، علم أنه أحد المتخاصمين عنده، قال له: ردّ الطبق، في اليوم التالي، تمنى القاضي أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أنه لم يقبله، في اليوم الثالث التقى مع أمير المؤمنين، وطلب منه أن يعفيه من منصب القضاء، قال: ولمَ؟ قال: لأنني لست أهلاً لهذا المنصب، لأنني تمنيت في اليوم التالي أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، مع أني لم آخذه، فكيف لو أخذته؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

إن لم نشهد شهادة عدل ضاعت الحقوق، وإذا ضاعت الحقوق يئس الناس من هذا الدين، لماذا ـ إن صح التعبير ـ يخرج الناس أحياناً من دين الله أفواجاً؟ لأن هذا الدين ما رأوا فيه إلا العبادات الشعائرية، لم يروا البطولات التي تلفت الأنظار، بطولات إحقاق الحق، وإبطال الباطل، نصرة المظلوم، هذا لم يُرَ.

أخلاق الحرب شيء وأخلاق الدعوة شيء آخر :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)

هذا هو التوجيه الإلهي، لكن ما الذي يحصل؟ أن المؤمن له خصم تقليدي وهو الكافر:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)

أي لا يحملنكم:

(شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا)

أي هؤلاء أعداء المؤمنين التقليديون، فينبغي أن نعامل الطرف الآخر بأعلى درجات العدل والإحسان، لأن أخلاق الحرب شيء، وأخلاق الدعوة شيء آخر، ففي الحرب:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

[سورة التوبة:73]

هذه أخلاق الجهاد، ولكن في السلم:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

[سورة فصلت: 34]

الإسلام لا ينتشر بشيوع العبادات الشعائرية ولكنه ينتشر بالعبادات التعاملية :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا)

أيها المؤمن مع من؟ مع الطرف الآخر، مع خصومكم، مع الكفار:

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

عدلكم أقرب إلى طاعة الله، وعدلكم معهم يجعلهم أقرب إلى الله، وعدلكم معهم يجعلهم أقرب إليكم:

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

أنا أيها الأخوة متأكد بفضل الله عز وجل أن الإسلام لا ينتشر بشيوع العبادات الشعائرية، ولكنه ينتشر بالعبادات التعاملية، فالصادق داعية، وإن لم ينطق بكلمة حق، والأمين داعية آخر، والعفيف داعية ثالث، لأن الله عز وجل حينما بعث النبي عليه الصلاة والسلام بعثه بمكارم الأخلاق، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الإسلام ينتشر بالمعاملة الحسنة مع الآخرين

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ولما سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثني عن الإسلام، أجابه سيدنا جعفر فقال:

((... أيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قوْماً أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ...))

[أحمد عَنْ أم سلمة]

الإسلام لا ينهض ولا يجلب أنظار الناس إليه إلا حينما يتمسك المسلمون بالقيم الأخلاقية، حينما يحدثون صدمة للطرف الآخر، ما هذا الورع؟ ما هذه الأمانة؟ ما هذا الصدق؟ ما هذا الإنصاف؟ عندها يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

ما من شيء يقنع الكافر بكفره كمسلم يقصر في تطبيق دينه :

واللهِ الذي لا إله إلا موقف أخلاقي واحد أنفع من ألف محاضرة، موقف فيه عفة، موقف فيه صدق، موقف فيه أمانة، فهو أكبر مؤثر في جلب الناس إلى هذا الدين، ولكن مهما كنت فصيحاً ومتكلماً، ولم يكن عملك كما ينبغي نفرَ الناسُ منك، دققوا في هذه الآية:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إذا سافر المسلم إلى بلد بيننا وبينه تمثيل دبلوماسي عن طريق السفارات، هل يحق له أن يشتري ببطاقة الائتمان ولا يدفع الثمن؟ يكون قد أساء إلى هذا الدين إساءة كبيرة، المسلم أمين، المسلم صادق، كيف تقنعهم بدينك إن لم تكن صادقاً؟


المسلم الخاطئ المنحرف يقنع الكافر بكفره

لذلك أيها الأخوة، تكاد تكون المشكلة على النحو التالي، حينما يرى الطرفُ الآخر مسلماً غيرَ ملتزمٍ، حينما يرى مسلماً لا يصدق، حينما يرى مسلماً لا يفي بوعده، حينما يرى مسلماً لا يحقق عهده، حينما يرى مسلماً يحتال عليه، هذا المسلم المقصر الخاطئ المنحرف يقنع الطرف الآخر أنه على حق، وهذا معنى قوله تعالى:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

أي يا رب لا تجعلني سبباً كي أفتن الكافر بكفره، إذا رأى الكافرُ المسلمَ الكاذبَ والمقصرَ، والذي يدلي بتصريح كاذب، والذي يخلف وعده، والذي لا ينجز عهده، ماذا يقول في نفسه؟ يقول: ليسوا على حق، أنا على حق، أنا أصدق ولا أكذب، أنا أتقن عملي، أنا عند وعدي وعند عهدي، فلذلك ما من شيء يقنع الكافرَ بكفره كمسلم يقصر في تطبيق دينه، والآية دقيقة جداً:

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة الممتحنة: 5]

علينا أن نتقي غضب الله وعقابه ونقمته وفُجاءة حسابه :

هذه الآية أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

أي إذا عدلت مع الطرف الآخر كنت أقربَ إلى الله أنت، وإذا عدلتَ مع الطرف الآخر قربته إلى الله، وإذا عدلت مع الطرف الآخر قربته إليك، اقتربت أنت، وقرّبته إليك، إذا كنت عادلاً مع الطرف الآخر:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

هذا تهديد أيضاً أي اتقوا غضب الله، اتقوا عقابه، اتقوا نقمته، اتقوا فُجاءة حسابه:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

للفعل (قسط) معنيان متعاكسان :

يا أيها الأخوة، بقيت ملحوظة على كلمة القِسْط، فقسَط يقسط قسطاً أي عدَل، وقسَط يقسط إقساطاً أي ظلم، هذا الفعل له معنيان متعاكسان، لكن أقسط أزال الظلم.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

قسط يقسط ظلم يظلم، قسط يقسط عدل يعدل، أقسط يقسط أزال الظلم، فقسط عدَل ابتداء، أقسط أزال الظلم، فكان عمله عدلاً، ومما يروى أن رجلاً دخل على بعض الأمراء فقال له: أنت قاسط عادل، قال: أتدرون ماذا قال لي؟ قال لي: أنت ظالم كافر، فقالوا: كيف؟ قال: بقوله تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً)

[سورة الجن: 15]

وقوله:

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

[سورة الأنعام: 1]

إذاً القسط العدل، الإقساط، أقسط إقساطاً إزالة الظلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتقوا عقابه، واتقوا غضبه، واتقوا عذاب الدنيا، واتقوا عذاب النار:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

بإمكانك أن تعمل عملاً في ظاهره جيد، ولكن في حقيقته ليس بجيد، مَن هو الخبير بعملك؟ الله جل جلاله يعلم السر وأخفى.

ما ينتظر المؤمن من نعيم وما ينتظر الكافر من جحيم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

الأخطاء التي تابوا منها تُمحى، وتنتظرهم سعادة أبدية لا توصف:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)

عما سلف منهم من خطأ:

(وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذا ما ينتظرهم من نعيم مقيم في جنة عرضها السماوات والأرض، وبالمقابل:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

هذا الذي كفر، أي لم يصدق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وبما جاء به القرآن، وأعرض عن الله مع التكذيب:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

أصحاب الهلاك في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (11- 49): تفسير الآية 11 ، النعم والمنعم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-10-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

التلازم الحتمي بين رؤية النعمة ومحبة المنعم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الحادي عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة، من خصائص النفس البشرية أنها جبلت على حب من أحسن إليها، فهنالك تلازم حتمي بين رؤية النعمة ومحبة المنعم، هذا شيء قطعي، إلا أن الإنسان قد ينسى النعم، وأحيانا يبحث عن الشيء الذي ينقصه، فإذا هو في همّ وحزن وسخط، وأحيانا يبلغ درجة النقمة، وهو مغمور بالنعم، ولأن هذا الدين أساسه محبة الله، ومحبة الله أساسية في العبادة، لأن من أدق تعريفات العبادة: طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية، ما عبدَ الله من أطاعه ولم يحبه، كما أنه ما عبد الله من أحبه ولم يطعه، لا بد من طاعة طوعية، وليست قسرية، وأن تكون هذه الطاعة الطوعية ممزوجة بمحبة قلبية، فمن أجل أن تحب الله ينبغي أن ترى نعمه، والإنسان نسّاء، قد ينسى، قد يكون متزوجاً، والزواج نعمة، وقد يكون سليم الأعضاء، والسلامة نعمة، وقد يملك عقلاً راجحاً، والعقل نعمة، وقد يكون عنده أولاد نجباء، والأولاد نعمة، لكن بعض مشكلات الحياة تصرفه عن شكر الله، فلذلك البطولة أن ترى ما عندك، والذي عندك كبير، وإذا أردنا أن نعدد النعم فالنعم لا تعد ولا تحصى، بل إن النعمة الواحدة لا يمكن أن نستقصي خيراتها طوال الحياة، من هنا جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ)

أية نعمة أنعم الله بها عليك ينبغي أن تملأ قلبك محبة له، ورد في بعض الآثار القدسية أن أحد الأنبياء قال: يا رب أيّ عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحبُّ عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي لأحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي.

استقرار محبة الله والخوف منه وتعظيمه في قلب المؤمن :

ينبغي أن تحب الله، وينبغي أن تحب من يحب الله، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، فقال: يا رب إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكّرهم بنعمائي، وآلائي، وبلائي، النعمة تدعوك إلى محبة الله، والبلاء يدعوك إلى الخوف منه، والآلاء تدعوك إلى تعظيمه، لا بد من أن تعظمه، لأن هذا الذي في النار يخبر الله عنه:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة:33]

ينبغي أن تعظمه، وينبغي أن تحبه، وينبغي أن تخاف منه، فهذه مشاعر ثلاثة ينبغي أن تكون مستقرة في قلب المؤمن، فالله عز وجل يأمرنا، وكل أمر يقتضي الوجوب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ)

أنت لستَ ملاحقاً، أليست هذه نعمة؟ أنك حر، ليس عندك فضيحة في البيت، أحياناً يستدعى إنسان إلى قسم الشرطة ليسلّم ابنته الزانية، ما الذي يحصل لهذا الأب؟ عندك بنات شريفات مصونات، عندك أولاد لهم سمعة طيبة، لك زوجة ترضيك، وترضي الله عز وجل، لك دخل قليل، أقلُّ من حاجتك، هذا ممكن، هذه الدنيا دار ابتلاء، ومعنى دار ابتلاء أن الله امتحنك بها بزمرتين من الامتحانات؛ امتحنك فيما أعطاك، وامتحنك فيما زوى عنك، لأن الله سبحانه وتعالى جعل حقيقة الدنيا الابتلاء.

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

بعض من نعم الله علينا التي لا تعد ولا تحصى :

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا)

إذاً التحدث للنفس بنعم الله، سبحان الله! فهم بعضهم التحدث بنعم الله أن تجلس في مجلس، وأن تتحدث عن رحلاتك، وعن إنفاقك للمال، وعن ولائمك، وعن أصحابك، وعن مصروفك الشهري، فتدخل الأسى على قلوب هؤلاء الذين حولك، التحدث بنعم الله أن تحدث نفسك بنعم الله، أكبر نعمة أنعم الله بها عليك أنك موجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان: 1]

نعمة أخرى: جعلك من أبوين، ولست لقيطاً، لك أب، ولك أم. نعمة ثالثة: منحك السلامة في الأعضاء والأجهزة، هذه نعمة ثالثة. نعمة رابعة: عرفك بذاته، وهذه أعظم النعم، النعم إذا صنفت يقع على رأسها معرفة الله عز وجل، فأنت في حياتك حلال وحرام، وشيء مسموح وشيء ممنوع، عندك مجموع قيم تنتظم سلوكك، هؤلاء الذين يديرون بيوت الدعارة هل عندهم قيم؟ الذين يبنون رزقهم على إفساد الآخرين، يبنون حياتهم على موت الآخرين، يبنون أمنهم على خوف الآخرين، يبنون عزهم على إذلال الآخرين، كنت أقول دائماً: في آخر الزمان إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة لإفقار المسلمين أو لإضلالهم أو لإذلالهم أو لإفسادهم فأنت في نعمة لا تقدر بثمن، تنام مساء مرتاح البال، لست سبباً في شقاء إنسان، أنا أذكركم بالنعم السلبية، قبل أن تكون غنياً، قبل أن تكون قوياً، فما لم تكن سبباً في شقاء الخلق فهذه نعمة كبرى، لك نسب واضح، لك أم وأب، تتمتع بصحة، لك مأوى تأوي إليه، لك زوجة تحصنك عن أن تتطلع إلى ما عند الآخرين، لك أولاد يملؤون البيت بهجة وسروراً، هذه كلها من نعم الله.

الشكر يحصن النعمة :

وعدنا الله عز وجل فقال:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

[سورة إبراهيم: 7]

الشكر يحصن النعمة، بل إن علة خلقك في الدنيا أن تعرفه، وأن تشكره، بدليل قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

ينبغي أن تشكره بعد أن تعرفه، فحينما تتعرف إليه، وحينما تشكره تحقق الهدف من وجودك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة أنه أسمعك الحق، لو ذهبت إلى بلاد بعيدة شرقاً وغرباً حيث لا زواج ولا بعقد مدني، ولا بعقد الكنيسة، يعاملها كزوجة، وفي أية لحظة يركلها بقدمه، هكذا يعيش الغرب والشرق، أنت لك زوجة بعقد شرعي، تشعر أنك تحت غطاء الله عز وجل، ولك أولاد نسبهم معروف، أنا أذكركم بالنعم التي نتمتع بها، والتي لا تقدر بثمن، في حياة المسلمين شيء اسمه حرام، وشيء اسمه حلال، شيء اسمه مكروه، شيء اسمه واجب، شيء اسمه مستحب، أشياء كثيرة، هذه من الخيرات التي ينعم الله بها على المسلمين المتمسكين بدينهم، أما هؤلاء الذين لم يتمسكوا فقد خسروا الدنيا والآخرة، فلا هم مع أهل الكفر بقوتهم واستمتاعهم بالحياة كما يحبون، ولا هم

مع أهل الإيمان بتطلعهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ولا هم راضون عن الله عز وجل، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء.

تمام النعمة الهدى :

أيها الأخوة، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن نعمة الهدى لا تعدلها نعمة، وتأكد أن نعمة الهدى تشبه الرقم واحداً، فإذا كنت صحيحاً فأمام هذا الواحد صفر، وإذا كنت منعماً عليك بقدرات معينة مهنية أو عقلية فهذه نعمة ثانية، الصحة نعمة، القدرات العقلية نعمة، الزوجة نعمة، الأولاد نعمة، كلها أصفار، لكن لو سحبت هذا الواحد من هذا الرقم ماذا بقي من هذا الرقم؟ أصفار، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى.

والإمام علي كرم الله وجهه يرى أنه من أولى النعم بالشكر هدايتك إلى الله عز وجل، تأتي بعدها الصحة، وبعدها الكفاية. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ]

أي مطمئنّاً إلى الله عز وجل، مطمئنّاً إلى مصيره مع الله.

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

أصبغ الله عليه بنعمة الأمن، الأمن خاص بالمؤمنين.

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام: 81-82]

تذكُّر النعم من العبادة :

الآن ربنا عز وجل في آيات أخرى يقول:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

أيام الله هي الأيام العصيبة التي لاح لك فيها شبح مصيبة كبيرة، ثم نجاك الله منها بقدرة قادر، هذا يوم ينبغي ألاّ تنساه:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

ما من مؤمن إلا وله مع الله أيام، بامتحان، بتهمة هو بريء منها، بعقدة في عمله، بعقدة في زوجته، بصحة زوجة، بمرض داهم أحد أولاده، ثم شفاه الله عز وجل، هذه الأيام ينبغي أن تذكرها:

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)

[سورة إبراهيم: 5]

يبدو أن تذكُّر النعم من العبادة، وحينما يذكر الإنسان الإيجابيات تصغر عنده السلبيات. أذكر مرة أنه جاءني أخ أجمعَ على أن يطلق زوجته، أنا استدرجته إلى ميزاتها دون أن يشعر، قلت له كلمة لكنها قاسية: لعلها تكون كذا؟ قال لي: معاذ الله يا أستاذ، إنها امرأة شريفة، لعلها لا تحسن الطبخ؟ قال لي: والله طبخها ممتاز، لعلها ليست نظيفة؟ قال لي: لا والله، إنها نظيفة، فهو دون أن يشعر ذكر أنها شريفة، وأنها نظيفة، وأنها طباخة ماهرة، وأنها أم أولاده ثم استحيا أن يتابع الموضوع واستأذن وانصرف لقد كان غافلاً عن هذه النعم.

البطولة أن نرى الإيجابيات والسلبيات معاً :

كل بطولتك أن ترى الإيجابيات والسلبيات معاً، وهذا الذي يرى السلبيات شيطان، لما التقى النبي عليه الصلاة والسلام بصهره بين الأسرى ما معنى أن يكون صهره بين الأسرى، أي أنه كان مشاركاً في معركة ضد صهره، وإذا شارك إنسان في معركة ماذا ينتظر؟ أن يقتل، أليس كذلك؟ فلما نظر إلى صهره بين الأسرى قال: والله ما ذممناه صهراً، فهو كصهر ممتاز، أرأيت إلى الإنصاف، حتى إنك إن أردت أن تعاتب إنساناً، أو أن تلفت نظره إلى تقصير يقول علماء النفس: ينبغي أن تبدأ بإيجابياته، وهكذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل إنسان، وأحدث جلبة وضجيجاً بالمسجد ليلحق بركعة مع رسول الله، فلما انتهت الصلاة قال النبي عليه الصلاة والسلام: زادك الله حرصاً، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ:

((أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصاً وَلَا تَعُدْ))

[البخاري عَنْ أَبِي بَكْرَةَ]

ميزة، زادك الله حرصاً ولا تعد، شوشت علينا، لكن زادك الله حرصاً، وطّن نفسك أنك إذا أردت أن تنتقد إنساناً انتقده نقداً بناء، أو أن تلفت نظره إلى قضية وطّن نفسك أن تذكر له ما يتمتع به من إيجابيات كي يطمئن إلى إنصافك، النموذج الذي لا يحتمل في المجتمع أنه لا يرى إلا العيوب، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر، وكان يستعيذ عليه الصلاة والسلام بجار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه، وبين المسلمين

إنسان لا يرى إلا الخطأ، وهو قناص، فإن أصاب خطأ شهّر به، ويكون صاحب هذا الخطأ مليئاً بالفضائل، هذا الذي قال فيه تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور: 19]

هذا الذي ينشر القصص السيئة، أو يبني على أوهام قصة لم يتحقق منها، حتى إنه قد قيل في الأثر: " قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة "، هذه التي قالت لأختها: قصيرة، السيدة عائشة ماذا قال لها النبي عليه الصلاة والسلام؟ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً فقالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلاً وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً فقالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

على الإنسان أن يحب الله ووسائل محبة الله أن يذكر نعمه :

على الإنسان دائماً أن يتذكر النعم، نعمة البيت، لك مأوى، لك عمل، لك زوجة، لك أولاد، لك مسجد، أنت على شيء من العلم، لا تضجر، الله عز وجل أراد أن يمتحنك في الدنيا، وقد قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

لو أن واحداً لا سمح الله ولا قدر كانت زوجته لا ترد يد لامس كيف يعيش في عمله؟ مضطرباً، قلقاً، خائفاً، في شك، في اضطراب، ليس مرتاحاً لعفة زوجته، أما نعمة الزوجة العفيفة هذه لا تقدر بثمن، تسافر وتغيب وأنت مطمئن أن أحداً لم يدخل بيتك في غيبتك، وأن إنساناً لم يضع يده على يدها، نعمة هذه، فكلما ذكرت نعم الله عز وجل أحببته، وقد ورد:

((أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه.))

[الترمذي عن ابن عباس]

أي يجب أن تحب الله، ووسائل محبة الله أن تذكر نعمه، لذلك علمنا النبي عليه الصلاة والسلام أنك إذا رأيت إنساناً مبتلى بمرض عضال ينبغي أن تشكر الله على أنه عافاك من هذا المرض من دون أن تسمعه ذلك، فعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ فقال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً إِلَّا عُوفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْبَلَاءِ كَائِناً مَا كَانَ مَا عَاشَ... وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قالَ: إِذَا رَأَى صَاحِبَ بَلَاءٍ فَتَعَوَّذَ مِنْهُ يَقُولُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ وَلَا يُسْمِعُ صَاحِبَ الْبَلَاءِ))

[الترمذي عَنْ عُمَرَ]

إذا كان الإنسان عاجزاً عن إحصاء النعم فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى:

هذا من أدبك مع الناس، أن تدعو له بالشفاء بينك وبين نفسك، وينبغي أن تشكر الله على أنه عافاك من هذا المرض، عافاك من هذه المشكلة، عافاك من هذه المصيبة، نعم الله لا تعد ولا تحصى، نحن عاجزون عن شكرها، بل عن إحصاءها.

كنت أضرب هذا المثل دائماً، ثمة رجل جاءه مولود، فجاءته مئة هدية، أيهما أسهل أن يمسك ورقة وقلماً، ويكتب عدد هذه الهدايا ومن قدمها بربع ساعة، أم أن يرد على كل هذه الهدايا بهدية مثلها، أيهما أهون؟ الإحصاء أهون بكثير، فإذا كان الإنسان عاجزاً عن إحصاء النعم فلأن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى.

والله أيها الأخوة: نعمة البصر، نعمة السمع، نعمة النطق، نعمة إفراغ الفضلات، هذا الذي يحمل كيساً إلى جانبه، وثمنه مبلغ كبير يريد تبديله كل فترة، ولا يعرف متى خرج هذا الغائط منه، أناس كثيرون معهم هذا المرض، إنسان يضطر إلى أن يغسل كليته كل أسبوع ثلاث مرات، وكل مرة بثلاثة آلاف ليرة، وكل مرة خمس ساعات، كليتاك تستعملان بانتظام، فهذه نعمة، النبي علمنا أدعية كثيرة، في النوم والاستيقاظ منه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا قامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ]

هناك إنسان يأتي إلى البيت بعد الفجر، لكن من الملهى، لا من المسجد، شتان بين أن تأتي البيت بعد الفجر من المسجد وأن تأتيه من الملهى، أليس كذلك؟ أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

كن مع الله بنعمه.

الفرق الكبير والجوهري بين المؤمن والكافر أن الكافر مع النعمةلكن المؤمن مع المنعم:

أخواننا الكرام: الفرق الكبير والجوهري بين المؤمن والكافر أن الكافر مع النعمة، لكن المؤمن مع المنعم، المؤمن خرق النعمة إلى المنعم، فإذا كان في بحبوحة يرى فضل الله عليه، وإذا كان في أمن يرى فضل الله عليه، وإذا كان في صحة يرى فضل الله عليه، وإذا كانت له زوجة يرى فضل الله عليه، له أولاد يرى فضل الله عليه، هذه النعم إذا شكرت الله عليها حصّنت، وإذا كفرت أتلفت، حتى إن الله عز وجل إذا أنعم على عبد نعمة، وبخل بها عن الناس حوّلها إلى غيره، يقرّها فيهم ما بذلوها، فإن منعوها أهلها صرّفها عنهم.

أروي قصة قديمة، قصة بيت من بيوت دمشق العريقة فيها شجرة ليمون تنتج في العام أربعمئة حبة أو أكثر، كل أهل الحي كلما احتاجوا إلى حبة ليمون يطرقون الباب، وفي هذا البيت امرأة صالحة كبيرة في السن، فكلما سئلت حبة ليمون قدّمت للسائل هذه الحبة، ثم توفيت، عندها زوجة ابن شابة رعناء، طرق الباب فطردت السائل، والثاني طردته، في العام الثاني يبست هذه الشجرة، قيسوا عليها كل شيء.
تبذل يمدك الله، تمنع فضلك يحرمك الله، بل إذا أراد الله إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك، وإن الله يحب أن يكون الخير على يديك، بدليل قوله تعالى:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

[سورة محمد:4]

الله قادر ألاّ يبقِي كافراً، لكن قال لك: يا عبدي أحب أن تقوم أنت كي أجري على يديك هذا النصر.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد:4]

فالله عز وجل فتح لنا في الدنيا أبواب جنته على مصاريعها عن طريق الأعمال الصالحة، وأجمل شيء يمكن أن يقال في هذه الآية: إن الطريق إلى الله واحد، لكن طرق الضلال لا تعد ولا تحصى، والدليل:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ)

[سورة الأنعام: 153]

(صِرَاطِي)

مفرد،

(مُسْتَقِيماً)

فبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، الثاني يأتي فوقه تماماً، ارسم نقطتين على ورق، وائتِ بمسطرة، وارسم خطّاً بينهما، ارسم خطّاً ثانياً، يأتي فوق الأول، والخط الثالث فوق الثاني، فالحق لا يتعدد أبداً،

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً)

لكن بين هاتين النقطتين يمر مليون خط منكسر، ومليون خط منحنٍ، فالباطل متعدد، والحق واحد.

الباطل متعددأمّاالحق فلا يتعدد :

قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام: 153]

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ)

[سورة المائدة: 16]

جمع:

(إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة: 16]

طيب قد يقول قائل: لمَ لمْ تكن الآية: يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار، أو من الظلمة إلى النور، لا! من الظلمات، الباطل ظلمات بعضها فوق بعض، الباطل متعدد، أمّا الحق فلا يتعدد، لذلك قالوا: الحرب بين حقين لا تكون، لماذا؟ لأن الحق لا يتعدد، مستحيل، وبين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، وبين باطلين لا تنتهي، مع العمر تنتهي، وبين حق وباطل لا تطول، بين حقين لا تكون، بين باطلين لا تنتهي.

من النعم الظاهرة ما تتمتع به من صحة ومال ومن النعم الباطنة ما زوي عنك :

أيها الأخوة، من العبادة أن تذكر نعمة الله عليك، النعم العامة والنعم الخاصة، النعم الخاصة أيام الله، الصحة نعمة عامة، والزواج نعمة عامة، مرة لاح شبح مرض أصاب ابنك ـ لا سمح الله ـ فدعوت الله، وتصدقت، وأخذته إلى طبيب تثق بعلمه، فشفاه الله، وأصبح المرض ذكرى، هذا من أيام الله، أن الله استجاب لك وشفى لك ابنك، لكن المؤمن أحياناً كما قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

لذلك من النعم الظاهرة ما تتمتع به من صحة ومال وغيرها من النعم، ومن النعم الباطنة ما زوي عنك، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول: اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعل عوناً لي فيما

تحب، أي رزقتني صحة، أن تكون في طاعة الله، رزقتني مالاً، أن يكون في رضوان الله، وما زويت عني ما أحب، فلانة كنت أتمنى أن أتزوجها لكن الأمر لم ييسر، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

مرة طالب علم كان في درس أمامي، قال لي: ما حكمة الزوجة التي هي أقلُّ من طموح زوجها؟ قلت له: حتى نراك في الدرس، أحياناً يعبد الإنسان امرأته من دون الله، وينسى أنه يعبدها، لحكمة بالغة كانت هذه زوجتك، ارض بها تكن أغنى الناس.

حينما نفقد المثل الأعلى نضيعونتيه في الحياة وهذه إحدىأكبر مشكلات المسلمين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

لكن الآية تشير إلى نعمة خاصة، النبي عليه الصلاة والسلام كان بينه وبين بني قريظة عهد، فلما زارهم لينفذ بنود العهد ائتمروا على قتله، فأجلسوه في مكان وأعطوا إشارة لمن يأتي إلى السطح، ويرمي النبي بصخرة تقتله، فجاءه الوحي وغادر قبل أن يفعلوا فعلتهم، فالملمح في الآية أن هذه نعمة ليست للنبي بل للمؤمنين، والإنسان قوته في مرجعيته الدينية، فإذا كان لك مرجع ديني أنت واثق منه، مرتاح له، تثق بورعه وعلمه وتستشيره، ويدلك على الله عز وجل فهذه نعمة كبيرة، وأنا أقول لك: أكبر مصيبة أن يفقد الناس المثل الأعلى، حينما نفقد المثل الأعلى نضيع، ونتيه في الحياة، وهذه إحدى أكبر مشكلات المسلمين، ليس لهم مثل أعلى، ومن بعض المؤامرات على المسلمين أن يُهزّ المثل العليا الآن حتى نيأس، يقال لك: ليس هناك مثلٌ جيد أعلى، هذا فقرة من فقرات الكيد للمسلمين، أن تهتز عندك المثل العليا، أنت لك قريب بجامع ومستقيم، وسمته حسن وصالح، وله أعمال طيبة، إنه لا يرضي الله أن تهز مثله الأعلى، ما دام التزم بالمسجد وهو يمشي بشكل صحيح، ويغلب عليه الصلاح والتستر، عقيدته سليمة، يؤدي الفرائض تماماً، لا يأكل مال حرام، فمن الخطأ الكبير أن تهز له مثله الأعلى، البطولة أن تأتِي بإنسان من ملهى إلى المسجد، لا من جامع إلى جامع، إذا كنت بطلاً فآت بالعاصي تارك الصلاة من ملهى إلى مسجد، أما أن تذهب إلى جامع آخر لتفسد هذا الطالب على شيخه فهذا سلوك غير مقبول إلا إذا كان فيه انحراف خطير في العقيدة هذا موضوع ثان، وتصير هذه نصيحة له، أما أن يغلب على هذا المسجد الصلاح والتستر، وليس فيه مشكلة كبيرة في العقيدة، فالأولى أن يكون الإنسان أداة جمع لا أداة تفريق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه: 45-46]

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (12-49) : تفسير الآية 12 ، الميثاق ومعية الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الميثاق بين العبد وبين ربه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية عشرة من هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

أيها الأخوة، تكلمت في درس سابق عن الميثاق الذي بين العبد وبين ربه، من أوجه ما قاله المفسرون عن الميثاق أن العقل من الميثاق، وأن الفطرة من الميثاق، وأن الرسالة من الله عن طريق النبي من الميثاق.

أي أن الله سبحانه وتعالى أعطاك عقلاً تستطيع به أن تتعرف إلى الله، فهو مناط التكليف، بل إن بنية العقل متوافقة مع قوانين الكون، فكما أن في الكون لا يحدث شيء إلا بسبب، ولا يحدث شيء إلا بغاية، ولا يمكن أن يكون في الكون تناقضٌ، كذلك العقل لا يفهم شيئاً إلا بسبب، ولا يفهم شيئاً إلا بغاية، ولا يقبل التناقض.

فالميثاق الأول هو العقل الذي بمبادئه متوافق مع قواعد الكون، أداة معرفة الله، والفطرة؛ جبلّة جبلنا عليها، هذه الجبلة متطابقة تطابقاً تاماً مع منهج الله بنداً بَنداً، إذا أمر الله أن تكون صادقاً فإنك جبلت على حب الصدق، لذلك سيان بين أن تطيع الله أو أن تستجيب لقوانين فطرتك، فأنت في الحالين واحد.

رسالة الله إلى البشر ميثاق وعقولهم ميثاق وفطرهم ميثاق :

الآن من يعصي الله يختل توازنه من حيث الفطرة، إذاً الفطرة ميثاق، والعقل ميثاق، وهذا الشرع الذي أنزله الله ميثاق، فرسالة الله إلى البشر ميثاق، وعقولهم ميثاق، وفطرهم ميثاق:

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً)

أي رئيساً، الإنسان يتولى شؤون من حوله، يطلع على أحوالهم، يأخذ بيدهم إلى الله عز وجل، هؤلاء النقباء اثنا عشر، لكن مركز الثقل في الآية:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

أي من الحياة الواقعية، إذا قالت أعلى جهة في الدولة لمواطن: أنا معك، فمن يستطيع في هذا النظام كله أن يصل إليك؟ إذا قال رأس النظام: إني معك، هذا في عالم الدنيا، فإذا قال خالق الأكوان، إذا قال رب العالمين، إذا قال الواحد الديان: أنا معك، من يستطيع في الأرض أن يصل إليك؟ إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

لكن العلماء قالوا: المعية معيتان؛ معية عامة، ومعية خاصة، المعية العامة أن الله مع كل الخلق، حتى من كان كافراً، حتى من كان ملحداً، معهم بعلمه، الله عز وجل مهيمن، مسيطر، لا تغيب عنه غائبة، لا يخفى عليه شيء، لا يقع شيء في الكون إلا بإذنه وإرادته، إذاً الله مع الخلق جميعاً، لكن معهم بعلمه، إلا أنه مع المؤمنين من نوع آخر، مع المؤمن بالتوفيق، مع المؤمن بالحفظ، مع المؤمن بالتأييد، مع المؤمن بالنصر، مع المؤمن بأن يأخذ بيده إلى سعادته.

ثمن المعية الخاصة :

لذلك إذا قال الله عز وجل:

(إِنِّي مَعَكُمْ)

فهذه معية خاصة لذلك الآية:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال: 19]

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة البقرة: 19]

إن الله مع الصادقين، مع التفصيل، وَقَالَ اللَّهُ:

(إِنِّي مَعَكُمْ)

الآن ثمن المعية، ليس هناك شيء بلا ثمن في الأرض، في أصل الخلق ما من شيء بلا ثمن:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

أنت حينما تصلي الصلاة التي أرادها الله كأنك تدفع ثمن معية الله، دفعت بند من هذا الثمن، إن صليت صلاةً خاشعة، إن سبقت الصلاة استقامة على أمر الله، إن صليت وأقبلت، إن صليت وخشعت، إن صليت واتصلت:

(لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

لذلك:

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[رواه الطبراني عن معاذ]

أهمية الصلاة :

بين المسلم والكافر ترك الصلاة، الصلاة هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، يسقط الصيام عن المريض والمسافر، ويسقط الحج عن الفقير والمريض، وتسقط الزكاة عن الفقير، والنطق بالشهادة مرة في العمر، الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال هو الصلاة، ذلك أن الصلاة فيها معنى الصيام، فإذا كان الصائم يدع الطعام والشراب فالمصلي يدع الطعام والشراب والحركة، ففيها من الصيام معنى الترك، وفيها من الحج معنى التوجه إلى القبلة، أنت في الصلاة تتوجه إلى القبلة إلى بيت الله الحرام، وفيها من معنى الزكاة أن الوقت أصل في كسب المال، كسب المال يحتاج إلى أربعة عناصر، هذه حقائق تدرس في الجامعة، يحتاج إلى مواد، ويحتاج إلى معلومات، ويحتاج إلى أشخاص، ويحتاج إلى وقت، ما من إنجاز على وجه الأرض إلا وفيه مواد، معلومات، أشخاص، وقت، فالوقت، بل إن الوقت أخطر هذه العناصر كلها، فمن دون وقت لا تجد أشخاصاً، ولا تجد أموالاً، ولا مواد، ولا خبرات، الوقت وعاء كل ذلك، فإذا كان الوقت أصلاً في كسب المال فمن اقتطع من وقته وقتاً ليصلي فكأنه أدى مقابل هذا الوقت مالاً، إذاً في معنى الزكاة الوقت، أن الوقت أصل في كسب المال، من معنى الحج التوجه إلى بيت الله الحرام، من معنى الصيام ترك الطعام والشراب والحركة والكلام، من معنى الشهادتين في الصلاة نطق للشهادتين:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنِ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ)

لذلك لا يمكن أن نتساهل في الصلاة، فإذا جاءك خاطب لابنتك ولا يصلي ليس لك معه مصلحة إطلاقاً، لأنها أول عبادة، عماد الدين، عصام اليقين، سيدة العبادات، غرة الطاعات، معراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات هي الصلاة.

المؤمن متصل ومحسن وغير المؤمن منقطع ومسيء :

قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ)

أي بالمفهوم الضيق أديت زكاة مالك، لكن بالمفهوم الواسع الزكاة عطاء، بذل، فالمعنى هنا العمومي الشمولي أنك تتصل بالله وتبذل للخلق، كما قال سيدنا عيسى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 31]

كأن الدين كله حركة مع الله؛ اتصال، واستغفار، وتوبة، ومناجاة، وإقبال، وحركة نحو الخلق إحساناً، ما من مسلم إلا وله صلة بالله، وإحسان إلى الخلق، ما من إنسان شارد ضائع إلا وله قطيعة مع الله، وإساءة إلى الخلق، إن أردت تفسيراً واضحاً صارخاً هو أن المؤمن متصل ومحسن، وغير المؤمن منقطع ومسيء:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ)

لذلك:

((أرحْنا بها يا بلالُ))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

الصلاة نور، قلما يرى المصلي رؤية مشوهة، ما من عمل سيئ إلا وراءه رؤية غير صحيحة، أما أوضح شيء، ماذا يرى السارق قبل أن يسرق؟ يرى أنها كسب كبير بجهد قليل، ماذا يرى الزاني قبل أن يزني؟ فرصة لا تعوض، إذاً كل الأعمال الكبيرة الإجرامية وراءها رؤية خاطئة، إنك إن صليت اتصلت بالله، ألقى الله بقلبك النور، رأيت الحق حقاً والباطل باطلاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

الصلاة معراج المؤمن :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

فالصلاة نور، والصلاة طهور، لا غل مع الصلاة ولا حقد، وليس هناك أمراض نفسية مع الصلاة، هي طهور، ونور، وحبور، وسعادة، أرحنا بها، والصلاة عقل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

معنى المصلي يعقل ما يقرأ:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

فالذي لا يعلم ما يقول لم يعقل من الصلاة شيء كأنه لم يصلّ، فالصلاة عقل، الصلاة قرب.

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق: 19]

الصلاة ذكر:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه:14]

الصلاة معراج، الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى، وبشكل مختصر لا تستطيع إن عملت عملاً سيئاً أن تصلي، ثمة حجاب كثيف بينك وبين الله، بل إن إقبالك على الله عقب عمل ما دليل صحته، لأنك لو كنت صادقاً مع نفسك وعملت عملاً سيئاً أنت في الصلاة تشعر بحجاب كثيف، وكأن هناك حجاباً بينك وبين الله، فالصلاة معراج المؤمن:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ)

ما دامت سنة النبي الكريم قائمة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله :

أحسنت بذلت، طبعاً أداء الزكاة داخل في هذه الآية، لكن لو وسعت المعنى مطلق العطاء، المؤمن يعطي، وغير المؤمن همه الأخذ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا شيئاً، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، وهناك أناس بينَ بين، يأخذون ويعطون:

(وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

الرسول بأحاديثه الشريفة الموضحة لكتاب الله مرجع لك، فالمؤمن الصادق مرجعه الوحيان الكتاب والسنة، لكن هناك إنسان مرجعه القانون فقط، فإذا كان القانون معه ولو كان ظالماً يعتز به، بينما المؤمن لا يرتاح إلا إذا كانت السنة النبوية معه، من هنا يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

النبي توفاه الله عز وجل، وانتقل إلى الرفيق الأعلى، ما معنى الآية؟ أي ما دامت سنة النبي، منهجه، قائماً في الناس، بيعك، شرائك، كسبك للمال، بيتك، بناتك، زوجتك، أولادك، اللهو كيف يكون؟ الأفراح كيف تكون؟ الأتراح كيف تكون؟ السفر كيف يكون؟ ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة في حياتنا فنحن في مأمن من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

في حالتين لا يعذَّب إذا كان وفق منهج رسول الله أو كان يستغفر :
الآن أخطأنا، ولكن لا زلنا في بحبوحة ثانية.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

أنت في حالتين لا تعذب إذا كنت وفق منهج رسول الله، أو كنت تستغفر، أما إذا لم تكن على المنهج، ولا تستغفر إذاً لا بد من أن تعذب:

(لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي)

الرسول أهم شخص في حياتك، منهجه أهم منهج، توجيهه أهم توجيه، أما الرسول فقط تصلي عليه صلاةً جوفاء، وأنت تخالف منهجه في كل دقيقة فليس هذا إيماناً بالرسول، الإيمان بالرسول أن تؤمن بمنهجه:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أي نصرتم رسل الله، وبعد ارتحال النبي إلى الرفيق، أيّدتم من ينطق نيابة عن رسول الله، هناك إنسان أساس حركته بالحياة تأييد للحق، وإنسان آخر نقد له.

الآن أحياناً يبلغ أن أخاً صديقاً التحق بجامع، والجامع عقيدته سليمة، منهجه صحيح، فأنت أن تمتن، أن تثني على هذا الأخ الذي انضم، والتزم، واستقام، أو أن تثبط عزيمته، فصفات المؤمن معزز:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

كل إنسان دعا إلى الله وكان صادقاً ينبغي أن تدعمه حتى لو بالقول فقط :

كل إنسان دعا إلى الله، وكان صادقاً، وكانت عقيدته سليمة، ومنهجه صحيحاً، وكان بالتعبير المعاصر نظيفاً ينبغي أن تدعمه، يكفي أن تدعمه بالقول، شخص التزم عنده؛ بارك الله، والله فرحت لك، الزم، هذا نوع من الدعم، وإن كنت أنت معه دعمته أيضاً إما بحضورك، الحضور دعم، أنت عندما تحضر درساً تقوّي همة الآخرين، وإذا وجد عند أحد أربعة أو خمسة فقط، يحكم عليه من العدد، وإن وجد في جمع كبير معناها أن ثمة شيئاً ثميناً بالدرس، فأنت حينما تكثر سواد طلاب العلم هذا نوع من الدعم، قد تكون مشغولاً، لمجرد أنك أطللت إلى المسجد فلك مكانتك، أنت يتأسى الضعاف بك، فلان يحضر يا أخي، إذا كانت لإنسان مكانة، له شأن، له دراسة، يحمل شهادة، له دور بالحياة أساسي، ولزم مجلس علم، وجلس على الأرض، وأصغى إلى الدرس فهذا دعم للحق كبير جداً، هناك أعمال صالحة تكلفك

حضوراً فقط، أنت بهذا كثرت سواد أهل الحق، لكن أحياناً تجد من أجل مباراة رياضية يقول لك: مئتان وخمسون ألفاً، ما شاء الله!! ومن أجل حضور أمسية غائية يقول لك: ستون ألفاً حضروا مثلاً، فأنت بين أن تدعم أهل الباطل وبين أن تدعم أهل الحق فرق كبير:

(وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أنت أيدت، ونصرت، وعززت، إن كنت مع رسول الله ينبغي أن تعزر هذا النبي الكريم، وإذا كنت مع مخلص ينوب عنه بإلقاء العلم يجب أن تعاونه، فأقلّ أنواع المعاونة إذا التزم إنسان هنئه وشجعه، وهناك إنسان والعياذ بالله يقطع الناس عن الحق، ماذا تريد من هذا الزحام؟ اجلس في بيتك فثمة الراحة، لا أحد جيد، لا أحد نظيف، لا تغلب حالك، هكذا يقولون، لا عمل له إلا أن يقطع الناس عن منابع الدين أو عن مرجعيات الدين، فأنت أقل دعم إذا كان لك أخ صديق والتزم بجامع، واستفاد، وتاب،وغيّر سلوكه، بارك الله هنيئاً لك، وأنا أتمنى أن أكون معك، وإن شاء الله ألحق بك، هذا دعم، دائماً أناس مشككون مهما كان الدرس مفيداً، يقول لك: كله أعرفه، كله مُعاد، لا شيء جديد، ولا أحد نظيف، دائماً يتكلم كلاماً قبيحاً، ويمكر، أنا أتكلم بشكل عام، هناك شخص همه أن يقطع الناس عن مجالس العلم للتشكيك، تشكيك بلا ثمن.

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

مواقف فيها تعزيز لرسول الله :

أنت حينما تطبق السنة تعزر رسول الله، يكون الاجتماع ضخماً قبل المغرب، وسينتهي بعد العشاء، لا أحد جلس ليصلي إطلاقاً، جلس أحدهم، قال: أريد أن أصلي، فلحق به الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والعاشر، ومئة، الكل صلوا، من الذي بدأ؟ الذي قام أولا، عندما جلس ليصلي شجع الآخرين، فقيامك للصلاة تعزيز لرسول الله.

هناك علاقة ربوية لا أفعلها، ولما قام بالعلاقة الربوية كل الناس زلزل الناس، الكل مخطئون، أما إذا امتنع الكل فأنت عززت سنة رسول الله، أنت لا تتصور حينما تطبق السنة تعزز رسول الله، الكل صافح، أنت لم تصافح، طبقت السنة، هناك بقية حق، الكل جامل، وأنت لم تجامل، الكل نافق، وأنت لم تنافق، أما إذا لم ينافق الكل، والكل لم يجامل، والكل لم يصافح، والكل لم يأكل الربا، كنا بخير، ما كان الله ليعذبنا ساعتئذٍ، أما الآن فأكل، وقتل، وتفريق:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ)

أي تعزيز الرسول، إما أن تدعم من ينوب عنه في إلقاء العلم، هذه واحدة، تبنّ داعية يا أخي، هذا طالب علم جاء من بلاد بعيدة، يطلب العلم ليعود خطيباً في بلده، أنت قدم له شيئاً، قدم له كساءاً، قدم له طعاماً، قدم له غرفة صغيرة ينام فيها، قدم له أثاثاً، هذا أيضاً دعم، أو أن تطبق السنة وتعزز سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أحياناً تجد مكان البيع فيه مسجد صغير، والله شيء جميل!! في أثناء السفر تجد مسجداً، صاحب هذا المطعم بنى مسجداً، هذا الإنسان يريد أن يصلي، فإنشاء مسجد إلى جانب مطعم هذا تعزيز لرسول الله.

أيّ عمل صالح من دون استثناء مع أي مخلوق هو في حقيقته قرض لله عز وجل:

قال تعالى:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

الله عز وجل الذات الكاملة، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، هل يحتاج إلى أن تقرضه؟ أي عمل صالح مع مخلوقاته قرض له.

إذا قال لك ملك معه أموال الدنيا كلها، قال لك: أقرضني ليرة واحدة ليعطيك مقابلاً لها مليون ليرة تقريباً، ملك الملوك يقول لك: أقرضني ليرة وسأكافئك عليها بمليون ليرة.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

الله عز وجل يطلب منا أن نقرضه، يا عبدي اعمل عملاً، تاجر معي، اربح علي، اعمل عملاً لي حتى أكافئك مكافأة لا تعد ولا تحصى، هذا معنى:

(وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

أي عمل صالح من دون استثناء مع أي مخلوق هو في حقيقته قرض لله عز وجل، الآن الله عز وجل أعطاك ثمن معيته الخاصة، معيته الخاصة أكبر ميزة ينالها الإنسان على وجه الأرض، الأقوياء لهم ميزات، لكنهم سيقصَمون، لكن أنت في سلام مع الله عز وجل، أن يكون الله معك هذه معية خاصة، هو معك بالتأييد، بالحفظ، بالتوفيق، بالنصر، معك بالسكينة، معك بالتجلي، هذه المعية ثمنها أن تقيم الصلاة، وأن تؤتي الزكاة وأن تؤمن برسول الله، وأن تعزره، وأن تقرض الله قرضاً حسناً، هذه بنود الثمن.

(وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

معية الله ثمنها أداء الصلوات وأداء الزكاة والإيمان بالرسول ثم العمل الصالح:

كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، السيئات كلها تمحى مع هذه الأعمال البطولية:

(وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

والله أيها الأخوة قضية رائعة جداً، معية الله ثمنها أداء الصلوات، وأداء الزكاة، والإيمان بالرسول ودعمه بأية طريقة، ثم العمل الصالح، افعل هذه البنود وعندئذٍ يكون الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك.

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثمن من يعطي إذا ما منعك

ماذا فعل اليهود؟ قال تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ)

الباء هنا باء السبب، أي بسبب نقضهم الميثاق.

(لَعَنَّاهُمْ)

أي أبعدناهم وطردناهم، إذاً أكبر عقاب يقابل أكبر مكسب، يكون العبد ملعوناً من قبل الله، أي مطروداً ومحروماً ومبعداً.

كل إنسان قلبه قاس مطرود وبعيد وملعون :

قال تعالى:

(لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)

قسوة القلب دليل البعد عن الله، قسوة القلب دليل الطرد، قسوة القلب دليل اللعن، كل إنسان قلبه قاس مطرود بعيد ملعون، إذا كان في للإيمان مؤشر كعداد المركبة، وللرحمة في القلب مؤشر، مؤشر الرحمة ومؤشر الإيمان يتحركان معاً، أنت رحيم بقدر إيمانك، رحيم بقدر إقبالك:

(وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)

الآن استحكمت فيهم الشهوات، الآن سيوجهون النصوص الدينية لصالحهم، هو يريد أن يأكل الربا، هناك آية محرمة تحريماً قطعياً، اقرأ الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: 130]

الله نهى عن النسب العالية فقط، الآن لأنه أراد الدنيا، وقلبه قاسي عندئذٍ:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)

يصرف الآيات لصالحه.

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

أنا أيقنت انتهى، العبادة انتهت، أنا أيقنت أن الله موجود.

أمثلة تحريم الكلم عن مواضعه عند المسلمين :

قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

الله لم يمكنا حتى نصلي، لسنا ممكنين في الأرض، هذا من أمثلة تحريم الكلم عن مواضعه عند المسلمين، النبي قال عليه الصلاة والسلام:

((من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مصلانا))

[عن عبد الله بن عمر]

يأكل حبتين من الثوم، يقول لك: أنا لا أقدر أن أصلي، النبي نهاني أن أصلي، أكل حبتين، هناك ملايين الأمثلة المضحكة من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، طبعاً هذا شيء مضحك، لكن هناك فتاوى غير مضحكة، للمرأة أن تنزع حجابها في بلاد الغرب ضماناً لسلامتها من أن تتهم من أنها إرهابية، انزع الحجاب، ولك أن تقاتل مع جيش يقاتل المسلمين، إنك أقسمت الولاء لهم، ينبغي أن تقاتل معهم، الآن تخرج فتاوى الإنسان يخرج من جلده منها، هذا تحريف للكلم عن موضعه:

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

فرق كبير بين أن تنتمي وبين أن تلتزم :

أخذوا من الدين مظاهره البيضاء السهلة، عطراً، ومسكاً، ومسبحة، لكن ليس هناك دين أبداً:

(وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

تركوا التطبيق، وأخذوا المظاهر:

(وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)

من جبلتهم الخيانة.

(إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)

هذه الموضوعية في القرآن الكريم، بعض من أهل الكتاب صالحون وورعون ومؤمنون.

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*مِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ)

الآن دققوا:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

لم يطبقوا بنود منهجهم، لكنهم انتموا إلى هذا الدين، هناك انتماء، وهناك تطبيق، الآن أي إنسان أعطني هويتك مسلم من أب مسلم وأم مسلمة، هذا ينتمي إلى هذا الدين لكن لا يطبق منه شيئاً، ففرق كبير بين أن تنتمي وبين أن تلتزم، الانتماء قائم الالتزام غير قائم.

العداوة والبغضاء من صفات المتفلتين من منهج الله :

قال تعالى:

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى)

لم ينتمون إلى النصرانية:

(أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

النتيجة:

(فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

ما هو قانون العداوة والبغضاء؟ قانون العداوة والبغضاء أنك إذا نسيت حظاً مما ذكرت به تصبح إنساناً عدوانياً، تصبح إنساناً همك العداوة والبغضاء، العداوة والبغضاء من صفات المتفلتين من منهج الله، ليس هناك آية أوضح من ذلك:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

الخصومات، والحزازات، والكراهية، والطعن، والخلافات، وهذه بين المسلمين أيضاً، التجمعات الإسلامية لأنها غير ملتزمة حقيقة بأحكام الدين، تجمعات مصلحية أساسها العدوان، والطعن، والتحزب، والتعصب.

خصائص الفرق الضالة :

دققوا أيها الأخوة ما من فرقة ضالة من عهد رسول الله إلى يوم القيامة إلا ولها أربع خصائص: تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الضعيفة، والنزعة العدوانية. هذه الآية:

(وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

(إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمْ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

نعيد النتائج المستنبطة من هذه الآية أولاً: لله عز وجل معية عامة: هي معية العلم، وهو معكم أينما كنتم، معكم بعلمه. ومعية خاصة: معية المؤمنين والمتقين والصادقين.

المعية الخاصة: تأييد ونصر وحفظ وتوفيق، المعية الخاصة لها ثمن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالسنة، وتعزيز النبي بتطبيق سنته، أو تعزيز من ينوب عنه بإلقاء العلم، وأن تقرض الله قرضاً حسناً أن تعمل الصالحات، أما اليهود حينما نقضوا ميثاقهم لعنهم الله، وجعل قلوبهم قاسية، وحينما قسا القلب تعلقت النفس في الدنيا والمال، النصوص تصطدم مع هذه الشهوات، إذاً نعدل النص:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ)

الخيانة ديدنهم.

معنى المعصية :

قال تعالى:

(إِلَّا قَلِيلاً)

الموضوعية:

(مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذه العداوة بين جماعات المسلمين وبين جماعات غير المسلمين، وبين المسلمين وغير المسلمين، عداوات لا تنتهي سببها أن كل الأطراف:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)

بشكل مبسط:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

هذه هي، بشكل مبسط رائع:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

المعصية تعني البغضاء والعداوة، والتعصب والغطرسة، والاستعلاء والطعن، والغمز واللمز، نسيان الحظ مما ذكر الإنسان به.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول ـ سورة المائدة 005 : الدرس (13-49) :تفسير الآية ، 15-17- حفظ القرآن الكريم وملكية الله المطلقة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

من دلائل نبوة النبي القطعية أنه جاء في القرآن أسرار وخفايا ما في الكتب السابقة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

أيها الأخوة، من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم القطعية أنه جاء في القرآن أسرار وخفايا ما في الكتب السابقة لهذا القرآن كالتوراة والإنجيل، قال تعالى:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

[سورة آل عمران: 44]

من أين جئت يا محمد بهذه الأخبار الدقيقة التي وردت في الكتب السابقة لولا أنه يوحى إليك؟ لذلك ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السابقة، ومن دقائق الحوادث وتفاصيلها يعد دليلاً قطعياً على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ)

أهل الكتاب أخفوا بشارة عيسى بن مريم لسيدنا محمد.

موضوع الإعجاز ككل هو أكبر دليل قطعي على أن هذا القرآن الكريم كلام الله :

قال تعالى:

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

طبعاً هذا أخفاه أهل الكتاب، فجاء القرآن الكريم بهذا الذي أخفوه، الشيء الثاني كتمهيد لهذا الموضوع لو أن وزارةً قائمة، وهناك عدة مؤسسات، كل مؤسسة تابعة لوزير، لو أن مدير مؤسسة، وهو تابع لوزير معين يتلقى منه التوجيهات، ثم غيرت الوزارة، ألفت وزارة جديدة، وتبدل الوزير الذي يعطي

مدير المؤسسة التوجيهات، فقال مدير المؤسسة: أنا لا أتلقى توجيهاتي إلا من الوزير السابق، ولم يعترف بالوزير الجديد، أليس هذا عصياناً للملك الذي بدل الوزارة؟ هذا عصيان واضح جداً، فالله عز وجل حينما ينزل كتاباً، ويبعث رسولاً بعد رسول سابق، وبعد كتاب سابق، فالذي يعبد الله يأتمر بأمر النبي الجديد، ويأتمر بأمر الكتاب الجديد، فهذا فضلاً عن أن الكتاب الجديد فيه أدلة قاطعة على أن الذي جاء به نبي من عند الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا)

الله عز وجل حينما يرسل رسولاً يجعل معه برهاناً، البرهان هو المعجزة، كيف يصدق الناس أن هذا الإنسان رسول الله؟ لا بد من أن يشهد الله لهم أنه رسوله عن طريق المعجزة، فأي رسول جاء بالمعجزة، والنبي عليه الصلاة والسلام معه معجزة، أضخم معجزة له القرآن الكريم الذي جاء به، وفيه إعجاز إخباري، وإعجاز تشريعي، وإعجاز بلاغي، وإعجاز علمي، موضوع الإعجاز ككل هو أكبر دليل قطعي على أن هذا القرآن الكريم كلام الله، وإذا كان هذا القرآن كلام الله فالذي جاء به قطعاً هو رسول الله، وكنت أقول دائماً: إنك تؤمن بالله عن طريق العقل من خلال الكون الذي هو تجسيد لأسماء الله الحسنى، وتؤمن بالقرآن من خلال إعجازه بعقلك، وتؤمن بالنبي من خلال كتابه، فإذا آمنت بالله من خلال الكون، وبالقرآن من خلال الإعجاز، وبالنبي من خلال القرآن، أدى العقل أعلى مهمة كلف بها أنه حملك على الإيمان بالله وبكتابه وبرسوله، وانتهى دور العقل وجاء دور النقل، التلقي.

أهل الكتاب أخفوا كل الدلائل والبشارات التي جاءت في كتبهم عن رسول الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)

[سورة البقرة: 183]

تلقي أمراً بالصيام، أمراً بالحج، أمراً بأداء الزكاة، أمراً بالصلاة، أمراً بضبط اللسان، أمراً بالأمانة، أمراً بالصدق، الآن نتلقى عن الله كل ما أمر به في الكتاب والسنة، فالله عز وجل يخاطب أهل الكتاب أنه قد جاءكم رسولنا، نحن أرسلناه، أعطيناه الدليل، لكن الشيء الذي لا يصدق، ودققوا فيما سأقول: أنت عندك معارف في حياتك، ما هي أقوى معرفة؟ ما الشيء الذي تعرفه بداهة من أول نظرة من صوته، من حركته؟ هو ابنك، قال تعالى:

(يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

أي رسول الله يعرفونه، هل هناك من معرفة سريعة يقينية قطعية، هل هناك أب في الأرض يرى ابنه، ويقول له: ما اسمك أنت؟ أنت متى ولدت؟ مستحيل، ومع ذلك أخفوا كل الدلائل والبشارات التي جاءت في كتبهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإخفاء بدافع المصالح الدنيوية، والزعامات الدينية، والكبر.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

الحكمة من حفظ الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم :

هذا الذي أخفوه ذكر الله بعضه، وعفا عن بعض حفاظاً لهم على ماء وجوههم، لكن أي شيء أخفوه، وأي شيء حرفوه هو في علم الله عز وجل، إلا أن هناك فرقاً بين الكتب السابقة وبين القرآن الكريم، فالكتب السابقة لم يتكفل الله بحفظها، ذلك لأن المعجزة شيء والكتاب شيء آخر، أما القرآن فتكفل بحفظه بنص القرآن الكريم، إذ يقول:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

لماذا؟ لأن المعجزة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم، فإن لم يحفظها ضاعت المعجزة، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وليس بعده نبي، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لكل الأمم والشعوب إلى يوم القيامة، فلا بد من معجزة مستمرة، فإن لم يتولّ الله حفظ هذه المعجزة ضاعت البينة، لذلك الله عز وجل بالذات القرآن الكريم تولى حفظه، قال تعالى:

(لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

ومن لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها بيان لهذا الكتاب، لذلك هيأ الله لهذه السنة رجالاً عندهم من الملكات ما لا يوصف، وعندهم من الدأب والإصرار والجهد الذي بذل ما لا يصدق حتى حفظوا لنا هذه السنة، وفرزوها بين حديث مختلق موضوع، لا أصل له، وبين حديث حسن، وبين حديث صحيح، وبين حديث متواتر، فالجهد الذي قاموا به بمعونة الله عز وجل، وهي من بنود حفظ كتاب الله.

كل شيء أخفاه أهل الكتاب ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً عن القرآن الكريم :

إذاً:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ)

كل شيء أخفاه أهل الكتاب ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً عن القرآن الكريم:

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

أي عرف بعضه وأعرض عن بعض، ذكر النبي شيئاً ولم يذكر أشياء، ذكر كذبة وترك كذبات.

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

العلم نور أيها الأخوة، أنت في نعمة قد لا تعرفها، تعلم أن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق واحد، وأن هذا الخالق الواحد كامل، وأن أسماء الله عز وجل حسنى، وأنه خلق الإنسان في الحياة الدنيا ليعد لحياة أبدية، وأن هذه الدنيا تنقطع بالموت، ولكن الحياة الأبدية لا تنتهي، حياة مستمرة، فهذه الحقائق التي تعلمتها من كتاب الله، هذه تحدث عندك توازناً، تحدث عندك صورة منسقة كاملة واضحة عميقة للكون والحياة والإنسان، هذه نعمة لا يعرفها إلا المسلمون، لأنهم يعتقدون اعتقادات من عند خالق السماوات والأرض، خالق الأرض والسماوات أعطاهم صورةً كاملةً لحقيقة الكون، ولحقيقة الحياة، ولحقيقة الإنسان، ولحقيقة الماضي والحاضر والمستقبل.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ)

الشيء الذي يلفت النظر أن الله علم مسبقاً أنه سيكون هناك تواصل في الأرض، مثلاً، والله لا أتمنى أن أقول هذا افتخاراً، لكن الدرس الذي يلقى بعد التراويح هذا بعد ساعة يكون بالإنترنت يستطيع أن يسمعه بالصوت كل إنسان في القارات الخمس، الأرض أصبحت غرفة واحدة، أنا أذهب إلى البيت، أفتح الإنترنت أستمع إلى درسي بعد ساعة في كل أنحاء الأرض، الآن الأرض كلها غرفة واحدة، أينما ذهبت تجد العلم الإسلامي منتشراً هناك.

النبي الكريم آخر الأنبياء لأن دقائق رسالته وبعثته ستنتقل إلى كل أهل الأرض :

مرة زرت أستراليا، ودعيت لألقي محاضرة في جامعة سيدني، وجدت أمين المكتبة استقبلني استقبالاً عجيباً وحاراً، ثم علمت أنه يستقي كل معلوماته الدينية من موقعي في الإنترنت، قلت: يا سبحان الله إنسان قابع في الشام، وكل شيء قاله في الدروس يصل إلى أقصى أطراف الدنيا، لأن الله علم أن سيكون هناك تواصل في الأرض، من أجل أن نصل من المدينة إلى البصرة أشهر، الآن يمكن أن ترسل رسالة عبر الفاكس بثانية بأقصى أنحاء المعمورة، يمكن أن ترسل رسالة بهذا إلى أقصى مكان في الأرض بثانية، شيء لا يصدق، علم الله أنه سيكون هناك تواصل، لذلك كان النبي آخر الأنبياء، لأن دقائق رسالته وتفاصيل بعثته سوف تنتقل عبر هذه الوسائل إلى كل أهل الأرض، ولا أدل بعد ذلك من

نقل الصورة عبر الأقمار، ما يحدث في طرف الدنيا تراه بعد دقيقة بحقيقته مصوراً بشكل دقيق، هذا التواصل من الثورة التي يسميها الآن بعضهم ثورة المعلومات.

فلأن النبي صلى الله عليه وسلم كان خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعثته خاتمة البعثات، وكتابه آخر الكتب، هذا لعلم الله مسبقاً أنه سيكون هناك تواصل بين أطراف الأرض.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

الله عز وجل نوّر بالشمس الأكوان ونوّر الحياة بالقرآن الكريم :

أخواننا الكرام: الأمور واضحة كالشمس، لن يبقى أمامنا إلا تطبيق القرآن، واضح، وكل الحوادث التي تقع كل يوم تؤكد ما في القرآن الكريم، فالقرآن نور، به تعلم ما كان وما يكون وما سيكون، أنت حينما ترى شيئاً منكراً قد أصبح مألوفاً وتعجب، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً المنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبو يعلى الموصلي عن أبي أمامة]

((حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللئام فيضاً ويغيض الكرام غيضاً))

[أخرجه الطبراني عن عائشة أم المؤمنين]

واللهِ وصلنا إلى هذا الزمان، الشيء الذي لا يقبل مألوف عند الناس، طبيعي جداً، والشيء الذي ينبغي أن نفعله لا نفعله.

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

الله عز وجل نوّر بالشمس الأكوان، ونوّر الحياة بالقرآن الكريم، في القرآن شيء اسمه حرام، وحلال، وواجب، ومندوب، ومباح، ومستحب، ومكروه، ما من شيء على وجه الأرض إلا ويعتوره حكم شرعي، حلال أو حرام، واجب أو فرض، مكروه أو محرم، مباح أو مستحب.

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

أي تبدلات وتغييرات وتزويرات في الكتب السابقة يعلمها الله، لكن الله عز وجل ذكر بعضها، وترك بعضها الآخر.

حينما تتبع منهج الله يهديك الله سبل السلام :

قال تعالى:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ*يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾

أنت حينما تطبق ما في القرآن الكريم يهديك سبل السلام مع نفسك، فأنت في راحة، وأنت في توازن، وأنت في سعادة، لأنك تطبق منهج الله عز وجل، نفسك مرتاحة، ذلك أن منهج الله عز وجل هو عين فطرتك، فالذي يستقيم على أمر الله يجد نفسه ترتاح، لأنه يطبق مبادئ فطرته، مثلاً أنت حينما تفتح كتيباً في مركبة حديثة، يقول لك الكتيب: لا تمش إلا على طريق معبد، الآن تمشي أنت بهذه المركبة على طريق وعر، تسمع أصواتاً، وتسمع اضطرابات، وحركة بطيئة، وعقبات كأداء، فلما سرت بها على طريق معبد انسابت السيارة، وانطلقت بصوت خفيض، وسرعة عالية، فكتيب فيه تعليمات وممارسة واقعية تطابق ما في الكتيب، مع الممارسة هذا دليل أن هذا الكتاب من عند صانع هذه المركبة، تطابق ما في الكتيب مع هذه الممارسة يؤكد أن هذا الكتيب من عند صانع هذه المركبة، فسواء أخرجت عن أوامر الله وعن نواهيه أو خرجت عن مبادئ فطرتك فالمحصلة واحدة، أنت تشعر بكآبة إذا عصيت الله، وتشعر بكآبة إذا خالفت مبادئ فطرتك، إذاً أنت حينما تتبع منهج الله يهديك الله إلى سبل السلام، السبل جمع سبيل، للسلام مع نفسك، وسبيل السلام مع أسرتك، أنت حينما تطبق منهج الله في بيتك ترى الزوجة صالحة ومطواعة ومحبة، لأنك تعاملها وفق منهج الله، وتجد الأولاد تحبهم، وتحرص على سعادتهم، لأنك ربيتهم تربيةً إسلامية، فإذا بسبيل سلام آخر مع أولادك، ومع زوجتك، الآن هناك سبيل سلام آخر مع عملك، مادام لا غش فيه، ولا كذب، ولا تدليس، ولا احتيال، ولا احتكار.

تاجر محترم جداً، محبوب، فهناك سبيل السلام بتجارتك، وسبيل للسلام بوظيفتك، تؤدي واجبك بالتمام والكمال من دون رقيب، فلك مكانة في هذه الدائرة، الآن أنت كزوج مطبق لمنهج الله، محترم جداً في بيتك، لا لأنك في الأصل محترم بل لأنك اكتسبت هذا الاحترام من تطبيق منهج الله، فالأب يقطف ثمار أبوته إذا طبق تعليمات الصانع مع أولاده، والزوج يقطف ثمار أنه زوج صالح إذا طبق تعليمات القرآن الكريم، والتاجر يقطف ثمار تجارته إذا طبق التعليمات، فكأن الله يهديك سبل السلام، مع صحتك لا تأكل حتى تجوع، وإذا أكلت لا تشبع، يكفي ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، لو طبق هذه النصيحة النبوية لعاش في سلام مع صحته.

إذا استقيت العقيدة الصحيحة الإسلامية فسَّرت لك كل شيء تفسيراً متوازناً عميقاً :

قضية السلام قضية رائعة جداً، أنت في سلام مع جسمك، في سلام مع نفسك، في سلام مع عقلك، إذا استقيت العقيدة الصحيحة الإسلامية فسَّرت لك كل شيء تفسيراً متوازناً عميقاً، لا تقع في حيرة، فأنت تضمن السلام مع عقلك، ومع نفسك، ومع جسمك، ومع زوجتك، ومع والديك، ومع أولادك، ومع أحفادك، ومع زبائنك في التجارة، ومع رؤسائك في العمل، ومع كل الخلق.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

الحق لا يتعدد، الحق جاء مفرداً، أما الباطل فمتعدد، ظلمة الكفر، ظلمة الشرك، ظلمة الإلحاد، ظلمة المعصية، ظلمة الفسق، ظلمة الفجور، ظلمة الظلم، هذه كلها ظلمات، أما النور فواحد، أنت مستقيم، تؤدي ما عليك، تكسب مالك بالحلال، تنام مطمئناً.

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أي هذا الصراط ينتهي إلى الجنة، أين طريق الجامعة؟ أين طريق الجنة؟ الله عز وجل يهديك طريقاً مستقيماً، ومعنى مستقيماً أقصر طريق بين نقطتين، أقصر خط هو المستقيم لذلك إذا طبقت منهج الله عز وجل فأنت على طريق مستقيم ينتهي بك إلى الجنة.

لا معبود بحقٍّ إلا الله :

ثم يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)

لو كانوا آلهة لما أمكنه أن يهلكهم، لو كانوا آلهة لكانوا أنداده، لكن من يملك من الله شيئاً قال تعالى:

(أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ليس إلا الله، ولا إله إلا الله، ولا يعبد غير الله، وهو الذي يستحق العبادة وحده، ولا معبود بحق إلا الله، هو الذات الكاملة وحده الإله وما سواه مخلوقون، عاجزون، ضعفاء، مفتقرون في وجودهم وفي استمرار حياتهم إلى الله، لذلك الأنبياء وصفوا بأنهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون في ثمن الطعام إلى المشي بالأسواق للعمل، نعمل فنكسب المال، فنأكل، فنبقى أحياء، هذا ملخص الملخص. نعمل، نكسب المال، نشتري به الطعام

والشراب، نأكل، نبقى أحياء، فنحن مفتقرون في وجودنا إلى تناول الطعام والشراب، ومفتقرون إلى الطعام والشراب عن طريق العمل والسعي والكد والتعب، إذاً ما من إنسان إله، والدليل أن الله قادر على أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً.

الملكية لله ملكية مطلقة يملك ما في السماوات وما في الأرض خلقاً وتصرفاً ومصيراً:

قال تعالى:

(أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الملكية لله ملكية مطلقة، يملك ما في السماوات وما في الأرض خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، أنت في الدنيا قد تملك بيتاً ولا تنتفع به، وقد تنتفع ببيت ولا تملكه، المالك المؤجر على النظام القديم يملك ولا ينتفع، والمستأجر ينتفع ولا يملك، لكن لو أنك تملك وتنتفع، وصدر قرار تنظيم، فألغي البيت، الآن تملك وتنتفع ولكن المصير ليس لك، لكن ملكية الله عز وجل ولله المثل الأعلى يملك خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون، والكون ما سوى الله، الله واجب الوجود ما سواه ممكن الوجود، فكلمة السماوات والأرض مصطلح قرآني يعني الكون.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

تعلقت قدرته بكل ممكن، على كل شيء قدير، يفعل ما يريد وعلى كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (14-49) : تفسير الآية 18 ، أمراض بني إسرائيل وقع فيها المسلمون اليوم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-11-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل أكثر من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن لأنهم أهل كتاب مثلنا :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة عشرة، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

أيها الأخوة، قد يسأل سائل: لماذا يكثر الله جل جلاله من الحديث عن بني إسرائيل في القرآن الكريم؟ والجواب واضح جداً: لأنهم أهل كتاب، ونحن أهل كتاب، نحن أهل القرآن، وأمراض أهل الكتاب معرضون لها نحن تماماً، وحينما يحدثنا ربنا عن أمراض أهل الكتاب من قبل فهذا أسلوب تربوي رائع اسمه التوجيه غير المباشر، فالأمراض الذي وقعت بها بنو إسرائيل المؤسف أننا وقعنا فيها، مثلاً: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ونحن نجامل، ولا نأمر بالمعروف، ولا ننهى عن المنكر، وفي اللحظة التي نكف فيها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

علة هذه الخيرية:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

بعض من أمراض بني إسرائيل وقعنا فيها :

إذا فقدت علة خيريتنا فقدنا خيريتنا، وأصبحنا أمة من الأمم، ليس لنا عند الله شيء، إذاً هذا مرض من أمراض بني إسرائيل، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، نحن فعلنا مثلهم، بل قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا فسق فتيانكم وطغى نساؤكم، قالوا يا رسول وإن ذلك لكائن؟ فقال عليه الصلاة والسلام: وأشد منه سيكون، قالوا وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا لمْ تأمروا بالمعروفِ ولم تَنْهَوْا عن

المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيُتم عن المعروف؟ قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشدُّ منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال كيف بكم إذا رأيتُمُ المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً))

[تاج الأصول في جامع أحاديث الرسول عن علي بن أبي طالب]

ونعيش نحن في هذا العصر شيئاً من هذه المصيبة، أن المعروف أصبح منكراً، وأن المنكر أصبح معروفاً، إذاً هذا مرض انتقل إلينا، والحديث عن أمراض أهل الكتاب يعنينا بكل ما فيه. مرض آخر، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

((أَنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

هذا يعبر عنه اليوم بازدواج المعايير، وازدواج المكاييل، فالحد لا يطبق على كل الناس، يطبق على بعضهم، وهذا من أسباب هلاك الأمم، ومن أسباب هلاك الأمم بئر معطلة وقصر مشيد، أي المرافق الأساسية معطلة، وأهل الغنى يتمتعون بحياة تفوق حد الخيال، بيوت فخمة جداً، إنفاق بغير حساب، والمرافق الأساسية للناس، وهو البئر عنده معطلة، وبئر معطلة وقصر مشيد، هذا مرض آخر من أمراض الأمم السابقة التي استحقوا عليها الهلاك موجود عندنا، أي مليون لا يملكون واحداً وواحد يملك مليوناً، هذا المال ليس وفق تصميم الله عز وجل، حينما خلق الله المال خلقه ليكون متداولاً بين كل الناس، فإذا تجمع بين أيدي قليلة، وحرمت منه الكثرة الكثيرة استحق هذا المجتمع الهلاك لأنه مجتمع لا يرحم القوي، هو الغني فقط، والقوي لا يرحم، والغني لا يرحم.

أمراض كثيرة ألمت ببني إسرائيل ونحن مرشحون أن نصاب بها :

أمراض كثيرة ألمت ببني إسرائيل، ونحن مرشحون أن نصاب بها، لذلك هذا مرض من هذه الأمراض ادعاء أننا أمة محمد، ادعاء أننا أمة القرآن الكريم، يا أمة القرآن لسنا مطبقين شيئاً منها، ادعاء أننا أمة خاتم الأنبياء والمرسلين، نحن أمة مختارة، تحدث ما شئت، الله عز وجل لم يقبل منا ذلك، بدليل أنه يعذبنا في شتى بقاع الأرض، هذه آية، أخوتنا والله الذي لا إله إلا هو، أكاد لا أجد آية متعلقة بأهل الكتاب تنطبق على المسلمين كهذه الآية، ادعاء:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

* * *

كل فئة تدعي أن الله لها وحدها، وأن الجنة لها وحدها، كل فئة، كل فقاعة من فقاعات العالم الإسلامي تدعي أن الله لها، وأنها الفرقة الناجية، وأنها وحدها على حق وما سواها على الباطل وإلى النار، هل بعد هذا التمزق من تمزق؟ هل بعد هذه الشرذمة من شرذمة؟ أمراض أهل الكتاب وقعنا فيها، قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ)

هذا ادعاء:

(وَأَحِبَّاؤُهُ)

الخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له :

لو أن الله جل جلاله قبل دعواهم لما عذبهم:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

هذا الدليل أنه ما قبل هذه الدعوة بل ردها، والدليل الموقف العملي، إذا كنت تدعي أن لك علاقة بفلان حميمة، وأن إشارتك إليه أمر، وأنك إذا دخلت عليه قامت الدنيا ولم تقعد ترحيباً بك، فذهبت مع صديقك إلى مكتبه، فلم يقل لك: اجلس، ولم يلتفت إليك، ولم يناداك باسمك، من أنت؟ ماذا تريد؟ كل الذي قاله من علاقة متينة، وعلاقة وشيجة مع هذا الإنسان باطلة، بدليل أن فعل هذا الإنسان لا ينطبق على دعوى الأول، دعوى باطلة، أنا أسوق لكم قصة أيها الأخوة. في الحقيقة قصة ذات تعبير كبير، أن النبي صلى الله عليه وسلم، وكلامه حق، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، كان إذا دخل عليه سعد بن أبي وقاص يقول: هذا خالي، مداعباً له، والعظماء إذا داعبوا إنساناً فلمقامه الكبير، هذا خالي، فأروني خالاً مثل خالي، لم يَرِد أن النبي صلى الله عليه وسلم فدا صحابياً بأمه وأبيه إلا سعداً، قال له:

((ارْمِ فداك أبي وأمِّي))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

ومع كل ذلك قال له عمر بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له. هذه حقيقة أيها الأخوة تحل مليون مشكلة، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

تمايز العباد باستقامتهم وإيمانهم :

سلمان فارسي ليس عربياً أصيلاً، ليس من أرومة قريش، ليس له نسل عظيم، قال عليه الصلاة والسلام:

((سلمان منا آل البيت))

[الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وقال تعالى عن عم النبي صلى الله عليه وسلم:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

[سورة المسد: 1-2]

أين النسب؟ عم النبي تبت يدا أبي لهب وتب، وسلمان منا آل البيت، هذا هو الدين، الناس سواسية كأسنان المشط، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، يجب أن تنطلق من أن أي إنسان خلقه الله عز وجل له عند الله مكانة لا تقل عن مكانتك، وإذا تمايز العباد فبعلمهم وباستقامتهم، العباد يتمايزون باستقامتهم وبإيمانهم، لأن قيمة الإيمان والعلم معتمدة في القرآن الكريم، ولأن قيمة العمل معتمدة في القرآن الكريم، أما قيم لا تعد ولا تحصى معتمدة عند أهل الأرض لا قيمة لها عند الله، يقول لك: أنا أبيض، خير إن شاء الله، فلان ملون، قد يكون قلامة ظفر الملون تعدل عند الله مليون أبيض، هذه قيمة جاهلية تحت أقدامنا، كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكروا سيدنا الصديق قالوا: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي بلالاً، فقيمة اللون تحت أقدامنا. قيمة المال الله عز وجل أعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون، وكان عليه الصلاة والسلام فقيراً، جاءه جبريل قال له: يا محمد، أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره، أي بالمئة فقير قد ينجو ثمانون، لكن بالمئة غني قد لا ينجو عشرة.

الضعف المادي، وضعف القوة أقرب إلى العبودية من قوة المال وقوة السلطان، فلذلك الله أعطى المال لمن لا يحب، وأعطى القوة لمن لا يحب، هل يحب فرعوناً؟ جعله ملكاً، ليس معنى ذلك أن كل ملك كفرعون، لا سيدنا سليمان آتاه الله الملك، قيمة حيادية، لا تقدم ولا تؤخر، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أما هؤلاء الذين يحبهم الله عز وجل ماذا أعطاهم؟ قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

القيم القرآنية المعتمدة قيمة العلم والعمل :

أيها الأخوة الكرام، مقاييس الأرض المال، أندم الناس غني دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار، دخل ورثته بماله الجنة، لأن ورثته ورثوا مالاً حلالاً، أنفقوه في طاعة الله، فدخلوا به الجنة، أما هو فكسب مالاً حراماً، فدخل به النار، لذلك ما من ميت إلا وروح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي يا ولدي لا تلعب بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي. قيمة المال لا قيمة لها:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره.))

[الطبراني في المعجم الأوسط من حديث أنس بن مالك]

الإنسان الذي في الدرجة الدنيا اجتماعياً قد لا يستقبل، قل له: ليس هنا، قد لا يستقبل، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره، لذلك قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ)

[سورة الواقعة: 1-3]

قد تجد المسكين والفقير في أعلى مقام، وقد تجد الغني المترف يوم القيامة في أدنى مقام، إذاً حينما نعتمد قيماً أرضية لا نفلح، قيم أهل الأرض المال، ومع المال القوة، ومع القوة الوسامة، ومع الوسامة الذكاء، ومع الذكاء الحسب والنسب، هذه قيم أهل الأرض لم تعتمد في القرآن الكريم إطلاقاً، إنما الذي اعتمد قيمة العلم، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء: 113]

والقيمة القرآنية المعتمدة قيمة العمل، قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

قيمة العلم والعمل.

الذي يؤسف له أن واقعنا ليس في مستوى ماضينا :

لذلك حينما نعتمد قيم أهل الدنيا لا نفلح، أما إذا اعتمدنا قيم القرآن الكريم نفلح، اسمعوا وأطيعوا ولو تولى عليكم عبد رأسه كالزبيبة، نظام الإسلام عجيب جداً، جيش من كبار الصحابة، وفيهم أبو بكر وعثمان وعلي، قائد الجيش شاب في السابعة عشرة من عمره، أسامة بن زيد، يركب أسامة الناقة، ويمشي أبو بكر خليفة المسلمين، هو أديب جداً، قال: والله يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن، قال: والله لا نزلت ولا ركبت، وما علي أن تغبر قدمي ساعة في سبيل الله، عين قائد جيش، الآن اضطر أبو بكر رضي الله عنه أن يبقي عمر، هذا عمر جندي تحت إمرة أسامة، إذاً لا بد من خليفة المسلمين من أن يستأذن أسامة في عمر، فقال له: أتأذن لي بعمر يا أسامة. هذا هو الإسلام، نظام ما بعده نظام، إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم غلام صغير، جاءت ضيافة، فبحسب ما ألف الصحابة من رسول الله يبدؤون برسول الله، ويثنون بالذي عن يمينه، وعن يسار النبي صلى الله عليه وسلم أشياخ كبار، قال له: يا غلام، أتأذن لي أن أعطي الأشياخ؟ قال: لا والله لا آذن لك، هذا النظام.

هذه الأمة التي هي الآن تعشش فيها الفوضى، أنا أقول: لعلهم فحصوا دم العربي فوجدوا فيه كرية حمراء وكرية بيضاء وكرية فوضى، لكن أجدادنا السلف الصالح كانوا على مستوى من النظام يفوق حد الخيال، ما فتحوا الأرض بالفوضى، الآن لو ذهبت إلى الحج أو إلى العمرة أنت مع من إنسان سيؤدي أعلى فريضة في الإسلام، يركبون في طائرة، والطائرة لا يمكن أن تقلع من دون واحد من هؤلاء، وهذا الواحد له محل مرقم، لا يمكن أن يجلس بمحل آخر، انظر إليهم على سلم الطائرة كيف يتزاحمون، أين عقلهم؟ لا يمكن أن تقلع الطائرة من دون واحد من هؤلاء، ولا يمكن أن تجلس في مكان غير مكانك، ومع ذلك ترى التدافع والشد، عجيب الأمر، أين العقل؟ فنحن أمة النظام، نحن أمة الحضارة، ولكن الذي يؤسف له أن واقعنا ليس في مستوى ماضينا.

حينما نعتمد قيمة العلم والعمل نرتقي إلى الله :

إذاً حينما نعتمد قيمة العلم والعمل نرتقي إلى الله، أما إذا اعتمدنا قيماً أخرى كقيمة القوة و المال لا نرتقي إلى الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

أي تمسكن له، أي شكا له همه لاستعطاف قلبه ذهب ثلثا دينه، والله لو افتتحنا جمعية لتعطي الناس حاجاتهم، والله أول من يأتيك الأغنياء ليأخذوا منك، بينما الصحابة الكرام حينما هاجر أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ما من أنصاري إلا وعرض على أخيه المهاجر نصف ماله، ونصف بستانه، وإحدى حانوتيه، وما سجل التاريخ أن مهاجراً أخذ من أنصاري شيئاً، بل كان قولهم: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق.

الآن إن أعطيت إنساناً عطاء تلبية لحاجته لا يعمل، الأخذ أريح من العمل، كأنك تعلمه الكسل، والله يوجد أمراض في العالم الإسلامي شهد الله كأنها أمراض وبيلة، أمراض عضالة، الرغبة بالكسل، استلقاء، تأمل، متابعة أخبار، تقييم الناس، لا يقدم شيئاً، بالمناسبة أنا من عادتي أنني ـ وهذا حال أي مؤمن، وأرجو أن أكون كذلك ـ أُعَظِّم النبي إلى درجة غير معقولة، لأنه سيد الخلق وحبيب الحق، ولأنه لا يخطئ معصوم، وإنني أحتقر واحداً لا يخطئ، من هو الذي لا يخطئ ويحتقر؟ هو الذي لا يعمل، لم يعمل شيئاً حتى لا يغلط، لا يعمل إذاً لا يخطئ، هذا أحتقره، أما أي إنسان قدم شيئاً، ويوجد مع الشيء خطأ، فالخطأ يُغفَر ونكبر هذا الشيء، فمن لا يعمل لا يخطئ، فأنا أتمنى أن نعود إلى سيرة أصحاب النبي عليهم رضوان الله، ونعود إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، كيف عامل أصحابه؟ وكيف أحبه أصحابه؟ وكيف كانوا علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء؟ و كيف كانوا رهباناً في الليل، فرساناً في النهار؟ وكيف أعطوا كل شيء؟ وكيف ضحوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس؟

الآية التالية متعلقة بأهل الكتاب ولكنها تنطبق علينا أشد الانطباق :

أيها الأخوة: هذه آية متعلقة بأهل الكتاب، ولكنها والله الذي لا إله إلا هو تنطبق علينا أشد الانطباق:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

هذه دعوى ولك أن تقول ما شئت، الآن قل: أنا أعظم مؤمن بالأرض، كلام فارغ، كلام تلقيه على عواهنه، الآن قل: معي مليار دولار، خير إن شاء الله، مضطر لرغيف خبز، الذي يملك ملياراً لا يطلب نقوداً من أجل رغيف خبز، دائماً السلوك لا يؤكد الدعوى السلوك ضعيف جداً، لذلك ربنا عز وجل متكفل بأن يضع الإنسان في حجمه الصحيح، كيف؟ بعمله، يضع الإنسان في ظرف هذا الظرف دقيق جداً يمتحن دعواه، فإما أن يصمد، وأن يأتي عمله موافقاً لدعواه، وإما أن يسقط فيكون الله قد امتحنه، ويكون قد فرزه، لذلك الآية الكريمة:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

القضية سهلة، تقول: أنا معي دكتوراه، من أين أخذت هذه الشهادة؟ بمعلوماته ولغته هذا لا يؤكد ذلك. والله مرة قصة طريفة جرت معي، دعيت إلى عزاء، يوجد إنسان بهذا العزاء توهمته أحد علماء

الحديث في هذه البلدة، ظننته كذلك، لأن له شكلاً يشبه ذاك مئة في المئة، ألقى كلمة، صدقه أنه رفع المفعول به، فحينما رفع المفعول به أيقنت مئة بالمئة أنه ليس هذا العالم، من كلمة، من ضمة، لأن ذاك العالم مستحيل على سليقته وعلى علمه أن يرفع المفعول به، فلما رفع المفعول به أيقنت أنه ليس هذا الذي توهمته، من كلمة واحدة.

الله عز وجل ابتلاءاته عجيبة كل إنسان يضعه في ظرف يكشف على حقيقته :

أنت تكلم ما شئت، ادّع أنك مؤمن كبير، ادّع، لكنّ تصرفاً واحداً يسقطك:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت: 2-3]

الله عز وجل ابتلاءاته عجيبة، كل إنسان يضعه في ظرف يكشف على حقيقته، أي إنسان يقول لأمه ليل نهار: يا أمي حينما أتزوج سأكون أنا وزوجتي في خدمتك، قال هذا الكلام ثلاثين عاماً، ثم تزوج، الله عز وجل يخلق ظرفاً ينشأ شجاراً بين أمه وزوجته، فيأتي، ويسمع من زوجته فقط، ويغضب، ويتوعد، وينظر إلى أمه نظرة قاسية، ويقول: كل البلاء منك، إذاً كل كلامه السابق تحت قدمك، كلام بكلام، أنا أرى الأخ الذي يحلق يستخدم المقص، يمكن عشرين قصة في الهواء، وواحدة على الشعر، وهذا كلام أهل الناس كلام بكلام، أنا مؤمن، وأنا كذا، تأتي عند التطبيق العملي بعيداً عن هذا الذي قاله بُعد الأرض عن السماء، لذلك كلما رأيت من سقوط الناس، ومن تقصير الناس، ومن أن البنية التحتية لا ترضي الله عز وجل، تعلم لماذا تخلى الله عنا؟ والله الذي لا إله إلا هو، وإن شاء الله لا أحنث بهذا القسم أنه لو وجد في العالم الإسلامي اثنا عشر ألف مؤمن كما يريد الله عز وجل لن نهزم في الأرض، ليقل لي أحدكم: من أين جئت بهذا الكلام؟ أقول: جئته من حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((ولن يُغْلَبَ اثنا عَشَرَ ألفاً مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن عباس]

مليار ومئتا مليون غثاء كغثاء السيل، واحد كألف من الصحابة، وألف كأف من الناس في آخر الزمان.

مرة ذهبت إلى العمرة، أكرمني الله بها، لكني اخترت طريقاً قديماً الذي يمر على موقعة بدر، والله وقفت ساعة، وتأثرت تأثراً شديداً، وجدت الناس يجلسون، يمدون ليجلسوا، يأكلون أطيب الطعام، يرتدون أفخر الثياب، فقلت كلمة: والله هذا الطقم الذي أمامي غير الطقم الذي عاش مع النبي، أين الثرى من الثريا؟

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

الإيمان أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

والله بعضنا يقسو على بعض، الآن أنت أمام القوي كالهر، أما أمام أخيك المؤمن تريد أن تذبحه من الوريد إلى الوريد، جرب، يكون لك علاقة مع إنسان مسلم لا يرحمك أبداً، أما أمام القوي فيخضع. ما صفة المؤمنين؟

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة: 54]

الآن بالعكس، أمام الكافر كالهر، أما أمام مؤمن يقوى ويزبد ويرعد ويربي. أيها الأخوة:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

أكبر دليل على أن الله لم يقبل دعواهم أنه يعذبهم:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

نعاني ما نعاني من كل لون، من كل ألوان المصائب، الدليل أن الله لم يقبل دعوانا أننا من أمة محمد، أمة خاتم الأنبياء، يا أمة القرآن، أنا أقول لكم كلمة مؤلمة: الحقيقة، وأنا أعتمد الحقيقة المرة لأنني أعتقد أنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح، في حرب العراق هل هناك مسجد في العالم الإسلامي لم يقنت في الصلوات، ويدعو على أعداء الله ليدمرهم، وأن يجعل بأسهم بينهم، وأن يزلزل الأرض تحت أقدامهم، لم يكن كذلك لأن النصر له شروط لم تكن متوافرة عندنا، فالكلام لا يقدم ولا يؤخر، كطالب ما درس أبداً، ودخل إلى الامتحان، يا رب ما لي غيرك، يا رب أنت الموفق، يا رب ألهمني الصواب، ما قرأ ولا كلمة، هذا كلام بكلام، لم تأخذ بالأسباب، الإيمان أن تأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ثم تتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء.

الله رحيم لم يطالبنا أن نأخذ بالأسباب المكافئة للطرف الآخر بل بالأسباب المتاحة :

إن لم تأخذ بالأسباب لا تطمع، لكن الله رحيم، لم يطالبنا أن نأخذ بالأسباب المكافئة للطرف الآخر، بل بالأسباب المتاحة، قال تعالى:

(مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

والله أيها الأخوة، أنا أتكلم من ألم، كنت في إحدى الحجات، أقمت خمسة عشر يوماً زيادة عن الوقت المطلوب، وأردت أن أقبل الحجر الأسود مرةً في حياتي، فذهبت إلى الحرم المكي في يوم قائظ، ستة وخمسين درجة الحرارة، وقبيل العصر، وهذا أفضل وقت لقلة الزحام، وجدت خمسين شخصاً ليس غير، ولو اصطفوا في نسق لقبلوا جميعاً الحجر الأسود، رأيت زحاماً وتدافعاً، رأيت شدّاً، حتى إن امرأةً خرجت من دون حجاب من بين الرجال، قلت: هؤلاء يخيفون العالم، خمسون إنساناً لا يستطيع أحد أن يقف في نسق، هؤلاء يخيفون العالم؟ الأمر مؤلم جداً.

أيها الأخوة: أنا لا أتكلم عن الناحية السوداء في حياتنا، لكن هذه الناحية السوداء موجودة، وهي سبب تخلي الله عنا، ليس هناك نظام.

والله أيها الأخوة: لما عدنا من الحج تأخرنا أكثر من خمس ساعات، أو سبع ساعات، قدموا شطيرة وعلبة عصير، الذي لم يصب شطيرة أو عصيراً سبّ الدين، وقد أنهى حج بيت الله الحرام، هؤلاء الحجاج نماذج، تخرج من جلدك، هؤلاء المسلمون، هؤلاء الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم: علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، طبعاً أنا لا أعمم، حاش لله، والله هنالك حجاج أولياء، لكن كمجموع فينا تقصير كثير جداً، أين هذه الأمة التي أطاعت الله عز وجل؟ أمراض بني إسرائيل عندنا.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله :

أنتم الآن مادمتم لم تستقيموا على أمر الله:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

أحياناً الإنسان يكون رقماً فقط، ما له قيمة إطلاقاً، رقم لا شأن لك عند الله، ما قدمت شيئاً حتى ترتقي إلى الله:

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

مرة كنت في الخليج قبيل العدوان، وكان هناك دعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية، والدول المساندة إلى اليهود، والله إنسان قال لي: أمّن لي البديل قبل أن تطالبني أن أقاطع البضائع الأجنبية، قلت له: مثل ماذا؟ قال: ليس مستعداً أن يتخلى عن البيبسي من أجل قضية أمته، لما صار اختيار إحدى المغنيتين كم من اتصال صدر من العالم الإسلامي، تسعة وسبعون مليون اتصال، لأن هذه قضية مصيرية، هذه قضية أمة، أي المغنيتين سوف تفوز هذه أمة الإسلام أمة الغناء والطرب، أليس كذلك؟!!

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

مع هذا الكم الهائل، مع هذا الكم الهائل مع هذه الأمم المعذبة، وأنا أقول: هان أمر الله على المسلمون فهانوا على الله، والله المسلم ما له قيمة، أما إذا وقعت طائرة، وفيها ركاب من الطرف الآخر دية كل راكب خمسمئة مليون، عشرة ملايين دولار سوف ندفعها مرغمين، مئتين وسبعين ملياراً، ملياران وسبعمئة مليون دية مئتين وسبعين راكباً، أما هذه الألوف المؤلفة التي قتلت في حرب الخليج، وبعضهم قتل خطأً خطأً، مات مئة وخمسة وعشرين، هذه لا قيمة لها، صفر، هان أمر الله على المسلمين، فهانوا على الله.

من شاء أن يغفر له من دون مصيبة فليتب ومن لم يشأ فلينتظر من الله المصيبة :

إذا ما فكر الإنسان يبدأ بنفسه، يبدأ ببيته، يبدأ بعمله، يبدأ بأولاده، ما كلفك الله فوق ما تطيق، ابدأ بمن تعول، أقم الإسلام في نفسك، في بيتك، في عملك، ربِّ أولادك حتى تستحق أن تسأل الله النصر.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

تتوب إلى الله وأنت معافى يغفر لك، لا تتوب تأتي الشدة كي تحملك على التوبة، تماماً كما يقول الطبيب لمريضه: معك التهاب معدة حاد، إما أن تطبق نظام حمية قاسياً جداً، فلعلك تشفى من هذا المرض، أو تحتاج إلى عملية جراحية، الأمر بيدك، تحب معالجة دوائية من دون عملية جراحية تحتاج إلى حمية عالية جداً، تؤثر الطعام والشراب، انتظر أن تثقب المعدة، وتضطر لإجراء عملية لترقيع المعدة، إما دوائية أو عملية جراحية، هذا معنى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، هذه تعود على الإنسان، من شاء أن يغفر له من دون مصيبة فليتب، ومن لم يشأ أن يغفر له من دون مصيبة، فلينتظر من الله المصيبة، قال تعالى:

(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

كل شيء بيد الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (15-49) : تفسير الآيات: 19-21 ، تتمة الحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-12-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

كمال الخلق يدل على كمال التصرف :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة، كلمة

(عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ)

أي على انقطاع من الرسل، الله سبحانه وتعالى كامل في خلقه، وهذا الكون يدل على كمال خلقه، ومن لوازم كمال الخلق كمال التصرف، ومن أبرز كمالات التصرف ألا يدع الله عباده معطلين عن التوجيه، وعن الإرشاد، لذلك تقتضي رحمة الله وحكمته ومحبته لعباده أن يرسل إليهم رسلاً، وأن ينزل على رسله كتباً، والأمر ببساطة بالغة كما يلي، أب يجلس في غرفة الجلوس، فرأى ابنه يقترب من المدفئة وهو لا يدري ما سيكون من هذا الاقتراب، لا بد من أن يكلمه، لا بد من أن يقوم ويمسكه، إذاً التدخل الإلهي لإنقاذ الخلق من الكفر والشقاء حتمي، لأن الله رحيم، ولأن الله خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليسعدنا، هذه حقيقة دقيقة جداً؛ أن الله عز وجل ما خلقنا إلا ليسعدنا، وما خلقنا إلا ليرحمنا، لذلك كان ربنا، الحمد لله رب العالمين، والرب يعني المربي، ملخص هذا الشرح أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، وهذا الكون يدل على كمال خلق الله عز وجل، ومن لوازم كمال خلق الله كمال تصرفه، ومن أبرز كمالات تصرفه أنه يرسل رسلاً، وينزل كتباً، لكن هؤلاء الرسل متفرقون على امتداد الزمان، فبين الرسول والرسول والنبي وَالنبي حقب من الزمان، بين رسولين فترة، أي انقطاع، لكن لنعرف ما حكم هذه الفترة؟

الميثاق ثلاثة بنود العقل والفطرة والتشريع :

أيها الأخوة، الميثاق الذي واثقنا الله به هو ميثاق العقل، وميثاق الفطرة، وميثاق التشريع، فإذا لم يصل إلينا تشريع، ولم تبلغنا رسالة، فنحن محاسبون على ميثاق العقل وميثاق الفطرة، فالعقل كافٍ كي نعرف الله به، والفطرة كافية كي نعرف خطأنا بها، فتعرف الله بالعقل، وتعرف خطأك بالفطرة، إذاً الميثاق ثلاثة بنود: أهل الفطرة معفون من البند الثالث، لذلك أهل الفطرة معفون من تفاصيل الشريعة، لكن لو أن إنساناً ولد في جزيرة، ولم يتلقَ أية رسالة كائنة من كانت، وكان جائعاً، وكانت أمه جائعة، فجاء بطعام، فأكله وحده، ألا يشعر أنه مذنب بحق أمه؟ هناك ثوابت في الإنسان، أي إنسان في أي زمان ومكان، في أي قطر ومصر، في أي حقبة، في أي نظام، في أي ثقافة، في أي بقعة، الإنسان له خصائص، وله فطرة، لذلك من أروع ما استخدم القرآن الكريم من مصطلحات مصطلح المعروف، ما هو المعروف؟ أي أشياء كثيرة تعرفها الفطر السليمة بداهة، ما هو المنكر؟ أشياء قبيحة تنكرها الفطر السليمة بداهة، اعتمد القضاء الغربي على هذه الحقيقة، فيأتي برجال متفرقين من الطريق يسمون المحلفين، تعرض عليهم قضية بفطرتهم وبحسن إدراكهم يكتشفون الحكم الصحيح في هذه القضية، لذلك المعروف ما عرفته الفطر السليمة بداهة، والمنكر ما أنكرته الفطر السليمة بداهة، فالإنسان بفطرته يعرف أخطاءه، وبعقله يعرف ربه، فالميثاق الذي واثقنا الله به، ميثاق الفطرة وميثاق العقل وميثاق المنهج، المنهج قد يكون واضحاً جلياً في عصر، وقد تضعف ملامحه في عصر آخر، فكلما ضعف ضعفت ملامح منهج الله عز وجل، بعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، طبعاً الأنبياء ليسوا مكلفين برسالة، الرسل هم أنبياء معهم رسالة، معهم منهج، فهناك رسل، وهناك أولو العزم من الرسل، وهناك أنبياء، وهناك دعاة صادقون ينوبون عن الأنبياء في تبليغ الحق للناس، وشاءت حكمة الله أن يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها، (من) لا تعني واحداً، تعني نوعاً، أي في كل بلد، في كل مصر، في كل مكان، هناك من يجدد المعاني الصحيحة لهذا الدين، هناك من يرجع الدين إلى أصوله الصافية، هناك من يكشف النقاب عن حقيقة الدين، هناك من يزيح غبار التقليد عن جوهر الدين، فعلى رأس كل مئة عام يبعث الله من يجدد لهذه الأمة دينها:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا)

أي محمد صلى الله عليه وسلم:

(يُبَيِّنُ لَكُمْ)

ما اشتبه عليكم.

التجديد في الإسلام أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه :

كما تعلمون قد يقع حادث في مكان ما، الأخبار تتناقله، يصل بعكس ما أراد المتكلم، أنا فوجئت أحياناً أن بعض رؤوس الديانات الوثنية هم في الحقيقة كانوا أنبياء ثم أُلّهوا وعبدوا من دون الله، هناك أشخاص كثيرون في البلاد البعيدة شرقاً يعبدون كآلهة، هم أنبياء كانوا ومعهم بعض الدلائل على نبوتهم، فحينما يطول الأمد على الرسالة تشوه معالمها، والإسلام كأي دين سماوي نزل صافياً نقياً واضحاً:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.))

[رواه أحمد وابن ماجه عن العرباض بن سارية]

ما الذي حصل؟ أضيف على الدين ما ليس منه، وكأن نبعاً صافياً في أثناء مسيره كنهر جاءته روافد، بعد حين أصبحت المياه آسنة وسوداء، فنحن ينبغي أن نعود إلى الينابيع، أن نعود إلى الأصول.

((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء))

[مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه]

لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والآن نستمع كثيراً إلى كلمات كالتجديد في الإسلام، والتجديد أيها الأخوة له معنى دقيق جداً لا يجوز أن نحيد عنه قيد أنملة، معنى التجديد أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، فقط، ولا يحتمل التجديد في الإسلام شيئاً آخر، إنه منهج الله، إنه كلام الله، إنه شرح المعصوم، أية زيادة على الدين يعني اتهاماً له بالنقص، وأي حذف من الدين تعني اتهاماً له بالزيادة، الحذف يعني اتهام الدين بالزيادة، والإضافة يعني اتهام الدين بالنقصان.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

البدعة في الدين مرفوضة لكن الابتداع في الدين محمود :

الإتمام عددي، والإكمال نوعي، أي أن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً، وأن طريقة المعالجة التي عالجها الدين لهذه القضايا كاملة نوعاً، والتجديد يعني أن ننزع عن الدين كل ما علق به كل مما ليس منه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار))

[أخرجه أحمد في مسنده و مسلم والنسائي وابن ماجة عن جابر]

البدعة في الدين مرفوضة، لكن الابتداع في الدين محمود، ومطلوب، ومندوب، أن نطور سبل معيشتنا، أن نطور حياتنا، أن نهيئ لشبابنا مساكن، أن نحل مشكلاتنا، هذا كله مطلوب، لكن المسلمين

وللأسف الشديد طوروا في دينهم وقلدوا في دنياهم، والأولى أن يطوروا في دنياهم وأن يقلدوا في دينهم، النبي عليه الصلاة والسلام فيما يجري على لسانه في القرآن الكريم:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة يونس:15]

سيدنا الصديق قال: إنما أنا متبع، فالإتباع من صفات المؤمن الصادق، لأنه يتبع منهج الله عز وجل، منهج الحكيم العليل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة أعطاه الله مقومات هذه الأمانة :

الإنسان حينما كلف حمل الأمانة كما قال الله عز وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

الإنسان حينما قبل حمل الأمانة أعطاه الله مقومات هذه الأمانة، أعطاه كوناً ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله، أعطاه عقلاً مبادئه متوافقة مع مبادئ الكون، أعطاه فطرة تدل على خطئه، أعطاه شهوة كقوة دافعة إلى الله عز وجل، أعطاه اختياراً ليثمن عمله، ثم أعطاه منهجاً، وكأن المنهج يعني مرجعية ليس غير، الإنسان إذا أعرض عن التفكر في خلق السماوات والأرض، فالمنهج يشير إلى آيات الله الدالة على عظمته، إذا طغى العقل وبغى المنهج يضع العقل عند حدوده المشروعة، الفطرة إذا طمست المنهج يصحح لها انطماسها، الشهوة إذا جمحت، مرجع، الشرع مرجع، مرجع للكون وللعقل وللفطرة وللشهوة وللاختيار، فلذلك لئلا يقول الناس يوم القيامة: يا رب أعطيتنا كوناً ولكن ما فكرنا به، أعطيتنا فطرة ولكنها طمست يا رب، أعطيتنا عقلاً ولكنه جمح بنا، أعطيتنا اختياراً ولكننا أسأنا استخدامه، أعطيتنا شهوة ولكنها طغت وبغت، لولا أنك أرسلت إلينا رسلاً، فجاء الرسول ليقطع حجة البشر، لذلك:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)

[سورة القصص: 47]

(لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)

[سورة طه: 134]

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

الله عز وجل خلق الكون و نوّره بالعلم :

النبي والرسول معه منهج، معه تعليمات الصانع، فالذي يطبق هذا المنهج يلقى نتائجه في الدنيا قبل الآخرة، فكأنه بشير، والذي يخالف هذا المنهج يعاقب في الدنيا قبل الآخرة، فكأنه نذير، فمن صفات النبي الكريم أنه بشير لمن أطاعه، ونذير لمن عصاه، نقول للمريض: هذا الدواء مفيد فإن استعملته شفيت من مرضك فنحن نبشرك بالصحة، وإن أبيت إلا أن تتابع خطأك فنحن ننذرك بمضاعفات لهذا المرض، قد تحتاج معها إلى عمل جراحي، فنحن بهذا ننذره، أي لئلا تقولوا:

(مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ)

لئلا تقولوا:

(مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ)

لتقوم الحجة على الخلق:

(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الله عز وجل فضلاً على أنه خلق الكون فقد نوّره بالعلم.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: 1]

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: 1]

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور: 35]

فقط للتقريب، تشق الطرقات، وبعد أن تشق الطرقات توضع الإشارات، منحدر خطر، تقاطع خطر، منزلق، منعطف، طريق صاعدة، هذه كلها إشارات تحذيرية تكون قبل أماكن الخطر، فكما أن الإنسان الحكيم يصنع شيئاً ويقدم له تعليمات، والآن في أكثر الآلات يأتي الجهاز معه تعليمات التشغيل والصيانة، معه تحذيرات، والتحذير دليل الحكمة والرحمة.

الله تعالى يشير في الآية التالية إلى أن بني إسرائيل وقفوا موقفاً لا يليق بهم من أنبيائهم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

(إِذْ) أيها الأخوة بمعنى حين، أي اذكر يا محمد حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

واذكروا يا أتباع محمد حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

واذكروا يا قراء القرآن الكريم حين قال موسى لقومه:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

ولكن متى يقال للإنسان: اذكر أنك ابن فلان؟ حينما يأتي بعمل منكر، حينما نقول لطالب: اذكر أنك ابن فلان، أي أن عملك الآن سيئ، لا يليق بك أن تفعل هذا العمل وقد نسبت إلى هذا الأب الكريم، لذلك الله عز وجل يشير في هذه الآية إلى أن بني إسرائيل وقفوا موقفاً لا يليق بهم من أنبيائهم، فسيدنا موسى يقول:

(يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

الأنبياء دليل الحرص الإلهي والرحمة الإلهية :

النعمة أيها الأخوة لعلها اسم جنسٍ، أي اذكروا كل نعم الله مطلقة، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، نعمة السمع والبصر، نعمة النطق، نعمة الكلام، نعمة هذه الأجهزة التي تعمل بانتظام، نعمة الزوجة، نعمة الولد، نعمة الأمن، نعمة المال، هذه كلها نعم لا تعد ولا تحصى، وأما كلمة نعمة بمعنى اسم جنس هذه يؤيدها قول الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

[سورة النحل: 18]

أي وأن تعدوا نعم الله لا تحصوها، أو المعنى الآخر أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في تعداد بركاتها ما انتهيت إلى نتيجة، " اذكروا نعمة الله عليكم ".

(إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)

أولاً:

(إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ)

الأنبياء جاؤوكم يتبع بعضهم بعضاً، وهذا دليل رحمة الله بكم، كما لو عندك مريض، وهو غال عليك، فتأتيه بالطبيب، التحسن طفيف، تأتيه بطبيب آخر، صار في نكسة، تأتيه بطبيب ثالث، أن يأتي الأطباء تباعاً إلى مريض هذا دليل العناية الفائقة لولي هذا المريض، فكأن الله عز وجل أراد أن يذكر هؤلاء بنعمة الله عليهم إذ جعل فيهم الأنبياء، والأنبياء دليل الحرص الإلهي والرحمة الإلهية:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

لماذا تعارضونني؟ لماذا لا تستجيبوا لي؟ هذه آيات بينات، بعصاه ضرب البحر فأصبح طريقاً عظيماً، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، معجزات جاء بها ليؤكد لهم أنه هو رسول الله.

الله عز وجل جعل بني إسرائيل مالكين وجعل فيهم الملوك :

من يستطيع من بني البشر أن يجعل البحر طريقاً يبساً؟ كيف أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان مع قلة من بني إسرائيل؟.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[سورة الشعراء: 54-55]

أتبعهم فرعون، وصلوا إلى البحر، اليقين بالهلاك بالمئة مئة.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

الأمل بالعقل، والواقع معدوم، فرعون بجبروته، وطغيانه، وحقده، ورجاله، وأسلحته وراء شرذمة من المؤمنين، فيهم سيدنا موسى، فقال موسى: " كلا "، ردعهم عن أن يقولوا: إنا لمدركون، فماذا فعل هذا النبي الكريم؟ ضرب البحر بعصاه فإذا كل طريق كالطور العظيم، هذه شهادة الله له أنه رسول، نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فهذه من نعم الله الكبرى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً)

هناك مالك، وهناك ملك، قال بعض علماء اللغة: أنا أملك بيتي فأنا مالك، أملك مركبتي فأنا مالك، ولكن الذي يملك من يملك هو المَلِك، الذي يملك من يملك، الذي يملك يسمى مالك، أما الملك فيملك من يملك، لذلك الله عز وجل جعل في بني إسرائيل الملوك أيضاً، جعلهم مالكين، وجعل فيهم الملوك.

الميزة لا تقتضي الأفضلية :

في قصة سيدنا يوسف:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ)

[سورة يوسف: 50]

طبعاً في مصر كان هناك فراعنة، ولكن في حقبة معينة كان فيها ملوك.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)

الميزة كما قالوا لا تقتضي الأفضلية، " آتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين "، هذه ميزة لهم، ولكن هذه الميزة لا تقتضي أنهم مفضلون عند الله عز وجل، أنت أحياناً تشدد العناية بجهة حرصاً عليها، فإن لم تستجب ليس لها فضل على غيرها، أخذت ميزة، ولم تكن مفضلة على غيرها.

الأرض تطهر بطاعة الله وتنجس بمعصية الله :

قال تعالى:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

الأرض المقدسة المطهرة، والأرض تطهر بطاعة الله، وتنجس بمعصية الله، بل الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)

[سورة التوبة: 28]

لم يقل: نجسون، لأن النجس يُطهر، لكنهم عين النجاسة، أينما حلوا أساؤوا، وفتنوا، ونشروا الفتن، ونشروا المعاصي والآثام، الأرض المقدسة هي الأرض التي يعبد الله فيها، أرض مقدسة، والمؤمن حقيقته أنه ينبغي أن يعيش في أرض يعبد الله فيها، لأن علة وجوده عبادة الله عز وجل، وأي مكان حال بينك وبين عبادته ينبغي أن تغادره.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً)

[سورة النساء: 97]

لأن علة وجودك أن تعبد الله فأي مكان حال بينك وبين عبادة الله ينبغي أن تغادره.

أيّ مكان حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي أن تغادره :

ذهب أحدهم إلى بلد ليأخذ دكتوراه، جلس مع أصدقاء في غرفة، صرفوه عن الدراسة، لما صرفوه عن الدراسة صرفوه عن هدفه الأساسي في هذا البلد، ينبغي أن يغادرهم إلى مكان آخر، أما إذا بقي معهم يرجع خائباً خاسراً، فأي مكان حال بينك وبين أن تعبد الله ينبغي أن تغادره.

كنت في مؤتمر، وألقى بعض العلماء كلمة في هذا المؤتمر بيَّن أنه إن لم تضمن أن يكون ابن ابْن ابنك مسلماً في بلد ما ينبغي أن تغادره، ذكرت هذا في كلمة في عقد قران، وكان حضور هذا العقد أكثرهم من الجالية الإسلامية في بلد بعيد، فتقدم مني واحد، ورأيت دمعة تسيل على خده، قال: ابن ابْن ابني، ابني ليس مسلماً، لأن هناك ابني ليس مسلماً.

أيها الأخوة الكرام: أكرر وأعيد أن قصص بني إسرائيل في القرآن كثيرة، وأن الحديث عن أهل الكتاب كثير، والحكمة من ذلك أنهم أهل كتاب، وأن كل منزلقاتهم، وكل انحرافاتهم، وكل أمراضهم، نحن كوننا مسلمين معرضون لها، وقد قيل عن هذا الأسلوب: إنه أسلوب بليغ، إياك أعني، واسمعي يا جارة، وحينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أيّهَا النّاسُ إنّمَا أهْلَكَ الّذِينَ قَبْلَكُمْ، أنّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ، تَرَكُوهُ وَإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ، أقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدّ، وَأَيْمُ اللّهِ لَوْ أنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

[مسلم عن عائشة رضي الله عنها]

وفي مجتمعات المسلمين المتخلفة إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، من أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم كانوا:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

وقد تجد في أوساط إسلامية كثيرة أن المنكر لا يُنكر إطلاقاً يُرَحب به، تحت اسم مجاملات، ولباقة اجتماعية، وذكاء اجتماعي، ومرونة، وفهم عميق للدين، فالمنكر لا ينكر، فلذلك أكثر أمراض بني إسرائيل، أو أكثر أمراض أهل الكتاب أصبحنا مبتلين بها، فلذلك الحديث عن هؤلاء هو حديث عن أنفسنا، عن أخطاء، وعن منزلقات، وعن ترهات سلكها أهل الكتاب، ونحن معرضون لمثلها، حينما احتال بنو إسرائيل على ربهم في قضية صيد السمك، فحينما حرم عليهم الصيد يوم السبت، كانوا يبنون الترع والبحيرات لتأتي الأسماك يوم السبت شرّعاً، ثم تغلق أبواب هذه البحيرات، ويصطاد السمك يوم الأحد، فهذه كلها حيل، وما أكثر الحيل التي يتبعها المسلمون اليوم للتملص من أحكام دينهم، فلو ذهبت توازن بينما ما فعله أهل الكتاب وبين ما يجري بين المسلمين تجد شبهاً عجيباً.

الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم هو توجيه لطيف غير مباشر للمسلمين :

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ)

[سورة البقرة: 111]

والمسلمون اليوم يتوهمون أنهم وحدهم يدخلون الجنة، وهذا خطأ كبير.

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

[سورة البقرة: 112]

هذا الذي يدخل الجنة، أيضاً زعم اليهود أنهم إذا دخلوا إلى النار لن يلبثوا فيه إلا أياماً معدودات، تلك أمانيهم.

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

والمسلمون اليوم يزعمون أنهم أمة محمد، أمة الشفاعة، فشفاعتي بفهم ساذج لأهل الكبائر من أمتي، تطابق عجيب بين ما اعتقده وما فعله أهل الكتاب، وبين ما نعتقده اليوم ونفعله نحن، لذلك الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم هو توجيه لطيف غير مباشر للمسلمين.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (16-49) : تفسير الآيات: 21-26 ، نصر الله لعباده المؤمنين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-12-2003

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص للدروس السابقة :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الواحدة والعشرين، وهي قوله تعالى في معرض الحديث عن قصة بني إسرائيل:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

وكان الله جل جلاله قد بدأ الآيات بقوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

ولقد تم شرح هذه الآية في درس قبل الماضي، في الدرس الماضي:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ*وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ*)

الخوف الشديد غير المعتدل والتخاذل من صفات العصاة والشاردين :

قال تعالى:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ)

دعي بنو إسرائيل إلى دخول فلسطين، وكان في فلسطين قوم جبارون، فالإنسان حينما يعرف الله، ويعرف قدرته المطلقة، ويعرف أن النصر بيده، ويعرف أن الفعل بيده، ويعرف أن الأمر راجع إليه، ويعرف أن العباد في قبضته، ينفذ أمر الله ويستجيب له، ويقتحم المعارك، أما إذا غفل عن الله وضعفت ثقته بنفسه لضعف طاعته لله عز وجل يخاف، فالخوف الشديد غير المعتدل من صفات العصاة الشاردين، بينما الثقة بالله عز وجل والاعتماد عليه، والتوكل عليه من صفة عباده المؤمنين، فحينما دعي بنو إسرائيل إلى دخول القدس أو فلسطين قالوا:

(قالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ)

الكنعانيون كانوا في فلسطين، وكان هؤلاء جبابرة وعمالقة، وهذا أمر تكليفي، إن دخلتم نصرتكم، فأحجموا.

(وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا)

موقف من التخاذل ومن الضعف والجبن الذي أساسه الشرك، الإنسان حينما يشرك يلقي الله في قلبه الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران: 151]

الجرأة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه من صفات المؤمنين :

أيها الأخوة،

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة)

ومعنى الأرض المقدسة أي أنها أرض الأنبياء، مهبط الرسالات الثلاث، أرض الأنبياء والمرسلين،

(يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم)

أي أمركم بها أمراً تكليفياً، فإن كان إيمانكم به قوياً، وإن كان اعتمادكم عليه كافياً، وإن كانت ثقتكم بأنفسكم عالية بسبب طاعتكم لله عز وجل فلا بد من أن تدخلوها معتمدين على الله آخذين بالأسباب، ولو أردنا أن نسقط هذا الحدث على مجتمع المسلمين، المسلمون حينما يغفلون عن الله، وحينما يقعون في الشرك الخفي، وحينما تضعف ثقتهم بأنفسهم بسبب معصيتهم لا يستطيعون التوكل على الله، ولا يستطيعون الاعتماد عليه، ولا يجرؤون على مواجهة أعدائهم بسبب ضعف ثقتهم بأنفسهم، وبسبب بعدهم عن خالقهم لذلك: الجرأة والشجاعة من صفات المؤمنين، والخوف الشديد، والقلق الشديد من صفات العصاة والمذنبين.

(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا)

أنعم الله عليهما بالإيمان، وبالتوحيد، وبالثقة بالله عز وجل.

(ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لكن هؤلاء القوم أبوا الدخول، واستنكفوا، وخافوا، وظنوا أنهم لا يستطيعون أن يحققوا النصر لضعف ثقتهم بربهم، ولضعف ثقتهم بأنفسهم، ولأن توكلهم كان ضعيفاً بسبب المخالفات.

لم يكلف المؤمنون أن يعدوا العدة المكافئة لعدوهم بل كلفوا أن يعدوا العدة المتاحة فقط:

بالمناسبة أيها الأخوة أنت حينما تخالف أمر الله عز وجل لا تستطيع أن تتوكل عليه، وأن حينما تخالف أمر الله عز وجل لا تستطيع أن تعتمد عليه، وأنت حينما تخالف أمر الله عز وجل تضعف ثقتك بالله عز وجل، وأنا عند حسن ظن عبدي بي.

أيها الأخوة، سيدنا موسى حينما قال أصحابه ووراءهم فرعون، وأمامهم البحر، والأمل بالانتصار ضعيف جداً إلى درجة الانعدام.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ*قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 61-62]

هذه ثقة المؤمن، والله الذي لا إله إلا هو كإسقاط لهذه القصة على الأحداث العامة لو أن المسلمين آمنوا بالله حق الإيمان، آمنوا بالله إيماناً يحملهم على طاعة الله، ثم أعدوا لعدوهم ما يستطيعون، ولم يكلفوا أن يعدوا العدة المكافئة بل كلفوا أن يعدوا العدة المتاحة فقط، والله الذي لا إله إلا هو كان النصر أقرب إليهم من البياض إلى السواد، النصر في متناول أيديهم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

[سورة الأنفال: 10]

آيات من الذكر الحكيم تؤكد على أن النصر من عند الله وحده :

الله عز وجل يقول:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد: 7]

والله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

والله عز وجل يقول:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

والله عز وجل يقول:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

والله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور: 55]

حينما تتحقق جنديتك لله لا بدّ من أن تنتصر :

أيها الأخوة، هذان الرجلان تذكر بعض الروايات أسماءهما، ولا فائدة ترجى من ذكر الأسماء؛ رجلان مؤمنان يخافان الله عز وجل، ويقدرانه حق قدره، أنعم الله عليهما بالإيمان، أشارا على قومهما،

(ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)

لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

حينما تتحقق فيك جندية الله عز وجل، أن تكون جندياً لله، لا أن تكون جندياً لجهة أرضية، حينما تتحقق جنديتك لله لا بد من أن تنتصر، لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

الآيات التي تبشر المؤمنين بالنصر كثيرة جداً، وكلكم يعلم أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فلذلك:

(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

لكن الضعف والخور الناتجة عن ضعف الإيمان، وعن ضعف الطاعة، أقول وأعيد: الضعف والخور الناتج عن ضعف الإيمان وعن ضعف الطاعة يسبب الخوف الشديد والفرقة من مواجهة العدو.

الإنسان قيمته بمن حوله من أخوانه المؤمنين :

قال تعالى:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

هذا الموقف يذكرنا بموقف سيدنا سعد بن أبي وقاص، حينما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحارب قريشاً، فسأل الأنصار عن موقفهم، فقال زعيمهم: امض يا رسول الله لما أردت، صل حبال من

شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فو الذي بعثك بالحق لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا واحد، إنا لصدق في الحرب، لصدق عند اللقاء، فلعل الله يريك منا ما تقر به عينك، ولا نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، ونحن معك مقاتلون، ألم يقل الله عز وجل:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

والذين معه، الإنسان قيمته بمن حوله، قيمته بأخوانه، قيمته بالمؤمنين.

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال: 46]

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((من شذ شذّ في النار))

[الحكيم وابن جرير والحاكم عن ابن عمر]

(قالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ*قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

حينما تكون في مجتمع فاسد فلك أن تعتزله :

أنت حينما تكون في مجتمع فاسد، وفي مجتمع شارد، وفي مجتمع ترتكب فيه المعاصي في الطرقات، وفي مجتمع يكثر فيه الكذب، ويكثر فيه النفاق، وحينما تكون في مجتمع ترتكب المعاصي على قارعة الطريق، وحينما تكون في مجتمع تحكم المصالح لا المبادئ، وحينما تكون في مجتمع يعلو فيه الفجار، ويبتعد عن الأضواء المستقيمون، إذا كنت في هذا المجتمع فلك أن تعتزله لأن الله عز وجل يقول:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الكهف: 16]

لهذا قال عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن آخر الزمان:

((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن))

[أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري]

لذلك ما لم تشعر بالغربة في مجتمع الفساد، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع التفلت، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع النفاق، ما لم تشعر بالغربة في مجتمع المعاصي والآثام، لن تكون مؤمناً.

((إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء))

[مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة]

إذا كنت في مجتمع فاسد فكن مع المؤمنين الصادقين :

أيها الأخوة الكرام: إذا قال الله عز وجل:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[سورة الكهف: 16]

أين الكهف هذه الأيام؟ إنه المسجد، إنه بيتك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطَاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ..))

[الترمذي و أبو داود عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ]

الزم بيتك، وأمسك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، وقد فسر علماء الحديث خاصة النفس أنهم أقرباؤك، جيرانك، زملاؤك، أصحابك، أي من تثق بهم، عليك بخاصة نفسك، أي عليك بمن تثق بهم، ودع عنك أمر العامة، هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام في زمن الفتن، في زمن التمثيل، إتقان التمثيل في هذا الزمن لا يصدق، إتقان التمثيل تظنه صديقاً وهو عدو لدود، تظنه مخلصاً لأمته وهو خائن كبير، إتقان التمثيل يدعوك إلى أن تكون حذراً من الناس، إذا رأيت:

((شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً))

الشح المطاع المادة، المادة إلهاً تعبد من دون الله، المال يبيع دينه وعرضه بعرض من الدنيا قليل، يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، يبيع دينه وعرضه بعرض من الدنيا قليل، إذا كنت في مثل هذا المجتمع فكن مع المؤمنين الصادقين:

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

((من شذ شذ في النار))

[الحكيم وابن جرير والحاكم عن ابن عمر]

إذا كنت في مجتمع التفلت فعليك بالتوبة إلى الله وطاعته :

قال تعالى:

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي)

هذا الكلام الدقيق يعلمنا أنك إذا كنت في مجتمع فاسد، وهذا المجتمع الفاسد استحق أن يتخل الله عنه، وألا ينصره على أعدائه، بل استحق أن يسلط عليه أعداءه، فينتهك حرماته، ويفقرونه، ويضلونه، ويفسدونه، ويذلونه، ماذا تفعل أنت أيها المؤمن؟عليكم أنفسكم، يا أيها الذين آمنوا في وقت من الأوقات، في عصر من العصور، في ظرف من الظروف، عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، فإن كنت مع الله مستقيماً على أمره، لك معاملة خاصة.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 88]

مهما كان الظرف صعباً، ومهما كان الوقت شديداً، سيدنا يونس عليه السلام حينما وجد نفسه فجأة في بطن الحوت، وهل من مصيبة أشد من أن تكون في بطن الحوت في ظلمة الليل الأليل، وفي ظلمة أعماق البحر، وفي ظلمة بطن الحوت.

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء: 77-88]

إذا كنت في مجتمع التفلت فعليك بالتوبة إلى الله وطاعته، أقول لك: لك معاملة خاصة، لأن زوال الكون أهون على الله من أن يذهب الطائع مع العاصي، الطائع إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن الله ينجيه، أما إذا لم يأمر بالمعروف، ولم ينهَ عن المنكر وقال: علي نفسي، لذلك حينما أرسل الله الملائكة لإهلاك قرية قالوا: يا رب، إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ يا رب؟ قال: لأنه كان لا يتمعر وجهه لمنكر رآه، الله عز وجل يبين أنه لا يهلك إلا القرية التي ليس فيها من يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر.

حقائق ينبغي أن تكون مسقطة على واقعنا الإسلامي :

أيها الأخوة الكرام، هذه حقائق ينبغي أن تكون مسقطة على واقعنا الإسلامي:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

أيعقل أن يسأل خالد بن الوليد سيدنا الصديق أن يمده بمدد، وهو يتوقع خمسين ألفاً، بعد حين طويل جاءه صحابي واحد اسمه القعقاع، فسأله: أين المدد؟ أنا أنتظر المدد بفارغ الصبر، فقال: أنا المدد، قال: أنت! قال: أنا، ومعي هذا الكتاب فاقرأه، فقرأ الكتاب من أبي بكر، قال: يا خالد، لا تعجب أنني أمددك بواحد، فو الذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، واحد بمئة ألف، واحد بخمسين ألفاً، كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الواحد منهم بألف، والمسلمون في آخر الزمان الألف منهم

بأف، الألف بأف، غارقون في شهواتهم، غارقون في نفاقهم، غارقون في مصالحهم، غارقون في التنافس على الدنيا، غارقون في ظلمهم للفقير، واحد كألف وألف كأف:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي)

وقد يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان فقط، فإن كنت من القلة المؤمنة فهذه نعمة لا تقدر بثمن، وإذا كان الإنسان من الكثرة الكافرة فهذه مصيبة خطيرة:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

فقال الله عز وجل:

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

فكيف إذا استحق هؤلاء القوم الفاسقين أن ينتصروا على المؤمنين؟ لا بد أن هؤلاء أشد فسقاً منهم، فكيف إذا استحق هؤلاء القوم الفاسقين أن ينتصروا على المؤمنين؟ إنهم شرذمة قليلون، ومع ذلك انتصروا على مئتي مليون، إنهم مليونان انتصروا على مئتي مليون.

الله عز وجل لا ينصر عباده إلا بإيمانهم ولا يتفاوت العباد عند الله إلا بتقواهم :

أيها الأخوة: الله عز وجل لا يحابي أحداً، الله عز وجل لا ينصر عباده إلا بإيمانهم، ولا يتفاوت العباد عند الله إلا بتقواهم.

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

أيها الأخوة، من بعض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، والتي ينبغي أن تذكر لاتصالها الشديد بهذا الموضوع.

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ)

[سورة الإسراء: 104]

أنت في أي مكان تسكنه هو في الأرض، ما معنى هذه الآية؟ لفتة رائعة، لأنهم جبنوا عن أن يدخلوا، قال: اسكنوا الأرض، هذه الآية تشير إلى أنهم شتتوا في الآفاق حتى أنهم سموا شذّاذ الآفاق، اسكنوا الأرض، تفرقوا في معظم البلاد، لكن لم يهلكوا إهلاك استئصال، قال تعالى:

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا)

[سورة الأعراف: 168]

هم لم يذوبوا في المجتمعات الأخرى، لذلك أينما ذهبت في أي مكان في الأرض هناك حارة اسمها حارة اليهود، يحافظون على قوميتهم، وعلى دينهم، وعلى لغتهم، وحبذا لو قلد المسلمون هؤلاء إذا

سافروا بعيداً عن وطنهم، لو أن كل جالية إسلامية اجتمعت في مكان، وأكلت الطعام الحلال، وأنشأت المدارس الإسلامية، وحافظت على لغة أبنائها، لكن الشيء المؤسف جداً أن أبناء الجالية الإسلامية لا يتكلمون العربية أبداً.

تجمع اليهود في فلسطين من علامات قيام الساعة :

كنت مرة في سدني في أستراليا، وطلب إلي أن أجتمع مع طلاب الثانوية، والثانوية من أرقى الثانويات، كلفت عشرة ملايين دولار، من أرقى ما رأيت في حياتي من أبنية تعليمية، جمع الطلاب في المسرح الكبير، الشباب في الأمام، والبنات محجبات، والله دخل على قلبي من السرور ما لا يوصف، وأنا لا أعرف الحقيقة بعد، فلما أردت أن أبدأ الكلام همس في أذني أحد الأساتذة، إنهم لا يفهمون العربية أبداً، فلا بد من الترجمة، اليهود أينما ذهبوا يحافظون على لغة أبنائهم، يحافظون على هويتهم، يحافظون على دينهم، يحافظون على قوميتهم، فالله عز وجل يقول:

(وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ)

[سورة الإسراء: 104]

هم مفرقون في شتى البلاد.

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمَاً)

[سورة الأعراف: 168]

أيها الأخوة الكرام، لكن في الإسراء آيات، أنا أقول لكم بالضبط: أنا أذكر لكم خواطر إيمانية مع هذه الآيات، ولا أزيد على أن تكون خواطر إيمانية، فإن أصبت فمن توفيق الله، وإلا فمن تقصيري، الله عز وجل يقول بعد أن قال: اسكنوا الأرض، وبعد أن قال: وقطعناهم في الأرض أمماً، قال:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً)

[سورة الإسراء: 104]

فتجمع اليهود في فلسطين من علامات قيام الساعة، (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً).

ضعف المؤمنين وتقصيرهم سمح لليهود أن يقووا عليهم :

الله عز وجل يقول:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً*فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا)

[سورة الإسراء: 4-5]

في بعض التفاسير يشار إلى هؤلاء العباد بأنه بختنصر ومن معه، هؤلاء ليسوا عباداً لله هؤلاء عباد للشياطين، هؤلاء جبابرة، يقول: عباد لنا، لذلك استنبط بعض المفسرين أن الفساد الأول الذي كان في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، أرسل عليهم أصحاب النبي، وقد قاتلوهم، وأجلوهم عن أرض الحجاز.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً)

[سورة الإسراء: 5]

هذا شيء وقع، بنو النضير وقينقاع، وكل هؤلاء قد أجلوا من الجزيرة العربية، ثم يقول الله عز وجل يخاطب اليهود:

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ)

[سورة الإسراء: 6]

لضعف المؤمنين، وتفلتهم، وتقصيرهم، ومعصيتهم، ونفاقهم، وبعدهم عن ربهم سمح لهؤلاء الشرذمة أن يقووا عليهم.

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ)

[سورة الإسراء: 6]

أموال الأرض بإدارة اليهود.

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً)

[سورة الإسراء: 6]

في الآيات التالية بشارة أن يسترد المسلمون المسجد الحرام و يفتحوه تحقيقاً لوعد الله:

الآن:

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ)

[سورة الإسراء: 7]

أي أخذتم المسجد من المسلمين:

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً)

[سورة الإسراء: 7]

أخذوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم أخذه اليهود منهم، فإن بقوا على ظلمهم الذي ترونه كل يوم وفي كل نشرة أخبار، فإذا بقوا على ظلمهم:

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً)

[سورة الإسراء: 7]

بعض العلماء لا يرى أن هذه الآيات متعلقة بما يجري، وبعضهم يسقطها أول مرة على بختنصر، وبعضهم كما قلت قبل قليل: يسقطها على فساد اليهود بعد مجيء القرآن الكريم، في المرة الأولى فسدوا، ولم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فسلط الله عليهم عباداً مؤمنين وأجْلوهم عن الجزيرة، لكنهم بعد ذلك لتقصير المؤمنين دخلوا المسجد مرة ثانية، وفي هذه الآيات بشارة إن شاء الله أن يسترد المسلمون هذا المسجد، وأن يفتحوه تحقيقاً لوعد الله عز وجل، وهذا ثابت أيضاً عندهم في كتبهم.

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة :

مرة سأل وزير دفاعهم، وقد احتل قلعة في جنوب لبنان عن هذه الوقائع، فقال: هذا صحيح، سوف يأخذوا منا كل ما أخذناه منهم، وسوف ينتصرون علينا، ولكن ليس مع هؤلاء الذين حولنا، وله كلمة مشهورة: إن هؤلاء حينما تكتظ مساجدهم على صلاة الفجر كما تكتظ في صلاة الجمعة ينتصرون علينا، فمن مسجد يتسع لعشرين ألف مصل لا تجد صفاً واحداً في صلاة الفجر، لذلك أيها الأخوة:

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً*عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)

[سورة الإسراء: 7-8]

وهذه آية لكل المؤمنين، وإن عدتم عدنا، أيها المسلمون، أيها العرب، عودوا إلى الله يعود الله لنصركم.

سيدنا صلاح الدين كما ذكرت في الخطبة اليوم بلغه أن أحد ملوك الفرنجة قطع الطريق على الحجاج، وصار يقتل الرجال، ويسبي النساء، ويقول: قولوا لمحمدكم أن ينتصر لكم، سمع صلاح الدين هذا الكلام فبكى، قال: أنا سأنوب عن محمد في نصرة أمته، ومازال يسعى حتى استطاع أن يقبض على هذا الأمير الإفرنجي أرناط في الكرك ويقتله، قال له: أنا أدافع عن أمة محمد، القضية بيد الله، ولكن الله لا ينصر القوم الفاسقين، لا ينصر القوم المنحرفين، ولا القوم المنافقين، ولا القوم العصاة، إن الله ينصر عباده المؤمنين، فما نزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة.

أيها الأخوة، ما يجري في الساحة العربية والإسلامية شيء مؤلم جداً، أحياناً يبالغ الطرف الآخر في إذلال المسلمين، وفي إفقارهم، وفي إضلالهم، وفي إفسادهم، يفقرونهم، ويضلونهم، ويفسدونهم، ويذلونهم، واللهُ مع الحقِّ، فإذا أردنا أن نسترجع ما لنا من مكانة عند الله فعلينا بطاعة الله قال:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

من أمثال العرب: إنَّ البُغَاثَ بأَرْضِنَا يَسْتَنْسِر. يستنسر أي يتخلق بأخلاق النسر، والبغاث أضعف أنواع الطير، فهؤلاء الشرذمة القليلون، هؤلاء المشردون في الآفاق، هؤلاء كانت لهم الكرة علينا، ولا ينجينا منهم، وطموحاتهم لا تنتهي، وما يجري في العراق في أعلى التقديرات بتخطيطهم، إشاعة الفوضى، إشاعة الفقر، إشاعة الفساد، من أجل أن تحقق شعاراتهم من الفرات إلى النيل، وما كنت أظن في حياتي أن هذا يحقق في المدى المنظور، لكنهم وصلوا إلى الفرات، وأرجو الله أن يبعث عليهم عباداً له أشداء يخرجونهم من هذه البلاد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (17-49) : تفسير الآيات: 27-31 ، قصة قابيل وهابيل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة قابيل وهابيل هي قصة البشر وقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً للإنسان :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع عشر من سورة المائدة، ومع الآية السابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ)

أيها الأخوة الكرام، إن قصة قابيل وهابيل هي قصة الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه، في طاعته ومعصيته، في سعادته وشقائه، في سموه وسقوطه، هي قصة البشر، ولقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً لهذا الإنسان.

في هذه القصة أيها الأخوة: الله عز وجل يطلب من نبيه الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم أن يتلو على هؤلاء اليهود قتلةِ الأنبياء الذين حسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، أن يتلو عليهم هذه القصة، ففي بعض جوانبها تنطبق عليهم أشد الانطباق، الإنسان يغدو فوق الملائكة، أو يسقط حتى يكون دون الحيوان، تسمو نفسه إلى الله فيسعد إلى أبد الآبدين، وتسفل نفسه فيكون أشقى خلق الله أجمعين. قصة قابيل وهابيل قصة التكليف، قصة قابيل وهابيل قصة الشهوة، قصة قابيل وهابيل صراع بين المبدأ والشهوة، قصة قابيل وهابيل قصة الطاعة والمعصية، يمكن أن تلخص أحداث الدنيا إلى يوم القيامة بهذه القصة، قابيل وهابيل، ولأن الذين استمرؤوا قتل الأنبياء، واستمرؤوا الكفر بالأنبياء، وهم يعرفونهم كم يعرفون أبناءهم.

قصة قابيل و هابيل إضاءة لنا في الطريق إلى الله :

أيها الأخوة، ما من معرفة أوثق وأوضح وأسرع من معرفة الأب لابنه، ولقد بين الله عز وجل أن هؤلاء القوم يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نبي مرسل كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك الاستكبار، والحسد، والبغي، والعدوان حال بينهم وبين الإيمان بهذا الرسول، لو دققنا في هذه القصة لوجدناها قصة البشرية جمعاء، لو دققنا في هذه القصة لوجدناها تعبيراً عما يجري الآن، في مناطق

العالم، كيف أن الشهوة شهوة التسلط وشهوة الاستمتاع بالحياة تقضي على كل قيمة وكل مبدأ، وكيف أن الناس رجلان، غر كريم وخب لئيم، إنها قصة بليغة إلى أقصى حد، وأراد الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه القصة إضاءة لنا في الطريق إلى الله، فينبغي ألا نكون كقابيل الذي قتل آخاه ظلماً، وينبغي أن نطيع الله عز وجل:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ)

أي بيّن لهم والتلاوة ذكر الحقائق مرتبة، أي حقيقة تلو حقيقة:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ)

والمقصود بضمير الغائب بنو إسرائيل الذي قتلوا أنبياءهم بغير حق، وكفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم بغياً وعدواناً:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ)

النبأ هو الخبر، ولكن ليس كل خبر، الخبر المهم، الخبر المتميز، الخبر الذي له دلالة:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ)

إذا كان الخطاب من خالق الأكوان فينبغي أن تأخذه وكأنك تراه :

لأن الله سبحانه وتعالى هو المتكلم، ولأن الله تعالى هو الذي يقص هذه القصة، فهذه القصة بالحق، أي لابس الحق أحداثها، أي إن هذه القصة هكذا وقعت تماماً، ولقد علمنا القرآن الكريم أن نأخذ إخبار الله كأننا نراه، قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

[سورة الفيل: 1]

مع أننا جميعاً لم نر هذا الحدث، مع أن الأمة الإسلامية جميعها لم تر هذا الحدث، والله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ)

أي إذا كان الخطاب من خالق الأكوان ينبغي أن تأخذه وكأنك تراه، لذلك:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

الحق هو الشيء الثابت والهادف، الحق هو الشيء المتيقن:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

أيها الأخوة: الله عز وجل حينما يقص علينا بعض القصص يقول:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)

[سورة آل عمران:62]

هذه القصة وقعت مئة بالمئة، ثبوتها قطعي، صوابها قطعي، فائدتها ليس لها حدود، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)

[سورة القصص:3]

القصة هي حقيقة مع البرهان عليها :

القصة أيها الأخوة هي حقيقة مع البرهان عليها، أي أبلغ ألف مرة أن تقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: 276]

وهي آية قرآنية، والله عز وجل أصدق القائلين، لكنها فكرة، أو أن تأتي مع هذه الآية بقصة لإنسان جمع أموالاً طائلة بالربا، ثم محقها الله له، فهذا المحق برهان على أحقية الحكم، لذلك قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

تأويل القرآن وقوع وعده ووعيده، القصة أيها الأخوة لها أهداف تربوية عالية، إنها سلاح ذو حدين، فكما أنك بالقصة تسمو إلى الله يمكن أن يسفل الإنسان بقصة ساقطة، لذلك قال بعضهم: لكاتب القصة أن يصور الرذيلة، مسموح له ذلك، ولكن على نحو نحتقرها، وعلى نحو نشمئز منها، أما إذا قرأنا قصة تعظم الرذيلة، وتبين أن فاعليها أبطال إذا حركت القصة المشاعر السفلى، أو الغرائز السفلى، ولم تحرك المشاعر العليا فإن مجتمع بأكمله يمكن أن ينهار من خلال هذا الفن الساقط، وأقول لكم إن صح التعبير: إن النتاج العقلي والشعوري للبشرية يصنف في فلسفة وعلم وفن، والفلسفة ما يجب أن يكون، والعلم ما هو كائن، والفن ما هو ممتع، فإذا اعتمدنا على المتعة، وصورنا الرذيلة على نحو نعظم أبطالها، ونشتاق إلى فعلها، وهذا ما يحصل في العالم اليوم، الرذيلة، الخيانة الزوجية، الزنا، الانغماس في الملذات الدنيئة، يصور على أن هذه هي الحياة، هذا هو التفوق، هذه المتعة الحقيقية، هذه هي السعادة.

إذا كان الإنتاج العقلي والشعوري للبشرية مسوغاً للانحراف الأخلاقي على أنه نعجب به، فإن مجتمعاً بأكمله يمكن أن يسقط من خلال هذا الفن:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)

البشرية كلّها من أب واحد وأم واحدة :

لأنه لا بد من مقدمة فيما روت بعض الكتب، أن الله سبحانه وتعالى بدأ البشرية بسيدنا آدم، وسيدنا آدم في بعض الأحاديث تسمو مكانته إلى ما بعد مكانة النبي عليه الصلاة والسلام.

((آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة))

[أحمد وأبو يعلى عن ابن عباس]

هو نبي كريم، وقد قال الله عز وجل مبيناً هذا البدء بالخليقة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

[سورة الأعراف: 189]

السيدة حواء:

(وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

[سورة الأعراف: 189]

الآن هناك ستة آلاف مليون، كلما عدنا إلى الوراء قلت هذه الأعداد، فإذا تابعنا الرجوع يجب أن نصل إلى إنسانين، آدم وحواء، لأن البشرية كلها من أب واحد، وأم واحدة:

(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً)

[سورة النساء: 1]

كلما كان التباعد بين الزوجين كان النسل أقوى :

سيدنا آدم والسيدة حواء تزوجا، وأنجبت حواء في البطن الأول قابيل وأخته، وفي البطن الثاني هابيل وأخته، نحن أمام أربعة أولاد، ذكران وأنثيان، من أجل متابعة التوالد لا بد من تشريع مرحلي، لأن أصل منهج الله عز وجل التباعد، فقد ورد عن سيدنا عمر: (اغتربوا لا تضووا)، فكلما كان التباعد بين الزوجين كان النسل أقوى، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ)

[سورة الإنسان: 2]

فالنطفة والبويضة كل منهما فيه مورثات فإذا امتزجا ففي المورثات صفات تفضيلية للإنسان، فإذا التقت صفة في الأب وصفة في الأم الصفة الأقوى تنتصر، فالذي يحصل أن المولود يأتي بصفات أقوى الأبوين، فالنسل يزداد قوة، أما في الاستنساخ الضعف يزداد، لذلك في مفاجئات كبيرة جداً لم تكن في الحسبان، أن صفات الشيخوخة ظهرت مبكرة جداً في سنوات قلة، لأن الله سبحانه وتعالى حينما يصمم، أو حينما يخلق يخلقُ أكمل خلق إطلاقاً، وأي تعديل عن خلق الله عز وجل هو نحو الأسوأ، لأن

خلق الله هو قمة الكمال، قمة الكمال في الخلق.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

[سورة الإنسان: 2]

هذه القمة، فإذا أخذنا خلية من ثدي حيوان، وأودعناها في رحم أنثاه، ونمت هذه الخلية بما يسمى بالاستنساخ، فإن أخطاء وانحرافات وتشوهات ومشكلات ومتاعب لا تعد ولا تحصى تتأتى من هذه الطريقة التي لم تكن في أصل الخلق، إذاً أي تعديل عن خلق الله عز وجل نحو الأسوأ، إذاً لا بد من التزاوج، ولا بد من التباعد، ولكن كيف يكون التباعد بين بطنين؟ في البطن الأول ذكر وأنثى، وفي البطن الثاني ذكر وأنثى، التباعد النسبي المتاح وقتها أن يتزوج قابيل من أخت هابيل التي ولدت معه من بطن واحد، وأن يتزوج هابيل من أخت قابيل التي ولدت معه من بطن واحد، هذا هو التشريع وقتها.

الله عز وجل أورد القربان في القرآن الكريم :

إذاً التباعد الزوجي ضرورة لقوة النسل، ما الذي حدث؟ هناك تشريع أن يتزوج قابيل من أخت هابيل، وهناك بالتشريع نفسه أن يتزوج هابيل من أخت قابيل، ولحكمة أرادها الله عز وجل وقد قال الله عز وجل:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

أخت هابيل ليست جميلة بالقدر الذي يتمناه الزوج، بينما أخت قابيل كانت جميلة، فقابيل آثر الشهوة، فلِمَ أتزوج أخت هابيل؟ أتزوج أختي، ولم يعبأ بتوجيه الله عز وجل، أي غلبته شهوته.

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

[سورة المؤمنون: 106]

قابيل غلبته شهوته، ورفض أن يتزوج أخت هابيل، لأن أخته أجمل، فحينما رفع الأمر إلى سيدنا آدم هكذا تروي الروايات والشيء منطقي، أمرهما أن يقربا إلى الله قرباناً، فكان قابيل يعمل في الزراعة، وكان هابيل يعمل في رعي الغنم، فقدم هابيل قرباناً إلى الله، أي شيئاً يتقرب به إلى الله، قدم من غنمه أسمنها وأفضلها، وقدم قابيل قرباناً إلى الله من إنتاجه الزراعي أسوأه وأردأه، هذا موضوع ثان، فتقبل الله قربان هابيل، ولم يتقبل قربان قابيل.

أيها الأخوة، الله عز وجل أورد القربان في القرآن الكريم:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ)

[سورة آل عمران: 183]

أولاً إرادة قابيل أن يعصي الله عز وجل، ويتزوج أخته التي ولدت معه في بطن واحد، هذا ذنب عظيم، ثانياً أنه قدم قرباناً من أسوأ ما عنده، الله عز وجل لم يتقبل منه قربانه لأنه اختار الأسوأ، وقد قال الله عز وجل:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران: 92]

قصة البشرية أن السيئ يمنع الجيد أن يفعل الحسن :

تقبل من هابيل قربانه، لأنه قدم لله عز وجل أفضل ما عنده، فقابيل رفض التشريع المرحلي، واحتكما بتوجيه أبيهما إلى قربانين يقدمان لله عز وجل، ولأن قابيل رفض توجيه التشريع المرحلي، ولأن قابيل قدم أسوأ ما عنده فلم يتقبل من قابيل وتُقبل من هابيل، لذلك قال تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ)

ما هو الحسد؟ السيئ إن رأى إنساناً جيداً يحسده، ويتمنى أن يمنعه أن يفعل الخير، يتمنى العاصي أن يعصي الناس جميعاً، لو أن العاصي قوي لمنع الطائعين من طاعة الله، وهذا ما يجري في الأرض الآن، الإنسان حينما يعصي الله يختل توازنه، كيف يستعيد هذا التوازن؟ يطعن في الطائعين، ويشوه استقامتهم، ويتهمهم بظلم أنهم ليسوا طيبين، أو أنه يمنعهم أن يكونوا طيبين، قد يمنع المرأة من أن تتحجب كما يجري في فرنسا الآن، يمنعها، امرأة منضبطة تخشى الله، تستر مفاتنها عن الناس، أما الثانية فلها حرية مطلقة بأن تتعرى، لها حرية مطلقة في أن تكون كالقنبلة تفسد الشباب، هذه لا تحاسب، هذه لا يقيد تصرفها، هذه لا تؤاخذ، هذه لا تذم، أما التي أرادت أن تطيع الله، وأن تستر مفاتنها التي أعدها الله لزوجها ولأسرتها، لتكون أماً رؤوماً، وزوجة مقبولةً، هذه التي تتحجب طاعة لله مرفوض أن تتحجب، وهذه قصة البشرية، السيئ يمنع الجيد أن يفعل الحسن، حسداً وضيقاً، أو بشكل آخر، الإنسان العاصي يختل توازنه، يستعيد هذا التوازن إذا اتهم الصالح والطائع بأنه سيئ كذلك، قال بعض الشعراء الجاهليين:

والظلم من شيم النفوس   فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

* * *

جعل الأصل هو الظلم.

أول من رفض طاعة الله وأول من تأبى على الانصياع لله عز وجل هو قابيل :

الآن إذا كان للإنسان ثلاث زوجات، يقول لك: الأصل هو التعدد حتى يرتاح، الأصل هو التعدد، مبالغة، التعدد مسموح به، لكن أن تقول: هو الأصل، لا، فالإنسان أحياناً يتملك نفسه، فحينما رأى قابيل أن أخاه هابيل طائعاً لله، وقد قدم أفضل ما عنده، وقد تقبل الله قربانه أدركه الحسد كما أدرك اليهود، من هنا بدأت المشكلة، قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

السيئون في العالم المنجرفون، عبيد شهواتهم، الذين يبنون أمجادهم على أنقاض الآخرين، ويبنون غناهم على إفقارهم، ويبنون عزهم على إذلالهم، ويبنون أمنهم على خوفهم، ويبنون حياتهم على موتهم، هؤلاء تضيق أنفسهم بالصالحين، لا يحبونهم، لأن الصالحين يكشفونهم، لأن الصالحين بالموازنة يظهرون عيبهم، يظهرون دناءتهم، يظهرون انحرافهم، لذلك هم المنحرف أن يمنع الاستقامة، وهم الكاذب أن يمنع الصدق، وهم السارق أن يمنع العفة، الأصل أن تتعرى المرأة، كي تكون حضارية، وكي يكون المجتمع سليماً، الأصل أن تفسد وأن تفسد، الأصل أن يكون الزنا هو الأصل، الأصل أن يحل السفاح محل النكاح، حقيقة دقيقة سارية في أنحاء العالم اليوم، المنحرف يتمنى أن يكون جميع الناس منحرفون، إذا كان المنحرف قوياً يقاوم الاستقامة، وإذا كان جباراً يقتل المستقيم، من إنكار إلى مقاومة إلى قتل، قابيل:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

لماذا تُقبل منك؟ هو كان تقياً، لماذا رضيت بحكم الله؟ يجب أن أقتلك، الموقف الكامل ينبغي أن ترضى بحكم الله، ينبغي أن تصبر، ينبغي أن تحتسب، ينبغي أن تعتقد أن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، إذا آمن الإنسان بالآخرة يرضيه كل شيء، لأن المعول عليه هو الآخرة، الدنيا زائلة، الدنيا تغر وتضر وتمر، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، الدنيا ممر وليست مقرّاً، الدنيا جيفة وطلابها كلابها، لو أن قابيل آمن بالآخرة لرضي بنصيبه في الزواج، ولقدم لله أفضل ما عنده من إنتاج زراعي، لذلك أول من رفض طاعة الله، وأول من تأبى على الانصياع لله عز وجل هو قابيل، لذلك ورد حديث رائع يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل))

[رواه أبو معاوية عن عبد الله]

أول قاتل إلى يوم القيامة في صحيفة قابيل، أعمال شارون كلها في صحيفة قابيل:

((لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل))

رفض قابيل التشريع

وآثر أن ينتقم وأن يثبت أن الأصل هو الفساد والشهوة :

أيها الأخوة، رفض قابيل التشريع، وآثر أن ينتقم، وآثر أن يثبت أن الأصل هو الفساد، والأصل هو الشهوة، والأصل أن يعيش وحده، قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

فقال هابيل مرشداً أخاه: عدم قبول قربانك لأنك لم تكن تقياً، لم تقدم لله أفضل ما عندك، ثم إنك رفضت شرع الله عز وجل، رفضته حينما أبيت الزواج من أختي، ورفضت التشريع حينما قدمت أسوأ ما عندك، لذلك الحيل الشرعية كلها تنطوي تحت هذا الباب، والحقيقة أن كل جهد الإنسان الكافر من آدم إلى يوم القيامة أن يأتي بتشريع آخر، يتملق شهواته، يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً *وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً* إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً)

[سورة الإسراء: 73-75]

أي بكل سذاجة تقول: مرجعية إسلامية كبيرة، ما دام الحجاب قد منع فلا عليكن أيتها الفتيات المسلمات اللواتي يزيد عددهن عن مليون أن تخلعن الحجاب، هذه فتوى قبل أيام.

هذه القصة تصور البشر إلى يوم القيامة :

هذه القصة تصور البشر إلى يوم القيامة، يقول هذا الابن البار هابيل:

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي)

الحقيقة هذه الآية تحتاج إلى توضيح دقيق:

(مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ)

ليس عن ضعف مني، ليس عن شعور بالضعف، لا، عن خوف من الله، في تشريع تلك المرحلة لم يكن مسموحاً أن تقتل دفاعاً عن نفسك، فإذا قتل أحد أحداً باء بهذه الجريمة أحدهما، فهابيل لخوفه من الله عز وجل أبت نفسه أن يتحمل إثم القتل قال له:

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

أي هذه واضحة جداً، أنا لست عاجزاً عن قتلك، ولكنني أعلم علم اليقين أن القاتل له النار، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه، فالقاتل والمقتول في النار قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))

[متفق عليه عن الأحنف بن قيس]

إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً فكن عبد الله المقتولوهذا تشريع من قبلنا :

في توجيه آخر: إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، ولا تكن عبد الله القاتل، إذا كان لا بد من أن تكون قاتلاً أو مقتولاً فكن عبد الله المقتول، وهذا أهون الشرّين، تنتهي حياتك في الدنيا، لكنك كسبت الآخرة، أما الذي قتل عاش سنوات عدة، ثم خسر الدنيا والآخرة، لذلك: كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، أنا أتمنى على أخوتنا الكرام ألا يستنبطوا أن الضعف هون التشريع، لكن في تشريعنا نحن هذا تشريع من قبلنا، في تشريعنا:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ*وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

أي إذا غلب على ظنك أن عفوك عن أخيك يصلحه ينبغي أن تعفو عنه، ولك عندي جزاء كبير:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى: 40]

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

أروع ما كتب حول هذه الآية أن هابيل كان ينصح قابيل :

أعيد وأكرر: لم يكن في التشريع وقتها أن الذي يقتل دفاعاً عن النفس ينجو، إذاً كان أمام خيارين صعبين، إما أن يكون القاتل فإلى النار، أو المقتول فإلى الجنة، فآثر أن ينجو من عذاب الآخرة.

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

أي إني أخشى أن أتحمل هذه الجريمة، فإن تحملتها أنت فلا ذنب لي، أيضاً هذه الآية تفهم فهماً ما أراده الله عز وجل:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي)

لا، ليس هذا هو المعنى، هما خياران صعبان، إما أن تقتلني، وإما أن أقتلك، (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، لا أريد أن أتحمل هذا الذنب، فإن تحملته أنت فهذا شأنك:

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي)

إثمك الأول أنك قدمت ما عندك قرباناً إلى الله، وإثمك الثاني أنك قتلتني:

(فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

أروع ما كتب حول هذه الآية أن هابيل كان ينصح قابيل، إياك يا قابيل، إن قتلتني تحملت إثمي، إثم قتلي، وإن قتلتني تحملت جريرة معصيتك، أنت لست من المتقين، لذلك لن يتقبل الله منك، لأنك لست من المتقين، فإياك أن تقتلني، فإن قتلتني تحملت إثمي، وتحملت الإثم الذي بسببه، وتحملت الإثم الذي بسببه أردت أن تقتلني:

(فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ)

(إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

خسران قابيل الآخرة بقتل أخيه وهي أكبر خسارة على الإطلاق :

الحقيقة يقول الله عز وجل:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

ما زال الشيطان ينفخ فيه إلى أن حمله على قتل أخيه فكان أول قاتل في البشرية:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ)

النفس أمارة بالسوء إن لم تتعرف إلى ربها، وهناك نفس لوامة، وهذه مرحلة جيدة، وهناك نفس مطمئنة، مطمئنة إلى طاعتها لله، وإلى رضاء الله عنها:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

خسر الآخرة، وهي أكبر خسارة على الإطلاق، خسر الأبد لو عاش مليار، مِليار، مليار، إلى أن تنتهي حياة المتكلم هذا الرقم صفر أمام الأبد، خسر الأبد.

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: 15]

الويل أشدّ أنواع الهلاك :

أيها الأخوة، إن أغبى البشر قاطبة هم الطغاة، لأنهم ربحوا أن يتبجحوا أمام الناس أنهم قتلوا وهدموا لكنهم خسروا الأبد، لذلك يقول سيدنا علي: (لا أدخل معركة المنتصر فيها شر من المهزوم)، المنتصر هو الشرير، ألم يحرق ملك اليمن أصحاب الأخدود، أثنى الله عليهم مع أنهم احترقوا، لكنهم رفضوا أن يشركوا بالله عز وجل، إلى الجنة:

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

الآن اختل توازنه، ماذا يفعل به، جثة هامدة، ماذا يفعل به؟

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ)

معنى السوءة المنظر التي تتقزز النفس منه، فإنسان إذا مات وانتفخ، وأصبح أزرق اللون، مخيف، صار هذا الإنسان المقتول سوءة، قال:

(يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي)

ينادي يا ويلتاه، الويل هو الهلاك، تقول عالم وعلّام وعلّامة هذه تاء المبالغة، الويل والويلة، والويلة اشد أنواع الهلاك، لذلك يأتي على العاصي ساعة يتمنى أن يسوى بالتراب، دققوا في هذا الحديث الذي ورد في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم العبد يوم القيامة، حتى يقول: يا رب لإرسالك بي إلى النار أيسر علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[رواه أبو نعيم عن جابر]

هذه القصةهي قصة الإنسان الذي كرمه الله فنسي حمل الأمانة وتنكر لها :

هذا الندم الذي يصيب الكافر لا يتحمل، حتى إن الله تعجب منه.

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(قَالَ يَا وَيْلَتَا)

ماذا فعلت بنفسي:

(أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كما قلت في مطلع الدرس، وعود على بدء: هذه قصة البشرية، هذه قصة الطاعة والمعصية، هذه قصة الشهوة والمبدأ، هذه قصة الدنيا والآخرة، هذه قصة الانسياق مع أمر الله، وقصة التأبي على أمر الله عز وجل، هذه قصة تجدون مثيلاتها في كل أنحاء العالم اليوم وبعد اليوم، إنها قصة التكليف، إنها قصة حمل الأمانة، إنها قصة ارتفاع الإنسان وانحطاطه، إنها قصة سموه وسقوطه، إنها قصة الشهوة التي سببت هلاك البشر، إنها قصة الإنسان الذي كرمه الله فنسي حمل الأمانة وتنكر لها، وحمل شهوته هدفاً كبيراً، وسار وراء هذه الشهوة، هذه قصة البشرية جمعاء ذكرها الله لنا كي تكون لنا موعظة ودرساً، وإضاءةً نهتدي بها في حركتنا اليومية.

لذلك الدرس القادم إن شاء الله يقول الله عز وجل:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 – الدرس (18-49) : تفسير الآية: 32 ، الدعوة إلى الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-01-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى الندم :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

أيها الأخوة، الآية التي سبقت:

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

ما هذا الندم؟ الحقيقة هو ندم الفطرة، لأن الإنسان فطر فطرة كاملة، وجبل جبلة كاملة، فلو خرج عن مبادئ الشرع، أو مبادئ منهج الله، أو مبادئ فطرته، لأصابه ندم شديد، والندم تعذيب الفطرة لصاحبها:

(فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الإِثْمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[مسلم عن النواس بن سمعان]

((البرُّ ما اطْمأنَّتْ إلَيْهِ النَّفْس وَاطْمَأنَّ إلَيْهِ القلْب))

[أحمد والدارمي عن وابصة]

ما كان التخصيص لبني إسرائيل إلا بسبب أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق :

قال الله عز وجل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

أيها الأخوة، من أجل ذلك أي بسبب أن قابيل قتل هابيل، وكل قاتل إلى يوم القيامة في صحيفة قابيل، لأنه أول من سفك دماً في الأرض. أيها الأخوة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)

لماذا بني إسرائيل بالذات؟ لأنهم قتلوا، فمن قتلوا؟ قتلوا أنبياءهم، أنت محرم عليك أن تسفك دماً، محرم عليك أن تقتل إنساناً أي إنسانٍ، كائناً من كان، فكيف بإنسان يدعو إلى الله عز وجل، فكيف بإنسان هو صلة السماء بالأرض، فكيف بإنسان يشيع في الناس العقيدة الصحيحة والسلوك القويم، لذلك هؤلاء الذين قتلوا أنبيائهم بغير حق هذا كان الحكم لهم بالذات، وما كان التخصيص لبني إسرائيل إلا بسبب أنهم كانوا يقتلون أنبياءهم بغير حق:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ)

النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله من أن يُقتَلَ قبل أن يؤدي الأمانة :

بعد قليل سيتضح أنه يجوز أن يُقتَل القاتل لأن القتل أنفى للقتل.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

ويجوز أن يُقتَل عن طريق أولي الأمر المفسدون في الأرض، ولكن:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ)

أيها الأخوة، يقول الله عز وجل في آية أخرى:

(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة البقرة: 91]

أي النبي صلى الله عليه وسلم عصمه الله من أن يُقتَلَ، قال له:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

وبناء على هذه الآية صرف حراسه، ليكون واثقاً من أن عصمة الله لا يمكن أن تخرق، لذلك بعض الغربيين أسلم بسبب هذه الآية، لو لم يكن واثقاً من أن الله سيعصمه ما صرف حراسه، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم من أن يقتل، طبعاً سوف يموت، لكن يموت متى؟ بعد أن يؤدي الرسالة، ويبلغ الأمانة، وينصح الأمة، ويكشف الغمة.

حدود الله عز وجل لا يقيمها إلا أولي الأمر :

معنى قوله تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

[سورة الزمر: 30]

بهذا المعنى.

(أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

بهذا المعنى، أي بعد أن يؤدي الرسالة ويبلغ الأمانة، لكن ما دامت الرسالة لم تبلغ، والأمانة لم تؤدَ فالله سبحانه وتعالى عصم نبيه صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم من أن يقتل قبل أن يؤدي الأمانة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

لو أن الإنسان قتل يقتله ولي أمر المسلمين، والحدود أيها الأخوة لا تقام إلا من قبل ولي أمر المسلمين، وإلا كانت الفوضى، ومن التطرف، ومن الانحراف عن منهج الله أن يتصور الواحد من المسلمين أنه بإمكانه أن يقيم الحدود من تلقاء نفسه، حدود الله عز وجل لا يقيمها إلا أولي الأمر.

الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نكون جميعاً وحدة إيمانية :

أيها الأخوة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

كأن الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نكون جميعاً وحدة إيمانية، قال تعالى مثلاً:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة: 188]

المعنى: لا تأكلوا أموال بعضكم، لا تأكلوا أموال أخوانكم، لكن الآية:

(لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

لأنكم إن أكلتم أموال أخوانكم فكأنما أكلتم أموالكم، لأن إضعاف المؤمن إضعاف لأخيه، ولأنك مطالب أن تحافظ على مال أخيك وكأنه مالك، فلئن تمتنع عن أكله ظلماً من باب أولى، توجيه رائعٌ جداً لكل مسلم مال أخيك هو مالك من زاوية واحدة، هو أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فإذا كنت مكلف أن تحافظ عليه وكأنه مالك فلئن تمتنع عن أكله ظلماً من باب أولى، بكلمة: ولا تأكلوا أموالكم إشارة إلى أن هذا المال ينبغي أن تحافظ عليه.

(وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)

[سورة النساء: 29]

إنكم إن قتلتم مسلماً فكأنكم قتلتم أنفسكم، له زوجة وأولاد، أفجعتم أسرة تنتمي إلى المسلمين.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة :

كأن الله في آيات كثيرة:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ)

[سورة الحجرات: 12]

هذه الآيات في مجملها تشير إلى أن الله يريدنا أن نكون مجتمعين، أن نشكل وحدة إيمانية، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، إذاً:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

مطلوب أن الناس جميعاً عليهم أن يستنكروا فعل المنكرات لا أن يسكتوا، لذلك يعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة، وحينما أرسل الله ملائكة ليهلكوا قرية قالوا: يا رب إن فيها رجلاً صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولمَ يا رب؟ قال: لأن وجه كان لا يتمعر إذا رأى منكراً، وحينما قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران:110]

علة هذه الخيرية الأمر المعروف والنهي عن المنكر، فإن قصرت الأمة في هذه الفريضة ليست خير أمة أخرجت للناس، هي أمة كأية أمة خلقها الله عز وجل، لا تمتاز عن بقية الأمم ولا بشعرة.

المجتمع بأكمله ينبغي أن يستنكر المنكر وهذا من الإيمان :

أيها الأخوة الكرام، من أسباب هلاك بني إسرائيل أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: (والله لو أن أهل بلدة ائتمرت على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً)، فالقتل أنفى للقتل، ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب، المجتمع بأكمله ينبغي أن يستنكر المنكر، وهذا من الإيمان.

حدثني أخ كريم سائق سيارة على خط دولي جاءته فتاة وشاب ليركبا معه، لكنهما ينتظرا محفظة تأتي بعد ربع ساعة، مضى ربع ساعة ولم تأتِ المحفظة، انتظر زمناً آخر فجاء رجل في السبعين من عمره، وقد وضع المحفظة على رأسه، فما كان من هذا الشاب إلا أن وكزه على رأسه ولامه على تأخيره، ثم أخذ المحفظة منه، وسارت المركبة، وفي منتصف الطريق سمع السائق هذه الفتاة وهي زوجته تقول للشاب وهو زوجها: لمَ ضربت أباك؟! فأوقف السائق المركبة، وطرد منها الراكبين، وأعطاهما ما دفعاه له، وقال: أخشى أن أقع في حادث مأساوي لأنكما أغضبتما ربكما.

لو أن كل واحد منا سمع أو رأى شيئاً منكراً فأنكره لكنا في حال غير هذا الحال، لو أن كل عم رأى بنت أخيه ترتدي ثياباً فاضحة فوعظها ونصحها، واستنكر عملها لكنا في حال غير هذا الحال، لذلك الذي يسبب هلاك المسلمين أن تقول: أنا ليس لي علاقة، حينما تقول: ليس لي علاقة، ولست مكلفاً، وأنا مكتفي بنفسي، وأنا أقيم الإسلام في بيتي ولا شأن لي بمجتمع الناس هذا أيضاً من ضعف الإيمان، لذلك يقول الله عز وجل:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

أي يا أيها الناس جميعاً استنكروا فعلاً واحداً خرج عن منهج الله عز وجل.

حينما نتعاون على إقامة الحق وإنكار الباطل نعلو في عين الله جميعاً :

الحقيقة في ملاحظة تستدعي أن نذكرها، ما الذي يعين الإنسان على التجرؤ على الحق؟ ما الذي يعين الظالم أن يظلم؟ ما الذي يعين المجرم أن يرتكب جريمة ثانية؟ سكوت الناس عنه، لا شيء يعين على تفاقم الخطأ كسكوت الناس عن الخطأ، لذلك:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران: 104]

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ)

ولحكمة بالغة أن الله سمى العمل الصالح معروفاً، لأن النفوس البشرية تعرف المعروف بفطرها السليمة، ولأن النفوس البشرية تنكر الخطأ بفطرها السليمة، فالمعروف نعرفه بالفطرة، والمنكر ننكره بالفطرة، وهذا معنى أن الدين متوافق مع الفطرة توافقاً تاماً، لذلك لا شيء يعين الشرير على أن يرتكب الخطأ كسكوت الناس عنه.

قصة مشهورة جداً: رأى سبع من السباع في غابة ثيراناً ثلاثة، ثوراً أبيض، وثوراً أسود، وثوراً أحمر، فأقنع الثورين الأسود والأحمر على أن يأكل الأبيض فسمحا له، ثم أقنع الثور الأسود على أن يأكل الأحمر فسمح له، بقي أمامه الأسود، فلما توجه إلى الأسود ليأكله قال: أكلت يوم أكل الثور

الأبيض.

المجتمع الذي لا يتناصح، ولا يأتمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، مصيره إلى الزوال، وما من شيء يضعف الناس كتفرقهم، وما من شيء يضعف الناس كسلبيتهم، وما من شيء يضعف الناس كأن يقول الواحد: أنا ليس لي علاقة، أوضح مثلاً: شب حريق في نهاية الشارع، بينك وبينه عشرون بيتاً، إن لم تخرج من بيتك للمساهمة بإطفاء هذا الحريق فسيأتي إلى بيتك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الأنفال: 25]

إن لم تسارع لإطفاء الحريق في نهاية الشارع فهذا الحريق سوف يصل إليك، لذلك حينما نتعاون على إقامة الحق، وإنكار الباطل نعلو في عين الله جميعاً، وحينما نتفرق وكل واحد ينتمي إلى ذاته، ولا يعنيه مجتمعه ينبغي أن ندفع الثمن باهظاً.

الآيـة التاليـة توجه إلى الحياة الاجتماعية :

طبعاً قصة أخرى ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام: أن أناساً ركبوا قارباً واقتسموا بينهم الأماكن، فقال الذي في الأسفل: أنا سأثقب مكاناً في السفينة لأخذ الماء منه من أجل ألا أزعج من فوقي، فقال عليه الصلاة والسلام: لو أخذوا على يديه نجا ونجوا، ولو تركوه هلك وهلكوا.

أوضح مثل السفينة، إذا أراد أحد الركاب أن يثقب في أرض السفينة ثقباً ليأخذ منه الماء غرقت السفينة بمن فيها، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا.

أيها الأخوة الكرام: قال عليه الصلاة والسلام:

((من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))

[مسلم عن جابر]

كيف أننا في الكمبيوتر عندنا نسخ ولصق، فكل عمل صالح الذي دل عليه والذي دعا إليه له مثل النتائج التي تفعل هذا العمل:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

هذه الآية توجه إلى الحياة الاجتماعية، توجه إلى أن تنتمي إلى مجموع المسلمين توجه إلى أن يعنيك ما يعني المسلمين، توجه إلى أن تكون حاملاً لهموم المسلمين، توجه إلى أن تكون إيجابياً لا سلبياً، توجه إلى أن تسهم بشكل أو بآخر في التخفيف عن المسلمين، الآن:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أعيد وأكرر: إنه ممنوع أشد المنع، ومحرم أشد التحريم أن تسفك دماً كائناً من كان، ولكن حينما يكون سفك الدم لإنسان له عمل صالح فقد حرمت المجتمع كله من هذا العمل الصالح.

حياة النفس أن تعرف الله وتتوب إليه وتعمل صالحاً وتتقي أن تعصيه :

أيها الأخوة الكرام: هذه آية تشير إلى قيمة من له عمل طيب عند الله عز وجل، هو في قلوب الناس جميعاً، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل: 120]

وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أحياها بتعريفها بربها، أحياها بحملها على طاعته، أحياها بأن دفعها إلى التوبة، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

الإيمان هو الحياة، والطاعة هي الحياة، هناك حياة بيولوجية، حياة مادية، القلب ينبض، الرئة تعمل لها وجيب الأعصاب تستقبل، العضلات تتحرك، المعدة تهضم، الدم يدور في الأوعية، هذه حياة الجسم، لكن حياة النفس أن تعرف الله، وأن تتوب إليه، وأن تعمل صالحاً، وأن تتقي أن تعصيه، لذلك:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا)

أي من دل إنساناً على الله، من عرف إنساناً بالله، من حمل إنساناً على طاعة الله، من دفع إنساناً إلى عمل صالح، من أعانه على التوبة، من سهل له طريق الحق، من جمعه مع أهل الحق، من نور قلبه بالهدى، أي عمل هدفه إحياء النفس فكأنما أحييت الناس جميعاً، السبب؛ هذا الذي دللته على الله، واهتدى بهدي الله، وانضبط وفق منهج الله، حوله أشخاص، له زوجة وأولاد، وله عمل يتعامل مع الناس، أي مئات بل ألوف من البشر تعاملوا معه، وأثنوا على استقامته، وعلى صلاحه، فكان سبباً لهدايتهم، ومن يصدق أنك قد تكون سبباً في هداية إنسان فتأتي يوم القيامة لترى أن هناك ملايين مملينة قد اهتدت إلى الله عز وجل عبر السنوات والحقب بسبب هداية هذا الإنسان، وهذا شيء لا يقدر بثمن.

الفساد أن تخرج النفس عن طبيعتها التي فطرها الله عليها :

عن سهل بن سعدٍ رضي اللّه عنه أن رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لعليّ رضي اللّه عنه:

((فوَ اللّهِ لأنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

[متفق عليه عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه]

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ)

أيها الأخوة الكرام، نعود إلى كلمة الفساد:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ)

طبعاً القتل أنفى للقتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

أي أن يكون عقاب القاتل القتل، هذا يردع القاتل عن أن يقتل، فيحي نفسه ويحي الذي كان سيقتله:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

والعرب تقول في الجاهلية: القتل أنفى للقتل:

(أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ)

الفساد أيها الأخوة أن تخرج النفس عن طبيعتها، هذه البنت التي خلقها الله، خلقها لتكون بنتاً تسعد أبويها، ثم لتكون زوجة لتسعد زوجها، ثم لتكون أمّاً تسعد أولادها، ثم لتعيش حياة مطمئنة هادئة راقية، فجاء الذي أفسدها ودلها على الزنى، فجعلها بغِيّاً، وعندئذ تكون سبباً لشقاء من يأتي بعدها، هذا هو الفساد في الأرض، أن تخرج الإنسان عن طبيعته التي فطره الله عليها.

الدعوة إلى الله دعوة إلى الحياة الحقيقية التي تليق بالإنسان لنيل رضوان الله تعالى :

ما الذي يجري الآن في العالم؟ يوضع إعلانات في الصحف عن فرص عمل في بلاد غربية برقم كبير جداً، تتقدم طالبات العمل، ولأن الإسلام حرم أن تسافر المرأة من دون محرم تقبل هذا الطلب المغري وتسافر، يؤخذ جواز سفرها، وتساق إلى الدعارة، وتضرب وتعذب إن رفضت، ولا تعطى مما يأخذون عليها إلا الشيء اليسير، آخر إحصاء سبعمئة ألف امرأة كل عام تدخل إلى حيز الدعارة، هذا الذي يفعل هذا ألا ينبغي أن يُقتَل؟ ألا ينبغي أن ترتاح الأرض منه؟ هذا يجري في دول شرق آسيا، وفي دول أوربة الشرقية، وفي بلاد كثيرة، هذا الفساد طفل صغير خلقه الله بريئاً تفسده، ويعمل في الدعارة؟ أيضاً الشيء الذي يجري في العالم لا يتصور من شدة الفساد في الأرض، فحد الذي يقتل نفساً بغير نفسٍ أن يقتل، وحدّ الذي يفسد الإنسان، يفسد براءة الأطفال، يفسد براءة الفتيات، هذا حده أن يقتل أيضاً على يد ولي المسلمين، هذا هو الحكم الشرعي، لذلك معنى قوله تعالى:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً)

لذلك قالوا: هذا الذي يكيد لخصم له، هذا محاسب عند الله، سواء أكان الذي أخذه منه مساوياً لما فقده أو أكثر، ولكن هذا الذي يقطع الطرق، قديماً كان هناك قطاع طرق والآن يوجد قطاع طرق لكن إلى الله،

الطرق إلى الله تقطع بالشهوات، وصور العاريات والانحراف في الملمات، هذا كله أيضاً قطع طريقٍ إلى الله عز وجل، لذلك الله عز وجل يقول:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

فأنت إذا هديت إنساناً فكأنما أحييت الناس جميعاً، وأوضح دليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

فالدعوة إلى الله دعوة إلى الحياة الحقيقية، دعوة إلى الحياة التي تليق بالإنسان، دعوة إلى الحياة التي ينبغي أن يحياها الإنسان، دعوة إلى الحياة التي يمكن أن تتصل بالآخرة، فتكون هذه الحياة سبباً لنيل رضوان الله تعالى.

أيها الأخوة الكرام، ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)

الإسراف تجاوز الحد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (19-49): تفسير الآيات 33-34 ، التشريع الإلهي.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله أو يبتعد عن تشريع الله:

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس التاسع عشر من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثالثة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، كيف يحارَب الله؟ الله عز وجل لا تدركه الأبصار، الحرب بالمفهوم الأرضي أن تقاتل إنساناً، وتستلب ما عنده، أن تحتل أرضه، أن تستولي على ثرواته، أن تأخذ متاعه، الحرب صِدام، لكن كيف يحارَب الله؟ الحقيقة أن الله يحارَب بإحداث تشريع خلاف تشريع، لأن التشريع من حق الله وحده، الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها، فحينما نشرع نحن تشريعاً بعيداً عن تشريع الله، أو مخالفاً لتشريع الله فكأنما حاربنا الله، هذه حقيقة أولى، محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله، أو يبتعد عن تشريع الله، أو يفسد الإنسان.

التشريع الإلهي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة، الله عز وجل حينما خاطب نبيه وقال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء:73]

إن سمينا الكفار الطرف الآخر فإن جهد الطرف الآخر من آدم إلى يوم القيامة أن يبدلوا منهج الله، أن يبدلوا منهج الله بمنهج أرضي يحقق للإنسان شهواته، ويبعده عن المسؤولية، القضية واضحة جداً، إما أن تختار الله أو الدنيا، إما أن تختار الآخرة أو متاع الحياة الدنيا، إما أن تختار أن تتبع منهج الله أو أن تتبع هوى نفسك، فالتشريع الإلهي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

تعريف آخر للتشريع الإلهي دقيق جداً: هو أنك إذا صنعت آلة هذه التعليمات التي مع الآلة من أجل صيانة الآلة من التلف، من أجل صيانتها من العطب، من أجل أن تعطي هذه الآلة أعلى مردود، فكأن تشريع الله عز وجل من أجل صيانة الإنسان من أن يشقى في الدنيا والآخرة، فالجهة الوحيدة الخبيرة

القادرة على إسعاد الإنسان عن طريق تعليمات دقيقة مفادها افعل ولا تفعل، هذه الجهة هي الله عز وجل، بمعنى أن الله هو الخبير بما يسلمك وبما يسعدك.

إذاً: الطرف الآخر مهمته أن يأتي بتشريع خلاف التشريع الإلهي، الربا يجمع الأموال في أيد قليلة ويحرم منها الكثرة الكثيرة، وتشريع الله عز وجل أن يكون المال متداولاً بين الناس جميعاً، الكتلة النقدية ينبغي أن تكون متداولة بين الناس، أما حينما يعتدى على شرع الله، فنسمح للمال أن يلد المال عندها يتجمع المال بأيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، فنحن بتشريع الربا حاربنا الله، بمعنى؛ أننا أحللنا تشريعاً مناقضاً لتشريعه، لأن الله سبحانه وتعالى أحل البيع وحرم الربا، فنحن شرعنا الربا، فلما شرعنا الربا صار هناك في كل بلد فرق طبقي كبير جداً، هذا وراء كل مآسي البشرية، أي أن يمتلك عشرة بالمئة من سكان الأرض تسعين بالمئة من موارد الأرض، وأن يعيش الباقون على فتات هؤلاء العشرة بالمئة، هذا يتناقض مع تشريع الله، فإذا قرأتم في القرآن الكريم قوله تعالى: " يُحَارِبُونَ اللَّهَ "، أي يشرعون تشريعاً يتناقض مع تشريع الله، تشريع الله عز وجل مهمته صيانة الإنسان من الفساد، صيانته من الشقاء، صيانته من التعاسة، لأن الله سبحانه وتعالى أدرى بمن خلق، وهو الخبير، هو الوحيد الذي يعلم ما يصلحنا وما يفسدنا.

تشريع بني البشر يحقق متعة بني البشر ومصالحهم :

لذلك:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ)

أي أنت حينما تحارب الله، تريد أن تفسد خلق الله، تريد أن تشقيهم، فهذه الفتاة حينما تدفعها إلى التبذل، وإلى عرض مفاتنها في الأماكن العامة تحت غطاء حريتها وكرامتها وحقوقها، وهي امرأة تمثل نصف المجتمع، هذه مصممة بأعلى درجة من الوفاء لزوجها، والتصديق لمن حولها، والليونة والخضوع، هذه الصفات كلها تؤهلها لأن تسعد زوجها، وتكون بارةً بأولادها، أما حينما تدفعها إلى أن تعرض مفاتنها على الناس، وأن تختلط مع الرجال فخصائصها التي تتميز بها، والتي أحد أسباب إسعاد زوجها قد تكون سبب دمارها، فيأتي من يضحك عليها، ومن يغريها بكلمات معسولة، ثم ينال وطره منها، ويلقيها ساقطة تعيسة، فحينما يشرع الإنسان تشريعاً من أجل متعته، من أجل أن يستمتع بالمرأة في أي مكان حتى في العمل، يحبذون الموظفات على الموظفين بدافع عميق فيهم، ألا وهو الاستمتاع بالمرأة، فلذلك تشريع بني البشر يحقق متعة بني البشر، يحقق مصالحهم، يحقق تحقيق شهواتهم، يحقق انغماسهم في شهواتهم، لكن تشريع خالق البشر يحقق للإنسان سعادة أبدية تمتد إلى أبد الآبدين.

لذلك أيها الأخوة: لا يستطيع الإنسان أن يحارب الله بالمفهوم المحدود في الأرض، الله يقول له:

(كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

بلحظة يجعله أثراً بعد عين، يرسل عليه صاعقة فتحرقه، يوقف قلبه فجأة، فهناك مليار مِليار مليار خيار الله يقضي على الإنسان في ثانية.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

التشريع هو صيانة الإنسان من الفساد والشقاء في الدنيا والآخرة :

حرب بالمفهوم الساذج مستحيلة، لكن محاربة الله أي أن تشرع تشريعاً متناقضاً مع تشريع الله، أن تسمح للمرأة بالاختلاط، أن تدفعها إلى السفور، سمعت مرة مقولة والله منصفة، لكنها غير شرعية، قال: كما أن المرأة حرة في أن تتعرى فهي حرة في أن تتحجب، ما سمحوا لها أن تتحجب، حينما تظهر مفاتنها لكل من هب ودب لا تؤاخذ، أما إذا تحجبت -وضعت خرقة على رأسها بالمفهوم الاصطلاحي- فتقوم الدنيا ولا تقعد من أجل حجابها، إذاً هذا موقف غير منصف، لماذا سمحت للأولى أن تتعرى، وأن تفسد الشباب، وأن تفسد في الأرض، ولم تسمح للثانية أن تتحجب، هذا يقلق الطرف الآخر، لذلك التشريع الإلهي هو صيانة لصنعته.

الآن اقتن أية آلة فيها تعليمات دقيقة، هذه الأشياء تعطبها، تحذيرات، هذه الأشياء تقلل مردودها، هذه الأشياء تقصر في عمرها، هذه الأشياء ترفع من كفاءتها، هذه الأشياء تعلي مردودها، هكذا أية صنعة محكمة دقيقة لا بد لها من صانع حكيم، وهذا الصانع الحكيم من لوازم حكمته، وإتقانه لعمله أن يقدم التعليمات، فإذا أردنا أن نضغط التشريع كله في كلمات: صيانة الإنسان من الفساد ومن الشقاء في الدنيا والآخرة، الآن الإنسان الذي يتبع هواه، والإنسان بالمناسبة أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما أن تتبع الهوى وإما أن تتبع الحق، والله عز وجل يقول أنت على أحد الطريقين حتماً:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

أنت أحد رجلين، إما أنك تتبع الحق، أو أنك تتبع الهوى، إما أنك تتبع ما أنزل الله، أو تتبع ما تمليه عليه غرائزك، إذاً محاربة الله ورسوله أن تشرع تشريعاً يتناقض مع تشريع الله ورسوله:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ)

وحي الله هو الحق المطلق والكمال المطلق:

الله عز وجل يحارب بتشريعات تفسد بني البشر، أما الرسول فيحارب حربين، في حياته يحارب من يعتدي عليه، وقد حاربه المشركون، وتمنوا قتله، وحاربوه ليقتلوه، أما إذا انتقل إلى الرفيق الأعلى كيف يحارب؟ بسنته، حينما نأتي بتشريعات تتناقض مع سنته التفصيلية، فنحن إذاً نحارب رسول الله، ومن أجمل ما قاله المفسرون في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الحجرات: 1]

أي لا تقترح اقتراحات لم يأتِ بها النبي، أو تعاكس منطوق النبي عليه الصلاة والسلام، هذا افتراء على الله ورسوله، وهذا دليل الجهل بأن هذا الوحي الذي جاء به النبي لم يرق لك، وحي الله هو الحق المطلق والكمال المطلق، وبيان النبي لهذا الوحي أيضاً حق مطلق، وبيان مطلق:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

أي إما أن تزلزل عقيدة المؤمنين لطرح شبهات وترهات وضلالات ونظريات وأطروحات تنفي حقائق القرآن، أو أن تسعى في الأرض فساداً، هذا الماء مصمم أنه لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة، وله سيولة معينة، وله خصائص معينة، فأنت إذا لونته غيرت طعمه، أو غيرت قوامه، أو جعلته ذا قوام شد أفسدت طبيعة الماء، مثلاً هذه الفتاة خلقها الله عز وجل إفسادها أن تعرضها للفساد، أن تضعها في بيئة تتعرض فيها للفساد، إفسادها أن تعزف عن الزواج، إفسادها أن تكون متعة محرمة لكل الناس، فمحاربة الله ورسوله تعني هذا، وإفساد الأطفال عن طريق تقديم ما يشوه عقيدتهم أو أخلاقهم عن طريق أفلام متحركة يشاهدونها وهم صغار، هذا من إفساد الصغار، من إفساد البنات، من إفساد البيئة:

(وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

الصفة الجامعة المانعة للمجتمعات الشاردة عن الله هي النفاق والسرقة :

كأنك تستشف من هذه الآية أن الكافر مهمته الأولى إفساد عقيدة الناس، وإفساد أخلاقهم، من حيث العقيدة الدعوة إلى إنكار ما في القرآن والسنة، وإفساد أخلاقهم، الدعوة إلى إفساد العلاقة الاجتماعية والعلاقات بين الجنسيين، بحيث تحل الإباحية محل الانضباط، هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله يعتدون على منهج الله، لماذا هناك حدود؟ من يعتدي على الدين عليه حد، ومن يعتدي على العرض، ومن يعتدي على النفس، ومن يعتد على العقل، ومن يعتدي على المال، هذه مقاصد الشريعة الخمس، الدين، والحياة، والعرض، والعقل، والمال، فإنما شرع الله كل هذه التشريعات من أجل صيانة الدين،

والعرض، والعقل، والمال، والحياة، من يعتدي على حياة الإنسان يقتل، ومن يعتدي على ماله تقطع يده، ومن يعتدي على عرضه يجلد ثمانين جلدة ولو بكلمة، ومن يعتدي على عقله بشرب الخمر أيضاً يجلد ثمانين جلدة، هذه حدود والحدود من أجل أن يسلم المجتمع من هذه الشرور.

إذاً: هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله، أي يقيمون تشريعات تتوافق مع أهوائهم وشهواتهم، ولا يعبؤون باليوم الآخر ثم إنهم يفسدون النفس البشرية، أنت مثلاً حينما تأتي بموظف إلى محلك التجاري تعطيه بالشهر ألف ليرة، والمال بين يديه، أنت بهذا الدخل القليل حملته على أن يسرق، أفسدته، فحينما لا تعطي الإنسان حاجته، ولا تحقق له كرامته إن لم تعطيه حاجته يسرق، وإن لم تعطيه كرامته ينافق، فكأن الصفة الشاملة للمجتمعات المتخلفة النفاق والسرقة، الصفة الجامعة المانعة للمجتمعات الشاردة عن الله عز وجل هي النفاق والسرقة.

الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر من أجل ألا تكون الفوضىوالفتن :

أيها الأخوة، هؤلاء الذين:

(يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً)

هؤلاء خطرون جداً، إنسان يعتدي على أقدس ما عند الأمة، هذا ينبغي أن يعاقب أشد العقاب، إنسان يعتدي على أقدس ما تملكه المرأة، عرضها، ينبغي أن يعاقب أشد العقاب قال تعالى:

(أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الْأَرْضِ)

أيها الأخوة، هذه كلها بالتعبير القانوني: مؤيدات قانونية، ما من تشريع في الأرض إلا وفيه عقوبات، لو ألغينا العقوبات من التشريعات، التشريعات لا معنى لها، إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ولكن كحقيقة ثابتة أكيدة أن هذه الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر من أجل ألا تكون الفوضى والفتن، الحدود لا يقيمها إلا أولو الأمر.

أيها الأخوة الكرام، لا تظنوا هذا قسوة، أضرب لكم مثلاً، في إحصاءات دقيقة جداً أنه في كل ثلاثين ثانية في بعض المجتمعات الغربية ترتكب جريمة سرقة، أو قتل، أو اغتصاب، قسمت جرائم القتل والاغتصاب والسرقة على ثواني العام فكان كل ثلاثين ثانية جريمة، في بلاد بقياس التقدم العلمي متخلفة جداً، لكنها طبقت أحد حدود الشرع قطع يد السارق، ما الذي حصل؟ هذا شيء ثابت، أنه يمكن لمن يصرف العملة أن يدع صندوقاً فيه ملايين، ويذهب ليصلي وقت الصلاة، وهناك قصص تروى عن بلد متخلف، لكنه طبق حد السرقة لا تصدق، فأنت حينما تضحي بواحد في العام كله، واحد أو اثنان فقط وتصون أموال الأمة أفضل؟ أم أن تضحي بمجموع أموال الأمة، وبمجموع طمأنينة الناس على

أموالهم؟ الله عز وجل هو المشرع.

يد بعشر مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

* * *

أجاب الإمام الشافعي:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة فلما خانت هانت.

جزاء الإفساد في الأرض :

أنت حينما تجد في وعاء فواكه واحدة فاسدة، هذه الواحدة الفاسدة بعد حين تفسد كل ما حولها، فأيهما أفضل أن تضحي بكل هذه الفاكهة الجيدة برمي أحد الحبات الفاسدة، أم أن تضحي بكل هذه السلة التي فيها فواكه من أعلى مستوى؟ قضية بسيطة جداً، المجتمع أولاً، لذلك هذا الذي يحارب الله ورسوله، هذا الذي يفسد عقائد الناس، هذا الذي يحببهم بالدنيا ويزهدهم بالآخرة، هذا الذي يؤكد لهم أن الدين أفيون الشعوب، هذا الذي يقول لهم: الدين شعور، ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة يوم كان ضعيفاً، هذا الذي يبين أن الأديان ليس لها صلة بالسماء إطلاقاً، إنما هي اجتهادات من عباقرة عظماء سيطروا على الناس، وأتوا بهذه التشريعات، هذا الذي يبين للناس أن كل القيم الأخلاقية متبدلة من مكان إلى مكان، وأنه ما يكون هناك حرام هو في مكان آخر حلال، هذا الذي يلغي الدين من حياة الناس، يلغي الانضباط، يلغي طلب الآخرة، يلغي عبودية الإنسان لله عز وجل، يلغي رسالة الإنسان، يلغي تكليف الإنسان، يجعل الإنسان كائناً يبحث عن لذته وشهوته، يجعل الإنسان كائناً لا يتجه إلا لمصلحته، شيء لا يحتمل، هذا الذي يحارب الله بتشريع أرضي يخالف شرع الله عز وجل، ويسعى في الأرض فساداً، إفساد الشباب، إفساد الشابات، إفساد الأذواق، إفساد العلاقات، هذا كله إفساد، أي الإفساد أن تفسد بنيته، أن تفسد أخلاقه، أن تفسد أذواقه، أن تفسد علاقاته مع الآخرين، أن تجعل المجتمع كالذئب، إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، أن تلغي اتصال الأرض بالسماء، أن تحاول أن تبعثر جهود الإنسان، أن تصرفه عن الدار الآخرة.

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أطروحات تزين المعاصي وتزخرفها :

أنا لا أغيب عن ما يطرح من أجل المعاصي، أن الإنسان عنده حاجات يجب أن تلبى، عنده واقع يجب أن يعيشه، هذه الفتاة لها فترة فتوة ينبغي أن تعيش وقتها، أن تعطى ما تريد، هذه الأطروحات أطروحات شيطانية مزخرفة، لكن الحقيقة هي ذلك الوحي العظيم من عند الله عز وجل:

(ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ*إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الحقيقة في دساتير العالم قاعدة: أن القوانين لا يعمل بها رجعياً، وإلا فهناك ظلم شديد، أي أنت تعمل عملاً مشروعاً ومباحاً، بعد حين يصدر قانون يحرم هذا الشيء، أنت لا ينبغي أن تؤخذ بهذا القانون الجديد، إذاً:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

هذه الآية نشرحها في الدرس القادم إن شاء الله.

القوانين لا تطبق بمفعول رجعي :

قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ارتُكِب مثلاً شيء يوجب الحد فأنت إذا قبضت عليه بهذا الجرم يجب أن تقيم عليه الحد، ومن يعفو عنه لا عفا الله عنه، لأنه يسعى في الأرض فساداً أيضاً، لكن إذا ارتكب ما يوجب الحد ثم تاب إلى الله توبة نصوحة وجاءك تائب، مادام تاب من قبل أن تقدر عليه، من قبل أن تضبطه بهذه المخالفة فهذا حقه محمي، عندئذٍ هذا يغفر له عند الله، وينبغي أن يغفر له عند الناس، هذه قاعدة قانونية دقيقة جداً.

إنسان مثلاً يعمل في تبديل العملات، لو صدر قانون يحرم التعامل بالعملات هل يجوز أن نضع هذا في السجن، يوم فعل ما فعل كان هذا مباحاً، وضمن الأنظمة النافذة، فإذا منع فلا ينبغي أن يحاسب من ترك هذه الحرفة قبل صدور هذا القانون، هذه قضية دقيقة جداً، القوانين لا تطبق بمفعول رجعي.

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي هذا حد لأن القتل والصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض هذه حدود مؤلمة ردعاً للمجتمع، وصيانة له، لكنها لا تطبق بمفعول رجعي:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (20- 49): تفسير الآيات 35-37 ، وسائل مشروعة للتقرب من الله تعالى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين ويخاطب الذين آمنوا بفروع الدين :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أيها الأخوة الكرام، ذكرت من قبل أن المؤمن إذا قرأ في مطلع الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ " فهذا عقد إيمان بينه وبين الله، لأن الله عز وجل يخاطب الناس بأصول الدين.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)

[سورة البقرة: 21]

ويخاطب الذين آمنوا به، آمنوا بوحدانيته، آمنوا بكماله، آمنوا بعلمه، آمنوا بحكمته، آمنوا برحمته، آمنوا بقدرته، يخاطبهم بفروع الدين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

آمنوا، التقوى أيها الأخوة هي طاعة الله، بالمعنى العام، أو أن تجعل بينك وبين سخط الله وقاية.

ما من دم سفك إلا وسوف يحمله إنسان يوم القيامة إلا الذي أقيم عليه الحد فيتحمله الله:

الله جل جلاله وحده يفر منه إليه:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات: 50]

ويتقى سخطه بالإقبال عليه، ويرجع منه إليه:

(اتَّقُوا اللَّهَ)

أي اجعلوا بينكم وبين عذابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين جهنم ستراً، اجعلوا بينكم وبين أن ينالكم الله بعقابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين عدله ستراً، لأن الله سبحانه وتعالى عدل، ما من حق أكل إلا والله عز وجل سيحاسب الذي أكله، وما من قطرة دم أريقت إلا ويحملها إنسان كائناً من كان يوم القيامة، مهما

علا اسمه، دم الإنسان لا يسفك إلا بحد، دم الذي أقيم عليه الحد يتحمله الله عز وجل، وما سوى ذلك ما من دم سفك إلا وسوف يحمله إنسان يوم القيامة، يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي اتقوا الأخطار التي تقود بكم إلى الهلاك، أنا متى أتقيه؟ الآن لو دخلنا بالتفاصيل، أنا أسير في طريق متعرج، وعن يمين الطريق وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، فأنا كيف أتقي الخطر؟ والوقت ليل كيف أتقي الخطر؟ عن اليمين وادٍ يحيق ـ هكذا الدنيا ـ وعن اليسار وادٍ سحيق، والطريق كله انعطافات، متى أتقي الخطر؟ أتقي الخطر بضوء كاشف، فالضوء الكاشف يبين لي مسار الطريق، والضوء الكاشف يبين لي عمق الوادي، والضوء الكاشف يبين لي الأكمة التي أمامي، والحفرة التي عن يميني، والخطر الذي عن يساري.

عدة معان لتقوى الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

بمعنى أن استنيروا بنوره لتروا الحق حقاً والباطل باطلاً.

أيها الأخوة الكرام، اعتماداً على أن الإنسان مجبول على حب وجوده، وحب كمال وجوده، وحب سلامة وجوده، وحب استمرار وجوده، لو أيقن أن هذا لصالحه يأخذ به، هذه الأزمة أزمة علم، أهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

بالمعنى العام اتقوا الله أطيعوا الله لئلا تعاقبوا، لئلا تهلكوا لا في الدنيا ولا في الآخرة، بالمعنى الأدق اجعل بينك وبين عدل الله ستراً، اجعل بينك وبين عقوبة الله حجاباً، اجعل بينك وبين ما ينتظر الإنسان يوم القيامة دريئة، هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث: لا بد من أن تستنير بنور الله حتى ترى الحق حقاً فتتبعه، وحتى ترى الباطل باطلاً فتجتنبه.

ما من إنسان قبل أن يقدم على عمل إلا ويسبق العمل رؤية :

الآية الكريمة أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد :28]

أيها الأخوة، ما من إنسان قبل أن يقدم على عمل إلا ويسبق العمل رؤية، هذا الذي سرق ماذا رأى؟ رأى أنه أذكى من كل الناس، بوقت قصير وجهد قليل أخذ مبلغاً كبيراً، لكن لم يرى أنه سوف يكون في السجن بعد حين، وسوف يعاني ما يعاني، ما من عمل يقوم به الإنسان إلا ويسبقه رؤية، سيدنا يوسف حين قال: معاذ الله! ماذا رأى؟ رأى أن قضاء هذه الشهوة سوف يحجبه عن الله عز وجل، الذي يستيقظ لصلاة الفجر، ويصلي ماذا رأى؟ رأى أن في طاعة الله راحة لقلبه مع أن جسمه يتمنى أن يستمر في الفراش.

دققوا أيها الأخوة، ما من حركة، ولا سكنة، ولا كلمة، ولا موقف، ولا عطاء، ولا منع، ولا صلة، ولا قطيعة إلا ورائها رؤية، من هو المؤمن؟ هو الذي تطابقت رؤيته مع منهج الله، من هو غير المؤمن؟ هو الذي تناقضت رؤيته مع منهج الله، فالمؤمن يرى أن كسب المال الحلال سبب سعادته في الدنيا، والطرف الآخر يرى أن كسب المال يحقق كل شهواته بصرف النظر عن مصدره، تناقضت الرؤية.

أيها الأخوة، إذا كان للصلاة من فائدة لا تقدر بثمن هي أن الصلاة نور، في الحديث الموجز الصلاة نور، أنت بالصلاة ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، أنت بالصلاة تكون حكيماً، أنت بالصلاة تكون واعياً، لأن الله سبحانه وتعالى قذف في قلبك النور. والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: إن التقوى نور يقذفه الله في قلب المؤمن.

تجد المؤمن أموره واضحة، لو قطعته إرباً إرباً لا يمد يده إلى الحرام، لأنه يرى عدل الله، وكلما اشتد اتصالك بالله اشتد نورك، وكلما اشتد النور رأيت الدقائق، الآن غرفة فيها مئة شمعة لا ترى إبرة في ثنايا أرضها، أما غرفة فيها عشرة آلاف شمعة ترى أدق الدقائق فيها، فكلما اشتد النور توضحت الرؤيا ورأيت التفاصيل.

كلما اشتدت صلتك بالله عز وجل توضحت رؤيتك :

هذا الصحابي الذي اسمه عبد الله بن رواحة هذا عينه النبي قائد ثالث في مؤتة، فالقائد الأول سيدنا زيد، أخذ الراية وقاتل بها حتى قتل، والقائد الثاني سيدنا جعفر، أخذ الراية وقاتل بها حتى قتل، فلما جاء

دور عبد الله تردد، وكان شاعراً وقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي　　هذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما رضيت　　وإن توليت فقد شـقيت

*　*　*

ثم أخذ الراية فقاتل بها حتى قتل، هذا ماذا رأى؟ رأى أن في إقدامه سعادة، لكن هذا التردد جعل مقامه أقل من مقام صاحبيه، قال عليه الصلاة والسلام: أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر، وقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، وسكت النبي عليه الصلاة والسلام بقدر تردد عبد الله، فقال أصحابه: يا رسول الله ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه.

كلما اشتدت صلتك بالله عز وجل توضحت رؤيتك، لذلك هناك ذنوب يرتكبها عامة الناس ولا يعبؤون بها، هي عند الخاصة كبائر، فكلما علا مقامك دقت رؤيتك، وكلما علا مقامك ازداد ورعك، وكلما علا مقامك عرفت عدل الله أكثر، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

النبي عليه الصلاة والسلام أرسل خادماً في حاجة فتأخر كثيراً، والنبي بشر غضب، فلما عاد متأخراً كان بيده سواك فقال عليه الصلاة والسلام:

((والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[رواه ابن سعد عن أم سلمة]

ماذا يرى؟ هؤلاء الذين يقتلون كل يوم المئات، ويهدمون البيوت، وينتهكون الحرمات، هؤلاء في عمى، لو كشفوا الحقيقة لكانوا أشقى الناس قبل أن يموتوا، فالبطولة أن ترى رؤية صحيحة وفق منهج الله عز وجل.

وقوع الوعد والوعيد أقوى دليل على أن هذا القرآن كلام الله :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي أطيعوه، أي اجعلوا بينكم وبين عقابه ستراً، اجعلوا بينكم وبين سخطه ستراً، اجعلوا بينكم وبين النار ستراً، ولكن كيف؟ لا بد من أن تتصلوا به، لينعقد بهذه الصلة رؤية صحيحة ترون الحق حقاً والباطل باطلاً، فكأن آية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي أحكموا اتصالكم به كي يقذف في قلوبكم نوراً ترون به دقائق الحياة. مرة ثانية: ما من إنسان إلا ويسبق سلوكه رؤية، فإن كانت صحيحة صح عمله وسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإن كانت رؤيته خاطئة فسد عمله وهلك في الدنيا وفي الآخرة، والله عز وجل في قرآنه الكريم أوعد وتوعد، قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

[سورة يونس: 39]

قال علماء التفسير: إن تأويل القرآن الكريم وقوع الوعد والوعيد.

حدثني طبيب قلب زاره مريض يدخن، قال له: أنت لا بد من أن تصاب بجلطة في القريب العاجل، أقسم لي بعد ستة أشهر سيق هذا المريض إليه بجلطة أصابته في قلبه، هذا علم، لا نقول الطبيب: يعلم الغيب، ولكن يعلم بالقوانين.

طبيب آخر جراح للقلب: أقسم لي بالله أنه في ثماني سنوات أجرى عمليات قلب مفتوح، ما من إنسان أجرى له عملية في قلبه إلا وهو يدخن.

إذاً هذا الذي يرى ما سيكون إنسان موفق، وهذا الذي يعيش لحظته إنسان هالك، الآن العالم كله يعيش اللحظة، يأكل، ويشرب، ويستمتع كما تستمتع البهائم، ويغفل عن وعيد الله عز وجل، الله عز وجل توعد المرابي بمحق ماله، توعد الذي يزني أن يلقى هذا في بيته، توعد كثيراً، فالبطولة أن تكون لك رؤية تسبق عملك.

فوائد الاتصال بالله :

لماذا ترى المؤمن يرضى بالعيش القليل بمعيشة خشنة، ويعرض عن دخل كبير فيه شبهة، لأنه يرى عدل الله عز وجل، لماذا تمتنع عن أن تقتل مخلوقاً ضعيفاً؟ لأنك ترى عدل الله عز وجل.

إذاً: الآية الأولى دعوة إلى أن يستنير العبد بنور الله عز وجل، طبعاً الاتصال بالله له فوائد لا تعد ولا تحصى، من فوائده قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

إنسان اتصل بالله، امتلئ قلبه رحمة، انعكست الرحمة ليناً في تعامله، فانعكس اللين التفافاً حوله، المقطوع عن الله يمتلئ قلبه قسوة تنعكس القسوة غلظة وفظاظة، من نتائج الغلظة والفظاظة انفضاض الناس من حوله:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

بالاتصال بالله يقذف النور في قلبك، عندئذٍ ترى به الخير خيراً والشر شراً، عندئذٍ تتقي الله، فلو أتيت بستة آلاف مليون هم سكان الأرض، لو أعطيتهم مصباحاً كشافاً وأمامهم حفرة يتحاشونها، هذه جبلة الإنسان، لو أعطيت ستة آلاف مليون مصباحاً كاشفاً، ورأوا ثعباناً يهربون منه، هكذا الإنسان، الإنسان جبل على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، الأزمة أزمة علم فقط، المدخن حينما يرى أنه سينتهي إلى ورم خبيث في رئتيه، أو جلطة في قلبه، أو أزمة في أحشاءه لكف عن الدخان، لكن لا يرى ذلك يراه متعةً.

الإنسان مأمور بهذه الآية أن يبتغي إلى الله الوسيلة :

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

أنت مأمور بهذه الآية أن تبتغي إلى الله الوسيلة، الحقيقة الأولى التي لا ريب فيها أن الله سبحانه وتعالى لا يتوسل إلا بما شرع، كلام دقيق وخطير، الله جل جلاله لا يتوسل إليه إلا بما شرع، أما أن تجتهد أنت بوسيلة لم يأمر بها النبي، بل نهى عنها النبي، هذا بعد عن حقيقة الدين، لأن العمل لا يكون صالحاً مقبولاً عند الله إلا بصفتين، إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً إذا وافق السنة، فالحقيقة الأولى ينبغي أن نتقرب إليه، أن نتخذ من الوسائل ما أمر بها وحث عليها، أما أن نتبع وسيلة لم يأمر بها، أن نعقد زواجاً صورياً من أجل أن تحج امرأة مع محرم خلبي، هذا من البدع - أنا أضرب أمثلة كثيرة - أن أقيم حفلاً غنائياً ليكون ريعه للأيتام، هذا غير مقبول، أن أجري يانصيباً خيرياً لتكون الجوائز من أجل مستشفى، ينبغي أن تكون الوسيلة من جنس الهدف.

وسائل مشروعة نتقرب بها إلى الله عز وجل :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

أي من أجل أن يقذف هذا النور في قلوبكم لا بد من القرب من الله، فاتخذ من الوسائل المشروعة ما تتقرب بها إلى الله عز وجل.

1 - أول وسيلة طلب العلم :

أخواننا الكرام، من أهم هذه الوسائل طلب العلم، لأنك مفطور على حب وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، فإذا طلبت العلم عرفت أن الطريق الوحيد إلى سلامتك وسعادتك هي طاعة الله عز وجل، لكن المشكلة الذي لا يطلب العلم يظن أنه على حق، وهو على باطل، الشريعة لها دقائق، الحركة اليومية تحتاج إلى نور يكشف لك خبايا الأمور، فأول وسيلة تتقرب بها إلى الله، وتعينك على طاعته، وتريك الحق حقاً والباطل باطلاً، طلب العلم هذه أول وسيلة.

2- الوسيلة الثانية طاعة الله عز وجل :

الوسيلة الثانية: طاعة الله عز وجل فيما أمر، والنهي عما نهى وزجر، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل مما افترضه عليه، وترك ما نهاه عنه، هذه الوسيلة الثانية.

3- الوسيلة الثالثة أن تأتي الفرائض

وأن تدع المحرمات :

أن تأتي الفرائض، وأن تدع المحرمات، هذه الوسيلة الثالثة.

4 - الوسيلة الرابعة العمل الصالح ثم الدعوة إليه :

الوسيلة الرابعة: العمل الصالح، ثم الدعوة إليه، هذه وسائل مشروعة، الله عز وجل أمر بالاستقامة، أمر بطلب العلم، قال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

أمر بطاعة الله ورسوله:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

[سورة الأنفال: 46]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب: 71]

أمر بالعمل الصالح قال:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة محمد: 12]

لو اكتفينا بفهم الوسيلة عند طلب العلم وعند طاعة الله عز وجل، وأداء فرائضه وترك محرماته، والعمل الصالح بشتى أنواعه بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إليه، وأن تبذل من أجل الدعوة الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، فقد أخذت الوسيلة التي تقرب إلى الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ)

علاقة الجهاد بالوسيلة :

قد يسأل سائل: ما علاقة الجهاد بالوسيلة؟ هذا النظام الإلهي، هذا المنهج الإلهي يحتاج إلى صيانة، الآن البيت يقول لك: أجهزة إنذار مبكر، رقابة إلكترونية، حوائط مسلحة فرضاً، فهذا الدين يحتاج إلى قوة، فحين يضعف ترون بأم أعينكم ماذا يجري للمسلمين؟ الدين يحتاج إلى أن تقيم أحكامه، وإلى أن تدافع عنه عن طريق تنفيذ قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال: 60]

يوم كان الإسلام قوياً، صلاح الدين الأيوبي رد ملوك أوربا، والمسلمون في أوج عصرهم وصلوا إلى الأندلس، وإلى مشارف الصين، الحق يحتاج إلى قوة، فإذا ضعف الحق يتفنن أعداء الحق باتهامه، تارةً يتهمونه بالإرهاب، وتارةً يتهمونه بالتزمت، وتارةً يفسرون الحجاب بأنه رمز، وينبغي أن ندع الرموز كلها.

ذكرت اليوم في الخطبة أن أي مركبة يكون للمصنع الذي صنعها إشارة، كل مصنع له إشارة يضعها في مقدمة كل مركبة، وفي مؤخرتها، هذا الرمز لو نزع المركبة تسير، وتؤدي كل غاياتها، لكن المكبح ليس رمزاً جزء من السيارة، وأساسي جداً، ومن أجل سلامتها، فإذا قال أحدهم: المكبح رمز في السيارة ينبغي أن ننزعه، كلام مضحك.

الحجاب ليس رمزاً، الحجاب أمر إلهي للمرأة، لأن المرأة تعبد الله بعبادة إعفاف الشباب، فلما برزت مفاتنها حصل فساد لا يعلمه إلا الله، لكن لأن الإسلام ضعيف اتهم الإسلام بالإرهاب، واتهم بقصوره عن فهم تفاصيل الحياة المعاصرة، لو أنه قوي لكنا في حال آخر غير هذا الحال.

الحق لا قيمة له من دون قوة تحميه :

إذاً:

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ)

الحق لا قيمة له من دون قوة تحميه، لذلك قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

[سورة الأنفال: 60]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ، فإن لم نعد لهم ما قيمة أننا معنا وحي السماء؟ وما قيمة أننا على حق، وأن ديننا هو الدين الخاتم، وأن نبينا خاتم الأنبياء والمرسلين؟ كلام لا يقدم ولا يؤخر، يتفننون في الكيد لنا، يتفننون في قتل أبنائنا، يتفننون في هدم بيوتنا، يتفننون في نهب ثرواتنا أليس كذلك؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

لا بد من وسيلة تتقرب بها إلى الله. أولاً: طلب العلم. ثانياً: أداء الفرائض وترك المحرمات. ثالثاً: طاعة الله في تفاصيل الشريعة. رابعاً: العمل الصالح، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إليه.

هذه الوسائل ولسنا بحاجة إلى أن ندخل في خلافات بين علماء المسلمين أدت إلى تكفير بعضهم بعضاً في شأن الوسيلة، هذا الذي قلته من طلب علم، ومن طاعة، ومن أداء فريضة، ومن ترك محرم، ومن عمل صالح واسع جداً، هذه المعاني نكتفي بها في معنى الوسيلة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

فإن لم نعد لأعدائنا القوة لا نفلح، ويصبح ديننا مضغة في الأفواه، يستهزأ بديننا، يستهزأ بعقائدنا، يستهزأ بنبينا لأننا ضعاف، ولو كنا أقوياء لعد الطرف الآخر ألف حساب وحساب لينال منا.

عدم استجابة الله لنا هو عدم أخذنا بالأسباب :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

الآن علاقة الآيات مع بعضها، هؤلاء الذين أخذوا بأسباب القوة واستعلوا، وبنوا وجودهم على أنقاض الآخرين، بنوا حياتهم على موتهم كما ترون كل يوم، بنوا قوتهم على ضعفهم، بنوا غناهم على فقرهم، بنوا عزهم على ذلهم، هؤلاء الأقوياء الذين أخذوا بأسباب القوة، أسباب القوة مبذولة لكل إنسان، ولو كان كافراً، ولو كان ملحداً، هذا شأن الدنيا، الدنيا لها قوانين، إن أخذت بها ملكت الدنيا، هؤلاء الذين

حاربوا الدين واتهموه بأشد التهم لكنهم أخذوا بأسباب القوة، وملكوا ناصية الأمور هؤلاء تفوقوا في الدنيا، واستعلوا في الدنيا، وتغطرسوا في الدنيا، وتحكموا بمقدرات الآخرين في الدنيا، وفرضوا إرادتهم على سكان الدنيا، لكن البطولة أن ترى مصيرهم في الآخرة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذا عدل الله عز وجل لهم الدنيا، أخذوا أسبابها، أتقنوا أعمالهم، خططوا.

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

[سورة النساء: 104]

وهذا شيء يدعو إلى الألم، أن الكافر على كفره يخطط، ويتعاون، ويصبر، وله نفس طويل مع الطرف الآخر، والمؤمن الذي معه وحي السماء، ومعه منهج الخالق، ومعه القرآن، ومعه العقيدة السليمة نائم ينتظر معجزة إلهية، والله لن تأتي إلا بدفع ثمنها، وثمنها طاعة الله، وإعداد القوة للطرف الآخر. سيدنا عمر رأى رجلاً معه جمل أجرب قال: يا أخا العرب ماذا تفعل بهذا الجرب؟ قال: أدعو الله أن يشفي الله جملي، قال له: يا أخا العرب هلا جعلت مع الدعاء قطراناً؟ دعاء فقط لا يكفي، ونحن نملك الدعاء، اللهم دمرهم، اللهم شتت شملهم، اللهم اجعل كيدهم في نحرهم، اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، اللهم أرنا قدرتك بهم، لا يوجد استجابة لأننا ما أخذنا بالأسباب.

الرد الإلهي على من لم يعبأ بالآخرة ولم يعقد عليها الآمال :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

هذه الآية تذكرني بآية ثانية:

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:8-9]

أي كذب بالآخرة، وكذب أنه مخلوق للجنة، بناء على تكذيبه استغنى عن طاعة الله، لماذا يطيعه؟ لا يريده، وبناء على تكذيبه أيضاً جعل حياته مبنية على الأخذ لا على العطاء:

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل:8-9]

الرد الإلهي عليه في الدنيا:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل:10]

لم يعبأ بالآخرة، ولم يعقد عليها الآمال، بل لم يصدق بها أصلاً، وجعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ونهاية آماله، ومحط رحاله، وعمل عملاً كبيراً، وأسس إنجازاً عظيماً وملك أطراف الدنيا، ماذا قال الله لنا؟

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل:11]

هو لماذا عصى الله؟ ليجمع أموالاً طائلة، وقال لك دعك من الحلال والحرام، المهم أن أجمع المال، هو أراد أن يجمع المال ليستمتع به فلما وافته المنية، قال:

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل:11]

هذه النتيجة، هذا الذي أخذ بأسباب الدنيا، وتمكن منها، وقوي في الأرض.

ينبغي من أجل أن نتقي النار وأن نطلب الجنة أن نصحح عقيدتنا :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

أنا أتمنى على أخوتنا الكرام، وهذه الصور لما ينتهي به الإنسان الكافر ألا ينبغي أن تهز أعمق الأعماق؟

(يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)

دائم، لذلك الله عز وجل في بعض آياته يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

فينبغي أن نتقي النار بطاعتنا لله، وينبغي أن نطلب الجنة بعملنا الصالح، وينبغي من أجل أن نتقي النار وأن نطلب الجنة أن نصحح عقيدتنا، لذلك الجاهل عدو نفسه، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك قالوا: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم،

وأهل النار وهم في النار يقولون:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك:10-11]

أيها الأخوة الكرام، هذه الآيات الكريمة التي وردت في هذا الدرس تفيد السلامة والسعادة؛ طلب العلم، وأداء الفرائض وترك المحرمات، وطاعة الله في التفاصيل، والعمل الصالح بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاءً بالدعوة إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (21- 49): تفسير الآيات 38-40 ، الحدود في الإسلام والحكمة من تطبيقها.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق حول الآية التالية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والعشرين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة والثلاثين، وهي قوله تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة الكرام، هناك حقائق لا بد من أن توضع بين يدي الأخوة الكرام حول هذه الآية:

1 ـ أول حقيقة أن الإسلام نظام متكامل لا تقطف ثماره إلا إذا أخذ بمجموعه :

الحقيقة الأولى: أن الإسلام منهج كامل لا تقطف ثماره اليانعة إلا إذا طبق بأكمله ومجموعه، فإذا اقتطعنا من الإسلام حكماً وطبقناه وحده بمعزل عن بضع مئات الأحكام الأخرى فإننا لا نقطف ثمار هذا الحكم، بل نثير جدلاً كبيراً حول هذا الحكم، وهذا ما يجري الآن، نقتطع من الأحكام الشرعية حد قطع يد السارق، ونجعل علامة تطبيق المنهج الإسلامي في بلد ما هي قطعُ يد السارق، وهناك مئات، بل عشرات مئات، بل آلاف الأحكام الأخرى غير مطبقة، تطبيق حد السرقة وحده من دون أن يراعى في الإسلام وحدته وتكامله هذا يسبب جدلاً طويلاً، كما جرى في العالم الإسلامي، فأول حقيقة أن الإسلام نظام متكامل لا تقطف ثماره إلا إذا أخذ بمجموعه، عندئذٍ تكون الثمار يانعة جداً.

2 ـ المسلم مضمون له أن يكسب رزقه من عمله وعلى ولي الأمر أن يوفر الأعمال:

الحقيقة الثانية: أن المسلم في المجتمع الإسلامي مضمون له أن يكسب رزقه من عمله، فعلى ولي الأمر أن يوفر الأعمال، وسميت في القرآن المعايشَ، أي سبلَ كسب الرزق، والدليل: أن سيدنا عمر رضي الله عنه عين والياً، وأراد أن يمتحنه، فقال: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ فقال:

أقطع يده، قال: إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، قال له: يا هذا إن الله استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفة، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية. فتأمين فرص العمل من أولى مهمات ولي أمر المسلمين، هذه واحدة.

الآن لو أن مسلماً لا يستطيع أن يعمل، أو أن دخْله من عمله لا يكفيه فلا بد من أن يلزم ولي أمر المسلمين من حوله من أقربائه الميسورين بالإنفاق عليه، فإن لم يكن له أقرباء أغنياء فلا بد من أن يأخذ من بيت مال المسلمين، فإن كان لا يكفي فيجب أن تفرض على مجموع الأمة ضرائب تكفي لكفالة كل أفراد المجتمع الإسلامي، هذه أحكام في الفقه الإسلامي بديهية، فالمسلم ضمن منهج الله، وضمن مظلة الإسلام مكفول رزقه إما من عمله، أو من قرابته، أو من أبناء محلته، أو من بيت مال المسلمين، أو من مجموع الأمة.

أيها الأخوة، شيء آخر، الإنسان حينما يكسب المال في المجتمع الإسلامي لا يستطيع أن يكسبه إلا من طريق مشروع، لأن الطرق غير المشروعة محرمة في الإسلام، فحينما لا يكون في المجتمع الإسلامي كذب، ولا غش، ولا تدليس، ولا احتيال، ولا احتكار، ولا معاصٍ متعلقة بكسب المال فهذا العمل في الأصل مشروع، والكسب مشروع، والمال حلال، وفي تعريف جامع مانع للمال الحلال: هو الذي يؤخذ من كسب مشروع، ويُكسب عن طريق منافع متبادلة، أما إذا بنيت منفعة على مضرة فهو الكسب غير المشروع، إذا بنيت منفعة على مضرة كاليانصيب مثلاً، كالربا مثلاً، وما شاكل ذلك، هذا كسب بنية منفعة لفرد على مضرة المجموع، إذاً الكسب في ضمن المجتمع الإسلامي مشروع، وفي ضمن المجتمع الإسلامي يُمنَع الكذب والغش والاحتيال والاغتصاب والاختلاس والاحتكار، وممنوع أن تستغل قوتك بأخذ مال الآخرين، فإذا ضُمن للإنسان معاشه الكريم، إنْ من عمله الذي وفره له ولي أمر المسلمين، أو من قرابته الموسرين، أو من أقرب الناس إليه، أو من بيت المال، أو من مجموع الأمة، وكان كسب الإنسان المتفوق حلالاً وفق منهج الله، ولنفع الأمة فلا بد من أن يضمن المنهج لكل عملٍ ثمرته، وإلا تتعطل الحياة، ما الذي يغرك أن تنشئ بناء، وتنتفع من أجرة بيوته؟ إلا أن يضمن لك أن هذا البناء لك، وأن هذه الأجرة تكسبها لك، إذاً ما لم نضمن نتائج عمل الإنسان في مجتمع ما فإن الإنسان لا يعمل، لذلك يبدو في المجتمعات التي تسمح للإنسان بالتملك هناك نشاط كبير جداً، وهناك نمو اقتصادي كبير جداً، وفي المجتمعات التي لا تسمح بالتملك يبدو هناك ضعف كبير في الإنتاج وفي إتقان العمل.

3 ـ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ومواقف النبي تعلّم أنّ العمل في الإسلام مقدَّس:

الحقيقة التي بَعدها، القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، ومواقف النبي تعلّم أنّ العمل في الإسلام مقدَّس، يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه أمسك يد ابن مسعود، وكانت خشنة من العمل، رفعها، وقال: إن هذه اليد يحبها الله ورسوله، رأى شاباً يتعبد الله في وقت العمل، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام: من يطعمك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعْبَد منك، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((واليدُ العليا خير من اليد السُّفْلى))

[مسلم والترمذي عن أبي أمامة الباهلي]

وقد قال العلماء: إن العمل الذي تعمله، والحرفة التي تحترفها إذا كانت في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك وأهلك ونفع المسلمين، ولم تشغلك عن فريضة، ولا عن واجب، ولا عن عمل صالح انقلبت إلى عبادة.

إذاً الكسب الحلال أصل في تحصيل المال:

((واليدُ العليا خير من اليد السُّفْلى))

[مسلم والترمذي عن أبي أمامة الباهلي]

وفي الحديث:

((المُؤْمِنُ القويُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ تَعالى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[رواه مسلم عن أبي هريرة]

فهناك حث على العمل، ومن أبلغ ما قرأت في السيرة أن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما تفقّد بلدة من رعيته ووجد أن كل الفعاليات الاقتصادية بيد غير المسلمين، عنفهم تعنيفاً شديداً، وقال لهم: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟ هذا الخليفة الراشد أدرك قبل ألف وأربعمئة عام أن المنتج قوي، وأن المستهلك ضعيف، وأن القوي من المنتجين ينهب أموال الطرف الآخر إذا اشترى منهم، وينهبها إذا باعهم، مثلاً ما يزن ألف غرام من الصوف المصنع قماشاً راقياً يباع بثلاثة آلاف ضعف عن ثمن الصوف، ثلاثة آلاف ضعف بين ثمن الصوف قبل أن يصنع، وبعد أن يصنع، وهكذا يبدو المجتمع المنتج قوياً غنيّاً.

المال له صفة جماعية :

بعض الدعاة إلى الله فسر قوله تعالى:

(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)

[سورة الأنبياء: 105]

الذين درسوا قوانين الحياة، واستوعبوها، وطبقوها، فملكوا الدنيا، كما هي حال أعدائنا، أتقنوا أعمالهم، واستخرجوا ثرواتهم، واكتشفوا الأشياء التي هم بحاجتها، فملكوا ناصية الأرض، هذا شأن الدنيا، ثم إن الله عز وجل في قوله تعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

أي أنّ هذا المال له صفة جماعية، أنت حينما تكسب المال عن طريق هذا الكسب توفِّر فرص عمل للناس.

إنسان أخ كريم عنده معمل، وقد قلَّ ربحُه إلى درجة أنّ دخله أصبح يساوي مصروف المعمل، فجاءني مستفتياً، ألي الحق أن أنهي العمل؟ أنا لا أربح أبداً، قلت له: كم عاملا عندك في المعمل؟ قال: ثمانون، قلت له: أنت تفتح ثمانين بيتاً، هذا في حد ذاته في مقياس منهج الله ربح كبير، ثمانون أسرة بيوتها مفتوحة ونفقاتها مغطاة بسبب بقاء هذا العامل عندك في المعمل.

في الإسلام حدود لكن هناك تركيزاً شديداً على حفظ الأموال والأعراض :

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

أي أنّ مال أخيك هو مالك من زاوية واحدة، من زاوية أنه يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، كما تقول لمن تعيره مركبتك: عدَّها مركبتك، ماذا تقصد من ذلك؟ أن يعتني بها وكأنها مركبته، وهذا معنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء: 29]

بمعنى أنك إذا أكلت مال أخيك أضعفته، وإذا أضعفته كنت مكلّفاً بالإنفاق عليه، فكأنك أضعفت نفسك، هذا معنى. والمعنى الثاني: أن هذا المال ينبغي أن يكون مالك، من زاوية أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلأن تمتنع من أكله من طريق غير مشروع من باب أولى.

أيها الأخوة: النبي عليه الصلاة والسلام بسنّته القولية حث على العمل، وسيدنا عمر قال: "إني أرى الرجل ليس له عمل فيسقط من عيني "، النبي عليه الصلاة والسلام بسيرته العملية حث على العمل، جاءه رجل يطلب مساعدة، فقال عليه الصلاة والسلام: أعندك شيء في البيت؟ قال: والله ما عندي إلا قعب وحلس - الحلس قماش نجلس عليه، والقعب وعاء نشرب منه - قال له: ائتني بهما، النبي عليه

الصلاة والسلام بنفسه عرض القعب والحلس على أصحابه، قال: من يشتري هذين؟ فقال أحد أصحابه: أنا أشتريهما بدرهم، فقال من يزيد على ذلك - ومنا هنا شرعت المزايدة في البيع - قال آخر: أنا أشتريهما بدرهمين، فباع النبي الحلس والقعب لهذا الصحابي الثاني الذي اشتراهما بدرهمين، وقال للرجل السائل: اذهب فاشتر بدرهم طعاماً لأهلك، واشتر بالدرهم الثاني قدوماً وائتني به، جاء له بالقدوم، يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام شد بيده الشريفة عصاً على هذا القدوم، وقال: اذهب واحتطب، ولا أرينك لخمسة عشر يوماً، عاد بعد هذه الفترة ومعه ثمانية دراهم، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك.

أيها الأخوة الكرام، في الإسلام حدود، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هناك تركيزاً شديداً على حفظ الأموال والأعراض، فلو أخذت مئة حكم شرعي لوجدت أنّ تسعين بالمئة من الأحكام الشرعية متعلقة بحفظ الأموال والأعراض، لأن المال والعرض شيئان أساسياً في المجتمع الإسلامي.

المال قوام الحياة والعدوان على المال عدوان على قوام الحياة :

أيها الأخوة، طبعاً هناك حد للعدوان على العرض، وهناك حد للعدوان على المال، وهو موضوع درس اليوم:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا)

أخوتنا الكرام، المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على الحياة، هل تصدقون أن باحثة اجتماعية أرادت أن تبحث في موضوع الدعارة في بعض البلدان المجاورة، فوجدت أن خمسة وتسعين بالمئة من النساء اللواتي يمتهن الدعارة لم يمتهنها لفساد فيهن ولكن لفقرهن، أنت حينما تعتدي على أموال الناس فأنت تعتدي على حياتهم، وعلى قيمهم، وعلى مبادئهم، فأي إنسان يحاول أن يخفض القيمة الشرائية لما في أيدي الناس من أموال لا يدري ماذا يفعل، وهو بذلك يسبب أزمات لا تنتهي في كل أسرة، المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على قوام الحياة، لذلك السرقة عدوان على قوام الحياة، نحن نقول: المسلم في المجتمع الإسلامي مضمون له معاشه، والمكاسب التي تشرع في العالم الإسلامي مكاسب مشروعة، ليست مبنية على ضرر أحد، مبنية من جهد مشروع، فالعدوان عليها عدوان على الحياة.

من تعاريف السرقة: أن السرقة أخذ مال مقوَّم في حرز مثله، أي المال في بيت، والبيت له باب، والباب له قفل، والمال في خزانة، هذا معنى في حرز مثله، مال مقوَّم يؤخذ من حرز مثله خفية، لو أخذ بقوة السلاح فهو اغتصاب، وهذا موضوع آخر، لو خطف طفلٌ حاجة من محل، ولم يستطع البائع أن

يلحق به فهذا اسمه خطف، لو عينت أمين صندوق، وهو عندك أمين، ثم اختلس من المال الذي بحوزته فهذا اسمه اختلاس، فالاختلاس شيء، والخطف شيء، والاغتصاب شيء، والسرقة شيء آخر.

السرقة، أن تأخذ مالاً مقوماً خفية في حرز مثله، هذا هو التعريف، لكن قد يغيب عن الناس أن هذه الفتاة التي تبرز كل مفاتنها في الطريق لسان حالها يقول: تحرشوا بي لأنني أتحرش بكم، بلباسها تتحرش بالشباب، وكأن لسان حالها يقول: تحرشوا بي، لأنني أتحرش بكم.

سقت هذا الكلام تمهيداً، والذي يدع ماله من دون حرز فهذا إهمال، كمن يكون عنده موظف صغير شاب فقير، ومكان المال بين يديه، ويغيب صاحب المال عن المحل التجاري، فكأن هذا الذي أهمل المال لم يضعه في حرز مثله، كأنه أغرى هذا الشاب أن يسرق منه، وقد يغب عن أذهان المؤمنين أن الذي يدع ماله معرضاً لسرقة ليس في حرز مثله لا يقلُّ إثمه عن إثم السارق، لأنه هو السبب، لأنه أغراه بالسرقة.

محاسبة المرء على الإهمال لأنه أغرى ضعاف النفوس بالسرقة :

أيها الأخوة، المرء محاسب عند الله أشد الحساب على الإهمال، والإهمال ألاّ تضع المال في حرز مثله، فالذي لا يضبط حساباته، ولا يضع المال في حرز أمين، ويعرِّضه للنفوس الضعيفة لا يقلُّ إثمه عن إثم السارق، لأنه أفسده.

مثلاً: صاحب محل تجاري له مكتب، والمبيعات توضع في هذا المكتب في درج، والدرج مفتوح، وذهب إلى مكان بعيد، وليس في هذا المحل إلا هذا الموظف، وهو ضعيف النفس، وجد الدرج مفتوحاً، المبلغ لم يحسب، يضع في الدرج المبيعات بشكل من الإهمال، من غير حساب، ولا هناك آلات دقيقة جداً، فشيء مغرٍ أن يأخذ من هذا الدرج، هل تصدقون أن هذا الإنسان صاحب المحل التجاري يحاسب عند الله كما يحاسب السارق، لأنه أغراه بالسرقة، كيف أن الفتاة بثيابها الفاضحة لسان حالها يقول: تعالوا تحرشوا بي، لأنني بهذه الثياب أتحرش بكم، كذلك الإنسان المهمل المقصِّر الذي لا يضع ماله في حرز حريز هو أحد أسباب أن تمدَّ اليد إلى هذا المال.

العلماء قالوا: اليد تقطع في ربع دينار، وربع دينار يكفي طعام أسرة يوماً بأكمله، لذلك سُئل أحد الفقهاء:

يد بخمس مئين عسجد وُدِيتْ ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

فأجاب المسؤول:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها   ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

لما كانت أمينة كانت ثمينة، دية اليد التي تُقطع خطأ عَشر مئين من الدنانير الذهبية.

يد بخمس مئين عسجد وُدِيتْ   ما بالها قطعت في ربع دينار؟

* * *

فأجاب المسؤول:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها   ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ادرؤُوا الحدودَ بالشبهاتِ))

[أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها]

ويقول سيدنا عمر: والله لأن أخطئ في أن أدرأ الحد بالشبهات أفضل من أن أخطئ في أن أقيم الحد بالشبهات.

شريك يعتقد توهُّماً أن له عند شريكه مالاً، فلو أخذ منه لا تقطع يده بشبهة، قناعته أن شريكه ظلمه، والحديث عن هذا طويل، فحيثما كانت الشبهة لا تقطع اليد.

تعريف جامع مانع للمال الحلال والمال الحرام :

أيها الأخوة، لأن المال قوام الحياة، والعدوان على المال عدوان على الحياة، لذلك كان العقاب شديداً في منهج الله عز وجل، ولأن المسلم مضمون له حاجاته الأساسية، إن من عمله، أو من بيت المال، أو من أقاربه، أو من مجتمعه المسلم، ولأن المكاسب في ظل المجتمع الإسلامي مشروعة، ولأن المكاسب ثمرتها مال حلال، والمال الحلال لم يبنَ على مضرة بل بني على منفعة متبادلة، وأوضَح مثل البيع والشراء، فأنت تسكن في حي، إلى جانب بيتك إنسان يأتيك بالبضائع من محلات بعيدة، يبيعك إياها وأنت مرتاح بسعر يزيد على كلفتها، فأنت انتفعت بقربه منك، وبتلبيته لحاجاتك، وهو انتفع بهذا الفرق بين ثمن الشراء والبيع، أما السرقة فليست منفعة متبادلة، انتفع السارق على حساب المسروق، إذاً لو أردت تعريفاً جامعاً مانعاً للمال الحرام قلت: هو مال بُنِي على مضرة، ولو أردت تعريفاً جامعاً مانعاً للمال الحلال: فهو مال أُخِذ من منفعة متبادلة.

أيها الأخوة، كتطبيق عملي طُبِّق حد السرقة في بعض البلاد الإسلامية، طُبِّق بحزم قبل سنوات عديدة، والله القصص التي سمعتها، والمشاهدات التي رأيتها، وما تناقلته الأخبار عن الأمن في هذا البلد لا تصدَّق، رواتب محافظات تبعد عن العاصمة عشرات ألوف الأميال تُنقل بسيارة مكشوفة، الذين يعملون بتبديل العملة يضعون الأموال في صندوق خشبي مفتوح، ويذهبون للصلاة، القصص التي يراها كل من زار هذا البلد حينما طبق هذا الحد شيء لا يصدق. لي قريب يأتي بطريق البر من هذا البلد، وأنا قلق عليه، قلت له: كيف تأتي وحدك؟ قال لي: ما مِن مشكلة أبداً، أشعر بحاجة إلى النوم فأنام في الطريق، ولا شيء أخاف منه.

الثمار العملية لتطبيق هذا الحد تفوق حد الخيال، لأنه من عند خالق الأكوان، الحقيقة أنه كان التطبيق على آحاد المسلمين، لكن الردع يبلغ درجة تفوق حد الخيال، أن تكون آمناً على بيتك وعلى مالك شي عظيم، فلذلك هذا الحد طبق في بعض البلاد، وقطفت ثماره اليانعة.

كمال الخلق يدل على كمال التشريع :

شيء آخر، سواء أفهمت أم لم تفهم، اقتنعت أم لم تقتنع، هناك حقيقة مقطوع بها، أن كمال الخلق يدل على كمال التشريع، أنا ربما لا أعرف الحكمة، وقد أقول كلاماً ليس مقبولاً، ولكن قال الشرع: تنتفع به سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن القاعدة تقول: الانتفاع بالشيء ليس أحدَ فروع العلم به، كإنسان يضع يده على مكيف فيأتيه الهواء بارداً، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وإنسان آخر يضع يده على المكيف فيأتيه الهواء البارد، وهو دكتور في التكييف، ينتفع كلاهما بالهواء البارد سواء عرف الأول الأمي ماذا يجري في هذا المكيف أم لم يعرف، وهذا الشرع العظيم لمجرد أن تطبقه تقطف ثماره، وسواء عليك أعرفت الحكمة أم لم تعرف، لكن لا تكن تابعاً لمن يقول: هذا القطع فيه قسوة بالغة، نحن مجتمع متحضر لا نحتاج إلى قطع يد، لذلك في كل ثلاثين ثانية ترتكب في بعض البلاد الغربية المتفوقة جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، وفي معظم الأحيان السارق يَقتُل حينما يكتشف أمره ومعه سلاح يَقتُل به، لذلك أن تضحي بيدين في كل العام لعشرات الملايين خير من أن يكون في كل ثلاثين ثانية جريمة قتل أو سرقة أو اغتصاب، لكن الشيء الدقيق في هذا الحد أن يكون تنفيذه أمام جمهرة من المسلمين، لأن الحد له هدف ردعي، والحقيقة هدفه الردعي أكبر بكثير من علاجه الفردي، له هدف ردعي:

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾

[سورة النور: 2]

شيء آخر، أن الدخل المشروع الحلال يبارك الله لأصحابه فيه، بينما الدخل الحرام يمحق، وقد ورد في الأثر: مَن أصاب مالاً مِن مَهاوشَ أذْهَبَه اللّه في نَهابر. المال الحرام يذهب، بل يذهب بأهله:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

المقصود من أن الله عزيز حكيم :

طبعاً السرقة كسبُ الكسبِ، أيْ عدوان على كسبِ إنسان اشتغل أشهراً مديدة في حقله، وباع المحصول، وحمل الثمن، فجاء من سرق هذا المبلغ، هذا عدوان على الكسب الحلال، إذاً:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ)

عقاباً من الله:

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

فالسارق لا يغلب اللهَ عز وجل، السارق يسرق رزقه، ويعاقب على هذه السرقة. كتوضيح لهذه الفكرة: بستان فيه شجر تفاح، البستان العاشر في هذه القرية الشجرة التاسعة، الغصن السابع، التفاحة السادسة، هذه لفلان، حينما كوّنها الله عز وجل كوّنها لفلان، الآن فلان قد يأخذها سرقة، وهي في الأصل له، وقد يأخذها ضيافة، وقد يأخذها شراء، وقد يأخذها هدية، وقد يأخذها تسولاً، فالتسول والشراء والضيافة والهدية والسرقة من اختياره، أما هي له، هذا معنى قوله تعالى:

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

أي أنّ السارق ما أخذ إلا ما سمح الله له به أن يأخذه لكنه أخذه حراماً، واللهُ حكيم، لأن الإنسان مخير يسمح له أن ينفذ اختياره، لكن لا على حساب الناس، كأن السارق مخير في أن يسرق، وليس مخيراً فيمن يسرق، يسوق الله السارق إلى من تعدّ السرقة منه حكمة، لا أقول عقاباً، قد تكون حكمة، لأن أحد الصحابة سُرق، فقال: اللهم إن كان هذا الذي سرق المال سرقه عن حاجة فاجعله آخر ذنوبه، وإن كان عن بطر فاغفر له، المؤمن يرى حكمة الله عز وجل، لا يسكت إذا كان في بيته سارق، ويقول له: افعل ما تريد، الله يرضى عليك، لا، ليس هذا هو المعنى، لكنه لا يحقد، أولاً: الله عزيز، لأن السارق أخذ ما سمح الله له أن يأخذ، لأن هذا المال رزق، لكنه اختار أن يأخذه سرقة ولو صبر لأخذه حلالاً. الشيء الثاني: الله حكيم، لأنه يسوق السارق لمن تعدّ سرقة ماله تأديباً، أو حكمة، أو امتحاناً.

لا يليق بألوهية الله أن يقع في ملكه ما لا يريد لكنه يمتحن عباده لينظر كيف يعملون :

قال تعالى:

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ*فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ)

لو أن إنساناً لا سمح الله ولا قدر أخذ مالاً حراماً، ولم يكشفه الله عز وجل، وأراد أن يتوب، القضية سهلة جداً، رُدّ المال لأصحابه، إذا كنت تستحي فلست مكلفاً أن تعلن عن اسمك، يمكن أن ترسل حوالة بريدية مع اعتذار لهذا الذي أخذت ماله:

(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ)

أصلح أي ردّ المال لأصحابه:

(فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فلا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكنه يمتحن عباده لينظر الله كيف نعمل:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

الإنسان إذا سرق يعذَّب، وإذا عفَّ يغفر له، وإذا تاب يغفر له، وفي معنى آخر أنه يعذب في الدنيا بقطع اليد، لكنه إذا تاب بعد قطع اليد يغفر له في الآخرة:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

أيها الأخوة، هذا شرع الله، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف، وأنا أعلم علماً يقينياً أن هناك من يهاجم الإسلام من خلال هذا الحد، لكن واللهِ لو كشف المجتمع الآخر فوائد هذا الحد لعضُّوا عليه بالنواجذ، أن تنعم أمة بأمن يفوق حد الخيال بسبب تنفيذ هذا الحد الشرعي هذا من عند الخالق، إلا أن هناك من يقول في بعض الندوات: إن هذا سلوك قاسٍ جداً، نحن متحضرون هذا يكفي أن نسجنه، السجن لا يردع، لكن قطع اليد يردع.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (22- 49) : تفسير الآية 41 ، الفتنة وصفات المنافقين.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

النبي عليه الصلاة والسلام من بين جميع الأنبياء والمرسلين لم ينادَ باسمه :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الإحدى والأربعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، أنبياء الله جل جلاله خوطبوا ونودوا بأسمائهم؛ يا زكريا، يا يحيى، يا إبراهيم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام من بين جميع الأنبياء والمرسلين لم ينادَ باسمه، بل نودي بكلمة يا أيها النبي و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

وهذا تكريم له وأي تكريم، لأن رسالته ألغت كل الرسائل السابقة، ولأنه سيد الأنبياء والمرسلين:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

النبي بشر، لولا أنه بشر وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، لأنه بشر، وانتصر على بشريته كان سيد الأنبياء والمرسلين.

البشر خلقوا من أجل أن يكونوا على شاكلة محمد فهو قدوة البشر :

الذين قالوا: إن الكون خُلق من أجل محمد شطحوا، لكن البشر خلقوا من أجل أن يكونوا على شاكلة محمد، فهو قدوة البشر، وهو القدوة الذي جعل الله حياته كلها تشريعاً، فأقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، وصفاته تشريع، رسالته خاتمة، ورسالته ناسخة، ناسخة وخاتمة، وهو قمة بني البشر، وهو سيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم ولا فخر، كما قال عليه الصلاة والسلام، ولم ينادَ باسمه،

اسمه جاء خبراً:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح: 29]

أما إذا ناداه الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)

[سورة التحريم: 1]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

إذاً هناك تفوق، وهناك تميز، وهناك نسخ للشرائع السابقة، وهناك شريعة هي خاتمة الشرائع إلى يوم القيامة:

(لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

فرق كبير بين سارع إلى الشيء وسارع في الشيء :

أيها الأخوة الكرام، قد يسأل سائل: لِمَ لمْ يقل الله عز وجل: أولئك الذين يسارعون إلى الكفر، لو أن الآية: يسارعون إلى الكفر فهم كانوا في موقع آخر غير الكفر، كانوا مؤمنين، لكنهم سارعوا إلى الكفر، المعنى ليس كذلك، هم لم يؤمنوا أصلاً، إلا أنهم كانوا في الكفر، فلما جاءت هذه الرسالة سارعوا إلى مزيد من الكفر، فلا بد من استخدام كلمة (في)، فرق كبير بين سارع إلى الشيء، وسارع في الشيء، الله عز وجل قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

[سورة آل عمران: 133]

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الحديد: 21]

الأداة (إلى)، هنا يسارعون في الكفر، إن قلنا: سارع إلى الشيء فقد كان في موقع آخر، وسارع إلى موقع جديد، أي كانوا مؤمنين فانتقلوا إلى الكفر، المعنى ليس كذلك، هم لم يؤمنوا أصلاً، إلا أنهم كانوا كفاراً، فلما نزلت هذه الرسالة سارعوا إلى مزيد من الكفر، هم في الكفر، كانوا في مستوى فأصبحوا في مستوى آخر، فالكافر حينما يكفر، ولم تبلغه رسالة سماوية هو كافر، لكن إذا جاءته الرسالة السماوية مع الأدلة الكافية، ومع المعجزات والبراهين، ورفض أن يؤمن إذاً هو سارع في الكفر، بلغ مستوى أكبر من الذي كان فيه:

(لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

عصمة النبي بالمعنى السلوكي أنه لا يسمح لجهة كائنة من كانت أن تنال منه :

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين أرسل إليهم كانوا يحزنونه لعنادهم وإبائهم أن يؤمنوا، لكن الله سبحانه وتعالى يطمئن نبيه مرتين، يطمئن نبيه أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك وهم أقوياء، وهم سادة قريش، لن يستطيعوا أن ينالوا منك لأنك معصوم، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة: 67]

ولا يقبل المنطق أن الله يرسل رسولاً إلى أناس، ثم يسلمه إليهم، خالق هذا الكون، مبدع هذا الكون هو القوي، لا يسمح لأعدائه أن ينالوا من أنبيائه، لذلك أخبره الله عز وجل أنه يعصمه من الناس، وعصمة النبي بالمعنى السلوكي أنه لا يسمح لجهة كائنة من كانت أن تنال منه، إذاً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

لا تخف منهم، لأنهم بيد الله، وليس إلا الله، وليس لك من الأمر شيء.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف: 54]

لا تخف منهم، لا تخف أن يطفئوا نور الله، هذا الذي يتوهم أنه يستطيع إلغاء الدين إنسان في منتهى الغباء، الله عز وجل يقول في آية أخرى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة التوبة: 32]

بربكم لو أن واحداً من الناس توجه إلى قرص الشمس، ونفخ ليطفئ لهيبها ألا نشك في عقله؟ فإذا كان البشر مجتمعين عاجزين عن أن يطفئوا نور الله، فهل يستطيع واحد أن يحول بين الله وهداية خلقه؟!

لاتستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تحول بين الله وهداية خلقه :

الآن وقد كثر الحديث عن ضغوط توجه إلى العالم الإسلامي ليغير مناهجه، وليلغي العبادات التي جاء بها الدين، هل تعتقدون أن جهة في الأرض مهما قويت، ومهما تضخم شأنها، ومهما استعلت، ومهما تغطرست، تستطيع أن تحول بين الله وهداية خلقه؟ هذا من سابع المستحيلات، لكن الله يسمح للطرف الآخر أن يهدد وأن يتوعد ليمتحن إيمان المؤمنين.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

[سورة آل عمران: 173]

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

هؤلاء الألداء الأعداء الذين أصروا على كفرهم، ورفضوا دعوة الحق، ورفضوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام؛ هؤلاء لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لأنهم في قبضة الله.

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[سورة هود: 56]

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً*فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)

[سورة الطارق: 15-17]

الله عز وجل يريد أن يطمئن نبيه لأنه بشر :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ)

على عنادهم وعلى كفرهم لا تقلق من مؤامراتهم، لا تنظر إلى قوتهم، هم أقوياء ولكن الله أقوى منهم، الله عز وجل يريد أن يطمئن نبيه لأنه بشر، قال عليه الصلاة والسلام:

((لقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه عن أنس]

إنه بشر، ولأنه بشر وجرت عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته كان سيد البشر، لكن الله يعامله كبشر، يطمئنه، لا تقلق.

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى)

[سورة طه: 45]

على فرعون:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه: 46]

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف لك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين

يديه، وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطعيني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني))

[أخرجه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

لو أراد الله أن يقهر الناس على الإيمان به وعلى طاعته لكان ذلك يسيراً عليه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ)

لا تحزن خوفاً منهم، ثم إن هناك معنى آخر: لا تحزن خوفاً عليهم إنهم مخيرون.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

لو أراد الله أن يقهر الناس على الإيمان به وعلى طاعته لكان ذلك على الله شيئاً يسيراً.

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

[سورة هود: 118]

ولكنه أراد أن نأتيه محبين، مختارين، طائعين.

الفرق بين العبيد والعباد :

لو أن عبداً شرساً كذوباً شروداً ربطه بسلاسل، فإذا طلبته شدت السلسة فجاءك، وازن بينه وبين إنسان حر طليق، لمجرد أن تناديه يكون أمامك، أيهما تحب؟ تحب الثاني، الذي يأتيك طوعاً، يأتيك عن حب، يأتيك عن تقدير، لذلك حينما نقرأ قوله تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

[سورة فصلت: 46]

العبيد جمع عبد، وحينما تقرأ قوله تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

ألم يخطر في ذهنك الفرق بين العبيد والعباد؟ العبيد جمع عبد، والعباد جمع عبد، واختلاف المبنى دليل اختلاف المعنى، قال بعض علماء التفسير: العبيد جمع عبد القهر، أي إنسان كائناً من كان، مسلماً أو كافراً، مستقيماً أو عاصياً، مؤمناً أو ملحداً، هو عبد لله، هو عبد قهر، قطر الشريان التاجي بيد الله،

سيولة الدم بيد الله، نمو الخلايا بيد الله، والله عز وجل في آية ثانية يجعل الإنسان جثة هامدة.

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

[سورة يس: 29]

فكل إنسان كائناً من كان، مسلماً كان أو كافراً هو عبد لله، شيئاً بمعنى أنه مقهور بحكم الله، هذه الحقيقة تغيب عن الأقوياء الجهلاء، في أية لحظة أنت في قبضة الله، مليون سبب تصبح به جثة هامدة، تستمع أحياناً إلى موت مفاجئ، سكتة دماغية، سكتة قلبية، حادث، تشمع كبد، فشل كلوي، التهاب بالأعصاب حاد، فالله عز وجل قاهر عباده، فكل عباده عبيد له قهراً، لكن كلمة عباد التي هي جمع عبد فهو عبد الشكر، هذا الذي عرف الله مختاراً، هذا الذي أقبل عليه مشتاقاً، هذا الذي أطاعه وهو قوي، وهو في مقتبل حياته، هذا العبد يجمع على عباد:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان: 63]

الإيمان محله القلب والإسلام محله الجوارح :

إذاً يا محمد لا تحزن بسبب خوفك منهم، فإنهم في قبضتي، ولا تحزن بسبب خوفك عليهم، فإنهم مخيرون، أنا لا أريد طاعة قسرية، الطاعة القسرية لا تسعد الطائع، يريد الله إنساناً يحبه ويطيعه. لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ)

الإيمان محله القلب، والإسلام محله الجوارح، فأنت تؤمن بقلبك، أما إذا آمنت بلسانك فهذا هو النفاق، ولا يستطيع أحد في الأرض كائناً من كان أن يطلع عليك فيما تضمر، هذا من فضل الله عليك، لا تستطيع جهة في الأرض مهما أوتيت من قوة أن تمنعك أن تفكر، أو تمنعك أن تؤمن، فالإيمان محله القلب، والإسلام محله الجوارح، هؤلاء جعلوا الإيمان بأفواههم، إذاً هذا إيمان المنافقين، فالمنافقون:

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ)

[سورة البقرة: 14-15]

هؤلاء:

(الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ)

لم يدخل الإيمان في قلوبهم، إذاً هم كفار ولكنهم أذكياء، أرادوا أن ينتفعوا من صفات المؤمنين.

إيمان المنافقين :

قال تعالى:

(الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا)

المنافقون كفار في الحقيقة، إن المنافقين هم الكافرون، لكنهم كفار أعلنوا الإسلام تحقيقاً لمصالحهم، لذلك مكانهم يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار، ذلك لأن الكافر واضح، وأحياناً تحترمه لأنه واضح لم يكذب، قال لك: أنا لا أؤمن بالدين، بعيداً عن أن يكون كلامه صحيحاً أو خطأ فهو واضح، والمؤمن واضح، لكن المخيف هو المنافق، يقول ما تقول، ويفعل بعكس ما تقول، معك بلسانه، ومع الكفار بقلبه، يقول من قول خير المرسلين، ويفعل فعل أسوأ الشياطين، ومشكلة المسلمين في المنافقين، ونحن أيها الأخوة لا نخشى على الإسلام من أعدائه بل نخشى عليه من أدعيائه، لا نخشى عليه من الطرف الآخر، نخشى عليه ممن تلبسوا بالدين لأسباب دنيوية.

لذلك يقول الإمام الشافعي: لأن أتجر بالرقص أفضل من أن أتجر بالدين، أو لأن أرتزق بالرقص أفضل من أن أرتزق بالدين.

فهؤلاء الكفار الذين عاشوا مع النبي، والذين أبوا أن يؤمنوا به، ثم آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم، تحقيقاً لمصالحهم، أو تحقيقاً لمصالح الطرف الآخر، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

المؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة :

أنت إذا أتيت بمنشار وقدوم، وقطعت خشبة هل تسمى نجاراً، لا تسمى نجاراً، النجار الذي اتخذ النجارة حرفة، له خبرات متراكمة، الإنسان قد يسمع الكذب، المؤمن قد يكون في مكان فيسمع الكذب إلا أنه لا يقبله، فإذا استطاع رده، لكن المنافق من خصائصه أنه سماع للكذب، اتخذ من سماع الكذب صفة له، يستمع إلى الكذب، وينطق بالكذب، ويرحب بالكذب، ويروج الكذب، فالإنسان حينما يتخذ الكذب أداة يسمعه، يرحب به، يثني عليه، ينطق به، يعظم الكذابين، ويحقد على الصادقين، هذا إنسان عدو للدين، فهؤلاء الذين ينهى الله عز وجل نبيه أن يحزن من أجلهم، أو أن يحزن عليهم، أو أن يحزن خوفاً منهم، هؤلاء سماعون للكذب، والمؤمن يطبع على الخلال كلها، قد تجد مؤمناً عصبي المزاج، وقد تجد مؤمناً هادئ الطبع، وقد تجد مؤمناً اجتماعياً، وقد تجد مؤمناً يؤثر الوحدة على الاجتماع، وكل هذه الطباع مقبولة وعلى العين والرأس.

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[رواه أحمد بين الأعمش وأبي أمامة]

فهو لا يكذب ولا يخون:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ)

القوم الآخرون هم زعماء قريش؛ لكبرهم وغطرستهم واستعلائهم يتأبون أن يجلسوا بمجلس رسول الله، لكنهم يرسلون الجواسيس ليعلموهم ماذا يقول؟ فهؤلاء:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

للآية التالية عدة معانٍ :

أيها الأخوة، من معاني:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

أنهم يستمعون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهدفهم أن يكذبوا عليه، أن يحوروا كلامه إرضاء للطرف الآخر. في معنى آخر: هم يستمعون من أهل الباطل للكذب، ويثنون على الكذب. في معنى ثالث:

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ)

أي يستمعون من رسول الله لحساب قوم آخرين، القوم الآخرون دفعوهم إلى أن يستمعوا ليقفوا على دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وكلمة (سمّاعون) صيغة مبالغة أي أنهم ألفوا أن يستمعوا إلى الكذب، المؤمن قد يستمع إلى الكذب فيرفضه، لكن لا يسمى سماع، يسمى سامع، أما السماع هو الذي اتخذ من سماع الكذب خصيصة من خصائصه الثابتة:

(سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)

كبراً واستعلاء وغطرسة.

من صفات المنافقين أنهم لا يضعون الكلمة في مواضعها بل يزورون ويحرفون :

قال تعالى:

(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ)

يتلاعبون بالألفاظ، أي إذا قال الله مثلاً:

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾

[سورة النساء: 43]

يكتفون بقوله لا تقربوا الصلاة، وإذا قال الله عز وجل:

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

[سورة الحجر: 99]

يفسرون اليقين لا على ما فهمه أصحاب رسول الله، بل على مزاجهم، ما دمت قد تيقنت من إيمانك فقد انتهت عبادة ربك، يستمعون للكذب من الكفار، ويثنون على الكفار، ويستمعون من رسول الله من أجل أن يكذبوا عليه، ويستمعون لحساب قوم آخرين مستكبرين لم يأتوا رسول الله:

﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾

لا يضعون الكلمة في مواضعها، يزورون، يحرفون:

﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾

فإذا كان الكلام قابلاً للتحريف فخذوه من رسول الله وحرفوه، وإن لم تستطيعوا تحريفه فاحذروا أن تنقلوه عن رسول الله، والكلام الذي لا يؤول قطعي الدلالة، هذا كلام إذا نقل قوَّى مركز النبي عليه الصلاة والسلام، فكل كلام واضح قطعي الدلالة ينبغي ألا تأخذوه، وألا تنقلوه، أما الكلام الذي يحتمل التأويل، ويحتمل التزوير فخذوا هذا الكلام، وغيروا مواضعه، وروجوه بين الناس.

الفتنة امتحان حيادي :

أذكر هنا قصة للتوضيح، مرةً قلت: إن الإنسان لو قبل المصحف من وجوهه الستة ولم يعمل بأحكامه لا ينتفع بهذا التقبيل، نقل أحدهم هذا الكلام، وقال: إن فلاناً يحرم تقبيل المصحف، أنا لم أحرم تقبيل المصحف، لكنني أشرت إلى حديث قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((ربَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

لا يحلُّ حلاله، ولا يحرِّم حرامه، فماذا تنتفع بأن يكون المصحف في صدر محلك التجاري، وأنت تكذب مع كل نفس؟ ماذا تنتفع بمصحف في مقدمة مركبتك، وأنت تتحرك لإيذاء الناس وللكذب عليهم ولابتزاز أموالهم؟ لذلك يمكن أن تقول كلمة لا شيء فيها إطلاقاً، لكنها تحرف، وتغير، وتؤول لا لصالحك، هذا كشاهد.

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ﴾

الحقيقة أن الفتنة ليست مخيفة إطلاقاً، الفتنة حيادية، قد تفتن فتنجح، قد تفتن بالمال، يؤتيك الله مالاً كثيراً، لكنك تحافظ على هذا المال، وتنفقه في وجوهه الشرعية، لا تستعلي به على الناس، تنفقه بكلتا يديك لكل مسكين ومحتاج، أنت فتنت بالمال فنجحت، وقد تفتن بالمال فلا تنجح، بل يدعوك إلى الاستكبار، وإلى البخل، وإلى أن تنفقه جزافاً على شهواتك، وإلى أن تمنعه في وجوه الخير، فالفتنة امتحان حيادي، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

هكذا شاءت حكمة الله.

العبرة لا بالفتنة بل بنتائج الفتنة :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت: 2]

فلا بد من أن تفتن، إلا أن المعنى الذي يفهمه العامة من كلمة فتنة أن تدمر فلاناً، فتن فدمِّر، لا، فتن أيْ امتحن فقط، والعبرة بالنتيجة، قد تنجح وقد لا تنجح، سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ألم يفتن بامرأة العزيز؟ هل نجح أم رسب؟ نجح، قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[سورة يوسف: 23]

لم يرسب، وآلاف الشباب يكونون في موقف مشابه لهذا النبي الكريم فيفتنون ويقترفون الفاحشة، فالعبرة لا بالفتنة، بنتائج الفتنة، إذا نجحت فهذا نجاح كبير، الله عز وجل خاطب سيدنا موسى فقال:

(وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً)

[سورة طه: 40]

فامتحنا ما في نفسك، الله عز وجل يفتن عباده كل دقيقة، وكل ساعة، وكل يوم، وكل شهر، إن آتاك المال فتنك به، وإن حرمك منه فتنك، هل تصبر؟ هل ترضى بقضاء الله؟ إن قوى الكافر يفتنك بهذا، هل تقول أين الله، أم تقول: حسبي الله، ونعم الوكيل؟ فقد يقوي الكافر، وقد يقوي المؤمن، وقد يعطي، وقد يمنع، وقد يرفع، وقد يخفض، وقد يعز، وقد يذل، وقد يبسط، وقد يقبض، هذه كلها فتن، لذلك حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

الأصل في الدنيا أنها دار امتحان :

المرأة الكاسية العارية في الطريق أليست فتنة؟ إما أن تغض عنها البصر فترقى، وإما أن تملأ عينيك من محاسنها فتفتن فتسقط، المال الحرام إما أن تأخذه فتسقط، وإما أن ترفضه فترقى عند الله:

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

أنت يا محمد لا تستطيع أن تحول بين الله عز وجل وبين امتحان عباده، لأن أصل الدنيا دار امتحان، الأصل في الدنيا أنها دار امتحان:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون: 30]

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

[سورة الملك: 2]

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

الحقيقة هذه الآية تحتاج إلى شرح بسيط، هذا الطالب الذي هو في الجامعة، والذي لم يحضر درساً واحداً، والذي لم يقدم الامتحان، ولم يداوم، ولم يعتبر، أرسلت بطاقات الإنذار، أرسل له من يقنعه بمتابعة الدراسة، شدد عليه، هدد، رغب، لم يتأثر، ولم يستجب، ولم يعتبر، ولم يأتِ إلى الجامعة، ولم يقرأ، ولم يتصل بأستاذ، هذا ماذا أراد؟ أراد ألا يتابع الدراسة، الآن الإدارة لها موقف من هذا الطالب، تريد الإدارة أن ترقن قيده، وأن تفصله من الجامعة، فإرادة إدارة الجامعة هي في الحقيقة تجسيد لإرادة الطالب.

من أراد الدنيا لا يستطيع أحد أن يقنعه بالدين لأنه اتخذ قراراً بدائياً برفض الدين :

إذا قال الله عز وجل:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ)

لأنهم ما أرادوا تطهير قلوبهم، هذا شيء واضح تماماً، إنسان لا يعنيه إلا المال، لا يعنيه إلا المرأة، لا يعنيه إلا الشهوة، لا يعنيه إلا العلو في الأرض، مهما حدثته عن الدين، وعن كتاب الله، وعن سنة رسول الله، وعن أصحاب رسول الله، وعن الآخرة المديدة التي فيها ما لا عين رأت، هو ليس معك إطلاقاً، هذا الإنسان لا تستطيع قوى الأرض أن تقنعه بالدين، لأنه اتخذ قراراً بدائياً برفض الدين من الداخل، فانتهى الأمر، هذا معنى قوله تعالى:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

في الدنيا، لأنهم ابتعدوا عن الله عز وجل سقطوا من أعين الله، وأراد الله تأديبهم، إما بعذاب مهين، وإما بعذاب أليم، وإما بعذاب عظيم، فإذا أصروا على كفرهم، وانتقلوا إلى الدار الآخرة كان الجحيم منتهاهم.

أيها الأخوة: الآية:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (23- 49): تفسير الآيات 42-43 ، سمات أهل الكتاب سمّاعون للكذب أكّالون للسحت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان المعرض عن الله فيه صفتان جامعتان مانعتان أنه سَمَّاعٌ للكذب أَكَّالٌ للسحت:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والأربعين، وهي قوله تعالى:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هؤلاء الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وصفهم القرآن الكريم بقوله:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء: 159]

وصف بعضهم بأنهم:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

الإنسان المعرض عن الله عز وجل هو الذي يتبع هوى نفسه، وما من صفتين ألصق به من هاتين الصفتين، أنه سَمَّاعٌ للكذب، أَكَّالٌ للسحت، وفي اللغة العربية دقة بالغة في بناء الكلمة، فكلمة:

(سَمَّاعُونَ)

جمع سَمَّاع، والسَمَّاعٌ صيغة مبالغة من سامع، فهناك فعل سمع، واسمع الفاعل سامع، وصيغة المبالغة من اسم فاعل سماع.

الذي يستمع لينقل وكأنه يتجسس هذه صفة المنافقين وصفة البعيدين عن الدين :

هناك آكل، وهناك أَكَّالٌ:

(أَكَّالُونَ)

جمع أَكَّالٍ، السماع ليس الذي يسمع لمرة واحدة، فأي واحد منا قد يكون في مكان ويقال فيه كلام ليس صحيحاً، وكأنه سمع كذباً، لكن لأنه ليس مكلفاً أن يكون إقراره تشريعاً كما هي حالة النبي عليه الصلاة

والسلام، وقد يكون من الحكمة أن يسكت أو أن ينطق بالحق، على كلٍ ما منا واحد إلا وكان في مجلس ما وقد ألقى أحدهم كلمة كذب، كلمة نفاق ليست صحيحة، هذا اسمه سامع، ولكن الذي اتخذ سماع الكذب ديدنه، يسمع الكذب، ويروج للكذب، ويقبل الكذب، وينطق بالكذب فهو سَمَّاعٌ، والذي ينبغي أن يكون معلوماً لديكم أن الكذب يتناقض مع الإيمان، ومعنى كلمة يتناقض أي أن الكاذب ينفي عن نفسه الإيمان دون أن يشعر، لأن المؤمن لا يكذب، بل إن المؤمن:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

لمجرد أن يكذب أو أن يخون فليس مؤمناً، فالذي يسمع الكذب مرةً واحدة، والحكمة تقتضي ألا يرد عليه لأسباب كثيرة، أو يرد عليه فهو في الحقيقة سمع الكذب، ولكن الذي يتخذ سماع الكذب ديدنه، وقبول الكذب ديدنه، وترويج الكذب ديدنه، بل الذي يستمع لينقل، وكأنه يتجسس، فهذه صفة المنافقين، وصفة البعيدين عن الدين:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

أي الكسب الحرام، ويسمى في المنهج الإلهي سحتاً، فالذي يأكل المال الحرام غصباً، أو اختلاساً، أو سرقة، أو خطفاً، أو احتيالاً، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الاحتكار، أو عن طريق الكذب، أو عن طريق التدليس، أو عن طريق الغش، فهو كسب غير مشروع، وهو في المنهج الإلهي سحت، فهذا الذي بَعُد عن الله، ولم يعبأ بالآخرة، ولم يحرص على طاعة الله، وفسدت عقيدته، وانحرف سلوكه، ففيه صفتان جامعتان مانعتان، أنه سَمَّاعٌ للكذب، أَكَّالٌ للسحت.

وُصِف الإنسان في آخر الزمان بأنه أعور دجال :

أيها الأخوة الكرام: لو أردت صفة جامعة مانعة للمؤمن فهي الصدق، فهو يصدق ولا يكذب، ولا تأخذه في الله لومة لائم، بل إن المؤمن إذا كان من خصائصه الثابتة أنه صادق فهذا في الدعاة إلى الله من باب أولى، لأن الله سبحانه وتعالى حينما وصف الدعاة إلى الله قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة الأحزاب: 39]

لمجرد أن تخشى غير الله فتسكت عن الحق خوفاً أو إرضاءً، وتنطق بالباطل خوفاً أو إرضاءً فقد انتهت دعوتك، ويمكن أن نصف آخر الزمان بأنه عصر الكذب، فكل ما يقال يفعل عكسه، والإنسان بذكائه يستطيع أن يقول كلاماً يرضي من حوله، ولكن المعول عليه فعْله، وقد وصف الإنسان في آخر الزمان بأنه أعور دجال، أي يرى الدنيا ولا يرى الآخرة، يرى مصلحته ولا يرى مصالح الآخرين،

يرى حظوظه ويمنع الآخرين من حظوظهم، يرى وجوده ويحب أن يلغي وجود الآخرين، يعتز بمبادئه ولا يعتز بالحق الذي مع الآخرين، هذا اسمه أعور، أما أنه دجال فلأنه يتكلم كلاماً أحلى من العسل، وله فعل أمرٌّ من الصبر، هذه المفارقة الحادة في شخصية الإنسان الشارد عن الله، فهو أعور دجال، وسماع للكذب، أكال للسحت، وهي صفة البعيدين عن الله عز وجل، وقد تلبَّس بعض الذين كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب بهاتين الصفتين:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

المهم أن يأخذ المال، ولا يعبأ أمن حلال هو أو من حرام، المهم أن يعيش حياةً مرفهة، ولا يهتم كثيراً بأنه بنى حياته على أنقاض الآخرين، أو بنى غناه على فقرهم، أو بنى عزه على ذلهم، أو بنى أمنه على خوفهم، المهم أن يحيى حياةً تروق له من دون مبادئ.

لكل عصر سمة وسمة عصرنا المصالح لا المبادئ :

لذلك أيها الأخوة، العصور التي مرت بها البشرية متنوعة، ففي حقبة من الحقب كانت مبادئ الأمة الإسلامية هي التي تحكم، فلما جاء ملك الغساسنة إلى سيدنا عمر، وطاف حول الكعبة، وداس أعرابي من فزارة طرف ردائه، فانخلع عن كتفه، فالتفت نحوه، وضربه ضربة هشمت أنفه، فهذا الإنسان اشتكى لسيدنا عمر، اشتكى على من؟ اشتكى على ملِك، سيدنا عمر جاء به، وصاغ بعض الشعراء المعاصرين هذا الحوار شعراً، قال له عمر: أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ قال: لست ممن يكتم شيئاً، أنا أدبت الفتى، أدركت حقي بيدي. قال: أرض الفتى، لا بد من إرضائه، مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك. قال: كيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ هو سوقة، وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً. فقال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية قد دفناها، وأقمنا فوقها صرحاً جديداً، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً. فقال جبلة: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني. فقال: عنق المرتد بالسيف تجز، عالم نبنيه، كل صدع فيه بشبا السف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى.

في هذه الحقبة كان أثمن شيء فيها المبدأ والآن نضحي بأكبر إنسان من أجل المبدأ، وها قد ضحى سيدنا عمر بجبلة وقد ارتد عن إسلامه وفر إلى بلاد الشام من أجل المبدأ.

في عصر آخر كان التركيز على شخص لا على مبدأ، فالحق ما نطق به، والباطل ما لم ينطق به، وإشارته توجيه، وحركته توجيه.

في حقبة أخرى، التركيز على الشخص، لكن لو سألت هذا العصر الذي نحن فيه: ما سمته الأساسية؟ المصالح، تداس المبادئ كلها من أجل المصالح، وهؤلاء الذين رفعوا شعارات رائعةً في العالم الغربي كأن تقول: حرية الإنسان، كرامة الإنسان، كفاية الإنسان، تكافؤ الفرص، الديمقراطية في المجتمع، مثلاً، حينما هددت مصالحهم تنكروا لها، وضربوا بها عرض الحائط، وانقلبوا إلى وحوش كما ترون. إذاً نحن في عصر المصالح، لا في عصر المبادئ، يمكن أن تتغير بألف لون ولون من أجل أن تحرص على مكاسبك، فلذلك هؤلاء الذين ذمهم الله عز وجل قال عنهم إنهم:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

يستمع إلى الكلام الكاذب، يرضى به، يقبله لأنه يحقق مصالحه، يروجه لأنه يحقق مصالحه، يثني على الكاذب، ويمدحه مدحاً فيه إفراط لأنه يحقق مصالحه، فلذلك المصلحة أولاً، والكذب وسيلة لتحقيق المصلحة.

الصادق الذي يعبأ بطاعة الله والإخلاص له يخضعه الله لقانون العناية الإلهية :

الإنسان كما قال بعض المفكرين: يستطيع أن يخدع بعض الناس لكل الوقت، أو أن يخدع كل الناس لبعض الوقت، أما أن يستطيع أن يخدع كل الناس لكل الوقت فهذا مستحيل، والله عز وجل يقول:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران: 179]

لا بد من أن يكشف الإنسان.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

[سورة العنكبوت:2- 3]

فالآية أيها الأخوة، تصف هؤلاء أنهم سماعون للكذب، والإنسان حينما يكذب يتوهم أنه يكسب، أو أنه يزداد في مكانه قوة، أو أنه يبعد نفسه عن قسوة أعدائه، هذه القواعد استنبطت من حركة الحياة، لكن الإنسان حينما يصدق، ولا يعبأ بهذه القوانين التي استنبطت، بل استنبطها الناس من حركة الحياة، ويعبأ بطاعة الله والإخلاص له، هذا الإنسان الصادق الذي أثار حفيظة من حوله بصدقه يخضعه الله لقانون لا يعلمه معظم الناس، إنه قانون العناية الإلهية، وقد ذكرت مرة أن أحد كبار التابعين، وهو الحسن البصري قام بأمانة التبيين التي كلف الله بها العلماء، وميز بعض النقاط السلبية في حياة الحَجاج، ولما بلغ الحجاج مقالة الحسن البصري غضب أشد الغضب، وأرغى، وأزبد، وقال لمن حوله: واللهِ يا جبناء لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، وكان قتل الرجل عند الحجاج أهون من قتل حشرة، جاء بالسياف،

وجيء بالحسن البصري، فلما دخل على مجلسه، ورأى السياف مستعداً لقطع رأسه، وأن النطع قد مد على الأرض حرك شفتيه، ولم يفهم أحد ماذا قال، فلما دخل على الحجاج وقف له، وقال: أهلاً بأبي سعيد، أنت يا أبا سعيد سيد العلماء، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه في موضوع، وأكرمه، وضيفه، وشيعه إلى باب المجلس، الذي صعق السياف والحاجب، تبعه الحاجب، وقال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت وأنت داخل؟ قال: قلت: يا مؤنسي في وحشتي، يا ملاذي عند كربتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

المؤمن لا يكذب ولا يخون :

إذاً أنت حينما تصدق، وقد يكون الصدق ضاراً بك بمقاييس أهل الأرض، وقد يكون الصدق مهدداً لمصالحك بمقاييس أهل الأرض، وقد يكون الصدق أحياناً مدمراً لك بمقاييس أهل الأرض، يخضعك الله لسلسلة قوانين أنا أسميها قوانين العناية الإلهية، هذه تقلب كل الموازين. لذلك المؤمن لا يكذب، قد تجد مؤمناً حاد الطبع، وقد تجد مؤمناً لين الطبع، وقد تجد مؤمناً متفاعلاً مع من حوله، وقد تجد مؤمناً منزوياً، وقد تجد مؤمناً كثير الأناقة، وآخر أقل أناقة، وقد تجد مؤمناً كثير الإنفاق، مؤمن أقل إنفاقاً، هذه كلها طباع مقبولة عند الله عز وجل، ولكن المؤمن لا يكذب، ولو كان الثمن باهظاً:

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فهو ليس كاذباً، كثيرو الكذب، وسماع في اللغة صيغة مبالغة اسم الفاعل تعني شيئيين؛ الكم والنوع، قد يروج أكبر كذبة، وقد يروج مليون كذبة، إما نوعاً أو كماً:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ)

لو ألغي الكذب من حياتنا لحلت معظم مشكلاتنا، قال قاتل أخ سيدنا عمر: يا أمير المؤمنين: أتحبني؟ قال: والله لا أحبك، قال: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، قال: إذاً يأسف على الحب النساء.

سيد الخلق وحبيب الحق، يسأل عمر: كيف أصبحت يا عمر؟ قال: أصبحت أحبك أكثر من أهلي وولدي ومالي إلا نفسي التي بين جنبي، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد أكبر فيه هذه الصراحة التي ليس فيها كذب أبداً، قال: لما يكمل إيمانك يا عمر، وفي لقاء آخر قال: يا رسول الله أنت اليوم أحب إلي من أهلي وولدي ومالي ونفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر.

صفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع صادق ورع :

أحد أصحاب رسول الله، وقد يكون أقلهم شأناً صلى خلف النبي، صلى الظهر ركعتين، اسمه ذو اليدين، قال: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: كل ذلك لم يكن، فأصر، وقال بعضهم: قد كان، فسأل النبي أصحابه فإذا قد صلى ركعتين فعلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما نُسّيت كي أسن.

صفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع صادق، وصفة المجتمع المؤمن أنه مجتمع ورع، يركل بقدمه مئات الملايين إذا كانت حراماً، أو إذا كان فيها شبهة، فهات ورعاً وصدقاً، وخذ نصراً وتأييداً، أما إذا فهمنا الدين عبادات تؤدى أداء أجوف، وأفعالنا كذب بكذب، وانحراف بانحراف، فأنى نطمع أن ننتصر على أعدائنا؟

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ)

هم عندهم التوراة، وعندهم الإنجيل، وفيها حكم الله، ولكن حكم الله للزاني في التوراة والإنجيل هو الرجم، مع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعبؤوا بها، وكذبوها، ولكن لعل عند رسول الله حكماً ليس في مستوى الرجم، هم يعبدون مصالحهم، مع أنهم يملكون كتاباً سماوياً فيه حكم الزنا، والحكم واضح جداً، إنه الرجم للمحصن طبعاً، جاؤوا النبي ليسألوه عن حكم الزنا، فإن جاء بحكم ملطف يتوافق مع مصالحهم ويعينهم على اقتراف شهواتهم وانحرافاتهم قبلوا به، مع أنهم كفروا به كرسول، وقبلوا بحكمه كمفتٍ، قال:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ)

أنت مخير، لا تلام إذا حكمت بينهم، أو أعرضت عنهم، لأنهم ما أرادوا الحقيقة، أرادوا حكماً يتوافق مع مصالحهم، أرادوا حكماً يتمشى مع أهوائهم، هم لا يطلبون الحقيقة ولو كانت مُرّة، هم يطلبون حكماً مخففاً يدغدغ شهوتهم، قال تعالى:

(جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

إن شئت فاحكم، ولست ملاماً، وإن شئت لا تحكم، فلست ملاماً أيضاً:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ)

من أراد أن ينطق بكلمة الحق فالله معه :

أيها الأخوة، كلام دقيق جداً:

(فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

في موضوع ما، وعندهم التوراة والإنجيل، وفيها حكم الله، إذاً لماذا جاؤوك مع أنهم لم يؤمنوا بك، ولم يصدقوك، ولم يقبلوا أنك نبي، لأنهم أرادوا حكماً على أهوائهم، فإن جاء حكم وفق أهوائهم ممن يكذبون به قبلوه، إذاً هم يعبدون أهوائهم، يعبدون مصالحهم، وهذا نمط شائع في العصر الحديث، العبرة أن يحقق شهوته، وأن يسعى إلى مصلحته، من أي طريق، وبأي عقيدة، وبأي مذهب، المذهب في خدمة المصلحة، والاعتقاد في خدمة المصلحة، هذا شأن إنسان الشهوة، لذلك هناك عبد الشكر، وجمعه عباد، وعباد الرحمن، وهناك عبد القهر وجمعه عبيد، هو عبد لشهوته، وعبد لمصلحته، وعبد لملذاته، فأينما تحققت فهو مع الذي يحققها له، هذه سمة العصر. قال عز وجل:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ)

لو أنك رفضت حكمهم اطمأن فلن يصلوا إليك، الأمر بيد الله، وإن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً)

والله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده، فلا تخش في الله لومة لائم، ولا تحمل نفسك على مجاملتهم خوفاً منهم، إنهم لن يضروك، هذا قانون إلى يوم القيامة، إن أردت أن تنطق بكلمة الحق فالله معك.

الله مع المؤمنين بنصره وتوفيقه وتأييده وحفظه :

وقف موسى عليه السلام أمام أكبر طاغية في العالم.

(قَالَا رَبَّنَا)

[سورة طه:45]

كبشر:

(رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى* قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه:45- 46]

وفي اللحظة التي ترى أن الله معك، وأنه يحفظك، وأنه يؤيدك، وأنه يوفقك، وأنه ينصرك، ويثبت قلبك، وهو معكم بعلمه، لكنه مع المؤمنين بنصره، وتوفيقه، وتأييده وحفظه:

(وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ)

أنت مخير:

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)

أي:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة المائدة:8]

اعدل مع من تبغض، اعدل مع الطرف الآخر، اعدل مع من يكيد لك.

الله عز وجل هو العدل وكل من طبق العدل في حياته أحبه الله :

قال تعالى:

(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

[سورة المائدة: 8]

أقرب إلى طاعة الله، وإنك بالعدل مع الطرف الآخر تقربه إلى الله، وإنك بالعدل مع الطرف الآخر تقربه إلى ذاتك، أما إذا ظلمته فضِفْ إلى عداوته لك عداوة جديدة، أما إذا ظلمته فيضاف إلى كرهه لك كرهاً، أما إذا ظلمته فسيضيف هذا الظلم إلى حقده عليك حقداً جديداً:

(فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

الله عز وجل هو العدل، وكل من طبق العدل في حياته أحبه الله، أما الظالم فينتظره يوم القيامة ظلمات بعضها فوق بعض، الظلم ظلمات يوم القيامة، لذلك أنت لست قاضياً، أنت مهندس، مدرس، تاجر، بائع، لكنك شئت أم أبيت تعد قاضياً في آلاف الحالات وأنت لا تشعر، أنت قاضٍ بين أولادك، أنت قاضٍ بين أصهارك، أنت قاضٍ بين زوجتك وبين نفسك، أنت قاضٍ بين زوجة ابنك وابنتك، هل تحكم بالعدل بينهما؟ أنت قاضٍ في عملك، هل تنصف الموظفين؟ أم الذي يحابيك تعطيه ما لا يستحق، وأما الذي يحترمك من دون أن يخضع لك، ويتملق لك تسحقه، شئت أم أبيت، تقف في اليوم الواحد عشرات المرات موقف القاضي، لذلك المؤمن يحكم بالعدل. قال النعمان بن البشير:

((اشهد يا رسول الله أن نحلت ابني حديقة، قال عليه الصلاة والسلام: ألك ولد غيره؟ قال: نعم، قال: أنحلتهم كما نحلت ابنك هذا؟ قال: لا، قال: اشهد غيري، فإني لا أشهد على جور))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

أنت مكلف بالعدل بين أولادك، بين بناتك، بين أصهارك، بين جيرانك، بين زملائك، بين أصدقائك.

أهل الكتاب يصدقون بأن محمداً نبياً فيما بينهم وبين أنفسهم :

أيها الأخوة الكرام: آية دقيقة جداً، هؤلاء الذين أعرضوا عن الله:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

أي لمَ يحكّموك:

(وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ)

عندهم كتاب يدعون أنه كتابهم، إنه كتاب من عند الله عز وجل، لماذا يرفضون حكم الله في كتابهم، ويبحثون عن حكم من إنسان لا يصدقونه نبياً؟ إذاً هم يصدقونه نبياً فيما بينهم وبين أنفسهم.

الذي يتقلب بين الحكم الشرعي وحكم القانون مراعاةً لمصالحه قطعاً لا يعبد الله :

قال تعالى:

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

أي لا يقبلون حكم الله، هم أرادوا حكماً يتوافق مع مصالحهم، فلما جاء حكم النبي بأن الزاني يرجم ما استفادوا شيئاً، لذلك:

(وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

[سورة التوبة: 76]

قال سبحانه:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

نحن في حياتنا اليومية كم من مسلم له مشكلة لا تحل إلا عند العلماء؟ القوانين لا تحلها، ولنضرب على ذلك مثلاً قضية الإيجار، فقبل صدور القانون الجديد هذه القضية لا تحل في القانون، المستأجر ملك البيت، يأتي هذا الإنسان الذي له بيت مؤجر إلى العلماء، يا سيدي أريد حكم الله، أنا أريد الشرع، يقول كلاماً رائعاً، لأنه يعلم في أعماقه أن هذا البيت لا سبيل إلى استرداده بحكم قضائي، أما إذا كانت القضية محرمة عند العلماء كقضية إيداع المال بالبنوك، يا أخي نحن عندنا قوانين، أجبرونا على ذلك، لماذا في موضوع تلجأ إلى العلماء وفي موضوع تلجأ إلى القوانين؟ هو يعبد مصلحته، فإن تحققت عند العلماء لجأ إليهم، وإن تحققت في المحاكم لجأ إلى المحاكم، قد يقول واحد منهم: نحن نعيش في بلد لها قوانين، والقوانين هي الأصل في التعامل، وقد يكون القانون غير منصف أحياناً، فأنت مع مصلحتك إن

كانت قانوناً أو شريعة، إذاً أنت في الحالتين لا تعبد الله، ولست مواطناً صالحاً، إنك تعبد مصلحتك وشهوتك، والمال الذي تراه هو كل شيء في الحياة.

حقيقة هذا الدين خضوع لأمر الله لا أن تخضع خضوعاً انتقائياً فهذا ليس من الدين :

هذه حالة بشرية موجودة، أنت مع المصلحة:

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

الآن لو نشب خلاف بين زوج وزوجة في بلاد الغرب، لا تلجأ الزوجة المسلمة إلى الحكم الشرعي الذي يعطيها المهر فقط، بل تلجأ إلى قاضٍ غربي ليعطيها نصف أملاك زوجها، ترفض حكم الشرع الإسلامي وهي مسلمة، وتطلب حكم الغرب في بلادهم، لأن حكم الغرب يعطيها نصف أملاك زوجها، فهذا الذي يتقلب بين الحكم الشرعي، وحكم القانون مراعاةً لمصالحه قطعاً لا يعبد الله:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

إنما يعبد مصلحته من دون الله، أحياناً في قوانين الإرث يعطى للذكر مثل الأنثى بقانون قديم توارثناه من الحكم العثماني، في الأراضي الأميرية، فالذي يعبد الله لا يقبل إلا أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والذي يعبد مصلحته يقول: لا، هذا حكم، هذا قانون، هذا قضاء، أنا لا أتراجع، ولا أتنازل عن حقي. إذاً هناك من يعبد نفسه من دون الله، وهناك من يعبد الله، وحقيقة هذا الدين خضوع لأمر الله، لا أن تخضع خضوعاً انتقائياً، الخضوع الانتقائي ليس من الدين، هؤلاء الذين ذمهم الله عز وجل يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، فالأحكام التي تتوافق مع مصالحهم يقبلونها، والأحكام التي تتناقض مع مصالحهم يرفضونها، تصف الآية الكريمة من كانوا حول النبي من أهل الكتاب، أو تصف بعض من كانوا حول النبي من أهل الكتاب:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (24- 49): تفسير الآية 44، التشريع الإلهي والكتب السماوية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-03-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

لكل قوم هاد لأن طبيعة الحياة من قبل لم يكن فيها تواصل بين الأمم والشعوب:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أيها الأخوة، طبيعة الأمم والشعوب قديماً أن كل قوم مستقل عن القوم الآخر، ليس هناك تواصل، لذلك جعل الله لكل قوم هاد، وقد يتعاصر الأنبياء، لأن كل نبي لقوم، ولأن كل قوم لهم مشكلات، ولهم سقطات، ولهم زلات، ولهم مخالفات، فالنبي الذي يرسل الله لقوم يرسله ليعالج مشكلات هؤلاء بالذات وتحديداً، فلكل قوم هاد، طبيعة الحياة من قبل لم يكن فيها تواصل بين الأمم والشعوب، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

الهدى: هو الطريق إلى الله عز وجل. والنور: هو النور الذي يضيء الطريق. وشيء طبيعي جداً أننا إذا شققنا طريقاً لا بد من أن ننوره، فقد يعبَر الطريق ليلاً ونهاراً، فتنوير الطريق من لوازم شقه، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه رسم طريقاً إليه، وأنه نوّره بنوره، ففي حياة الإنسان طريق يستوعبه بفكره، ونور يقذف إلى قلبه، فهناك معالم للطريق، وهناك نور يقذفه الله في قلب المؤمن يهتدي به في الطريق إذا أظلمت الأمور، لكن هذه التوراة كما قلت قبل قليل متعلقة ببني إسرائيل، باليهود حصراً.

من لوازم كمال الله عز وجل أنه خلق كل شيء فأحسن خلقه:

قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

أولاً: لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا لنعرفه، وخلقنا لنعبده، ولا بد من أن ينزل كتباً، وأن يرسل رسلاً، هذه حقيقة. لكن الإنسان حينما يغفل عن الله عز وجل، حينما لا يتبع طريق الهدى، وحينما يعمى قلبه فلا يستنير بنور الله، يضل سواء السبيل، وقد قال الله عز وجل:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

هذا الكون يدل على عظمة ما بعدها عظمة، يدل على علم، وعلى حكمة، وعلى رحمة، وعلى لطف، فكل أسماء الله الحسنى يشفّ عنها الكون، كمال الخلق يدل على كمال التصرف، وكمال الخلق يدل على كمال التشريع.

من لوازم كمال الله عز وجل أنه خلق كل شيء فأحسن خلقه، ولا يعقل، ولا يقبل أنه ترك خلقه معطلين عن التوجيه وعن الإرشاد، لذلك بعثة الأنبياء متواصلة، وإرسال الرسل متواصل، وإنزال الكتب متتابع، لأن الله سبحانه وتعالى خلقنا لنعرفه، وخلقنا لنعبده، وخلقنا لنسعد به في الدنيا والآخرة، وبشكل مبسط جداً لا يمكن لأب على وجه الأرض جالسٍ في غرفة الجلوس وابنه يقترب من المدفأة دون أن يقول كلمة، أو أن يتحرك، لأن من لوازم الرحمة أن ترشد الضال، ومن لوازم الرحمة أن تربي الذي شرد عنك.

الله عز وجل ألزم نفسه ذاتياً بهداية الخلق:

إذاً: أن يرسل الله رسلاً، وأن يبعث أنبياء، وأن ينزل الكتب، هذا شيء يتناسب مع كماله، ومع علة وجودنا، أوجدنا الله كي نعرفه، إذاً يقول الله عز وجل:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

وكلمة (على) إذا جاءت مع لفظ الجلالة تعني الإلزام الذاتي، أي أنّ الله عز وجل ألزم نفسه ذاتياً بهداية الخلق:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

وفي آية ثانية:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

أي: وعلى الله بيان سبيل القصد.

الإنسان إذا شرد عن الله عز وجل يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة:

قال تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال: 23]

أنت مطلوب شئت أم أبيت، بل إن هدايتك ليست صدفة، إنها فعل إلهي مقصود لذاته، أراد الله أن يهديك، لذلك نصب لك هذه الآيات في الكون، هو طريق إليه، منحك عقلاً متوافقاً مع الكون، أنزل كتباً فيها إعجاز، أرسل أنبياءً جعلهم معصومين، أرسل رسلاً حملهم أمانة لينقلوها للناس، هذه كلها سبل الهداية، ثم تولى الله تربيتنا مباشرةً، فالإنسان إذا شرد عن الله عز وجل يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، تاب الله عليهم ليتوبوا.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ*الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ*أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة: 155-157]

إن دخلت إلى مسجد، ورأيت جمعاً غفيراً فاعلم علم اليقين أن هؤلاء جميعاً قد وفَّر الله لهم تربية عالية جداً، ساق لهم بعض الشدائد، رغبهم، خوفهم، جمعهم مع أهل الحق، أسمعهم كلمة الحق، أنت مطلوب لمعرفة الله، مطلوب لعبادته، مطلوب كي يرحمك الله عز وجل، وهذا هو الحق.

المعنى الواسع والضيق للإسلام:

إذاً: هذه الآية:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)

التوراة في الحقيقة طريق إلى الله واضحة المعالم كما قال الله عز وجل، وهذه الطريق منوّرة بنور الله، يحكم بها النبيون الذين أسلموا، والحقيقة أنه ما من نبي في القرآن الكريم، وما من رسول في القرآن الكريم إلا وَوُصِف بأنه مسلم، لو تتبعت أسماء الأنبياء جميعاً، وأسماء الرسل جميعاً في كتاب الله لوجدت أنه لا بد قطعاً وحصراً من أن يوصف النبي، وأن يوصف الرسول بأنه مسلم، ومعنى كونه مسلماً أنه استسلم لله، خضع لله، انصاع لحكم الله، هذا مفهوم الإسلام الواسع أن تنصاع لله، أن تستسلم له، أن تخضع له، أن تطيعه، أن تأتمر بما أمر، أن تنتهي عما عنه نهى وزجر، هذا المعنى هو معنى

الإسلام الواسع، معنى الإسلام الضيق هو بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، والوحي الذي نزل على قلبه، وهذا القرآن، هذا هو الإسلام بالمعنى الضيق، فكل مسلم، وكل رسول مسلم، وكل من اتبع رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم، واتبع قرآناً نزل على قلبه فهو مسلم بالمعنى الآخر.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا)

الدين واحد، والشرائع متعددة، وشرائع الأنبياء السابقين متعلقة بالظروف التي عاشوا بها، وبالمشكلات التي ألمت بأقوامهم، وبالمعاصي التي ارتكبوها، فأناس بخسوا المكيال والميزان لهم معالجة خاصة، وأناس أكلوا الربا لهم معالجة خاصة، لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ حصل بعد ذلك هذا التواصل بين الأمم والشعوب، هذا التواصل نقل كل المعاصي إلى كل الشعوب، هذا شيء واقع الآن، فالانحرافات الخطيرة في أقصى الدنيا تنتقل إلى كل أرجاء الدنيا عن طريق هذا التواصل الذي هو سمة العصر، فلأن هناك تواصلاً بين الأمم والشعوب، ولأن هناك علاقات مستمرة بين الأمم والشعوب اقتضى أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم محمد آخر الأنبياء والمرسلين، لأن رسالته سوف تعمَّم على كل الخلق أجمعين.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا)

الرباني هو الذي يتوخى مرضاة الله عز وجل في كل حركاته وسكناته:

كما قلت قبل قليل: هؤلاء الأنبياء لأقوامهم حصراً، ولكن:

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ)

من هو الربّاني؟ هو الإنسان الذي يتحرك من أجل ربه، بهدى من ربه، ومن أجل ربه، متوكلاً على ربه، محباً لربه، مهتدياً بهدى ربه، لذلك لأنه في كل شؤون حياته وفي كل حركاته وسكناته يتوخى مرضاة الله عز وجل، فسمي هذا الرباني، لعله ما من صفة يرتقي بها الإنسان كأن يكون ربانياً، كما يقال: فلان رباني، فلان شهواني، فلان شيطاني، فالرباني هو الذي يهتدي بهدي ربه، والذي ينصاع لأمر ربه، هو الذي يقبل على ربه، هو الذي يتوخى مرضاة ربه.

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

العلماء، وعلماء اليهود بالذات.

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ)

أيها الأخوة، هناك حقيقة دقيقة، وهي أن الأنبياء السابقين كانت الكتب التي أنزلت عليهم قد أوكل إليهم حفظها بأمر تكليفي، وكتبهم شيء والمعجزات شيء آخر.

ليست معجزات الأنبياء السابقين منطبقة على كتبهم:

ليست معجزات الأنبياء السابقين منطبقة على كتبهم. إن سيدنا عيسى عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام، معجزته إحياء الموتى وكتابه الإنجيل. سيدنا موسى معجزته العصا، وكتابه التوراة.

فالمعجزة ليست عين الكتاب، والكتاب ليس عين المعجزة، الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل أوكل حفظها إلى الأنبياء، وإلى الذين من بعدهم من المؤمنين، فالأنبياء قطعاً قاموا بحفظها، لكن الذين جاؤوا من بعدهم لم يحفظوها كما أراد الله عز وجل، لأنه أمر تكليفي، والأمر التكليفي غير الأمر التكويني، الأمر التكليفي يعصى، الأمر التكليفي قد لا يطبق، تماماً كما لو رأيت لوحةً كتب عليها: ممنوع المرور، على طريق، لكن الطريق مفتوح، وبإمكانك أن تخالف، وأن تسير، نقول: هذه اللوحة التي كتب عليها: ممنوع المرور، هذا أمر تكليفي، يطاع أو يعصى، أما إذا عصي هذا الأمر فهناك تبعات تلحق الذي عصى، لكن الأمر التكويني أن ترى أن الطريق مسدودة بمكعبات من الاسمنت المسلح، ارتفاع المكعب متران، هذا أمر تكويني، وليس أمراً تكليفياً. إلا أن الله جل جلاله لأن معجزة النبي هي القرآن اتحدت المعجزة مع الكتاب، فلأن النبي لا لقوم محددين، بل لكل الأمم الأرض مجتمعين، لذلك كانت معجزته وهي القرآن محفوظة بأمر تكويني من قبل الله.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

[سورة الحجر:9]

هذا يفسر أن الكتب السماوية السابقة أمر الأنبياء وأتباعهم من بعدهم بحفظها، فالأنبياء حفظوها، لكن أتباعهم لم يحفظوها، لأن الأمر بحفظها كان أمراً تكليفياً، بينما حفظ القرآن تولاه الله بذاته، قال:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

القرآن الكريم تولى الله حفظه بذاته بأمر تكويني:

لذلك الشيء الذي لا يصدق مع أن الناس تفلتوا من أحكام القرآن، لكنّ القرآن حُفِظ كما أنزل، وبأساليب وبأشكال لا تعد ولا تحصى، شيء يلفت النظر، ففي كل بلاد الأرض هناك طبعات من كتاب الله، بكل الأحجام والألوان والأشكال والتوضيحات والتيسيرات، ومطبوع بطرائق رائعة جداً، لأن الله تولى حفظه، تجد معظم الناس لا يطبقون أحكامه، ولكن إذا علم أن تغيراً طرأ عليه تقوم الدنيا ولا تقعد، فحفظ القرآن شيء يلفت النظر، تطبيقه شيء، وحفظه شيء آخر، لأن الله تولى حفظه، لا تجد في العالم الإسلامي احتمالاً طفيفاً أن تغير كلمة، أو أن يعدل حرف، بل إن هناك دراسات تتعلق بالحروف القرآنية، وبقضايا في الرياضيات بالغة الدقة تؤكد أنه لو بدلت حركة مكان حركة لاختل النظام

الرياضي للقرآن الكريم، هذا قد يكون نوعاً من أنواع الإحكام والإعجاز.

على كلٍ أن القرآن الكريم تولى الله حفظه بذاته بأمر تكويني، هذه قضية إيمانية فإذا ما آمن الإنسان بهذه الآية، وأراد أن يناقش القضية مناقشة عادية فقد لا يصل إلى نتيجة، لكن هذه القضية قضية إيمانية مسلم بها الإنسان أن الله تولى حفظه، وأن القرآن الذي نزل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، والذي قرأه الصحابة الكرام هو القرآن نفسُه الذي بين أيدينا، ودقة حفظه وضبطه شيء لا يصدق، في كل العالم الإسلامي إن هو إلا انعكاس لتولي حفظ الله له بنفسه. إذاً:

(يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

هذا منهج الله، وهذا منهج الحكيم، وهذا منهج الرحيم، وهذا منهج القوي، وهذا منهج من إليه المصير، لا تستحي بكتاب الله، هو المنهج القويم، لا تستح بآية يثار حولها جدل كبير، لا تستح بحكم شرعي ينتقده أعداء الدين:

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

اعتقد يقيناً أن هذا كلام الخبير، وأن هذا كلام العليم، وأن هذا كلام الرحيم، وأن كل ما يثار حول القرآن الكريم من أعداء الدين هي زوبعة في فنجان، أو هو نباح من حيوان، لا يغيِّر من واقع القرآن شيئاً.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه:

ما ضر السحابَ نبحُ الكلاب، وما ضر البحرَ أن ألقى فيه غلام بحجر، ولو تحوّل الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على هذا القرآن، ما أثاروه إلا على أنفسهم، ويبقى القرآن قرآناً هو كلام الواحد الديان.

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنَاً قَلِيلاً)

هناك من استحيا ببعض الآيات، خجل من بعض الآيات، فقال: هناك آيات ظالمة في القرآن الكريم، هكذا:

(فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ)

لأن الطرف الآخر يعيش للدنيا فقط، بينما ربنا عز وجل أراد لنا الآخرة، أراد لنا حياة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر:

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنَاً قَلِيلاً)

فالإنسان ـ للتوضيح فقط ـ حينما يكون معه شيك مصرفي بمليون من العملة الخضراء، ولا ينتبه إليه،

كتب على ظهره كلاماً لا طائل منه، ثم مزّقه، ولم ينتبه لقيمته، استخدم هذا الشك كورقة على ظهره، ولما انته من هذا الذي كتبه مزقه، وألقاه في المهملات، ماذا فعل هذا الإنسان؟ استخدم ورقة مالية قد تحل كل مشكلاته، وتجعله غنياً جداً، استخدمها كورقة بيضاء، أو كمسودة، ومزقها تمزيقاً تاماً، ثم اكتشف الحقيقة، هذا الذي اشترى بكلام الله ثمناً قليلاً، هذا الذي أفتى في كتاب الله بغير علم، أو أفتى بخلاف ما يعلم، هذا الذي اتخذ القرآن مطية إلى الدنيا، هذا الذي فسر القرآن ليرضي الأقوياء، أو ليحقق مصالحهم.

(وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

هذا الذي لا يعرف عظمة الله من خلال الكون، وبالتالي لا يعرف عظمة هذا القرآن، لأن الفرق بين كلام الله وكلام خلقه كالفرق بين خالق الأكوان وهذا الإنسان الضعيف، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه.

من لا يثق بتشريع الله وحكمه فهو كافر:

هذه الآية أيها الأخوة:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

حينما تعتقد أن حكماً أرضياً، وأن تشريعاً أرضياً هو أصوب من تشريع الله وحكمه فهذا كفر، وأيّ كفر، حينما لا تثق بتشريع خالق السماوات والأرض وتثق بتشريع إنسان ضعيف جاهل، له مصالح، بصره قاصر، حينما لا تثق بحكم الله عز وجل من فوق سبع سماوات، وتثق بحكم إنسان له مصالح وضعيف، رؤيته محدودة، فهذا نوع من الكفر وأيّ كفر:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أيها الأخوة، هذه الآية تبين أن النبوة في الأرض موجودة، لأن الله خلقنا لنعرفه، لكن كانت هناك مرحلة أقوام متباعدين، ولكل قوم هاد، ولكل قوم معجزة، وهي كعود الثقاب تألقت، ثم انطفأت، وأصبحت خبراً، وكان كل تشريع يعالج قضايا الأقوام الذين جاء التشريع من أجلهم، أما حينما كان التواصل بين الأمم والشعوب كما هي الحال الآن كان عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء، ولأنها اتحدت معجزته بكتابه، لذلك تولى الله بذاته حفظ كتابه بأمر تكوين لا بأمرٍ تكليف.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (25- 49): تفسير الآية 45-49، القصاص وحفظ القرآن من التغيير والتزوير.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-03-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

القاتل يبقى حياً والمقتول يبقى حياً حينما يشرع أن القاتل يُقتَل:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والأربعين، وهي قوله تعالى:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا)

أي شرعنا لهم. على أيّ كلمة تعود (فيها)؟ الآية التي قبلها:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ*وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا)

أي في التوراة.

(أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الله عز وجل يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

[سورة البقرة: 179]

أي إذا أيقن القاتل أنه سيُقتَل فلا يَقتُل، فإن لم يَقتُل بقي حياً، وإذا أيقن القاتل أن القتل ينتظره إذا قتل أبقى على من سيكون ضحيته حياً، فالقاتل يبقى حياً، والمقتول يبقى حياً، حينما شرع أن القاتل يقتل.

العالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين ولكن عن تحقيق لمصالحه:

أيها الأخوة، الإنسان أحياناً يجتهد، وقد يحاول أن يأتي بتشريع جديد، وحينما ألغي حكم الإعدام من بعض الدول تفاقمت الجرائم بشكل واضح جداً، فهذا يقتل عشرين شخصاً، وهذا عشرة، وهذا يدخل إلى مدرسة ابتدائية ويقتل معظم الطلاب، فحينما يكون السجن هو العقاب ففي السجن بقي الإنسان حياً، على

كلٍ هذا تشريع خالق الأكوان، الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الخبيرة.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

والعالم اليوم يقترب من الدين لا عن إيمان بالدين، ولكن عن تحقيق لمصالحه، لأن الذي خلق الإنسان هو أعلم به، أعلم بما يردعه، أعلم بما يمنعه، من أن يفعل كذا وكذا فالله عز وجل يقول:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ)

تقتل:

(بِالنَّفْسِ)

والقاتل يقتل، وأن العين تفقأ بالعين، وأن الأنف يجدع بالأنف، وأن الأذن تصلن بالأذن، وأن السن تخلع بالسن:

(وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

أي الجرح أيضاً يقتص به بجرح، لكن هذا الحكم حكم العدل، فأين الإحسان؟ والله عز وجل:

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل: 20]

من حكم الله أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول يجب أن يباشر القتل بيده:

من حكم الله عز وجل أن الذي قتل له إنسان هو ولي المقتول، يجب أن يباشر القتل بيده، لأن في هذا شفاء له، والإنسان حينما يملك أن يقيم حد القتل بيده قد يعفو، والحالات التي تنتهي بالعفو لا تعد ولا تحصى، حينما يشعر ولي القتيل أنه بإمكانه أن يقتص من قاتل ابنه، ويوضع الأمر بيده طبعاً برقابة وبضوابط كثيرة جداً كما هو مطبق في بعض البلاد الإسلامية، في الأعم الأغلب يعفو، لأنه حينما سلمناه أمر أن يأخذ بيده بالقصاص شفي صدره، بينما في بعض البلاد الأخرى التي يقتل فيها القتيل تثور الثارات بين أطراف الأسر، وقد لا تنتهي إلا بعدد كبير من القتلى، هذا شرع الله عز وجل:

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)

لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يدعونا إلى الإحسان، والقاعدة أيها الأخوة أن الله عز وجل حينما قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى: 39]

من صفات المؤمن أنه ينتصر:

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

[سورة الشورى: 40]

حينما يعفو صاحب الدم، ويغلب على ظنه أن عفوه يصلح من عفا عنه فينبغي أن يعفو، وعندئذٍ يتولى الله مكافأته.

العفو مشروع في الإسلام لكن إقامة العدل قسري والإحسان طوعي:

رجل من زعماء القبائل اسمه ثمامة، ألقي القبض عليه من قبل بعض الصحابة في سرية كانوا فيها، لكنهم قبضوا عليه ولا يعلمون من هو، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: ثمامة! قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا عندك؟ فقال ثمامة: إن تقتل تَقتل ذا دم ـ كان متورطاً بقتل بعض أصحاب رسول الله ـ إن تقتل تَقتل ذا دم، وإن تعف تعفُ عن شاكر، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، تركه النبي مقيداً، ومر به في اليوم التالي، قال: ما وراءك يا ثمامة؟ فقال: إن تقتل تَقتل ذا دم، وإن تعفُ تعف عن شاكر، وإن أردت المال فخذ منه ما تريد، في اليوم الثالث سأله النبي: ما وراءك يا ثمامة؟ قال: كما قلت البارحة، فعفا عنه النبي، فخرج، وعاد بعد قليل، يبدو أنه اغتسل، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم، وأعلن إسلامه، قال: يا رسول الله، والله ما كان من رجل أبغض إلي منك، والآن ما من رجل أحب إلي منك، وما كان دين أبغض إلي من دينك، والآن دينك أحب إلي من أي دين. العفو مشروع في الإسلام، لكن إقامة العدل قسري، بينما الإحسان طوعي، فالله عز وجل العدل:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾

أي له أن يقتل فعفا، وله أن يقتص لعين، أو لأنف، أو لأذن، أو لسن، فعفا، وله أن يقتص لجرح فعفا، فهذا الذي يعفو يكفر الله له من ذنوبه بقدر ما عفا:

﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ ﴾

وكأن العفو شيء يتصدق به:

﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام فهذا كفر:

لو استعرضنا أيها الأخوة هذه الآيات الثلاثة، الآية الأولى حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

أنت حينما ترد قضية عقدية، أو حينما ترد قضية من قضايا العقائد في الإسلام، حينما ترد ربوبية الرب العظيم، أو حينما ترد إلوهية الإله العظيم، أو حينما ترد كتاباً أنزله الله عز وجل، فهذا كفر:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

لكن حينما لا تقتص من القاتل، أو ممن تسبب فيه فقأ العين، أو جدع الأنف، أو صلن الأذن، أو خلع السن، أو إيقاع الجرح، فهذا ليس كفراً، ولكنه ظلم شديد:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

الذي يتميز به نبينا محمد أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه:

قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

سيدنا عيسى جاء بعد سيدنا موسى، معنى قفينا أي جاء بعده:

(مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ)

الإنجيل يصدق ما في التوراة، والقرآن يصدق ما في التوراة والإنجيل، لأن المصدر واحد، إلا أن الحقيقة التي ينبغي أن تكون واضحة جداً هو أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل قوم نبياً يوم كان التقاطع بين الأمم، أما حينما صار التواصل جعل نبياً واحداً، وجعله آخر الأنبياء لكل أمم الأرض.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ)

[سورة سبأ: 28]

لأن الله علم أنه سيكون ثمة تواصل بين بني البشر، الأرض الآن سطح مكتب، أي شيء يحدث في أطراف الدنيا يصلك بعد ثوانٍ من وقوع الشيء، يصلك صوتاً وخبراً وصورة، والأرض كلها في متناول يدك، إذاً الله عز وجل جعل نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته لكل الناس أجمعين، إلا أن الذي يتميز به النبي عليه الصلاة والسلام أن المعجزة التي جاء بها مطابقة للكتاب الذي أنزله الله عليه.

لكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي وجاء التشريع معالجاً لهذا النمط بالذات:

سيدنا عيسى معجزته إحياء الموتى، بينما الكتاب الذي بين يديه هو الإنجيل، وسيدنا موسى معجزته العصا، بينما الكتاب الذي بين يديه هو التوراة، هناك انفصال بين الكتاب والمعجزة، وسيدنا عيسى وسيدنا موسى كلفا، وكلف بالمقابل أتباعهما بحفظ التوراة والإنجيل بأمر تكليفي، لا بأمر تكويني، لذلك نفذ الأنبياء الكرام هذا الأمر، ولم ينفذه أتباعهم، فطرأ على التوراة والإنجيل تغيير وتبديل، وهذا ما جاء في القرآن الكريم، أما نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولن يأتي كتاب بعد القرآن يصحح التغيير الذي تم فيه كما كان في السابق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، ولأن كتابه الذي جاء به القرآن الكريم خاتم الكتب المنزلة، ولأن المعجزة هي نفسها الكتاب الذي جاء به، لذلك تولى الله حفظه بأمر تكويني، لذلك لا يمكن لأحد كائناً من كان إلى يوم القيامة أن يغير في القرآن حرفاً ولا حركةً، وذكرت لكم في الدرس السابق أن هناك دراسات متعلقة بنظم القرآن الكريم تؤكد أنه لو غير حرف واحد لفسد نظام القرآن كله:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)

أيها الأخوة، ما دام الأقوام في تباعد فقديماً كان لكل قوم مشكلات، قوم لوط عليه السلام انحرفوا في العلاقات المثلية، قومٌ آخرون بخسوا الكيل والميزان، قوم آخرون أكلوا أموال الناس بالباطل، فلكل قوم نمط من المخالفات والمعاصي، وجاء التشريع معالجاً لهذا النمط بالذات، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

[سورة الرعد: 7]

ويؤكده قوله أيضاً:

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)

جاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة وناسخاً لها يعالج قضايا البشر كافة:

إلا أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل:

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)

الهدى والنور في الإنجيل غير الهدى والنور في التوراة، لأن التوراة نظمت العلاقات المادية لليهود، فأصبحوا ماديين، إذاً هم بحاجة إلى شحنة روحية، فجاء الإنجيل بهدى ونور يختلف عن الهدى والنور الذي جاء به التوراة، هنا تنظيم علاقات مالي، هنا شحنة روحية، فجاء القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة، وناسخاً لها، يعالج قضايا البشر كبشر مجتمعين، ويعالج هذه القضايا إلى يوم الدين.

(وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

هناك ملمح لطيف جداً في الآية أن الإنجيل فيه هدى ونور:

(وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

لمن أراد أن يتقي الله عز وجل، هناك طلب أولي، أنت حينما تريد أن تتقي الله، حينما تريد أن تعرف الله، حينما تريد أن تطيع الله، حينما تريد أن تسأل: لماذا أنا في الدنيا؟ الآن أي شيء ينفعك، أية آية تدلك، أية موعظة تهزك، أية حادثة تثيرك، لأنك اتخذت قراراً أولياً بطلب الحقيقة.

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة، قضية دقيقة جداً، أنت إذا أردت الحقيقة، أردت الحق، أردت الهدى، أردت أن تحقق الهدف من وجودك، أردت الله والدار الآخرة، هذا قرار أولي، إذاً أي شيء بعد اتخاذك هذا القرار ينفعك ويرقى بك، ويمدك بعلم وبطاقة وبإرادة. أما حينما لا تتخذ هذا القرار الأولي لو كنت في أكبر محطة فضاء في الأرض، وترى بعينك المجارات البعيدة جداً، ولو كنت على مجهر الكتروني ترى الخلية مكبرة أربعة آلاف مرة، وحينما ترى بالتلسكوبات والميكروسكوبات عجائب خلق الله عز وجل لا تهتدي، وما من مثل يقرب هذه الحقيقة من أنك إذا أردت الحقيقة، وسعيت إليها كنت كآلة تصوير فيها فيلم يلتقط الصورة، أما إذا لم ترد الحقيقة، ولم تسعَ إليها كنت كآلة تصوير ليس لها فيلم، فمهما فتحت العدسة مئات المرات فليس لهذه الصور أي أثر في الآلة، لذلك الله عز وجل يقول:

(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

الذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم الحكم متعلقاً بالعقائد فهذا كفر، والذي لا يحكم بما أنزل الله إذا كان عدم الحكم متعلقاً بالحقوق فهذا ظلم، والذي لا يحكم بما أنزل الله إن كان عدم حكمه متعلقاً بالعبادات فهو فسق، رد العقائد كفر، ورد حقوق البشر ظلم، ورد العبادات فسق:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)

ردّ العقائد كفر وردّ حقوق البشر ظلم وردّ العبادات فسق:

أيها الأخوة:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

الآن الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)

أي القرآن، أي المعهود، تقول: هذا الرجل، وتكلم هذا الرجل، الألف واللام في الكلمة الثانية للعهد، المعهود، نكون في دائرة نقول: جاء المدير، أي مدير؟ مدير الدائرة، نكون في احتفال نقول: جاء الوزير، أي وزير؟ المعني المعهود، فهذه أل العهد، فنحن بيننا معهود أن الكتاب الذي أنزل على رسول الله هو القرآن:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق، أي أن هذا القرآن لا يستطيع أحد تحريفه، ولا تبديله، ولا إضافة شيء عليه، ولا حذف شيء منه لأن الله تولى حفظه بأمر تكويني، والدليل: أن العالم كله يهتم بالقرآن وطباعته وتيسيره بشكل لا يصدق، مؤسسات كبيرة جداً.

ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي:

القرآن يطبع بأحلى الخطوط، ويضاف إلى نصه الحركات والسكنات وأحكام التجويد بشكل رائع، ثم يترجم إلى جميع اللغات، وبأحجام وأشكال وأساليب لا يصدقها العقل، هذا كله تنفيذ بحكمة حكيم من الذي تولى حفظه، الآن أي برنامج تجد فيه البحث، يمكن أن تبحث عن كلمة في القرآن الكريم، فتأتي كل الكلمات في كل الآيات، يمكن أن تقتني حجماً صغيراً جداً يسمعك كلام الله عز وجل بقراءة أشهر القراء، والنص على الشاشة، وحجمه حجم صغير جداً، فهناك وسائل للقرآن طباعية والكترونية وجدارية وبأحجام وبأشكال وبخطوط وبترجمات تفوق حد الخيال، لأن الله تولى حفظه، ولأن الله تولى تيسيره للناس.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

والذي يدهشك أنك إذا سافرت إلى بلاد بعيدة شرقاً تستمع إلى القرآن الكريم من أفواه الطلاب بشكل لا يصدقه العقل، ولا يفهمون كلمة واحدة باللغة العربية:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

[سورة القمر: 17]

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ)

بالحق أي بالثبات، القرآن الذي بين أيديكم بكل طبعاته، وكل أشكاله، هو الكتاب نفسه الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن ترتيب الآيات ترتيب توقيفي، حتى إن ترتيب السور ترتيب توقيفي، مع أنه نزل منجماً فكان جبريل عليه السلام يقول: يا محمد ضع هذه الآية في المكان كذا، وهذه الآية في المكان كذا، ترتيب الآيات وترتيب السور ترتيب توقيفي.

لا يمكن أن تنجح حالة من حالات تزوير أو تبديل القرآن الكريم لأن الله تولى حفظه:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

لكن لا يعني هذا الكلام أنه لا تجري محاولة للتغيير، لأن الحفظ لا يعني عدم وجود محاولة، ولكن الحفظ يعني عدم نجاح المحاولة، لذلك قبل خمسين عاماً تقريباً طبع خمسين ألف نسخة من المصحف بحذف كلمة واحدة، ومن يبتغي الإسلام ديناً فلن يقبل منه، بحذف كلمة غير، والنسخ جمعت وأحرقت، الكلام الدقيق أنه لا تنجح حالة من حالات التزوير أو التبديل، لأن الله تولى حفظه، هذه حكمة أرادها الله عز وجل أنه ما منع المحاولات، ولكن منع نجاحها، أما أن تضاف كلمة أو أن تحذف كلمة، وأن يكون الكتاب بين أيدينا، ولا ننتبه لذلك هيأ الله لهذا الكتاب علماء كبار وعندهم باع طويل، وعندهم جهد كبير، وعندهم صبر مديد، وعندهم طاقات كبيرة جداً من أجل حفظ هذا الكتاب:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ)

الكتاب الثاني جنس الكتاب، أل الجنس، أي كتاب نزل قبل القرآن هو كتاب، بمعنى أن الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل القرآن اسمه الكتاب، أي جنس الكتاب، تقول: التمرُ، أي جنس التمرِ، الألف واللام هنا ليست عهدية ولكن جنسية:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ)

لأنه كتاب خاتم، ولأنه كتاب لكل الأمم والشعوب، ولأنه كتاب إلى نهاية الدوران، إذاً كل حاجات الشعوب، وحاجات الأقوام في هذا الكتاب، وأنت حينما ترى بعض الأخوة الذين آمنوا في بلاد الغرب، كيف يستمتعون بقراءة القرآن، وكيف يذوبون من خشية الله يتأكد لك هذا الذي أقوله لك الآن.

الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد:

قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ)

يا محمد:

(بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

أي لا تجاملهم، الحق أحق أن يتبع، والأهواء تختلف، الحق لا يختلف، الحق لا يتعدد لكن الأهواء تتعدد، أي بشكل أو بآخر حقائق العلم لا اختلاف فيها أبداً في العالم كله، حقائق الفيزياء والكيمياء، مثلاً الذرة في كل بلاد الأرض، شرقاً وغرباً، الحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متخلفة كالحقائق التي يعرفها العلماء في بلاد متقدمة، وقوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والطب والهندسة قوانين مضطردة وشاملة وموحدة في العالم كله، لكن لماذا تقوم الحروب؟ لأن الشعوب لها أهواء، حينما تتبع أهواءها تقتتل، أما حينما تتبع العلم لا تقتتل، لذلك الله عز وجل قال:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

مبدأ الطائرة، مبدأ السيارة، مبدأ نقل الصوت، مبدأ البث الإذاعي، أي مبدأ بأي مكان في العالم موحد ومطبق كما هو مطبق في أي بلد آخر، أما الخلافات في الأطروحات الفكرية، والعقائدية، والاجتماعية، والنفسية، والصراعات الطبقية، والصراعات بين الأمم والشعوب، والصراع على الثروات، والصراع على البترول، والصراع على الهيمنة، والصراع على السيطرة، هذه كلها أهواء.

المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق:

لذلك:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

لو أن الإنسان يعتقد أن الله قادر على هداية الخلق هذا اعتقاد صحيح، ولكن قد يسأل لمَ لم يهدهم؟ لأن الله ما أرادنا أن نأتي إليه قسراً، ما أرادنا أن نحمل على الطاعة قسراً، هذه الطاعة القسرية لا تسعد صحابها، أرادنا أن نأتيه طوعاً، أرادنا أن نأتيه محبين، أرادنا أن نأتيه مختارين، أرادنا أن نحبه، المحبة أساس العلاقة بين الخالق والخلق.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران: 31]

يحبهم ويحبونه، إذاً:

(وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

مثلا: ألا يستطيع عميد كلية العلوم أن يوزع على الطلاب أوراق الامتحان، وقد طبع عليها الإجابة الكاملة؟ طبعاً، بالمطبعة، وأن يكلف الطالب أن يكتب اسمه ورقمه فقط ويخرج، والعلامات مئة بالمئة لجميع الطلاب دون استثناء، ممكن، ما قيمة هذا النجاح؟! لا قيمة له إطلاقاً لا عند إدارة الجامعة، ولا عند الطلاب، ولا عند أولياء الأمور، ولا عند الناس، نجاح ساقط لا قيمة له.

سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين:

لو أن الله أرادنا أن نهتدي قسراً لهدانا قسراً، ولو شئنا أن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نلغي حريتكم، وأن نلغي مبادرتكم:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

[سورة السجدة: 13]

لو أراد الله أن يجبرنا على شيء فما أجبرنا إلا على الهدى، ولكن جعلنا مختارين، جعلنا أصحاب إرادة، نؤمن أو لا نؤمن، نشكر أو لا نشكر، نصلي أو لا نصلي، نصدق أو لا نصدق:

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

[سورة البقرة: 148]

لأن سعادتنا في اختيارنا، لأن سعادتنا في حريتنا، لأن سعادتنا أن نأتي الله طائعين لا مكبلين.

ابتلاء الله للإنسان هو امتحان له:

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

ليمتحنكم، يعطي المال لفلان، فلان ينفقه على ملذاته، وعلى شهواته، ويحرمه للفقراء، وفلان يوظفه في أعمال الخير، المال واحد، يعطي الصحة لفلان فيستهلكها في المعاصي والآثام، ويعطي الصحة لفلان فيستهلكها في الطاعات والعبادات:

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يعطي الإنسان أولاداً وذرية فيربيهم على طاعة الله، ويعطي إنساناً آخر أولاداً وذرية فيربيهم على التمثيل والرقص والغناء والموسيقى، أليس كذلك؟

(لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)

يهبكم تمكيناً في الأرض فبعض الذين يمكنون في الأرض يقيمون العدل، ويتواضعون، وبعض الذين مكنوا في الأرض يتغطرسون، ويستعلمون، ويقتلون، ويبتزون أموال الناس بالباطل كما ترون فيما يجري في العالم من طغيان وقتل ونهب وسلب وإفقار وإضلال وإذلال.

كل جماعة تدّعي أنها على حق لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة:

قال تعالى:

(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

أنتم مخيرون:

(فاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً)

بالنهاية نحن جميعاً نرجع إلى الله، وسوف يفصل الله بيننا، وسوف يحاسبنا على كل حركة، وسكنة، وكلمة، وغمز، ولمز، وعبوس، وابتسامة.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

[سورة الزلزلة: 7-8]

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

كل يدعي وصلاً بليلى، كل جماعة تدعي أنها على حق، لكن الله وحده سيفصل بين عباده يوم القيامة، ليس هناك عصر كثرت فيه الأطروحات والضلالات والترهات والمشكلات كهذا العصر، لكن الحمد لله على وجود الله، الحمد لله أن الله سيفصل بين عباده يوم القيامة.

مشكلة المسلمين في العالم اليوم أن الإسلام كشكل وكتراث مقبول أما كمنهج فمرفوض:

قال تعالى:

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

قال:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً)

[سورة الإسراء: 73]

هذه مشكلة المسلمين في العالم اليوم، يسمح لنا أن نقيم شعائر الإسلام، وأن تكون هناك مساجد، ومؤتمرات، ومؤلفات، ومكتبات، ولكن لا يريدوننا أن نقيم شرع الله في حياتنا، الإسلام كشكل، كفلكلور، كتراث مقبول، أما كمنهج فمرفوض، لذلك:

(وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

ما يجري الآن من فسق وفجور في العالم بكل قاراته شيء لا يصدق، لذلك:

((بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء))

[مسلم عن أبي هريرة]

ما لم تشعر بالغربة في هذا العصر الذي ملئ فساداً وانحرافاً وانحطاطاً وإباحية فلست مؤمناً، ما لم تشعر بالغربة فلست مؤمناً، إن كنت منسجماً مع ما يجري، ومع ما يعرض، ومع ما يمثل، ومع كل البرامج، ومشارك بكل برنامج ومستمتع بما يجري فاعلم أنك على خطر شديد، وأن صلاتك الجوفاء لا تقدم ولا تؤخر.

التغيير والتزوير الآن لا بالنص ولكن بالتأويل:

الآن يا أخوان هناك حالة اسمها الخلط، خلط الأوراق، أي كل شيء مباح، وأنت مسلم، كل شيء مباح وأنت مؤمن، وكل شيء مباح والصلاة لوحدها، والقرآن وحده افعل ما بدا لك، انغمس في لذاتك حتى قمة رأسك وأنت مؤمن ومسلم، وإيمانك بقلبك، من الداخل فقط، هذا الخلط الذي نعيشه اليوم:

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)

هنا يوجد سؤال لطيف: ألا يعتبر التحريف للقرآن ما يحاوله البعض في أيامنا هذه من تفسير القرآن بغير مواده؟ هم لا يستطيعون تحريف النص، ولكنهم يحرفون التأويل، أخي لمَ لم تصلِّ؟ أنا أيقنت بوجود الله، أن الله يقول:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر: 99]

انتهى أنا أيقنت، لمَ لم تصلِّ؟ قال:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الحج: 41]

نحن لسنا ممكنين في الأرض، الآن التغيير والتزوير لا بالنص، ولكن بالتأويل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (26 - 49) : تفسير الآيات 50 - 53، وصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيله.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-03-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

اللغة في طبيعتها تقوم على الإسناد :

أيها الأخوة المؤمنون:مع الدرس السادس والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخمسين، وهي قوله تعالى:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

أيها الأخوة الكرام، الكلمة في اللغة تدل على معنىً، فإذا قلت: جبل، قفز إلى ذهنك معنى الجبل، أو قفزت إلى ذهنك صورة الجبل، فهناك اسم، وهناك مسمى، فالاسم يشير إلى المسمى، هذه حقيقة مسلم بها في اللغة، لكن الكلمة وحدها لا تفيد معنىً تاماً، لو أنك قلت: جبل، ما شأنه؟ أي جبل، ماذا حصل؟ فالكلمة من دون أن يأتي بعدها خبر لا تدل على معنىً مفيد، دقق في حديثك اليومي، أحياناً تقول لواحد: أرأيتني مع الرجل البارحة؟ وكان طويل القامة، أشقر اللون، يرتدي ثياباً داكنة، يقول لك: ما شأنه؟ لقد مات، مثلاً، فالكلمة من دون خبر لا تؤدي معنى تاماً، حينما تنطق بكلمة واحدة قد تشير إلى معنى، أو إلى ذات، ولكن ليس هناك معنى مفيد تام إلا إذا أسندت الكلمة إلى خبر، فاللغة كلها هي إسناد، لأن البهيمة حينما تغيب الشمس تعود إلى حظيرتها، فإدراك الأشياء لا يحتاج إلى لغة، أما اللغة فوظيفتها الحكم، أو الإسناد، أو الإضافة، أو النسبة، كلها كلمات أسماء لمسمى واحد، تقول: خالد، ما شأنه؟ مجتهد، نسبت الاجتهاد إلى خالد، تقول: خالد حضر، نسبت الحضور إليه، فلا بد من مسند ومسند إليه، لا بد من علاقة، اللغة تقوم على علاقة، أما أن تكون اللغة مفردات ليس غير لا يحتاج الناس إليها، لأنهم يدركون الحقائق والأشياء بديهة من دون لغة، لذلك الحكم أن تحكم على شيء بشيء، أن تحكم على فلان بأنه بخيل، فلان قابض اليد، أن تحكم على فلان بأنه شجاع، لك أن تقول، أن تحكم عليه، أو أن تنسب إليه، أو أن تصفه، أو أن تخبر عنه، هذه كلمات تؤدي معنىً واحداً. فاللغة في طبيعتها تقوم على الإسناد، تقوم على النسبة، لاحظ كلامك، تقول: الجو حار، الأمطار في هذا العام غزيرة، الأسعار مرتفعة، فرضاً، الناس متفلتون، ليس من لغة ولا من تعبير إلا أساسه مسند ومسند إليه، مبتدأ وخبر، فعل وفاعل.

مطابقة الواقع دليل العلم وقناعتك دليل الإيمان أو النفاق :

أيها الأخوة، هذه العلاقة بين المبتدأ والخبر، بين الاسم والصفة، بين الفعل والفاعل، هذه العلاقة بين المسند والمسند إليه هذه علاقة إن كانت قطعية، أي العلاقة مئة بالمئة، هذه علاقة نسميها علاقة مقطوع بصحتها، وإذا غلب الإثبات على النفي نقول: هذه علاقة ظنية، وإذا تساوى الإثبات مع النفي نقول: علاقة شك، وإذا قوي النفي، وضعف الإثبات فالعلاقة بين المبتدأ والخبر علاقة وهم، وبين الفعل والفاعل، وبين المسند والمسند إليه، إما علاقة قطع، أو علاقة ظن، أو علاقة شك، أو علاقة وهم.

الآن ما هو العلم؟ علاقة أو مسند أو مسند إليه، أو مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل، أو علاقة مقطوع بصحتها، نعتقده ومعنا عليها دليل، هذا هو العلم، علاقة مقطوع بصحتها، نعتقدها، ويؤيدها الواقع، وعليها دليل، فإن لم نأتِ بالدليل فهذا هو التقليد، الفرق بين العلم والتقليد أن التقليد قد يقلد الإنسان حقيقة يعتقدها، ويؤمن بها، وهي صحيحة ومقطوع بها، لكنه لا يملك الدليل عليها، فلو قال طفل: لا إله إلا الله، هو ينطق بها، ويعتقدها، وهي صحيحة، ومقطوع بها، لكن الطفل لا يملك التأكيد، ولا التدليل، ولا أدلة، ولا براهين عليها.

الآن إذا اعتقدت شيئاً، ولم يطابق الواقع فهو الجهل، نحن نظن خطأ أن الجاهل لا يعلم، الجاهل ممتلئ علاقات، لكنها غير صحيحة، أما الأمي فهو الذي لا يعلم، وعاء الأمية فارغ، بينما وعاء الجاهل ممتلئ، ولكن بمقولات غير صحيحة، وهذه أكبر مشكلة في الحياة، هذا هو نصف العالم، لا هو جاهل فيتعلم، ولا هو عالم فينتفع بعلمه، لكنه نصف عالم، حفظ شيئاً فغابت عنه أشياء.

إذاً: حينما أقول كلاماً أعتقد به، وهو لا يطابق الواقع فهو جهل، حينما أقول كلاماً مطابقاً للواقع لكنني لا أعتقد به، هذا هو النفاق، مطابقة الواقع دليل العلم، وقناعتك دليل الإيمان أو النفاق، إن قنعت فأنت مؤمن، إن لم تكن قانعاً فأنت منافق، إن ملكت الدليل فأنت عالم، وإن لم تملك الدليل فأنت مقلد، وإن كانت العلاقة مقطوعاً بها فهو العلم، وإلا فهي ظن، أو شك، أو وهم، وكلمة الجاهلية منسوبة إلى الجهل أم إلى الجاهل؟ لو أنها نسبت إلى الجهل لقلنا جهلية، أما هي منسوبة إلى الجاهل، وما من مصيبة تلم بالإنسان كأن يكون جاهلاً، لأن أزمة أهل النار هي الجهل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[سورة الملك: 10]

الجاهل عدو نفسه :

الجاهل عدو نفسه، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، وأعدى أعداء الإنسان الجهل، مراتٍ ومرات سقت هذا المثل: أن إنساناً يعمل في تنظيف الطائرات رأى غرفة العجلات كبيرة جداً، فلجهله ولعدم علمه بحقيقة الطيران، وبأجزاء الطائرة، قال: أنا أقبع في هذا المكان، وأنتقل من بلد إلى بلد بلا ثمن، وبلا وثائق، وبلا جواز سفر، وبلا تأشيرة، جلس في هذا المكان، وبعد أن حلق الطيار بدقائق معدودة حرك هذا المكان فسقط الإنسان ميتاً، ما الذي قتله؟ جهله، هو ما أراد أن يموت، أراد أن يصل إلى بلد بعيد بلا ثمن، وبلا وسائل، وبلا موافقات وظن أنه أذكى من كل الناس، ولكن الذي قتله جهله.

فالجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، لذلك الإنسان من شدة حبه لذاته ينبغي أن يتعلم، لأن كل إنسان مجبول على حب وجوده، وعلى حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده:

(فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)

[سورة يونس: 108]

إذا قلت لكم: لا تحبوا أحداً أحبوا ذاتكم، إن أحببتم ذاتكم فينبغي أن تطلبوا العلم، وأن تعملوا به، والله عز وجل يبين أن الإنسان خاسر ما لم يؤمن ويعمل صالحاً، قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

أي ما لم تطلب العلم، وما لم تعمل بما علمت، وما لم تدع إلى ما علمت، وما لم تصبر على طلب العلم، وتطبيقه، وتعليمه فأنت خاسر لا محالة، لأن مضي الزمن يستهلكك.

ليس الجاهل الذي لا يعلم ولكن الجاهل هو الذي يمتلئ بمقولات غير صحيحة :

أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بعض منك، كبعض التأكيدات لما قلت: حينما أعلن أحدهم إسلامه قال: وأشهد أن محمداً (رسولَ) الله، قال له رجل أعرابي: ومال له؟ أشهد أن محمداً، حينما قال: رسولَ الله – بالنصب - صفة، فأين الخبر؟ قال له: وما له؟ أما إذا قال: أشهد أن محمداً رسولُ الله، فهذا هو الخبر، المعنى ناقص ما لم يكن مخبراً عنه.

من طرائف اللغة أن فيها مفرداً وجملة، قد أقول عشرين كلمة، وهي في التصنيف مفرد، وقد أقول حرفاً واحداً، وهو في التصنيف جملة.

مثل طريف: لو أنني قلت: رئيس مجلس إدارة مؤسسة، إعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي في القطر العربي السوري، ما له؟ هذا مفرد، أما حينما أقول: ق، حرف من وقى، يقي، ق، والفاعل ضمير مستتر، فهذه جملة، الحرف جملة، والعشرون كلمة مفرد، المفرد لا يعطي معنى تاماً، الآن بينك وبين أقربائك، قل: فلان، واسكت، يقول لك: ما له؟ حضر، سافر، اعتمر، أدى الحج، اللغة مبنية على الخبر، على الإسناد، على الحكم.

الآن: الدين حق، هذا حكم، الدين أفيون الشعوب، أيضاً حكم، لكن الحكم الأول حق، والثاني باطل، محمد رسول الله، حكم، محمد عبقري فقط، هذا جهل، ليس عبقرياً، هو عبقري، لكن مهمته ليس عبقرياً، مهمته أنه نبي يوحى إليه. فمن هو الجاهل؟ هو الممتلئ حتى قمة رأسه بأحكام غير صحيحة، كل تفكيره غير صحيح، اجلس مع أهل الدنيا، مع الشاردين، مع كل أحكامه غير صحيحة، فالجاهل ليس الذي لا يعلم، ولكن الجاهل هو الذي يمتلئ بمقولات غير صحيحة.

حكم الإسلام هو حكم المساواة :

الله عز وجل يقول:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

المال ينمو بالربا، المرأة مباحة لكل الرجال، هكذا كانوا في الجاهلية، كان يقول الرجل لزوجته: اذهبي فابتضعي من فلان، فوضى جنسية، وفوضى في العلاقات، العقل لا يصدقها:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

القوي يأكل الضعيف، الغني يلتهم الفقير، الشهوات تعبد من دون الله، الضعيف يسحق، البنت وئدتْ في التراب:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير: 8-9]

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

قال بعض الصحابة: الحمد لله الذي أخرجنا من جور الحكام إلى عدل الإسلام، الأباطرة والقياصرة كانوا طغاة جبارين في الأرض، فصار المسلم يشعر بحريته وبكرامته.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه رأى صفوان بن أمية يعذب بلالاً فاشتراه منه، قال أمية: والله لو دفعت به درهماً لبعتكه، قال له أبو بكر: والله لو طلبت به مئة ألف لدفعتها لك، أعطيتك إياه، هذا أخي حقاً،

وكان أصحاب رسول الله إذا ذكروا الصديق يقولون: هو سيدنا، وأعتق سيدنا، يقصدون بلالاً، هذا حكم الإسلام، حكم المساواة، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

الإسلام مبادئ وقواعد وقيم :

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات: 13]

و:

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

و:

((نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه))

[كنز العمال عن عمر]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

[سورة المسد: 1]

((سلمان منا آل البيت))

[الطبراني في الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

الإسلام مبادئ، والإسلام قواعد، والإسلام قيم:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)

وحينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

[سورة الأحزاب: 33]

هذه إشارة إلى أن هناك جاهلية ثانية، كما ترون أن العالم يئنّ بالظلم الآن، يئن بالقتل، يئن بالقمع، يئن بالسحق، القوي يأكل الضعيف، شعار القوي: أنت قوي فأنت على حق، الحق يعني القوة فقط.

كل بطولة الإنسان أن يهديه علم اليقين إلى حق اليقين :

أيها الأخوة:

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هذا اسمه استفهام تقريري، يغلب على هذا الدرس الطابع اللغوي والبلاغي، استفهام تقريري، الآن أسألك: كم الساعة الآن؟ أنا لا أعلم كم الساعة، أسألك لأتعرف إلى الساعة، هذا استفهام حقيقة، لكن إنساناً أحسن إلى إنسان إحساناً لا حدود له، وهذا الإنسان جحد إحسان المحسن، إذا قال المحسن لفلان: ألم أحسن إليك؟ هذا استفهام تقريري، أي أنا أحسنت إليك، ألم أنقذك من كذا وكذا؟ ألم أعطك كذا وكذا؟ الاستفهام التقريري حقيقة يقر بها الطرف الآخر، لكن سيقولها مضطراً، وهي أبلغ مما لو أخبرتك بها، لو فرضنا إنساناً اتهم إنساناً آخر أحسن إليه بالجحود قال له: من أخرجك من السجن؟ هو يعلم علم اليقين أن المحسن هو الذي أخرجه من السجن، يقول: أنت، فإذا نطق المنكر بالحقيقة فهذا أبلغ من أن ينطق بها الطرف الأول:

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

أخواننا الكرام، اليقين درجات، هناك علم اليقين، وهناك عين اليقين، وهناك حق اليقين، لعل علم اليقين هو يقين العقل، أنت إذا نظرت إلى جدار، ورأيت خلفه دخاناً، بحسب قوانين الأرض تقول: لا دخان بلا نار، أنت موقن عقلاً أن وراء الجدار ناراً، لكنك لم ترَ النار بل رأيت دخانها، لا دخان بلا نار، هذا يقين عقلي، أما إذا ذهبت إلى وراء الجدار، ورأيت النار رأي العين فهذا عين اليقين، أما إذا اقتربت منها، وشعرت بوهج النار فهذا حق اليقين، فمن اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، فالإنسان إذا أخبره الله وهو أصدق القائلين أن هناك ناراً بعد الموت، هذا علم اليقين، فإذا سار على الصراط، ورأى النار بعينه، لكنه نجا منها فهذا اليقين، فإذا ألقي فيها، وأحرقت جلده فهذا حق اليقين، كل بطولة الإنسان أن يهديه علم اليقين إلى حق اليقين، علم اليقين متوافر في الدنيا، لكن الناس بعد أن يغادروا الدنيا يعاينون الحقيقة:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

الإنسان خياره مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

فرعون حينما أغرقه الله بلغ حق اليقين قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس: 90]

الإنسان خياره مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، وقت فقط، فإما أن نؤمن في الوقت المناسب، ونحن أقوياء، أصحاء، أشداء، أغنياء، وإما أن نؤمن بعد فوات الأوان، وحينئذ:

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً)

[سورة الأنعام: 158]

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

المؤمن مع اليقينيات لا مع الظنون، معه الحجة البالغة، الأمور واضحة.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود: 28]

باليقين:

(وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

[سورة هود: 28]

اليقين أكبر نعمة خصها الله بالمؤمن :

انظر:

(عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ)

[سورة هود: 28]

المؤمن معه اليقين، معه الحجة، الأمور واضحة، رؤيته صحيحة، بصره ثاقب، نظره عميق، هذه أكبر نعمة خصها الله بالمؤمن، ليس هناك ضلال، وليس هناك شك، وليس هناك حيرة. وليس:

جئت من أين؟ ولكنني أتـــيت فرأيت قدامي طريقاً فمشيت

أين كنت؟ أين صرت؟ لست أدري! ولماذا لست أدري لست أدري

* * *

هذا حال أهل الدنيا، ليس عندهم يقينيات، قاعدتهم: لا نعرف.

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكمـا

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسارة عليكما

* * *

هناك آخرة، وهذه نعمة، وإذا ليس هناك الله فمشكلة.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ*لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ)

[سورة التكاثر: 5-6]

المؤمن باليقين، وكأنه يرى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل:1]

معنى ذلك أنه لم يأتِ، أما،

(أتَى)

فيقيناً، إذا أخبرك الله بشيء فينبغي أن تقول: رأيته، أحد الصحابة قال: وكأنني بأهل الجنة يتنعمون، وبأهل النار يتصايحون، قال له النبي الكريم: عرفت فالزم، كأني بأهل النار يتصايحون، وبأهل الجنة يتنعمون، فأنت حينما تجد إنساناً قتل إنساناً، وألقي القبض عليه، هو مجرم، ألا ترى مصيره، وهو الشنق مثلاً، تقول: رأيته يشنق، لم يشنق بعد، هذا حكم النتائج اليقينية، فالإنسان حينما يسير في طريق غير صحيح تكون النتائج واضحة جداً.

حينما اتخذ المسلمون اليهود والنصارى أولياء ضاع منهم كل شيء :

أيها الأخوة: يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

طبعاً هذه الآية نعيشها، ولا تحتاج إلى شرح، لأن المسلمين حينما اتخذوا اليهود والنصارى أولياء ضاع منهم كل شيء، لكن الذي يلفت النظر:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

قد يكون بين هؤلاء وهؤلاء عداوات لا يعلمها إلا الله ولكنهم أمام قضية المسلمين صف واحد، شرقاً وغرباً:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

هم أمام الحق يتعاونون، أمام الحق يتحدون، أمام الحق يتوافقون:

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

الولاء والبراء :

هذا الموضوع يقودنا إلى الولاء والبراء، الولاء أن توالي المؤمنين، أن تحبهم، أن تنصرهم، أن تنصحهم، أن تحمل همومهم، أن تخفف عنهم، أن تنتمي إليهم، ألا تستحي بهم، اللهم اهد قومهم إنهم لا يعلمون، هذا هو الولاء. والبراء أن تتبرأ من الطرف الآخر، ولو كانوا أقوياء، ولو كانوا أغنياء، ولو كانوا مصدر رزقك، لذلك المؤمن يوالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً وفقراء، ويتبرؤون من الطرف الآخر، ولو كانوا أغنياء وأقوياء، لأنهم حيال أهل الأيمان بعضهم أولياء بعض، لأنهم يتعاونون، ويتناصرون، ويدلي بعضهم لبعض النصيحة في طريقة السيطرة على المسلمين:

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

دائماً ينبغي أن تعلم من أنت؟ ما هويتك؟ إلامَ تنتمي؟ ما الذي يقلقك؟ ما الذي يسعدك؟ ما الذي يحفزك إلى أي عمل؟ انتماؤك إلى هذه الأمة أم انتماؤك إلى الأقوياء والأغنياء؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

أنت حينما تتولاهم فقد ظلمت نفسك، وظلمت المسلمين، وكنت عبئاً عليهم، ولم تكن في خدمتهم.

في القرآن دقة ما بعدها دقة :

أيها الأخوة، أقول مئات المرات: إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، أو إضلالهم، أو إفسادهم، أو إذلالهم، فأنت في خير، يجب أن تنتمي إلى هؤلاء المؤمنين، ولو لم يكونوا أقوياء كما تتمنى، ولو لم يكونوا متفوقين في الدنيا كما تتمنى، لكنهم قومك، بدل أن تنسحب منهم، بدل أن تنتمي إلى أعدائهم، خذ بيدهم، وقل: يا رب أعني على تخفيف الظلم عنهم.

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

في القرآن دقة ما بعدها دقة، قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

[سورة آل عمران:133]

المسارعة إلى الشيء غير المسارعة في الشيء:

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ)

هم معهم في الأصل، هم على شاكلتهم، هم على أهوائهم، هم على مصالحهم، هم فيهم، هم معهم، لكن عندما يدنو الخطر يلتصقون بهم، يزدادون قرباً منهم، هم في الأصل معهم، هم فيهم في بوتقة واحدة، لكنهم حينما يلوح خطر يزدادون التصاقاً بهم.

الآيات التالية تعلل وتبرر الخضوع والاستسلام للطرف الآخر :

قال تعالى:

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ)

وقد تجد معاني هذه الآيات محققة على أرض الواقع، وتراها رأي العين؟

(يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

هم معهم في الأصل، هم على شاكلتهم، هم على أهوائهم، هذا الخضوع والاستسلام للطرف الآخر تعليله وتبريره:

(يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ)

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

[سورة آل عمران: 173]

أيها الأخوة، ذكرت اليوم في الخطبة أن كل هذه المحن التي لا حصر لها، والتي تصيب المسلمين في شتى بقاع الأرض، وكأن حرباً عالمية ثالثة معلنة على هذا الدين، إنها رسالة من الله، من أجل أن نغيّر، لأن الله يحبنا، يحب لنا جنة عرضها السماوات والأرض، يحب أن نصطلح معه، يحب أن يتوب علينا، يريد أن نغادر الدنيا ونحن أنقياء، لذلك نحن في العناية المشددة، نحن في العناية الإلهية المشددة، هذا الضغط الذي لا يحتمل على المسلمين من أجل أن نغيّر، لأن الله لا يغيّر حتى نغيّر:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد 11]

آيات ثلاثة في سورة المائدة تصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيل حياته :

آيات ثلاث في سورة المائدة تصف العالم الإسلامي في أدق تفاصيل حياتهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ*فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم)

هم كانوا معهم، هم معهم ولا يزالون، ولكنهم يزدادون التصاقاً فيهم حينما يلوح خطر أمامهم:

(يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

الخضوع والاستسلام يبرر:

(نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)

مع أن الأمر بيد الله وحده، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد:

(فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ*وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

العبرة في العاقبة والله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين :

قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

العبرة في العاقبة، والله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين، لكننا في محنة شديدة.

(إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً)

[سورة الأحزاب: 10-12]

وهناك أناس لا يعدُّون ولا يحصون يقولون: أين الله؟ ألسنا مسلمين؟ أين وعود الله عز وجل؟ لكن الله عز يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

هذا هو الثبات على الحق، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

النصر المبدئي أن تموت مؤمناً كما مات أصحاب الأخدود :

قال تعالى:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ)

العبرة أيها الأخوة، أن تنتهي الحياة وأنت على حق، وهذا الذي تنتهي حياته بعدوان، وهو على الحق هو المنتصر، ولو فيما يبدو قتل، النصر المبدئي أن تموت مؤمناً، كما مات أصحاب الأخدود، وكما ماشطة بنت فرعون، الأمور أيها الأخوة واضحة وضوح الشمس، كان قبل عشرات السنوات هناك أبيض وأسود، وألف لون رمادي بينهما، الآن لم يبقَ إلا الأبيض والأسود، إباحي أو عفيف، صادق أو كاذب، مؤمن أو كافر، رحماني أو شيطاني، يعمل للدنيا أو يعمل للآخرة، الأمور واضحة كالشمس، والله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35- 36]

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

لا يستوي الذين آمنوا والذين لا يؤمنون :

الأمور واضحة كالشمس، والله عز وجل يقول:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة: 18]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم: 35- 36]

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

هذه الآيات أيها الأخوة تدعونا إلى أن نؤمن بكل خلية في أجسامنا، وبكل قطرة في دمائنا أنه كلام الله، لأن الله يصف ما يجري في دقة بالغة.

لا تستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تحول بين الله وهدايةِ خَلقه :

الآن حينما يضعف إيمان الإنسان يقول: أخاف، أخشى أن تلحقني دائرة، هو يخضع، ويغيّر المناهج، ويلغي دروس العلم خوفاً من أن تصيبهم دائرة، لكنه نسي أن الأمر بيد الله، وأن الأمر كله بيد الله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، وأنه:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

وما أمرنا أن نعبده إلا بعد أن طمأننا:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

وأنه لا إله إلا الله، لا رافع، ولا خافض، ولا معز إلا الله، وأن جهة في الأرض مهما قويت لا تستطيع أن تحول بين الله وهدايةِ خَلقه، إنهم يتوعدون ويهددون ليمتحن الله إيمان المؤمنين.

(فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة التوبة: 13]

دورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان :

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

ضعاف الإيمان عند الشدائد يضعف إيمانهم، وقد يفقدون إيمانهم، ويتبعون القوي خوفاً منه، لكن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم، لأنهم يحبون الله والله يحبهم، الذي يحب الله لا يرتد عن دينه، والله عز وجل له امتحانان صعبان جداً، الامتحان الأول يقوي الكافر ويقوّيه حتى يفعل ما يقول، ويفعل ما يريد، إلى أن يقول ضعيف الإيمان: أين الله؟ نحن جاء دورنا في هذا الامتحان، ثم يقوي المؤمن، ويقويه حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله، فاصبروا أيها الأخوة، ودورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان، فإذا عاش إنسانٌ عشر سنوات هل يستطيع أن يدرك رمضان في الصيف مرتين؟ لا مرة واحدة، رمضان يأتي في الصيف كل ست وثلاثين سنة مرة، فإذا عاش إنسانٌ عشر سنوات فعمره القليل لا يتيح له أن يدرك رمضان في الصيف مرتين، هذا مثل تقريبي، ودورة الحق والباطل أطول من عمر الإنسان، لذلك قال تعالى:

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

[سورة يونس: 46]

ربما لا يتاح للنبي عليه الصلاة والسلام أن يكحل عينيه برؤية انتصار المؤمنين، ولكن هذا الدين دين الله، ولا تقلق عليه، ولكن اقلق على نفسك، ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون من جنوده، والمؤمن يعمل ويتوكل، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل، ويسعى جهده للتخفيف عن المسلمين، وحمل همهم، وإجلاء النصح إليهم، والعمل على إسعادهم، والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (27 - 49) : تفسير الآية 54، التعظيم للمنهج الإلهي فقط.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-04-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى يخاطب المؤمنين بفروع الدين ويخاطب عامة الناس بأصول الدين :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والعشرين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

يعلمنا القرآن أيها الأخوة أنه إذا قال: يا أيها الذين آمنوا إنما يخاطب المؤمنين بفروع الدين، أو أنه يبشرهم، أو أنه يحذرهم، أو أنه يلفت نظرهم إلى شيء، لكنه إذا خاطب عامة الناس فيخاطبهم بأصول الدين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة: 21]

ولكن هناك خطاب للمؤمنين يعقبه دعوة إلى الإيمان، مثل هذه الآية تُشكل على بعض المفسرين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا أيها القائم قم، هو قائم، يا أيها الجالس اجلس، هناك إشكال في الآية، لذلك السادة المفسرون فهموا هذه الآية بمعنى: أنْ أيها المؤمن حافظ على إيمانك، أن أيها المؤمن جدد إيمانك، لأن الإيمان ليخرق كما يخرق الثوب، فالإنسان كلما قفز قفزة نوعية، ثم ضعفت همته، وضعف إقباله فعليه أن يجدد إيمانه بمزيد من العلم، بمزيد من الطاعة، بمزيد من العمل الصالح.

المؤمن بحاجة إلى أن يجدد إيمانه أو أن يحافظ على إيمانه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وحينما تخاطب إنساناً، وتأمره بشيء، وهذا الشيء متمثل فيه معنى ذلك: أنْ حافظ على ما أنت فيه، كقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 1]

النبي يتقي الله، إذاً حافظ على تقواك، وحافظ على مقامك، وعلى مكانتك، لذلك هناك محذور كبير أن يكون الإيمان ضعيفاً، أن تغلب الإنسان الشبهات، أو أن تغلبه الشهوات، فإذا غلبته الشبهات، طرحت ضلالات، طرحت تفسيرات، طرحت انتقادات للدين، فقد يضعف إيمانه أمام هذه الشبهات، أو يضعف إيمانه أمام هذه الشهوات، قد يعيش في عصر الفتن.

لذلك الإنسان بحاجة إلى أن يجدد إيمانه، أو أن يحافظ على إيمانه، في الحد الأدنى يحافظ على إيمانه بدوام ذكر الله عز وجل، يحافظ على إيمانه بطلب العلم، وبالاستزادة من العلم، يحافظ على إيمانه بصحبة الصالحين، يحافظ على إيمانه بأن يكون مع الصادقين، هذا معنى قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

المعركة بين الحق والباطل معركة أبدية سرمدية :

الآية هنا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

الحقيقة هناك ملمح دقيق جداً من هذه الآية، ذلك أن الإنسان حينما يمرض ويشفى من مرضه يتكون في الجسم مناعة ضد هذا المرض، أو حينما نريد أن نحصن إنساناً من مرض معين نعطيه لقاحاً من الجراثيم التي تسبب هذا المرض، ولكنها ضعيفة، إذا أعطي هذا اللقاح يعمل جهاز المناعة على تصنيع مصل مضاد محفوظ في الذاكرة، يغدو هذا الإنسان الذي لقح ضد هذا المرض محصناً من هذا المرض، لأنه جاءه بشكل مخفف، وهيأ سلاحاً فتاكاً له، وحفظه في الذاكرة، وأصبح ذا مناعة ضد هذا المرض، هذا الذي نفعله مع الإنسان تحصيناً من الأمراض فعله الله عز وجل مع المؤمنين تحصيناً لهم من الارتداد، فأخبرهم أن هناك من يرتد عن دين الله، لا تعجب، والذي يرتد عن دين الله ينبغي ألا يتوهم أنه يستطيع أن ينال من هذا الدين، هذا الدين دين الله، والله عز وجل يتولى حفظه بذاته، ولا تقلق على هذا الدين، ولكن اقلق ما إن سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون أحد جنوده. لذلك يطمئن الله المؤمنين، ويعطيهم لقاحاً ضد الارتداد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

لي تجربة متواضعة في تدريس الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، فقد قدمت لطلابي بحثاً من موقع معلوماتي يهاجم القرآن من خلال الإعجاز، يأتي بقضية عدها العلماء إعجازاً، وينقض هذا الموضوع العلمي تمهيداً لنقض القرآن، حتى أعطي الطلاب مناعة ضد هذه المواقع الفتاكة التي تهاجم القرآن، هذا نموذج، وهذا هو الرد، فالطالب لا يفاجَأ إذا رأى في موقع معلوماتي ما ينقض القرآن، ينبغي أن يهيئ نفسه أن هناك معركة بين الحق والباطل أبدية سرمدية، هذه معركة الحق والباطل قدرنا، والعبرة لا فيمَ يصيبك؟ بل كيف تقف ممَ يصيبك؟

الذي تحاسب عليه لا الذي ينالك من قضاء الله وقدره بل موقفك من قضاء الله وقدره:

في حقيقة دقيقة جداً، العبرة لا أن تكون فقيراً أو غنياً، البطولة أن تقف من الغنى موقف الشاكر، وأن تقف من الفقر موقف الصابر، أن تقف من الصحة موقف الشاكر، ومن المرض موقف الصابر، الذي تحاسب عليه لا الذي ينالك من قضاء الله وقدره، بل تحاسب على موقفك من قضاء الله وقدره. لذلك فيما تروي الروايات أن جبريل عليه السلام خيّر النبي صلى الله عليه وسلم قال: أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ فقال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره.

ذكرت لبعض الأخوة الكرام شرحاً لهذا الحديث، أننا لو أخذنا مئة قوي لا ينجو من هؤلاء إلا قلة قليلة، لأن القوة مزلة قدم، لو أخذنا مئة ضعيف ينجو منهم ثمانون بالمئة، لو أخذنا مئة غني لا ينجو منهم إلا قلة قليلة، لأن الغنى والكبر والسيطرة واتباع الشهوات مظنة الزلل، ولو أخذنا مئة فقير ينجو منهم ثمانون، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان قدوة لنا، علمنا كيف أنه في بعض الصفات السلبية تكون أقرب إلى العبودية، وأسلم لدينك، وأنجى لك من صفات إيجابية قد تكون حجاباً بينك وبين الله.

والله أيها الأخوة، حقيقة عاينتها معاينة دقيقة، أن الرخاء الكبير في بعض البلاد كل الأمور ميسرة، دخل كبير، طبيعة جميلة، حقوق الإنسان مقدسة هناك، ترى في هذه البلاد بعد عن الله لا يصدق، ترى في هذه البلاد تصحراً دينياً، جفافاً في قلوبهم، غفلة لا تحتمل عن ربهم، وتجد في بعض البلاد الأخرى التي فيها مشكلات وأزمات، وضغوط شديدة أحياناً، وتهديد من العدو، تجد أن الناس أقرب إلى الله من هؤلاء بكثير، هم مع الله، لأن هذه الشدة دفعتهم إلى الله، وألجأتهم إلى باب الله.

لذلك مرةً رأيت في متحف في اسطنبول جوهرة من الماس (البرلنت)، سألت عن قيمتها، فقالوا: مئة وخمسون مليون دولار، هي أكبر جوهرة في العالم، موضوعة في متحف، وكأنها شمس تشع، سألت هذا الماس: ما أصله؟ قالوا: من الفحم، قلت: لو جئنا بفحمة بحجم هذه الجوهرة كم ثمنها؟ أقلّ من قرش، بين القرش وبين المئة والخمسين مليون دولار مسافة كبيرة جداً، حسناً كيف تحول الفحم إلى

ماس؟ من شدة الضغط والحرارة، فالإنسان إذا ضغط عليه كثيراً، وكان على إيمان، وعلى علم، وكان على معرفة يغدو جوهرة.

محمد جوهرة وليس كالبشر فهو جوهرة والناس حجر

*

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن لا يمكن تصوره :

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن لا يمكن تصوره، كيف إذا كنت جائعاً جوعاً شديداً وجلست إلى مائدة عليها لحم مشوي، وهو طازج من أفضل أنواع اللحم، كيف تقبل على هذا اللحم؟ إقبالاً رائعاً، لو أنك مررت بحيوان ميت قبل بضعة أيام، وتفسخ اللحم وفاحت منه رائحة لا تحتمل، كلا الحالين لحم، لحم جذبك، ولحم أخرجك من جلدك وكلاهما لحم، وقد تجد إنساناً مؤمناً تنجذب إليه، تنجذب إلى علمه، إلى خلقه، إلى تواضعه، إلى سكينته، إلى عفته، إلى أمانته، إلى صدقه، إلى مصداقيته، إلى وضوحه، إلى براءته، إلى صفائه، وقد تجد إنساناً كيفما عاملته آذاك، وكيفما سألته غشك، وحينما تستعين به يخيب ظنك، هذه المشكلة أيها الأخوة. لذلك الله عز وجل يعطينا لقاحاً، أنه تجد من يرتد عن هذا الدين، وقد تجد من يهاجم هذا الدين، وقد تجد في بعض المواقع المعلوماتية من يهاجم القرآن الكريم، وهناك كتب لا تعد ولا تحصى كل يوم تظهر تطعن في هذا الدين، وفي مصداقية هذا الدين، وفي أحقية القرآن الكريم، والحقيقة أن الله عز وجل يقول:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ*وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)

[سورة الأنعام: 112-113]

أشقى إنسان على وجه الأرض هو الذي يقف في خندق مناهض للدين :

هذا الذي يرتد عن دين الله لا يتوهم أنه يستطيع أن يقوض دعائم الدين، الدين دين الله، وإن الذين يريدون إطفاء نور الله كمن يريد إطفاء الشمس بنفخة من فمه، هذا يحتاج إلى مستشفى المجانين.

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

[سورة الصف: 8]

لذلك أشقى إنسان على وجه الأرض الذي يقف في خندق مناهض للدين، الله عز وجل يقول:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

[سورة التحريم:4]

يا رب! امرأتان أخطأتا:

(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)

امرأتان انتقدتا نظاماً معيناً، أيعقل أن يستنفر الجيش كله، والطيران كله، والجيش البري كله، والبحري كله، وأجهزة الأمن كلها، معقول؟! قال العلماء: هذا الذي يقف في خندق مناهض للدين يجب أن يعلم من هو الطرف الآخر؟ إنه خالق الأرض والسماوات.

لذلك أيها الأخوة، نحن كوننا مسلمين معنا منهج السماء لكن لا نعرف قيمته، معنا خطاب السماء إلى الأرض، معنا في منهجنا خلاص العالم، ولكننا مقصرون في فهمه، وفي تطبيقه، وفي حسن عرضه على الآخرين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

بعض من إعجاز القرآن الإخباري :

يمكن أن يرتد الإنسان عن دينه، ومسيلمة الكذاب ارتد عن الدين، وكتب إلى محمد صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، ما استطاع أن ينفي عن النبي الرسالة، أما بعد: فإن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك. فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى:

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف: 128]

لو يتاح لكم أن تقرؤوا ما جاء به مسيلمة الكذاب، ومن ارتد عن دين الله، من قلّد القرآن، لا تستطيعون أن تملكوا أنفسكم من الضحك، لأن كل ذرة في جسمك، وكل خلية في جسمك، وكل قطرة في دمك تشعر أن هذا القرآن كلام الله، أما إذا قرأت كلاماً مزوراً منحولاً تشعر بكل ذرة في جسمك، وكل خلية، وكل قطرةٍ أنه كلام إنسان لا وزن له عند الله إطلاقاً. فحينما يرتد الإنسان عن دينه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ضد هذا الدين، إنما يسيء إلى نفسه فقط، كأن هذه الآية تنبئ المؤمنين، ولاسيما في عهد رسول الله الأمين، وبعده في عهد الصحابة أجمعين، أن هناك ارتداداً جرى في عهد رسول الله e، والآية تثبت للصحابة الكرام الذين تولوا الأمر من بعد رسول الله أنه هناك ارتداداً سيكون، وهذا من إعجاز القرآن الإخباري، مثلاً، حينما قال الله عز وجل:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ*سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ*وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ*فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

[سورة المسد: 1-5]

لو أن هذا الإنسان - أبا لهب - فكر في هذه السورة، وانطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعلن إسلامه ظاهراً، إنه بهذا نقض الآية، لكن إرادة الله طليقة، حتى اختيار الإنسان أحياناً ملك الله عز وجل.

الأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله عز وجل :

في مثلٍ أبلغ يقول الله عز وجل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

[سورة البقرة: 142]

وصفهم الله بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، لو أنهم صمتوا لأبطلوا الآية، الأمر بيد الله، الأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله عز وجل، فالله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

أي لا تفاجؤوا، ينهاهم عن أن يفاجؤوا، وطن نفسك، هناك من يرى أن القرآن من صياغة محمد عليه الصلاة والسلام، هناك من يرى أن هذا الدين لا يصلح إطلاقاً، هناك من يتهم الدين بأنه إرهاب، هذا شيء نسمعه كل يوم، هناك من يرى أن القرآن ينبغي أن يغيّر، وأن تحذف منه فصول كثيرة جداً، وهم جادون في ذلك، ولكنهم لا يستطيعون. إذاً:

(مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ)

اطمئنوا:

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ)

أول استنباط دقيق جداً: أنه لا يمكن لمن يحب الله أن يرتد عن دينه، هذا أول استنباط، الذي بنى علاقته مع الله على إيمان قوي ومحبة، والمحبة أساسها الاتباع، هذا الإنسان لا يمكن أن يرتد عن دينه، لأن المحبة حصن حصين مِن أن يرتد الإنسان عن دينه.

الإنسان سيد هذا الكون لأنه قبل حمل الأمانة من بين كل المخلوقات :

أيها الأخوة:

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ)

بدأ هو بحبهم لأنه رحيم، لأنه خلق الخلق ليسعدهم، وبعضهم قال: علم أنهم سيحبونه فأحبهم سلفاً، لكن المعنى الدقيق أن الله سبحانه وتعالى لأنه ذات كاملة خلق خلقاً ليسعدهم، أما إذا قلت لي: الناس في شقاء، هذا شيء واقع، هذا الشقاء من صنع أنفسهم، لأنهم مخيرون، ولا بد لاختيارهم أن يأخذ أبعاده.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب: 72]

لأن الإنسان قبل حمل الأمانة من بين كل المخلوقات كان سيد هذا الكون، كان المخلوق الأول، لذلك تكريماً له سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، الإنسان مكرم، وهو المخلوق الأول لأنه قبل حمل الأمانة، والأمانة نفسه التي بين جنبيه، ومن لوازم حمل الأمانة أن الله جعله مخيراً، صاحب اختيار، صاحب إرادة، فإذا أراد الدنيا وأراد الشهوات، وأراد البغي والعدوان، فله ذلك، فالله يبعث له الأنبياء، وينزل عليهم الكتب، ويهيئ الدعاة.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

للحب معنيان عقلي وعاطفي :

أما لماذا يوقع الله المصائب بالعباد؟ هذا معنىً آخر، لأن الله سبحانه وتعالى إنما يسوق هذه الشدائد لعباده كي يعودوا إليه، كي يصطلحوا معه، كي يقبلوا عليه، كي يتوبوا إليه، كي يسعدوا بقربه في الدنيا والآخرة، أرأيت إلى هذه المركبة، ما علة صنعها؟ علة صنعها السير، لماذا فيها مكبح شديد؟ والمكبح يتناقض مع علة صنعها، ضمان لسلامتها، الإنسان خلق للسعادة، لماذا الفقر؟ لماذا المرض؟ لماذا الخوف؟ من أجل أن تكون هذه المصائب التي تأتي في الدنيا حائلاً بين الإنسان وبين الشقاء الأبدي، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

أيها الأخوة، الحب له معنيان؛ له معنى عقلي، وله معنى عاطفي، إنسان مريض ومرضه يقلقه ويؤلمه، ذهب إلى طبيب متفوق وصف له دواء، دواء مراً، هذا الدواء لم يجده، بحث عنه في كل مكان، سافر إلى بلد مجاور، وأتى بهذا الدواء، وهو سعيد أكبر السعادة بأنه حصل على هذا الدواء، وهو مر، لماذا أحب هذا الدواء؟ هذا حب عقلي، لا حب عاطفي، الإنسان يحب الطعام الطيب، يحب الشراب اللذيذ،

يحب الأكلة الفاخرة، لا يحب دواءً مراً هذا حب عقلي، فالإنسان يحب الله يبدأ حب الله في قلبه عقلياً، هو الذي خلقني أمري بيده مصيري إليه، هو المسير، هو المربي، هو الواحد، بيده مقاليد السماوات والأرض، بيده من فوقي، بيده من تحتي، بيده من معي، بيده صحتي، بيده رزقي، فكلما أيقن أن الله بيده كل شيء، وأنه وحده هو المعطي والمانع، والرافع والخافض، والمعز والمذل، يحبه حباً عقلياً بادئ ذي بدء، فإذا أحبه حباً عقلياً وأطاعه، وبعد أن أطاعه أقبل عليه فأحبه حباً عاطفياً، عندئذٍ يقول:

فليتك تحلو والحياة مـــريرة وليتك ترضى و الأنـــام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عـامر وبيني وبين العالمين خــــراب
وليت شرابي من ودادك سائـغ ومن شربي من ماء الفرات سراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـــراب

***

الإنسان لا يسعد إلا إذا أحب اختياراً :

يبدأ الإنسان من محبة الله بعقله، يفكر في خلق السماوات والأرض، يفكر في طعامه وشرابه، يفكر مما خلق، يفكر في الإبل كيف خلقت، في السماء كيف رفعت، في الجبال كيف نصبت، ويفكر في الفجر وليال عشر، في الشمس وضحاها، يفكر في ذاته، في أقرب الناس إليه، أقرب شيء إليه، فيعظم الله عز وجل، ويحمله تعظيمه على طاعته، وحينما يطيعه، ويقبل عليه، ويذوق طعم القرب منه فيحبه.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لـما وليت عنا لغيـرنا
ولو سمعت أذناك حسن خـطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجـئتنا
ولو ذقت من طعم المـحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحـبنا
ولو نسمت من قربنا لك نسـمة لـمـت غريباً و اشتياقاً لقربنا
فما حبنا سهل وكل من ادعـى سهولته قلنا له: قد جهـلتنا

***

أيها الأخوة، المعنى الأول: أن الله أحبهم لأنه أراد أن يسعدهم، ولأن الله ذات كاملة، وهم أحبوه لأنه أكرمهم، منحهم نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد.

المعنى الثاني: إنه أحبهم حينما خلقهم، وحينما أمدهم، وحينما هداهم إليه، هم إذا استجابوا له، وأقبلوا عليه، واصطبغوا بصبغته يحبهم محبة ثانية، محبة الإيجاد، ومحبة الطاعة، والإخلاص، والوفاء، والكمال، لذلك هذا الدين مبني على الحب، لو أن الله أراد من الناس أن يطيعوه قسراً لجعلهم يطيعونه،

لكن هذه الطاعة القسرية لا يمكن أن تكون مسعدة لهم إطلاقاً، الإنسان لا يسعد إلا إذا أحب اختياراً، أما إذا ألزم أن يحب هذا الحب لا قيمة له، إنه شكل بلا مضمون، وقشر بلا لب. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ـ وفي رواية ـ من ماله وولده وأهله ونفسه))

[الطبراني في الأوسط عن عبد الرحمن بن أبي ليلة عن أبيه]

ما من دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وفيها خصائص :

سيدنا عمر كان صريحاً مع رسول الله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ]

لا بد للإنسان أن يشعر بحب لله عز وجل، وحب مشتق من حبه لله، أن يحب المؤمنين والصالحين، وأن يحب خلق الله أجمعين، فهو فقير لأصل من أصول الدين.

سؤال دقيق أيها الأخوة، هذا السؤال يلزمنا أن نفهم جوابه، هؤلاء الذين ارتدوا، وادعوا النبوة، ألم يطالبوا بالدليل؟ النبي معه معجزات، لماذا لم يطالبوا بالدليل، ولماذا آمن الذين آمنوا بهم من دون دليل؟ الجواب بسيط جداً: لأنهم لم يأتوا بمنهج، بل خففوا المنهج، الذين ارتدوا، وادعوا النبوة ألغوا الصلاة، والشيء الطريف جداً أن بعضهم ألغى الصلاة، وألغى الصيام، وسمح لأتباعه أن يرى نساء بعضهم الآخر، أي وضع يده على شهواتهم، خفف التكاليف عنهم، لذلك ما من دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وفيها خصائص، منها تأليه الأشخاص، أما في الدين فالتعظيم للمنهج.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)

[سورة الحاقة:44-47]

(وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً*إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ)

[سورة الإسراء:74-75]

في المنهج الإلهي التعظيم للمنهج أما في منهج أهل الأرض فالتعظيم للشخص :

في المنهج الإلهي التعظيم للمنهج، أما في منهج أهل الأرض فالتعظيم للشخص، لذلك المنهج يكبر فيصغر الشخص.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة يونس:15]

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف: 110]

(لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً)

[سورة الجن: 21]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: 31]

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

كلما كبر المنهج صغر الإنسان وكلما كبر الإنسان صغر المنهج :

كلما كبر المنهج صغر الإنسان، وكلما كبر الإنسان صغر المنهج، لذلك حينما يأتي نبي كريم، ويأتي بمنهج قويم، هذا المنهج يحد من شهوات الناس، ومن طغيانهم، ومن تعدياتهم، ومن انحرافهم، ومن اتباعهم لشهواتهم، لذلك يطالب النبي بالدليل.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

[سورة الرعد: 43]

تأتي المعجزة كدليل، أما حينما يأتي إنسان، ويبيح الاختلاط، ويبيح النساء من دون قيد أو شرط، وانتم إلينا، وافعل ما تشاء، أعلن انتماءك وافعل ما تشاء، لذلك أتباع مثل هذه الديانات يعدون بمئات الملايين، ليس فيها جهد، ولا تكليف، ولا افعل ولا تفعل، افعل ما تشاء، أعلن انتماءك إلينا، وانتهى الأمر، فلذلك هؤلاء المشعوذون الذين ادعوا النبوة لم يطالبوا بالدليل، لأنهم تملقوا لأتباعهم بتخفيف التكاليف، لذلك جميع الدعوات الضالة من بعثة النبي إلى يوم القيامة تتسم بتأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الموضوعة والكاذبة، والنزعة العدوانية، ولا تجد دعوة ضالة مضلة من بعثة النبي إلى يوم القيامة إلا وتعتمد على تأليه الأشخاص، وتخفيف التكاليف، واعتماد النصوص الموضوعة والكاذبة،

واعتماد النزعة العدوانية، ولا تجد فئة صادقة مؤمنة مخلصة إلا وتتبع ولا تبتدع، إلا وتعظم المنهج ولا تعظم الأشخاص، إلا وتعتمد النص الصحيح، وذات سجية سلمية ليس هناك عدوان ولا طغيان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

هؤلاء القوم:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

المعنى التوحيدي والمعنى التكتيكي لنصرة الضعيف :

هناك ذل ضد العز، وهناك ذل ضد القسوة، شيء مذلل أي لين مطواع، شيء ذليل ليس بعزيز:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

أي متواضعين للمؤمنين، يحبون المؤمنين، يلبون حاجاتهم، ينساقون معهم:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

المصيبة الكبيرة أيها الأخوة أن ثمة إنسان إذا عامل مؤمناً ضعيفاً سحقه، أما إذا عامل كافراً قوياً وخضع له وكأنه ظله، فليس هناك من لؤم يفوق هذا اللؤم، أن تسحق الضعيف، وأن تذل أمام القوي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إنما تنصرون بضعفائكم))

[مسند البزار عن سعد]

هذا الضعيف الذي تملك أن تسحقه فأكرمته، هذا الضعيف الذي تملك أن تحرمه فلم تحرمه، هذا الضعيف الذي تملك أن تهينه فأكرمته، أعطيته حقه، أكرمته كرمته، يكافئك الله على هذا العمل الطيب أنه ينصرك على من هو أقوى منك:

((إنما تنصرون بضعفائكم))

[مسند البزار عن سعد]

هذا المعنى التوحيدي، أما المعنى التكتيكي: فأنت حينما تنصر الضعيف، وتكرم الضعيف، وتعطي الضعيف حقه، يلتحم معك فيصبح المجتمع قوة لا يمكن أن تخرق، لذلك تجد بعض المجتمعات التي فيها قسوة بالغة لا تصمد أمام عدوان خارجي ساعات، المجتمع مفكك، القسوة والظلم فكك المجتمع لذلك يسهل اختراقه، أما المجتمع المؤمن المتكاتف المتعاون المتناصر، الذي يرحم بعضه بعضاً، فهذا مجتمع متكاتف يصعب أن تخترقه.

الكافر يتجبر على الضعيف ويذل أمام القوي لأنه مقطوع عن الله :

أيها الأخوة الكرام: هؤلاء المؤمنون:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

لكن اللئيم ذليل أمام القوي، ينبطح أمامه، ومتجبر أمام الضعيف، يجرب عليه عضلاته.

طائرة من أحدث الطائرات في العالم، وإصابتها مئة في المئة، وقد تلقي بقنبلة لا تصل إلى الأرض، بل تقتل كل ما حول هذا الإنسان، ثم يشرف هذا الطاغية بنفسه على اغتيال هذا الإنسان، ما هذا النصر؟ النصر على من؟ على إنسان في السبعين، قعيد الكرسي، معاق، يرى بعين واحدة، مصاب بالشلل، هل هذا نصر؟ هذا نصر هذا؟ سبحان الله قلبت الموازين، البطولة أن تقابل مثيلاً لك، قوة عظيمة كقوة هذا الجيش، أما أن تضرب، وأن يشرف هذا الطاغية بنفسه على اغتيال هذا الإنسان، إنسان قعيد الكرسي معاق في السبعين من عمره، هل هذا هو النصر؟ لذلك الكافر يتجبر على الضعيف، ويذل أمام القوي، وكل إنسان مقطوع عن الله يتصرف بلؤم ما بعده لؤم.

والله واللهِ مرتين لحفر بئر بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، ونقل بحرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

عزيز أمام القوي لأنه يعتصم بالله، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، تكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه.

إذا كان عملك وفق المنهج الإلهي ووفق الضوابط الشرعية فلا تعبأ بكلام الناس :

الكريم يرحم من دونه، ويقف في وجه من فوقه، لا تأخذه في الله لومة لائم، واللئيم يسحق من دونه، ويذل لمن فوقه:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

لا يقنط من رحمة الله.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى: 39-40]

إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، إذا لم تستح من الله، إذا كان عملك وفق المنهج الإلهي، وفق الضوابط الشرعية فلا تعبأ بكلام الناس:

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

الذي يعبد الناس من دون الله يخاف على سمعته، ويرجو أن يعظموه، وأن يوقروه، ومع ذلك لا يسلم منهم أبداً، كيف ما تحركت هناك من ينتقدك. ركب جُحا على الحمار ومشى ابنه، فانتقده الناس، ما هذا الأب القاسي؟ أركب ابنه ومشى، ما هذا الابن العاق؟ ركبا معاً، ما هذه القسوة على الحمار؟ مشيا، ما هذا الجنون في رؤوسهم؟ يركبا الحمار، ماذا بقي؟ أن يحملا الحمار. كيفما تحركت فهناك من ينتقدك، لذلك إذا لم تستح فاصنع ما تشاء، لا تعبأ بكلام الناس، ومن عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به:

(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

إن تمسكت بالدين تزمت، وإن قلت: أنا أقيم شرع الله، جمود بالفكر، وإن انفتحت على الناس، مائع، كيفما فعلت انتقِدت، لذلك احرص على طاعة الله، ولا تأخذك في الله لومة لائم، قال:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)

أن تكون محباً لله، أن يحبك وتحبه، وأن تكون أمام المؤمن ذليلاً مطواعاً متواضعاً، وأن تكون أمام القوي شهماً عزيزاً، وأن تجاهد في سبيل الله جهاد النفس والهوى، وجهاداً دعوياً، وجهاداً بنائياً، ثم جهاداً قتالياً:

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (28 - 49) : تفسير الآيات 55 - 58، الولاء والبراء.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-04-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الولاء والبراء :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والعشرين من دروس سورة المائدة ومع الآية الخامسة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

أيها الأخوة، ما معنى كلمة الولي؟ الذي يتولاك، الذي يربيك، الذي يمدك، الذي يعالجك، الذي يحبك، الذي يرحمك.

في الإسلام شيء دقيق جداً هو: الولاء والبراء، فإذا كان الله وليك ينبغي أن تكون وليه أنت، أن ترجع إليه، أن تهتدي بهداه، أن تحب من يحبه وأن تبغض من يبغضه، أن تعين المؤمنين، أن تنصحهم، أن تكون في خدمتهم، لذلك لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا اتضح عنده الولاء والبراء، أن يوالي المؤمنين، ولو كانوا ضعافاً، وأن يبرأ من الكفار والمشركين، ولو كانوا أقوياء، ما لم يكن عندك ولاء للمؤمنين، وبراء من غيرهم فلست مؤمناً، الله عز وجل يقول: " إنما "، إنما أداة حصر وقصر، أي لو أن الله عز وجل قال: الله وليكم، هذا لا يمنع أن يكون لكم ولي آخر، أما حينما يقول الله عز وجل:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ)

فلا يمكن، ولا يقبل، ولا يعقل أن تتخذ ولياً غير الله عز وجل، وغير رسوله، وغير المؤمنين، بل محرم عليك أشد التحريم أن توالي أعداء الله، أن تميل نحوهم، أن تسترشد بهم، أن تهتدي بمناهجهم، أن تقلدهم، أن تقف معهم، أن تتبع توجيهاتهم، هذا محرم عليك أشد التحريم.

فرق كبير جداً بين من كان الله وليه وبين من لا ولي له :

أيها الأخوة:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

للتقريب، أب نموذجي بأعلى درجة من العلم والحكمة والقدرة والغنى والرحمة والعطف، وله ابن يرعى شؤونه كلها، يرعى صحته، يرعى دراسته، يرعى تربيته، يرعى أخلاقه، يرعى دينه، يخطط

لمستقبله، يدفعه إلى أعلى مراتب التفوق، نقول: هذا الأب ولي لهذا الابن، لو تصورنا ابناً مات أبوه، وتزوجت أمه وأهمله المجتمع، فمن انحراف إلى آخر، ومن مخفر إلى مخفر، ومن سجن إلى سجن، يتعاطى المخدرات، ينغمس في بحر الرذيلة، نقول: فرق كبير جداً بين طفل له ولي كبير، أب حكيم، أب عالم، أب مقتدر، وبين طفل مات أبوه، وتزوجت أمه، وشرد على أنظمة المجتمع، واستحق الضياع والسجن، هل هناك ما يقارب هؤلاء مع هؤلاء؟ هل هناك نسبة بين الولدين؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

أنت كمؤمن لك مرجع، لك منهج، لك قيم، لك توجيهات من الله عز وجل، في حياتك فرائض، وواجبات، ومباحات، ومكروهات، ومحرمات، وسنن، لك قدوة، النبي قدوتك، والصحابة قدوتك، والقرآن منهجك، والسنة دليلك، فرق كبير جداً بين من كان الله وليه وبين من لا ولي له.

الله تعالى حينما ألزمك أن تجعل الله وليك أراد لك الولي المطلق الذي لا يعجزه شيء:

لذلك أيها الأخوة، بعيد جداً، ويكاد أن يكون مستحيلاً أن يقع المؤمن في ورطة كبيرة، لأن منهج الله يحرسه، لأن أمر الله ونهيه يحميه، لأن علمه أن الله موجود، وأنه يحاسب، وأنه يعاقب، وأن الله معه، ولا يتخلى عنه، هناك حقائق كثيرة جداً تحمي الإنسان من أن ينحرف، هؤلاء الذين يدمرون، هؤلاء الذين يسحقون، هؤلاء الذين يفضحون، هؤلاء لم يتخذوا الله ولياً لهم، ليس لهم مرجع إلا شهواتهم ومصالحهم ونزواتهم، لذلك يقعون في ورطة ما بعدها ورطة، الله عز وجل يقول:

(إنما)

أي أنت لست مكلفاً أن توالي ربك فقط، بل وأن تحصر ولاءك لله عز وجل، الله وليك، أي أن الله سبحانه وتعالى منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، يربيك، ويهديك، ويصحح مسارك، ويصوب أفعالك، ويحاسبك، ويشدد عليك، ويضيق عليك أحياناً، ثم يوفقك، ثم يجمعك مع أهل الحق، ثم يعينك على صلاح دنياك، وصلاح آخرتك، هذا معنى قوله تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ)

لماذا لم يرد الله لنا أن نتخذ ولياً غيره؟ لأنه إذا كان وليك الإنسان فالإنسان بالأساس محدود، علمه محدود، قدراته محدودة، عواطفه محدودة، الإنسان محدود وضعيف، فقد يرشدك إلى شيء فيه هلاكك لك، لأن علمه محدود، قد يدلك على شيء فيه إخفاق لك، لأن علمه محدود، وقد يكذب عليك، ويبين لك أنه وليك وهو في الحقيقة ليس وليك، ففيه احتمال المحدودية، واحتمال الكذب، لماذا لم يرد الله أن يكون الإنسان وليك، ولو كان كبيراً أو عظيماً؟ لأن أي إنسان محدود، لم يرد الله لك أن يكون المرجع

محدوداً، ولا أن يكون منافقاً، لكن الله سبحانه وتعالى حينما ألزمك أن تجعل الله وليك أراد لك الولي المطلق الذي لا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء، أراد لك أن يكون الولي غنياً وقوياً ومهيمناً ومتصرفاً، أراد لك أن تقوى بقوته، وأن تغتني بغناه، وأن تكون حكيماً بحكمته، وأن تسعد بالقرب منه، لو خيرت بين أن يكون لك مرجعان: مرجع فقير جاهل، ومرجع قوي غني عالم، الشيء الطبيعي والبديهي أن تؤثر أن ترجع إلى القوي، إلى الغني، إلى الرحيم، فكيف إذا كان الله عز وجل بيده كل شيء، بدأ من صحتك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، إلى حواسك، إلى أهلك، إلى أولادك، إلى من فوقك، إلى من تحتك، إلى الرزق، إلى الرحمة، إلى السكينة، كل شيء بيد الله عز وجل، اجعله وليك، إذا كنت مع القوي فأنت القوي، نحن في المنظور الأرضي أضعف دولة، لو أن دولة قوية دعمتها لأصبحت أقوى دولة، أنت حينما تكون مع الله كان الله معك، كلمات لا أدري أين تصل إليكم، إذا كان الله معك فمن عليك؟ لا تستطيع قوى الأرض أن تنال منك، ألا ترون واقع المسلمين اليوم؟ في وضع لا يحسدون عليه.

القرآن منهج الله في الأرض وفيه تعليمات الصانع :

قال الله عز وجل:

(قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

أعداؤهم مكروا، مكر أعداء المؤمنين تزول منه الجبال، وفي آية قصيرة يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

[سورة آل عمران: 120]

الخلاص في هذه الآية، كمجند بفرقة هل يخشى هذه الرتب المخيفة إذا كان أبوه قائد الجيش؟ انتهى كل شيء، الله عز وجل ينتظر منا أن نجعله ولياً لنا، أن نجعله مرجعاً لنا، أن نجعله ملاذاً لنا، أن نجعله ملجأ لنا، أن نجعله هادياً لنا.

((يا عبادي، كُلُّكم ضالٌ إلا مَنْ هَدَيتُه، فاسْتَهدُوني أهْدِكم، يا عبادي، كُلُّكم جائع إلا مَنْ أطعمتُهُ، فاستطعِموني أُطْعِمْكم، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))

[مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

إذاً الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

أي الله في قرآنه، هذا القرآن منهج الله في الأرض، هذا القرآن تعليمات الصانع، هذا القرآن الكريم لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والحسن ما سمح الله به، والقبيح ما نهى الله عنه.

السنة منهج تفصيلي والقرآن منهج كلي :

قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

في كتابه، والله وليكم في الدعاء أيضاً، ادعوه يستجب لكم، إن دعوتموه أولاً: يسمعكم، وثانياً: هو قادر على إجابة دعائكم، وثالثاً: يحب أن يرحمكم، موجود ويسمع، وقادر ويرحم، وليكم فيما ينبغي أن تعتقدوا، وليكم في أنه قدم لكم تفسيراً شاملاً متناسقاً لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان وليكم هو معكم، تدعونه سراً وعلانية، تدعونه سراً وجهراً، وليكم إذا رآكم قد انحرفتم يربيكم، يضيق عليكم:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

وليك في عقيدتك، وليك في المنهج القويم الذي إذا سرت عليه سلمت وسعدت، وليك في أنه تدعوه فيستجيب لك، وليك في أنه يربيك، الآن الإنسان أحياناً يهمه ممن يعمل معه أن يقوم بواجبه أتم القيام، لكن لا يعنيه دينه، ولا استقامته، ولا خلقه، لكن الله خلقك ليسعدك، ليرحمك، فإذا قصرت ضيق عليك، إذا قصرت شدد عليك، أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدري، وتضيقي، وتشدي على أوليائي حتى يحبوا لقائي، هناك متابعة من الله عز وجل:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)

الله عز وجل أنزل هذا الكتاب، والنبي عليه الصلاة والسلام بيَّنه وفصَّله، فالسنة منهج تفصيلي، والقرآن منهج كلي، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله وإقراره كان تفسيراً وتوضيحاً وبياناً لما في كتاب الله عز وجل فالنبي إذا أمرك بأمر ينبغي أن تأتمر.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: 7]

المؤمن نصوح يرشدك ويقدم لك العون :

النبي إذا وجهك توجيهاً ينبغي أن تستجيب له:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: 50]

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

المؤمن نصوح، المؤمن ينصحك ولا يسكت على انحراف، المؤمن يرشدك، المؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، المؤمن يقدم لك العون، المؤمن يغار على مصلحتك، المؤمن يغار على سمعتك، المؤمن يغار على مصيرك، فالله ورسوله والذين أمنوا واحد، الأصل أن الله ولينا، فرع من هذا الأصل أن النبي عليه الصلاة والسلام ولينا، فرع آخر من الفرع المؤمنون أولياؤنا، لذلك المؤمن يرجع إلى القرآن لأن الله وليه، يرجع إلى السنة لأن النبي عليه الصلاة والسلام وليه، الآن يستشر المؤمنين لأن المؤمنين أولياؤه، أي لو استشرت إنساناً شارداً عن الله، الله عز وجل قال:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

هناك آلاف القضايا، إن استشرت مؤمناً نصحك، وأرشدك، ومنحك النصيحة، وأخلص لك، إن استشرت غير مؤمن لم يدلك على ما فيه مصلحتك، مثلاً: لو أنت في محل تجاري، واستشرت صاحب المحل أتابع دراستي أم لا؟ إذا كان مؤمناً ينصحك بمتابعة الدراسة ولو خسرك، بينما غير المؤمن يزهدك في الدراسة، يقول لك: ابقَ هنا، الدراسة لا تطعم الطعام، لمصلحته، يرشدك لمصلحته، بينما المؤمن يرشدك لمصلحتك.

لا يجوز أبداً أن تستنصح غافلاً ولا شارداً ولا أن تستشيره ولا أن تركن إليه :

إذاً هذه الآية دقيقة جداً:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا)

لماذا المؤمن يجب أن ترجع إليه؟ لأنه اهتدى بهدى الله عز وجل، وطبق سنة رسول الله، لكن بشكل أدق:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

متصل بالله، قلبه مستنير بنور الله، أي إذا عرض عليك عمل كان فيه نفع كبير مادي، لكن فيه مخاطرة كبيرة جداً في الدين، لو سألت مؤمناً ينهاك عن هذا العمل، تقول له: خمسة أمثال الدخل، يقول لك: إذا ضاع دينك خسرت كل شيء، استشر إنساناً آخر شارداً عن الله ينصحك بأن تقبل على هذا العمل من دون تردد ولا يعبأ بدينك، إنه يعبأ بالمال فقط، لذلك:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف: 28]

لا يجوز بحال من الأحوال أن تستنصح غافلاً ولا شارداً، ولا أن تستشيره، ولا أن تركن إليه:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)

[سورة هود: 113]

ولا أن تتمنى أن يقربك أبداً، يجب أن تزهد به.

الاستخارة لله عز وجل والاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين :

قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

هذا موصول بالله عز وجل، موصول بالمطلق، موصول بنور السماوات والأرض، الله نور السماوات والأرض، موصول بالحكيم، موصول بالعليم، موصول بمن خلقنا ليسعدنا، لا ليمتعنا في الدنيا لسنوات معدودات ثم تنتظرون جهنم وبئس المصير، لا، فالمؤمن ينظر إلى آخرتك، إذاً:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

من لوازم إقامة الصلاة أنهم يؤتون الزكاة، وكأن الله اختار من أركان الإسلام عبادة شعائرية، وعبادة تعاملية، واحدة اتصال بالله، والثانية إحسان للخلق، والثانية دليل الأولى، والأولى سبب الثانية، فهذا المؤمن المتصل بالله، وهذا المؤمن الذي له أعمال صالحة في خدمة الناس، هذا ينبغي أن تستشيره، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

وقال العلماء: الاستخارة لله عز وجل، والاستشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، أجمل ما في هذه الآية أن المؤمن له مرجع، له مرجع يسأل، إن علم الحكم الشرعي علم الحكم الشرعي، وإن لم يعلم سأل، ما الحكم الشرعي في هذا الزواج؟ ما الحكم الشرعي في هذه التجارة؟ ما الحكم الشرعي في هذه السفرة؟ ما الحكم الشرعي في شراء هذا البيت؟ له مرجع يخاف أن يخرج عن منهج الله، إن علم الحكم علم الحكم، وإن لم يعلم الحكم سأل من يعلم، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

من صفات المؤمن أنه يسأل لأن له مرجعية :

إذا كانت القضية متعلقة بالله عز وجل:

(فاسْألْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان: 59]

لأن الله مرجعك، ولأن رسوله مرجعك، ولأن أولي الخبرة من المؤمنين مرجعك، ينبغي أن تسأل، لذلك ورد في القرآن آيات كثيرة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)

[سورة البقرة: 219]

(يسألونك عن المحيض قل هو أذى)

[سورة البقرة: 222]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

من صفات المؤمن أنه يسأل، لأن له مرجعية، أقول مرة ثانية: قلّما يُدَمَّر المؤمن، قلّما يُسحَق، قلّما يُفتضَح، لماذا؟ لأن له مرجعية، ويتحرك بنور الله، يطبق منهج الله، يسعى لنيل رضوان الله عز وجل، المؤمن قد تأتيه بعض الامتحانات، وبعض المصائب لكنها معقولة جداً، خفيفة، لطيفة، سريعة.

الكافر يعيش لحظته وإن عرضت له شهوة يقتنصها :

أحياناً الإنسان يُدَمَّر، هذا الذي يرتكب جريمة ثم يعدم، هذا مقطوع عن الله، لو كان مع الله لما أقدم على هذا، لا تنسوا هذا المثل: ابن له أب كبير بعلمه، ورحمته، وحكمته، وخبرته، وماله، هيأ له أجواء رائعة، اعتنى بصحته، اعتنى بعقله، اعتنى بنفسه، اعتنى بعلاقاته، اعتنى بدراسته، رسم له مستقبلاً مشرقاً، تفرغ له، هذا الابن هل يوازى مع ابن مات أبوه، وتزوجت أمه، وسكن في المخافر، وفي مأوى الشاردين، ومن مخفر إلى مخفر، ومن سجن إلى سجن، وهو غارق في المخدرات وفي الانحرافات والشذوذ، هذا كهذا؟ أين الثرى من الثريا:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ)

[سورة محمد: 11]

الكافر يعيش لحظته، عرضت له شهوة فيقتنصها، حرام أو حلال، عرض له مال يأخذه، لا يسأل أيجوز أو لا يجوز.

سمعت عن إنسان فقير جداً يعمل في بستان بأجر زهيد، أعطي عشرين دونماً من ملاك كبير بقوة القانون، فهذا اختل توازنه من الفرح، فذهب إلى شيخه ومرجعه يبشره بهذا العطاء، انتقل من أجير إلى مالك، من فقير إلى غني، فقال له شيخه، وأنا لا أعلق على حكم الشيخ في هذا الموضوع، لكن يهمني المغزى، قال له: هذه الأرض مغتصبة، لا يجوز أن تأخذها، كأن فرحته في هذه الأرض جمرة أطفأتها

بكأس ماء، همد، لا يجوز، ماذا أفعل يا سيدي؟ قال له: ليس لهذا وجه شرعي، إذا أردت فاشترِ الأرض من صاحبها، قال له: لا أملك ثمنها، قال له: لعله يبيعك إياها تقسيطاً، فذهب إلى صاحب الأرض الذي أخذت منه، قال: يا سيدي أعطوني من أرضك عشرين دونماً، وسألت شيخي فقال: لا يجوز أن آخذها منك، لأنها أخذت منك غصباً، هل تبيعني إياها؟ تأمله ملياً، وقال له: يا بني أنا أخذوا مني أربعمئة دونم، لم يأتِ إلي إلا أنت، هذه هدية لك، خذها وتملكها، وازرعها، وانتفع بخيرها، هي هدية لك، بارك الله لك بها، له مرجع، تملكها حلالاً، له مرجع، المؤمن له مرجع، قبل أن يسافر، قبل أن يغامر، قبل أن يتزوج، قبل أن يعمل في جهة لا ترضي الله، قبل أن يكتب، قبل أن ينال شهادة في فن لا يرضي الله، له مرجع:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل: 43]

قلّما يُدمَّر المؤمن لأنه يتحرك وفق منهج الله :

والله أيها الأخوة، إنسان جمع أموالاً طائلة للاستثمار، ثم أقام مسابقة لانتخاب ملكة جمال، الذين أودعوا معه أموالاً من المتدينين رابهم هذا الأمر، فسألوا مشايخهم، فقال: يا بني اسحبوا أموالكم، هذا إنسان يبدو على غير منهج، الذين سحبوا أموالهم في الوقت المناسب هم الذين نجوا وحدهم من الإفلاس، المؤمن له مرجعية، يسأل، الله عز وجل ما دام يعلم منك صدقاً يلهم الذي تسأله أن يقدم لك النصح، أقول لكم مرة ثانية: قلّما يُدمَّر المؤمن، قلّما يُسحَق، قلّما يُفضَح، لماذا؟ لأن له مرجعاً يتحرك وفق منهج الله، يتحرك في مظلة الله، يتحرك بتوجيه كتاب الله، يتحرك بهدي رسول الله، يستنصح المؤمنين، لذلك لست وحدك في الحياة، أنت عضو بأسرة، أجمل ما في الإيمان هذا الجمع، أنت عضو بأسرة، الكل لواحد، والواحد للكل، ألف أخ مؤمن ينصحك ويعينك، فإذا كنت مع المؤمنين ألف مؤمن يساعدك، ألف مؤمن يعاونك، والله التضحيات التي تراها في مجتمع المؤمنين تكاد لا تصدق، أنت في جماعة، أنت مع المؤمنين، لذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

في بعض أسباب النزول قد لا تقبلونها، أنه أثناء الركوع سائل سأل سيدنا علي، مد له يده، وفيها خاتم فسحبه، فلذلك أدى الزكاة وهو راكع، لكن المعنى الذي يليق بقرآن الله عز وجل، أنه يؤدي الزكاة، وهو خاضع لله في منهجه، يطبق منهج الله عز وجل، هناك إنسان يدفع مالاً، معه مال وفير، هو غارق في شهوته، لكنه يعطي من ماله ما يشاء، لا:

(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)

خاضعون لمنهج الله عز وجل.

مستحيل أن تكون من حزب الله وأن تُغلَب :

قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تكون من حزب الله وأن تُغلَب، مستحيل أن تكون جندياً لله، وأن تُغلَب. فإن لم تَغلِب فيجب أن تشك في جنديتك لله، وإن لم تَغلِب أنت لست من حزب الله بالمعنى القرآني طبعاً:

(فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

[سورة المائدة: 59]

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة غافر: 51]

هكذا حكم الله عز وجل:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

[سورة الصافات: 173]

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

[سورة النساء: 141]

حينما لا يظلم بعضنا بعضاً ننتصر على أعدائنا :

كل هذا وعد الله عز وجل، وزوال الكون أهون من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، فإن لم تحقق هذه الوعود فالخلل عندنا، والكرة في ملعبنا، الخلل عندنا، في إنسان يسأل لمَ لم ينصرنا الله على أعدائنا؟ عندما يبلغك أنه ستة وسبعون مليون اتصال هؤلاء قيمتهم النقدية مليارات من أجل اختيار مغنية أو أخرى، هذا واقع المسلمين، سبعون مليون اتصال تكلف مليارات فقط من أجل أن تتصل، وتقول: أنا أحب هذه المغنية، هؤلاء كلهم مسلمون، فلذلك لا تعتبوا على الله، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ*وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

هذا قول خالق الأكوان، لذلك عندما أرسل النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة لتقييم تمر خيبر، اليهود أغروه بحلي نسائهم، فقال: والله جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا، ونحن حينما لا يظلم بعضنا بعضاً ننتصر على أعدائنا.

((إنما تُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

الضعيف، أنت قوي، حينما تعطيه حقه، وحينما توفر له كرامته، يكافئك الله على أن نصرت من هو أضعف منك بأن ينصرك على من هو أقوى منك، يكافئك الله، لأنك نصرت من هو أضعف منك ينصرك على من هو أقوى منك، وأنت حينما تعطي كل إنسان حقه، وتعطيه كرامته، تعطيه رغيف خبزه وكرامته تأخذ منه كل شيء، ويصبح المجتمع متماسكاً لا يخرق.

من أرضى الناس بسخط الله سخط عنه الله وأسخط عنه الناس :

بربكم قوة اليهود من أسلحتهم فقط؟ من معلومات، من أعطاهم إياها؟ كيف اغتالوا فلاناً وفلاناً؟ من أين جاءتهم المعلومات؟ معنى ذلك هناك خطأ وخلل كبير في حياتنا:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ)

لا تنسوا هذه المقولة، زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تؤمن بالله، وأن تعد لأعدائك ما تستطيع ثم لا تنتصر، هناك خلل إما في الإعداد أو في الإيمان، الخلل إما في الإيمان أو في الإعداد، أما آمنت بالله الإيمان الحق، وأعددت لعدوك ما تستطيع ولا تنتصر، هذا يتناقض مع القرآن الكريم، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أقول لكم: المسلم المقصر دون أن يشعر إن رأى جهة قوية مسيطرة غنية يميل إليها على حساب دينه، يميل إليها على حساب كرامته، فإذا والى الواحد منا الطرف الآخر، ولم يوال المؤمنين خيب الله مسعاه، من أرضى الناس بسخط الله سخط عنه الله، وأسخط عنه الناس، وفي تجارب المسلمين مع الطرف الآخر هل جاءنا خير منهم؟ أبداً، الله عز وجل قال:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

(وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له :

أيها الأخوة، بتوجيه من الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً)

أي لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، لا يراك عظيماً يراك سخيفاً، يراك جاهلاً، يراك ضيق الأفق، يهزأ بدينك، يهزأ بقرآنك، يهزأ بسنة نبيك، يهزأ بقبلتك، يهزأ باعتقادك، لماذا تصاحبه؟ لماذا ترتاح له؟ لماذا تجامله؟ لماذا تداهنه؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ)

ممنوع أن تصاحبه، فكيف إذا اتخذته ولياً؟ استهديت بهديه، سألته، استشرته، نصحك أن تفعل كذا، أن تتاجر بهذه التجارة، يقول لك: هذه تجارة مربحة، أين عقلك؟ فيها ربا، فيها مادة محرمة، لا تهتدي بهديه، لا تصغ إلى توجيهه، لا تعرض له مشكلتك، فيشمت بك، من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، لا تضعف أمامه لا تظهر نقاط ضعفك أمامه أبداً:

(لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

اجعلوا الله وليكم، اجعلوا رسوله وليكم، اجعلوا توجيه المؤمنين وليكم، والدليل الآخر؛ أنت في حياتك مقدسات، هذا الذي لا يقيم وزناً لمقدساتك ينبغي ألا تصغي إليه، وألا تصاحبه، وألا تقيم معه علاقات حميمة، لا يجوز، علاقات العمل مسموح بها، أما علاقات حميمة، زيارات طويلة، سهرات إلى وقت متأخر، رحلات مشتركة، شراكة اندماجية، هذه علاقة حميمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ*وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)

نحن في حياتنا إذا إنسان متفوق في العلم، وعنده مكتبة ضخمة، وهذه المكتبة استوعبها، وهي تجري في دمه، لو التقى بإنسان جاهل يهزأ به، يقول له: هذه المكتبة لا تطعمك الخبز، افعل كذا وكذا، لا يعرف قدر العالم إلا العالم، فأنت حينما تصاحب من لا يرى لك فضلاً تكون قد أخطأت خطأ فاحشاً، لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (29 - 49) : تفسير الآيات 59 - 62، العقيدة السليمة وزيغ عقيدة الطرف الآخر.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-04-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

العقيدة السليمة تكشف زيغ عقيدة الطرف الآخر :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والعشرين من سورة المائدة، ومع الآية التاسعة والخمسين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

لماذا ينقم أهل الكتاب على الذين آمنوا بالله؟ هذه حقيقة أيها الأخوة تنسحب على أية علاقة بين مؤمن وغير مؤمن إلى يوم القيامة، ذلك أن المؤمن حينما انتصر على نفسه وأقر بالحق، وخضع له، وجعله منهجاً له في حياته، وأرض نفسه، وأرض ربه، وشعر بالتفوق، هذا الإنسان بهذا السلوك، وبهذا الانصياع، وبهذه الطمأنينة، وبهذه السعادة، كشف العاصي، وكشف المقصر، وكشف من كانت عقيدته زائغة، وكشف من كانت علاقاته سيئة مع الآخرين، لذلك هذا الذي كُشف وعرِّي أمام المجتمع، ينقم على المؤمن، تماماً كما لو أن موظفين في دائرة كلفا بشراء حاجات، فالواحد رفض أن يوقع توقيعاً غير صحيح، وأن يأخذ عمولة لا يستحقها، فلما رفض الأول، وانتصر على نفسه، وأكد استقامته، وأكد نزاهته، يكشف الطرف الأخر الذي أراد أن يأخذ مالاً حراماً، وأراد أن يغش الأمة، وأراد أن يخون الأمانة، فالإنسان حينما يستقيم يكشف غير المستقيم، وحينما تصح عقيدته يكشف من زاغت عقيدته.
حينما يقول الطرف الآخر: يد الله مغلولة، إن الله فقير ونحن أغنياء، فحينما يؤمن المؤمن بأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود: 123]

حينما يؤمن المؤمن أن الله غني ونحن الفقراء، هذه العقيدة السليمة تكشف زيغ عقيدة الطرف الآخر، وهذه الاستقامة الرشيدة تكشف انحراف الطرف الآخر، وهذا التعامل الأخلاقي والسلوك الرباني يكشف سلوك الطرف الآخر، لذلك كانت النقمة.

المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية أبدية :

أيها الأخوة: العلاقة بين شخصين:

((والذي نفس محمد بيده ما تواد اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

على مستوى الأمم والشعوب.

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

حينما يعتدي شعب يعادي الشعوب الآمنة المسالمة، كأن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، الإنسان المؤمن يوطن نفسه على الطرف الآخر، يكره المؤمنين، الطرف الآخر كره سيد المرسلين، الطرف الآخر لم يعبأ بهذا الكمال الفريد الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، لم يعبأ بهذا المنطق السديد، لم يعبأ بهذا الوحي الذي بيَّن كل شيء، وشرح كل شيء، وقد أعطى تفسيراً للكون والحياة والإنسان، فلذلك الآية الكريمة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا)

العداوة والبغضاء بين الذين آمنوا والذين كفروا عداوة طبيعية من الأزل إلى الأبد :

لماذا قال قابيل لهابيل:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

ماذا فعل هابيل؟ قدم قرباناً لله عز وجل من أفضل ما عنده من أموال فتقبله الله عز وجل، ماذا فعل قابيل؟ قدم من أسوأ ما عنده فالله عز وجل لم يتقبله قال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

ما فعل معه شيئاً، هابيل قبل أن يأخذ أخته التي من بطن قابيل، وقابيل رفض أن يأخذ أخته التي من بطن هابيل، فقال:

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

وهذه العداوة والبغضاء التي ترونها بين الذين آمنوا بالله وبين الذين لم يؤمنوا به، بين الذين استقاموا وبين الذين لم يستقيموا، بين الذين أحسنوا وبين الذين لم يحسنوا،

هذه عداوة طبيعية من الأزل إلى الأبد.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

[سورة الأنعام: 112]

حينما تعصي الله يختل توازنك لأن منهج الله متوافق مع فطرتك توافقاً تاماً :

أيها الأخوة الكرام، يدخل واحد على رسول الله، وهو قمة المجتمع البشري قاطبة، قمة المجتمع البشري بكلامه السديد، بخلقه الرفيع، برحمته الواسعة، بكل ما أتاه الله من كمال، يقول: يا محمد دخلت عليك وما على وجه الأرض رجل أبغض إلي منك، والآن أغادر وما على وجه الأرض رجل أحب إلي منك.

فالعداوة بين المؤمنين وبين الطرف الآخر عداوة طبيعية، أساسها أن الإنسان حينما يعصي ربه، دققوا الآن، يختل توازنه لأنه خالف فطرته، لأنه خالف ما جبل عليه، لأنه تنكر لفطرته، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ *وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة الإنسان: 14-15]

أنت حينما تعصي الله عز وجل يختل توازنك، لأن منهج الله متوافق مع فطرتك توافقاً تاماً، فسواء أخرجت عن مبادئ فطرتك، أو أنك خرجت عن مبادئ دينك النتيجة واحدة، كآية ما بعدها كآية، فالإنسان حينما يعصي الله، حينما تغلبه شهوته، حينما تسيطر عليه نزوته، حينما يؤثر الدنيا على الآخرة، حينما يتنكر لإنسانيته، أيها الأخوة الكرام، الإنسان إذا فعل ذلك يختل توازنه، وإذا اختل توازنه كيف يستعيده؟ هنا يستعيد توازنه بأن يطعن بالمؤمنين، وهذا سلوك مألوف من قديم الأزمان.

الآن في البيت شاب مستقيم، منضبط، ورع، يغض بصره، صادق، دخله حلال، وأخوه في البيت نفسه، متفلت، يميل إلى كل شيء لا يرضي الله، لا يصدق، يسيء، لا يحسن، لماذا تنشأ عداوة بين الأخوين؟ مع أن الأول مسالم جداً، لأن الأول كشف الثاني، لذلك الثاني تأتي عداوته من الطرف الأول لأنه كشف، لذلك كيف يستعيد توازنه؟ يستعيد توازنه بطريق واحد، يدقق على أخيه، لو أنه هفا هفوة لجعلها جريمة.

من فسدت عقيدته يعادي من صحت عقيدته لكن المؤمن يسالم ويسامح :

أيها الأخوة الكرام: الآية تقول:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ)

أي نحن آمنا بأنبيائكم، آمنا برسلكم، آمنا بالسيد المسيح، آمنا بسيدنا موسى عليه السلام، آمنا بالتوراة، آمنا بالإنجيل، آمنا بالله، آمنا بوحدانيته، نحن ما فعلنا شيئاً يسيء إليكم:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

(لَأَقْتُلَنَّكَ)

[سورة المائدة: 27]

بشكل مختصر الفاسق يعادي المستقيم، والخائن يعادي الأمين، والمنحرف يعادي الذي هو على صراط مستقيم، والكاذب يعادي الصادق، والورع يعادي المتساهل، ومن فسدت عقيدته يعادي من صحت عقيدته، لكن المؤمن يسالم، ويسامح، وهو أكبر بكثير من أن يكون له عدو من بني البشر، هذا أخي في الله أنصحه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، قِلنا: يا رسول الله، نَصَرْتُهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ أَنْصُرُهُ ظَالِماً؟ قال: تَكُفُّهُ عَنْ الظلم، فَذَاكَ نَصْرُكَ إيّاهُ))

[البخاري عن أنس بن مالك]

سبب معاداة الطرف الآخر للمؤمنين أنهم آمنوا بالله واستقاموا على أمره وأحبوه

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ)

فرعون ماذا فعل؟ لأنه آمن بالله نقم عليه، الذي ألقى أصحاب الأخدود في الأخدود وحرقهم.

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ* الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

[سورة البروج: 8-9]

المشكلة أنت تعادي قاتلاً، تعادي من يسفك دماء الناس، تعادي من ينتهك أعراضهم، أما أن تعادي إنساناً ذنبه الوحيد أنه آمن بالله، آمن بخالق الأكوان، واستقام على أمره، وتقرب إليه وأحبه، وجعل مرضاته مطمح آماله، ومحط رحاله، ماذا فعل؟ هذا الموقف وقفه سيدنا نعيم بن مسعود، وكان سيد غطفان، حينما جاء ليحارب النبي في موقعة الخندق، وهو في خيمته فكر، لماذا جئت إلى هنا يا نعيم؟ لتقاتل هذا الرجل الصالح!! ماذا فعل حتى تقاتله؟! هل سفك دماً؟! هل سلب مالاً؟! هل انتهك عرضاً؟! أين عقلك يا نعيم؟ أرأيت إلى هذا الحوار الصادق، أين عقلك يا نعيم؟!

الله سبحانه وتعالى يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين :

يا أيها الأخوة الأكارم، آلاف الأعمال يفعلها الناس اليوم بلا عقل، يعادي بلا سبب، يسالم بلا سبب، يعطي بلا سبب، يمنع بلا سبب، الناس إمعة هم مع الناس إن أحسن الناس، وإن أسَاؤوا أساؤوا.

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

قد تجلس مع إنسان لوقت قصير لا يجد حديثاً يحدثك فيه إلا عن بعض العلماء، تركت شرائح المجتمع كلها، فئات المجتمع كلها، تركت أصحاب الحرف كلهم، لا يحلو له شيء إلا أن يتصدى لمن أقامهم الله بالدعوة، أنا لا أبرئهم، ولكن لماذا هذا التركيز على من دعا إلى الله؟ لماذا هذا التركيز على من فعل شيئاً وأنت لم تفعل شيئاً، لماذا؟ قلت لواحد منهم مرةً، لو أن كل هؤلاء الدعاة ليسوا على حق، وليسوا مخلصين، هل تنجو أنت من عذاب الله؟ لا تنجو، من هو شر مكاناً من الذي ينتقده؟ الذي أعرض عن الله كلياً، أي أنتم تنقمون منا أننا آمنا بالله، هل هذا ذنب؟ وآمنا بما أنزل إلينا من هذا الكتاب العظيم، وآمنا بما أنزل من قبل، هذا ذنبنا، وهذا سبب نقمتكم علينا، أما أنتم، قل لهم يا محمد:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ)

أي أبعده عنه، الله عز وجل يعطي الصحة، والمال، والذكاء، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، قد يعطي الله المال لمن لا يحب، وقد يعطي القوة لمن لا يحب، وقد يعطي الصحة لمن لا يحب، ولكن هؤلاء الذين يحبهم الله عز وجل ماذا يعطيهم؟ يعطيهم السكينة.

الإسقاط العملي للآية السابقة على مجتمعنا :

لو انتقدت كل الدعاة إلى الله، وسفهت آراءهم، ومحصت في سلوكهم وانتقدتهم، وأسأت الظن بهم، هل تنجو أنت من عذاب الله؟ دعك منهم إذاً، التفت إلى نفسك هذا الإسقاط العملي لهذه الآية، هذه الآية عن أهل الكتاب، وعن علاقتهم بالمؤمنين، ولكن الإسقاط العملي لهذه الآية على مجتمعنا أنك حينما تنتقد داعية، وقد تكون مصيباً هل تنجو أنت من عذاب الله؟ هل يعد هذا خطأً؟ هذا الذي نصب نفسه للدعوة إلى الله، هل هذا الخطأ يبرر انحرافك؟ وأكلك المال الحرام؟ ومجاوزتك لحدود الله عز وجل، لذلك هذا الذي يعادي أهل الحق، ولا يأتمر بأمر الله، ولا يستقيم على أمره، ولا يقدم لآخرته شيئاً، هذا شر مكاناً عند الله من هذا الذي قدم شيئاً، وقد جانب الصواب أحياناً.

مرة سألني إنسان عن شخص وأنا لا أحب أن أجرح أحداً، قلت له: أقدم لك قاعدة: لو أنك التقيت بسيد الخلق وحبيب الحق افتراضاً، لو التقيت بسيد ولد آدم، لو التقيت بالذي كمله الله عز وجل، وعصمه عن

أن يخطأ في أقواله وأفعاله وإقراره، التقيت معه وجهاً لوجه، وصاحبته، ولم تطبق منهجه إطلاقاً، هل تنتفع به؟ قال: لا، لو التقيت بإنسان لا تعرف أنه غير صادق، قال لك: يا بني استقم، فاستقمت، أدِّ الذي عليك، أديت الذي عليك، غض بصرك، غضضت بصرك، ألم تنتفع من هذا، وقد يكون هذا ليس على صواب، وليس صادقاً، وليس مستقيماً، ماذا تستنبط من هذه المفارقة الحادة؟ أنك لم تنتفع بمنهج سيد الخلق، وانتفعت بإنسان منحرف، المقصد من هذا المثل أن المعول عليه أنت، أنت محاسب عما سمعت، والذي ألقى الدرس محاسب عما قال، لك حساب، وله حساب، حسابك هل طبقت ما جاءك به من البينات؟ قال لك: افعل وهذا الدليل، لا تفعل وهذا الدليل، ولا يستطيع إنسان كائن من كان أن يقول برأيه في الدين:

((انْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ هَذَا الْحَدِيثَ فَإِنَّمَا هُوَ دِينُكُمْ))

[أخرجه الدرامي عن الحسن البصري]

((عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[العلل لابن أبي حاتم]

الذي تنمو شهوته وتسيطر على كل شيء يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل :

أنت تسأل: ماذا فعلت مما قيل لك؟ والذي قيل لك مدعم بالأدلة والشواهد، والذي ألقى الكلام، ألقى العلم، له حساب خاص، هل طبقت الذي تقوله؟ هل كنت ملتزماً بما تقول؟ هل كنت قدوة لما تقول؟ فالمعول عليه أنت، دعونا من هذه المشاحنات، وهذه التقييمات، وهذه الاتهامات، دعونا منها، وليلتفت كل واحد منا إلى علاقته بربه، وإلى مصيره عند ربه، وإلى مدى التزامه بمنهج ربه:

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ)

فحينما تعودون إليه، مثوبة: من ثاب أي رجع:

(مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ)

هذه الكلمات في هذه الآية قد تثير تساؤلات، هل مسخ هؤلاء قردة وخنازير؟! كان إنساناً فأصبح خنزيراً؟! هل تعتقدون ذلك؟ كان إنساناً فأصبح قرداً؟! أصبح حجمه صغيراً؟ يمشي على أربع، نبت له وبر، لا، بقي إنساناً، لكن صار همه كهم القرد في طعامه وشرابه، وصار خنزيراً همه شهوته، فالذي لا همّ له إلا بطنه، ولا همّ له إلا فرجه هذا قرد وخنزير معاً، فهذا المسخ الذي ورد في بعض آيات القرآن الكريم قد يفهم هكذا، وقد يفهم فهماً آخر، القرآن حمال أوجه، لكن يمكن أن تفهم الآية أن الذي تنمو شهوته، وتسيطر على كل شيء يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، يقسم أيماناً كاذبة، يقسم يميناً غموساً ليقتطع به حق مسلم، هذا الذي يعبد الدرهم والدينار من دون الله، ويبيع بالدرهم والدينار دينه

وآخرته، هذا قرد، والذي من أجل الجنس يبيع آخرته هذا خنزير، فلعل قوله تعالى وهذا خاطر إيماني ليس غير:

(وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ)

الطاغوت صيغة مبالغة للطاغية، الطاغوت صيغة مبالغة للطغيان، فلان طاغية وطاغوت، لذلك الإنسان يعبد القوي كما هو شأن العالم اليوم، القوي يعبد من دون الله، القوي ينافق له، جميع الضعاف ينافقون للقوي، لذلك صفات ثلاث رائعة، عبادة الطواغيت في الأرض، وأن تكون الشهوة هي المسيطر، وأن يكون المال هو المسيطر، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

ينبغي أن نكثر من ذكر الموت وأن نعد أعمارنا عداً تنازلياً :

أيها الأخوة، في بعض البرامج التي تهدف إلى رفع قدرة الإنسان هناك مقولة رائعة: ابدأ من النهاية، نحن جميعاً في هذا المسجد المبارك إن شاء الله نهايتنا جميعاً أن نكون تحت الأرض من وقت لآخر، لكن بالتأكيد بعد مئة وخمسين سنة ليس منا واحد من هؤلاء الحاضرين، وأنا معكم فوق سطح الأرض، بالتأكيد، هذه النهاية، النهاية:

عش ما شئت فإنك ميت

وأحبب ما شئت فإنك مفارقه

واعمل ما شئت فإنك مجزي به

* * *

لو أن كل واحد منا بدأ من النهاية، سوف أترك هذا البيت، وأترك هذه التجارة، أترك هذه الزوجة، وهؤلاء الأولاد، وهذه المركبة، وسوف أترك كل ما عندي، أترك أموالي ومقتنياتي، وسوف أدس في التراب، ما ينبغي أن أفعل حتى أكون في التراب مكرماً؟ ابدأ من النهاية، لذلك كان عليه الصلاة والسلام فيما بين صلاة السنة والفرض في الفجر يضطجع على شقه الأيمن، ويتفكر في الموت، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

أكثر من ذكر الموت، وينبغي أن نعد أعمارنا عداً تنازلياً، ليقل كل منا لنفسه: كم بقي لي؟ لا ينبغي أن يقول: كم مضى من عمري، العد التصاعدي فيه إيهام، أما العد التنازلي فيه رهبة، كم بقي لي؟ مضى خمسون، في الأعم الأغلب لم يبقَ بقدر ما مضى، فإذا مضى الذي مضى كلمح البصر، فالذي بقي

يمضي أيضاً كلمح البصر، كل واحد منا يجري إحصاء، كم من إنسان من أقربائه توفي في حياته؟ واللهِ مرة اطلعت على دليل هاتف أكثر من عشرين شخصاً في هذا الدليل توفاهم الله عز وجل، عشرون شخصاً، وكل يوم نودع بعضنا بعضاً، أعرف أخاً كريماً دخل إلى غرفته ليكتب بعض المقالات، واستأذنته زوجته أن تذهب لتنام، في الصباح دخلت عليه فإذا هو ميت، قد يأتي الليل ولا نعيش فيه إلى النهار، وقد يأتي النهار ولا نعيش في اليوم إلى الليل:

الدنيا ساعة اجعلها طاعة النفس طماعة عودها القناعة

* * *

قرد على خنزير على عابد للطواغيت، وصف جامع مانع لهذا الإنسان.

البطولة لا في الدخول ولكن في الخروج ينبغي أن تدخل صادقاً وأن تخرج صادقاً :

قال تعالى:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

أيضاً في صفة النفاق، كلما تقدم الإنسان في حياته يتقن فن التمثيل، فالإنسان حينما يعبد ذاته، ويعبد مصالحه يعنيه أن يرضي معظم الناس، لذلك يجامل أهل الإيمان.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)

[سورة البقرة: 14]

فهذا الإنسان الشارد له ألف لون ولون، يرضي هؤلاء المؤمنين، ويرضي هؤلاء المنحرفين، هو مع المرابين، ومع الورعين، ومع المخلصين، ومع غير المخلصين هو هدفه أن يحقق مصالحه، لذلك:

(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ)

أي دخل مدخلاً في هذا المدخل كفر، وخرج وهو كافر، لذلك الآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

[سورة الإسراء: 80]

البطولة لا في الدخول، ولكن في الخروج، ينبغي أن تدخل صادقاً، وأن تخرج صادقاً.

حينما تؤمن أنه لا تخفى على الله خافية تستقيم على أمره :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)

حينما تؤمن أنه لا تخفى على الله خافية تستقيم على أمره، وحينما تؤمن أنه لا رافع ولا خافض، ولا معز ولا مذل، ولا معطي ولا مانع إلا الله تجمع كل اتجاهك إلى الله عز وجل.

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

هذا الإنسان حينما يغفل عن الله، ويشرد يقوم بأعمال لم يدرك أخطارها، ولا مضاعفاتها، يتكلم كلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً. ألا تذكرون أن السيدة عائشة قالت عن أختها صفية قصيرة، قال لها عليه الصلاة والسلام:

((لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته))

[أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

يتكلم كلمة يتهم إنسانة محصنة، وقذف محصنة كما قيل يهدم عمل مئة سنة، يوقع بين أخوين، بين زوجين، بين شريكين، يروج الكفر، يروج النفاق، يثني على العصاة، يكفي أن تقول: فلان لا يصلي، ولا يأتمر بما أمر الله، ولا ينتهي عمل نهى الله عنه، لبق، لطيف، صاحب ذوق رفيع، فهيم، أين الدين؟ تجاهلت دينه كله، إذا سمع ابنك هذا الثناء الكبير، وهو يرى أن هذا الذي تثني عليه قد يشرب الخمر أحياناً، وليس هناك انضباط بحياته، أنت ماذا فعلت؟

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي، وابن عدي، وأبو يعلى والبيهقي عن أنس]

يتكلم كلاماً لا معنى له، يتحرك حركة مشبوهة، ينغمس في مستنقع آثم، يقول ما لا يعلم، يتهم صادقاً، يكذب صادقاً، يصدق كاذباً، يخون أميناً، يؤمن خائناً.

الإثم والعدوان وأكل السحت :

قال تعالى:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

الإثم المعصية، الإثم علاقته مع الله، والعدوان علاقته مع أخيك، لا يكتفي أنه يعتدي على من حوله، يأثم في علاقته بربه:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ)

السحت أن تكسب الكسب الحرام، عندنا كسب مشروع أساسه تجارة مبرورة مشروعة، أساسه إرث صحيح، أساسه هبة شرعية، تأتي أنت، وتعتدي على هذا الكسب المشروع بقوة، أو باحتيال، أو بإغراء، أو بتهديد، فالعدوان على الكسب اسمه أكل السحت، إنسان اشتغل في أرض ثمانية أشهر وزرع، وسمد، وسقى، وحصد، وباع، وقبض ثمن هذه الغلة، يأتي إنسان بتهديد السلاح يأخذها منه

سرقة، ماذا نسمي الثاني؟ آكل للسحت، اعتدى على كسب مشروع، اعتدى على كسب الآخرين، ولو دققت في حياة الناس اليوم كم من إنسان يستخدم قوته، أو سلطته، أو ذكاءه، أو احتياله في كسبِ كسب الناس، والعدوان على كسبهم الحلال، هذا هو أكل السحت، لو سألتني أن أضغط الفساد في الأرض بكلمتين، أقول له: حرية في كسب المال، وحرية في اقتناص الشهوات، فساد أهل الأرض لا يزيد على كلمتين: علاقة مباحة مع النساء من دون قيد أو شرط، وكسب للمال من دون قيد أو شرط، المؤمن يقيده إيمانه عن كسب غير مشروع، ويقيده عن علاقة غير مشروعة، انضباط في كسب المال، وفي العلاقة بالنساء.

أمراض أهل الكتاب نحن مرشحون أن نقع فيها واحداً وَاحداً :

أيها الأخوة، حينما يحدثنا ربنا جل جلاله عن أهل الكتاب، ليس القصد أهل الكتاب ولكن القصد نحن، لأن كل الانحرافات العقدية والسلوكية التي وقعوا بها نحن كمسلمين مرشحون أن نقع بها، فكأن الله عز وجل يريد أن يلفت نظرنا إلى أن هذه الانحرافات في العقيدة والسلوك يمكن أن يقع بها المسلمون، والدليل مثلاً:

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

والمسلمون اليوم يفهمون بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فهماً سطحياً وساذجاً، يقولون: افعل ما شئت والنبي يشفع لك، الفكرة واحدة.

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ))

[متفق عليه عن عائشة]

فحينما لا يعاقب إلا الضعيف وينجو من العقاب القوي فنحن وقعنا في مرض آخر من أمراض بني إسرائيل، وإنما أهلك الله بني إسرائيل أنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة:79]

حينما نكف اللسان مطلقاً عن أي إنكار لمنكر، وعن أي أمر بمعروف وقعنا في انحرافاتهم، وحينما قال اليهود:

(سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)

[سورة البقرة:93]

ولسان حال المسلمين: سمعنا وعصينا، فنحن مثلهم، أمراض أهل الكتاب نحن مرشحون أن نقع فيها واحداً وَاحداً، وها أنا قد ذكرت لكم بعضاً من هذه الأمراض، وقد تماثلت بيننا وبينهم، فلذلك حينما يحدثنا ربنا عن هؤلاء أي أنكم معرضون لانحرافات كهذه الانحرافات، نسأل الله جل جلاله أن يعفو عنا، وأن يلهمنا رشدنا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (30 - 49) : تفسير الآية 63، الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-05-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثالثة والستين، وهي قوله تعالى:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

وقبل هذه الآية:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أيها الأخوة، كأن آية اليوم تشير إلى الدور الخطير الذي أناطه الله بالعلماء والدعاة إليه، فالله عز وجل يقول:

(لَوْلَا)

ولولا تفيد في اللغة الحض، لولا فعلت كذا، أي افعل كذا:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

القدوة أبلغ من التبليغ :

قال علماء التفسير: الربانيون علماء النصارى، والأحبار علماء اليهود، أو الربانيون المنسوب إلى الرب، فهذا الذي يدعو إلى الله منسوب إلى الله، محسوب عليه، هذا الذي يدعو إلى الله يمثل وحي السماء، يمثل كمال الإسلام، يمثل العلم، يمثل الورع. لذلك سيدنا علي رضي الله عنه يقول: قوام الدين والدنيا أربعة رجال، عالم مستعمل علمه، أي عالم يطبق علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه.

ما الذي يحصل؟ قال: إذا ضيع العالم علمه، لم يستعمل علمه، لم يطبق علمه دعا إلى شيء وهو لا يطبقه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، صار هذا الإنسان أداة تنفير من الدين، لأنه تكلم شيئاً وفعل شيئاً آخر، هذا الإنسان يحمل الناس على أن يكفروا بالكلمة.

الأنبياء بماذا جاؤوا؟ جاؤوا بالكلمة، لم يأتوا لا بالبوارج، ولا بالصواريخ، ولا بالطائرات، ولا بحاملات الطائرات، ولا بالكمبيوتر، جاء الأنبياء بكلمة صادقة، فقلبوا وجه الأرض، لكن الكلمة حينما لا تكون صادقة يكفر الناس بها، وهذا الذي حصل، لذلك الخطاب الديني الآن في أكثر الأحايين لم يحقق أهدافه، لأنه الأنبياء حينما طبقوا ما قالوا، قلبوا وجه الأرض، والذين ينقلون العلم للناس إذا لم يطبقوا حملوا الناس على أن يكفروا بالكلمة، قال: فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم، وإذا بخل الغني بماله باع الفقير آخرته بدنيا غيره، الفقير كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: كاد الفقر أن يكون كفراً، فالفقير حينما لا يجد حاجته، ولا كرامته، ولا يرى حقوقه، يكفر بكل شيء، فيبيع نفسه للشيطان، وهذا الذي يحصل.

إذاً: البطولة لا أن أتصدر المجالس، وأن ألقي المواعظ، البطولة أن أكون مثلاً أعلى، أن أطبق ما أقول، والحقيقة النطق سهل، أي إنسان أتاه الله ذاكرة قوية، وحافظة متينة، وطلاقة لسان يبلغ ويتكلم، لكن أن تكون في مستوى ما تبلغ، وأن تفعل ما تقول، وأن تحقق ما تقول لتكون قدوة، فهذا الذي يريده الله عز وجل.

لذلك الأنبياء العظام لهم مهمتان كبيرتان، المهمة الأولى أنهم قدوة، والمهمة الثانية أنهم مبلغون، لكن القدوة أبلغ من التبليغ، الله عز وجل يقول:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ)

هؤلاء الربانيون المنسوبون إلى الله، المحسوبون عليه، الذين يمثلون وحي السماء، يمثلون الكمال البشري، من هنا قال بعضهم: الورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والتوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن ".

الآية التالية تتحدث عن دور العلماء الذين حمّلهم الله أمانة التبيين :

الأزمة الآن أزمة خطاب ديني، وكأن هذه الآية تتحدث عن دور الذين ينطقون بوحي السماء، عن دور الدعاة إلى الله، عن دور العلماء الذين حملهم الله أمانة التبيين.

خليفة في موسم الحج التقى مع أحد العلماء، قال له: سلني حاجتك، قال له: والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج المسجد قال له: سلني حاجتك، قال: واللهِ ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها؟ فلما ألح عليه قال: نجني من النار، وأدخلني الجنة، قال له: هذه ليست بيدي، قال له: إذاً ليس لي عندك حاجة، أرأيت إلى هذه العفة. الحسن البصري سئل: بمَ نلت هذا المقام؟ قال:

باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي، فكيف إذا استغنى الأمراء عن علم العالم، والعالم احتاج الأمراء في دنياه، انتهت مهمته، الله عز وجل يقول:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

[سورة الأحزاب: 39]

هؤلاء ما صفاتهم، لهم آلاف الصفات، أليس هذا المبلغ صادقاً، طبعاً صادق، أليس أميناً؟ أمين، أليس مصلياً؟ مصلٍّ، أليس صائماً؟ صائم، أليس ورعاً؟ ورع، لماذا أغفل الله كل هذه الصفات، ولم يذكرها، اكتفى بصفة واحدة، قال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

لو أن هذا الذي كلفه الله أن ينقل العلم للناس خشي من غير الله، ما الذي يحصل؟ سينطق بالباطل إرضاء له، وسيسكت عن الحق خوفاً منه، فماذا بقي من دعوته؟ انتهت دعوته، آية دقيقة جداً:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب: 39]

أبو جعفر المنصور قال لأبي حنيفة النعمان: يا أبا حنيفة لو تغشيتنا، فقال له: ولِمَ أتغشاكم؟ فليس لي عندكم شيء أخافكم عليه، وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟

الدين توقيفي لا يقبل التغيير ولا التعديل ولا التطوير ولا الزيادة ولا النقصان :

أخوتنا الكرام:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ)

المشكلة الآن أن الشرع في هذا المستوى، بمستوى عال، وأن الناس في مستوى متدنٍّ، الداعية أو العالم أمامه خياران، إما أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، وإما أن يهبط إليهم، الحالة الثانية أهون وأسهل، وتوسع له قاعدته بشكل كبير جداً، ويصبح عالم العصر، وهذا الإنسان المرن الواقعي الحديث العصري، لكن على حساب أحكام الشرع، هذه يجوز، وهذه يجوز، وهذه يجوز، وهذه بلوى عامة، وهذه فيها رأي ضعيف، وهذه فيها رأي شاذ، فإما أن يهبط إلى الناس، أو أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع، إذا أراد أن يرفع الناس إلى مستوى الشرع لا يرتفع معه إلا قلة قليلة، أما إذا هبط إلى مستوى الناس يرى جماهير لا تعد ولا تحصى، هذه مشكلة موجودة في الأديان السماوية الثلاثة، فإما أن تتملق الناس، وأن تفتي لهم بما يهوون، وأن تقدم لهم الحلول التي لا ترضي الله، ولكنها ترضي غرورهم، أو ترضي شهواتهم، أو ترضي شبههم، وإما أن تصر على موقف دقيق، أهم شيء في هذا الموضوع أن

الدين توقيفي، معنى توقيفي أنه لا يقبل التغيير، ولا التعديل، ولا التطوير، ولا الزيادة، ولا النقصان، لا يقبل هذا أبداً لأنه توقيفي، ولأنه من عند الله، لو كان من عند البشر فالبشر كماله نسبي، وإطلاعه نسبي، وفهمه نسبي، ودائرته متعلقة بالواقع، أما لأنه من عند خالق البشر، فكمال هذا الدين مطلق، لذلك أي حذف اتهام لهذا الدين بالزيادة، وأي إضافة اتهام لهذا الدين بالنقص، ولأن الله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

التجديد في الدين :

أي إن عدد القضايا التي عالجها الدين تامة عدداً، وأن طريقة المعالجة كاملة نوعاً، إذاً هذا الدين توقيفي، وما التجديد التي يروّج له؟ هذا التجديد يروج له الآن بشكل لا يتصور، هناك ترويج للتجديد، أما التجديد الذي يروج له فلا يفهم في هذا الدين إلا على النحو التالي، أن ننزع من الدين كل ما علق به مما ليس منه.

هذا هو التجديد، أي بناء من أرقى أنواع الحجر تراكمت على هذه الأحجار عبر السنين والحقب طبقة سوداء شوهت منظره، فلذلك التجديد أن ننزع عن هذا البناء كل ما علق به مما ليس منه، أما أن نفهم التجديد تطوير في أسلوب الخطاب الديني فلا مانع، أن نتخذ قنوات جديدة في الخطاب الديني لم تكن معروفة من قبل لا مانع، لأنه:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

[سورة إبراهيم: 4]

أي بطريقة نقل المعرفة في قومه، فقد نستخدم أساليب الآن لم تكن من قبل، مثلاً الآن هناك مجال كبير جداً عبر المواقع المعلوماتية، فقد يدخل على هذه الصفحة مئات الألوف، الذين يستخدمون هذه المواقع يزيدون في الأرض عن ثلاثمئة مليون، فإذا أحسنت استخدام هذه القنوات الدعوية الجديدة فهذا تطوير في أسلوب الخطاب الديني.

كنا حينما نحضر مؤتمراً نأتي بمحاضرات والله بحجم هذه الطاولة، حملها صعب، الآن يعطى الذي حضر المؤتمر قرصاً مدمجاً فيه ثلاثمئة موضوع، كل موضوع مئتا صفحة في قرص يوضع في الجيب ولا يرى، هناك تطوير، فتطوير الخطاب الديني بمعنى توفيق التقنية الحديثة بنشر هذا الدين، إذاً هذا مسموح به،

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)

النهي يحتاج إلى إرادة قوية وإلى تضحية و ورع و خوف من الله :

إذاً:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ)

أنت تمثل الدين، وقيلت أمامك كلمة تتعارض مع الدين، إذا بقيت ساكتاً أسلم لك وأكثر راحة، مصالحك محققة، وتعيش في بحبوحة، ليس عندك أي مشكلة، وإنسان تكلم، وتحداك بكلام يتناقض مع الدين، وافقه أسلم لك، إذاً النهي يحتاج إلى إرادة قوية، يحتاج إلى تضحية، يحتاج إلى ورع، يحتاج إلى خوف من الله، يحتاج إلى صدق، يحتاج إلى جرأة، يحتاج إلى شجاعة:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

معنى ذلك أن الناس يتكلمون بالإثم:

(عَنْ قَوْلِهِمْ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ)

هناك معاص بالقول، ومعاصٍ باليد، يأكلون مالاً حراماً، هذه مسموح بها، تجد أعلى جهات دينية في بعض الأقطار العربية يفتون بأشد المعاصي حرمةً، وهي الربا، لا شيء عليك لو أودعت مالك في مؤسسة ربوية، وتقاضيت الفائدة على أنها عائدة؟ عوض الفاء عين، ولا شيء عليك، فالمعصية التي قال الله عنها:

(فَإِن ْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة: 279]

إذاً هذه المعصية تهدم مجتمعات، لأن المجتمع البشري الله عز وجل شرع له أن يلد المال من الأعمال، وإذا ولد المال من الأعمال توزعت الكتلة النقدية في المجتمع على أكبر شريحة في المجتمع، عندئذٍ لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم.

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

[سورة الحشر: 7]

المال قوام الحياة :

إذا سمحنا للمال فقط أن يلد المال عن طريق الربا تجمعت الأموال في أيدٍ قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، وتكاد تكون مشكلات أهل الأرض الآن مجتمعة في أن مليوناً لا يملكون واحداً، وواحد يملك مليوناً، تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة من سكان الأرض، تجد البذخ وإتلاف المال والإنفاق غير المعقول بمجتمعات، وتجد القهر والفقر والحرمان بمجتمعات أخرى.

أنا ذكرت لكم في الأسبوع الماضي أنني زرت بلداً في جنوب إفريقيا، رأيت ما لا يصدق، لا طعام، ولا شراب، ولا كساء، ولا صحة، ولا تعليم، ولا أدوات، ولا شيء، ولا ثياب تستر عوراتهم، ومجتمع آخر ما يأكله الكلاب في هذا المجتمع لا يأكله شعب كبير في آسيا، تسعمئة مليون، هذا التفاوت حينما يلد المالُ المال، تتجمع الأموال في أيد قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، فكل ما يجري في العالم من عنف الآن بشكل أو بآخر يمكن أن يفسر من خلال هذه المقولة، وقد عبر عنها الإمام علي رضي الله عنه: كاد الفقر أن يكون كفراً، والإنسان حينما تعطيه رغيف خبز، وحينما تعطيه كرامته تأخذ منه كل شيء، والنفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت، والمال قوام الحياة، فإذا كان في مجتمع ما كتلة نقدية ينبغي أن تكون متداولة بين أكبر شريحة من شرائح المجتمع. فحينما تأتي مراتب دينية عالية جداً، وتفتي بأكبر معصية في المجتمع بتغيير كلمات والألفاظ، ماذا نقول؟

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

كم من إنسان ينقل مقولات لا أصل لها في الدين، عقيدة زائغة، ينقل مقولات تتناقض مع كلام الله عز وجل، ومع كلام رسوله، وتروَّج، وفي محاضرات دينية أحياناً ينقل الذي وكله الله بالدعوة إليه أن ينطق بالباطل، أو أن يسكت عن الحق، أو أن يتغاضى عن أكل مال حرام، قد تدخل إلى معبد لا تجد فيه إلا الغناء والموسيقى، وقد تدخل معبداً ولا تجد امرأة محتشمة إطلاقاً طيب ما الفرق بين الشارع والمعبد؟ لا بد أن يكون هناك فرقاً، لذلك:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

من صفات الداعية أن يكون ورعاً ولا ينافق :

أقول لكم أيها الأخوة: أنت حينما تسكت تسلم، لو شاهدت المعاصي على قارعة الطريق، لو أن مسلماً زارته بنت أخيه، وكانت في ثياب فاضحة، فاستقبلها ورحب بها، وسأل عن صحتها، وعن دراستها، وعن مستقبلها، وأثنى عليها، وعلى جمالها، هذا ماذا فعل؟ هذا أعطى المنكر دعماً، عزز المنكر:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

نريد ما عندنا، دعونا من عند غيرنا، الذي وكله الله بنقل هذا العلم ينبغي أن يكون ورعاً، ينبغي ألا ينافق، ينبغي ألا يقول قولاً يثير حوله جدلاً كبيراً، مثلاً عقد قران يأتي إنسان يلقي كلمة فيثني على هاتين الأسرتين ثناء غير معقول، أنا أذكر مرة أنه عقد قران في مكان عام، والذين تكلموا أثنوا على الأسرتين الدمشقيتين، العريقتين، التقيتين، الورعتين، هذا عقد القران، العرس كان بفندق، وزعت الخمور، وجيء بالراقصات، والنساء شبه عرايا، هاتان الأسرتان العريقتان الدمشقيتان الورعتان

التقيتان، أين مكانة العلم؟ انتهت مكانة العلم:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

المديح بلا طائل، بلا ثمن، بسرعة، من دون تحقق.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس رضي الله عنهم]

إنك إذا مدحته اضطرب الناس، لو إنسان لا يصلي، يشرب الخمر، وقلت لشخص أمامك، أمام أولادك: لبق، لطيف، عنده خبرات عالية بالحياة، فهيم يا أخي، ابنك رآه يشرب الخمر، وهو فهيم، يقترف المعاصي، وهو ذو خبرة عالية بالحياة، اضطرب ابنك.

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس رضي الله عنهم]

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

بعض من أسباب هلاك بني إسرائيل :

لماذا أكثر الله من الحديث عن أهل الكتاب في القرآن الكريم؟ لأن كل الأمراض التي وقعوا فيها نحن مرشحون أن نقع فيها، وقد وقعنا فيها، ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

[سورة المائدة: 79]

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ،وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدّ))

[متفق عليه عن عائشة]

ما سبب هلاك بني إسرائيل؟

(فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة: 24]

كل واحد جالس مرتاح لا ينتقد، لا يأمر بالمعروف، لا ينهى عن المنكر، يجامل إلى درجة النفاق، مصالحه محققة، ومكانته كبيرة، وحوله هالة كبيرة جداً، لا داعي لأن يغامر بمكانته، مرض:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

تتكلم كلاماً لا أصل له، تدرس بمدرسة أن الإنسان أصله قرد، أين أصبح آدم وحواء؟ ألغي القرآن بهذه الطريقة، تؤلف موسوعات علمية عن الإنسان الحجري، أي إنسان حجري؟ البشرية بدأت بنبي كريم، بهذه الطريقة ألغيت كل الأديان:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

بعض أمراض المسلمين اليوم :

القول لا يتطابق مع الواقع، والواقع القديم من أعلمنا عنه؟ ربنا، الله عز وجل قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الكهف: 51]

حينما تقول: الإنسان بدأ بإنسان حجري متوحش، وكان أصله قرداً، أي أنت كنت وقتها؟ لكنك تردد كالببغاء ما قيل لك، يقول كما تقول الببغاء، ما كنت وقتها أنت، لكنني قد أفاجئكم الآن أنني آمنت أخيراً بهذه النظرية، لكنها معكوسة، كان الإنسان إنساناً فصار قرداً، مسخ إلى قرد، لأنه همه بطنه وفرجه، هذا هو القرد، شكله شكل إنسان، الإنسان حينما ينسى سبب وجوده، وينسى غاية وجوده، وينسى أنه المخلوق المكرم، وأنه خلق ليعرف الله، حينما يصبح همه بطنه وفرجه وشهوته يمسخ قرداً وخنزيراً، القرد همه بطنه والخنزير همه فرجه:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ)

أنا أسقط هذه الآية على واقع المسلمين، دعونا من غيرنا، ولنتحدث عن أمراضنا نحن، إذاً ينبغي أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، ينبغي ألا تسكت على خطأ، ينبغي أن تنطق، أنا أروي قصة نموذجية: سائق سيارة على خط دمشق بيروت، ركب معه شاب وشابة، وتمنيا عليه أن ينتظر قليلاً حتى تأتيهم محفظة، انتظر السائق، بعد ربع ساعة جاء رجل كبير في السن بالسبعين، أعطاه المحفظة، فهذا الشاب وكزه على رأسه معنفاً، لِمَ تأخرت؟ لم ينتبه السائق، وضع المحفظة وانطلق إلى الشام، بعد ما قطع ثلث المسافة سمع الشابة تقول للشاب: لماذا ضربت أباك؟ وإذ بالسائق يوقف السيارة، قال له: أبوك هذا؟ انزل، هذا المبلغ، بهذه البساطة البالغة. عندما يرتكب إنسان جرماً كبيراً بحق أبيه والجميع صامتون الباطل يتعزز، ومن يقف في وجه المنحرف؟!!

قصة عابرة، لكنها تعبر على أن هذا الإنسان مؤمن، ما ارتضى أن يركب معه إنسان عاق بوالديه.

التفسير الأرضي يريح الناس والتفسير السماوي يزعجهم :

قال تعالى:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

أنت في جلسة يقول أحدهم: الآن في أدوية تطيل العمر، أنت ساكت والسكوت راحة لك، عندك في القرآن:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

[سورة الأعراف: 34]

السكوت فيه راحة، مصالحه محققة، ليتكلموا بما يشاؤون، لا، ما وظيفتك؟ وظيفتك أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

ما يعانيه المسلمون اليوم يفسر تفسيراً أرضيّاً، ما عندنا تقنية عالية، هذا السبب فقط؟ أين الله؟ أين وعود الله للمؤمنين؟ هناك أسباب أكبر، لكن دائماً التفسير الأرضي يريح الناس، والتفسير السماوي يزعجهم.

زلزال، سهل جداً أن تقول: اضطراب بالقشرة الأرضية، وهذا شيء صحيح، التفسير العلمي لا يتناقض مع التفسير التوحيدي، يتكاملان، لما أراد الله أن يؤدب هؤلاء ساق لهم هذه المصيبة، أما هذه فأساسها اضطراب بالقشرة الأرضية، فكلما أردت أن تصف حال المسلمين اليوم بتخلفهم علمياً وتقنياً، وهذا شيء لا يكفي، الله وعد المؤمنين:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الروم: 47]

ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة :

تسمع أحياناً أطروحات غير صحيحة، وغير مقبولة، أو الحل أن نكون مع الأقوياء، وأن نبطح أمامهم، هذا حل أيضاً، عالم يجلس بمجلس ويتكلم كلاماً كهذا؟!

والله أنا كنت في سفر، وفي جلسة طرحت فيها ما تعانيه الأمة الإسلامية من ضغوط، ومن قهر، ومن قتل، ومن تدمير، ومن تحديات، الأشياء الآن لا تحتمل، فالجو العام هبط، المعنويات هبطت إلى أدنى مستوى، فبعد أن انتهت الجلسة قلت لهم: اسمحوا لي بكلمة فيها إضاءة قرآنية لما نعانيه نحن اليوم من أزمات، قلت لهم: إنما يعانيه المسلمون اليوم من أزمات ما هي إلا رسالة من الله للمسلمين كي يغيروا

ما في أنفسهم حتى يغير الله ما بهم، رسالة من الله، وأن جهة قوية في الأرض إذا خططت أن تبني مجدها على أنقاض الآخرين، وأن تبني حياتها على موتهم، على إبادتهم، الآن حرب إبادة، أن تبني عزها على ذلهم، أن تبني غناها على فقرهم، أن تبني أمنها على خوفهم، وأن تنجح الخطط على المدى البعيد فنجاح هذه الخطط على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب بل مع وجوده، الله موجود.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف: 84]

أكثر الجلسات الآن محصلة الجلسة معنويات هابطة، إحباط شديد، وكأن الله غير موجود، أعطى هؤلاء القوة يفتكون بالناس ويذلونهم، ويهدمون البيوت، ويقصفون الآمنين كما ترون وتسمعون. لذلك أي معالجة لقضية مما نعانيها ينبغي ألا تبتعد عن التوحيد، لكن أنا لست مكلفاً أن أفهم حكمة الله فهماً مطلقاً بل فهماً نسبياً، وإذا قلت لي: لماذا يدع الله هؤلاء يفعلون ما يريدون، قد لا أملك أنا الجواب لكنني أملك القرآن، ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة. أملك أن أقول لهم:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الشورى: 30]

من أسباب هزيمة المسلمين أنهم يفتقرون إلى شروط النصر :

أملك أن أقول لهم: هان أمر الله علينا فهنا على الله، أملك أن أقول: إننا نفتقر إلى شروط النصر، رسول الله سيد الخلق، وحبيب الحق، ومعه نخبة الخلق:

((إن الله اختارني واختار لي أصحابي))

[رواه الطبراني عن عوير بن سعادة]

ولم ينتصروا في أحد لأنهم عصوا رسولهم، لو أن الله نصرهم لسقطت طاعة رسول الله، ولم ينتصروا في حنين لأنهم أشركوا:

((لن نغلب من قلة))

[أخرجه البيهقي عن أبي داود]

فلو انتصروا لسقط التوحيد، نبي كريم معه أصحاب كرام، ولمعصية واحدة لم ينتصروا، إذا كان مليون شرك ومليون معصية لماذا لم ننتصر؟ مليون قضية شركية، ومليون قضية فيها مخالفة لمنهج الله، يجب أن تطرح الحق، معنا كلام الله، معنا سنة رسول الله، أما أن تجلس في مكان تُطرح قضايا خلاف القرآن وتسكت، وتهز رأسك بالإيجاب وتجامل، هذه الفكرة سرت بين الناس، وأفسدت عقائدهم:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ)

هذا القول يبعدك عن الله عز وجل، بل يقربك من أعداء الله، الخلاص في أن نستسلم؟ الخلاص في أن ننبطح؟ الخلاص في أن نعطيهم ما يريدون؟ الخلاص أن نواليهم أو يأس وقهر؟ انتهينا، إما حل استسلامي مهين أو يأس قاتل؟ هذا الذي يطرح بالمجالس الآن، تجد عالماً يجامل، أنت معك كلام الله، معك كلام النبي عليه الصلاة والسلام.

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ)

دخول لا تعد ولا تحصى مشبوهة بالحرام، وأن العبد يقول: يا رب، ويا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له.

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين :

أكل السحت أن تعتدي على كسب الآخرين. إنسان زرع أرضاً، وجمع الغلال، وباعها بالسوق، وقبض ثمنها، تعب سنة، جاء إنسان سرق منه هذا المال، هذا اسمه سحت، لماذا هو سحت؟ لأنه أخذ الكسب بغير الحق، أي دخل حرام هو سحت، إن غششت أخذت ثمن سلعة جيدة والسلعة غير جيدة، فهو سحت، إن كذبت، إن احتلت، إن دلست، إن احتكرت، أي كسب حرام، هو أخذ ما ليس لك أن تأخذه، هذا أكل سحت:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

لكن شيء يلفت النظر أن الله عز وجل في الآية السابقة يقول:

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ)

كثيراً منهم، أي عامة أهل الكتاب:

(وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

أما الأحبار والربان:

(لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

الفرق بين يصنعون و يعملون :

فرق كبير بين يصنع ويعمل، أي إنسان تمزق ثوبه، معه إبرة خياط وخيط فحاكه، هذا يسمى خائطاً، لا يسمى خياطاً، لأنه لا يصنع الألبسة، أما الذي حرفته صنع الألبسة يقال له: خياط، الإنسان العادي يخطئ، نقول:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

أما إنسان يعلم، ويفتي بخلاف ما يعلم، ويفتي إرضاءً لزيد وخوفاً من عبيد، هذا يصنع الباطل، الأول ارتكب الباطل، أما الثاني فيصنع الباطل:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

أيها الأخوة، هناك من يدعو إلى ذاته بدعوة مغلفة بدعوة إلى الله، وهناك من يدعو إلى الله مخلصاً، ونسأل الله جل جلاله أن نكون من المخلصين جميعاً، كل مؤمن داعية، شئت أم أبيت، صدقت صدقك دعوة، تعففت عفتك دعوة، كنت أميناً أمانتك دعوة، كنت حليماً حلمك دعوة.

حدثني أخ قال لي: أريد أن أركب مركبة من حلب إلى أحد أقضيتها، فالتقى بسائق قال له: أنا لا أذهب إلى هناك، ألح عليه، قال له: أبداً لا أذهب، سأله: لمَ؟ فلما ألح عليه قال له: ركب معي إنسان له زي ديني، فلما أوصلته إلى بغيته، قال لي: ارجع، ولا تأخذ أي أجرة، وإلا كلفت من يضربك، فهذا أخذ قراراً ألاّ يركب معه إنسان له زي ديني إطلاقاً، فقال له هذا الشيخ الوقور: كم كنت تتوقع أن تأخذ أجرة هذه الرحلة، أو هذا الطلب؟ قال له: أربعين ليرة، قال: أعطيك أربعين عن الأول، وأربعين عني، وعشرين إكرامية، تسامحنا؟ انظر إلى إنسان سبب لواحد كراهية للدين ولرجال الدين، وإنسان آخر قال له: أنا أعتذر عنه، أدفع المبلغ أنا، وفوقه إكرامية بعشرين ليرة، فرق كبير جداً بين من يحبب الناس بالدين، وبين من يبغض الناس بالدين.

((يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

تناقض الطبع مع التكليف هو ثمن الجنة :

إذاً الدعوة إلى الله خالصة من لوازمها الإتباع، من لوازمها التعاون لا التنافس، من لوازمها الاعتراف بفضل الآخرين، أما الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله من لوازمها الابتداع، أن تأتي بشيء ما جاء به القرآن، ولم تأت به سنة النبي العدنان، ومن لوازم الدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله فضلاً عن الابتداع التنافس لا التعاون، مشكلة المسلمين التنافس، جميع المسلمين مستهدفون، وبأسهم بينهم، تجد الطرف الآخر الحروب طاحنة خلال مئتي سنة، الآن ينطق عنهم إنسان واحد، وأموالهم تنتقل فيما بينهم من دون قيد أو شرط، يتعاونون تعاوناً لا حدود له، أيليق بالمؤمنين المسلمين أن يكون بأسهم بينهم؟ وألا تعجب من هؤلاء الذين لا حق معهم يتعاونون من أجل مصالحهم؟

إذاً التعاون من صفات المؤمنين، ويا أيها الأخوة، كتعليق سريع، الإنسان كما كنت أقول دائماً: له طبع، ومعه تكليف، ولحكمة أرادها الله عز وجل الطبع يتناقض مع التكليف، فإذا كان من لوازم الطبع أن تأخذ المال، فمن بديهيات التكليف أن تنفقه، وإذا كان من لوازم الطبع أن تملأ عيناك من محاسن النساء، فمن لوازم التكليف أن تغض البصر، وإذا كان من لوازم الطبع أن تبقى نائماً حتى ترتاح، فمن لوازم التكليف أن تستيقظ، وإذا كان من لوازم الطبع أن تخوض في فضائح الآخرين، فمن لوازم التكليف أن تصمت، ومن طبع الإنسان أنه فردي، والتكليف تعاوني، فأنت تتعاون مع الآخرين بقدر طاعتك لله وتتنافس معهم بقدر بعدك عن الله، فحيثما وجدت أناس متخاصمين متباغضين متناحرين بأسهم بينهم، فاعلم أنهم بعيدون عن الله عز وجل، وأوضح ما يقال الآن: ما تواد اثنين في الله ففرق بينهما إلا بذنب أصابه أحدهما؛ على مستوى فردي، على مستوى جماعي:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 14]

أما المؤمنون فمتعاونون، بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم، إذاً الله عز وجل يأمرنا بالتعاون، والطبع تناقضه مع التكليف هو ثمن الجنة.

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركانها :

أيها الأخوة، لا بد من أن أختم هذا الموضوع المتعلق بالدعوة والدعاة، بأن الدعوة إلى الله فرض على كل مسلم، أعيد وأكرر: الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، بدليل قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

التواصي بالحق ربع النجاة وأحد أركان النجاة، إذاً هي فرض عين، الدليل الآخر:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة يوسف: 108]

فإن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لا تتبع رسول الله، والذي لا يتبع النبي لا يحب الله.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران: 31]

التطبيق والإخلاص يقوِّيان الإسلام وهما ما نحتاجه هذه الأيام :

لكن الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، وأقول لكم أيها الأخوة: أنت حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول يهبك الله قوة تأثير لا حدود لها، حينما تطبق ما تقول، وتخلص فيما تقول، التطبيق والإخلاص يقوِّيان، والآن الإسلام يحتاج إلى تطبيق، لا يحتاج إلى كتاب يتحدث عن الإسلام، هناك كتب تتحدث عن الإسلام لا تعد ولا تحصى، لكن الناس يحتاجون إلى مسلم يرونه بأعينهم، يتحرك أمامهم، إن تكلم فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف، لذلك أنت داعية شئت أم أبيت، أنت داعية ولو كنت صامتاً، وقد يكون الصامت أبلغ في دعوته من الناطق، هناك دعوة صامتة أساسها أخلاق الإسلام، وهناك دعوة ناطقة أساسها الفصاحة والبيان.

ذكرت قصة قبل فترة ذكرتها مرات عديدة، وذكرتها في سفرتي هذه عن هذا الإمام الذي كان بلندن، ونقل إلى ظاهر لندن، واضطر أن يركب مركبة كل يوم، وأن يلتقي مع السائق كل يوم، في أحد المرات أعطى السائق ورقة نقدية كبيرة، ورد له البقية، عدها فإذا هي تزيد عشرين سنتاً عما يستحقه، لأنه مسلم، ولأنه ورع، ولأنه تقي، ونقي، ويحب الحق، ولا يقبل أن يأكل مالاً حراماً، قال: ينبغي أن نعيد المبلغ إلى السائق، جاءه خاطر أن الشركة عملاقة، ودخلها فلكي، والمبلغ زهيد جداً، وأنا بحاجة له، ولعل هذا المبلغ هبة من الله ساقه لي، خاطر غير صحيح، شيطاني، لكن الذي حصل أنه قبيل أن ينزل من المركبة دون أن يشعر مد يده إلى جيبه، وأعطى السائق العشرين سنتاً، قال له: هذه زيادة، فقال له السائق: ألست إمام هذا المسجد؟ قال: بلى، قال: والله حدثت نفسي قبل يومين أن أزورك في هذا المسجد لأتعبد الله، ولكنني أردت أن أمتحنك، قال: يا رب كدت أبيع الإسلام بعشرين سنتاً.

أنت حينما تصدق أنت أكبر داعية، وحينما تتقن عملك أنت أكبر داعية، وحينما لا تغش الناس أنت أكبر داعية، وحينما تكون أميناً أنت أكبر داعية، نحن الآن بحاجة إلى مسلم متحرك، نراه بأعيننا، الكتب لا تؤثر الآن، الذي يؤثر إنسان متحرك، كيف أن القرآن كون ناطق، وكيف أن الكون قرآن صامت، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، الآن المسلمون في أشد الحاجة إلى مسلم مطبق يرونه رأي العين.

الأمانة والصدق والنصح والإتقان هو ما يعيد للمسلمين مصداقيتهم :

قلت لكم مرةً: إنسان محسن في هذه البلدة أراد أن ينشئ مسجداً لوجه الله تعالى في منطقة ليس فيها مسجد إطلاقاً، كلف أحد أخواننا الكرام، هذا الأخ وجد أرضاً مناسبة جداً، وسعرها مناسب جداً فبلغ المحسن، فجاء المحسن ليرى الأرض، وليدفع الدفعة الأولى، الأرض مناسبة، مساحتها مناسبة، شكلها

مناسب، سعرها مناسب، فالمحسن الكبير وقع شيكاً لصاحب الأرض بنصف ثمن الأرض، صاحب الأرض مستخدَم في مدرسة، راتبه أربعة آلاف ليرة، عنده ثمانية أولاد، فقير جداً، هذه الأرض ورثها قبل شهر، وثمنها أربعة ملايين تقريباً، وسطر له شيكاً بملونين، فقال صاحب الأرض للمحسن: أين بقية الثمن؟ قال له عند التنازل، قال له: التنازل لمن؟ قال له: للأوقاف، قال: لماذا للأوقاف؟ قال له: هذه سوف تكون مسجداً، قال له: مسجد! أمسك بالشيك ومزقه، قال له: والله، إني أستحي من الله أن أبيع أرضاً تكون مسجداً، أنا أولى منك أن أقدمها إلى الله، يقول هذا المحسن: والآن مريض شفاه الله، يقول: والله ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الإنسان، أي إذا كان معه مئتا مليون ودفع مليوناً لن يحصل شيء، أما هذا راتبه أربعة آلاف، وعنده ثمانية أولاد، لا يملك من الدنيا إلا ثمن هذه الأرض، استحيا من الله أن يبيعها كي تكون مسجداً. الآن الذي يهز الناس موقف أخلاقي، أمانة، صدق، حلم، إتقان عمل، نصح، فهذا الذي يعيد للمسلمين مصداقيتهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (31 - 49) : تفسير الآية 64، معاني اليد في القرآن الكريم.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-05-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

اليد عضو من أعضاء الإنسان ولكنْ أصدق صفة فيها الحركة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الرابعة والستين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

أيها الأخوة، اليد جارحة، عضو من أعضاء الإنسان، ولكنْ أصدق صفة فيها الحركة، تتحرك يمنة ويسرة، وارتفاعاً وانخفاضاً، فيها رسغ، الكف فيه أصابع، الأصابع فيها سلاميات، الإبهام له وظيفة، السبابة لها وظيفة، الوسطى لها وظيفة، فأوضَحُ عضو من أعضاء الإنسان تظهر فيه الحركة هو اليد. فاليد جارحة، لها الحركة، وحركتها حرة، بعض الأعضاء الحركة فيها محدودة، العمود الفقري حركته محدودة، يمكن أن ينثني، لكن في حدود لحركته، أما اليد فلها حركة مسبقة، يمنة ويسرة، ارتفاعاً وانخفاضاً، الكف تتحرك قبضاً وبسطاً، وحينما تمنع من الحركة، حينما تقيد تكون مغلولة.

إذا رضي الناس بقول إنسان فاسق وسكتوا وارتاحوا لقوله فكلهم آثمون :

قال تعالى:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

كيف؟ ورد في الكتب أن اليهود قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام تفرغوا لصناعة آلات الحرب، وبناء الحصون، وأهملوا الزراعة، فلما خابت محاصيلهم، وقلَّت أرزاقهم، قال زعيمهم (فينحاص): لماذا قبض الله يده عنا؟ بل:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

الغريب أن الله عز وجل يقول:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ)

قال واحد منهم، بل قال زعيمهم، لأنهم سكتوا، وأسروا بهذا القول، إذاً جميع اليهود حملوا إثم هذا القائل، والذي عقر الناقة واحد، لكن الله عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة الشعراء: 157]

إذا رضي الناس بقول إنسان وسكتوا، بل وارتاحوا لقوله فكلهم آثمون، وكأن كل واحد منهم قال هذه المقولة:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ)

مع أن الذي قال واحد، هو (فينحاص):

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أنواع الفقر :

لأنهم أهملوا زراعتهم فقلّت محاصيلهم نسبوا تقصيرهم إلى الله، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق: هو أن هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك فقر الإنفاق، فقر الإنفاق دعونا منه، هذا لكبار الصحابة، لسيدنا الصديق الذي أنفق كل ماله، ولم يقبل النبي من أحد من أصحابه أن ينفق كل ماله إلا الصديق، قال له: يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله، هذا فقر الإنفاق، حالات نادرة.

لكن فقر القدر أن يكون الإنسان ذا عاهة تمنعه عن كسب رزقه، هذا الفقير فقير القدر معذور، لكن الفقر الذي لا يعذر صاحبه هو فقر الكسل، الإنسان حينما يقعد، لا يعمل، لا يبحث عن عمل، له عمل لا يتقنه، له عمل لا ينجزه، يتواكل، يسوف، يرجئ، يميل إلى الراحة، إلى النوم، إلى قبض المال من دون أن يقدم شيئاً، هذا كسل خطير، وهذا الكسل موجود في المجتمعات المتخلفة، في كسل، بالمجتمعات المتخلفة في فقر، لكن هذا الفقر أساسه الكسل، ليس هناك حركة، كلام فارغ، تتبع مشكلات الناس، كل إنسان مشغول بأخطاء الآخرين، يتابعها، يدقق فيها، يذيعها بين الناس، يشهر بهم، وكأنه يتلذذ بنقل هذه الأخبار، أما أن يعكف على نفسه، ويقوم بعمل نافع للأمة، فهذا السؤال الذي ينبغي أن يسأله كل إنسان: ماذا قدمت لأمتك إذا سألك الله عز وجل يوم القيامة: ماذا قدمت للمسلمين؟ هل قدمت لهم علماً؟ هل قدمت لهم مالاً؟ هل قدمت لهم خبرةً؟ هل قدمت لهم نصيحة؟ هل فكرت في مشكلاتهم؟ هل حملت همومهم؟ هل أقلقك وضعهم؟ هل آلمك ألمهم؟ هل ساءتك مساءتهم؟ ماذا فعلت؟ الإيمان حركة أيها الأخوة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

[سورة الأنفال: 72]

أنت إذا اكتفيت بالإيمان لم تفعل شيئاً، هذا الضوء متألق، لو أنك قلت: أنا مؤمن أنه متألق، ماذا فعلت؟ هو متألق، أقررت بذلك أم لم تقر، الشمس ساطعة، قل: الشمس ساطعة ألف مرة، هي ساطعة، إن لم تقل ذلك تتهم بعقلك.

أن تكتفي بالإيمان دون أن ترفقه بعمل فهذه طامة الطامات :

إذاً أيها الأخوة، أن تكتفي بالإيمان دون أن ترفقه بعمل فهذه طامة الطامات، ومصيبة المصائب، إعجاب سلبي، نحن مؤمنون والحمد لله، مؤمنون بالله، برسول الله، بالجنة، بالنار، بالقضاء والقدر، ماذا فعلت؟

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف: 110]

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

هناك أعمال لا تعد ولا تحصى أساسها المصلحة الشخصية لا وزن لها عند الله.

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)

[سورة الكهف: 105]

بعض آراء المفسرين فيما يتعلق بالآية التالية :

1 ـ حينما تعزو أخطاءك لقضاء الله وقدره تكون كاليهود :

أيها الأخوة، حينما تعزو أخطاءك لقضاء الله وقدره تكون كاليهود الذين قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

التق مع أي إنسان، فرص العمل نادرة، هل بحثت عن عمل؟ هل فكرت في عمل مبدع؟ هل فكرت في عمل لم تسبق إليه؟ هل فكرت بإخلاص لخدمة الناس؟ الله موجود في كل عصر، وكل مصر، وبكل وقت، وبكل زمان، لا بد من حركة:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

هذا رأي من آراء المفسرين.

2 ـ حينما رأى اليهود فقر المسلمين وحاجتهم رأوهم لا شأن لهم عندهم إطلاقاً :

الرأي الآخر أن اليهود قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

حينما رأوا فقر المسلمين وحاجتهم. النبي عليه الصلاة والسلام التقى بعدي بن حاتم، وكان عدي ملك من ملوك العرب، قال: يا عدي، لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجته، المسلمون فقراء، وأيم الله ليوشكن المال أن يفيض بهم حتى لا يوجد من يأخذه.

هناك سرّ، لماذا كان النبي فقيراً؟ ولماذا كان ضعيفاً؟ لو كان قوياً لطمع الناس به، ليعتزوا به، ليتقووا به، لو كان غنياً لطمعوا بماله، فآمنوا به لا محبة بالله، ولا قناعة به، ولكن طمعاً بمصلحة، فلحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله الأنبياء فقراء، وضعافاً، يُتَّهمون بالكذب، وينامون في بيوتهم، يتهمونه بأنه مجنون، وينامون في بيوتهم، لكنك لا تستطيع أن تنطق بكلمة عن قوي، لا تنام في بيتك، يتهم أنه شاعر ومجنون، وله مآرب، ولا شيء، يرى النبي أصحابه يعذبون لا يستطيع أن يفعل شيئاً، يقول: صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، أنت حينما تؤمن بإنسان ضعيف فقير، لكن الحق معه تكون بطلاً، عندئذٍ الله عز وجل يطمئن نبيه، ومن تبع نبيه.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

[سورة الضحى: 5]

القرآن الكريم اعتمد قيماً متاحة لكل واحد منا وهي قيم العلم والعمل :

إذاً الإنسان حينما يكون فقيراً أو ضعيفاً، أحياناً المصائب تولد البطولات، الحزن خلاق، أنت حينما تعطي نصف دخلك لأخيك، ودخلك لا يكفيك تكون بطلاً.

ذكرت مرة قصة، أن هذا الذي ورث أرضاً، ويعمل حاجباً في مدرسة، ودخله أربعة آلاف ليرة، وعنده ثمانية أولاد، عرض الأرض للبيع، فكان ثمنها ما يزيد على أربعة ملايين، ثروة كبيرة جداً لإنسان معدم، الذي اشتراها أراد أن يجعلها مسجداً، فلما علم أن هذا الفقير يبيعها لتكون مسجداً استحيا من الله، ومزق الإيصال، وقال: أنا أولى أن أقدمها لله منك، يقول هذا الغني الكبير: ما صغرت في حياتي كما صغرت أمام هذا الفقير المحسن. الحزن خلاق، قد تنشأ في بيئة فقيرة، قد يكون المال قليلاً، لكن ميزان الله لا علاقة له بالمال، القرآن الكريم اعتمد قيماً متاحة لكل واحد منا، اعتمد قيمة العلم، وقيمة العمل.

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر: 9]

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة: 11]

واعتمد قيمة العمل:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف: 19]

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر: 10]

على الإنسان ابتغاء الرفعة عند الله عز وجل:

أما قيمة الذكاء، وقيمة الغنى، وقيمة الوسامة، وقيمة الجمال، وقيمة القوة، فهذه قيم مزيفة، يتعامل بها في حياتهم الدنيا، لذلك:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين ـ مدفوع بالأبواب ـ لو أقسم على الله لأبره))

[رواه أنس عن أبي هريرة]

دخل على النبي الكريم رجل فقير جداً، فرحب النبي به ترحيباً لا مثيل له، فعجب، فقال: أهلاً يا من خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟! قال: نعم يا أخي، أنت خامل في الأرض علم في السماء.

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[ورد في الأثر]

((كلكم من آدم وآدم من تراب))

[الترمذي]

قد تكون في الدرجة السفلى من المقياس الاجتماعي، لكن قلامة ظفرك تعدل عند الله مليون إنسان، قد تكون في أدنى درجة من السلم الاجتماعي، ولك عند الله شأن كبير.

((ابتغوا الرفعة عند الله))

قال له: لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتك، وأيم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من كثرة عدوه ـ الآن الأرض كلها تحارب الإسلام ـ وأيم الله، ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله إنما يمنعك من دخول من هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم _ المسلمون مليار وثلاثمئة مليون، بكل إمكاناتهم وثرواتهم وموقعهم الجغرافي، وأنهم أمة واحدة، دينهم واحد، ولسانهم واحد، هل يستطيعون الآن بربكم أن يفعلوا شيئاً في الأرض؟! أبداً، قيمتهم ليست واضحة أبداً،

هذا امتحان صعب نحن به، وهذا الذي أصابنا رسالة من الله: أن يا عبادي غيروا ما بأنفسكم حتى أغير ما بكم _ ولعله ما يمنعك دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب، وقد عاش عدي حتى رأى هذه الوعود الثلاثة. الرأي الآخر: أن اليهود قالوا:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَة)

لأن المسلمين فقراء، ضعاف، وهذا الذي يصرف الناس عن الإسلام الآن، دول فقيرة نامية متخلفة، الفقر مستشرٍ، والبطالة، هم أقوياء وأذكياء وأغنياء، ومعهم أسلحة فتاكة، وصواريخ، والإعلام بيدهم، والاقتصاد بيدهم، ونحن أمم متخلفة لا شأن لنا عندهم إطلاقاً.

3 ـ يد الله مغلولة عن عقابهم في الآخرة لأنهم شعب الله المختار :

رأي ثالث:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أي مغلولة في الآخرة عن عقابنا.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

نحن لا نعاقب، لأننا شعب الله المختار.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

أمة محمد أمتان أمة الاستجابة وأمة التبليغ :

والمسلمون اليوم إذا قالوا: نحن أمة محمد، الجواب هو ما يلي:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

لذلك العلماء يقولون: أمة محمد أمتان، أمة الاستجابة، وأمة التبليغ، إن استجابوا كانوا:

(خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران: 110]

وإن لم يستجيبوا فهم أمة التبليغ، هم أمة كأي أمة، لا شأن لها عند الله إطلاقاً:

(يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَة)

أي في الآخرة عن عقابنا، نحن لا نعاقب.

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة آل عمران: 80]

إذا قال المسلم: أنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وسيشفع لي يوم القيامة يقول الله له:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

[سورة الزمر: 19]

أيّ عمل صالح هو قرض لله عز وجل وسيوافيك بأضعاف مضاعفة يوم القيامة :

لو أنك انتزعت من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى لصالحك، انتزعتها من فم النبي، لا من مفتي، قضية متعلقة بالجنة والنار، وأكل المال الحرام، تكتفي بإنسان جاهل يصلي أحياناً، وغير معين من قبل الأوقاف يفتي لك بهذا، وينتهي الأمر؟! لماذا أنت إذا أردت أن تبيع بيتك، وقال لك أحد الذين في طريقك: هذا ثمنه مليونان، لماذا تسأل مئة إنسان؟ لماذا في أمر دنياك تتحقق، تتثبت، تتأكد، تبحث، توازن، تقارن، لماذا؟

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)

أي مغلولة عن عقابنا في الآخرة، صدقوا أيها الأخوة، أن ثلثي عقائد المسلمين التي توارثوها خرافات وأوهام، الدعاء: اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

اعمل مراجعة لعقائدك، قد تعتقد أننا أمة مرحومة، لسنا مرحومة على ما نرى نعاقب عقاباً أليماً، نعاني ما نعاني، المرحوم من استقام على أمر الله، هناك أوهام، ومعتقدات زائغة، وكلام غير مقبول، الكلام الصحيح هو كلام الله عز وجل، وما صح من حديث رسول الله، واليهود ألفوا هذا الكلام والتطاول على مقام الألوهية، لهم قول آخر:

(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

[سورة آل عمران: 181]

لأنهم سمعوا قول الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: 245]

أن الله فقير يطلب القرض منا، لكن الله عز وجل بهذه الآية الدقيقة: أي عمل صالح لو قدمته لنملة، لطائر، لهرة، هو قرض لله عز وجل، وسيوافيك بأضعاف مضاعفة يوم القيامة، بعض الأحاديث ورد: أنك إذا وضعت لقمة في فم زوجتك، تودداً لها وتطييباً لقلبها، رأيتها يوم القيامة كجبل أحد، لقمة طعام،

لو أعطيت طفلاً حلوى، لو ابتسمت في وجه أخيك، لو سألته عن صحته، لو سألته عن أولاده، لو دعوته إلى بيتك، لو قدمت له طعاماً، لو قدمت له هدية، إذا أدخلت على قلب أخيك الفرح والسرور سوف ترى هذا العمل يوم القيامة كجبل أحد.

كل إنسان ينسى ما عند الله من إكرام إنسان أحمق ومحدود :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

[سورة آل عمران: 181]

لكن رب العزة أغنى الأغنياء، ملك الملوك يقول: يا عبدي هل تقرضني، الله عز وجل يحب أن تربح عليه. تصور ملكاً قال لمعلم: علّم ابني، وأنا أكافئك، هذا المعلم بعد أن أعطى الدرس، قال لهذا الطفل: أعطني أجرتي، الملك هيأ لك بيتاً، ومركبة، وراتباً مدى الحياة، أنت أردت أن تأخذ من الطفل مبلغاً محدوداً. فكل إنسان ينسى ما عند الله من إكرام إنسان أحمق وغبي ومحدود.

مرة حدثني أخ كانت سيارته معطلة، والطريق صعود شديد، والمركبات كلها لا تقف في هذا الموقف، بعد ساعة أو ساعتين أحدهم وقف، قال له: ماذا تريد؟ قطعة أعاره إياها، قال لي: حدثت نفسي أن هذا الإنسان عظيم، هذا الإنسان وقف، هذا الإنسان أراد أن ينجدنا، عندما انتهى، أرجع له هذه الأداة، قال له: خمس ليرات إذا أمكن، قال: والله لو طلبت مئة ليرة لأعطيتك، لكنني كنت أتمنى ألا تأخذ شيئاً، كان العمل عظيماً، فلما أخذت عليه أجراً سقط من عين الله عز وجل.

للآية التالية معنيان :

1 ـ المعنى الأول ليست دعاءً إنما تعليم لنا ألا نسكت على قولهم :

الآن:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

كيف نفسر هذه الكلمة؟

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

هي دعاء، هل يليق بمقام الله أن يدعو على عبد؟ هو الإله، تدعو من أنت؟ تدعو الله يا رب دمر فلاناً، دمر أعداءنا، اجعل الدائرة تدور عليهم يا رب، اجعل بأسهم بينهم، أنقذنا منهم، أنت تخاطب إلهاً قوياً

لأنك ضعيف تدعو الله عز وجل، الإله العظيم المطلق يمكن أن يدعو هو على إنسان؟ هذا ليس دعاءً إطلاقاً، لا يقبل أن تكون هذه دعاء:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي أن الله يعلمنا أنك إذا سمعت وصفاً لا يليق بالله عز وجل لا ينبغي أن تسكت، قل له: غلت يداك، بل يداه مبسوطتان، هذا ليس دعاء، بل هو تعليم لنا، إذا استمعت إلى كلام فيه اتهام للذات الإلهية، اتهام لها بالظلم، اتهام لها بأن الله في السماء، ولا علاقة له بما يجري في الأرض، ما هذا الكلام؟ هل تقبل من أب عاديّ أن يرى أحد أولاده يضربه أخوته ضرباً مبرحاً والأب ساكت؟ مستحيل، لا بد من أن يتدخل، إذاً هذا الذي يجري ليس قهراً لنا، بل تسليط من الله عز وجل، لحكمة بالغة، قد لا نكشف اليوم حكمتها، هذا تسليط، وليس قهراً لنا، الكرة في ملعبنا، وإذا غيَّرنا يغيّر الله ما بنا، إذاً:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

ليس دعاءً، إنما هو تعليم لنا، أنه إذا سمعت آيات الله يستهزأ بها فينبغي أن يكون لك موقف، إذا سمعت إنساناً يصف الله عز وجل بما لا يليق به فلا ينبغي أن تسكت، ينبغي أن ترد عليه، هذا المعنى الأول.

2 ـ المعنى الثاني عاقبهم الله بالبخل حينما وصفوا يد الله بأنها مغلولة :

المعنى الثاني:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي عاقبهم الله حينما وصفوا يد الله بأنها مغلولة، عاقبهم بالبخل، فالبخل من شيمهم، فحرص اليهود على المال لا يوصف.

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ)

[سورة البقرة: 96]

حرصهم على المال لا يوصف، يعبدون المال من دون الله، هم يأكلون الربا ويأكلون السحت من أجل حبهم للمال، إذاً:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

إما تعليم لنا ألا نسكت على قولهم، أو أن الله عاقبهم بهذا الافتراء والتطاول بأن جعل البخل من شيمهم ومن أخلاقهم.

الإنسان إذا ظن بالله ظناً سيئاً عوقب بالبعد عنه :

قال تعالى:

(وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا)

قولهم أبعدهم عن الله عز وجل، الإنسان إذا ظن بالله ظناً سيئاً يبتعد عن الله، وكأنه لعن أي أبعد، إذا ظن أن الله ليس عادلاً، إذا ظن أنه ينبغي أن يكون أفضل من فلان، هذا ظن السوء.

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: 6]

حسن الظن بالله ثمن الجنة:

(غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ)

أي ينبغي ألا تسكت أمام من يتهم الله عز وجل، أو أن الله عاقبهم بالبخل والشح:

(وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا)

قولهم أبعدهم عن الله عز وجل.

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)

اليد هي الجارحة، واليد هي النعمة، فلان له على فلان يد، أي له نعمة، واليد هي الملكية.

معاني اليد في القرآن الكريم :

قال تعالى:

(أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ)

[سورة البقرة: 237]

إما تعني التملك، وإما تعني النعمة، وإما تعني الجارحة، وإما تعني المبالغة في العناية.

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

[سورة ص: 75]

الله خلق الكائنات بكلمة كن.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

خلق الكائنات بكلمة كن، لكن الإنسان خلقه بيده، تكريماً له.

(وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

[سورة السجدة: 9]

(مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

[سورة: 75]

فإما أن تعني اليد أنها الجارحة، وإما تعني أنها النعمة، وإما تعني أنها الملكية، وإما أنها تعني العناية المشددة، هذه معاني اليد في القرآن الكريم، الله عز وجل له يد وله يدان، واليد لها معنى، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن يده ليست كيدك، وأن وجوده ليس كوجودك، وأن كل صفات الله عز وجل ليست كصفاتك، هذه حقيقة مستنبطة من قوله تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى:]

كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، له يد أثبتها الله في القرآن الكريم، يده ليست كيدنا، ندع تفسيرها لما يليق بذاته جل جلاله.

الله جل وعلا له يدان وكلتا يديه اليمين واليمين رمز العطاء والسخاء والخير :

أيها الأخوة الكرام:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

هناك بحث دقيق جداً، ليس عند الله يمين وشمال، بل كلتا يديه يمين، اليمين رمز العطاء، ورمز السخاء، ورمز الخير، له يدان وكلتا يديه اليمين فلماذا قال في موقف:

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

وقال في آية ثانية:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

أيها الأخوة، في هذه الآية ملمح رائع جداً، الله عز وجل عطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، يعطي بيد نعمة، ويعطي باليد نعمة المنع، وقد يكون المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، لكن عطاء الإيجاب ظاهر، وعطاء السلب باطن، عطاء الإيجاب واضح، قد يعطي الله الإنسان مالاً، قد يعطيه وسامة، قد يعطيه ذكاء، قد يعطيه منصباً رفيعاً، قد يعطيه زوجة صالحة، هذا عطاء ظاهر، قد يبتليه بمرض هذا عطاء باطن، قد يبتليه بفقر، هذا عطاء باطن.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 27]

إذاً يمنعك وهو يعطيك، ويعطيك وهو يمنعك، لذلك تجد في بلاد كثيرة فيها رخاء لا يوصف، وفيها ترف لا يوصف، مشكلاتهم تكاد لا تكون، لكن أكبر مشكلة عندهم أنهم بهذا الرخاء وهذا الترف

أعرضوا عن الله عز وجل، متصحرون، جفاة، قلوبهم ميتة، هل هذا عطاء؟ اذهب إلى أي مكان تر الناس في بحبوحة، في غنى، وفي ترف، وهمهم سباق السيارات، وسباق الخيل، هل هناك قرب من الله عز وجل؟

إذا كشف الله لنا حكمة المنع عاد المنع عين العطاء :

أيها الأخوة، ربما منعك فأعطاك، وقد تكون الشدة في بلد هي أكبر دافع إلى الله عز وجل، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، أنا لا أقول: أن نرضى بواقع سيء، لا بد أن نحسن واقعنا، ولكن أحياناً لا تستطيع أن تحسن واقعك، لأن هناك حكمة بالغة.

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 216]

أيها الأخوة، حينما يكشف الله لك يوم القيامة ما ساقه لك من هموم وأحزان ومصائب ومتاعب ينبغي أن تذوب محبة لله عز وجل، حينما تكشف حكمة هذه المتاعب، إنها سبب سعادتك الأبدية، أنا أقول دائماً: نحن في العناية المشددة، دقق في طبيب رأى مريضاً مصاباً بالتهاب في المعدة خطير، يعطيه قائمة الممنوعات، ويشدد عليه إلى درجة التعنيف، أما إذا رأى مريضاً مصاباً بورم خبيث في الدرجة الخامسة، وسأله المريض: ماذا آكل؟ يقول له: كل ما شئت.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام: 44]

فلذلك عندما تكون مؤمناً ومستقيماً وعفيفاً وصادقاً وقريباً من الله، وتؤدي العبادات، وتؤدي ما عليك من زكاة أموالك، وترحم الناس، وتكرمهم فأنت أفضل ألف مرة ممن يعريهم في السجون، ويتفنن في تعذيبهم، أليس كذلك؟ لذلك العطاء قد يكون منعاً، وقد يكون المنع عطاء، وإذا كشف الله لك حكمة المنع عاد المنع عين العطاء:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

المؤمن يكشف الله له بصيرته فيرى نعمة السلب كما يرى نعمة الإيجاب :

النعم نعمة الإيجاب ظاهرة، بل صارخة، نعمة السلب باطنة مستترة، فالمؤمن يكشف الله له بصيرته فيرى نعمة السلب كما يرى نعمة الإيجاب:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

[سورة الشورى: 27]

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[رواه سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

الست مليارات إنسان، لو طلب واحد وقال: يا رب أريد قصراً، ويخت، وطائرة خاصة، وأغلى مركبة، وبيت بالمدينة، وبيت بالمصيف، وبيت على الساحل، لو الست مليارات إنسان طلبوا هذا الطلب لنفذه الله، وما نقص في ملك الله إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في مياه البحر، ذلك لأن عطائي كلام، كن فيكون، وأخذي كلام.

يقول لك: شح بالأمطار، الأمطار قليلة، المحاصيل ماتت، مليارات خسرنا هذه السنة لأن المطر انقطع خمسة أسابيع، لا يمكن أن يكون تقنين الله عجزاً إنما تقنين الله تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

أحياناً ننتج من القمح خمسة أضعاف ما نحتاج، وأحياناً ننتج أقل مما نحتاج، والأمر بيد الله.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)

[سورة الذاريات: 58]

تقنين الله لا يمكن أن يكون تقنين عجز بل هو تقنين تأديب :

أيها الأخوة، التقنين لا يمكن أن يكون تقنين عجز، بل هو تقنين تأديب.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة: 66]

ويقاس على هذه الآية: ولو أنهم أقاموا القرآن الكريم:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

الإنسان حينما يبتليه الله في الدنيا هذا دليل أن فيه خيراً :

إذاً:

(بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

يد فيها عطاء الإيجاب، ويد فيها عطاء السلب، يد تعطي الصحة، ويد تعطي المرض، ليكون المرض دافعاً إلى التوبة، يد تعطي راحة البال، ويد تعطي القلق والهم والحزن، ليكون الهم والحزن دافعاً إلى التوبة، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

[سورة السجدة: 21]

الإنسان حينما يبتليه الله في الدنيا هذا دليل أن فيه خيراً، لأن الذي لا خير فيه تنطبق عليه الآية الكريمة:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

أما الإنسان المؤمن المقصر يبتليه الله عز وجل، والابتلاء دليل أن فيه الخير، وأن الله يريد أن يصلحه، لكن بشكل دقيق ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة.

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

كلّ عطاء إلهي حيادي إما أن ترقى به أو أن تهوي به :

أيها الأخوة، الآية الدقيقة:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

كلام صحيح، نرى بعد قليل:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[سورة الفجر: 15]

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا)

[سورة الفجر: 16-17]

(كلا) أداة ردع ونفي، كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، الإنسان يبتلى بالمال، يمتحن بالمال، فإذا أنفقه في طاعة الله كان نعمة، وإذا أنفقه في معصية الله كان نقمة، يبتلى بزوجة، إذا أحسن معاملتها، وحجبها، ودلها على الله كانت نعمة، وإن أهملها فانحرفت، وأطاع أمرها كانت طريقه إلى النار، قد يعطي الإنسان بنتاً إذا أحسن تربيتها دخل بها الجنة، وإن أهملها وانحرفت تقول يوم القيامة: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، المال سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها، الزوجة سلم ترقى به، أو دركات تهوي بها، القوة قد تكون قوياً، فالقوة إن استخدمتها لإحقاق الحق ونصرة الضعيف كانت سلماً ترقى بها، وإن استخدمتها لأن تتشفى بخصومك، وتنكل بهم كانت دركات إلى النار، فكل عطاء إلهي حيادي، ترقى به إذا استخدمته وفق منهج الله، وتهوي به إذا استعملته بخلاف منهج الله، لذلك الشهوات حيادية:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر: 15-16]

كلا ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب :

أيها الأخوة الكرام، قال بعض العلماء: عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب.

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)

[سورة الإسراء: 11]

مثلاً، كم من غني ينجو من عذاب النار؟ قلة قليلة، الغنى مغرٍ، الغني يوهم بالقوة، الغنى يوهم بالتكبر، بالتغطرس، بالعجرفة، بالاستعلاء على الناس، لكن الفقر أقرب للعبودية، المئة فقير قد ينجو منهم تسعون، أما المئة غني قد لا ينجو منهم عشرة.

لما سأله جبريل: أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره.

الضعف والفقر أقرب إلى العبودية، واحتمال النجاة في الضعف والفقر أقرب من احتمال النجاة في الغنى والقوة، هذا موضوع جديد، لذلك قالوا: عطاء المنع أنفع للإنسان في آخرته من عطاء الإيجاب، فكلما كان نصيبك من الدنيا قليلاً كان حسابك يسيراً، وكلما كان النصيب كبيراً كان الحساب عسيراً، أنا لا أدعو إلى أن تكونوا فقراء لكن أدعو إلى أن تكشف حكمة الله حينما لا تكون كما تريد، حينما تسعى بكل جهدك، ولا تصل إلى ما تريد إذاً هذا له حكمة بالغة يجب أن ترضى عن الله عز وجل، مع أن

الغنى قوة، والعمل الصالح يحتاج إلى قوة، فالأعمال الصالحة المتاحة أمام الغني أكبر بكثير من الأعمال الصالحة المتاحة أمام الفقير، لكن الغنى زلة قدم، والفقر أضمن للعبودية من الغنى، أنا لا أدعو إلى أن تكون فقيراً، كاد الفقر أن يكون كفراً، أنا لا أدعو إلى الكسل، لا أدعو إلى القعود، أدعو إلى العمل، أدعو إلى تحسين المستوى المعيشي، لكن أنا أقول: حينما تبذل كل ما في وسعك، وتصل إلى مكان تتمنى أن تكون في مكان آخر، ينبغي أن ترضى عن الله، هكذا فقط، ينبغي ألا يفهم من كلامي أنني أدعو إلى القعود أو الكسل، أنا أحارب القعود والكسل، لكن أحياناً الظروف صعبة جداً، بكل ما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تصل إلى ما تريد، ارضَ عن الله عز وجل، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل، أما إذا كان الإنسان كسولاً، وكان فقيراً، وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام مردود عليه، طالب ما اجتهد، فلم ينجح، فقال: لا إله إلا الله، حسبي الله ونعم الوكيل، هذا كلام مرفوض، هذا جزاء التقصير.

إن لم تكن مستقيماً على أمر الله فلن تفهم حقائق هذا القرآن ولن تفهم أبعاده :

قال تعالى:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

أي أن هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، هدى للمتقين، لكنه يزيد الظالم ظلماً.

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء: 82]

وهو عمى عليهم، الآية الكريمة:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ*فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ*كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الشعراء: 198-200]

إن لم تكن مع الله، إن لم تكن مستقيماً على أمر الله فلن تفهم حقائق هذا القرآن، ولن تفهم أبعاده، فأن تفهمه يحتاج هذا إلى نفس طاهرة، لذلك قال تعالى:

(لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)

[سورة الواقعة: 79]

العداوة والبغضاء لها قانون :

قال تعالى:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

هذا قانون العداوة والبغضاء:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

[سورة المائدة: 14]

العداوة والبغضاء لها قانون، حينما يتفلت مجتمع من منهج الله تنشأ عداوات لا تحتمل، الأرض كلها عداوات الآن، الأرض كلها حروب أهلية، الأرض كلها عدوان، أحقاد، شيء لا يوصف، التفلت من منهج الله هذه نتيجته، هذا على مستوى شعوب وأمم، وعلى مستوى أفراد:

((ما تواد اثنان، ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أخرجه أحمد عن ابن عمر]

(وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

فالكافر عمله العدوان والإفساد، يقصف ويصدر الأفلام، يقصف ويصدر الأشياء التي تفسد أخلاق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (32 - 49) : تفسير الآيات 65 - 67 ، حقيقة العقيدة.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-06-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الانتماء إلى الدين التاريخي لا قيمة له إطلاقاً :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة والستين، والآيات التي تليها، يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

أعيد وأكرر أن ذكر أهل الكتاب في القرآن الكريم يعني أن هؤلاء الذين جاءهم كتاب من عند الله قد انحرفوا، ووقعوا في أمراض نحن مرشحون أن نقع بها تماماً، فالحديث عن بني إسرائيل وأهل الكتاب كمن يقول: إياكِ أعني، واسمعي يا جارة، لو أن أهل الكتاب آمنوا، إذاً في هذه الآية خرجوا عن حيز الإيمان، وأي مسلم لم يعبأ بمنهج الله، وأي مسلم لم يعبأ بوعيد الله، ولم يعبأ بوعد الله، بل وضع كل ثقله في إيقاع الأذى بالناس، هذا خرج عن دائرة الإيمان.

الانتماء إلى الدين التاريخي لا قيمة له إطلاقاً، والانتماء الشكلي لا قيمة له إطلاقاً، وهذه حقيقة يجب أن تكون واضحة عند كل الأخوة، لا يجعلك مسلماً حقاً إلا إذا كنت مؤمناً حقاً، ومستقيماً حقاً، ومحسناً حقاً، فإن لم تستقم، ولم تحسن خرجت من حيز الإيمان، وبقي إسلامك بالهوية، وانتماؤك شكلي، وهذا الانتماء الشكلي لا يقدم ولا يؤخر، وهان أمر الله على المسلمين، فهانوا على الله، لا أعتقد أمة من الأمم تعاني كما يعاني المسلمون، تؤخذ أراضيهم، ويقتل أبناؤهم، ويفتك بنسائهم، وتنتهك أعراضهم، ولا أحد يقدم لهم شيئاً، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله.

حينما ينتمي الإنسان إلى الله ينبغي أن يتخلق بالخلق الذي أمر الله به :

الآية واضحة:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا)

إذاً هم عند الله ليسوا مؤمنين، الله عز وجل له أسماء حسنى، وله صفات فضلى، وله منهج، وحينما ينتمي الإنسان إلى الله أي ينتمي إلى منهج الله، وحينما ينتمي الإنسان إلى الله ينبغي أن يتخلق بالخلق الذي أمر الله به، من صدق، وأمانة، وعفو، وتسامح، ورحمة، ولطف، وخير، وعطاء، وبذل،

وتضحية، فهذا الكلام معناه: إياك أيها الإنسان أن تتوهم أن انتماءك الشكلي إلى الدين ينجيك من عذاب الله، الانتماء الشكلي، والانتماء التاريخي، والانتماء الذي لا يعني أنك مصدق بما عند الله من وعد وهو الجنة، ولست معنياً بوعيد الله وهي النار، ولست ملتزماً بمنهج الله، ولست تسعى لخير البشر، بل تسعى لأن تبني مجدك على أنقاض الآخرين، وأن تبني حياتك على موتهم، وأن تبني غناك على فقرهم، وأن تبني عزك على ذلهم، وأن تبني أمنك على خوفهم، أنت إن كنت كذلك خرجت من الملة، وخرجت من حيز الدين، وحيز الإيمان كما قال الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا)

لو أنك زرتني، لو، لولا حرف امتناع لوجود، أما لو فهو حرف امتناع لامتناع، لو أنك زرتني لأكرمتك، أنا لم أكرمك لأنك لم تزرني:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

لمَ لم يكفر عنهم من سيئاتهم من شيء؟ لأنهم لم يؤمنوا.

الانتماءات الشكلية والتاريخية لا تقدم ولا تؤخر :

ملخص هذه الآية: لا تعبأ، ولا تهتم لانتماء شكلي لهذا الدين، قد لا تجد الآن المسلم مسلماً، ولا النصراني نصرانياً، ولا اليهودي يهودياً، مثلاً يقول الله عز وجل متحدثاً عن أتباع السيد المسيح:

(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

[سورة الحديد: 27]

هل ترون فيما يجري حولنا إنْ في العراق أو في فلسطين، هؤلاء الذين اتبعوه هل في قلوبهم رأفة ورحمة، هذا الانتماء الشكلي أيها الأخوة يسبب التعصب، يسبب العداوة، يسبب البغضاء، يسبب الحروب، الانتماءات الشكلية والتاريخية لا تقدم ولا تؤخر:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا)

لو حرف امتناع لامتناع، هم امتنع إيمانهم، وامتنعت عنهم مغفرة ربهم:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

إذاً الله عز وجل لا يتعامل مع التمنيات، ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يكون من أهل الجنة، أليس كذلك؟

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ)

[سورة النساء: 123]

أيها المسلمون:

(وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ)

[سورة النساء: 123]

الآية التالية ينبغي أن تكون ماثلة أمام كل إنسان :

هذه الآية ينبغي أن تكون ماثلة أمام كل إنسان:

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

[سورة النساء: 123]

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

يقاس على ذلك والمسلمون يقولون: نحن أمة محمد، نحن أمة مرحومة:

(تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أنا أتكلم بالحقيقة المرة، لأنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح، أي ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق الآن على المسلمين، الإيمان الحقيقي ما أقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العقل، عمل المسلمين لا يعبر عن إيمانهم، وكلامهم لا يعبر عن إيمانهم، فإذا لم يكن عملهم يعبر عن إيمانهم، ولا كلامهم يعبر عن إيمانهم، إذاً هم ليسوا مؤمنين، أما أن تقول: أنا مؤمن، والحمد لله أن الله هو الخالق، فهذه كلمة قالها إبليس، قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص: 76]

حقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن نعتقد بل ما ينبغي أن نكون عليه :

أما أن تؤمن أن الله رب العالمين قالها إبليس:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص: 82]

أما أن تؤمن أن الله عزيز قالها إبليس، أما أن تؤمن أن هناك يوم آخر قالها إبليس:

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة ص: 79]

فأن تقر إقراراً لا قيمة له إطلاقاً، ولا زلنا في دروس الأحد من مدة تزيد على ستة أشهر نتحدث عن أن حقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن تعتقد فحسب، بل ما ينبغي أن تكون عليه، إذا كنت مؤمناً بالله، لماذا

لا تستقيم على أمره؟ لماذا لا تحبه؟ لماذا لا تخدم عباده وتحسن إليهم؟ لماذا لا تتوكل عليه؟ فحقيقة العقيدة ليست ما ينبغي أن نعتقد، بل ما ينبغي أن نكون عليه، بناء على عقيدتنا:

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

وكأن الله ينتظر كل عباده، ما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو مطلوب من قبل الله عز وجل، مطلوب ليرحمه، مطلوب ليسعده في جنة عرضها السماوات والأرض.

ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق على المسلمين :

ورد في بعض الآثار القدسية:

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين فكيف بالمقبلين؟ عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيا بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض بها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً فأنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلمي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد "، إني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ومن أعرض عني منهم ناديته من بعيد، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، فإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[ورد في الأثر]

(لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

ما ينطبق على أهل الكتاب ينطبق على المسلمين، انتماء المسلمين إلى دينهم انتماء تاريخي بحكم الولادة، أو انتماء شكلي، يصلي صلاة جوفاء، لكن تعامله اليومي ليس وفق منهج الله، لكن وفق أهوائه ومصالحه، هذا الإسلام الشكلي، هذه قشور لا تقدم ولا تؤخر.

من آمن بصحيح التوراة والإنجيل آمن بالقرآن الكريم :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

التوراة التي أنزلت من الله تماماً، والإنجيل الذي أنزل من الله تماماً، أي ما صح من التوراة، وما صح من الإنجيل يقود هؤلاء إلى الإيمان بالقرآن الكريم.

(وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)

[سورة الصف: 6]

إذاً لو أنهم آمنوا بصحيح التوراة، وآمنوا بصحيح الإنجيل، لقادهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل إلى الإيمان بالقرآن الكريم:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ)

ما الذي أنزل إليهم من ربهم؟ القرآن، أنزل إلينا وإلى كل من في الأرض، كتاب هو رحمة للعالمين.

في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله :

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

إشارة إلى أن في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله:

(مِنْ فَوْقِهِمْ)

أي أحياناً تأتي أمطار غزيرة فننتج من القمح ستة أضعاف ما نحتاج، وأحياناً كالعام الحالي يأتي جفاف استمر ستة أسابيع، قد لا ينتج بلدنا كله نصف حاجتنا:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ)

أي في السماء خيرات لا يعلمها إلا الله، أحياناً يأتي منخفض جوي يسبب ثروة زراعية تزيد عن ألف مليار. مرةً اطلعت على صورة الأقمار الصناعية، فإذا فوق الشرق الأوسط سحابة رمادية، هذه السحابة سببت مئات المليمترات في كل مناطق القطر، وانعكاسها كان ثروة للمواشي تقدر بالمليارات.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ)

لو أنهم آمنوا بصحيح التوراة، ولو أنهم آمنوا بصحيح الإنجيل، لقادهم إيمانهم بالتوراة والإنجيل إلى الإيمان بالقرآن، ثم هذا الإيمان قادهم إلى الاستقامة على أمر الله، عندئذٍ تتوقف المعالجة ويأتيهم الخير:

(مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

الثروات في باطن الأرض لا يعلمها إلا الله :

هناك ثروات في باطن الأرض لا يعلمها إلا الله، أحياناً مناجم ذهب، أحياناً مناجم ألماس، أحياناً بترول، فالبلاد التي فيها بترول تتنعم بغنى يفوق حد الخيال:

(لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

هذه إشارة لطيفة من الله، يقول الله عز وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

[سورة طه: 6]

البترول تحت الثرى، النحاس، الحديد، الفوسفات، القصدير، هذه المعادن الثمينة جداً، الفحم الذي أصبح ماساً، هذا تحت الثرى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

هذه الآية تذكرنا بقوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآية: 16-17]

تقنين الله سبحانه ليس تقنين عجز ولكنه تقنين تأديب :

أخطر حقيقة في هذا الموطن أن التقنين الذي ترونه، الجفاف، التصحر، قلة الأمطار، ضعف الإمكانات، لا يمكن أن يكون تقنين عجز، سبحانه وتعالى، ولكنه تقنين تأديب.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

[سورة الشورى: 27]

كنت مرة في موسم الحج، واطلعت على مقالة عليمة مفادها أنه اكتشف سحابة في الفضاء الخارجي كشفتها الأقمار الصناعية الأوربية، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات العالم، محيطات الأرض، الخمس قارات تساوي خمس الأرض، آسيا، أوربا، أفريقيا، والأمريكيتان، والقطب الجنوبي، ست قارات، أوقيانوسيا، الست قارات تساوي عشرين بالمئة من مساحة الأرض، والثمانين بالمئة من مساحة الأرض بحار، وقد تصل أعماق البحار إلى ما يزيد على اثني عشر ألف متر في خليج مريانا في

المحيط الهادي، هذه السحابة التي اكتشفت في الفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة باليوم الواحد، هل هناك تقنين عجز أم تقنين تأديب؟ تقنين تأديب.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

الله عز وجل يعلمنا الدقة في الأحكام :

قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: 66]

التوراة والإنجيل والقرآن، لكن دقة القرآن الكريم دقة علمية:

(مِنْهُمْ)

من أهل الكتاب أمة مقتصدة، أي استقامت على أمر الله، واستسلمت لمشيئة الله، وأحسنت إلى خلق الله، هؤلاء مستثنون من هذا الوصف العام، الله عز وجل يعلمنا الدقة في الأحكام:

(مِنْهُمْ)

ومن للتبعيض، أمة مقتصدة، وكثير منهم:

(سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

أي كيف يباح للناس الزواج المثلي؟ وقد يكلل هذا الزواج في دور العبادة، هذا في بريطانيا، وفي هولندا، وفي ألمانيا، كيف يمكن لسفير دولة عظمى تدعي أنها راعية الديمقراطية والحرية في العالم، كيف يمكن لسفيرها في بلد أوربي أن يكون مثلياً؟ حينما أقيم له حفل وداع في الخارجية كان الذي معه ليس زوجته، ولكنه شريكه الجنسي.

معنى كلمة (مقتصد) :

قال تعالى:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

إباحية، تبادل زوجات، زنى محارم، أعمال يندى لها الجبين، الإنسان له مئات العشيقات، حدّث ولا حرج، البشرية وصلت من الانحلال، ومن الانحطاط، ومن تفكك الأسرة، ومن العبث بالقيم السماوية ما

لا يوصف:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

مقتصد أي اقتصد، أي أطاع الله عز وجل، لم يكن متفلتاً، الاقتصاد أن تحدد الهدف والإنفاق، هذا الاقتصاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

كلمة مقتصد، الله عز وجل أودع في الإنسان الشهوات؛ حب النساء، حب المال، يمكن أن يأخذ مالاً من أية جهة، وبأية طريقة، لكن المؤمن لن يكسب المال إلا من طريق حلال، هذا مقتصد، يمكن أن تكون العلاقة بالمرأة واسعة المدى، الإنسان يلتقي مع أية امرأة، وقد يمارس اللذة مع أية امرأة، ولكن المؤمن مقتصد، أي حصر هذه الشهوة في زوجته فقط، هذا معنى مقتصد:

(مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)

حينما يبلغ الناس مرتبة من الانحلال وفساد العقيدة لا بدّ من نبي جديد :

أيها الأخوة الآية التي بعدها:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

الحقيقة الدقيقة أن الله سبحانه وتعالى يرسل نبياً أو رسولاً، وهذا النبي والرسول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم منهج الله في الأرض، ثم ينتقل إلى الرفيق الأعلى، أمته من بعده تحافظ على منهجه، لكن مع مضي الزمن يتفلت الناس من المنهج، لكن لا تزال في المجتمع نفوس لوامة، تنصح، وتلوم ذاتها، وتسعى إلى الإصلاح، أما حينما يعم الفساد ولا ترى واحداً يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة]

الآن العمل الصالح يثير التهمة، ما قصده؟ إذا خدمك إنسان لوجه الله تشك به سريعاً، الأصل أن يؤذيك أما إذا خدمك أصبحت حالة مرضية:

((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟))

حينما يعم الفساد في الأرض، حينما ينسى الناس منهج الله عز وجل، حينما ينسون الآخرة كلياً، حينما لا تجد من يقول الله. والله الذي لا إله إلا هو حضرت مؤتمراً للأسرة في بلد إسلامي، والمدعوون جميعاً من بلاد إسلامية، وهم أساتذة الجامعات والله اليوم الأول بكامله كان هناك تقريباً عشر محاضرات، واليوم التالي بأكمله عدا محاضرة واحدة، والله لم تذكر كلمة الله، والموضوع أسرة، والأسرة ألصق شيء بموضوع الدين، حينما لا تجد من يقول الله، التحليلات أرضية، التفسيرات أرضية، الشرك عميم، حينما يبلغ الناس هذه المرتبة من الفساد، والانحلال، وفساد العقيدة، لا بد من نبي جديد، هذا ما يجري في البشرية، النبي الجديد معه منهج، لكن هذا المنهج من شأنه أن يحد حركة الناس، هذا الذي ألفَ أن يأكل الربا، وأن يشرب الخمر، وأن يزني مع أية امرأة، كيف يأتي هذا المنهج ليحدد له مساراً محدوداً، لذلك الرسول يبلغ، والناس ينقمون على الرسول، لأنه بلغهم بلاغاً حد من حركتهم، لذلك يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

هذه التعليمات ليست من عندك ولكن من عند الله.

الله عز وجل نادى كثيراً من أنبيائه بأسمائهم كما ورد في القرآن الكريم :

لكن قبل ذلك:

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

[سورة البقرة: 35]

ناداه باسمه.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم: 13]

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي)

[سورة الأعراف: 144]

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

[سورة المائدة: 116]

يا عيسى، ويا موسى، ويا إبراهيم:

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا)

[سورة الصافات: 105]

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ)

[سورة البقرة: 35]

لم يرد في القرآن الكريم أن الله خاطب محمداً باسمه :

لم يرد في القرآن الكريم أن الله خاطب محمداً باسمه، يا أيها النبي، يا أيها الرسول، هذا يفسر تفسيرين؛ التفسير الأول لعلو مقام هذا النبي الكريم، ولأنه سيد الخلق وحبيب الحق، ولأنه سيد ولد آدم بلا منازع، تكريماً له خاطبه الله بصفته لا باسمه، يا أيها النبي، يا أيها الرسول، ولم يرد في القرآن الكريم أن أحداً أقسم الله بحياته، إلا النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[سورة الحجر: 72]

الملمح الثاني: أن كل خير جاء به نبي سابق ضمن رسالة هذا النبي، وكل خير ورد في رسالة سابقة هي في رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقل: يا محمد، قال: يا أيها النبي، أي أن الأنبياء السابقين فحوى دعوتهم في دعوتك، والرسل السابقون فحوى رسالتهم في رسالتك:

(يا أيها النبي)

(وأيها الرسول)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)

هذا ليس من عندك.

أنت موظف بدائرة، ولك زميل متفوق عليك في القدم، وفي المرتبة، ولهذه المؤسسة مدير عام، فإذا أبلغك هذا الزميل الذي تفوق عليك في القدم، وفي المرتبة، وفي الشهادة، قال لك: المدير العام يأمر أن نبقى بعد الدوام ساعتين، هل تنزعج أنت منه؟ لا، أنا مُبلغ، المدير العام بلغني أن أنقل هذا إليك، أن الدوام يمتد غداً ساعتين بعد النهاية.

ما يأتي به النبي الكريم ليس من عنده :

إذاً الله عز وجل يريد من هذه الآية أن هذا الذي يأتي به النبي عليه الصلاة والسلام ليس من عنده.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

لكن الطرف الآخر يريده عبقرياً لا يريده نبياً، هو نبي، ينبغي أن يطرح على أمم الأرض على أنه نبي لا على أنه مصلح وعبقري:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

هذا الذي تعطيه للناس من أمر ونهي ليس من عندك، ولا من اجتهادك، ولا من تصورك، ولا من بيئتك، ولا من ثقافتك، إنما هو من عند الله عز وجل.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ)

حينما كذب أهل قريش برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، وقالوا: صبأ محمد، وقالوا: هو شاعر، وقالوا: هو مجنون، وقالوا: هو كاهن، ثم أسرى الله به من مكة إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السماوات العلى، حتى بلغ سدرة المنتهى، هل تتصورون أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يتمنى أن يبلغ هذا للناس من دون أن يسرى به من مكة إلى بيت المقدس الناس يكذبونه، ومن دون أن يبلغهم أنه عرج إلى السماوات العلى الناس يكذبونه، والله لو شققت على صدر النبي لا يتمنى أن يقول هذا، لكن الله أمره أن يبلغه:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

وكل إنسان داعية أقامه الله في إلقاء العلم، أحياناً يتمنى ألا يقول الحقيقة، محرجة جداً الحقيقة، لكن الدعاة الصادقين كما قال الله عنهم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة الأحزاب: 39]

يستحيل أن يؤخر النبي البيان عن وقته :

يروى أن الحسن البصري رحمه الله تعالى، كان سيد التابعين، وقد عاش في عصر الحجاج، وقد بلغ رسالة الله في عصره، فغضب الحجاج أشد الغضب، وقال لمن حوله: يا جبناء والله لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، وجيء به ليقتل، دخل الحسن البصري فإذا السياف واقف، والنطع قد مد على الأرض، وينتظر إشارة البدء من الأمير ليقطع رأسه، حرك الحسن البصري شفتيه، ولم يسمع أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج يقف له، ويستقبله، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال يدنيه من مجلسه حتى أجلسه على سريره واستفتاه في موضوع، وضيفه، وشيعه إلى باب القصر، السياف صعق، لأنه أوتي به ليقطع رأسه، والخادم صعق، تبعه الخادم، قال: يا إمام لقد جيء بك لغير ما فُعل بك، فماذا قلت لله عز وجل وأنت داخل؟ فقال الإمام قلت له: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم. إذاً:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

وقال العلماء: يستحيل أن يؤخر النبي البيان عن وقته، أبداً.

كان مرةً عند أصحابه وقد توفاه الله عز وجل، فسمع امرأة من وراء الستار تقول: هنيئاً لك أبا السائد لقد أكرمك الله، لو أن النبي بقي ساكتاً لكان كلامها صحيحاً، فقال عليه الصلاة والسلام: ومن أدراكِ أن الله أكرمه، قولي: أرجو الله أن يكرمه، هذا سماه العلماء تألي على الله، قال لها: وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم.

لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

يجب أن تؤدي الرسالة، وأنت حينما تقف أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام تقول: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، لقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

أي لا تعتبوا عليه إذا قال لكم: هذا حرام، هذا حلال، هذا مكروه، لا تعتبوا عليه، ليس من عنده شيء:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

أخواننا الكرام: في القرآن قل لهم:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأنعام: 50]

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)

[سورة الأعراف: 188]

هو لا يعلم الغيب، قل لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، أبلغ من ذلك:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

[سورة الأعراف: 188]

إذا كان عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فمن باب أولى ألا يملك لأصحابه نفعاً.

مقام النبي هو مقام العبودية لله عز وجل :

قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام: 15]

هذا مقام النبي، مقام العبودية لله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

أي لا يستطيع إنسان كائن من كان، ولا يستطيع البشر مجتمعين أن ينهوا حياتك، إنك رسول الله. تروي بعض الأحاديث أنه من أشد الأيام على رسول الله، وكان متعباً حتى الإعياء، فقال يا عائشة: لو أن بعض أصحابي يحرسني حتى أنام قليلاً، فإذا بحذيفة بن اليمان، وصاحب آخر أتيا طواعية ليحرسا النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

فأطل من خيمته وصرف حراسه.

باحثة بلجيكية قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت هذه الآية سبب إسلامها، قالت: لو أن النبي يخدع الناس ما خدع نفسه، فإذا أخبره الله عن طريق جبريل أنه يعصمه من الناس، لو لم يكن واثقاً من وعد الله عز وجل، ومن حفظه، لما صرف حراسه.

الإنسان أحياناً يخدع الناس لكنه لا يخدع نفسه، قد يقول: فلان مشى على وجه الماء، هذا كذب بالطبع، تفضل وامش أنت؟ يعلم أنه إذا مشى يغرق، فقد تروي آلاف الكرامات، وأنت تدَّعي أنك ولي لله عز وجل، لمَ لا تفعل أحدها؟ إنك تخدع الناس ولكنك لا تخدع نفسك، أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه الوحي فقال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

أطل من خيمته، وقال لحارسيه: انصرفا، فقد عصمني الله.

لا يستطيع إنسان أن ينهي حياة النبي لأنه بهذا يتحدى خالق الأرض والسماوات :

قد يقول أحدكم: كيف نفرق بين هذه الآية:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

وبين قوله تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)

[سورة آل عمران: 144]

أي ما دام النبي عليه الصلاة والسلام يؤدي رسالة ربه فلا يمكن لإنسان كائن من كان أن ينهي حياته، أما إذا أدى الرسالة فقد يموت موتاً طبيعياً، وقد يقتل، أما وهو يؤدي الرسالة، أو لما يؤدي الرسالة بعد، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يستطيع إنسان في الأرض أن ينهي حياته، لأنه بهذا القتل يتحدى خالق الأرض والسماوات.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

الدنيا لها أسباب قد تملكها بأسباب من عند الله وقد تملكها بأسباب من صنعك :

أيها الأخوة الكرام، بقي ملمح في الآيات مجتمعة أن هؤلاء أهل الكتاب:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ*وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

أي أنتم حينما تؤمنون يعطيكم الله أسباب الدنيا، الدنيا لها أسباب، قد تملكها بأسباب من عند الله، وقد تملكها بأسباب من صنعك، إذا إنسان كافر، ملحد، أتقن عمله تماماً، وكشف قوانين الأرض، واستخرج الثروات، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هذا إنسان بسعيه ملك أسباب الحياة الدنيا، وذاك المؤمن بتوفيق الله عز وجل ملك أسباب الحياة الدنيا، ما الفرق بينهما؟ المؤمن بعد أن آمن واستقام على أمر الله، وأحسن إلى خلق الله، كافأه الله في الدنيا بأنه أعطاه أسباب الدنيا، لذلك المسلمون حينما عرفوا ربهم، واستقاموا على أمره، فتحت لهم الدنيا من كل أبوابها، هذا الفتح هدية من الله عز وجل، والطرف الآخر حينما أتقنوا أعمالهم، وتعمقوا في بحوثهم، وكشفوا قوانين الأرض ملكوا أسباب الدنيا، لكن الطرف الآخر مقهور، قد تملك أسباب الدنيا ثم يأتي زلزال فيقضي على كل شيء، ثم يأتي إعصار فيهلك كل شيء، قد تملك أسباب الدنيا بقوانين الدنيا، ولكن لا تملك النتائج، أما المؤمن فكما قال الله عز وجل:

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

[سورة التوبة: 51]

الفرق بين أن تملك أسباب الدنيا في ظل الإيمان وبين أن تملكها في ظل الشرك والكفران:

قد يملك المؤمن أسباب الدنيا، وقد يملكها الكافر بصدقه، وسعيه، وإتقان عمله، وبحثه، ودرسه، وسهره، ولكنه يملك أسباب الدنيا، ثم في ثوانٍ معدودة يقهره الله عز وجل:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾

[سورة الأنعام: 44]

فشتان بين من يؤمن، ويستقيم، ويتقي الله، ويحسن إلى خلقه، ثم يؤتيه الله أسباب الحياة الدنيا، فيرتقي عند الله، هذه الأسباب جاءت مكافأة له، يصونها الله له من كل عبث، ويطمئنه على مستقبله.

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

أما من نال أسباب الدنيا بجهده وشركه واعتداده بنفسه فهو كقارون قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص: 78]

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص: 81]

هذا الفرق بين أن تملك أسباب الدنيا في ظل الإيمان، وبين أن تملكها في ظل الشرك والكفران.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (33 - 49) : تفسير الآية 68 ، حقيقة الدين.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-06-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

البطولة أن تعرف الحقيقة المُرّة وأنت حيّ قبل أن يفوت الأوان :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة والستين، وهي قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

أيها الأخوة الكرام، أقول وأكرر: الحقيقة المُرّة أفضل ألف مَرَة من الوهم المريح، الإنسان قد يتوهم أنه على شيء وهو ليس على شيء، قد يتوهم أنه مؤمن وهو في الحقيقة ليس بمؤمن، قد يتوهم أن مصيره إلى الجنة، والحقيقة قد تكون خلاف ذلك، فالبطولة أن تعرف الحقيقة المُرّة وأنت حي قبل أن يفوت الأوان، لأنه أكفر كفار الأرض حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

فقال الله له:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة يونس: 91]

ينبغي أن تعرف الحقيقة وأنت حي، ينبغي أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان.

مع الإيمان لك خيار وقت لا خيار قبول أو رفض :

كنت أقول أيها الأخوة: إن خيار الإنسان مع آلاف الموضوعات خيار قبول أو رفض، قد ترفض حرفة دخلها قليل، وقد ترفض سفرةً نتائجها هزيلة، وقد ترفض فتاةً لا يعجبك مظهرها، إلا أنك مع الإيمان لك خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، فإما أن تؤمن في الوقت المناسب، أو أن إيمانك بعد فوات الأوان حيث لا قيمة له، لأن الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

ولأن الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

لذلك تنطلق هذه الآيات، وقد تبدو صعبة، تنطلق هذه الآيات من أن الحقيقة المُرّة أفضل ألف مَرَة من الوهم المريح.

العبرة أنالإنسان قد يتوهم أنه على شيء وهو عند الله ليس على شيء :

أنا أخاطب المسلمين، قد يتوهم المسلمون أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء، قد يتوهم المسلمون أنهم أمة النبي عليه الصلاة والسلام والنبي يوم القيامة سيتبرأ منهم، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النبي عليه الصلاة والسلام يَقُولُ:

((أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَداً، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، قَالَ: إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقاً، سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[متفق عليه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

كلمة شيء في اللغة لا أدري ماذا أقول، لو وجدت في المسجد قشة طولها نصف ميل، وقطرها عشر الميل، هذه شيء، أي أحقر شيء تتصوره هو الشيء، أقل شيء تفكر فيه هو الشيء، ليس من كلمة في اللغة العربية مدلولها أقل من الشيء، شيء:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

أي يا محمد قل لهم:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى)

وأيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

العبرة نحن البشر، العبرة هذا الإنسان الذي خلقه الله عز وجل لجنة عرضها السماوات والأرض، فإذا توهم أنه على شيء قد يكون عند الله ليس على شيء:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى)

معية الله لها ثمن والآخرة لها ثمن :

قبل أن أتابع ما بعد حتى، قال الله:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

[سورة المائدة: 12]

وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة المائدة: 12]

إذاً معية الله لها ثمن.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

[سورة الإسراء: 19]

الآخرة لها ثمن.

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف: 110]

النسبية مقبولة في كل شيء إلا في الدين :

لقاء الله له ثمن، لكن أيها الأخوة هناك حقيقة دقيقة، النسبية مقبولة في كل شيء إلا في الدين، إذا عملت بالتجارة، وبذلت جهداً بسيطاً تأخذ ربحاً قليلاً، إذا درست، ونلت ابتدائية فأنت بعيد عن الأمية، الشهادة الإعدادية أعلى، الثانوية أعلى، الليسانس أعلى، الماجستير أعلى، الدكتوراه أعلى، ففي العلم نسبي، فلان ثقافته وسط، معلوماته محدودة، فلان حجمه المالي قليل، يوجد أشياء كثيرة نسبية، إلا في الدين:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أنزلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

القرآن، أي أن تأخذ بعض الدين، وأن تعتمر، وأنت في بيتك تعيش كما تريد، وأنت في تجارتك تفعل ما تشاء، وأنت في علاقاتك تقيمها على مزاجك، وأنت في أخذك وعطائك لا تعبأ بمنهج الله، ولكنك اعتمرت، ولكنك في رمضان صمت، ولكنك حججت بيت الله الحرام، ولكنك لبست ثياب المسلمين، وتعطرت بعطرٍ زيتي لا كحولي، وحملت مسبحة، ووضعت في بيتك:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

ووضعت مصحفاً في مركبتك، هذا ليس هو الدين، هناك من يتوهم أنك إذا أخذت ببعض ما في الدين تنتقي ما يعجبك، وتدع ما لا يعجبك، تنتقي ما لا يكلفك شيئاً، وتدع ما هو يضعك أمام مسؤوليتك، لذلك هذا الكلام يوجه لأهل الكتاب، ويوجه أيضاً للمسلمين، لأن الأمراض التي وقع بها أهل الكتاب المسلمون مهيئون أن يقعوا فيها نفسها، أو قد وقعوا فيها، الدليل: الله عز وجل أهلك بني إسرائيل لأنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم بكل تفاصيله :

الآن في الأوساط الإسلامية قد تأتي ابنة أخيك، وترتدي ثياباً فاضحة، ثياباً تصف معالم جسمها بدقة بالغة، ترحب بها، وتثني على هيأتها، وتسألها: كيف حالها، ولا تفكر أبداً أن توجهها إلى الثياب التي ينبغي أن ترتديها فتاة مسلمة، أليس كذلك؟

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة: 79]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة، فإذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدنا خيريتنا، وفقدنا كل الميزات، هذا الدين له خصيصة، إما أن تأخذه كله فتقطف ثماره، وإما ألا تأخذ من ثماره شيئاً، قال الإمام الغزالي: " العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطيك شيئاً ".

كذلك الدين، إما أن تأخذ بهذا المنهج بكل تفاصيله، وأنا لا أشدد عليكم، لكنها الحقيقة، والدليل هذا الذي نجده في العالم الإسلامي من قهر، وظلمٍ، وضياعٍ، وتشتتٍ، وتفلتٍ، وتشرذمٍ، وتجزئةٍ، وقهرٍ، لماذا حصل ما حصل؟ لأننا لسنا على شيء، ولو كنا على شيء لعوملنا غير هذه المعاملة من قبل الله عز وجل، لأن الأمر بيد الله، وطنوا أنفسكم على أن تقبلوا الحقيقة المرة، لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم بكل تفاصيله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما إذا استمسكتم بهما: كتاب اللّه القرآن وسنتي))

[الدار قطني عن أبي هريرة]

أيها الأخوة الكرام، وطنوا أنفسكم على أن تقبلوا الحقيقة المرة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ)

التي أنزلت:

(وَالْإِنجِيلَ)

الذي نزل، وأن تؤمنوا بالقرآن الكريم:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

المؤمن يحاسب نفسه حساباً عسيراً في الدنيا حتى يكون حسابه يسيراً يوم القيامة :

المؤمن يحاسب نفسه حساباً عسيراً في الدنيا حتى يكون حسابه يسيراً يوم القيامة، وغير المؤمن يحاسب نفسه حساباً يسيراً في الدنيا، فإذا هو يحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، اسأل نفسك كل يوم: هل بيتي إسلامي؟ هل تجارتي إسلامية؟ هل علاقاتي الاجتماعية وفق منهج الله؟ هل تغضب لله؟ هل ترضى لله؟ هل تعطي لله؟ هل تمنع لله؟ هل تتصور أن الله سيحاسبك عن كل حركة وسكنة وكلمة ولفتة وابتسامة وعبوس، أم أن الأمور هكذا كما تتوهم؟

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

عود نفسك أن تواجه الحقيقة الصعبة، عود نفسك أن تواجه الحقيقة المرة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

ويقاس عليها: قل يا أيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا)

القرآن الكريم، حتى تقيموا هذا المنهج.

ما دامت سنة النبي مطبقة في علاقاتنا الداخلية والخارجية فنحن في مأمن من عذاب الله:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

كأننا في مأمن أن نعذب، والنبي عليه الصلاة والسلام فينا، كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام فينا؟ طبعاً حينما كان حياً الآية واضحة، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانينا فلن نعذب، ضمن الامتحان، لكن بعد أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ما معنى الآية؟ أي ما دامت سنته مطبقة في بيوتنا، وفي أفراحنا، وفي أحزاننا، وفي كسب أموالنا وفي إنفاق أموالنا، ما دامت سنته مطبقة في علاقاتنا الداخلية والخارجية، فنحن في مأمن من عذاب الله، وهناك مأمن آخر:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

لو أن الإنسان طبق منهج الله لا يعذب، ولو أنه أخطأ فاستغفر لا يعذب، عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((كُنْتُ رِدْفَ النبي عليه الصلاة والسلام عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ـ دققوا في هذه الإجابة ـ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنشأ الله لك حقاً عليه، أنك إذا أطعته لن يعذبك، فإذا كان المسلمون يعذبون ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً، وفي كل أقطارهم، معنى ذلك أن هذه رسالة من الله أن يا أيها المؤمنون غيّروا ما بكم، غيروا ما بأنفسكم حتى أغيّر ما بكم.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

حفظ كتاب الله من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام :

هذه الشدة التي يتحملها المسلمون في شتى أقطارهم إنما هي رسالة من الله:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)

لذلك هذا القرآن الكريم منهج الله، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا منهج السماء، هذا وحي السماء، هذا القانون الذي لا يعدل، ولا يطور، ولا يبدل، ولا يغيّر، ولا يستدرك عليه، ولا يضاف عليه، ولا يحذف منه.

أيها الأخوة، مصيبة المسلمين الكبرى أنهم حينما أضافوا إلى دينهم ما ليس منه تفرقوا، واقتتلوا، وكان بأسهم بينهم، وحينما حذفوا من الدين ما هو منه ضعفوا، وأصبحوا في مؤخرة الأمم، هذا الدين توقيفي، لا يضاف عليه، ولا يحذف منه، لأن الإضافة عليه اتهام له بالنقص، ولأن الحذف منه اتهام له بالزيادة.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة: 3]

لذلك إذا قلنا كلمة تجديد في الدين لا تعني إلا شيئاً واحداً، أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه، هذا هو التجديد، التجديد في الدين أن تعود إلى ينابيعه الأصيلة، أرأيت إلى نهر بردى، مياه عذبة صافية رقراقة رائعة، يمشي في طريقه إلى دمشق، تأتيه الروافد يمنة ويسرة، في مصبه ماء أسود، أليس كذلك؟ فإذا أردت أن تجدد في هذا الدين فارجع إلى ينابيعه الأصيلة، ارجع إلى الكتاب والسنة، لأن الله جل في علاه تولى حفظهما، وحفظ كتاب الله من لوازمه حفظ سنة النبي عليه الصلاة والسلام،

فهذا الذي تجده في العالم الإسلامي من عناية بنص القرآن تفوق حد الخيال، لأن الله تولى حفظ هذا القرآن بأمر تكويني، بينما كلف الأنبياء السابقين أي يحفظوا كتبهم السماوية بأمر تكليفي، والأمر التكليفي يعصى، بينما الأمر التكويني لا يتبدل، لأنه فعل الله عز وجل.

الدين أن يجدك الله عند الحلال والحرام :

إذاً الحقيقة الأولى في هذا الدرس: يجب أن نخاطب أنفسنا ونحن المعنيون، والقرآن الكريم الذي تحدث عن أهل الكتاب فبأسلوب: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، نحن المعنيون بهذه الآية: يا أيها المسلمون:

(لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

حتى تقيموا القرآن، أما الدين فله مظاهر، قد ترتدي ثوباً أبيض يوم الجمعة، وتتعطر بمسك وعطر زيتي، وتحمل سبحة، وتضع المصحف في مركبتك، والآيات الكريمة في بيتك، وقد تقيم احتفالاً بعيد المولد، وقد تدعو كبار العلماء إلى عقد قران ابنك، ليس هذا هو الدين، الدين أن يجدك الله عند الحلال والحرام.

ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، أن يراك الله في طاعته، وأن يفتقدك في معصيته، هذه الولاية، والولاية في المفهوم القرآني بسيطة جداً:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس: 62-63]

هذه الوَلاية كلها، ولولا أن الولاية في متناول كل إنسان لما كان الحساب عسيراً.

هذا الدين أيها الأخوة مثله مثل الهواء، ينبغي أن يستنشقه كل إنسان، وهناك قاعدة في هذا الدين رائعة: الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، لمجرد أن تطبق هذا الدين تقطف كل ثماره، إن طبقته عن علم أو عن غير علم، بعمق فلسفي أو بغير عمق، لأن هذا الدين منهج موضوعي، يعطي ثماره لكل من طبقه.

الأدق من ذلك لو جاء كافر، لو جاء ملحد، وطبق المنهج الإلهي في بلده لقطف ثماره، لذلك تعجب أن هذه الدول القوية كل إيجابياتها إسلامية، دون أن يؤمنوا بالله، هم آمنوا بالمال، هم عبدوا المال من دون الله، فطبقوا المنهج الإلهي عن ذكاء لا عن تعبد ، فقطفوا ثماره كلها.

كلما جاءت الآيات الباهرات تؤيد هذا الدين العظيم ازداد الكفار بغضاً وكفراً :

أيها الأخوة، هذه الحقيقة الأولى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)

على أدنى شيء، ولا على قشة:

(حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ)

التي أنزلت:

(وَالْإِنجِيلَ)

الذي أنزل، إن طبقتم التوراة التي أنزل، والإنجيل الذي أنزل قادكم هذان الكتابان إلى الإيمان بالقرآن الكريم، لأن في الإنجيل بشارة إلى سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام.

الآن القسم الآخر في الآية:

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

الشيء المنطقي أنه كلما نزلت آية خففت تشددهم وتعنتهم، وكلما جاءت الأحداث موافقة لوعد الله ووعيده ينبغي أن تخف حدة بغضهم وعداءهم، لكن الذي حصل هو عكس ذلك، كلما جاءت الآيات الباهرات تؤيد هذا الدين العظيم ازدادوا بغضاً، وازدادوا كفراً، وازدادوا عداءً، وازدادوا بعداً.

علاقة الإنسان بالقرآن :

هذه الحقيقة لها ما يقابلها في عالَم الفيزياء مبدأ العطالة، الجسم المتحرك يرفض السكون، والجسم الساكن يرفض الحركة، أي أنت حينما تركب مركبة، ويوقف السائق المركبة فجأةً، الركاب متحركون مع المركبة، يرفضون أن يقفوا، فتكون الحوادث المؤلمة، لذلك صنعوا الحزام، حزام الأمان كي تبقى مرتبطاً بالمركبة إذا وقفت، فالذي يركب مركبة، وتقف فجأة يندفع نحو الأمام، فقد يموت بفعل الصدمة، فالأجسام المتحركة ترفض السكون، والأجسام الساكنة ترفض الحركة.

فإذا مشى الإنسان في طريق الكفر لا تزيده الأيام إلا كفراً، والذي مشى في طريق الإيمان لا تزيده الأيام إلا إيماناً، فاحرص على أن تكون بين المؤمنين، الإنسان أحياناً يبالغ في العداوة والبغضاء، كلما جاءت آية باهرة ازداد كفراً، وكلما جاء تأييد سماوي ازداد تعنتاً، هكذا قال الله عز وجل، لذلك يقول الله عز وجل عن القرآن:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)

[سورة الإسراء: 82]

ويقول الله عنه:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

[سورة فصلت: 44]

يقول الله عز وجل موضحاً علاقة الإنسان بالقرآن:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ* كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[سورة الشعراء: 198-200]

القرآن بإعجازه وكماله ووضوحه يزيد الكافر طغياناً وكفراً :

إذا كان الإنسان بعيداً عن الله، غارقاً في الشهوات، منحرفاً، لو قرأ القرآن يزداد بالقرآن بعداً عن الله عز وجل.

(الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة: 1-3]

(وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً)

الطغيان مجاوزة الحد.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى*أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

فهذا القرآن بإعجازه، بكماله، بوضوحه، يزيد الكافر طغياناً وكفراً:

(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

هم اختاروا هذا الطريق، والإنسان مصيره باختياره، فالمؤمن اختار طاعة الله عز وجل، وغير المؤمن اختار معصيته، المؤمن اختار الدار الآخرة، وغير المؤمن اختار الدنيا، والدنيا تغر، وتضر، وتمر، طالب العلم يؤثر الآخرة على الدنيا فيربحهما معاً، والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة فيخسرهما معاً، وهؤلاء الذين آمنوا برسول الله أين هم الآن؟ في أعلى عليين، إنك إن ذهبت إلى العمرة تقف أمام قبر الصديق، وتسلم عليه، تقف أمام قبر عمر، أما هؤلاء الذين حاربوا النبي عليه الصلاة والسلام أين هم الآن؟ في مزبلة التاريخ.

هل اعتمر أحدهم، ووقف أمام قبر أبي جهل؟ مستحيل، إياك أن تقف في خندق معارض للحق، لأن المصير في مزبلة التاريخ، أما هؤلاء الذين نصروه في الدنيا كانوا أعلاماً يوم القيامة.

الآية التاليةأصل في حقيقة التدين :

لذلك أنا أقول لكم أيها الأخوة: لا تقلق على هذا الدين، إنه دين الله مهما تآمر المتآمرون عليه، مهما ائتمرت قوى البغي على هذا الدين، إنه دين الله، لكن يسمح لهم إلى حين كي يعربوا عن عداوتهم له، سوف يألفون لنا فرقاناً، من آيات هذا الفرقان: يا محمد أأنت أضللت عبادي؟ يقول يا ربي أنا ضللت فأضللتهم، هذا يعد لنا ليكون كتابنا المقدس بعد حين، لكن خاب ظنهم، والله طفل من أطفال العالم الإسلامي إذا سمع فقرات من هذا الفرقان الحق لا تستأهل آية منه إلا سخريته فقط.

أيها الأخوة: هذا كلام الله، وزوال الكون أهون على الله من أن يبدل أو يغير، ولكن نية الكافر شر من عمله، مهما فعل فهو ينوي أشد مما فعل. يقول الله عز وجل:

(فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

الآية الثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذه الآية أصل في حقيقة التدين.

إذا تخلى الله عنا لأسباب وجيهة فقد هان أمر الله علينا فهنّا على الله :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أي الذين ينتمون إلى هذا الدين انتماءً تاريخياً أو شكلياً:

(وَالَّذِينَ هَادُوا)

أتباع سيدنا موسى:

(وَالصَّابِئُونَ)

من لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

أتباع سيدنا عيسى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع سيدنا محمد ممن كان له انتماء شكلي صوري تاريخي، مليار وثلاثمئة مليون، ولا وزن لهم عند الله إطلاقاً، ذكرت اليوم في الخطبة بلداً إسلاميّاً خلال عشرين يوماً صدر منه خمسة وسبعون مليون

اتصال لبرنامج ستار أكاديمي، لهذا البرنامج الساقط، الذي يثير غرائز الإنسان، ويجعله كالثور، هؤلاء مسلمون؟ وكل دقيقة بعملات البلد التي صدرت منه هذه المكالمات تساوي مئة ليرة، كل دقيقة، والاتصال يجب الانتظار ساعة أو نصف ساعة، ألوف المليارات تجبى بهذه الطريقة، والناس يموتون من الجوع في جنوب السودان، يموتون من الجوع في بقاع متعددة من المسلمين، وألوف المليارات من أجل اتصال بلد إسلامي خلال عشرين يوماً، خمسة وسبعون مليون اتصال، وقبل ذلك كان ستة وثمانون مليون اتصال، لسوبر ستار، أيضاً مليارات وراء المليارات تدفع، والناس يموتون من الجوع أهؤلاء مسلمون؟ إذا تخلى الله عنا لأسباب وجيهة، هان أمر الله علينا فهنا على الله.

الانتماء الشكلي للأديان والتعصب لها يسبب الحروب الطائفية في العالم :

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع النبي عليه الصلاة والسلام اتباعاً تاريخياً شكلياً أجوف، لم يبقَ من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ)

طبعاً ينبغي أن تكون والصابئين، هذا اسمه كسر الإعراب، لفتاً للنظر، حتى الذين لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

يوجد معنى ضمنياً، سواء عند الله، وانتماء شكلياً، لا يقدم ولا يؤخر، أربعة محلات تجارية، مكتوب على الأول حرير، والثاني أجواخ، والثالث قرطاسية، لكن ليس فيها بضائع إطلاقاً، فقط اختلاف لافتات، المحلات الثلاث ليس فيها بضائع إطلاقاً، إذاً الاختلاف شكلي، هذا الانتماء الشكلي لهذه الأديان، والتعصب لها يسبب هذه الحروب الطائفية في العالم، الانتماء الشكلي دون التطبيق يسبب هذا الذي يجري في العالم اليوم، أحقاد تفوق حدّ الخيال، حروب، قسوة، إبادة، قتل، تمثيل، يقول عليه الصلاة والسلام من علامات آخر الزمان:

((... وموت كعقاص الغنم ـ وباء يصيب الغنم))

[الحاكم عن أبي عوف الأشجعي]

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

في تاريخ البشرية القاتل يقتل، أما الآن الحروب الأهلية، خمسمئة ألف إنسان ذبحوا في أيام في رواندا بجنوب إفريقيا، الآن أقل خبر يقول لك: مئتا قتيل ومئة جريح، في جنوب السودان ثلاثمئة ألف شخص على وشك الموت الآن جوعاً وتشرداً.

وصف دقيق لآخر الزمان :

أيها الأخوة:

((... وموت كعقاص الغنم ـ وباء يصيب الغنم))

[الحاكم عن أبي عوف الأشجعي]

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ؟ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ؟))

[مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

((يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى، ولا يستطيع أن يغير، إن تكلم قتلوه، وإن سكت استباحوه))

[ورد في الأثر]

نحن في آخر الزمان:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا)

أتباع رسول الله الذين اتبعوه اتباعاً شكلياً صورياً تاريخياً، حياتهم، معاشهم، تجارتهم، علاقاتهم ليست إسلامية:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا)

أتباع سيدنا موسى:

(وَالصَّابِئُونَ)

من لا دين لهم:

(وَالنَّصَارَى)

الدين أداة وحدة لا أداة تفرق :

دققوا: سواء عند الله، انتماء شكلي، انتماء تاريخي، هذا الانتماء الشكلي معه تعصب، والعلاقات مصالح، والمصالح متناقضة، إذاً هناك حروب، تجد أحقاداً بين المسلمين، بينما في غير المسلمين لا يعلمها إلا الله لأن الانتماء شكلي، الدليل:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 13]

الأسير عند المسلمين كان يطعم أطيب الطعام، ويأكل الذي أسره أردأ الطعام، النبي عليه الصلاة والسلام خلع رداءه، وألبسه لأسير، أما في بغداد فيعرى الأسير، ويذل، وتنتهك حرماته، هكذا، فلذلك:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة: 13]

هذه العداوة والبغضاء بين أتباع الأديان سببها أن أتباع الأديان جميعهم نسوا ما ذكروا به، لم يطبقوا مناهجهم، ولو بقوا لاجتمعوا، ولتحابوا، الدين أداة وحدة لا أداة تفرق:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى)

إن المعنى الضمني والحتمي: كلهم سواء عند الله، انتماء شكلي لا قيمة له.

كل يدعي وصل بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

* * *

كل فئة وكل أتباع دين يتوهمون أن الله لهم وأن الجنة لهم والله بريء منهم جميعاً :

الآن كل إنسان، وكل فئة، وكل طائفة، وكل جماعة، وكل دين، الله لهم والجنة لهم، والله سبحانه وتعالى لا يقرهم على ذلك أبداً.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة: 80]

كل يدعي وصل بليلى، كل فئة، وكل طائفة، وكل أتباع دين يتوهمون أن الله لهم، وأن الجنة لهم، والله بريء منهم جميعاً:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[سورة البقرة: 111]

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

واقع المسلمين اليوم :

هذه الآية تنطبق أشد الانطباق على المسلمين المعاصرين، وقال المسلمون: نحن أتباع أمة محمد، نحن أتباع سيد الخلق وحبيب الحق، نحن أتباع وحي السماء، يردّ الله علينا: فلمَ أعذبكم بذنوبكم، هل هناك خبر واحد سار من خمسين سنة إلى الآن؟ أبداً، كأن الله تخلى عنا، لكنه وعدنا، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم: 59]

وقد لقينا ذلك الغي، الآن المسلم أو المسلمون فيه تجسيد وصفي، إنسان يضرب ضرباً حتى تكسر كل عظامه، ما اكتفينا، هذا الذي ضربه وقته ثمين، ومصروفه كبير، يحتاج إلى أجرة، لأنه ضربك، يريد أجرة، سيأخذ كل ما تملك أجرة له، لا يكفي، وتريد مدحه أيضاً، تريد أن تُضرَب، وتدفع أجرة، وتمدح، هذا واقع المسلمين اليوم أليس كذلك؟

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

مقياس الإيمان أن يحملك على طاعة الله :

أنت حينما تؤمن الإيمان الحقيقي الذي يحملك على طاعة الله، مقياس الإيمان أن يحملك على طاعة الله:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

((من قال : لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل : وما حقها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال كبير]

لذلك:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

الإيمان الحق:

(وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أيقن أن الله معه، ويعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، وما من ركنين من أركان الإيمان اقترنا أشد من الإيمان بالله واليوم الآخر، أنت حينما تعلم أن علم الله يطولك، وأن قدرته تطولك فلن تعصيه، لذلك لا يكفي أن تؤمن بالله، لا بد من أن تضيف إلى إيمانك بالله أنه سيحاسبك وسيعاقبك:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

بربكم إنسان قوي إذا قال فعل، هل يعصيه أحد؟ أبداً، إنسان من جنسك، من جلدتك، من بني قومك، ما دام قوياً، وعلمه يطولك، وقدرته تطولك، أبسط مثل؛ الإشارة حمراء، والشرطي واقف، وشرطي على دراجة، وسيارة فيها ضابط مرور، وأنت مواطن عادي تمشي على الأحمر؟ هل هناك أبسط من هذا المثال؟ إذا أيقنت أن علم واضع قانون السير يطولك من خلال هذا الشرطي، وأن قدرته تطولك من خلال سحب الإجازة، ومصادرة السيارة لا تعصيه، هذا القانون أبديّ.

حقيقة الدين وفحواه :

لذلك أيها الأخوة:

((كفى بالمرء علماً أن يطيع الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه))

[ورد في الأثر]

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

بنى حياته على العطاء، يعطي من ماله، من وقته، من صحته، من خبرته، من كل شيء رزقه الله إياه، من هؤلاء:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

هؤلاء المتدينون حقيقة، هذه هي حقيقة الدين، هذا فحوى الدين:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيأتي:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما مضى، هذا ملخص الملخص، هذه حقيقة الدين، أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً.

آيات قرآنية تبين أن حقيقة الدين أن تؤمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً :

قال تعالى:

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف: 84]

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

[سورة هود: 123]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً)

[سورة الكهف: 26]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ)

[سورة الأعراف: 54]

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر: 62]

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج: 11]

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة: 175]

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً*يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)

[سورة الفرقان: 27-28]

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية: 25-26]

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)

[سورة الفجر: 27-28]

الآيات التي قرأناها موجهة إلينا نحن المسلمين :

قال تعالى:

(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

مما سيكون:

(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

على ما مضى.

أيها الأخوة الكرام، الآيات التي قرأناها موجهة إلينا نحن المسلمين، لا تخاطب بها غير المسلمين، هي موجهة إلينا، ولكن من باب إياكِ أعني، واسمعي يا جارة، فنحن كوننا مسلمين، والله لا أبالغ، لسنا على شيء حتى نقيم القرآن الكريم في بيوتنا، وفي أعمالنا، وفي تجارتنا، وفي كسب أموالنا، وفي إنفاق أموالنا، وفي لهونا، وفي أفراحنا، وفي أتراحنا، وفي إقامتنا، وفي سفرنا، فإن لم نفعل فلسنا على شيء، وليس لنا عند الله ولا ميزة، هذه الحقيقة المرة التي أعتقد أنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (34 - 49) : تفسير الآيات 70 - 71 ، المواثيق.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-06-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة (ميثاق) لها معانٍ كثيرة في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السبعين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

ما هو الميثاق؟ الحقيقة أن هذه الكلمة لها معانٍ كثيرة في القرآن الكريم، أحد المواثيق أن الله سبحانه وتعالى منحك عقلاً تتعرف به إلى الله، أحد المواثيق أنه منحك فطرة متوافقة مع منهج الله، فلو خرجت عن منهج الله عذبتك نفسك، هذه الفطرة، أحد هذه المواثيق يوم كنا في عالم الأزل في ظهر أبينا آدم أخذ منا الميثاق، قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)

[سورة الأعراف: 172]

أحد هذه المواثيق أن الله سبحانه وتعالى أخذ من الأنبياء ميثاقاً غليظاً أن يتبعوا النبي عليه الصلاة والسلام.

تعريف الميثاق :

الميثاق أيها الأخوة، هو العهد المؤكد الموثق الذي يقتضي الوفاء الشديد، فميثاق الأزل:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

لذلك الله عز وجل جعل أول آية في القرآن الكريم:

(اقْرَأْ)

[سورة العلق: 1]

أي تعلم.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

[سورة العلق: 1]

القراءة من أجل أن تؤمن بالله.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

[سورة العلق: 1-3]

ينبغي أن تقرأ قراءة إيمان، وينبغي أن تقرأ قراءة شكر وعرفان.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

[سورة العلق: 1-5]

هناك مواثيق لا تعد ولا تحصى لكن يقع في مقدمتها ميثاق عالم الأزل :

هذه قراءة الوحي،

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

الوحي أخبرنا أن الله خلق السماوات والأرض، وأن الإنسان خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، وأن الإنسان في الدنيا مخير وأن كل شيء بقضاء من الله وقدر، هذا كله أخبرنا به الوحي، فصار هناك قراءة إيمان، وقراءة شكر وعرفان، وقراءة وحي وإذعان، لكنك إذا طلبت العلم من أجل العدوان والطغيان هذا شيء آخر.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق: 6-7]

حينما يقوى الإنسان يتعلم ليحكم سيطرته على العالم، يتعلم لينهب ثروات العالم، يتعلم ليبني مجده على أنقاض شعوب الأرض، فصار عندنا علم إيمان، وعلم شكر وعرفان، وعلم وحي وإذعان، وعلم عدوان وطغيان، فالله عز وجل أخذ منا ميثاقاً غليظاً في عالم الأزل أننا إذا جئنا إلى الدنيا ينبغي أن نؤمن بربنا،

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

هناك من وفى بهذا الميثاق هم الأنبياء، هناك من وفى وقصر هم المؤمنون، هناك من خان وغدر هم الكفار والمشركون، هذا ميثاق عالم الأزل، ميثاق العقل، العقل ميثاق، أعطاك جهازاً كافيّاً كي تعرف الله، ميثاق الفطرة، جبلك على فطرة تكشف الخطأ وحدك، ينبغي أن توفي حق العقل وتؤمن، وينبغي أن توفي حق الفطرة وتستقيم، وينبغي أن توفي حق الأزل فتعترف بالله رباً وخالقاً ومسيراً، وهناك مواثيق كثيرة جداً.

القرآن ميثاق، أركان الإيمان مواثيق؛ ينبغي أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين.

أي أمر في القرآن الكريم هو ميثاق بينك وبين الله :

ميثاق الإسلام: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والنطق بالشهادة، هذه مواثيق الإسلام. أمرك أن تغض البصر، أمرك أن تكون صادقاً، أمرك أن تكون أميناً، أمرك أن تكون عفيفاً، الحقيقة أن هناك مواثيق لا تعد ولا تحصى، لكن يقع في مقدمتها ميثاق عالم الأزل، ويقع حكماً ميثاق العقل، وميثاق الفطرة، ثم ميثاق الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، ميثاق أركان الإسلام، وأي أمر في القرآن الكريم هو ميثاق بينك وبين الله، بدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة التحريم: 8]

(أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة الأنعام: 72]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)

[سورة المائدة: 1]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

[سورة المائدة: 105]

فأيّ آية تخاطب بها: يا أيها المؤمن، هي ميثاق من الله عز وجل، وهناك ميثاق يأتي بسياق هذه الآيات ميثاق بني إسرائيل:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

معنى الـهوى :

الآن الهوى ما هو الهوى؟ الهوى هو الميل، أنا أهوى الرياضة أميل إليها، أهوى الرسم أحب أن أرسم، أهوى التنزه في الفلوات، الهوى هو الميل في الأصل، لكن الهوى من أين يأتي؟ من المعرفة، إنك إن عرفت الله عز وجل ملت إليه، لأنه من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه، فلذلك هذا الهوى إما أن يكون هوى مرتبط بالآخرة، مرتبط بالله عز وجل، مرتبط بسعادة الآخرة، وإما أن يكون غريزة حسية، يهوى الطعام، يهوى النساء، يهوى تجميع الأموال، يهوى

العلو في الأرض فالهوى هو الميل، الهوى متعلق بالرؤيا والعلم.

إنسان يركب دراجة ويمشي في الطريق، وصل إلى مفترق طرق، طريق نازل، وطريق صاعد، كونه يركب دراجة هواه مع النزول، ركوب الدراجة في النزول ليس هنالك جهد إطلاقاً، الطريق معبد، ومحفوف بالأزهار والرياحين والأشجار والظلال، والنسيم عليل، وركوب الدراجة يحتاج إلى جهد في الصعود، فهواه المادي الجبلي أن ينزل، الطريق الصاعد وعر، فيه غبار، وفيه منزلقات، وفيه صخور، وفيه جهد كبير جداً، متى يهوى هذا الإنسان الصعود؟ بحسب بنيته وواقعه، وكونه راكب دراجة، والطريق الهابط جميل، يجب أن يهوى الهبوط، إذا رأى لوحة كتب عليها هذه الطريق الصاعدة تنتهي بقصر منيف هو ملك لمن يصل إليها، وهذه الطريق الهابطة تنتهي بحفرة عميقة ما لها من قرار فيها وحوش كاسرة. هذا البيان يعكس الهوى، فإما أن تهوى الشهوة العاجلة بسبب الجهل، وإما أن تهوى الجنة وما فيها من نعيم مقيم بسبب العلم، لذلك العلماء قالوا: هناك حب عقلي، وهناك حب عاطفي.

الواحد ـ لا سمح الله ولا قدر ـ معه ضيق بشرايين القلب، وكان في سهرة، ووضعوا طعاماً نفيساً جداً، قشدة، وحلويات نفيسة جداً، لكن هذا الطعام يميته، هو يحب هذا الطعام، يحبه بحسب طبعه، لكنه يكرهه بحسب مصلحته. العلماء فرقوا بين حب حقيقي وحب عقلي، بين حب مادي، وحب عقلي، فالمؤمن يحب الله، يحب الدار الآخرة، يحب الائتمار بأمر الله، والانتهاء عما نهى الله عنه، يحب بيوت الله، يحب المساجد، يحب تلاوة القرآن، يحب الأعمال الصالحة، يحب حفظ القرآن، لأن هذا يحقق له الجنة وما فيها من نعيم مقيم، يكاد يكون الحب عقلي، لكن الشهوات بين يديه.

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ،...إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

يكفي أن تطلق بصرك في الحرام، وأن تأكل ما تشاء، وأن تلتقي مع من تشاء، وأن تفعل ما تشاء، من دون قيد ولا شرط، ولا وازع ولا رادع، ولا قاعدة ولا قيمة، ولا حرام ولا حلال:

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ،...إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

الله تعالى أودع فينا الشهوات لكن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان حيادية :

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا)

رسلاً تترى:

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ)

لا بد من وقفة متأنية، الله عز وجل أودع فينا الشهوات، كل بني آدم يحب النساء، يحب المال، الدليل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: 14]

إذاً أي إنسان على وجه الأرض في ستة آلاف مليون إنسان على وجه الأرض في القارات الخمس ما منهم واحد إلا ويحب النساء، ويحب المال، ويحب بيتاً فخماً، ومزرعة فارهة، ومالاً وفيراً، هذا متاع الدنيا:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

لكن هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان حيادية، أودع فيك حب الطعام والشراب حفاظاً على بقاء الفرد، لكن الطعام والشراب إذا تحول إلى سم قاتل فأنت بهذا تعصي الله عز وجل، إذا أكلت بالاعتدال، فالطعام قوام حياتك، أما إذا أكلت بنهم، أدخلت الطعام على الطعام، وكان همُّ الإنسان الأول بطنه عندئذٍ انقلب الطعام إلى سم قاتل.

أية شهوة أودعها الله في الإنسان هي سلم ترقى بها أو دركات تهوي بها :

أودع فيك حب المرأة كي يبقى النوع، إذا كان حب المرأة سبباً لهلاك النوع الذي يجري أحياناً من حروب، ومن مآسي، ومن اجتياحات سببه الشهوات، الشهوات تحتاج إلى أموال، من أجل أن تعيش كما تريد كالنمط الغربي تحتاج إلى بيوت فخمة، وإلى مركبات، وإلى دخل كبير، وإلى عشيقات، هذا يحتاج إلى مال، والمال يحتاج إلى عدوان، فإما أن تحب المرأة وفق منهج الله فتتزوج، وإما أن تحب المرأة بخلاف منهج الله فيكون حب المرأة سبباً لهلاك الإنسان، أي أن هذه الشهوات حيادية، إما أنها سلم نرقى به، أو دركات نهوي بها، لأنك مخير فكل الشهوات التي أودعها الله فيك حيادية، إما أن تكون قوة للآخرة أو قوة إلى دركات النار، لذلك:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كَلَّا)

[سورة الفجر: 15-16]

(كَلَّا)

الله عز وجل يقول:

(كَلَّا)

الله عز وجل يقول:

(كَلَّا)

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء.

أي بشكل مختصر هل المال نعمة؟ الجواب: نعم ولا، إذا أنفق في طاعة الله فهو نعمة، أما إذا أنفق في المعاصي والآثام فهو نقمة، هل المرأة نعمة أم نقمة؟ هي نعمة ونقمة، إذا اتقيت الله فيها، أحسنت اختيارها، اخترت ذات الدين، أنجبت منها أولاداً صالحين كانت نعمة، وأيّ نعمة، بل إن بعض المفسرين حينما فسر قوله تعالى:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

[سورة البقرة: 201]

المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك، كلام دقيق جداً، أية شهوة أودعها الله في الإنسان سلم ترقى بها إلى رب السماوات والأرض، أو دركات تهوي بها أسفل السافلين.

الشهوة التي أودعها الله في الإنسان لها زاوية محددة :

إذاً الشهوة حيادية، فمن الممكن أن تتحرك بالشهوة مئة وثمانين درجة، لكن في الشرع الإسلامي مسموح لك بسبعين درجة، المرأة عند المؤمن زوجة، أو أم، أو بنت، أو أخت، أو عمة، أو خالة، أو بنت أخ، أو بنت أخت، هذه المحارم اللواتي يمكن أن ألتقي بهن، وأن أجلس معهن بثياب محتشمة، لا قيد ولا شرط بين الزوجين، أما المحارم فلا بد من الاحتشام، فهذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان لها زاوية محددة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: 5-7]

أودع فيك حب المال، إذا كسبته من طريق مشروعة، وأنفقته في الطرق المشروعة ارتقيت به وكان نعمة وأيّ نعمة، أما إذا اكتسبته من طرق غير مشروعة، وأنفقته في طرق غير مشروعة كان نقمة وأيّ نقمة، إذاً الهوى هو الميل، إما أن يكون الهوى راقياً جداً يسمو بك إلى الله، وإما أن يكون هوى حسيّاً ماديّاً يهوي بالإنسان إلى دركات النار، الهوى متعلق بالعلم، أنت حينما تقرأ هذه اللوحة تتجه في الطريق الصاعدة، أما إن لم تقرأ هذه اللوحة فأمامك طريقان، واحد هابط، والثاني صاعد، وراكب الدراجة يهوى الطريق الهابط، إذاً:

(كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

تكذيب اليهود لأنبيائهم :

أيها الأخوة، هؤلاء اليهود كانوا يكذبون أنبياءهم، وتكذيب رسول معه معجزة أرسله الله رحمة لهؤلاء القوم لينقلهم من الظلمات إلى النور، من وحول الشهوات إلى جنات القربات، من الجهل إلى العلم، من الشقاء إلى السعادة، يكذبونه؟ فما بالكم إذا قتلوه، لذلك الله عز وجل قال:

(فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

يقتلون جاءت بصيغة المضارع، لأن صورة القتل ينبغي ألا تبرح الأذهان، جريمة بشعة جداً، أن الله بعث لك نبياً ليهديك إليه، ليسعدك في الدنيا والآخرة، لتكون من سعداء الدارين، بدل أن تصدقه، وأن تنصره، وأن تعززه، وأن تدعمه، وأن تكون جندياً معه، تكذبه ثم تقتله؟!

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

تعدد المواثيق :

ذكرت قبل قليل أن المواثيق كثيرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بايعه الأنصار بيعات ثلاثاً، الأولى، والثانية، والثالثة، نقف عند الثالثة، النبي عليه الصلاة والسلام قال للأنصار: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فقال البراء بن معروف: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، وتكلم أبو الهيثم، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال ـ أي اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا كذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم عليه الصلاة والسلام وقال:

((بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ ـ أنا منكم وأنتم مني ـ أحاربُ مَنْ حارَبْتُمْ، وأسالِمُ منْ سالَمْتُمْ))

[أحمد عن كعب بن مالك]

وبسط يده عليه الصلاة والسلام فبايعوه، فكانت بيعة العقبة ميثاقاً لأهل البيعة بالجنة إن أوفوا بما عاهدوا الله عليه، هذا ميثاق، عقد الزواج ميثاق.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء: 21]

عقد العمل ميثاق، لا تخون صاحب الشركة، عقد الزواج ميثاق، عقد بيع ميثاق، لا تبع على بيع أخيك، أي أمر إلهي في المعاملات ميثاق من الله يؤكده:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

[سورة التحريم: 8]

افعل كذا، ولا تفعل كذا، مواثيق كثيرة جداً، ميثاق الاعتراف بالربوبية، هذا ميثاق عالم الأزل، منحك الله عقلاً يكفي أن تعرف الله من خلاله، هذا ميثاق العقل، ميثاق الفطرة، منحك فطرة تكشف بها خطأك، ميثاق الإيمان بالرسل، أن تؤمن بهم، وأن تنصرهم، وأن تدعو بدعوتهم، وأن تكون جندياً معهم، هذا مثال أيضاً.

المعرفة هي التي تحدد نوع الهوى :

أيها الأخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البيهقي عن الحسن وابن سيرين]

هواك أنت كونك مؤمناً وفق منهج الله، لا ينبغي أن يكون هواك في وادٍ، والدين في واد آخر:

((... حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[البيهقي عن الحسن وابن سيرين]

لذلك الصحابة الكرام كانوا يفرحون لما نزل إليهم من الحق، يفرح بما نزل إليه.

كملخص: الهوى هو الميل، يمكن أن يكون الهوى سامياً يرقى بك إلى الله، وإلى الجنة، وإلى نعيم مقيم، ويمكن أن يكون الهوى متدنياً يهوي بالإنسان إلى دركات النار، ما الذي يحدد نوع الهوى؟ أهو هوى سامٍ أم هوى منحط؟ المعرفة، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تحبه ثم لا تطيعه.

وضعنا أمام إنسان إناء كبيراً من أرخص أنواع البلّور، ثمنه عشر ليرات، ووضعنا إلى الجانب كأس كريستال ثمنه ألف ليرة، و وضعنا ماسة موجودة باسطنبول ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار، وقلنا له: اختر، فالجاهل يأخذ أكبر قطعة، التي ثمنها عشر ليرات، لأنه جاهل، لو علم أن هذه الماسة ثمنها يقدر بمئة وخمسين مليون دولار لاختارها، مع أنها صغيرة بحجم البيضة، ما الذي حملك على أن تختار هذه القطعة الثمينة جداً؟ المعرفة.

لذلك إذا عرفت الله اخترته، إذا عرفت الله طلبت رضاه، إذا عرفت الله خفت من وعيده، إذا عرفت الله طمعت في جنته، إذا عرفت الله أسعدك القرب منه، وإذا ما عرفته، فتاة بغي تسوقك إلى النار وأنت لا تشعر، هلاك الناس الآن بالنساء، بالمال الحرام، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، أما المؤمن:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية لابن هشام]

هذا الثبات على المبدأ، لذلك قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

عاهدنا رسول الله على السمع والطاعة، في المكره والمنشط، في الغنى والفقر، في إقبال الدنيا وإدبارها، المؤمن أخذ قراراً مصيريّاً، وهناك من يعبد الله على حرف، إن أقبلت عليه الدنيا شكر الله، وإن أدبرت أعرض عن الله عز وجل.

كلما وفَّى الإنسان بما عاهد الله عليه كان عند الله مقرباً :

أيها الأخوة الكرام، أردت أن أقف وقفة متأنية عند موضوع الميثاق، أنت مرتبط مع الله بآلاف المواثيق، والمواثيق مع خالق الأكوان، الميثاق ليس مع واحد من بني البشر، مع خالق البشر، فكلما وفيت بما عاهدت الله عليه كنت عند الله مقرباً، لذلك ألا تهز مشاعرك هذه الآية؟

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم: 37]

وفَّى كل مواثيقه،

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

ألا تنزعج من أن تنطبق عليك هذه الآية؟

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف: 102]

لا تكن مع الأكثرية الفاسقة كن مع القلة التي وفت بما عاهدت عليه الله عز وجل.

النبي لا ينطق عن الهوى وما من شيء يرقى بالإنسان كأن ينطق بالحق :

الآن مقام النبوة أنه:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم: 3-4]

أحياناً ينطق الإنسان عن الهوى، أي ينطق بحسب مصلحته، يقيم الشيء تبعاً لمصلحته، يمدحه أحياناً، ويذمه أحياناً أخرى، لكن المؤمن ينطق بالحق، بينما النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى

[، إطلاقاً،

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

أروي طرفة، مرة أردت أن أشتري ستائر، دُللت على إنسان تاجر في أحد أسواق دمشق، فقبل أن أختار أحد أنواع القماش تكلم بمحاضرة، قال لي: الستارة كلما كانت عريضة أكثر، ثم انثنت على بعضها كانت أجمل، والله كلام طيب، قال لي: ضع دائماً ضعف عرض الغرفة زائد متر، قاعدة، عندك جدار أربعة أمتار لا بد من ثمانية أمتار زائد متر أي تسعة أمتار، قلت له: غرفتي بالبيت ثلاثة أمتار، قال لي: جيد إذاً نريد سبعة أمتار، اخترت ثوباً، قاسَ عوض السبعة أمتار خمسة أمتار، وأنا أعجبني هذا الثوب، قال لي: يا أستاذ، المطرز على الفرد يكون أجمل، معنى ذلك نطق عن الهوى.

ثلاثة أرباع كلام الناس ينطق عن الهوى، تقول له: انصحني، فينصحك بالبضاعة الكاسدة التي عنده، إذا كان وكيل شركة يمدحها مدحاً غير طبيعي، إذا سحبوا منه الوكالة يذمها في اليوم الثاني، يقول لك: هذه سيئة جداً، تسعون بالمئة من كلام الناس ينطقون عن الهوى، عن مصالحهم، وهذا يحدث في الخطبة أحياناً، يخطب إنسان من بيت يصبح ملاكاً، تقياً، نقياً، ورعاً، فهيماً، ذكياً، تحدث مشكلة، يترك الخطبة، يصبح سيئاً، مريضاً، يصاب بالصرع، يتكلمون عنه كلمات منها الصحيح ومنها ما هو غير صحيح، معظم الناس ينطقون عن الهوى، لكن المؤمن ينطق بالحق، لكنه غير معصوم، أما النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، يتكلم الحقيقة، وما من شيء يرقى بالإنسان كأن ينطق بالحق، لذلك ببعض الأحاديث:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

الناس تحت سيف المصيبة يلجؤون إلى الله لكن في الرخاء شاردون عن الله :

معظم الناس في المصيبة يلجؤون إلى الله، لكن في الرخاء شاردون عن الله، حدثني أخ من اسطنبول قال لي: والله عقب الزلزال الذي أصاب اسطنبول لم نجد مكاناً بالجوامع ولا بالصحن، الصلوات الخمس، بعدما غاب الزلزال سنة لم نجد صفين بالجوامع، الناس تحت سيف المصيبة يلجؤون إلى الله.

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

(وَحَسِبُوا)

اليهود:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

أي كذبوا الأنبياء، هم أبناء الله وأحباؤه.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً)

[سورة البقرة: 80]

وقالوا:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

إذاً لو أنهم قتلوا الأنبياء فالقضية بسيطة جداً، الآن مثل الغربيين:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر   وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

المسلم وقاف عند كتاب الله ووقاف عند الأمر والنهي :

قال تعالى:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

أي أنهم كذبوا الأنبياء وقتلوهم، قضية ثانوية جداً، لأنهم أبناء الله وأحباؤه، منتهى الجهل، النبي عليه الصلاة والسلام دعي إلى التمثيل بجثة أحد المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً. المسلم وقاف عند كتاب الله، وقاف عند الأمر والنهي، أما اليهود:

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

[سورة المائدة: 18]

بماذا رد الله عليهم؟

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

ما لكم ولا ميزة، وإذا قال المسلمون: نحن أمة محمد، نقول كما قلنا لليهود:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

الله عز وجل فتح باب التوبة :

قال تعالى:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا)

الله عز وجل أنشأ لنا السمع والأبصار، أنت بالبصر ترى آيات الله، ترى الكون، ترى الشمس، ترى القمر، ترى الليل، ترى النهار، ترى هذا النبات الذي فيه طعامك، ترى هذه المخلوقات التي سخرت لك، ترى ابنك كيف كان نقطة من ماء مهين وأصبح طفلاً سوياً بأجهزة، بدماغ، بعين، بسمع، ببصر، بلسان، بجهاز هضم، جهاز دوران، قلب، أعصاب، جهاز تصفية، العين من أجل أن تعرف الله، لو أنك أهملت النظر في مخلوقات الله، في عندك سمع ما سمعت درس علم، ما سمعت خطبة، ما سمعت نصيحة، ما سمعت موعظة:

(فَعَمُوا)

أبصارهم عميت عن رؤية الحقائق:

(وَصَمُّوا)

وأذانهم حُجبت عن سماع الحق:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

معنى تاب عليهم أي شرع لهم التوبة، تصور لو لم يكن هناك توبة ما الذي يحصل؟ أصغر ذنب ينتهي بأكبر ذنب، ينتهي بأكبر ذنب، ينتهي بجريمة، ينتهي بجهنم، لكن الله عز وجل فتح باب التوبة.

التوبة النصوح كما وردت في الكتاب والسُّنة :

قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء: 27]

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة]

العبد إذا تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَمَا يُصْلِحُهُ، فَأَضَلَّهَا، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَمَا يُصْلِحُهُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

شرع لهم التوبة، وفي معنى آخر:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

ساق لهم بعض الشدائد كي يحملهم على التوبة.

الله عز وجل يسوق للإنسان أحياناً بعض الشدائد ليحمله على التوبة :

هناك توبة قبول من الله عز وجل، تابوا:

(تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

أي قبل توبتهم، وهناك توبة تسبق توبة العبد، أي شرع لهم التوبة، وساق لهم بعض الشدائد التي تحملهم على التوبة:

(ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا)

البحر أصبح طريقاً يبساً، هل من آية تفوق هذه الآية؟ البحر الأحمر كان بحراً فصار طريقاً، لأن فرعون بقوته وطغيانه وأسلحته وجنوده وحقده وقسوة قلبه تبعهم وهم شرذمة قليلة.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

لا أمل، أحياناً تجد أن لا أمل، دولة متغطرسة، معها أسلحة فتاكة، معها أسلحة نووية، معها طائرات، معها حاملات طائرات، يمكن أن تقصف أي مكان في العالم بأسلحة لم تستخدم بعد، يمكن أن تدمر القوة البشرية في مدينة، وتبقى المدينة كما هي، ممكن أن تعطل الاتصالات كلها في مدينة، تنشل قوة العدو، فدولة عظيمة، قوية، متغطرسة، جبارة، متكبرة، مستعلية، ليس في قلبها رحمة، تريد أن تبني مجدها

على أنقاض الآخرين، لا أمل، لسان حال بعض المسلمين يقول: لا أمل، لا:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء: 61]

ما كان ثمة أمل أبداً، شرذمة أمام البحر ووراءهم فرعون بكل قوته.

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء: 62]

فشق لهم البحر طريقاً يبساً، دخلوا فيه وخرجوا من الطرف الآخر، تبعهم فرعون، في منتصف الطريق عاد البحر بحراً فغرق فرعون.

وصف الله تعالى جهل اليهود وبعدهم عن الحقيقة وحبهم للدنيا :

أيها الأخوة، إذاً لأنهم توهموا أنهم أبناء الله وأحباءه، لأنهم توهموا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة قالوا:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ)

مع أنهم قتلوا أنبياء الله وكذبوهم، ولم يبحثوا عن الحقيقة ذاتياً، ولم يصغوا إلى الحقيقة التي نقلها إليهم الآخرون:

(فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

وجاءهم بالآيات الدالة على عظمته، وبعد أن رجعوا إلى أرضهم، ونجوا من عدوان فرعون رأوا أناساً يعكفون على أصنام لهم قالوا:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)

[سورة الأعراف: 138]

يصف الله جهلهم وبعدهم عن الحقيقة وحبهم للدنيا:

(ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

وفي الدرس القادم نتابع تفسير هذه الآيات:

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (35 - 49) : تفسير الآيات 72 - 81 ، مقام الألوهية ومقام البشرية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-06-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

مقام الألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثانية والسبعين، وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

مقام الألوهية مقام عظيم، فالإله ليس قبله شيء وليس بعده شيء، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده كل شيء، قادر على كل شيء، لا يحتاج إلى شيء، هذا المقام مقام الألوهية:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

ما عرفوا مقام الألوهية، لأن المسيح بن مريم يأكل الطعام، والذي يأكل الطعام يحتاج إلى ما دونه، نحن بني البشر، مع أن البشر مخلوقات مكرمة.

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء: 70]

مقام البشرية :

الإنسان هو المخلوق المكرم، ولكن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يحتاج الإنسان إلى الماء، والماء دونه، وأن يحتاج إلى الطعام، والطعام نبات، وأن يحتاج إلى الحيوان ليأكل لحمه، والحيوان دونه، فمادام هذا المخلوق إنساناً إذاً هو مفتقر في وجوده إلى أشياء كثيرة هي دونه عند عز وجل، فإذا قلنا: الله الذات الكاملة، واجب الوجود، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

[سورة الإخلاص: 3-4]

ليس قبله شيء، ولا بعده شيء، ولا فوقه شيء، ولا تحته شيء، وهو ليس كشيء في شيء، فوق كل شيء، وبيده كل شيء، الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء فكيف يكون إنسان إلهاً، وهو يأكل ويشرب؟ يحتاج إلى طعام، وإلى شراب، وإلى نوم، أما إذا أكل، وشرب يحتاج إلى إخراج هذا البراز، هذا مقام البشرية وليس مقام الألوهية، لذلك الآية الكريمة:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

والحقيقة أن المسيح جاء من غير أب، والذي أشكل عليهم:

(قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

المعجزة مقبولة عقلاً وغير مقبولة عادة :

أن الله سبحانه وتعالى أتى به من دون أب، لكن أن يأتي به من دون أب هذه معجزة، والمعجزة مقبولة عقلاً غير مقبولة عادة، فالشيء المألوف أن الإنسان يأتي من أب أو أم، فإذا كان هناك مشكلة أن يكون المسيح ابن مريم بلا أب فآدم بلا أب ولا أم، والمسيح بن مريم بلا أب، وحواء بلا أم، من ضلع آدم، وقد تجد زوجين شابين لا ينجبان، هذا الكلام معناه أن هناك سبب، وهناك نتيجة، وأن اقتران السبب بالنتيجة اقتران لا يعني أن السبب خالق النتيجة، تلازما، السبب أتى قبل النتيجة تلازماً، شاءت حكمة الله أن يكون لكل نتيجة سبب، لكن السبب ليس خالق النتيجة، بدليل أن الله عز وجل في أيّ لحظة يعطل هذا السبب، فالسبب موجود، لكنه ليس فعالاً، وأحياناً يلغى السبب بلا سبب تكون النتيجة، بسبب لا تكون نتيجة، ومن غير سبب تكون النتيجة، إذاً السبب ليس خالق النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى كي تستقر الحياة بأنظمة وقوانين جعل لكل نتيجة سبباً.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً* فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف: 84-85]

نظام الكون كي يتصل مع نظام العقل، بالعقل في مبدأ السببية، والكون بني على نظام السبب، الماء يأتي من بئر، والبئر يحتاج إلى حفر، النبات ينبت من بذر، والبذر يحتاج إلى زرع، والطفل يأتي من أب وأم، إذاً لا بد من زواج، هذا في الأعم الأغلب، ولئلا نتوهم أن السبب يخلق النتيجة، ولئلا نؤلّه الأسباب كما يفعل أهل الغرب، من حين لآخر تعطل هذه الأسباب، تكون النتيجة من دون سبب، كالسيد المسيح، وأحياناً تلغى، فيتزوج شابان في ريعان الشباب ولا ينجبان.

(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً)

[سورة الشورى: 50]

كل شيء له سبب من أجل انتظام الحياة لا من أجل تأليه الأسباب :

السبب إما أن يلغى، وإما أن يعطل، معنى ذلك أن السبب ليس خالق النتيجة، هذا الموضوع يقودنا إلى موضوع عقائدي، أهل الغرب ألهوا الأسباب، واعتمدوا عليها، فوقعوا في الشرك، وهؤلاء أهل الشرق الذين تخلفوا، لم يأخذوا بالأسباب، فعصوا، فالذين أخذوا بالأسباب، ونسوا خالق الأسباب، ومسبب الأسباب وقعوا في الشرك، والذين لم يأخذوا بالأسباب وقعوا في المعصية، السبب لا يخلق النتيجة، لكن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يأتي السبب قبل النتيجة كي تستقر الحياة، وكي تنتظم الأمور، فالذهب ذهب، والفضة فضة، كل شيء له سبب، صهر الذهب يحتاج إلى حرارة، وتجميد الماء يحتاج إلى برودة، فكل شيء له سبب، هذا من أجل انتظام الحياة لا من أجل تأليه الأسباب، فإذا شاءت حكمة الله أن يجعل هذا النبي الكريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم من دون أب فلا يعقل أن تنسى من هو الإله، الإله لا يأكل، ولا يشرب.

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

ذات كاملة، واجب الوجود.

(يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

[سورة طه: 7]

يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[سورة الحديد: 3]

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

مقام الألوهية يقتضي أن الله صمد لا يتوقف وجوده على جهة أخرى :

مقام الألوهية يقتضي أن الله صمد لا يتوقف وجوده على جهة أخرى، أما نحن يتوقف وجودنا على استنشاق الهواء، وعلى شرب الماء، وعلى أكل الطعام والشراب، ونحتاج إلى أن ننام، ونحتاج إلى أن نخرج الفضلات، فالذي قال: المسيح هو الله، ما عرف مقام الألوهية، مثلاً، هذه المركبة تحتاج إلى دفع من الخلف كي تسير، أحدث مركبة، غاب عنه أن فيها محرك، وأن قوته عالية جداً، وأنها تنطلق بسرعة عالية جداً حتى في الصعود، قال: لا تمشي إلا بالدفع، إذاً هو ما عرف قيمة هذه المركبة، ولا عرف خصائصها، ولا روعة صنعها، ولا دقة صنعها، للتقريب فقط. فالذي قال:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

أي ما عرفوا مقام الألوهية، ما عرفوا أن الخالق يستغني عن كل خلقه، ما عرفوا أن الخالق:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[سورة الشورى: 11]

ما عرفوا أن الخالق لا يتوقف وجوده على طعام، ولا على شراب، الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يصف الأنبياء بأنهم كانوا يأكلون الطعام، وهذه إشارة لطيفة جداً أن الذي يأكل الطعام لا يكون إلهاً، لأن وجوده متوقف على شيء خارج عنه، إن لم نتنفس نموت، إن لم نشرب نموت، إن لم نأكل نموت، إن لم نعالج نموت، إن لم نخرج نتيجة الاستقلاب واحتراق السكر نموت، لذلك:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

أي ما عرفوا مقام الألوهية.

أي إنسان يتجه إلى غير الله اتجه إلى لا شيء :

قال تعالى:

(وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

الله عز وجل عنده كل شيء، عنده سلامتك، وعنده سعادتك، وعنده جنة عرضها السماوات والأرض، إذا اتجهت إلى غيره لم تجد شيئاً:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

أنت تركب مركبة إلى حلب لتأخذ مبلغاً فلكيّاً، الساعة الثانية عشرة، وقد ترتكب أخطاء كثيرة، وأنت راكب هذه المركبة، ولكنها في طريقها إلى حلب، لكن الخطأ القاتل أن تركب مركبة باتجاه درعا، والقبض في حلب، اتجهت إلى جهة ليس عندها شيء. المشكلة أنك إذا اتجهت إلى جهة غير الله، وغير الله مخلوق لا يملك لك نفعاً ولا ضراً.

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

أي إنسان يتجه إلى غير الله اتجه إلى لا شيء، لذلك يقول الله عز وجل لنبيه الكريم قل:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: 31]

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضراً)

[سورة الأعراف: 188]

هذا مقام البشر.

لا يعرف الله من يقول الإله هو فلان :

هذا أعلى إنسان على وجه الأرض، هذا سيد الخلق، وحبيب الحق، لا يعلم الغيب، ولا يملك لنا نفعاً ولا ضراً، بل إنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فألا يملك لنا نفعاً ولا ضراً من باب أولى، هذا مقام البشرية، أما مقام الألوهية فبيده كل شيء، خالق كل شيء، قادر على كل شيء، يعلم كل شيء، علمه مطلق، قدرته مطلقة، لا يعجزه شيء، ليس قبله شيء، وليس بعده شيء، وهو في كل شيء، لا كشيء في شيء، علم ما كان، وعلم ما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فالذي يقول الإله هو فلان إذاً هو لا يعرف الله.

فرضاً: جيش مؤلف من خمسمئة فرقة، ويقول: هذه النملة تقود هذا الجيش ما عرف ما هو الجيش، جيش، أسلحة برية، وبحرية، وجوية، وقنابل ذرية، وقواعد صاروخية، حاملات طائرات، مثلاً ويقول هذه النملة تقود هذا الجيش!! إذاً لا يعرف ما هو هذا الجيش، فحينما تقول: هذا الإنسان إله فأنت لا تعرف ما الإله، إطلاقاً:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

كما أنه ربكم هو ربي، وكما أنكم عبيد لله أنا عبد لله أيضاً:

(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)

تحريماً حكميّاً، اتجهت إلى غير الله، كإنسان يكاد يموت عطشاً، واتجه إلى صخرة صماء، ليس فيها إلا الموت، لكنه إذا اتجه إلى نبع ماء عذب فرات اتجه إلى الحياة.

(فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ)

حينما لم يؤمن بالله الواحد القهار، ولم يتجه إليه، ولم يتقرب منه، توجه إلى بشر لا يملكوا لنا نفعاً ولا ضراً، إذاً ليس عند هذا البشر شيء:

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

حينما يقعون في قبضة عدالة الله عز وجل.

ثلاث مقولات عن الله سبحانه :

طبعاً هذه المقولة:

(قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

وفي مقولة ثانية:

(أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 116]

المقولة الثالثة أن هناك إلهين، المسيح والسيدة مريم، المقولة الثالثة:

(إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

[سورة المائدة: 73]

أي هناك ثلاثة آلهة اللهُ أحدهم، ثلاث مقولات، فرقة قالت:

(اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)

وفرقة قالت:

(إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

[سورة المائدة: 73]

وفرقة قالت: إن الله هو المسيح ابن مريم وأمه.

الافتراء على الله أن تجعل له نداً من البشر :

أيها الأخوة، أنا حينما أقول: هذا ثالث ثلاثة، أي ثلاثة متشابهون، وهذا أحدهم من دون تعيين، هذا معنى ثالث ثلاثة، أما الله عز وجل فقال:

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)

[سورة المجادلة: 7]

لو أن الله قال: الله عز وجل رابع ثلاثة، صحيح، هو إله، والثلاثة بشر، خامس أربعة، سادس خمسة، أما:

(ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

رابع أربعة، أي هم كلهم من جنس واحد، فلذلك:

(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ)

أي الثلاثة آلهة، والله واحد منهم، وما من إله إلا الله.

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أيضاً افتراء على الله أن تجعل له نداً من البشر.

الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب :

أيها الأخوة، الأنبياء وُصِفوا في بعض الآيات:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

في الأسواق، هل فكرتم في دلالة هذه الآية؟ يأكلون الطعام، أي هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام.

مرة في بلد عربي أصابه ثلج كثيف، فالثلج قطع الطرق، وهناك فئة قُطعت في مكان بعيد عن الطعام والشراب، فاضطروا أن يأكلوا الجيف، وأن يشربوا بولهم. الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب، فلمجرد أن تقول: فلان يأكل ويشرب إذاً هو بشر، ليس إلهاً.

الآن أنت مفتقر لشيء آخر، مفتقر إلى ثمن الطعام، أن تمشي في الأسواق، أنت مفتقر إلى الطعام وإلى ثمن الطعام، وهذا شأن بني البشر جميعاً، كل إنسان يذهب إلى عمله ليكسب رزقه، ليشتري طعاماً ليأكل، ولولا الحاجة إلى الطعام والشراب لما رأيت على وجه الأرض شيئاً، كل هذه المنشآت، وهذه المشاريع، وهذه المعامل، وتلك الزراعة، وهذه التجارة، وتلك الصناعة، كل شيء تراه عينك بسبب أن الإنسان مفتقر في وجوده إلى الطعام والشراب.

إذاً هناك دلالة عميقة جداً حينما يقول الله عز وجل:

(لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)

[سورة الفرقان: 20]

هم مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون في ثمن الطعام إلى أن يمشوا في الأسواق.

الشرك خطأ اعتقادي أما الذنب فخطأ سلوكي :

قال تعالى:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الإنسان إذا كفر بالله عز وجل وقع في الشرك الأكبر، والشرك يقتضي أنه لا منهج يضبط عملك، والشهوات تقتضي أن تأخذ ما ليس لك، وأن تأخذ ما ليس لك يقتضي أن تعاقب، شيء طبيعي جداً، تشرك فتتفلت من منهج الله، فتأخذ ما ليس لك، فيعاقبك الله عز وجل.

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ماذا تنتظر أيها المؤمن؟ ماذا تنتظر أيها المقصر؟ ماذا تنتظر أيها المشرك؟

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ)

من شركهم، وألا يستغفروه من ذنوبهم؟

عندنا شرك، وعندنا ذنب، الشرك خطأ اعتقادي، والذنب خطأ سلوكي:

(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

مرتبة الصدّيقة مرتبة تأتي بعد مقام النبوة :

ما حقيقة المسيح؟

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ)

صدقته، ومرتبة الصدّيقة مرتبة تأتي بعد مقام النبوة، سيدنا رسول الله نبي مرسل، وأبو بكر الصدّيق صدّيق، اسم على مسمى، وأمه صدّيقة، وفي إشارة لطيفة إلى بطلان هذا الادعاء أن المسيح هو الله، وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام، فالذي يأكل الطعام ليس إلهاً، والتي تأكل الطعام ليست إلهاً أيضاً.

(كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

من هو الإله الذي ينبغي أن تعبده؟ ما صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده، وأن تمحضه عمرك كله، وأن تمحضه حبك، وشبابك، وشيخوختك، ومالك، ومحبتك؟ الإله الذي يملك لك نفعاً وضراً، وحياةً وموتاً، وسعادةً وشقاءً، من بيده أمرك، من بيده سعادتك، من بيده من دونك، من بيده من فوقك، من بيده أهلك، من بيده صحتك، من بيده سمعك وبصرك، من بيده قوتك، من بيده حركتك، الذي يملك لك نفعاً وضراً:

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

هو الإله الذي ينبغي أن تعبده.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة النساء: 1]

ينبغي أن تعبد الخالق لا المخلوق، القوي لا الضعيف، الذي يعلم لا الذي لا يعلم.

لا يملك نفعاً ولا ضراً إلا الله سبحانه :

قال تعالى:

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

إلى أين ينصرفون؟ إلى إنسان ضعيف، إلى إنسان يموت!

كل إنسان يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

* * *

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

* * *

وسبحان من قهر عباده بالموت، هو الحي الباقي على الدوام.

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

لو دخلت إلى دائرة، وفيها طوابق عديدة، وفيها مئات الموظفين، وطلبك لا يوافق عليه إلا المدير العام، وكل هؤلاء الموظفين لا يملكون موافقة على طلبك، ولا تيسيراً لأمرك، هل تضيع وقتك معهم؟ هل تبذل ماء وجهك أمامهم؟ هل تتضعضع أمامهم؟ القضية بيد المدير العام.

حينما يأتي الخطاب لأهل الكتاب يجمع الله بين اليهود والنصارى في آية واحدة :

هذا الذي يعبد من دون الله ما لا يملك له ضراً ولا نفعاً:

(وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

حينما يعبد غير الله فالله عز وجل يسمع شركه، وإذا أبقى الشرك في نفسه، وفي خاطره يعلم حديث نفسه وخاطره، سميع لما يقول من كلام الشرك، وعليم لما يجول في خاطره من كلام الشرك، أحياناً يخاطب الله أهل الكتاب، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، فإذا كان الخطاب في موضوع مشترك بينهما قال الله عز وجل:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ)

إذا كان الخطاب لبني إسرائيل يخاطبهم: يا بني إسرائيل، أما حينما يأتي الخطاب لأهل الكتاب فيجمع الله بين اليهود والنصارى في آية واحدة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

الغلو؛ مجاوزة الحد، لأن بني إسرائيل اتهموا السيدة العذراء مريم بأنها زانية، وابنها السيد المسيح ابن زنا، والنصارى جعلوه إلهاً، كلاهما غلا في دينه، أحدهما غلو نقص، والثاني غلو زيادة:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

الغلو في الدين :

وهذه الآية موجهة إلينا أيضاً، الشيخ لا ترفعه فوق مقامه، هو بشر، لا يعلم الغيب، لا يملك لك نفعاً ولا ضراً:

(لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً)

[سورة الفرقان: 3]

لكنه يدلك على الله، مقامه أنه يدلك على الله، وإذا كان متين الصلة بالله، أي أن التعامل معه يشعرك براحة، لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، هذا مقام الشيخ، ليس أكثر، أما أنه يعلم الغيب، أنه يراك في بيتك، وكيف تتقلب في فراشك، نحن كوننا مسلمين إما أن نرفع الشيخ فنجعله إلهاً، وإما أن نكذب كل الشيوخ، وكلاهما غلط، وكلاهما غلو، أعطي لكل ذي حقٍ حقه:

(لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

كل ما يجري قضاء وقدر، فعلاً، لكن تسعاً وتسعين في المئة مما يجري نحن سببه، فإذا عزوت كل أخطائك إلى القضاء والقدر هذا غلو في الدين، وإذا قلت: ليس هناك قضاء وقدر فهذا غلو في الدين أيضاً، لو أخذت عقائد المسلمين بين غلوين، غلو زيادة وغلو نقص، إنسان لا يعمل يتوكل على الله توكلاً أبلهاً، وإنسان يقول: أنا جمعت هذا المال بكد يميني، وعرق جبيني، وليس لأحد علي فضل بجمعه، كلاهما غلو في الدين، قضية الغلو في الدين هي الطامة الكبرى، هي مشكلة المسلمين، نقلل من قيمة الدعاء، ولا أحد يعبأ بالدعاء، هذا غلو، أو أن نعتد بالدعاء، ونحله محل السعي، فقط الدعاء، الدعاء من دون سعي غلو، والسعي من دون دعاء غلو، لو تتبعنا موضوعات العقيدة لوجدت أن المسلمين في غلوين، غلو إفراط وغلو تفريط، غلو مبالغة وغلو تقليل، غلو زيادة وغلو نقص:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

هناك من يعتد بسعيه ولا يعبأ بالتوكل، وهناك من يتواكل ولا يسعى، كلاهما مغالٍ في الدين.

الإنسان أحياناً يحكمه الهوى :

قال تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ)

الحق هو الواقع، الواقع المطابق للوصف مع الدليل، الحق هو الله عز وجل، والحق هو الموجود. الآن هناك صحابة كرام، بعضهم كفره، وبعضهم ألهه، وكلاهما غالى في الدين، الذي دمر المسلمين غلوُّهم في الدين، غلو زيادة وغلو نقص، غلو مبالغة وغلو تقليل قيمة، غلو إفراط وغلو تفريط، وأمراض أهل الكتاب قد وقعت فينا في معظمها.

(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

أحياناً الإنسان يحكمه الهوى، أي بشكل أو بآخر لو أن إنساناً ذكيّاً فقد أداة رزقه، كان يعمل على دابة، والدابة ماتت، إذاً فقد رزقه، أحد خبيث أشار عليه أن يدفنها، وأن يبني عليها مقاماً وقبة خضراء، وأن يسميها باسم وليٍّ من أولياء الله الصالحين، وتهافت الناس على مقام هذا الولي، وجاؤوا له بالهدايا، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هو حينما يصر على أن هذا مقام ولي ما الذي يدفعه إلى هذا الإصرار؟ مصلحته ومنفعته، فهو منتفع من هذه الفكرة، الإنسان أحياناً يصر، ويتشبث، ويبالغ، ويؤكد أن الذي يدفعه لهذا الهوى والمصالحة والمكاسب الكبيرة جداً:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

الله سبحانه وتعالى يسلي النبي صلى الله عليه وسلم في الآيات التالية :

هناك ضال، هناك ضال مضل، هناك فاسد، وهناك فاسد مفسد، هناك منحرف، وهناك إنسان يحمل الآخرين على الانحراف، وهناك عقائد كثيرة من شرق آسيا من ديانات وثنية انتقلت إلى ديانات سماوية:

(وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا)

في التاريخ السحيق:

(وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)

ثم إن الله سبحانه وتعالى يسلي النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: يا محمد لا تحزن قد كذبوك، لا تحزن، لم يؤمنوا بك، لا تحزن، في آية دقيقة جداً يقول الله عز وجل:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

هل هناك أب على وجه الأرض إذا رأى ابنه يقول له: من أنت؟ ما اسمك؟ أنت ترتيبك بعد من؟ مستحيل! ليس هناك معرفة أوضح، ولا أسرع، ولا ألصق بالإنسان من أن يعرف ابنه، فالله عز وجل يقول:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

إله، يعرفون أن هذا رسول الله:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

لكن المصالح، والأهواء، والمكاسب، والزعامات تحول بينهم وبين أن يؤمنوا، فيا محمد لا تأسَ على هؤلاء الذين كذبوك، ولم يؤمنوا بك، مع أنهم يعرفونك نبياً كما يعرفون أبناءهم.

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية ليمتحن الله عباده المؤمنين :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

أي هم كذبوا سيدنا داود، وكذبوا سيدنا عيسى، وهذه مأساة الأنبياء جميعاً، وأنت حينما تعلم أن هناك معركة بين الحق والباطل من آدم إلى يوم القيامة فلا تتألم إذا سمعت أن هناك فرقاناً سوف يفرض على المسلمين، وهذا الفرقان يؤكد أن هذا القرآن ليس كلام الله، وكتبت فيه آية: أن يا محمد أأنت أضللت عبادي؟ يقول: يا ربي ضللت فأضللتهم، هذا الفرقان يصنع لنا ليكون كتابنا المقدس بعد حين. فهذا شيء طبيعي جداً، معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، ولحكمة بالغةٍ بالغة شاء الله عز وجل أن تكون هذه المعركة ليمتحن عباده المؤمنين.

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ)

[سورة محمد: 4]

وأطمئنكم، لا تقلقوا على هذا الدين، إنه دين الله، والله لو أن أهل الأرض اجتمعوا على تشويه معالمه لما استطاعوا، وأي كتاب يصنعونه لنا واللهِ طفل صغير إذا قرأه يضحك فقط، يضحك ساخراً، كلام الله كلام الله، وكلام البشر كلام البشر، مضحك، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، هذا من كلام مسيلمة الكذاب، والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً، على تقليد:

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً)

شيء مضحك.

هذا الدين دين الله والله عز وجل يتولى حفظه :

الآن في الإنترنت صور مفتعلة زعم أنها من كلام الله، والله إن قرأتها للفكاهة والمتعة فقط، ما مِن خلية بجسم مسلم، ما مِن قطرة دم بدم مسلم إلا وتنطق بأنه كذب على الله، هذا الدين دين الله، مهما احلولكت الخطوب، مهما اشتد الزمان، مهما مكر أعداء الإسلام، مهما أرادوا تشويه هذا الإسلام، مهما كادوا له، مهما شوهوا معالمه، هذا الدين دين الله، والله عز وجل يتولى حفظه.

جد النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء أبرهة سأل عن إبله، فقيل له: أتسأل عن إبلك وجاء أبرهة ليهدم الكعبة؟ قال: إن للبيت رباً يحميه، أنا رب هذه الإبل، إن للبيت رباً يحميه، وأنا أؤكد لكم والله إن هذا الدين دين الله، لا تقلق عليه أبداً، الله عز وجل قادر على أن ينصره على أعدائه، هذا شيء ثابت، إياكم أن تقلقوا.

والله أيها الأخوة، كنت في سفر، وقيل عن مؤامرات العالم الغربي الشيء الذي لا يكاد يصدق، وكل واحد أدلى بدلوه، حتى وجدت أن الناس لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم لهول المؤامرات، الله عز وجل:

(َقدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

[سورة إبراهيم: 46]

قلت لهم: إن تروا قوة طاغية متغطرسة متعالية مجرمة تفعل ما تريد، وتقصف، وتدمر، وتقتل، وتكذب، وتكون أول دولة إرهابية في العالم، إرهاب دولة، إرهاب منظم، إرهاب أسلحة، هذه القوة الطاغية إن أرادت أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب، وأن تبني حياتها على موت الشعوب، وأن تبني أمنها على قلق الشعوب، وأن تبني عزها على ذل الشعوب ـ دققوا الآن ـ أن تنجح خططها على المدى البعيد، هذا لا يتناقض مع عدل الله فحسب، بل يتناقض مع وجوده، لا يتناقض نجاح خططها على المدى البعيد مع عدل الله، بل يتناقض مع وجوده، لكن نية الكافر شر من عمله، مهما رأيت من إجرامه يتمنى أن يفعل فوق هذا، لكن الله لهم في المرصاد، يجب أن يكون اعتمادنا على الله قوياً، هذا الدين دينه، ولكن ينبغي أن نقلق ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن ننصر دينه.

الفرق بين المعصية والعدوان :

قال تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

المخالفة الداخلية اسمها معصية، أما التي تنتهي بعدوان على الآخرين اسمها عدوان، هم فيما بينهم وبين أنفسهم عصوا، وفي علاقتهم بالآخرين اعتدوا:

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ*كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

إنسان يقتل تقوم الدنيا ولا تقعد، رؤساء الدول يصرحون، ومئة إنسان يقتل بقصف، بقصف فيه خطأ لا أحد ينطق بكلمة، أرأيت إلى هذا الصنف المؤذي، كأن الإنسان المسلم بلا ثمن، فلذلك:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

* * *

من يوالي جهة ليبطل الحق ويغير معالمه هذا لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل

مرة قصفوا مكاناً فيه عرس فقتلوا أربعين منهم، مرة أربعة وعشرين، مرة مئة وخمسة وعشرين، ولا أحد ينطق، ولا أحد يستنكر، ولا إنسان يقوم في بلد يندد، أبداً، صمت عالمي مطبق، لأن الميت مسلم ولا قيمة له، أما حين يموت إنسان، وقد يكون قتله خطأ كبيراً، لكن الدنيا تقوم ولا تقعد، تصريحات، وتنديدات، واستنكارات:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ*تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

هذا الذي يتولى أهل البغي والعدوان، يواليهم، يقدم لهم المعلومات والمشورة كي يعتدوا على بقية الشعوب، أقول لكم هذه الكلمة: الإنسان إذا لم يكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، وإضلالهم، وإذلالهم، وإفسادهم فهو في عيشة راضية، إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة، لكن هؤلاء الذين يقدمون الخطط والمؤامرات كي يفتكوا بالمسلمين:

(لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة المائدة: 63]

الآن يقومون بعمل يموت فيه مئات الأشخاص، والذي صنعه ليس المسلمون، لكنهم بخطط ماكرة ذكية يصنعون عملاً يخرج الناس من جلدهم، وينسب إلى المسلمين.

أيها الأخوة، اليهود كانوا خصوماً ألداء للسيد المسيح، هل استطاع أن يوقع بهم الضرر أو أن يقمعهم؟ لم يستطع، والحواريون كانوا أنصاره، هل استطاع أن ينفعهم؟ فكيف يكون إلهاً؟ ومن كان يدير الكون قبله؟ شيء واضح كالشمس.

أيها الأخوة:

(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

الإنسان يوالي جهة ليبطل الحق، وليغير معالمه هذا لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (36 - 49) : تفسير الآيات 78 - 85 ، صراع الحق والباطل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل أراد في هذه الآية أن يخفف عن النبي حزنه من تكذيب قومه له :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الثامنة والسبعين، وهي قوله تعالى:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

الله عز وجل أراد في هذه الآية أن يخفف عن النبي عليه الصلاة والسلام حزنه من تكذيب قومه له، فالأنبياء السابقون أيضاً كذبوا، وعورضوا، واستهزئ بهم، واتهموا من خلال الأقوام الذين أرسلوا إليهم ظلماً وبهتاناً، وصبروا، فهؤلاء الذين كفروا كما يقول الله عز وجل عنهم:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

سيدنا داود كُذِّبَ، وسيدنا عيسى كُذِّبَ، فإذا كُذِّبْت يا محمد فهذا شأن معركة الحق والباطل.

كان من الممكن أن يكون الكفار في مكان من الأرض والمؤمنون في مكان، ولكن شاءت حكمة الله أن يكونوا جميعاً، وأن تكون بينهم معركة أزلية أبدية، فالمؤمن الصادق يوطن نفسه على أن هناك معركة الحق والباطل، هذه من آدم إلى يوم القيامة، ولولا ذاك الامتحان وذاك الابتلاء، ولولا هؤلاء الذين يقفون في وجه الحق ويعيقون تقدمه، ولولا إصرار المؤمنين، وتشبثهم بالحق، وسعيهم إلى نيل رضوان الله عز وجل لما كانت جنة ولا نار.

صراع الحق والباطل من سنن الله عز وجل :

صراع الحق والباطل من سنن الله عز وجل:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

أي هؤلاء الذين عاصروا سيدنا داود لعنهم الله عز وجل لأنهم كذبوه، وهؤلاء الذين عاصروا سيدنا عيسى بن مريم أيضاً لعنهم الله عز وجل لأنهم كذبوه:

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

دقق في هذا الملمح الرائع، الإنسان متى يكذب بالحق؟ حينما يعصي الله عز وجل، ويحقق مصالحه عن طريق العدوان، لذلك هو يرفض الحق، فالذي يعصي ويعتدي المعصية فيما بينه وبين الله، والعدوان فيما بينه وبين الناس، فالذي ينطلق من معصية أو عدوان لا يمكن أن يصدق أهل الحق، لأنه إذا صدقهم اختل توازنه، هو حينما يكذبهم يحقق توازناً موهوماً، أما إذا صدقهم كشف على حقيقته. لذلك الإنسان المنحرف لا يحلو له شيء إلا أن يكذب أهل الحق، أو أن يطعن بهم، أو أن يشكك في نواياهم، لأنه في هذا يحقق توازناً مريحاً.

الطالب الكسول يرتاح إذا كان معظم الطلاب كسالى مثله، أما الطالب المجتهد فلا يضيره أن في الصف مجتهدين.

إذاً التكذيب سببه أن هؤلاء الذين كفروا، حينما كفروا، وحينما عصوا، وحينما اعتدوا اختل توازنه، أحد أسباب إعادة التوازن أن يكذبوا الأنبياء والرسل.

بشكل مبسط: إنسان يأكل المال الحرام، أو يأكل الربا لو حضر درساً دينياً في موضوع الربا لا يرتاح لهذا الدرس، في عقله الباطن يقول: هذه مبالغات، هذا تزمت، هذا ضيق أفق، هذا الذي يلقي الدرس لا يعيش الواقع، لا يعيش العصر، متقوقع على ذاته، لماذا كل هذه الاتهامات؟ لو أنه صدق هذا الذي ينطق بالحق لكشف أمام نفسه، فمن أجل استعادة التوازن مع نفسه أسهل طريق أن يكذب هذا الذي يقول.

أحد أسباب التصديق الاستقامة والطهر وأحد أسباب التكذيب الانحراف والمعصية :

إذاً في الإنسان عقل باطن، العقل الباطن يعمل من دون وعي الإنسان، فأنت حينما تصدق، أنت حينما تزمع أن تشتري مركبة، يقول لك أحدهم: رفعُ نسبة الرسوم غير صحيح، دون أن يشعر يكذب هذا الخبر، لماذا يكذبه؟ لأنه بهذا الخبر لا يحقق هدفه من شراء مركبة، فأنت حينما تقبل أو حينما ترفض هناك عقل باطن يعمل دون أن تشعر. فالكافر الذي بنى حياته على المعصية فيما بينه وبين الله، وبنى حياته على العدوان على الناس بأخذ ما ليس له، بحكم فطرته التي فطر عليها، بحكم تطابق الفطرة مع المنهج يختل توازنه، كيف يستعيد هذا الاختلال؟ بأن يكذب بالحق، إنسان مستقيم حينما يدعى إلى الحق يستجيب لأنه في تناغم، في انسجام بين حاله وواقعه وبين هذه الدعوة.

إذاً أحد أسباب التصديق الاستقامة والطهر، أحد أسباب التكذيب الانحراف والمعصية، فأنت حينما تكذب دون أن تشعر معنى ذلك أن هناك خللاً في السلوك، وأنت حينما تكذب دون أن تشعر معنى ذلك

أن هناك عدواناً، لأن الآية الكريمة:

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى)

كذبوا أنبياءهم، كذبوا سيدنا داود، كذبوا بسيدنا عيسى، إذاً لعنوا على لسان هذين النبيين الكريمين، لماذا كذبوا؟

(ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

حالة ثانية: لو أن طالباً أبلغه أحد الطلاب أن الأستاذ يعطي الأسئلة، ولكن بثمن قبل الامتحان بأسبوع، فترك الدراسة كلياً، وحقق توازناً مريحاً، أن القضية سهلة، قبل الامتحان آخذ الأسئلة، وأجيب، وأنجح دون هذا الجهد الطويل طوال العام، فلو أن المدرس الذي توهم أنه يعطيه السؤال طرده، وعنفه، ماذا يفعل؟ يكيل له كل تهمة، المدرس مستقيم، هذا طموح مستحيل من قبل الطالب. فالإنسان حينما يكذب فعنده مشكلة، حينما يكذب الحق فعنده مشكلة، عنده خلل، عنده معصية، عنده عدوان، يحقق مصالح من طريق غير مشروع، لذلك لا يستجيب إلى الحق، إذاً كأن الله عز وجل يخفف عن النبي e أن هؤلاء الذين يكذبونه هؤلاء منتفعون بالباطل، هم حريصون على مصالحهم وعلى شهواتهم، هم لا يدافعون على باطلهم بل يدافعون عن شهواتهم.

المنتفع بالباطل لا يستجيب للحق :

قصة ذكرتها كثيراً، لكنها معبرة عن الحقيقة: إنسان يعمل في نقل الأحمال على دابة، ماتت هذه الدابة، بقي بلا دخل، دفنها في مكان، وأنشأ بناء متواضعاً، وزينه بالقبة الخضراء، وسماه باسم ولي من أولياء الله، فارتاد الناس هذا المقام ليتبركوا به، لجهلهم طبعاً، وقدموا له الهدايا الثمينة، وعاش في بحبوحة ما بعدها بحبوحة، هل من قوة في الأرض تستطيع أن تقنعه أن هذا المكان فيه دابة مدفونة مكان الولي، هو لا يقبل بذلك، مع أنه دفنها بنفسه، هو عن ماذا يدافع؟ يدافع عن دخله، عن مصالحه، عن شهواته، عن مكانته التي حققها من هذه الكذبة.

فالمنتفع بالباطل لا يستجيب للحق، فأنت حينما ترى إنساناً يكذب بالحق فعنده مشكلة كبيرة، عنده خلل، عنده معاصٍ، عنده عدوان، عنده مصالح يحافظ عليها، ويدافع من أجلها، أما الإنسان المستقيم الطاهر فاستجابته للحق عجيبة، يقول: هذا الحق، ورب الكعبة، فتفاوت الناس باستجابتهم للحق بسبب تفاوتهم في استقامتهم، تفاوت الناس في إقبالهم على الدين بسبب تفاوتهم في نظافتهم المادية، أو طهارتهم المعنوية.

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

هذه الباء باء السبب، أي بسبب معصيتهم، وبسبب عدوانهم كذبوا أنبياءهم، وكل إنسان يكذب بالحق ينتفع بالباطل، والإنسان الذي لا ينتفع بالباطل استجابته سريعة، مشكلته بسيطة، حاول أن تقنعه فقط، أما الذي ينتفع بالباطل مهما أقنعته لن يقتنع.

المجاملة وغض البصر عن الأخطاء وعدم التدقيق في كسب الأموال هذه سمة العصر :

هل هناك من معرفة أوثق من معرفة الأب لابنه؟ قال:

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

[سورة البقرة: 146]

ولكنهم إذا آمنوا به تعطلت مصالحهم، وفقدوا مكانتهم، وفقدوا سيطرتهم على الناس، لذلك كذبوا، كذبوا دفاعاً عن أهوائهم، وعن مصالحهم، لذلك المؤمن لا يحزن كثيراً إذا كذَّب أحدُهم أهل الحق، تكذيبه لأهل الحق يعني أنه منتفع بالباطل، وتكذيبه لأهل الحق يعني أنه يحقق مصالح كثيرة عن طريق باطله، وهؤلاء الذين كذبوا بالحق عصوا، وكانوا يعتدون، لهم صفة أخرى، اسمها الآن المجاملات.

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

اثنان يأكلان مالاً حراماً، يجامل أحدُهما الآخر، وهذا واضح جداً في المجتمعات الإسلامية المقصرة في تطبيق الشرع، يكيدون لبعضهم مديحاً لا يوصف، وكل واحد متلبس بآلاف المعاصي والآثام:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

الآن المجاملة، وغض البصر عن الأخطاء، وعدم التدقيق في كسب الأموال، هذه سمة العصر، هذه المجاملة تساوي تماماً من يسكت عن الحق، وإنه شيطان أخرس:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

الأمة الإسلامية عندما تكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفقد خيريتها :

أيها الأخوة الكرام، لو أن الأمة كفت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لفقدت الأمة الإسلامية خيرتها، لقوله تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

[سورة آل عمران: 110]

لو أحجمت هذه الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما الذي يحصل؟ فقدت خيرتها، وأصبحت أمة كأية أمة خلقها الله، لا يعبأ الله بها، لأن أمر الله هان عليها فهانت على الله عز وجل، وينطبق عليها عندئذ قوله تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة: 18]

هؤلاء الملايين المملينة من المسلمين مليار وثلاثمئة مليون، لأن أمر الله هان عندها هانت على الله، لذلك لا تتمتع بأية ميزة، هي أمة كهذه الأمم الشاردة عن الله عز وجل لأنهم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

المصارحة الصريحة لمنهج الله عز وجل لا أحد يذكرها، لا أحد يدقق فيها، لا أحد يعلق عليها، صفة أخرى، هذا الذي يكذب الرسل فضلاً عن أنه يعصي الله، يخرج عن منهج الله، وفضلاً عن أنه يعتدي على حقوق الآخرين، وفضلاً عن أنه يجامل، ولا ينهى أحداً عن منكر قال:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

الولاء والبراء من صفات المؤمنين :

أنت أيها الإنسان الذي تدّعي أنك مؤمن كيف تنسجم مع هذا الإنسان البعيد عن الدين، الذي لا يصلي، الذي يكذب، الذي ينافق، الذي يعتدي على أعراض الآخرين، الذي يشرب الخمر، كيف تنسجم معه؟ كيف تنشأ بينك وبينه علاقة متينة جداً؟ هذا الذي يتودد إلى الكفار هو منهم.

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

[سورة المائدة: 51]

من علامات أهل الإيمان ما يسميه العلماء بالبراء والولاء، ولاؤه للمؤمنين، ولو كانوا ضعفاء وفقراء، وبراءته من الكفار ولو كانوا أغنياء وأقوياء، بينما ضعيف الإيمان يوالي أهل الباطل، لأنهم أقوياء، أو لأنهم أغنياء، يحقق بولائه معهم مصالحه:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أي ألا ترى إنسان مسلماً يحقق مصالح كبيرة جداً من شركة أجنبية، فإذا جاءت زائرة إلى بلده قدم لها الخمر، وكانت علاقته معها متينة جداً، بسبب أنها تحقق له مصالحه، الولاء والبراء من صفات المؤمنين، من أولى صفات المؤمن أنه يوالي المؤمنين، ولو كانوا فقراء وضعفاء، وأنه يتبرأ من الكفار والمنحرفين، ولو كانوا أقوياء وأغنياء، ولاءه للحق لا للمال، لا للدنيا:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدح الفاسق أو الكافر :

إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، فكيف إذا مدح الكافر؟ فكيف إذا واليت الكافر؟ فكيف إذا أعنته على مسلم؟ ليس بعيداً عنكم أن بعض ضعاف النفوس يوالون أعداء المسلمين يقدمون لهم كل مساعدة من أجل أن يعتدوا على المسلمين، هذا شيء يعيشه المسلمون اليوم:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

هؤلاء الذين عقروا الناقة كم واحداً عقر الناقة؟ واحد، الله عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا* وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا)

[سورة الشمس:14-15]

قال:

(فَعَقَرُوهَا)

[سورة الشمس:14]

لأنهم أقروا جميعاً فعل هذا الذي عقرها، والإنسان حينما يوالي أهل الكفر، يوالي أعداء المسلمين، يعاونهم، يقدم لهم المشورة، الخبرة، الحقيقة، الفكرة، المعلومات، ليسهل لهم أن يعتدوا على المسلمين هذا بحكم من قتل مؤمن متعمداً.

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء:93]

السعيد هو الذي يمشي في طريق رضوان الله عز وجل :

قال تعالى:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ)

من هو السعيد؟ الذي مشى في طريق رضوان الله عز وجل، من هو أشقى أشقياء أهل الأرض؟ من تحرك في سخط الله عز وجل، المؤمن كما وصفه الله عز وجل في الحديث القدسي:

((... وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ _ أي لا يستمع إلا إلى الحق _ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ))

[البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

إذا رأى الأغنياء يقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، لا يرى الشيء إلا بحقيقته.

كمثل: لو دخلت إلى بيت فخم جداً، وعلمت أن صاحب هذا البيت تاجر مخدرات، وأن هذه الأموال الطائلة التي حصلها من تجارة المخدرات على حساب سلامة الشباب والشابات، هل تعجب بهذا البيت، بمساحته، بأذواق الأثاث فيه، بإطلالته؟ ينبغي أن تحتقره، وأن تحتقر صاحب البيت، لأنه بني على أنقاض الشباب، فأحياناً الشيء على الشبكية رائع، لكن بعد الإدراك يصبح شيئاً مقيتاً، هذا ما يقوله بعض الأدباء، العاطفة العميقة، والعاطفة السطحية، العاطفة السطحية أن تعجب بظاهر الأشياء، والعاطفة العميقة أن تعجب بحقائق الأشياء. إنسان دخله مشروع، ودخله محدود، مستقيم، ولا يكذب، ولا يعتدي، لو دخلت إلى بيت صغير، بأثاث متواضع، ينبغي أن تحترمه، أن تحترم استقامته وطهارته ونزاهته.

السبب الآخر لانحراف ضعيفي الإيمان وموالاتهم لأهل الكفر أنهم فاسقون :

قال تعالى:

(تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

سبب آخر لانحرافهم وموالاتهم لأهل الكفر أنهم فاسقون.

أيها الأخوة الكرام، لو أن هذه الأمراض يمكن أن تنتشر بين المسلمين لما ذكرتها، هذه الأمراض يمكن أن يقع بها المسلمون جميعاً، أو معظم المسلمين. ثم يقول الله عز وجل:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

على المسلم تصديق الله عز وجل لأنه هو الحق المبين :

الحقيقة الله عز وجل حينما يقول:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

ينبغي أن نصدق الله عز وجل، والمسلمون في حقبة سابقة حينما عظّموا وقدّروا وبجّلوا أعداء الله عز وجل، ثم كشف الأمر على حقيقته عرفوا أن الله هو الحق المبين:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

أي مهما تصورت أن هؤلاء يمكن أن تصطلح معهم، يمكن أن تعيش معهم في سلام، هم يريدون العدوان:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ)

هناك تعليق لطيف، هو أن اليهود حققوا مكاسب مادية كبيرة، لذلك هم حينما يكذبون النبي عليه الصلاة والسلام يدافعون عن مكاسبهم، وعن مصالحهم، وعن أموالهم، وعن مكانتهم، لذلك كما قلت قبل قليل: المنتفع بالباطل لا يمكن أن يستجيب للحق:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)

وإذا قال الله لك:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ)

[سورة النساء: 45]

إذاً لا مجال بحسب خالق الأكوان أن تتعايش مع هؤلاء، لأنهم لا يقبلون إلا أن يكونوا فوقنا، لا يقبلون إلا أن يكونوا هم المسيطرين.

الهجرة إلى الحبشة والحكمة منها :

قال تعالى:

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى)

وكأن هذه الآية تشير إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما تصاعدت موجات إيذاء المسلمين في مكة، وحينما بالغ الكفار بالتنكيل بالمسلمين، وبأصحابه الكرام، لم يجد النبي عليه الصلاة والسلام من مخلص لهذا التعذيب والتنكيل إلا أن يأمر أصحابه بالهجرة، وكان عليه الصلاة والسلام قائداً حكيماً، فاختار من بين كل البلاد التي تحيط بمكة الحبشة، لأنه علم أن على رأسها ملكاً لا يظلم عنده أتباعه، فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، بالفعل أصحابه الكرام هاجروا إلى الحبشة، حينما علمت قريش أن نفراً من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد أجمعوا الهجرة إلى الحبشة بذلوا كل ما يستطيعون ليحولوا بينهم وبين هجرتهم، ولكن أصحاب النبي عليهم رضوان الله تمكنوا من أن يصلوا إلى الحبشة، وأن يقيموا عند ملِكها، حينما علمت قريش أن الأصحاب الكرام وصلوا إلى الحبشة، وأقاموا في كنف ملك الحبشة، الذي لا يظلم عنده أحد، أرسلوا وفداً رفيع المستوى، منهم سيدنا عمرو بن العاص قبل أن يسلم، ومعهم هدايا ثمينة جداً إلى ملك الحبشة، وقابلوه، وقالوا له: إن هؤلاء خرجوا عن دين آبائهم

وأجدادهم، واعتنقوا ديناً لا نعرفه، فنرجو منك أن تردهم إلى قومهم، فهذا الملك استدعى هؤلاء الأصحاب، وأمرهم أن يتحدثوا عن هذا الدين، وقف سيدنا جعفر بن أبي طالب وقال:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ... فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ))

[أحمد عن أم سلمة]

كلام رائع جداً، الإسلام مجموعة قيم أخلاقية، النجاشي ـ رحمه الله تعالى ـ لأن النبي e صلى عليه صلاة الغائب، وحينما جاء وفد النجاشي لم يرض النبي إلا أن يخدمهم بنفسه، إكراماً للنجاشي الذي أحسن استقبال أصحاب النبي، وجعلهم آمنين في بلده، ثم جاؤوا بكيد آخر، وذكروا للنجاشي في اليوم التالي أن لهم قولاً لا ترضاه في المسيح بن مريم، فَقَالوا لَهُ:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيماً، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ ـ أي أم سلمة ـ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِناً فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ، قَالَتْ: فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَأَخَذَ مِنْهَا عُوداً، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُمْ))

[أحمد عن أم سلمة]

وأثنى عليه النبي.

الآيات التالية تشير إلى حادثة الهجرة إلى الحبشة :

في بعض كتب السيرة يعد النجاشي من التابعين، لم يلتق برسول الله لكنه آمن به، لذلك هذه الآيات تشير إلى هذه الحادثة:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

قسيسين جمع قس، ومعناه المتفرغ لمعرفة الإنجيل، من علماء الإنجيل، والرهبان العبَّاد، أي علماء وعبَّاد:

(ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

الإنسان المستقيم الذي لا يعصي الله عز وجل يتقبل الحق بسهولة ما بعدها سهولة:

(ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

الحقيقة أن هذه القصة قصة أصحاب رسول الله الذين هاجروا إلى الحبشة قصة جديرة أن نقرأ تفاصيلها، من هؤلاء الذين هاجروا بنت أبي سفيان مع زوجها، زوجها في الحبشة تنصر وارتد عن دينه، لو أن هذه المرأة التي رافقت زوجها، رافقته من أجل مصالحها لارتدت معه، لكنها بقيت مؤمنة متشبثة بإيمانها، وقد علم النبي بما جرى، فخطبها إكراماً لها، لأنها أصبحت امرأة لا معيل لها في بلاد الغربة، تنصَّر زوجها، وترك دينه، وانضم إلى الطرف الآخر، وبقيت هي بلا زوج، وأوكل النجاشي أن يعقد العقد عليها، كان وكيل النبي عليه الصلاة والسلام النجاشي في عقده على هذه المرأة التي تنصَّر زوجها وارتد عن دينه.

الدليل على أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها :

هناك حقيقة أن المرأة مستقلة في دينها عن زوجها، والدليل أن الله لحكمة بالغة جعل امرأة صديقة، آسيا امرأة فرعون، جعلها زوجة لأكبر طاغية في الأرض، فهذا الطاغية بكل قوته وجبروته وهيمنته لم يستطع أن يحمها على أن تعبده، بل قال الله عنها:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[سورة التحريم: 11]

أيّ امرأة، وهذا الكلام موجه إلى الأخوات المؤمنات، أيّ امرأة تعصي الله إرضاء لزوجها، وتقول: الذنب ذنبه، هو الذي طلب مني ذلك، هذا كلام مرفوض أشد الرفض، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

امرأة في بلاد الغربة يتخلى عنها زوجها، تصر على موقفها، وعلى إيمانها، وعلى استقامتها فيكافئها الله عز وجل بأن يجعلها زوجة رسول.

علامة استقامتك وعلامة نظافتك السلوكية أنك سريع الاستجابة لله عز وجل :

هؤلاء القسيسون والرهبان الذين عبدوا الله عز وجل، وأمضوا أوقاتهم في معرفة كلام الله عز وجل قال تعالى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

أي إذا سمعوا إلى القرآن، وأنا مرة ثالثة ورابعة ألح على هذه الحقيقة، أنت حينما تكون مستقيماً، وحينما تكون نظيفاً، وحينما لا تبني مجدك على أنقاض الآخرين ، وحينما لا تحقق مصالح عن طريق الكذب، وشهادة الزور، أنت حينما تدعو إلى الحق تستجيب له سريعاً، علامة استقامتك وعلامة نظافتك السلوكية أنك سريع الاستجابة لله عز وجل، هؤلاء النصارى:

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

هذه حقيقة مفادها أنك إذا كنت مستقيماً استجابتك للحق أكيدة ويقينية، أما إذا لم تستجب فثمة خلل كبير، إما في العقيدة، وإما في السلوك، وبكاء الإنسان دليل تأثره التأثر الكبير.

العبرة أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة :

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

أيها الأخوة الكرام، العبرة أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ))

[متفق عليه عن ابن مسعود]

وهذا الصدق الذي يتحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ليس صدق الأقوال، بل صدق الأفعال، أنت حينما تصدق في طلب الحقيقة تهدى إليه، وحينما تصدق في طلب الحقيقة ينشرح صدرك إليه، وحينما تصدق في طلب الحقيقة تعان على قبولها، وعلى الأخذ بها، فالله عز وجل يقول:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت:69]

فأي إنسان كائن من كان، والبشارة التي أقولها لكم:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال:23]

ما دمتم قد سمعتم الحق وهذا من فضل الله علينا جميعاً فهذه بشارة من الله أن فينا خيراً:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

[سورة الأنفال:23]

الإنسان حينما يكون صادقاً في طلب الحقيقة يتولى الله هدايته :

ما دام الله عز وجل أسمعنا الحق فهذه علامة طيبة على أن فينا الخير، فإذا قبلناه فهذا شيء أروع، فإذا استجبنا للحق، وعملنا به، أروع وأروع، ما دمنا قد سمعنا الحق فهذه بشارة، نسمع الحق ونقبله ثم نستجيب له، والحق يعرف بالقلب، لقوله تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

[سورة الأعراف: 179]

الحق يعرف، ودليل أن الحق يُعرَف أنّ الإنسان حينما يستمع إلى الحق يهفو قلبه إليه، ودليل آخر أنك حينما تكون صادقاً في طلب الحقيقة يتولى الله هدايتك، والآية الكريمة:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

[سورة النحل: 9]

حيثما تأتي كلمة (على) مع لفظ الجلالة أي إن الله ألزم نفسه بهداية طالب الحق، والآية فيها ملمح بلاغي، أي: وعلى الله سبيل القصد، وعلى الله أن يهديك إلى السبيل الذي تقصده، إلى طريق الهداية، وعلى الله، والآية الكريمة:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

[سورة الليل: 12]

أنت لا يطلب منك إلا أن تطلب الهدى، وعلى الله الباقي، لا يطلب منك إلا أن تكون صادقاً في طلب الحقيقة.

طريق الحق واضح كالشمس والدنيا كلها في خدمة المؤمن :

قال تعالى:

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

ما الذي يمنعك أن تكون مؤمناً؟ هل في الإيمان والإسلام حرمان؟ لا والله، ما الذي يمنعك أن تؤمن بهذا الخالق العظيم، والمربي الحكيم، والمسير في كل شيء؟ ما الذي يمنعك أن تكون طاهراً، زكي النفس، صادق اللسان، أميناً في التعامل؟ ما الذي يمنعك أن تكون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله؟ ما الذي يمنعك أن تمشي في رضوان الله؟ ما الذي يمنعك أن تكون محسناً؟ أن تكون منصفاً؟ أن تكون معطاء للآخرين؟ كل الوسائل تدعوك إلى هذا، الشيء المؤلم أن الناس تائهون، لكن طريق الحق واضح كالشمس، والدنيا كلها في خدمة المؤمن.

أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما صلحك،

((خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ، لي عليك فريضة ولك عليَّ رزق ، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك وعِزَّتي وجلالي إن لم ترض بما قسَمْتُهُ لك ، فلأسلطِنَّ عليك الدنيا تركضُ ركْضَ الوحش في البريّة ، ثمَّ لا ينالك منها إلا ما قسمْتُهُ لك منها ولا أبالي ، وكنتَ عندي مَذْموماً))

[ورد في الأثر]

أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

الخلق كلهم خُلِقوا ليسعدهم الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام، ما الذي يمنعك أن تحضر مجلس علم، تتعرف به إلى الله عز وجل، إلى سر وجودك وإلى غاية وجودك، ما الذي يمنعك أن تتعرف إلى هذا القرآن الكريم؟ ما لنا لا نؤمن بالله، ما الذي يمنعنا؟ سهرة، وليمة، لقاء، مطالعة قصة، ما الذي يمنعك؟

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)

الخلق كلهم خُلِقوا ليسعدهم الله عز وجل.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

حتى فرعون:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

[سورة طه: 43-44]

ما من إنسان خلقه الله إلا وهو مطلوب لرحمته، الله عز وجل ما خلق كافراً ليعذبه في جهنم إلى أبد الآبدين، خلق الناس ليكونوا مؤمنين، خلقهم ليكونوا مسلمين، خلقهم ليسعدوا في الدنيا والآخرة:

(وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

الذي يتبع هدى الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

لذلك أيها الأخوة، هذه الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، وهذه الدنيا لا يمكن أن تكون عطاءً لمخلوق ولا عقاباً لمخلوق، هذه الدنيا منقطعة بالموت، وعطاء الله لا يكون منقطعاً، هذا لا يسمى عطاء من الله عز وجل، أن نعطى الدنيا، يقول الإمام علي رضي الله عنه: " فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمد أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ". في الحديث القدسي عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:]فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [ ))

[متفق عليه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه الدنيا الفانية الزائلة المشحونة بالمتاعب.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

لكن الذين قالوا:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[سورة فصلت: 30-31]

فهذا الذي يتبع هدى الله عز وجل يقول الله عنه:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: 38]

لو جمعت الآيتين لكان الذي يتبع هدى الله عز وجل لا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ماذا بقي من سعادة الدنيا والآخرة؟!!

من يعبد الله عز وجل ينشئ الله له حقاً عليه ألا يعذبه :

أيها الأخوة الكرام، أنت حينما تعبد الله عز وجل ينشئ الله لك حقاً عليه ألا يعذبك.

((بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِي صلى الله عليه وسلم لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا أَخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))

[متفق عليه عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

معك حق على الله، ألا تعذب في الدنيا، إذاً يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء: 147]

ينتهي العلاج، تنتهي المتاعب، لأنك حققت الهدف الذي خلقت من أجله.

(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ* فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة النساء: 147]

أخوتنا الكرام، الزاهد هو أكبر طموح، هذا الذي زهد في دنيا تنتهي بالموت هو أكبر طموح، طمح بما عند الله من نعيم مقيم.

الناس رجلان برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيِّن على الله :

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

في النهاية الناس رجلان، بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيِّن على الله، والذي يؤكد هذا:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى* وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى* إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى* فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل: 1-10]

أنت حينما تصدق بالحسنى، وهي الجنة، تتقي أن تعصي الله، وتبني حياتك على دفع ثمن الجنة وهو العطاء، أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى، وأنت حينما تكذب بالحسنى، بالجنة، وتؤمن بالدنيا العاجلة تستغني عن طاعة الله، وتبني حياتك على الأخذ، صفات ثلاث كصفات ثلاث، الناس على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأديانهم، وأجناسهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، لا يزيدون على رجلين؛ أعطى واتقى وصدق بالحسنى، بخل واستغنى وكذب بالحسنى.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (37 - 49) : تفسير الآيات 87 - 88 ، حدود الله عز وجل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر التحليل والتحريم وأمر الوسع من شأن الله وحده :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السابعة والثمانين وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

أيها الأخوة الكرام، بادئ ذي بدء التحليل والتحريم من شأن الله وحده ولا يستطيع بشر كائن من كان أن يحلل ولا أن يحرم، لذلك كأن الله سبحانه وتعالى يقول يا أيها الإنسان إياك أن تحلل حراماً أو أن تحرم حلالاً، هذا ليس من شأنك ولكنه من شأن الله وحده. يضاف إلى هذا الاستطاعة أيضاً يحددها الله وحده، إذا قال الله عز وجل:

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)

[سورة البقرة: 286]

وسع النفس يحدده الله بالقرآن ويكلف نبيه صلى الله عليه وسلم بتحديده أيضاً من خلال السنة، فأمر التحليل والتحريم وأمر الوسع من شأن الله وحده، ولا يستطيع إنسان كائناً من كان أن يحلل أو أن يحرم.

الإنسان حينما يتدخل بتحريم ما أحل الله وهو الغلو، أو حينما يتدخل بتحليل ما حرم الله وهو التفريط، بتحريم ما أحله الله إفراط، وبتحليل ما حرمه الله التفريط، الإنسان حينما يتدخل فيحرم ما أحل الله، أو يحلل ما حرم الله يفسد الحياة، وقد يعزى الفساد التي تعاني منه البشرية اليوم أن الإنسان تدخل واعتدى فحرم ما أحله الله، أو حلل ما حرمه الله.

من حرم ما أحلّ الله وقع في الغلو :

أولاً: أيها الإنسان إياك ثم إياك ثم إياك أن تعتقد أن هذا الشيء الذي أحله الله حراماً، لا تعتمد على عقلك، ولا على فلسفتك، ولا على قول إنسان، لأنك لست خالقاً، ولست خبيراً، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

الجهة الوحيدة التي تحلل أو تحرم هي الجهة الخبيرة، ولا خبير كالخالق فالإنسان ينبغي ألا يعتقد أن هذا الشيء الحلال هو حرام، وكل الذين يحرمون ما أحله الله وقعوا في الغلو.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ)

[سورة المائدة: 77]

والذي يحرم ما أحله الله كأنه يزاود على الله، وكأنه يزاود على رسول الله، وهذه جرأة على الله ورسوله، وهذا تطاول أيضاً على الله وعلى رسوله، ينبغي ألا تعتقد أن هذا الشيء الحلال هو حرام، وينبغي ألا يتقول بلسانك أن هذا الشيء وإن كان حلالاً لكنني أحرمه، من أنت؟ يقولون هذا عندنا غير جائز، فمن أنتم حتى يكون لكم عندي؟ من أنتم؟ لا تعتقد أن هذا الحلال حرام من باب الغلو في الدين، ولا تقل لأحد أن هذا الشيء الذي أحله الله لست قانعاً به ويغلب على ظني أنه محرم، وهذا هو الانحراف في السلوك الديني، أن يعتدي الإنسان على حق الله في التحريم والتحليل، فيحرم أو يحلل. والذين يرأسون جماعات إسلامية وليسوا في المستوى الصحيح قد يحلون ما حرمه الله، أو يحللون ما حرم الله، يحلون ما حرمه الله أو يحرمون ما أحله الله فيقع الفساد في الأرض، والمسلمون أعطي أعداءهم مبررات لسحقهم وإبادتهم بسبب أن أناساً أحلوا ما حرم الله وأن أناساً حرموا ما أحل الله.

الله عز وجل يُعلمنا من خلال توجيه النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الإنسان لا تعتقد أن الشيء الذي أحله الله حراماً كما ولا تقل أن الشيء الذي أحله الله حراماً، إن لم تعتقد ولم تقل نقول لك: أنت لا تمتنع عن شيء أحله الله أنه حراماً.

بلغ إلى علمي أن بعضهم في بلاد أخرى يحرمون الزواج، ينبغي أن تكون منقطعاً لله عز وجل، هذا تحريم لما أحله الله، وهذا غلو في الدين، لا تعتقد، ولا تقول، ولا تمتنع، ولا تفتي للناس لأن هذا الشيء الذي أحله الله هو حرام، لأن التحريم والتحليل من شأن الله وحده، والله عز وجل خبير عليم بشؤون عباده.

الآن: ولا تنذر، من النذر أن تحرم حلالاً، ولا أن تحلل حراماً، لو قال أحدهم: نذرت ألا آكل الطعام، أنت ماذا فعلت؟ حرمت حلالاً، والله عز وجل يعلمنا من خلال توجيه النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ)

[سورة التحريم: 1]

في شأن غير الطعام، أي كأنها قاعدة لا تحرم ما أحله الله لك.

مرةً ثانية أن تحلل ما حرمه الله، أو أن تحرم ما أحله الله عدوان على حق الله الخبير في التحليل والتحريم، والعدوان كما تعلمون تجاوز الحد، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده.

حدك أن تطيع، حدك أن تعبد الله، حدك أن تأتمر بما أمر الله، وحدك أن تنتهي عما نهى الله عنه، وليس من حدك أن تشرع أمراً أو نهياً، أنت منفذ ولست مشرعاً، إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق، الذي أوتي جوامع الكلم، والذي أوتي الوحي والقرآن، والذي أوتي المعجزات، والذي بلغ سدرة المنتهى، يقول إنما أن متبع:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأنعام: 50]

أي أن شأن العبد أن يتبع، شأن العبد أن يطبق، شأن العبد أن ينصاع لله عز وجل، شأن العبد أن يخضع لله عز وجل، هذا شأننا، وشأن الله أن يشرع، وأن يقول الله عز وجل هذا حرام اجتنبوه، وهذا حلال اتبعوه.

الذي يمارس أولى خطوات الخطيئة لابدّ من أن يصل إلى نهاية الخطيئة :

أيها الأخوة، في آيتين دقيقتين الآية الأولى تقول:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

والآية الثانية:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

في المنهيات لا تقترب، في المباحات لا تتجاوز الحد الذي حده الله لك، في المنهيات لا تقترب لأن المعاصي التي نهى الله عنها بحسب الآيات الكريمة لها قوة جذب، لذلك لم ينهَ الله عن مباشرتها بل نهى عن الاقتراب منها، تماماً كما أنك قرأت على لوحة إلى جانب تيار عالي التوتر: ممنوع الاقتراب، لأن هذا التيار عالي التوتر فيه قوة جذب للإنسان فإذا دخل مسافة معينة جذبه التيار وجعله فحمة سوداء، فالتحذير يكون لا تقترب من التيار:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة: 229]

الذي لا يهرب من أسباب الخطيئة يقع فيها، والذي يمارس أولى خطوات الخطيئة لا بد من أن يصل إلى نهاية الخطيئة.

لابدّ من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المعصية :

الآيات الكريمة تقول:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

ليس في القرآن كله نهي عن الزنى، في نفي:

(وَلَا يَزْنُونَ)

[سورة الفرقان: 68]

لكن ما في نهي، في نهي عن مقدمات الزنى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

لذلك لا بد من أن تدع هامش أمانٍ بينك وبين المعصية، ما لم يكن هذا الهامش بينك وبين المعصية احتمال الوقوع بالمعصية احتمال كبير، تصور نهراً عميقاً جداً، مخيفاً جداً، خطراً، له شاطئ مائل زلق، وله شاطئ مستوي جاف، فأن تمشي على الشاطئ المستوي الجاف أنت في أمان، أما إذا مشيت على الشاطئ المائل الزلق أنت في خطر كبير؛ أن تزل قدمك وأن تقع في النهر وأن تغرق.

المسموح لا تعتدوه والممنوع لا تقربوه هذه حدود الله عز وجل :

أيها الأخوة، قوله تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

لو أنك خلطت مالك مع مال اليتيم فهناك احتمال كبير في أن تأكل ماله دون أن تشعر، لا تخلط مالك بمال اليتيم:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الأنعام: 152]

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء: 32]

بشكل عام:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة: 187]

أما حينما سمح الله لك بشيء لا تجاوزه إذا ما حرمه عليك، لو أن الله سبحانه وتعالى سمح لك أن تأكل شيئاً محرماً عند الضرورة لكن الضرورة تقدر بقدرها، فإذا كان يجزئك من أجل أن تحافظ على حياتك بلقمتين ينبغي ألا تأكل الثالثة، الذي سمح الله لك به ينبغي ألا تزيد عليه، المسموح لا تعتدوه، الممنوع لا تقربوه، هذه حدود الله عز وجل.

الحلال بيّن والحرام بيّن لكن المشكلة في المتشابهات التي بينهما :

أيها الأخوة، الحلال بيّن والحرام بيّن، وهذه من نعم الله علينا، أي لا أحد يسأل أنني إذا عملت عملاً حلالاً مشروعاً وكسبت مالاً حلالاً مشروعاً واشتريت به طعاماً أيجوز أن آكل هذا الطعام؟! طبعاً يجوز بديهة، فهذا حلال بيِّن، أما أن تأكل مالاً حراماً، أو أن تعتدي على عرض امرأة، أو أن تأخذ ما ليس لك، هذا حرام قطعاً، فالحلال بيّن والحرام بيّن، ولكن المشكلة لا في الحرام لأنه بيّن، ولا في الحلال لأنه بيّن، ولكن المشكلة في الأمور المتشابهة التي تشبه الحلال تارةً وتشبه الحرام تارةً أخرى، كيف؟

إنسان قال لك: هل تعينني على شراء هذا البيت؟ ثمن هذا البيت مليونان معي مليون واحد، فهل تعينني على شراء هذا البيت وأعطيك أجرة شهرية بحسب نسبة مالك في ثمن البيت، هذا قرض حسن، القرض الحسن مشروع، وأن تستأجر نصف بيت، وأن تؤجر نصف بيت، أيضاً هذا مشروع، لكن الذي عاونته بشراء البيت ضمن لك المليون بعد سنتين، وأعطاك على هذا المليون نصف أجرة البيت، البيت ثمنه مليونان، دفعت معه مليون، أولاً أجرة هذه لا شيء فيها، ثانياً المبلغ الذي دفعته له قرض، وإن سميته شراء جائز أيضاً، القرض بلا أجرة، والشراء يستوجب أجرة، فإذا أعددت هذا المليون شراء لنصف البيت لك أجرة، وإذا أعددت هذا المبلغ قرض ليس لك أجرة، والكلام واضح، لكن غاب عنك إذا ضمنت هذا المليون بعد سنتين، وقد تقاضيت عليه أجرة أنك وقعت في الحرام، لأن مبلغك مضمون، لا يكون التأجير حلالاً إلا إذا لم يضمن شريكك في البيت هذا المليون، بعد عامين يقيِّم البيت، فقد تهبط الأسعار وقد ترتفع الأسعار، فإذا قبلت أن تأخذ المليون سبعمئة ألف أو أكثر أو أقل فالأجرة حلال، الآن مشكلتنا في المتشابهات، أجرة أو قرض والقرض بلا أجر، والشراء يحتاج إلى أجرة، لكن لما جمعت الضمان مع الأجرة فهو الربا بعينه، طبعاً هذا مثل.

المشكلة في المتشابهات التي تشبه الحلال تارةً، والحرام تارةً أخرى، لذلك الحديث الشريف الصحيح:

((إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

ماذا تعني هذه الفرقة في الحديث؟

((لا يعلمهن كثير من الناس))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

معنى ذلك أن القليل من الناس يعلمون الحقيقة، لو سألت عالماً مدققاً متحققاً ورعاً أعطاك الجواب.

((وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه))

[متفق عليه عن النعمان بن البشير]

حينما تأتمر بما أمر الله وتنتهي عما نهى الله عنه لا تدمر نفسك :

أيها الأخوة، ماذا يعني أن يحرم الله عليك أو أن يحل لك؟ أي أنه أعطاك خبرة الخبير فأنت وفرت الوقت الطويل، والجهد الكبير، والتدمير الشامل، بالضبط، أنت أمام كرة معدنية مقطعة إلى مربعات ولها نتوء، أنت تقول يا ترى قنبلة هذه؟ لعلها قنبلة؟ أو لعلها كرة؟ أو لعلها جهاز؟ أو لعلها لعبة؟ لو أدرت أن تمتحن هذه القطعة بنفسك، وحركت هذا النتوء فإذا هي قنبلة تنفجر، هل لك من وقتك ما تنتفع بهذه الخبرة، جربت فدمرت، لكن لو قال لك خبير: هذه قنبلة إياك أن تنزع فتيلها، هذا الخبير أنقذ حياتك، طبعاً هذا المثل صارخ وحاد، ولكن أشياء كثيرة الإنسان يدمر بها لأنه جربها بنفسه ولم يسأل الخبير، والله عز وجل يقول:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

أشياء كثير تدمر الإنسان، وتنهي سلامته، وتحطم سعادته لأنه جربها بنفسه ولم يصغي إلى الخبير.

لو أنك بعت بيتك وقبضت ثمنه بعملة أجنبية، لو فرضنا أنه معك في هذا الجيب جهاز يكشف زيف العملة، ومعك بهذا الجيب نشرة تبين لك أرقام العملة المزورة، لم تستخدم هذا الجهاز في كشف العملة المزورة، ولم تستخدم هذه النشرة في الكشف عن العملة المزورة، الجهاز هو العقل، والنشرة هي الوحي، لم تستخدم لا هذا ولا ذاك، وقبضت هذا المبلغ ثم اكتشفت بعد فوات الأوان، وبعد أن سافرت إلى بلاد بعيدة، وبعد أن انقطعت الصلة مع البائع أن العملة كلها مزورة، فاللوم على من؟ عليك وحدك، معك جهاز ومعك نشرة، لم تستخدم لا الجهاز ولا النشرة، ولم تستعن بالخبير الذي أعطاك النشرة، ولم تستعن بالجهاز الذي يكشف لك الزيف، فضيعت هذا المال، ولم تنتفع به، هذا الأمر تماماً.

فيا أيها الأخوة، حينما تأتمر بما أمر الله، وتنتهي عما نهى الله عنه لا تدمر نفسك، كمثل صارخ: إنسان يركب مركبة، أشارت له امرأة فوقف، إلى أين يا أختي؟ قالت: خذني حيث تريد، فظنها مغنماً كبيراً،

ثم اكتشف أنه أصيب بمرض الإيدز، ما الذي حصل؟ إنك لم تصغ إلى كلام الخبير، لم تأتمر بما أمر، ولم تنتهِ عما نهى وزجر فدمرت نفسك، هذا مثل طبعاً، ويقاس على ذلك آلاف الحالات.

من الجهل أن تتوهم أن الذي أحله الله لك لا ينفعك فتحرمه على نفسك :

أيها الأخوة، الصحابة الكرام رأوا عظم مقام النبي عليه الصلاة والسلام فاجتهدوا أنهم كي يبلغوا مرتبة يرضى الله عنها ينبغي أن يمتنعوا عن الزواج، وبعضهم يمتنع عن تناول اللحم، وبعضهم يمتنع عن الإفطار فيصوم، بلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، فجمع أصحابه وخطب بهم وقال:

((أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))

[متفق عليه عن أنس]

لذلك لا تحرم ما أحل الله لك، لا تزاود على الله عز وجل، لا تعتقد أن هذا الذي أحله الله لك قد يؤذيك، لا يمكن أن يؤذيك شيء أحله الله لك، لأنه من عند الخبير. مثلاً الذين ابتدعوا الرهبانية قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد: 27]

هم كتبوها على أنفسهم من عند أنفسهم، ولم يكتبها الله عليهم، لأنهم كتبوها من عند أنفسهم ولم يعبؤوا بكلام الخبير.

(فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

[سورة الحديد: 27]

إذاً الشيء الذي أحله الله ينبغي أن تأخذه وأنت مطمئن، والذي حرمه الله عز وجل ينبغي أن تبتعد عنه وأنت مطمئن، أما أن تحلل أو تحرم، أما أن تتوهم أن الذي أحله الله لك لا ينفعك فتحرمه على نفسك هذا من الجهل الفاضح.

بالمناسبة: أنت حينما تحرم ما أحله الله لك ينبغي ألا تستعمل شيئاً من جهد إنسان أخذ ما أحله الله له، تمتنع عن أن تدرس من أجل أن يبقى لك صفاء، أما إذا أصابك مرض تذهب إلى الطبيب، تمتنع عن فعل شيء أحله الله لك، أما إذا ضاقت بك الدنيا تذهب إلى من بيده الدنيا، هذا موقف غير متوازن، موقف غير صحيح.

تحليل الحرام أو تحريم الحلال عدوان على حق الله في التحريم والتحليل :

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)

كأن الله سبحانه وتعالى يذكرنا أن اليهود حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم، فيا أيها المؤمنون لا تكونوا مثل هؤلاء الذين حرموا ما أحل الله لهم.

(وَلَا تَعْتَدُوا)

فكأن تحليل الحرام أو تحريم الحلال عدوان على حق الله في التحريم والتحليل:

(وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

((فرحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما]

ثم يقول الله عز وجل:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

أخوتنا الكرام، بكلمة:

(وَكُلُوا مِمَّا)

تفيد من للتبعيض، أي كلوا بعض ما أحل الله لكم من الطيبات، والباقي أطعموه لمن لا يستطيع شراء هذا الطعام، كل وأطعم، خذ حاجتك من هذه المادة، وما فضل منها أطعم به أخوك في الله، أي كل وأطعم، خذ وأعطي، لا تأخذ كل شيء ولا تأكل كل شيء، هذا معنى قوله تعالى:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ)

الرزق ما انتفعت به والكسب ما لم تنتفع به :

أول شيء الرزق أيها الأخوة ما تنتفع به، فالطعام الذي أكلته ظهراً هذا رزقك، والشراب الذي شربته هذا رزقك، والثوب الذي تلبسه هذا رزقك، والشهادة التي تحملها وقد وفقك الله إلى حملها هذا رزقك، والخبرة التي تملكها وتعيش بها هذا من رزقك، والمحبة التي أولاك الله إياها، ألقى محبتك في قلوب الخلق هذا أيضاً من رزق الله عز وجل، والمكانة العالية التي وهبك الله إياها هذا أيضاً من رزق الله عز وجل.

من أدق تعريفات الرزق: أن كل شيء تنتفع به، مادياً كان أو معنوياً، آتاك الله طلاقة لسان هذا من رزق الله عز وجل، آتاك الله حكمة هذا من رزق الله عز وجل، آتاك الله يقيناً، آتاك الله سكينة، آتاك الله

راحة، آتاك الله طمأنينة، آتاك الله رضاً، هذا أيضاً رزق، فكل شيء آتاك الله إياه فمن الرزق، مادياً كان أو معنوياً، الآن:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)

[سورة الواقعة: 82]

أي رزقك من الله أنك كذبت بهذا الدين، هذا رزق سلبي، إذاً الرزق ما انتفعت به، والكسب ما لم تنتفع به لكنك محاسب عليه، مثلاً معك مليون ليرة، أكلت طعاماً بمئة ليرة ثم غادرت الدنيا، رزقك هذه المئة ليرة التي أكلت بها، والباقي كسب تحاسب عليه، من أين اكتسبته وفيما أنفقته؟ بشكل أو بآخر ضربت هذا المثل مرات عديدة: تفاحة في بستان هي لك، هي رزقك، لك أن تأكلها ضيافة، ولك أن تأكلها هدية، ولك أن تأكلها شراء، ولك أن تتسولها، ولك أن تسرقها، ولك أن تغتصبها، وهي لك. فالرزق ما انتفعت به والكسب ما لم تنتفع به.

ما من مقياس لهذا الدين العظيم أروع من أنك لا تكون مستجاب الدعوة إلا إذا أكلت طيباً :

لكن الآية الكريمة:

(وَكُلُوا مِمَّا)

بمعنى إما كلوا بعض الرزق أو استبقوا من الرزق لمتابعة كسب هذا الرزق، أي عندك قمح، كُل بعض القمح وأبقي بعضه ليكون بذاراً لموسم قادم، أم عندك دقيق كُل كلّ الدقيق، الدَّقيق لا يتابع به الإنتاج بعد نفاذه. إذاً:

(وَكُلُوا مِمَّا)

إما لاستبقاء النوع أو لإطعام الغير، هذه كلمة من:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

لكن الآية هنا تضيق إلى ما بعد مفهوم الطعام، كل طعاماً حلالاً، ومعنى حلالاً أي كسبته بطريق حلال، ومعنى كسبته بطريق حلال أي ما كذبت، وما دلست، ولا غششت، ولا احتكرت، ولا استغليت، ولا أوهمت، ولا قللت، ولا أخفيت، ولم تستخدم حقك بتعسف:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

طيباً تطيب به نفسك، أي أيها الأخوة، ما من مقياس لهذا الدين العظيم أروع من أنك لا تكون مستجاب الدعوة إلا إذا أكلت طيباً، أكلت طيباً ليس معنى هذا أنك أكلت طعاماً طيباً، لكن معنى هذا أنك أكلت طعاماً حلالاً بجهد حقيقي من دون كذب، ولا تدليس، ولا احتكار، ولا انحراف، ولا مساومة، ولا إيهام، ولا غش، كل مخالفات البيع والشراء أنت منزه عنها.

الحلال يجب أن يكون حلالاً نوعاً وكسباً :

قال تعالى:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

حلالاً نوعاً وكسباً، أي لو أن إنساناً أكل شيئاً محرماً ما أكل حلالاً، لو أكل طعاماً حلالاً ولم يدفع ثمنه ما أكله حلالاً، فحلالاً نوعاً وحلالاً سلوكاً، هناك شيء محرم لذاته أن تأكل لحم خنزير، وشيء محرم لغيره أن تأكل لحم ضأن دون أن تدفع الثمن، هذا حرام وهذا حرام، الأول محرم لذاته، الثاني محرم لغيره، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً)

أي حلالاً في أصله، وحلالاً في طريقة كسبه، وطيباً تطيب به النفس لأنك بذلت جهداً، فلم تكذب، ولم تدلس، ولم تغش، ولم تفعل شيئاً حرمه الله عز وجل، وأنت فوق هذا مستجاب الدعوة، يقول العبد:

((يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أما كلمة (من) كما قلت أياستبقي جزء للزراعة أو استبقي جزء للفقير:

(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

أي أنت حينما تخضع لله عز وجل ليس في هذا الخضوع غضاضة، أنك تخضع لخالق السماوات والأرض، لكن قد تجد غضاضة حينما تخضع لمشابهك، أو لمثيلك، أو لندك، فأنت حينما تخضع لإنسان مثلك الذي يُخضَع له يشعر بالعزة والذي يَخضَع يشعر بالذل، لكنك إذا خضعت لرب العالمين هو شرف وسمو أن تخضع لله عز وجل وأهل التقوى وأهل المغفرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (38 - 49) : تفسير الآية 89 ، أنواع اليمين وكفارته.
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق في اللغة العربية بين أخذ وآخذ :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة والثمانين، وهي قوله تعالى:

(لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أيها الأخوة الكرام، في اللغة العربية أخذ وآخذ، أخذ يأخذ، وآخذ يؤاخذ، أخذ يأخذ هذه للكفار.

المؤمن يؤاخذ لأنه في عقد إيماني مع الله أما الكافر فعلاقته مع الله علاقة أخذ أي تدمير:

قال تعالى:

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ)

[سورة النحل: 46]

اللهم اهده، فإن لم تهده فخذه، الكافر ليس بينه وبين الله عقد إيماني، شرد عن الله ولم يؤمن لا بوجوده ولا بأسمائه الحسنى، ولم ينضبط بمنهجه، فالعلاقة بين الله عز وجل وبين هذا الذي كفر به علاقة أخذ، أي تدمير.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج:12]

إذاً أخذه أي نكل به أو قتله، لكن آخذه، بين المؤمن وبين الله عز وجل عقد إيماني.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة التحريم:8]

يا من آمنتم بي، آمنتم بوجودي، آمنتم بوحدانيتي، آمنتم بكمالي، آمنتم بأسمائي الحسنى وصفاتي الفضلى، أنتم مؤمنون، ومعكم منهج من رب العالمين، وفي هذا المنهج افعل ولا تفعل، ينبغي أن تأتمر بما أمر وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، فإن لم تأتمر بما أمر فهناك مؤاخذة، هناك عقوبة، لكن لا

عقوبة من دون جرم، ولا جرم من دون نص.

فالله عز وجل حينما أنزل هذا القرآن، وهو منهج كلي، وكلف النبي عليه الصلاة والسلام بشرح هذا المنهج وتفصيله، وقد أمرنا الله عز وجل أن نأخذ ما آتانا النبي، وننتهي عما عنه نهانا، إذاً إذا قصرنا في جانب، أو انتهكنا حرمة، أو قصرنا في واجب فهناك عقاب من الله عز وجل، وهذا معنى المؤاخذة، المؤمن يؤاخذ لأنه في عقد إيماني مع الله، المؤمن آمن بالله، وآمن برسوله، وآمن بكتابه، وآمن بسنة رسوله، ومعه منهج تفصيلي، فإذا خالف هذا المنهج لا بد من أن يؤاخذ.

إذاً المؤاخذة تقتضي أن الإنسان آمن بالله وعرف الحلال والحرام، فإذا زلت قدمه وفعل ما نهى الله عنه أو قصر فيما أمر به لا بد من أن يناله عقاب وهو في الحقيقة كفارة له.

البشر ثلاثة أصناف :

لذلك البشر أصناف ثلاثة:

1 ـ صنف عرف الله وائتمر بأمره وانتهى عما عنه نهى :

صنف عرف الله، وائتمر بأمره، وانتهى عما عنه نهى، هذا صنف تغطيه الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء: 147]

هذا الذي آمن، وشكر حقق الهدف من وجوده، عرف الله، وعرف منهجه، وأطاعه، وأقبل عليه، وأحسن إلى خلقه، لا ينتظره إلا الإكرام من الله عز وجل، لكن قد يمر بمرحلة تأديب قبل أن يستقيم تماماً، ثم يمر بمرحلة ابتلاء، فإذا تاب من تقصيره، ثم صمد في ابتلائه، بقي أمامه مرحلة الإكرام، لذلك يبين الله لنا هذه البشارة فيقول:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت: 30]

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن: 16-17]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف: 96]

هذا حال الذي عرف الله، وعرف منهجه، واستقام على أمره، وأقبل عليه، هذا صنف أول، هذا نجا من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة، طبعاً امتحنه الله فنجح، أدبه الله فتاب، ثم أكرمه الله عز وجل، وقد قال الله عز وجل:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

المؤمن حينما يصطلح مع الله لن يأتيه في المستقبل إلا الخير، هذه بشارة من خالق السماوات والأرض:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: 51]

2 ـ مؤمن في عقد إيماني مع الله لكنه أخلّ ببعض بنود العقد وهذا يخضع للمؤاخذة:

الصنف الثاني: مؤمن في عقد إيماني مع الله، لكنه مقصر فيما أمر، يتجاوز أحياناً ما نهي عنه، أخل بعض بنود العقد، هذا يخضع للمؤاخذة، وهذا حال المسلمين في العالم، مؤمنين بالله لا يرتكبون الكبائر، لكن يقعون في الصغائر، ويقعون في كلمة لا ترضي الله، وفي نظرة لا ترضي الله، وفي علاقة لا ترضي الله، يستحقون المؤاخذة، وهذا الذي يجري في العالم الإسلامي نوع من المؤاخذة من قبل الله عز وجل، رسالة ومؤاخذة، هذا الصنف فيه الخير، وعنده إيمان لكن معه تقصير، ومعه تجاوز فهو معرض للبلاء وللتأديب، وهذا يرد في القرآن الكريم تحت قوله تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة: 21]

3 ـ الصنف الثالث شرد عن الله شرود البعير لم يؤمن ولم يستقم :

الصنف الثالث: شرد عن الله شرود البعير، لم يؤمن، ولم يستقم، فالله عز وجل يقول في حقه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

شاب صحيح الجسم يأكل ما يشاء، وشاب سقيم الأمعاء والمعدة، عنده قائمة محظورات، والطبيب يشدد عليه أشد التشديد، أما الثالث فمعه ورم خبيث في أمعائه، يقول له الطبيب: كل ما شئت. الصنف الثالث: هم الذين شردوا عن الله شرود البعير، هؤلاء تأتيهم ضربة واحدة قاصمة تنهي وجودهم،

يعطيهم الله من المال والقوة والوسامة الشيء الكثير، لكن حينما يأتي الأجل ينتهي وجوده، وينقلب إلى عذاب أليم، لذلك قالوا: إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

لله عز وجل سياسة مع خلقه :

الذي أريد أن أنقله لكم أن الذي يؤاخذه الله عز وجل هو في نعمة كبرى، في أمل، عنده استعداد أن يكون مؤمناً طيباً، لذلك يؤاخذه الله عز وجل، يعالجه تارةً بهمٍّ نفسي، أو بمرض جسمي، أو نقص في ماله، أو نقص في أولاده، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوفِ وَالْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ*)

[سورة البقرة: 155-157]

يجب أن تعلم أيها الأخ أن لله عز وجل سياسة مع خلقه.

1 ـ المرحلة الأولى الهدى البياني :

الله عز وجل لطيف ورحيم، يبدأ مع عبده بما يسمى بالهدى البياني، تبيان، تستمع إلى خطبة، إلى درس، تقرأ كتاباً، تستمع إلى نصيحة، وأنت معافى، وأنت صحيح الجسم، وأنت آمن مستقر في بيتك وأولادك، يأتيك الحق على طبق من ذهب ما عليك إلا أن تستجيب والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال: 24]

2 ـ المرحلة الثانية التأديب التربوي :

إن لم تستجب أخضعك الله عز وجل لأسلوب أشد، الأسلوب الأشد التأديب التربوي،

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

في الدنيا،

(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)

في الآخرة،

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى: 30]

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران: 165]

هذا التأديب التربوي.

3 ـ المرحلة الثالثة الإكرام الاستدراجي :

إن لم يتب، في التأديب التربوي احتمال التوبة كبير جداً، لأن التأديب التربوي متعب، ومزعج، والخلاص في التوبة، فإن لم يتب أخضعه الله عز وجل بطريقة ثالثة هي الإكرام الاستدراجي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام:44]

يزداد قوة، ويزداد غنى، ويزداد سيطرة، أموره كلها ميسرة.

4 ـ المرحلة الرابعة مرحلة القصم :

الله عز وجل ينتظر منه أن يشكر، فإن لم يشكر قصم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

[سورة الأنعام:44]

لذلك أيها الأخوة، أن تؤاخذ من قبل الله عز وجل ببلاء، بنقص من الأموال والأنفس، والثمرات، لا سمح الله ولا قدر بمرض، بشدة، بتضييق، بتشديد، معنى ذلك أنك مطلوب إلى رحمة الله، معنى ذلك أن فيك بقية خير، أن الله ينتظرك، ينتظر أن تأتيه طائعاً، أن الله عز وجل شدد عليك، وضيق عليك من أجل أن تندفع إلى بابه، من أجل أن تصطلح معه، من أجل أن تسعد بقربه، فكلما ازداد علمك برحمة الله وحكمته تزداد فرحاً أن الله لم يجعلك خارج المعالجة، لكن الإنسان إذا أصر على ما هو فيه، أصر على معصية، أو انحراف، أو ترك واجباً، أو عبادةً، عندئذٍ تقتضي الحكمة أن يخرج من دائرة العناية الإلهية. ولي كلمة أرددها كثيراً: المسلمون اليوم في العناية المشددة، هذه الشدة تعني أنهم في العناية المشددة، وكلما تعمقت في معرفتك بالله عز وجل تشعر أن الله إذا تفقدك ببلاء، أو بمصيبة، أو ضيق عليك، أو دفعك إلى التوبة، أو حملك على أن تمرغ جبهتك في أعتابه، معنى ذلك أنه يحبك وينتظرك.

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف بالمقبلين

[ورد في الأثر]

يمين اللغو :

الله عز وجل يقول:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ)

هذا الكلام كله حول كلمة

(يُؤَاخِذُكُمْ)

إذا آخذك الله عز وجل غير إذا أخذك، هؤلاء الذين شردوا عن الله عز وجل ندعو عليهم فنقول: يا رب، خذهم أخذ عزيز مقتدر، أخذه أي دمره، أخذه أي نكل به، أخذه أي أنهاه، أما آخذه عالجه، آخذه عاقبه، آخذه لفت نظره. لذلك أيها الأخوة يقول الله عز وجل:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر: 37]

النذير؛ المصيبة، المصيبة لون من ألوان النذير:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

الإنسان أحياناً يتكلم كلاماً يجري على لسانه لكنه لم يمر على قلبه، فهذا الأعرابي الذي ركب ناقة، وأراد أن يقطع فيها المفازة (الصحراء)، جلس ليستريح من عناء السفر أخذته سنة من النوم، استيقظ فلم يجد الناقة، فأيقن أنه هالك لا محالة، فجلس يبكي، ثم يبكي، ثم يبكي، حتى أخذته سنة أخرى من النوم، فاستيقظ فرأى الناقة، فاختل توازنه فقال: يا ربي أنا ربك وأنت عبدي، هل قصد هذا الذي قاله؟ أبداً.

لذلك قال بعض العلماء: ما كل من وقع بالكفر وقع عليه الكفر، هذا كلام لغو، أي ملغي، أي أنه لم يمر على القلب، وقد تقول الأم في ساعة غضبها: والله لأذبحنك، ولا تحتمل أن تسيل قطرة دم من يد ابنها، هذا الكلام لم يمر على قلبها، هذا كلام لغو، أي ملغي، والإنسان أحياناً يقول لا والله، وأي والله، هذا كلام لغو الله عز وجل رحمنا، وتلطف بنا، فبلغنا أنه لا يؤاخذنا باللغو في أقوالنا. تفضل كل، والله لست بجائع، لم ينتبه، هو جائع، لكن ما أحب أن يكون متطفلاً، وجد الطعام لا يكفي، لم يدعَ إلى الطعام، والله لست جائعاً، نسي أنه قال: والله، أناس كثيرون يستخدمون اليمين وقد سماها العلماء يمين اللغو، أي لا يقصد معناها، ولم تمر هذه اليمين على قلب الإنسان جاءت على لسانه، في حياتنا كلام كثير لا نعنيه

إطلاقاً، ولا نقصده، ولا نقبله لو أريد منا أن نؤكده، أي هل تحتمل الأم إذا دعت على ابنها أن تقول لها: آمين؟! لا تحتمل، لأنها لا تقصد أن تدعو عليه، لكنه كلام لغو جرى على لسانها، فمن رحمة الله بنا أن هذا الكلام الذي يجري على ألسنتنا دون أن نقصده، ودون أن يمر على عقولنا وقلوبنا، ودون أن نعتمده هذا الكلام يطمئننا ربنا أننا معفون من أن نؤاخذ عليه:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

الله عز وجل تفضل علينا فجعل يمين اللغو معفاة من المؤاخذة :

الحقيقة هذه الآية أيها الأخوة سببها أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)

[سورة المائدة: 87]

لأن بعض الصحابة الكرام تقرباً إلى الواحد الديان حلف يميناً ألا يأكل اللحم ما دام حياً، تقشفاً، وزهداً، وتقرباً إلى الله، وصحابي آخر حلف بالله ألا يقرب النساء تقرباً إلى الله، وخضوعاً لمنهجه، لكن النبي عليه الصلاة والسلام جمعهم وقال:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قالوا: يا رسول الله، نحن عقدنا أيماناً، وحلفنا على ألا نأكل اللحم، وألا نقرب النساء، وألا ننام الليل، وأن نبقى في ذكر دائم، ماذا نفعل في هذه الأيمان التي حلفناها؟ فجاء جواب الله عز وجل:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)

هذه اليمين سماها العلماء يمين اللغو، أي الذي حلفها لا يقصدها، والذي حَلَفها حلفها دون أن يشهر ودون أن يقصد، إذاً الله عز وجل تفضل علينا فجعل هذه اليمين معفاة من المؤاخذة.

الشدة في الفعل الثلاثي تفيد المبالغة :

قال تعالى:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ)

ما معنى:

(عَقَّدْتُمْ)

أي وثّقتم،

وما الفرق بين عَقَّدْتُمُ وعقدتم؟ قال تعالى:

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)

[سورة يوسف: 23]

ما الفرق بين قوله تعالى:

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)

وبين أن نقول: وغلقت الأبواب، الباب مفتوح، غلقه أي رده، أما غلّقه أي قفله، أرتجه، فالشدة في الفعل الثلاثي تفيد المبالغة، ما الفرق بين قطع اللحم وقطّعه، قطع اللحم قطعتين، أما قطعه جعله آلاف القطع، ما الفرق بين كسّر وكسر؟ كسر الزجاج أصبح قطعتين، أما كسّره جاء بمطرقة وجعله آلاف القطع، غلق وغلّق، كسر وكسّر، وعقد وعقّد، يقول لك: والله، وتالله، وبالله، هذه يمين، هذه يمين منعقدة، مرت على قلب الإنسان وعقله، وقصدها، واعتمدها، وأرادها، ولم تكن لغواً ولا خطأ ولا نسياناً:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ)

أنت حينما تحلف وتقصد ما تقول، أحياناً الزوج يقول: إن حللك شيخ يحرمك عشرة، بالثلاث، مرة واحدة، هو قصد ذلك.

أنواع اليمين :

لذلك أيها الأخوة، من رحمة الله بنا أنه لا يؤاخذنا على الأيمان التي لا نقصدها، والذي يجري على لسان الناس، ولكن السلف الصالح كانوا يتصدقون بدينار ذهبي إذا حلفوا يميناً لغواً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

هذا اللسان مكنك الله به، ومنحك إياه، وعلمك البيان لا لتحلف كل دقيقة يميناً لغواً بل لتذكر الله به، لذلك التوجيه بآخر الآية:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

هناك يمين لغو لا نؤاخذ عليها، لكن الأولى ألا نحلفها، ويمين منعقدة نؤاخذ عليها، ولها أحكام تأتي بعد قليل، ويمين غموس تغمس صاحبها في النار ولا كفارة لهذه اليمين، لأنها تخرجه من ملة الإسلام، وعليه أن يعيد إسلامه، وأن يجدد إيمانه.

اليمين الغموس إن أراد بها الإنسان أن يقتطع حق امرئ مسلم غمسته في النار :

حدثني أخ كريم يعمل في المحاماة أن قضية بحجم كبير تقدر بمئات الملايين متنازع عليها، وبحسب القوانين النافذة لو أن المدعي جاء بشاهد لكانت الشهادة حاسمة، المبلغ كبير جداً، فجاء بشاهد زور، والشاهد الزور درب تدريباً دقيقاً على أن يدلي بشهادة كاذبة، لكنها في القانون مقبولة، ودخل إلى قاعة المحكمة، ووضع يده على القرآن الكريم، وأقسم بالله العظيم أن يقول الحق، وذكر شهادة الزور، يقسم لي هذا الأخ المحامي أنه كان واقفاً فأقسم بالله العظيم، وأدلى بالشهادة، فانتهى من قسمه فرفع يده وأبقاها مرفوعة، فقال له القاضي: اخفض يدك، لم يستجب له، فإذا هو ميت، بعد قليل وقع على الأرض، كان يمسك طرف الطاولة، توازن دقيق، فلما اختل توازنه وقع على الأرض.

لذلك اليمين الغموس إن أراد بها الإنسان أن يقتطع حق امرئ مسلم غمسته في النار، والآية الكريمة:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

جاءت الفاء للترتيب على التعقيب، وأحياناً الإنسان يحلف يميناً غموساً كاذبة يقتطع بها حق امرئ مسلم، وتمضي سنوات وسنوات دون أن يعاقب، هذا على ثم:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام: 11]

ثم للترتيب على التراخي، أما إذا فقد حياته فور حلف اليمين هذه على الفاء:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران: 137]

أمثلة تبين أن الله قد يبطش بهذا الذي حلف يميناً غموساً فوراً وإما أن يمهله :

الله عز وجل لحكمة يريدها إما أن يبطش بهذا الذي حلف يميناً غموساً فوراً وإما أن يمهله، وهذا المحامي بالذات حدثني في الجلسة نفسها بقصة أخرى قال لي: والله أحد الذين اتهموا بجريمة قتل، نطق القاضي بحكم الإعدام، الغريب أنه لم يتأثر، وبقي متماسكاً، إعدامه بعد يومين، قال لي: ما الذي دفعني إلى أن أشهد إعدامه؟ لا أدري، لكنني أردت أن أكون حاضراً، بعدما تلي عليه الحكم، ورفع إلى منصة المشنقة ليشنق قال: انتبهوا واستمعوا، أنا سوف أشنق، لكن هذا الذي اتهمت بقتله ما قتلته أبداً، ولكنني سأحدثكم لماذا وصلت إلى حبل المشنقة؟ قال: أنا قبل ثلاثين عاماً كنت رئيساً لمخفر في العهد الفرنسي، وجاءني ضابط فرنسي، ودفع إلي رجلاً من أجل أن أحتفظ به ليأتي بآخر فيعدما معاً، فقال: وضعته في إسطبل، وغلقت الباب، وغلّقت الأبواب، غير وغلّقت الأبواب، غلق الباب على هذا الأسير، وفي اليوم التالي جاء

الضابط بإنسان آخر ليعدما، في صبيحة اليوم فتح الإسطبل فلم يجد هذا الذي خبأه في هذا الإسطبل، فذهب إلى السوق، وأتى بأعرابي، وأركبه ناقة، وجره، ووضعه مكانه، وباع الجمل، ووضع ثمنه في جيبه، في اليوم التالي جاء الضابط بإنسان آخر أعدما معاً في الإسطبل رشاً بالرصاص، ومضى على هذه الحادثة ثلاثون عاماً، واتهم بجريمة قتل ما قتله بها، قال لي: والله سمعته بأذني يبين قبل أن يشنق لماذا حكم عليه بالإعدام في جريمة لم يرتكبها؟!!

لذلك أحد الذين يطوفون حول الكعبة كان يقول: رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل، وكان وراءه رجل من الصالحين، قال: يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله! قال: ذنبي كبير، قال: ما ذنبك؟ قال: والله كنت جندياً في قمع فتنة، فلما قمعت أبيحت لنا المدينة، وهذا شأن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، فإنّ:

(الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)

[سورة النمل: 34]

حكم اليمين المنعقدة :

ترون وتسمعون كل يوم ما يجري في العراق، وفي فلسطين، وماذا جرى في السجون؟!

والله حدثني أخ البارحة أن الاحتلال إذا دخل إلى بيت ببغداد يأخذ كل شيء ثمين، الذهب في البيت، وكل الهواتف الخلوية، وكل الكمبيوترات، والشيء الذي لا يحمله يكسره، ذكر لي تفاصيل يندى لها الجبين من هذا الاحتلال، فهذا الذي يقول: يا رب اغفر لي ذنبي، ولا أظنك تفعل، قال: يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله! قال: ذنبي كبير، قال: ما ذنبك؟ قال: كنت جندياً في قمع فتنة، فلما انتصرنا، وقمعنا الفتنة أبيحت لنا المدينة، فدخلت أحد البيوت، فرأت فيها رجلاً وامرأة وطفلين، فقتلت الرجل، وقتلت الولد الأول، فلما رأتني زوجته جاداً في قتل الثاني أعطتني كل ما تملك فأصررت على قتل الثاني، فقدمت لي درعاً مذهبة، مطلية بالذهب، فأخذتها، وتأملتها، فأعجبتني، فإذا عليها بيتان من الشعر، فلما قرأتهما وقعت مغشياً علي، كتب على هذه الدرع المذهبة:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي   الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل لقاضي   الأرض من قاضي السماء

* * *

فاليمين الغموس تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها، لأنها تخرجه من الملة، عليه أن يعيد إسلامه، لأنه بهذه اليمين يقتطع حق امرئ مسلم.

الآن أحياناً المدعي لا يملك الأدلة، لا يملك البينة، والمدعى عليه ينكر، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر))

[أخرجه الدارقطني عن عمر بن شعيب]

لم يبقَ بيد القاضي من دليل إلا أن يدعوه لحلف اليمين الحاسمة، وقيل للكذاب: أتحلف؟ يقول: جاء الفرج، يحلف، وإذا حلف واقتطع حق امرئ مسلم كانت هذه اليمين يمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، فهناك يمين لغو لا نؤاخذ عليها، ولكن الأكمل ألا نستخدمها، ويمين منعقدة، ما حكم اليمين المنعقدة؟

أولاً: من حلف على يمين فرأى الخير في خلافها فليفعل الخير، وليكفر عن اليمين، واحد بساعة غضب، قال: والله لن أزور أختي ما حييت، خير إن شاء الله، كفِّر عن يمينك وعد إلى زيارة أختك، لكن لو إنسان قال: والله لا أصلي، هذه اليمين لا تنعقد أصلاً، لأن الصلاة فرض، إن حلفت على أن لا تفعل فريضة لا تنعقد أصلاً، أما إن حلفت على شيءٍ لا يرضي الله فأمامك أن تكفر عن يمينك، وأن تفعل الذي يرضي الله.

الحنث في اليمين :

يقول الله عز وجل:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ)

أي وثقتم الأيمان:

(فَكَفَّارَتُهُ)

إن حلفت وفعلت الذي حلفت ألا تفعله ماذا يسمى هذا؟ الحنث في اليمين، إن حلفت ألا تزور أختك ثم زرتها، زيارتك لها حنث باليمين، هذه اليمين إذا حنثت بها تدفع كفارة، لكنك إذا دفعت كفارة قبل أن تحنث هذا يسمى تحلة.

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ)

[سورة التحريم: 2]

إن فعلت قبل أن تحلف فهي تحلة لليمين، أما إذا حلفت قبل أن تكفر فالذي تفعله بعد الحنث كفارة لليمين:

(وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ)

كفارة اليمين أنت مخير إما أن تطعم عشرة مساكين أو تكسوهم أو تحرر رقبة مؤمنة :

الإنسان أحياناً يأكل طعاماً غالياً جداً، وأحياناً يأكل طعاماً رخيصاً جداً، أما كفارة اليمين فأن تطعم عشرة مساكين وجبة أو وجبتين من أوسط ما تأكل، يمكن أن تأكل بخمسمئة ليرة، أو بخمسين ليرة،

الوسط مئتان وخمسون ليرة، وجبة أو وجبتان، إطعام عشرة مساكين، أو مسكيناً عشرة أيام، كلاهما جائز:

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ)

أن تكسوهم كساء يصلون به، أي يستر عورتهم:

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)

وبعض العلماء قاسوا على الرقبة المؤمنة في آية أخرى، أي إنسان عبد فقد حريته في حرب، ثم تاب إلى الله، وأسلم، وحسن إيمانه ينبغي أن يكون أخوك في الإسلام، ينبغي أن تحرره، فكفارة اليمين أنت مخير، إما أن تطعم عشرة مساكين، أو أن تكسوهم، أو أن تحرر رقبة مؤمنة، وبعضهم قال: أي رقبة:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

أي من لم يجد مالاً يزيد عن نفقته ونفقة عياله في يوم واحد، وبإمكانه أن يطعم بهذا المبلغ الزائد عشرة مساكين، أو أن يكسوهم، أو أن يحرر رقبة لا يقبل منه صيام ثلاثة أيام، الثلاثة على التخيير لقوله تعالى:

(فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ)

أو للتخيير:

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)

الله سبحانه وتعالى ينتظر منا أن نحفظ أيماننا :

قال تعالى:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

لم يجد مالاً لإطعام المساكين أو لكسوتهم، ومن لم يجد مالاً لتحرير رقبة:

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)

متتابعات إذا شئت، أو متفرقات:

(ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ)

لكن الله سبحانه وتعالى ينتظر منك أن تحفظ يمينك:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

أي مما يرفع مكانتك في المجتمع أن تقول كلاماً عادياً، الآن بعض الباعة بلا سبب، وبلا طلب، وبلا مناسبة، بالقرآن، بالكعبة، بدينه، بشرفه، بالأمانة، رسمالها أكثر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((اليمين الكاذبة منفقة للسلع ممحقة للبركة))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

اللسان من نعم الله الكبرى وشكر هذه النعمة أن يكون هذا اللسان ذاكراً لله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، من علامة نضج إيمانك أن تبتعد قدر ما تستطيع عن الحلف، تكلم بالحقيقة من دون أن تكون ضعيفاً، فتستعين بالحلف الذي لا يليق بك:

(ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

من ألطف ما قال العلماء في هذه الآية: إن هذا اللسان من نعم الله الكبرى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن: 1-4]

فشكر نعمة الكلام لا بالحلف، ولا باليمين اللغو، ولا المنعقدة، ولا الغموس، ولكن شكر هذه النعمة أن يكون هذا اللسان ذاكراً لله عز وجل، أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ:

((خَشْيَةِ الله في السِّرِّ والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي، وأعْفُوَ عَمَّنْ ظلَمَنِي، وأن يكون صَمْتي فِكْراً، ونُطْقِي ذِكْراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

لذلك أيها الأخوة، أتمنى عليكم وعلى نفسي أن ينقلب هذا الدرس إلى سلوك عملي أن نحفظ أيماننا، أما حينما تدعى إلى شهادة، وبهذه الشهادة يحق الحق ويبطل الباطل، ينبغي أن تشهد، وأن تقف، وأن تحلف اليمين، هذه طاعة لله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا)

[سورة البقرة: 282]

لا أن تحلف مطلقاً، أحياناً تشهد، وتحلف، وترقى عند الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (39 - 49) : تفسير الآية 90 ، الخمر - الميسر - القمار.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله عز وجل يأخذ أو يؤاخذ :

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس التاسع والثلاثين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التسعين، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

كما تكلمت سابقاً الآية التي يكون صدرها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي هذا عقد إيماني بينه وبين الله، وما دام قد آمن بالله موجوداً وواحداً وكاملاً، وخالقاً ورباً ومسيراً، وما دامت أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى، فهذا الأمر ينبغي أن يطبق بناءً على العقد الإيماني بينك وبين الله.

في درس سابق قلت: الله عز وجل يأخذ، أو يؤاخذ، يأخذ الكفار، لأنه ليس بينه وبينهم عقد إيماني، يبطش بهم بطشة واحدة، بينما المؤمن يؤاخذه على تقصيره في عمله، أو على تجاوزه لما حرم.

الحيوان غريزته وحدها تحكمه أما الإنسان فيتحرك وفق شهواته بشكل يؤذيه ويدمره

الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا)

لا بد من وقفة متأنية عند كلمة إنما، لأنه يبنى على هذه الأداة أحكام كثيرة، هذه أداة قصر وحصر، فإذا قلت: إنما زيد عالم، قصرت زيداً على العلم، أما إذا قلت: إنما العالم زيد، قصرت العلم على زيد، إما أن تقصر صفة على موصوف، أو موصوفاً على صفة، إنما تفيد الحصر والقصر، فإذا قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة الفرقان: 28]

أي العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل، فحيثما وردت كلمة إنما في القرآن الكريم، أو في سنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم ففي معناها الحصر والقصر، وفي معناها الدقة والانتباه:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

أيها الأخوة، لو تتبعنا أحوال الحيوان لوجدت أن الغرائز التي أودعها الله فيه تحكمه حكماً قطعياً، بمعنى أن الحيوان إذا أراد أن يأكل واكتفى لا يمكن أن يأكل لقمة زائدة مهما ضغط عليه، مهما جررته إلى العلف لا يأكل، مجهز بغرائز منضبطة، وتحكم صحته، وتحكم قوته، لو جررت دابة لتغوص في قناة أو في بركة تمتنع، هذا حديث طويل، الحيوان علاقته مع غرائزه منضبطة أشد الانضباط، لأن غريزته وحدها تحكمه، أما الإنسان يأكل أكثر مما يحتاج، وقد يغامر، وقد يتحرك وفق شهواته بشكل يؤذيه ويدمره، لأن العقل يحكمه.

انضباط الحيوان بغريزته بينما انضباط الإنسان بعقله :

كملخص، الغرائز في الحيوان تحكمه، لذلك قلما تجد حيواناً مريضاً إلا بحادث، لأنه يأكل وفق غريزة منضبطة، ويقارب أنثاه أيضاً وفق غريزة منضبطة، قرأت عن حيوان آخر لمجرد أن يشم أنثاه فيعلم أن حامل يبتعد عنها، الإنسان أحياناً يتجاوز الحدود التي وضعت له كثيراً، لذلك نقول بشكل مختصر: الحيوان تحكمه غريزة منضبطة تحقق له سلامته في الحياة، بينما الإنسان يحكمه عقله، والعقل كما يقولون مناط التكليف، تماماً كما لو وضعنا في جيب أحد منا جهاز لكشف العملة المزيفة، فالذي يحكم تعامله مع النقد هذا الجهاز، فإن استخدمه حقق الهدف، وإن لم يستخدمه وقبض مبلغاً كبيراً من عملة مزيفة دون أن يستخدم هذا الجهاز فقد ضيع بيته كله، باع بيته بعملة أجنبية، ولم يتحقق من سلامة النقد بالجهاز الذي في جيبه.

هذا تمهيد لفكرة خطيرة، ما دامت الغريزة تحكم الحيوان، وقد صممت تصميماً رائعاً بحيث أنها تقف عند حدود السلامة، وأن الحيوان ينضبط بغريزته أشد الانضباط فيحقق سلامته في الحياة، أما الإنسان يحكمه عقله، أما غرائزه مفتوحة يمكن أن يمارسها بشكل معقول، أو بشكل غير معقول، بالحدود التي ينبغي أن يقف عندها، أو يتجاوز الحدود التي لم يقف عندها، لكن العقل في الإنسان هو الذي يحكمه.

للتقريب: الإنسان يولد عارياً، لكن العقل الذي آتاه الله إياه ارتدى به أجمل الثياب، والإنسان بلا مأوى، لكن العقل الذي أكرمه الله به سكن في أفخر البيوت، هو يحتاج إلى مأوى، ويحتاج إلى ثياب، ويحتاج إلى طعام، فتفنن في أنواع الطعام، وتفنن في ألوان الثياب، وتفنن في أنواع البيوت، لكن الحيوان له مغارة يأوي إليها، وله صوف على جلده يحميه من البرد، فالحيوان مزود بحاجاته الأساسية من دون

إبداع، ومن دون تفوق، ومن دون ترف، ومن دون أي شيء آخر، أما الإنسان بهذا العقل ركب الطائرة، ونقل الصورة، ووصل إلى أعماق البحار، ووصل إلى أعالي الآفاق، بهذا العقل صنع أسلحة فتاكة، بهذا العقل تفنن في ألوان النعيم الذي اخترعها من أجل جسده.

إذاً الإنسان أكرمه الله بعقل، والحيوان أكرمه الله بغريزة، فانضباط الحيوان بغريزته، بينما انضباط الإنسان بعقله، غرائزه مفتوحة، يمكن أن يمارس شهواته فوق الحدود المعقولة، وأبعد من الحدود المعقولة.

شرب الخمر يضيع العقل الذي هو ضمان سلامة الإنسان :

ما علاقة هذا الكلام بقوله تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

العلاقة والمناسبة أن العقل هو مناط التكليف، وأن العقل هو الذي يحكم تصرفات الإنسان، وأن العقل هو الذي يضمن سلامته، فإذا شرب الخمر ضيع الأداة التي هي ضمان لسلامته.

حدثني أحد الأصدقاء أن إنساناً له مكانة كبيرة، بعد أن شرب تكلم كلاماً لا يصدر من طفل، فضح نفسه، وتحدث عن أسراره في ساعة الغيبوبة. فهذا الشراب الذي يذهب العقل، ويغيّبه عن الوعي محرم أشد التحريم، لأنه الأداة التي يمكن أن تكون ضمانة لسلامتك وسعادتك عطلتها، وتعلمون أن مقاصد الشريعة الحفاظ على الدين، والحفاظ على الحياة، والحفاظ على العرض، والحفاظ على العقل، والحفاظ على المال، ولكل مقصد كبير من مقاصد الشريعة حد ردعي إذا تجاوزه الإنسان، فحد الارتداد معروف، وحد القتل معروف، القتل يعاقب القاتل بالقتل، وحد شرب الخمر معروف، وحد انتهاك العرض معروف، وحد السرقة معروف، هذه المقاصد الخمس للشريعة، وكل مقصد من مقاصدها له حد رادع، إذاً العقل الذي هو مناط التكليف، والعقل الذي يمكن أن يتعرف إلى الله، والعقل الذي يريك الحق حقاً والباطل باطلاً، والخير خيراً والشر شراً، العقل الذي زودك الله به هو الميزان، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ* أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[سورة الرحمن: 7-8]

فالذي يعطل هذا الميزان، الذي يلغي عمل هذا الميزان، الذي يغيب هذا الميزان عن أن يكون حكماً في تصرفاته، هو الخمر، فلذلك الخمرة في الإسلام محرمة أشد التحريم، (إِنَّمَا الْخَمْرُ).

الحكمة من التدرج في تحريم الخمر :

أيها الأخوة:

((ما أسكر كثيره فقليله حرام))

[أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان عن جابر وأحمد والنسائي وابن ماجة عن ابن عمرو]

((ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام))

[رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنهما]

شراب يعطل أعظم جهاز زودك الله به، أفضل الفضائح تتم في حالة السكر، أكثر أنواع السقوط يتم في حالات السكر، والسكر كما ورد في بعض الآثار: " جمع الشر كله في بيت ثم أرتج عليه، فكان مفتاحه السكر".

وهناك مقولة لطيفة، هي أن إنساناً خُيِّر بين أن يقتل غلاماً، وبين أن يزني، وبين أن يشرب الخمر، فتصور أن أهون هذه الثلاثة شرب الخمر، فلما شرب الخمر زنا وقتل الغلام. جمع الشر كله في بيت ثم أرتج عليه، فكان مفتاحه السكر، فالله عز وجل كما تعلمون، لأن السكر والخمر كانت شائعة شيوعاً كبيراً في حياة العرب، وقبل الإسلام، وحكمة التشريع جاءت فتدرجت بالتحريم، فأول إشارة إلى أن هذا الشراب ليس شراباً مستحباً، قوله تعالى في هذا الموضع:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

إذاً السكر ليس رزقاً حسناً، هذه أول إشارة. ثم الإشارة الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

والآية الثالثة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

منهج الدين منهج موضوعي :

العالم الشرقي قبل أن يفكك بسنوات حرم الخمر تحريماً كلياً، مع أنه يرفع شعار لا إله، هؤلاء الذين رفعوا شعار لا إله، حرموا الخمر، وفي حيثيات التحريم كلام رائع، يذهب العقل، يبدد الطاقات، يقع الإنسان فيه في متاهات، وحرم الخمر، قبل انهيار الكتلة الشرقية بسنوات تحريماً قطعياً لا باحتفال، ولا بالطائرات، ولا بمائدة رسمية، لأن واقع السكارى الذي يخزي، والذي يدمر صاحبه كان باعثاً على هذا التحريم.

بالمناسبة أيها الأخوة، منهج الدين منهج موضوعي، بمعنى أن كافراً لو أخذ به لقطف ثماره، في الدنيا طبعاً، لو أن إنساناً ملحداً أخذ ببنود منهج الله عز وجل وطبقها لقطف ثمارها في الدنيا، لأن العلاقة بين الأمر ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة، وأن العلاقة بين النهي ونتائجه علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة، فالله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا)

أداة قصر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ)

أي قذارة، عمل قذر، عمل نجس، وكلمة قذر تعني قذارة مادية، وقذارة معنوية، الخيانة قذارة، لكنها معنوية، النفاق قذارة، لكنه معنوي، خيانة الأمانة قذارة، إخلاف الوعد قذارة، الكذب قذارة، وشرب الخمر قذارة، إما أن يكون القذر مادياً كالخمر، أو أن يكون معنوياً كالخيانة أو الاحتيال والكبر وما إلى ذلك.

الشيطان من أكبر فخاخه مع الإنسان قضية الميسر :

(إنما الخمر) ليست إلا قذارة حصراً، قصرنا الخمر على القذارة ليست إلا قذارة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ)

الميسر:

هي الداء الذي لا برء منه وليس لذنب صاحبها اغتفار
تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين منها سهاد وإفلاس فيأس فـــانتحار

* * *

قبل سنوات ورد في بعض الصحف أن إنساناً مسلما مقيماً في أمريكا دخل إلى دار قمار، وخسر كل ما يملكه من دون استثناء، مليونين ونصف مليون دولار، عاد إلى البيت، وأطلق النار على زوجته وعلى أولاده الخمسة ثم أطلق النار على نفسه، وقال: ليغفر الله لي.

لماذا حرم الله الميسر؟ لأنها تلغي العمل، الإنسان إذا لعب الميسر، وكسب مالاً وفيراً بجهد يسير يرى أن هذه طريقة رائعة جداً في كسب المال، بدقائق معدودة يكسب الملايين، هو يتوهم أن كسب المال بهذه الطريقة يسر، ومن هنا سميت الميسر، وليس عسراً، أما كسب المال الحلال ففيه مشقة كبيرة جداً، وتعب، وسفر، وتحصيل ديون، ومشكلات، ومتاعب لا تنتهي، أما القمار فيما يتوهمه المقامرون قضية

سهلة جداً، فلذلك الشيطان من أكبر فخاخه مع الإنسان قضية الميسر. وقد حدثني أخ كريم أنه ما من بقالية في بلاد الغرب إلا وفيها آلة ميسر، وذكر بعض أصحاب البقاليات أن إنساناً جاء ليشتري حليباً لأولاده فلعب الميسر، فخسر كل ما معه من نقود، فعاد بلا حليب إلى البيت.

يتوهم المقامر أن لعب المسير يوفر له دخلاً كبيراً بلا جهد، وبلا تعب، وبلا مشقة، لكن هذا الذي يربحه فخ كبير، ثم يخسر، يتابع لعله يعوض خسارته، ثم يخسر إلى أن يدمر، إلى أن يخسر كل شيء، وفي أغلب الأحيان ينتحر المقامرون، لأنهم فقدوا كل شيء، ودور القمار في العالم الغربي واسعة الانتشار، ولأنها أحد أحابيل الشيطان.

كل كسب للمال أساسه أن تبنى مصلحة على مفسدة أو منفعة على مضرة فهو محرم :

القمار يلغي العمل، أراد الله أن يكون العمل طريقاً لكسب المال، لذلك حرم الربا، المال يلد المال، وحرم الميسر الحظ يلد المال، وأمر بالعمل، لأن العمل يؤكد قدراتك، العمل فيه تنافس شريف، العمل فيه إبداع، العمل فيه تقديم خدمات للأمة، العمل فيه بناء الأمة، فأي كسب للمال عن طريق غير طريق العمل، عدا طبعاً الإرث والهبة، حرمه الشرع، فكل كسب للمال أساسه أن تبنى مصلحة على مفسدة، أو منفعة على مضرة فهو محرم، ما هو العمل المشروع؟ بل ما هو الكسب المشروع؟ هو الطريق الذي يأتي بالمال من دون أن يؤذي أحداً بهذا الكسب.

الآن السرقة كسب، لماذا هي محرمة؟ لأن واحداً انتفع بمبلغ كبير سرقه، والثاني هذا المبلغ جهده الكبير الذي حصله في سنوات طويلة، جاء من يأخذه ظلماً وعدواناً، بنيت منفعة للسارق على مضرة للمسروق، إذاً هو محرم، اليانصيب محرم، لماذا؟ لأن الآلاف دفعوا، وواحد الذي أخذ، واحد دفع وما أخذ وواحد دفع شيئاً يسيراً وأخذ شيئاً كثيراً، بلا جهد، وبلا تعب، وبلا إبداع، وبلا تفوق، فأية منفعة تبنى على مضرة، وأي كسب يبنى على محق، وأي كسب لمال حلال اغتصاباً أو احتيالاً أو سرقة أو نهباً محرم، لأن منفعة بنيت على مضرة.

أما لماذا أحل الله البيع؟ أنت فتحت محل، واشتريت مواد أساسية في الحياة، والجيران، جيران هذا المحل وجدوا حاجاتهم إلى جانب بيوتهم، فأنت اشتريت بسعر، وبعت بسعر الفرق هو الربح الذي لك، وهذا الجار بدل أن يركب المركبات، ويتوجه إلى مركز المدينة اشترى حاجاته من جانب بيته، هو انتفع وأنت انتفعت. بالمضاربة، لماذا المضاربة مشروعة؟ إنسان يملك مالاً ولا يحسن استثماره، وإنسان عنده خبرة يحسن استثمارها ولا يملك المال، فالطرفان قد انتفعا.

لو سألتني: هل يمكن أن نجمع أنواع الكسب المشروع في محور واحد، وأنواع الكسب غير المشروع في محور واحد؟ الجواب: ممكن، أي كسب يبنى على مضرة للآخرين فهو محرم، وأي منفعة متبادلة بين شخصين هو المحلل، فالكسب الحلال منافع متبادلة، والكسب الحرام منفعة بنيت على مضرة. لذلك الميسر: إنسان أخذ ملايين وما بذل جهد، إما لحظ، أو لاحتيال، المتمرسون بالقمار عندهم أساليب لا يعرفها أحد، من هم الضحايا؟ المبتدئون بالقمار يدخلون ويخرجون وقد خسروا كل أموالهم، لذلك الخمر عطلت العقل فحرمت، والميسر عطلت الكسب المشروع فحرمت.

كل أنواع الغش كسب غير مشروع لأنه عدوان على الكسب المشروع :

الأمة أيها الأخوة، لا تبنى إلا على كسب مشروع، كيف؟ نحن بحاجة إلى أطباء وإلى مهندسين، وإلى مدرسين، وإلى عمال، وإلى تجار، وإلى أصحاب حرف، فكل إنسان يتقن حرفة، أو ينال شهادة، يقدم خدمة يأخذ مقابلها مال يعيش به، هو انتفع ونفع، إنسان درس الطب حوالي ثلاثين سنة، فتح عيادة، يأتي إنسان آخر ابنه مريض أخذه إلى الطبيب، الطبيب عالجه، وصف له دواء، شفي بهذا الدواء بعد أن أذن الله عز وجل، فالأب حقق هدفه بشفاء ابنه، والطبيب حقق دخل، هذه منفعة متبادلة، فالأمة لا تبنى إلا على العلم والخبرة وتبادل المنافع، بينما القمار كسب غير مشروع، لأنه عدوان على الكسب، وكل عدوان على الكسب، أو كل كسب في الكسب يعد حراماً، سماه الشرع أكل السحت.

إنسان زرع أرضاً خلال موسم زراعي، وبذل جهداً كبيراً، واشترى البذار، واشترى السماد، وعين موظفين، واعتنى بالنبات، وعشب النبات، وسمد النبات، وسقى النبات، ثم حصد النبات، ووضعه في عبوات مناسبة، وساقه لسوق البيع، ونال ثمنه، وجاء إنسان خطف منه محفظة النقود، ماذا فعل هذا السارق؟ أخذ جهد موسم زراعي بكامله، لماذا السرقة حرام؟ لأنها عدوان على الكسب، وسع هذا الأمر، أي عدوان على الكسب محرم، الإنسان قد يملك قدرة على الأذى، قد يكون في مكان حساس يملك قدرة على الأذى، فإذا استخدم قدرته على الأذى في ابتزاز أموال الناس، وأخذ كسبهم المشروع فهذا الدخل محرم أشد التحريم، ابقَ في الكليات، أي عدوان على الكسب المشروع حرام، أكل للسحت، أي إيهام، أو أي تدليس، أو أي تهديد، أو أي احتيال لتعتدي على كسب الآخرين المشروع هو كسب غير مشروع، طبعاً في المقدمة تأتي السرقة واضحة، والميسر واضح جداً، واليانصيب واضح، لكن في أساليب بالكسب غير مشروع لا تبدو واضحة تماماً.

أنت حينما تغير صفات البضاعة، وتوهم الآخرين أنها مصنوعة في بلاد معينة، وأنت تشتري قماشاً من دولة شرقية رخيصاً جداً، وتأتي بشريط ذهبي تستخدمه مع المكواة، صنع في فرنسا: (made in

France)، وتبيع هذا القماش لامرأة جاهلة على أنه مستورد من فرنسا، تأخذ أربع أمثاله، السعر الذي تأخذه لو علمت أنه من بلاد شرقية، أنت هنا لم تسرق، بعت قماش، لكن أوهمت هذا الشاري أن هذا القماش مصنوع بفرنسا، مع أنه مصنوع في بلاد أخرى، فكل أنواع الغش كسب غير مشروع، لأنه عدوان على الكسب المشروع، أنت حينما تبيع سلعة، وتوهم الشاري أنها ذات صفات معينة، حينما تبيع حلويات على أنه قد استخدم فيها الحليب كامل الدسم، وقد استخدمت حليباً مسحوقاً خالي الدسم مثلاً، وتوهم الناس على أنه حليب كامل الدسم، هذا كسب غير مشروع، لأنك سرقت من أموالهم، كل أنواع الغش سرقة لكن ليست واضحة، الغش، والتدليس، والاحتيال، والاحتكار، وتلقي الركبان، والتعتيم على عيوب الآلة حينما تبيعها، هذا كله كسب غير مشروع، فيه عدوان على الكسب في أخذ ما ليس لك بحق.

هناك طرق كثيرة جداً لكسب المال الغير مشروع :

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[الطبراني عن ابن عباس]

معنى أطب، إياكم أن تفهموا أطب أي كُل طعاماً طيباً، لا، بل أن يكون هذا الطعام قد اشتري بمال حلال، ومعنى مالاً حلالاً أي كسبته من طريق مشروع، مثلاً: لو أن إنساناً محامياً غير منضبط بقواعد الشرع، ولا يخاف الله عز وجل، وأوهم موكله أن قضيتك رابحة، رابحة مئة بالمئة، وهو يعلم علم اليقين أنها خاسرة مئة بالمئة، وأن كل اجتهادات محكمة النقض تخالف أحقية ربح هذه الدعوة، وأوهم الموكل، وبدأ يأخذ أتعابه منه هذا كسب غير مشروع، هذا ابتزاز لأموال الموكل. وأي تحليل يقوم به طبيب لا يحتاجه المريض إطلاقاً، ولكن فيه اتفاق بين الطبيب وبين المخبر مثلاً، هذا كسب غير مشروع. وأي شيء يفعله المهندس حينما يغش في البناء، ويقلل الحاجات الأساسية الهندسية لهذا البناء فهو كسب غير مشروع. وأي إيهام من المدرس للطالب أنه ضعيف جداً، ولن تنجح، يأتي بأسئلة فوق طاقة الطلاب، يأخذون أصفاراً، ثم يوهمهم أنه لا بد من دروس خصوصية، هذا كسب غير مشروع.

إياكم أن تظنوا أن صاحب الدين إنسان يصلي، صاحب الدين إنسان يصلي، وهو منضبط أشد الانضباط في تعامله مع الخلق، لا كذب، ولا تدليس، ولا مبالغة، ولا أيمان كاذبة، قال عليه الصلاة والسلام:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

لو دققنا في سلوكنا لماذا تخلى الله عنا؟ لأن الغش والتدليس والكذب والاحتيال وكسب المال الحرام، والعدوان على كسب الآخرين هذا شيء شائع بين المسلمين، طبعاً الشيء الصارخ الميسر، الشيء الصارخ السرقة، الشيء الصارخ اليانصيب، الشيء الصارخ الربا، لكن هناك أكثر من مليون طريق لكسب المال الغير مشروع.

حينما تلد الأعمال المشروعة المال يكون هذا المال حلالاً :

إنسان يعمل في بيع البيوت، فدخل بيتاً شمالي الاتجاه، والوقت ليل وظلام، فحتى يوهم الشاري أنه باتجاه القبلة صلى باتجاه الشمال، فأوهمه أنه باتجاه القبلة، وإذا كان البيت من خمسة طوابق يقف معه عند كل طابق دقائق حتى يرتاح، يحكي له قصة لا ينتبه، يصل إلى فوق مرتاحاً تماماً، مناظر جميلة، لم يصعد معه بشكل مستمر، مقطع، أوهمه أن البيت مريح جداً. فأي إيهام، أي تدليس، أي كذب نوع من الكسب الغير مشروع، أنا ذكرت الأشياء الصارخة، الواضحة، لكن هناك مليون طريق لكسب المال الغير المشروع، يفعله المسلمون وهم في حجاب عن الله عز وجل، ما لم تكن صادقاً، ما لم تكن ورعاً، ما لم تكسب المال، وقد وصل إليك بشكل حلال، بشكل يثني عليك الناس، ويقولون: بارك الله لك بهذه السلعة.

أحياناً تبيع جوارب في الشتاء من الصوف، في الصوف خيوط أساسها ألبسة بالية تعالج، ويؤخذ منها خيوط ضعيفة جداً، فهذا الجورب، تأخذ ثمن جورب خيوط صوفية متينة، وهي خيوط مستعملة سابقاً، لا يصمد على الاستعمال أكثر من أسبوعين، والمفروض الجورب يتحمل موسم شتاء بكامله مثلاً، هذا كسب غير مشروع.

أيها الأخوة، حينما تلد الأعمال المشروعة المال يكون هذا المال حلالاً، فإذا اشتريت به طعاماً يكون هذا الطعام طيباً، فإذا أكلت طيباً كنت مستجاب الدعوة، كلام جامع مانع، إذا عملت عملاً مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، وخدمت به المسلمين، ولم تكذب، ولم تغش، ولم تدلس، ولم تبالغ، ولم تحلف، ولم تقع في آلاف الأخطاء التي يقع فيها الباعة حينما يبتغون ربحاً وفيراً بجهد قليل، فإذا خدمت المسلمين بسلعة جيدة، وسعر معتدل، وكسبت مالاً، واشتريت به طعاماً كان هذا الطعام طيباً، فإذا كان الطعام طيباً كنت مستجاب الدعوة.

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

إذا قدر الإنسان أن يكسب مالاً مشروعاً، ويأكل به طعاماً فهو مستجاب الدعوة، طبعاً أنا توسعت في كسب المال غير المشروع، لأن كسب المال غير المشروع الصارخ يعلمه جميع المسلمين، لكن هناك ألوان وأنواع من الكسب غير المشروع محرمة، لأن فيها غشاً، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

بالمناسبة، كلمة ليس منا ينفي النبي عليه الصلاة والسلام انتماءه إلى الأمة، وهذا من أشد أنواع الوعيد.

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الأشياء المحرمة التي تفتك بالأمة، وتفتك بقدرات الأمة لأنها تودي بأصحابها إلى الهلاك.

أنواع الغش لا تعد ولا تحصى :

أيها الأخوة: الآن في غش بالكيل، إذا اشترى القماش يكيل، والقماش له خط منحن على المتر، وإذا باع القماش يشد القماش حتى يتمزق، يفرق، أحياناً تضع قطعة اللحم بقوة على الكفة ترجح، رجحت لا بوزنها بل بقوة اندفاعها، هذا غش أحياناً، أحياناً مروحة بالمحل، وأنت تبيع مادة غالية جداً، مواد غالية، المروحة مسلطة على الميزان، فإذا جاءت الحركة باتجاه الكفة وزن وقام، هذا أيضاً غش، قلت لكم: أنواع الغش لا تعد ولا تحصى.

حدثني أخ قال لي: والله من أربعين سنة أخذت زيتوناً لي إلى المعصرة، وأنا أريد أن يعصروا أمامي، وعصروا أمامه، ثم فوجئ أن هناك مستودع زيت نباتي مربوطاً بقعر حوض العصر، فيعصرهم نصف عصرة، ويفتح المفتاح فينزل كمية من الزيت النباتي بقدر ما عصر نصف عصرة، ويقول لك: أمام عيني، الغش قديم، والغش كسب غير مشروع، وأنت حينما تغش الناس تُحجب عن الله عز وجل، والله هو الرزاق، هو الرزاق ذو القوة المتين. فصلت في أساليب كثيرة جداً، والله الأمثلة لا تعد ولا تحصى، كل أنواع المصالح فيها غش، فهذا الذي يغش نفى النبي أن يكون منه:

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

يقول إنسان: هذا غير مسلم:

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

لو غششت مجوسياً لست من المسلمين، فما قولك إذا غششت مسلماً؟ تقول: فلان غشني، أما إذا غششت غير مسلم يقول: الإسلام غشني، والفرق كبير جداً بين أن يتهمك بالذات بأنك غشاش - لا سمح الله - وبين أن يتهم الإسلام كله بأنه دين غير صحيح، بأن أصحابه لا يطبقون أحكامه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

((من غش فليس منا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنهما]

((من غشنا فليس منا))

[أخرجه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (40 - 49) : تفسير الآيات 90 - 91 ، الأنصاب والأزلام.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-07-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك عقد إيماني بين المؤمن وبين ربه :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التسعين، والتي بعدها وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

ذكرت في الدرس الماضي أن عقداً إيمانياً بين المؤمن وبين ربه، يشير إليه قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

الله عز وجل بوجود عقد إيماني بينك وبين الله يؤاخذك، بينما الكافر لا عقد بينه وبين الله فيأخذه، وفرق كبير بين أن يأخذه الله، وبين أن يؤاخـذه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله، آمنتم بوجوده، بوحدانيته، بكماله، بأسمائه الحسنى، بحكمته، برحمته، بقدرته، بعدله، برأفته، بلطفه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

من بنود التشريع أن الشيء الذي يعطل العقل وهو مناط التكليف محرم أشد التحريم :

أيها الأخوة، لأن الحيوان تحكمه غريزته، وغريزته منضبطة أشد الانضباط بأمر تكويني، الغريزة عند الحيوان منضبطة بأمر تكويني من الله عز وجل، لا عقل له، ولا تكليف معه، لكن له غريزة منضبطة. الإنسان غرائزه مفتوحة، بإمكانه أن يتحرك من خلال غرائزه في كل الاتجاهات، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطاه عقلاً، وأنزل تشريعاً. بالضبط كجهاز لكشف العملة المزيفة، وفيه نشرة بأرقام العملات المزيفة، وأنت الآن تبيع بيتك الذي لا تملك سواه، وقبضت ثمنه عملة صعبة، معك جهاز

يكشف زيف هذه العملة أو عدم زيفها بالجهاز، أو اقرأ النشرة، انظر إلى أرقام العملات المزيفة، ودقق بينها وبين هذا الذي أمامك، فالإنسان إذا لم يستخدم الجهاز ولم يقرأ التعليمات هو الآثم، هو المخطئ، هو المتسبب بهذا الضرر الذي لحق به.

لذلك الله عز وجل أعطانا منهجاً، أعطانا عقلاً، فالشيء الذي يذهب عقلك، والعقل مناط التكليف، الحيوان ليس له عقل، والمادة ليس لها عقل، إذاً هي مسيرة، ومسيرة بغرائز الحيوان، والجماد بقوانين، والغرائز من أمر الله التكويني، من فعله، بينما الإنسان معه أمر تكليفي، حريته مطلقة، معه حرية كاملة، ومعه شهوات، يمكن أن يمارسها بكل دقيقة، لكن معه عقل، ومعه تشريع، فمن بنود هذا التشريع أن الشيء الذي يعطل عقلك، وهو مناط التكليف محرم أشد التحريم، هذه واحدة.

لكن أراد الله سبحانه وتعالى أن نكسب أرزاقنا ليكون كسب الرزق امتحاناً لنا، فأنت بوجود دافع إلى الطعام، ودافع إلى الجنس، ودافع إلى تأكيد الذات، لا بد من أن تتحرك، لا بد من أن تأكل، ولا بد من ثمن الطعام، ولا بد من عمل لكسب ثمن الطعام، ولا بد من عمل لكسب نفقات الزواج، ولا بد من عمل لتأكيد الذات، إذاً الله عز وجل زود الإنسان بدوافع إلى الطعام والشراب، وإلى الجنس، وإلى تأكيد الذات، هذه الدوافع من خلالها يمتحن الإنسان، يصدق أو يكذب، يخلص أو يخون، ينصف أو يجحد، لذلك مناط التكليف هو العقل، مناط الانضباط في الحيوان الغريزة، والغريزة منضبطة بأمر تكويني، مناط السلامة بالقوانين، والقوانين منضبطة بأمر إلهي.

الخمر محرمة أشد التحريم لأنها تلغي العقل :

لذلك ليس في الكون إلا الإنس والجن اللذيْن أعطيا حرية الاختيار، أعطي الإنسان عقلاً، الحيوان لم يعطَ عقلاً، لكن نبت له على جلده لحكمة أرادها الله صوف، أما الإنسان فولد عارياً، لكن ارتدى الثياب الفخمة الأنيقة الجميلة المنوعة العديدة، فبهذا العقل سبق الحيوان بملايين المرات في ثيابه، والحيوان يأوي إلى مغارة، الإنسان ليس عنده مغارة، لكن عنده عقل، بنى القصور والبيوت، هذا العقل الذي وهبه الله لنا أثمن شيء على الإطلاق، هو مناط التكليف، فلذلك الله عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ)

هذا الخمر يستر العقل، يلغي عمل العقل:

(وَالْمَيْسِرُ)

الخمر محرمة أشد التحريم، لأنه يلغي المقود، الآن إنسان يركب مركبة، لو تعطل المقود فالحادث حتمي، الطرقات كلها انعطافات، وجبال، ووديان سحيقة، وبحار على الطرف الثاني، السيارة تمشي

بسرعة في طرقات ملتفة ملتوية، عن يمينها جبل شاهق، وعن يسارها بحر عميق، لو تعطل المقود انتهى الإنسان.

الشيء الذي يعطل المقود مهلك للإنسان، والشيء الذي يعطل المكبح مهلك له أيضاً، المقود والمكبح، فالإنسان آله بالضبط، المحرك الشهوة، والمقود العقل، والمنهج الطريق، فما دام العقل مسيطراً على المحرك فعلامة سيطرته أنه أبقى المركبة على الطريق، ولو تعطل المقود لوقعت المركبة في الوادي أو في البحر، لو تعطل المحرك لوقفت المركبة، فالشهوة محرك، والعقل مقود، والمنهج هو الطريق، فالشيء الذي يعطل المقود مدمر، هو الخمر:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ)

الميسر يلغي التنافس الشريف في الأعمال :

تحدثت عن هذا في درس سابق بالتفصيل، لكن:

(وَالْمَيْسِرُ)

طريقة لكسب المال، أول شيء فيه وهم كبير أنك سوف تربح، وما من إنسان يقدم على الميسر "القمار " إلا ويتوهم أنه سيربح، وعملياً يخسر، ويربح، وقد يخسر أضعاف ما يربح، فلذلك طريقة لكسب المال غير مشروعة، لأنها تعطل السعي، تعطل الإبداع، تعطل التفوق، تعطل أن تظهر قدرات الإنسان في إنتاجه.

مثال: لماذا بيع العملة غير مستحب كثيراً، وله ضوابط كثيرة جداً؟ بيع العملة لا علاقة له بالخبرات إطلاقاً، قضية أسعار، ترتفع هذه العملة فيربح، تنخفض فيخسر، من دون سبب منه، كأنها قمار، الجانب غير مشروع منها طبعاً، لكن فيه شروط دقيقة جداً لو طبقت لأصبح بيع العملة حلالاً، لكن بشروط صعبة جداً، لكن بالنهاية هذه التجارة ليست مستحبة كثيراً، لأنها لا تعبر عن ذكاء الإنسان، ولا عن قدرته، ولا عن خبرته، ولا عن حنكته، ولا عن حكمته، إنما هو ارتفاع وانخفاض أسعار لا علاقة له إطلاقاً.

(وَالْمَيْسِرُ)

قمار كسب من دون جهد، من دون عمل، من دون مخاطرة، من دون مغامرة، من دون إتقان، من دون حرص على علاقته مع الناس، حركات، أشياء تدور، أو أشياء تلقى في أرقام، فرقم يربح، ورقم يخسر، والقمار أنواع منوعة لا تعد ولا تحصى، حتى إنه بلغني أنه ما من محل تجاري في بلاد الغرب إلا وفيه آلة قمار، فالقمار طريق لكسب المال يعطل الإبداع، يعطل العمل، يعطل التنافس الشريف،

يعطل ألف شيء للإنسان، إبداعه، قدرته، حلمه، صبره، جلده، إصراره، إتقانه، تصحيح أخطائه، كل هذا يعطل، قضية دولاب يدور كاليانصيب تماماً، يدور الدولاب، هذا الرقم ربح خمسين مليوناً، هذا الذي ربح المبلغ ماذا فعل؟ ما فعل شيئاً، ولا قدم شيئاً، ولا يعبر هذا المبلغ عن جهده، ولا عن إتقانه، ولا عن تفوقه، ولا، ولا أبداً، فالميسر طريق لكسب المال يعطل قدرات الإنسان، يعطل صبره، يعطل ذكاءه، يعطل خبرته، يعطل إتقانه، يعطل إبداعه، يعطل جانب الخير فيه، فلذلك كما أن الخمر تحجب العقل فكذلك الميسر يلغي التنافس الشريف في الأعمال.

الكسب المشروع أساسه منفعة متبادلة والكسب المحرم أساسه منفعة على مضرة :

نحن عندنا أصل، الأعمال يجب أن تلد المال، وحينما تلد الأعمال المال توزع الأرباح بين شريحة واسعة جداً، هذه قاعدة، افتح محل تجاري تحتاج إلى دفتر فواتير، وورق، ومعامل ورق، ومستوردي ورق، وطباعة، وآلة طابعة، ومطبعة، ولها مستودعات، ولها موظفون، ولها وسائل نقل، وسائل النقل تحتاج إلى قطع تبديل، المطبعة مئة إنسان، ألف إنسان يعيشون من خلال الطباعة، وتحتاج إلى مستودع، والمستودع يحتاج إلى بناء، وإلى مواد بناء، وإلى طلاء، وإلى كهرباء، وإلى تمديد صحي، كم حرفة عملت لبناء مستودع، وتحتاج إلى مكتب، تحتاج إلى سفر، شركات الطيران، وشركات النقل، وتحتاج إلى شحن بضاعة، دون أن تشعر، هذه المؤسسة المتواضعة قد يعيش منها آلاف الأشخاص بشكل غير مباشر، لذلك حينما تلد الأعمال المال تتوزع الأرباح وفق شريحة واسعة جداً، لذلك الكسب المشروع أساسه منفعة متبادلة، والكسب المحرم أساسه منفعة على مضرة، ينتفع إنسان ويضر بالآلاف، باليانصيب ينتفع الرابح بالقمار ويضر الخاسر، ينتفع السارق بالسرقة ويتأذى المسروق، أيّ منفعة بنيت على مضرة فهي كسب غير مشروع، وأي مال ولده المال فهو كسب غير مشروع، المال إذا ولد المال تجمعت الأموال في أيدي قليلة، وحرمت منها الكثرة الكثيرة، وعندئذٍ تنشأ البطالة، وتنشأ الجريمة، وتنشأ بيوت الدعارة، وكل انحرافات المجتمع أحد أسبابها التفاوت الطبقي الكبير، وأحد أسباب التفاوت الطبقي أن يلد المالُ المالَ.

أنت حينما تدخل إلى مصرف بناء حضاري، كمبيوترات، غرف استقبال، مكاتب تكييف، معاملة لطيفة، ابتسامة، لكن مجتمع بأكمله يمكن أن ينهار لو ولد المال المالَ عن طريق الربا، ليس هناك أعمال، بحث لطيف وطويل، الإنسان حينما يستطيع أن يأخذ فائدة على أمواله إذا أودعها في المصارف ثمانية في المئة أو أكثر لم يعد يقبل أن يطرح مبلغاً ضخماً في مشروع تجاري، أو صناعي، أو زراعي إلا بربح أربعين بالمئة، لأن العشرة مضمونة بيسر من دون جهد، وأنت ببيتك مرتاح، لست مسؤولاً،

لا بقرار خطر، لا بصفقة خاسرة، لا بعلاقة مع المالية، أو مع التموين، أو مع الجمارك، كل هذه المتاعب تلافيتها بإيداع مالك بالبنك، وتتقاضى الربح، فلما كان بالإمكان أن تربح من دون جهد صار طرح المبالغ بمشاريع لا يكون إلا بأرباح عالية، والأرباح العالية تعني أسعاراً مرتفعة، والسعر إذا ارتفع قلت الشريحة المنتفعة بهذا السلعة، الكرز بخمس ليرات، يشتريه باليوم في دمشق خمسمئة ألف، الكرز بمئة ليرة يشتريه خمسة آلاف، بمئتين ألفان، فالسعر كلما ارتفع تقل الشريحة المنتفعة بهذه السلعة، كلما انخفض تتسع الشريحة، لأن الربا يمنع استثمار الأموال في التجارة والصناعة والزراعة إلا بأرباح عالية، إذاً الربا يسهم في رفع الأسعار، الربا يسهم في البطالة، وأخطر مشكلة تعاني منها المجتمعات في العالم البطالة، ماذا يفعل إنسان ليس له عمل؟ إما أن يلجأ إلى الاحتيال، والسرقة، واغتصاب الأموال، بشكل أو بآخر، أو أن يلجأ إلى السفر، أو أن يلجأ إلى الحرمان والكآبة، وما إلى ذلك.

الذي يغيب العقل عن العمل شيء مهلك :

سيدنا عمر قال لأحد الولاة: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً. أردت من هذا الشرح أن الخمر تحجب العقل، والعقل مناط التكليف، معك شهوات مفتوحة ومعك حرية اختيار، من هو الضابط؟ العقل، فالذي يغيب العقل عن العمل شيء مهلك:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ)

الآن أنت عندك قدرات، عندك إبداع، عندك طاقة، عندك وقت، عندك عضلات، يمكن أن تبدع، وتؤسس عملاً تتفوق فيه، تخدم الأمة، تصنع صناعة رائجة نستغني بها عن استيراد سلع كثيرة، في صناعتك، في تجارتك، بزراعتك، تمد الأمة بمزروعات جيدة، ناضجة، بسعر معتدل، الإنسان عمل مزرعة تفاح مئة دونم، الإنتاج نزل إلى السوق، ساهم الإنتاج الوفير بتخفيض الأسعار، عندما ساهم بتخفيض الأسعار ساهم بانخفاض مستوى المعيشة، وساهم برفع القوى الشرائية عند الناس، فإنسان يسعى إلى الربح فقط دون أن يشعر خدم الأمة، هناك أعمال كثيرة جداً تبتغي أنت منها النفع فقط، لكن دون أن تشعر، هذه تسهم في خفض الأسعار، وفي خفض مستوى المعيشة، وفي رفع القوى الشرائية، أما الأموال إذا أودعت في البنوك فليس هناك سلع، ولا منافسة، ولا استيراد، ولا بضاعة، أسعار غالية

جداً، والذين يربحون الأموال الطائلة قابعون في بيوتهم، هم عالة على الناس ولو معهم ملايين كثيرة.

الأنصاب إلغاء الاختيار :

أجمل شيء أيها الأخوة أن الناظم للكسب الحلال منفعة متبادلة، وأن الناظم للكسب الحرام منفعة بنيت على مضرة، كسب بني على حرمان، السرقة، والربا، واليانصيب، والميسر، والغش، والاحتيال، والتدليس، والاحتكار، مئة بند من بنود الكسب غير المشروع هو ينظمها، أنها منفعة بنيت على مضرة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ)

الميسر طريق واهم لكسب المال، يلغي الجهد، يلغي الإبداع، يلغي التنافس الشريف، يلغي خفض مستوى المعيشة، يلغي خفض الأسعار هذا تكلمت عنه في الدرس السابق، اليوم:

(وَالْأَنْصَابُ)

الكاهن عنده ثلاثة سهام، سهم كتب عليه أمرني ربي أن أفعل، وسهم مكتوب عليه أمرني ربي ألا أفعل، وسهم فارغ، يأتي إنسان يريد الزواج من امرأة، يأتي الكاهن فيسحب من هذه السهام الثلاثة أحدها، فإذا قرأ عليه أمرني ربي أن أفعل تزوج هذه المرأة، وإذا كان السهم أمرني ربي ألا أفعل لا أتزوجها، وإذا جاء السهم الثالث فارغاً يجب أن تعيد السحب مرة ثانية، طيب قد تكون امرأة جيدة جداً، أخلاقها عالية، جاء السهم ألاّ تتزوجها، السهم ليس له قاعدة، السهم لا يدرك، ومن قال: إن الله أمرك أن تفعل هكذا، هذا كلام من عند الكهان ما أنزل الله به من سلطان، كلام لا أصل له، الأنصاب إلغاء الاختيار، إلغاء التحليل، إلغاء التمايز بين البدائل، إلغاء القدرة على الاختيار، إلغاء خصائص الأشياء، إلغاء حسن اختيار الأشياء، كل هذه القدرات ألغيت بهذه الطريقة، قد يأتي السهم لا تتزوج، وهي أفضل امرأة، وقد يأتي السهم تزوج، وهي أسوأ امرأة، بدل السهم تفحص أخلاقها، تفحص سلوكها، تفحص خصائصها، وأقبل عليها إن أعجبتك.

الأنصاب عطلت في الإنسان القدرة الإدراكية :

هل أتاجر؟ قد تكون التجارة مشروعة، ومباحة، والناس بأمس الحاجة إليها، وإن استورد التاجر طرح البضاعة في الأسواق، فحل مشكلة المسلمين، أتى السهم لا تتاجر، شيء مضحك، شيء لا معنى له إطلاقاً، أول سهم: أمرني ربي، والثاني: نهاني ربي، والثالث: لا علامة فيه، فالاختيار يتعطل، ويعطل التحليل، يعطل الاستنباط، تعطل علاقة المقدمات بالنتائج، كل هذا قد ألغي عن طريق الأنصاب:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ)

الأنصاب عطلت في الإنسان القدرة الإدراكية، أعظم شيء الله منحك إياه القدرة الإدراكية، هذه تعطلت، من دون أنصاب تحكم عقلك، تحكم الواقع، تحكم المعطيات، تحكم المقدمات، تحلل، توازن، تراجع، تسأل، تستفتي، تستشير، تجرب، آلاف الطرق لاكتشاف الصواب، كل هذا تعطل بموضوع الأنصاب، أنت وحظك، لا معنى لها إطلاقاً. الآن هناك أشياء، تفتح المصحف لا على التعيين، يظهر:

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

[سورة طه: 25]

إذاً يجب أن أسافر، تشبهها، هذه لا معنى لها هنا، تظهر آية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

[سورة البينة : 7]

إذاً اتركها، أي شيء غير مبني على علم، ولا على خبرة، ولا على فحص، ولا على دراسة، ولا على تحليل، هذا شيء ليس له معنى إطلاقاً.

فالإنسان من ضعف تفكيره، ومن جهله كان يرتاح أن الإله أمرني أن أتزوج، من قال لك: إن الإله أمرك، من قال لك؟ هذا كاهن، هذا مرتزق، بهذه الطريقة يجمع الأموال الطائلة، ويوهم الناس أن هذا أمر إلهي، هذا نهي إلهي، لماذا السهم الفارغ ما عددته مباح؟ يقول لك: يستوي فعله وتركه، هكذا اقترح الكاهن، الفارغ أعيد مرة ثانية، لأن فيه رسماً على الإعادة، شيء مضحك، كسب أموال الناس بالباطل، ابتزاز أموال الناس.

من لوازم الدعاء أن تأخذ بالأسباب :

لو سألت إنساناً يشرب الخمر: لماذا تشرب الخمر؟ يقول لك: لأني أنسى همومي، هذه الهموم إذا شربت الخمر ونسيتها هل تتلاشى؟ عندك مشكلة كبيرة، المشكلة هل تلغى بشرب الخمر؟ لا، تجمد، المشكلة قائمة.

فالإنسان بطولته لا أن يقفز على المشكلات، ولا أن يجمدها، بل أن يواجهها، واجه هذه المشكلة وضع حلولاً، وقل: يا رب، توكل على الله عز وجل، استعن بالله، ولا تعجز، أما طريق الخمر فطريق مضحك، تجميد المشكلة، المشكلة قائمة، تتفاقم بالخمر، نسيت هذه المشكلة، لو أن الوسائل التي كانت بين يديك غير كافية لحل هذه المشكلة فادع الله عز وجل، والله عز وجل يقول:

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

[سورة البقرة: 186]

وقد يقول: دعوت ولم يستجب لي، نقول له: لم تكن مضطراً أو لم تقدم الأسباب، والذي يدعو ولم يقدم الأسباب يستهزئ برب الأسباب.

يا أخا العرب ما تفعل في هذا الجمل الأجرب؟ فقال له صاحبه: أدعو الله أن يشفيه، قال له: يا أخا العرب هلا جعلت له مع الدعاء قطراناً.

من الثابت أنك إذا دعوت الله، ولم تأخذ بالأسباب فأنت مستهزئ بهذا الدعاء، من لوازم الدعاء أن تأخذ بالأسباب، لو أخذت بالأسباب ودعوت الله نجوت، فبدل أن تشرب الخمر، وأن تستر همومك وهي قائمة ومتفاقمة، ابحث عن حل لهذه المشكلة، إن لم تجد الحل فادع الله عز وجل، ومع الدعاء خذ بالأسباب.

أكبر قذارة في الإنسان أن يكون مشركاً :

أيها الأخوة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ)

طريقة في الاختيار مضحكة، طريقة غير علمية، طريقة لا تعتمد على معطيات مقنعة أبداً، وعلى أسباب كافية. أما:

(وَالْأَزْلَامُ)

شيء يدعو للضحك، ناقة تذبح، عندنا سبعة سهام، السهم الأول سهم واحد، السهم الثاني اثنان أي حصتان، الثالث ثلاث حصص، الرابع أربع حصص، الخامس خمس حصص، السادس ستة حصص، السابع سبعة، مجموعهم ثمان وعشرين، الثامن والتاسع والعاشر لهم دور آخر، يأتي عشرة أشخاص تذبح هذه الناقة، يأتي إنسان فيأخذ أحد السهام، فإذا كان رقم واحد يأخذ جزء من الثماني والعشرين، إن كان سهمه رقم سبعة يأخذ سبع أجزاء، إن كان ست ستة أجزاء، خمس خمسة أجزاء، أربع أربعة أجزاء، ثلاث ثلاثة أجزاء، اثنان جزأين، فالسبع سهام يأخذون الناقة كلها، أما الثامن والتاسع والعاشر يدفعون ثمنها، شيء مضحك، إن حكم السهم كان السهم رقم ثمانية أو تسعة أو عشرة سيدفع الثمن ولم يأكل شيئاً، واحد دفع ما أكل، وواحد أكل وما دفع، منفعة بنيت على مضرة، هذه الأزلام، طريقة مضحكة لكسب اللحم، وأكل اللحم، ودفع ثمن اللحم. الله عز وجل يقول:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ)

أي قذر:

(مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

أيها الأخوة: أحياناً هناك قذارة مادية، وقذارة معنوية، أكبر قذارة في الإنسان أن يكون مشركاً، لقوله تعالى:

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)

[سورة الحج: 30]

يعني أكبر ذنب، أو أكبر رجس، أو أكبر قذارة، أن يكون الإنسان مشركاً يتجه إلى غير الله، وينسى الله عز وجل الذي بيده كل شيء.

أشد أنواع التحريم هو الاجتناب :

لأن الخمر يعطل العقل، وهو مناط التكليف، ولأن الميسر يعطل الكسب المشروع المبني على التنافس والخبرة، ولأن الأنصاب تعطل القوة الإدراكية في الإنسان، ولأن الأزلام طريقة مضحكة لنيل الطعام، هذه كلها طرائق باطلة، فقال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)

الشيطان له مهمة واحدة؛ أن يصرف الإنسان عن طاعة الله، وأن يغريه بمعصية الله، وأن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فلذلك قال تعالى:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

الشيء المضحك أن بعضهم توهم أن ليس هناك آية تحرم الخمر، لكن هناك توجيه إرشادي باجتناب الخمر، والحقيقة عكس ذلك، أشد أنواع التحريم هو الاجتناب، لو أن الله عز وجل قال: الخمر حرام أي أنها حرام أن تشربها، وليس حراماً أن تكون في مكان فيه خمر، وليس حراماً أن تبيعها، وليس حراماً أن تتاجر بها، وليس حراماً أن تعلن عنها، وليس حراماً أن تعصر العنب ليكون خمراً. لكن حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

فهذا أبلغ أنواع التحريم، ممنوع أن تشربها، وممنوع أن تحملها، وممنوع أن تحمل إليك، وممنوع أن تعصرها، ممنوع أن تعتصرها، ممنوع أن تتاجر بها، ممنوع أن تعلن عنها، ممنوع أن تكون في مكان فيه خمر، أيهما أبلغ؟!

الأمر بالتحريم لم يأتِ مباشرة بل أتى بتحريم أسبابها :

قال تعالى:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

وكلمة:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أي أعطِها جنبك، أي اجعل بينك وبينها هامش أمان، والمعاصي التي تغري الإنسان، فالأمر بالتحريم لم يأتِ مباشرة، يأتي بتحريم أسبابها، كقوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

لأن المرأة مغرية، وقد تثير الشهوة في الإنسان، فلو كان معها في بيت واحد ربما وقعت الفاحشة، فالإسلام حرم الخلوة، وحرم إطلاق البصر، وحرم صحبة الأراذل، وحرم متابعة قصص ماجنة، وحرم متابعة أفلام ساقطة، لأن هذا كله يغري الإنسان بالزنا، فالزنا محرمة أسبابه، بدليل قوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

[سورة الإسراء: 32]

والخمر محرمة أسبابها، ليس متاحاً لك أن تجلس على مائدة تدار فيها الخمر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

الكسب المشروع فيه مودة على عكس الكسب غير المشروع :

الشيطان ماذا يريد؟ قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

طبعاً الكسب المشروع فيه مودة، أنا وكيل فلان، أعطاني بضاعة، بعتها، ربحت وربحته، أنا ممتن منه، وهو ممتن مني، واضح؟ مثلاً صنعت بضاعة، وراجت بالأسواق، فالذين اشتروها ربحت منهم وطربوا من إتقان هذه البضاعة.

أما بالقمار الذي يكسب المال، وقد أخذ مالاً من أخيه بغير حق، دخل مسلم بأمريكا على نادي قمار، وخسر بليلة واحدة اثنين ونصف مليون دولار، كل ما يملكه، من قطر عربي مجاور، ذهب إلى البيت،

وأمسك بالمسدس، وأطلق طلقة على زوجته فقتلها، وطلقة على أولاده واحداً واحداً، قتل خمسة أولاد، وزوجته، ثم انتحر، لأن يئس.

هي الداء الذي لا برء منه   وليس لذنب صاحبها اغتفار
تشاد له المنازل شاهقات   وفي تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين منها سهاد   وإفلاس فيأس فـــانتحار

* * *

حكمة الله عز وجل كبيرة جداً حينما بدأ بتحريم الخمر بإشارة لطيفة جداً :

إذاً:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ)

العداوات تنفجر بين المقامرين، وتنفجر بين من يعملون في الأنصاب والأزلام، وتنفجر بين مدمنين الخمر، يتكلم كلاماً وقحاً، كلام فيه فضائح، فالصاحي يقتله:

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

الحقيقة: حكمة الله عز وجل كبيرة جداً حينما بدأ بتحريم الخمر بإشارة لطيفة جداً، هي قوله تعالى:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً)

[سورة النحل: 67]

السكر رزق غير حسن فقط، الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء: 43]

الآية الثالثة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ)

المجتمع يقوى بطاعة لله ويتفتت بمعصية الله :

كأن ثمة انسجاماً والتحاماً بين إنسانين، مهمة الشيطان أنه يريد شرخاً كبيراً بينهما، الآن المجتمع يقوى بالطاعة لله ويتفتت بمعصية الله لأن المعاصي متناقضة، والمصالح متناقضة، والأهواء متناقضة، أما الطاعات فمتطابقة.

((ما تواد اثنان ففُرِّقَ بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما))

[أحمد عن ابن عمر]

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

بذكر الله تحيا القلوب، بذكر الله يقذف نور الله في قلبك، بذكر الله تكون حكيماً، تكون حاد البصر، فصيح اللسان، سديد البيان، حكيماً في تصرفاتك، بالضبط راكب مركبة والطريق متعرج، وعلى الأطراف وديان سحيقة، معك ضوء قوي، هذا الضوء القوي يكشف لك معالم الطريق، لا تقترب، حينما ترتكب معصية فتطفئ الأنوار، وإذا انطفأت الأنوار وقع المصاب، وقع الحادث، فالإنسان إذا كان مع الله مستنيراً الله عز وجل يقذف في قلبه نوراً يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، الدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال: 29]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ)

[سورة الحديد: 28]

الله عز وجل وصف الإيمان بأنه نور وبأن الكفر والبهتان ظلام :

أنت حينما تكون مع الله يقذف الله في قلبك النور، وحينما تنقطع عن الله تقع في عمىً، وفي ظلام، والله عز وجل وصف الإيمان بأنه نور، وبأن الكفر والبهتان ظلام.

(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة المائدة: 16]

الشيء الذي يعد مثالياً أن يكون محبة ومودة والتحام بين المؤمنين، والشيء الذي يريده الشيطان أن يحدث شرخاً بينهما، شرخاً، انفصالاً، عداوة، خوفاً، قلقاً، مؤامرة، كيداً، تراشق تهم، هذا الذي يريده الشيطان. وكل إنسان يحقق أمنية الشيطان يكون متبعاً للشيطان، وكل إنسان يحقق ما يريده الرحمن منك، أن تكون أخاً لأخيك، صدوقاً، ودوداً، وفياً، محباً، مخلصاً، يرضى الله عنك. إذاً:

(الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

أهل الدنيا يشربون الخمر، يلعبون الميسر، يستقسمون بالأزلام ويتبعون الأنصاب، أعمال غير معقولة، وغير علمية، وغير نافعة، وغير صحيحة، وغير مثمرة، هذا من عمل الشيطان، مما يرضي الرحمن أن تعمل، جاءك خيار بين شيئين تحلل، تدرس، تناقش، تمايز بينهما، تسأل، تستشير أولي الخبرة من المؤمنين، أو تستخير الله عز وجل.

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الآيات من سورة المائدة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (41 - 49) : تفسير الآيات 93 - 96 ، الحساب بعد التكليف.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-09-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

التدرج في التشريع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الواحد والأربعين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثالثة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

أيها الأخوة الكرام، كلكم يعلم أن التشريع نزل متدرّجاً، ففي وقت فرضت الصلاة، في وقت فرض الصيام، في وقت فرض الحج، في وقت حُرمت الخمر، في وقت حُرم الميسر، فالعبادات والمحرمات نزلت بالتدريج.

لذلك بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ممن استشهدوا أو ماتوا قبل تحريم الخمر، قلق الأصحاب الكرام على أخوانهم، فتساءلوا: ما حكم أخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر قبل أن تُحرم؟ هذا القلق قلق مقدس، لكن الله جل جلاله رحيم بعباده، الله عز وجل لا يكلفنا إلا بما شرع لنا.

إذاً قبل التشريع الإنسان معفو عنه، هذا التساؤل الذي تساءل به أصحاب النبي رضوان الله تعالى عليهم، وهذا القلق المقدس الذي قلقوا به على أخوانهم ممن سبقوهم إلى دار الحق من هؤلاء الذين فعلوا شيئاً حرم فيما بعد، بعد موتهم أو بعد استشهادهم، هذا السؤال الكبير جاء جوابه في هذه الآية.

الصحابة الكرام الذين توفاهم الله قبل نزول تحريم الخمر حُكم الله فيهم العفو :

أولاً يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ)

قد يسأل سائل: غير المؤمن عليه جناح؟ غير المؤمن لم يدخل في عقد مع الله عز وجل، لذلك ليس بعد الكفر ذنب، الذي يدخل في عقد إيمانٍ مع الله عز وجل هو مؤمن، لذلك المؤمن يحاسب، أو يؤاخذ، أو يعفى عنه، فهذا معنى قوله تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ)

أي لومٌ:

(جُنَاحٌ فِيمَا طعِمُوا)

الحقيقة،

(طعِمُوا)

تشمل الطعام والشراب، الدليل حينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي)

[سورة البقرة: 249]

إذاً معنى طعم الماء أي شعر طعمه في فمه، وليس معنى طعم الماء أن الماء يؤكل، لكن هنا تأتي كلمة طعم لتغطي الطعام والشراب معاً، فهؤلاء الصحابة الكرام الذين توفاهم الله عز وجل قبل نزول تحريم الخمر، أو استشهدوا في بعض المعارك قبل تحريم الخمر ما حكم الله فيهم؟ حكم الله فيهم العفو، لأن الله عز وجل حينما كانوا أحياء الذي كلفهم به أتموه على أكمل وجه، إذاً ليس عليهم شيء.

الله سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا بعد التكليف :

أيها الأخوة، الآية تبشر وتطمئن الأصحاب الكرام، ومن سبقوهم إلى رحمة الله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا)

أن يعصوا الله فيما أمرهم، أي في حياتهم كل شيء أمروا به نفذوه، وائتمروا به، وكل شيء نهوا عنه تركوه، وابتعدوا عنه، إذاً في حياتهم وقبل موتهم أو استشهادهم أدوا الواجب، وتركوا المحرم، أما الشيء الذي لم يحرم بعد ما فعلوه ثم حرم بعد ذلك فلا إثم عليهم فيه، وماتوا أطهاراً عند الله عز وجل.

إذاً:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

آمنوا بالله الإيمان الذي حملهم على طاعته، فاتقوا بعد أن عرفوه أن يعصوه، أن جعلوا بينهم وبين الله شيئاً يتقون به غضبه، أو يتقون به سخطه، أو يتقون به ناره.

(إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

عرفوا الله، وائتمروا بأمره، وانتهوا عما عنه نهى، ثم عملوا الصالحات، وماتوا على هذا الحال، والأشياء التي حرمت من بعد فعلوها، ولكن ليسوا مؤاخذين عليها، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب إلا فيما كلف، ولا معصية إلا فيما حُرِّم، ولا مؤاخذة إلا بعد التكليف.

من مات وقد فعل شيئاً لم يحرم في حياته فهو ناج عند الله :

لكن الذين جاؤوا بعدهم أضيف إلى الأحكام التي عاش أخوانهم في خلالها، ونفذوها أضيف أحكام جديدة، فالمؤمنون الذين عاشوا بعد موت أخوانهم أو بعد استشهادهم، ونزلت أحكام جديدة في تحريم الميسر وتحريم الخمر نفذوها، هؤلاء تغطيهم الآية الثانية.

إنسان مات، وقد فعل شيئاً لم يحرم في حياته، فهو ناج عند الله، الإنسان الثاني امتد به العمر حتى نزلت أحكام جديدة فنفذها، هؤلاء غطاهم الله عز وجل في قوله:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

بعد حين حرمت الخمر، فتركوها، حرمت الميسر فابتعدوا عنها كلياً:

(إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

ولكن بعدما انتهى التشريع، وبعد أن ختمت الرسالة، وبعد أن تحددت المحرمات، والمأمورات، والإنسان امتد به العمر بعد ذلك، بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى، وبعد انقطاع الوحي، ماذا عليه أن يفعل؟ قال:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا)

أي كلفوا بالصلاة فأحسنوا، صلوا صلاة النوافل، كلفوا بالصيام فصاموا صيام النفل، كلفوا بالزكاة فدفعوا أموالاً زيادة عن واجبهم في أداء الزكاة.

الآية تتحدث عن ثلاث مراحل :

إذاً هناك ثلاث مراحل: مرحلة صحب كرام عاشوا الوحي، وطبقوا التشريع الذي كان في عهدهم، وماتوا هم إلى رحمة الله ومغفرته، لأنه لا مؤاخذة إلا بعد التكليف.

وأناس آخرون عاشوا حياة بعد موت أخوانهم فاستقبلوا أحكاماً جديدة، ونفذوها هم عند الله أيضاً ناجون، لأنهم طبقوا كل ما انتهى إليهم، لكن بعد انقطاع الوحي، وانتقال النبي إلى الرفيق الأعلى هؤلاء زادوا في عباداتهم، زادوا في صلواتهم، زادوا في أداء الأموال التي يبتغون في إنفاقها وجه الله عز وجل، زادوا في صيامهم، زادوا بعد الحج حجة، أنفقوا أموالهم، هؤلاء اتقوا وأحسنوا، الآية تقول:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

هؤلاء الفريق الأول، ثم الفريق الذي عاش بعد هؤلاء، واستقبل أحكاماً جديدة فنفذها:

(ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا)

والفريق الذي عاش بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى فزاد في عباداته، وزاد في إنفاق ماله:

(ثُمَّ اتَّقَواْ وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

إذاً الله عز وجل من رحمته بنا أنه لا يكلفنا ما لا نطيق، ولا يكلفنا إلا في حدود ما شرع لنا، ولا معصية من دون تكليف، وهذا بند كبير في كل دساتير العالم، أي إن القانون لا يمكن أن يأخذ مفعولاً رجعياً، فإذا أخذ القانون مفعولاً رجعياً كان فيه ظلم كبير، لأنه حينما شرع هذا القانون الذين خالفوه قبل التشريع لا شيء عليهم، وهذا أصل فيما يسميه علماء القانون بالمسؤولية، لا مسؤولية إلا بعد التشريع، ولا معصية إلا بعد التكليف، ولا مؤاخذة إلا بعد التبيين، وهذا من رحمة الله بالمؤمنين.

حكم من عاش بين نبوتين وفي وقت لم يصل إليه وحي من السماء :

لكن هذا الكلام يذكرنا بكلام آخر، أن هؤلاء الذين عاشوا فيما بين نبوة الأنبياء، يسميهم العلماء أهل الفترة، أليسوا محاسبين؟ هناك من توهم أنهم لا يحاسبون أبداً، الحقيقة بين ذلك، بين هذا وذاك، الحقيقة أن الإنسان أودع الله فيه عقلاً كافياً للتعرف إلى الله، وأودع فيه فطرة كافية كي تكشف له خطأه، فالإنسان الذي لم يتلقَ رسالة من السماء، ولم يتلقَ توجيهاً نبوياً محاسب لا بضوء تفاصيل الشريعة، ولكن محاسب على شيئين كبيرين أودعهما الله فيه، وهو العقل والفطرة، فالعقل كافٍ أن يدله على الله، والفطرة كافية أن تدله على خطئه، إذاً هو يحاسب.

إنسان ما التقى برجل دين في الأرض، عاش في جزيرة، لو أنه قتل أمه، أو أكل وأجاع أمه، هذا الإنسان بفطرته التي فطر عليها يشعر أنه بحق هذه المرأة هو مجرم من دون تشريع، فالفطرة كافية أن تكتشف خطأك، والدليل:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة: 14-15]

والدليل الآخر أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: 7-8]

فالإنسان يكشف خطأه، وبعقله يصل إلى ربه، فحينما يكون الإنسان بين نبوتين، وفي وقت لم يصل إليه وحي من السماء ليس محاسباً على تفاصيل الشريعة، ولكنه محاسب على أصل الإيمان، وأصل طاعة الرحمن، عقله تدله على الله وفطرته تمنعه من أن يخطئ.

المؤمن يوطن نفسه أن التحريم لابدّ منه في الأديان لأن ترك المحرمات ثمن الجنان :

قال تعالى:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

أخواننا الكرام، لا يمكن أن تكون هناك جنة من دون محرمات، لو أن إنساناً بسذاجة طفل تصور أن الله عز وجل لم يحرم علينا الزنا، ولا المال الحرام، ولا الفواحش، ولا السرقة، ولا لحم الخنزير، ولا الخمر، لارتحنا، وكنا جميعاً في طاعة الله عز وجل، وجميعاً إلى الجنة، عندئذٍ لم يكن هناك جنة، الشيء الذي لم تدفع ثمنه لا قيمة له إطلاقاً.

فيجب أن نعتقد جميعاً أنه لا بد من شيء محرم، الربا محرم، وقد يتراءى للإنسان أن كل مصلحته في الربا، والزنا محرم، وقد يتوهم الإنسان أن كل لذائذه تحل أو تتحقق بالزنا، والسرقة محرمة، وقد يتوهم الإنسان أن السرقة يمكن أن تعطيه مالاً كثيراً بلا جهد إطلاقاً، لذلك المؤمن يوطن نفسه على أن التحريم لا بد منه في الأديان، لأن ترك المحرمات ثمن الجنان.

الله عز وجل لا يمكن أن يعطي الجنة إلا لمن يدفع ثمنها وثمنها ليس سهلاً :

لذلك الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ)

الأشياء مغرية، أحياناً المال بين يديك بإمكانك أن تأخذ منه ما تستطيع دون أن يكشفك أحد، والله عز وجل يضع الإنسان في ظروف دقيقة جداً، بإمكانك أن تأخذ المال الوفير دون أن تكون مسؤولاً، ما هي الأمانة؟ الأمانة لا أن تؤدي مبلغاً من المال كتب عليك بسند، أو إيصال موثق، لا، هذا سلوك مدني، الأمانة أن يودع عندك مبلغ كبير بالملايين، والذي أودعه عندك لم يأخذ إيصالاً، ومات بحادث، وأهله لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً، أنت لست مداناً في الأرض إطلاقاً، ولكن خوفك من الله يدعوك إلى أداء هذه الأمانة. أقسم لي أخ بالله، وهو عندي صادق، أنه كان عنده عشرون مليون ليرة سورية، والذي أودعها عنده لم يعلم أحداً بذلك، وتوفي بحادث، فذهب إلى الورثة، وقدم لهم المبلغ عداً ونقداً تبرئة لذمته، هذه الأمانة.

لذلك الله عز وجل لا يمكن أن يعطي الجنة إلا لمن يدفع ثمنها، ثمن الجنة ليس سهلاً، ثمن الجنة أمانة قد تغري الإنسان أن يخالفها، فنبدأ بالشيء الصغير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ)

إنسان يقول لك: أنا لا آكل حراماً لو قطعتني إرباً إرباً، ويقصد ألف ليرة، ألفين، أو ثلاثاً، يأتيه مبلغ مليون، وتحل به كل مشكلاته، يقول لك: ماذا أفعل؟ هذه بلوى عامة، سقط في الامتحان، امتحن فلم ينجح، فالله عز وجل كل عصر له ابتلاءات، وكل إنسان له ابتلاءات، وكل ظرف له ابتلاء، في كل مكان وفي كل زمان هناك أشياء مغرية جداً بين يديك، لذلك يفرز الناس حيال هذا الابتلاء إلى إنسان صدق ما عاهد الله عليه، وإنسان سقط تحت ضغط شهوته ومصلحته.

ما كل تشريع سماوي يقابله تشريع أرضي :

يبدو أن الصيد شيء محبب جداً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ)

أحياناً الصيد لا يحتاج إلى سلاح، لا يحتاج إلى رمح، لا يحتاج إلى بندقية، بين يديك حيوانات أليفة جداً، في أثناء الحج محرم أن تصطادها وهي بين يديك، قد تمسكها بيديك:

(تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)

أضرب لكم بعض الأمثلة، يمكن أن تكون في غرفتك، والنافذة مفتوحة، وبيت مقابل لبيتك، فتحت النافذة امرأة صاحب البيت، ولم تكن تهتم بحشمتها، ثيابها متبذلة، وقد تبدو كل مفاتنها من خلال الثياب، وأنت في مكان مظلم، وليس على وجه الأرض إنسان يكشف أنك تملأ عينيك من شيء حرم عليك، ليس إلا الله الذي يعلم خائنة الأعين، فإذا غضضت البصر، وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، لا أحد على وجه الأرض يكشفك، هذه المخالفة، هذا امتحان أحياناً، ما كل تشريع سماوي يقابله تشريع أرضي، فالسرقة تتفق بين تشريعات السماء وتشريعات الأرض، لكن غض البصر مما تنفرد به شريعة السماء، فأنت لست مؤاخذاً في كل بقاع الأرض إذا مرت امرأة متبذلة وملأت عينيك من محاسنها، لا أحد يحاسبك، لكن الله وحده يعلم ذلك، هذا أيضاً امتحان.

قد تدخل إلى بيتك في أيام رمضان، ورمضان في شهر آب، والنهار طويل جداً، وتكاد تموت عطشاً، وبإمكانك أن تفتح الصنبور، وأن تشرب ماء بارداً لا يعلم أحد بهذه المخالفة إلا الله، ما الذي يمنعك أن تشرب في رمضان؟ إيمانك بالله، فالصوم عبادة الإخلاص، وغض البصر عبادة الإخلاص، لكن السرقة ممكن أن تضبط من قبل أهل الأرض، وقد تحاسب حساباً عسيراً على هذه السرقة.

الناس يمتحنون ويفرزون بين مؤمن يخاف الله وبين غير مؤمن يتجرأ على النواهي

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ)

أي هو يمتحنكم:

(بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ)

القصة التي ذكرتها عشرات المرات، وقد تركت في نفسي أثراً كبيراً: أن هذا الإمام الذي كان في لندن، وانتقل إلى ظاهر لندن، وركب مركبة كل يوم، وصعد المركبة مرة، ودفع للسائق ورقة نقدية كبيرة، وردَّ له السائق البقية، فلما عدها وجدها تزيد عشرين بنساً عما يستحق، فقال: أنا كمسلم ينبغي أن أرد هذه الزيادة، هذا موقف المسلم، وبما أن لكل إنسان ملك يلهمه، وشيطان يوسوس له، يبدو أن الشيطان قال له: إنها شركة عملاقة، ودخلها فلكي، والمبلغ زهيد ويسير، لا يقدِّم ولا يؤخر، فلا عليك إذا أخذته، وأنت بحاجة إليه، وكأنه هبة من الله لك، لكنه قبل أن يغادر المركبة، دون أن يشعر مد يده، ودفع للسائق العشرين بنساً، ابتسم السائق، وقال له: ألست إمام هذا المسجد؟ قال له: بلى، قال له: والله قبل يومين حدثت نفسي أن أزورك بالمسجد لأتعبد الله عندك، ولكنني أردت أن أمتحنك، وقع هذا السائق مغشياً عليه لهول الصدمة، وأدرك لحظتها كم هي الجريمة التي كاد أن يقترفها لو أبقى في جيبه العشرين بنساً، ثم لما صحا من غفوته قال: يا رب، كدت أبيع الإسلام بعشرين سنتاً، هذا رسب أمام إنسان، فكيف إذا رسبت أمام الواحد الديان؟!

أنا أقول لكم أيها الأخوة: لو أن إنساناً وقع من طائرة، وتكسرت أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، والله عز وجل يمتحنك كل يوم، أنت في دائرة الامتحان كل يوم، إذاً هذا الصيد بين يديك، الله عز وجل حرم الصيد على المُحرم، وحرم الصيد في الحرم، حرم الصيد على المُحرم في حدود المواقيت، وحرم الصيد على غير المُحرم في الحرم في أثناء الحج، فلذلك قد يأتي الصيد إلى ما بين يديك، تستطيع يداك أن تناله ومع ذلك الناس يمتحنون ويفرزون بين مؤمن يخاف الله وبين غير مؤمن يتجرأ على النواهي التي نهى الله عنها:

(لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)

العاقل هو الذي يحكمه النص والأحمق هو الذي يحكمه الواقع :

أخواننا الكرام، كل إنسان حينما يرى سلاحاً موجهاً ضده يرعوي ويستقيم، لكن البطولة أن تخشى الله بالغيب، لذلك الله عز وجل حينما قال:

(الم*ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ*الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

[سورة البقرة الآيات: 1-3]

يا أيها الأخوة، الدنيا محسوسة، تراها بعينيك قصراً جميلاً، سيارة فارهة، طعاماً طيباً، مزرعة رائعة، امرأة جميلة، هذه كلها محسوسة، أما الآخرة فتفتح كتاباً اسمه القرآن الكريم تجد أربع كلمات:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى: 4]

هذا خبر، الدنيا محسوسة، والآخرة خبر، لذلك الإيمان بالغيب درجة متقدمة عالية جداً بالإنسان، الآن كم من إنسان يموت من الدخان، وآلاف الأبحاث العلمية تبين أخطار الدخان، من هو العاقل؟ الذي يحكمه النص، من هو الأحمق؟ الذي يحكمه الواقع، الإنسان حينما يصل إلى الواقع المر يندم أشد الندم، لكن العاقل قبل أن يصل إلى ما وصل إليه يرعوي قبل فوات الأوان.

(فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الذي يعتدي على الصيد:

(فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

الله عز وجل جعلك عبداً تاماً له في الحج خاضعاً لكل توجيهاته :

في الحقيقة له عذاب، لأنه لم يعبأ بمنهج الله عز وجل، لكن الحكمة من ذلك أيها الأخوة أن الإنسان بالحج عليه أن يخضع لله خضوعاً تاماً، وعليه أن يصفي نفسه، وأن يبتعد عن كل شعور بالفوقية، فالإنسان أعلى المخلوقات، دونه الحيوان، في الحج ممنوع منعاً باتاً أن يقتل الحيوان في أثناء الحج، صيد البر محرم في الحج، الآن الحيوان فوق النبات، والنبات دون الحيوان، وممنوع أيضاً أن تؤذي نباتاً في أيام الحج، الإنسان، الحيوان، النبات، دون النبات الجماد، وعليك أن تقبل حجراً في أثناء الحج، تقبل حجراً بتوجيه الله، وترجم حجراً بتوجيه الله، وتمتنع عن اقتلاع نبات أو إيذاءه، وعن قتل حيوان في أيام الحج وفي الحرم.

إذاً الله عز وجل جعلك عبداً تاماً له، خاضعاً لكل توجيهاته، تأتمر بأمره، وتنتهي عما عنه نهى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

الصيد ممنوع وأنت محرم، محرم طبعاً من المواقيت، في أثناء الحج ممنوع لغير المحرم في منطقة الحرم فقط أن يقتل صيداً، أي المُحرم مكان التحريم حدود المواقيت المكانية، وغير المحرم حدود التحريم منطقة الحرم من التنعيم إلى الجعرانة، حدود الحرم الضيقة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ)

أي إذا قتل فرضاً نعامة عليه أن يقدم بدنة، إذا قتل حمار وحش عليه أن يقدم بقرة وهكذا، الذي يقدم فدية لخطئه واعتدائه مثلما قتل من النعم.

(يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

أي هناك رجلان يحكمان بنوع النعم الذي ينبغي أن يكون فدية لما قتل، لو أنه قتل غزالاً عليه أن يقدم شاة، وهكذا.

ليس من دين إلا وفيه محرمات :

قال تعالى:

(هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ)

يجب أن يكون هذا الهدي في الكعبة:

(أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ)

أي ليس من دين إلا وفيه محرمات، وفيه ألم حينما يعاقب على اقتراف بعض المحرمات، وبال الأمر يعطي خبرة مؤلمة، عندما يكذب طفل فيؤدب من قبل والده، هذا التأديب له فائدة تربوية كبيرة جداً، هذه الفائدة التربوية أن الطفل قرن في نفسه، في عقله الباطن بين هذا الكذب وبين هذا التأديب، وكل واحد منا إذا اقترف معصية وأدبه الله عليها، يقول لك: تربيت، هذا أسلوب الحكيم في التربية، أي إحداث خبرة مؤلمة مع المعصية، طفل جاء بشيء ليس له، أخذه من رفيقه دون أن يعلمه، فالأب حرمه من نزهة، فارتبط عند الطفل أن أخذ شيء ليس له يقابله حرمان من نزهة، لا بد من تربية الأولاد بهذه الطريقة، والله عز وجل يتولى تربية الكبار بطريقة أخرى، أن الإنسان كلما عصى الله عز وجل جاءه من الله تأديب يوازي هذه المعصية، فارتبط في عقله الباطن هذا العقاب مع هذه المعصية.

أؤكد لكم أيها الأخوة أنك إذا دخلت إلى مسجد، ورأيته ممتلئاً بالأخوة الكرام المؤمنين يجب أن تعلم علم اليقين أن عدداً كبيراً جداً من هؤلاء إنما عالجه الله معالجة حكيمة، وساقه إلى مسجده، وإلى بابه بطريقة لطيفة، أنه شعر أنه في خطر ليس له إلا الله، فانكب على أعتاب الله، واصطلح مع الله، وأطاعه، فأزاح الله عنه هذا الخطر بالتربية، فإما أن يقدم مثل هذا الحيوان الذي قتله:

(هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ)

وإما أن يطعم مسكيناً طعاماً يساوي هذا الذي قتله ظلماً، أو أن يصوم صياماً يوازي طعام هذا الذي لم يطعمه.

إذا لم يرافق الانحراف عقاباً وتأديباً أو خبرة مؤلمة فهناك مشكلة كبيرة :

قال تعالى:

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ)

مثلاً: الأمر ببساطة بالغة لو أن ابنك عملَ عملاً سيئاً، وأنت لم تحاسبه أبداً، يرى هذا السوء طبيعياً جداً، يستمرئه ويدوم عليه، لو لم تحاسبه إطلاقاً لفعل أكبر منه، والأمر يتفاقم.

يروى أن إنساناً حكم عليه بالإعدام، فطلب منه ماذا يتمنى؟ قال: أريد أن أرى أمي، جاءت أمه، فقال لها: مدي لسانك كي أقبله، فلما مدت لسانها قطعه بأسنانه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي في الجرائم ما فقدت حياتي. إذاً: إذا لم يرافق الانحراف عقاباً، وتأديباً، أو خبرة مؤلمة فهناك مشكلة كبيرة، الأمر يتفاقم:

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

قبل نزول هذه الآيات، وقبل هذا التشريع الذي كان قبل هذا التاريخ معفواً عنه أيضاً، وهذا من رحمة الله بنا:

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

التحريم مرتبط بالإحرام أما تحريم منطقة الحرم فمرتبط بأيام الإحرام لغير المحرم :

أيها الأخوة الكرام:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

لكن للبحر شأن آخر:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ)

السيارة أي القافلة:

(وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً)

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)

[سورة المائدة: 2]

التحريم مرتبط بالإحرام، أما تحريم منطقة الحرم فمرتبط بأيام الإحرام، لغير المحرم:

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

الإنسان محاسب على كل حركاته وسكناته ومحاسب على كل أفعاله :

أيها الأخوة، ورد في بعض الأحاديث أنه: من قتل عصفوراً لغير مأكلة جاء يوم القيامة له دوي كدوي النحل تحت العرش يقول: يا رب اسأله لمَ قتلني؟

الصيد حلال ومباح لغير المحرم، ولكن لعلة وجيهة، الإنسان مخلوق مكرم عند الله، يمشي في الطريق انقطع زاده، فإذا اصطاد حيوان، وأكله، وأبقى على حياته فهذا مباح في الشرع، أما أن يذهب ليمارس هواية الصيد، وليقتل مئات الطيور دون أن يأكلها فقط لإحكام الرمي هذا في كتب الفقه محرم أشد التحريم، هواية الصيد، من اصطاد طائراً لغير مأكلة، ليمارس هواية معينة في إصابة الهدف هذا محرم أشد التحريم.

أعيد الحديث عليكم ثانية: من قتل عصفوراً لغير مأكلة جاء يوم القيامة له دوي كدوي النحل تحت العرش يقول: يا رب، اسأله لمَ قتلني؟ الإنسان محاسب على كل حركاته وسكناته، محاسب على كل أفعاله، ولا ينبغي أن يجرب بندقيته بحيوان، ولا يجوز أن تجعل الحي غرضاً لصيد، أو لرمح، هذا أيضاً محرم أشد التحريم، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن تروع حيواناً أن تشحذ سكينك أمامه، أو أن تذبح شاة أمام شاة، هذا محرم أيضاً بنص الحديث الشريف:

((إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذبحتُم فأحْسِنُوا الذَّبحَ، وليُحدَّ أحدُكم شَفرَته، ولْيُرحْ ذبيحَته))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن شداد بن أوس]

عملية الحج خضوع تام لإرادة الله عز وجل :

الآيات أيها الأخوة:

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ)

أيها الأخوة، هناك موضوع جانبي يحسن أن نأتي عليه، هو أن هناك مكاناً يسمى الحرم، وهناك أشهر حُرم، الذي يحصل أن الحروب التي تقوم بين البشر ترتبط هذه الحروب بكرامة المتقاتلين، فالدخول في الحرب سهل جداً، أما الخروج منها فصعب جداً، فالإنسان في أثناء الحرب يمكن أن يُدمر كل شيء، أو أن يُدَمر له كل شيء، حفاظاً على دعواه التي يدعيها، لكن رحمة الله بهؤلاء البشر أن الأشهر الحُرم

يُحَرم فيها القتال، فحينما تقف الحرب، لا لأن أحد الطرفين غلب الآخر، ولا يقدح توقيف الحرب لكرامة أحد الطرفين، بل لأن تشريع السماء يُحَرم القتال بهذه الأشهر، الناس ماذا يقول لهم؟ يذوق طعم السلم، ويحب السلم فلعل هذه الهدنة التي فرضها الله عز وجل على المتقاتلين تكون سبباً في إنهاء الحرب، وفي حقن الدماء. فلذلك عندنا مكان فيه تحريم لقتل الحيوان، وإيذاء النبات، حتى وفي هذا المكان الإنسان يهبط إلى أدنى مستوى فيقبل حجراً، أو يرجم حجراً بتوجيه الله.

سيدنا عمر حينما قبل الحجر قال: والله إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

هذا تشريع، أما الإنسان فهو أكرم من أي حجر كان، ومع ذلك الإنسان في الحج يخضع خضوعاً تاماً، أي حتى الذي أحله الله للبشر في الحج محرم عليه، محرم على الحاج أن يتطيب، أو أن يحلق شعره، أو يقلم أظافره، أو أن يقارب أهله، الأشياء المباحة خارج الحج محرمة في أثناء الإحرام، فعملية الحج خضوع تام لإرادة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الجعل تخصيص الشيء بعد إيجاده :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السابعة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أيها الأخوة الكرام، ما معنى كلمة جعل؟ جعل لا تساوي كلمة خلق، فرق كبير بينهما، الجعل بعد أن يوجد الشيء تعطيه بعض الخصائص:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة النحل: 78]

فجزء من الخلايا كانت سمعاً، وجزء آخر كانت بصراً، وجزء ثالث كانت فؤاداً، إذاً الجعل تخصيص الشيء بعد إيجاده.

الحقيقة أن الله عز وجل اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض، ما معنى كلمة بيت؟ الإنسان يكدح، ويعمل، ويسعى، ويعود إلى بيت ليستريح، ليسر، فالإنسان يعتني ببيته لأنه يؤوي إليه، وبه ينسى تعب النهار، وبه ينسى مشقة النهار، إذاً كلمة بيت تعني مكان فيه راحة، أو مكان فيه سعادة، والبيت المادي في الأرض يعني ذلك.

الله تعالى اتخذ بيتاً في الأرض هو البيت الحرام وأرادنا أن نأتيه لنستجم روحياً :

الله عز وجل اتخذ بيتاً وأرادنا أن نأتيه، كي نستجم استجماماً روحيّاً، كي نرتاح راحة نفسية، كي نجدد النشاط في السعي للدار الآخرة، فالله عز وجل جعل هذه الكعبة قياماً للناس، جسمك يقوم بالغذاء، بالطعام، والشراب، ولكن نفسك تقوم بالاتصال بالله، فهذا البيت جُعل لإقامة الصلاة.

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة إبراهيم: 37]

أي أن الإنسان بحاجة إلى غذاء، وبحاجة إلى اتصال بخالق الأرض والسماوات، فالحقيقة أن الإنسان له نزعة مادية، لذلك الله عز وجل اتخذ بيتاً، وقال: تعالوا إليّ، الحاج حينما يقول: لبيك اللهم لبيك، فكأنه يجيب نداء من الله، أن يا عبادي تعالوا إلي، تعالوا كي أريحكم من متاعب الحياة، تعالوا كي أريحكم من أثقال الشهوات، تعالوا كي أريحكم من مشكلاتكم، تعالوا إلي.

والحقيقة أن الصلاة تتم في بلدك، والصيام يتم في بلدك، لكن الحج عبادة منفردة، هذه العبادة تحتاج إلى تفرغ، تحتاج إلى ترك بلدك، ولو كان بعيداً عن مكة، تحتاج إلى تجشم مشقة، تحتاج على إنفاق مال، من أجل ماذا؟ الإنسان حينما يشد الرحال إلى بيت الله الحرام قد يكون هذا البيت خالياً من كل قريب له، لا قريب، ولا نسيب، ولا حبيب، ولا تجارة، ولا مصلحة.

مرةً في أحد أيام الحج أحد علماء دمشق قال: يا رب ليس لنا أحد في هذه الأمكنة إلا أننا أتينا نبتغي رضاك، فهي رحلة إلى الله.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات: 50]

رحلة الإنسان إلى خالقه، لأن الإنسان مادي، فربنا عز وجل اتخذ بيتاً في الأرض، قال: تعالوا إلي.

بيت الله الحرام قيام للناس تقوم سعادتهم على الصلح مع ربهم :

الحقيقة حينما جعل هذه العبادة، تحتاج إلى ترك الأوطان، وترك الأهل والخلان، وإنفاق الأموال، وتجشم مشاق السفر، والسفر عند الفقهاء مظنة هلاك، والآن يقول لك: وقد مات جميع ركابها، أربع كلمات، خبر سقوط الطائرة جداً قصير، ما فيه تفاصيل، وقد مات جميع ركابها، إذاً السفر مظنة هلاك.

فالله سبحانه وتعالى يقول لك: يا عبدي تعال إلي، تعال كي تصطلح معي، تعال كي تذوق طعم القرب مني، تعال كي تسعد بقربي، تعال كي أريحك من هموم كالجبال، تعال كي أريحك من متاعب الحياة، من خصومات الحياة، من القيل والقال، وكثرة السؤال، من مشاحنات الأرض، تعال إلي، تعال وذق طعم القرب مني، فهذا الحج ذهاب إلى بيت الله الحرام، وبيت الله الحرام قيام للناس، تقوم سعادتهم على الصلح مع ربهم، طبعاً الحج زيارة بيت الله الحرام، بيت الله الحرام مكان، لكن العبرة ليس في المكان، ولكن بما يجري في هذا المكان، الله عز وجل في هذا المكان يتجلى على عباده المؤمنين تجليات استثنائية، من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، يجب أن تشعر أن الله قبلك، وعفا عنك، يجب أن تشعر أنك في أعلى درجات القرب، لأنك تجشمت مشاق السفر، وأنفقت المال الوفير، وغادرت الأوطان، وتركت الأهل والخلان إلى بيت الله الحرام.

إذاً الله عز وجل منذ أن خلق السماوات والأرض اتخذ لنفسه بيتاً في الأرض، هذا البيت مكان.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

[سورة آل عمران: 96]

المكان طول وعرض، أما إذا أنشأنا بناء صار فيه طول وعرض وارتفاع، وكل شيء ناتئ يسمى كعبة.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ)

[سورة البقرة: 127]

البيت مكان، أما الكعبة فحجم، الكعبة نتوء، هذا بيت الله عز وجل، الكعبة رمز، ما من إنسان على وجه الأرض يقصد هذا البيت وهو صادق في طلب مرضاة الله عز وجل إلا توصف من السعادة، ولحكمة بالغةٍ بالغة عطل الله كل متع الأرض هناك، ما فيه منظر جميل، جبال قاسية، حر لا يحتمل، ازدحام لا يحتمل، ازدحام وحر.

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

[سورة إبراهيم: 37]

الكعبة بيت الله الحرام :

كل أسباب السرور المادية منعدمة هناك، بقي سبب واحد للسعادة وهو الاتصال بالله، ومن حج البيت حجاً صادقاً، ولم يقل وهو يغادر البيت: يا رب لا تجعل هذه الزيارة آخر عهدي بالبيت، يكون قد ابتعد عن مفهوم الحج والعمرة، لأنك تزور الله عز وجل.

((إن بيوت الله في الأرض المساجد))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما]

إلا أن هذا المسجد، وأي مسجد آخر هو بيت الله، ولكن باختيار الإنسان، الذي أنشأه اختار هذا المكان، وجعله مسجداً، ولكن الكعبة بيت الله الحرام بيت الله باختيار خالق الأكوان، فالفرق كبير، لذلك:

((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى))

[متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد]

ليس هناك تقرب إلى الله بأن تشد الرحال إلى مسجد بحلب مثلاً، أو إلى مسجد في بغداد، هذا ليس عبادة، أما إذا شددت الرحال إلى بيت الله الحرام، أو إلى المسجد النبوي الشريف، أو إلى الأقصى، بيت المقدس، هذه عبادة إلى الله عز وجل.

فأنت حينما تزور بيت الله الحرام تلبي دعوة الرحمن، أنت حينما تزور بيت الله الحرام تؤوي إلى خالق الأكوان، فقيامك في معرفتك بالله، وقيام سعادتك، قيام سلامتك، قيام راحتك، قيام طمأنينتك، قيام أمنك، قيام تفاؤلك، قيام محبتك أن تتصل بخالق الأكوان، إلا أن الاتصال هنا في بلدك بلا ثمن، تتوضأ

وتصلي، لكنك إذا أردت أن تذهب إلى بيت الله الحرام فتحتاج بالحد الأدنى إلى خمسين ألف ليرة، وأن تدع عملك ومكتبك وتجارتك ووظيفتك، هناك ثمن، هذا الثمن تقبض ما يكافئه من تجليات الله على قلبك، لذلك إن لم تقل وأنت في بيت الله الحرام: أنا أسعد الخلق ففي الحج مشكلة، أنت في ضيافة خالق الأكوان.

الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم وحينما تعلم أن الله يعلم حلت كل مشكلاتك :

طبعاً الذي يؤلم أشد الإيلام أنك حينما تلتقي بإنسان حجَّ بيت الله الحرام يحدثك عن كل شيء، فصار الحج نزهة، يقول لك: تسوق بأبراج مكة، أسواق مذهلة، يركب الطائرة، وينزل في هذه الفنادق الفخمة، ويؤدي مناسك العمر أداء شكلياً ويعود، فإذا عاد إلى بلده حدثك عن كل شيء، إلا مشاعر المؤمن حينما يدخل بيت الله الحرام، وحينما يلتقي مع خالق الأكوان.

لذلك مرة كان أحد الخلفاء في الحج التقى بعالم جليل، فقال له: سلني حاجتك، تقرباً إليه، قال له: والله إنني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج بيت الله الحرام قال له: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟ قال له: ما حاجتك؟ قال له: أن أدخل الجنة، قال له: هذه ليست بيدي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة. فأنت في بيت الله الحرام مع خالق الأكوان.

أيها الأخوة، ورد في بعض الأحاديث أن الناس في آخر الزمان يذهبون إلى الحج للسمعة، ليكتب قبل اسمه الحاج فلان، أو للتجارة، أو للمنفعة، أو حينما يحج أحدهم بيت الله الحرام، ويكسب أموالاً طائلة بغير حق، ويناقش بهذه الأموال يقول:

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)

[سورة الحج: 28]

فهم المنافع فهماً مادياً محدوداً، لكنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

كما أن الصلاة من أجل أن تتصل بالله، وكما أن الزكاة تزكو نفسك بهذا المال، والصيام من أجل أن تتقي الله، الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم، وحينما تعلم أن الله يعلم حلت كل مشكلاتك، الدليل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق: 12]

أنت حينما تعلم أنك إذا خالفت هذا الأمر دفعت الثمن باهظاً، لا تخالف، مشكلة المعاصي كلها تبدأ من توهم أن الله لا يعلم، أما إذا أيقنت أن الله يعلم وسيحاسب، وسيعاقب لا يمكن أن تعصيه، تبدأ المعصية من الغفلة عن الله عز وجل.

الاتصال بالله اتصال متميز فيه سكينة و إجابة دعاء :

إذاً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ)

الكعبة بنيت على بيت الله الحرام، بناها إبراهيم عليه السلام، وجددت من بعده، أما بيت الله الحرام فمن بدء الخليقة:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)

[سورة آل عمران: 96]

أي إذا زرت هذا المكان نزل على قلبك من السكينة مالا يوصف، وهذا كلام لا يعرفه إلا من ذاق طعم الحج والعمرة، أنت حينما تشعر أنك في كنف الله، وأن الله قد عفا عنك، وقبلك، وأن الله سبحانه وتعالى سيكرمك، وسيوفقك في أمور الدنيا والدين تشعر بمعنى الحج الصحيح.

لذلك للتقريب فقط، لو أن إنساناً والده أستاذ رياضيات، قال له: تعال يا بني أعطيك درساً خاصاً، يتهرب من هذا الدرس لأنه بلا ثمن، أما الابن نفسه لو كان ضعيفاً بالفيزياء، وأخذ درسا خاصّاً، والدرس بألف ليرة، يأتي قبل ربع ساعة إلى الدرس، وإذا خفف الأستاذ الدرس دقيقتين، يقول له: بقي دقيقتان، دفع ألف ليرة، مثلاً.

الله عز وجل أراد أن تدفع ثمن هذا الاتصال، وهو اتصال متميز، اتصال مركز، اتصال فيه تجلٍّ، فيه سكينة، فيه إجابة دعاء، أرادنا الله بزيارة بيته الحرام أن ندفع ثمن هذا الاتصال، وبقدر الدفع يكون إحكام الاتصال بالله عز وجل.

سبب تسمية البيت الحرام بهذا الاسم :

قال تعالى:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

لمَ سمي بيتاً حراماً؟ لأن الذي يزور هذا البيت ينبغي أن يكون آمناً، إلا أن هذا الأمن، دققوا، ليس أمراً تكوينياً، بل هو أمر تكليفي، ما معنى ذلك؟ لو كان أمراً تكوينيّاً لا يمكن لهذا البيت أن ينال بأذى، لكن

الله أرادنا أن نجعله آمناً، أي يا عبادي اجعلوه آمناً، احرصوا أن يكون من فيه آمناً، فكلفنا أن نجعله آمناً، إذاً هو أمر تكليفي، وليس أمراً تكوينياً، بدليل: أنه في بعض السنوات مات فيه عدد كبير، تعلمون هذا، ألف وأربعمئة، ادعى أحدهم أنه المهدي، وقاتل، وأطلق الرصاص، وكوفحت هذه الحركة بوابل من الرصاص، ومات المئات، فكيف يقول الله عز وجل؟

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً)

[سورة آل عمران: 97]

هذا أمر تكليفي وليس أمرناً تكوينياً، أي اجعلوه آمناً، أن يكون هذا البيت آمناً منوطاً بكم، كلفتكم أن تجعلوه آمناً، تماماً كما تقول:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور : 26]

أليس في الأرض مئات الأسر الرجل طيب جداً والمرأة سيئة؟ وبالعكس، ما معنى قول الله عز وجل:

(الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

؟ أي احرصوا على أن يكون

(الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

واضح تماماً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

بيت الله الحرام مكان ينفرد فيه حكم شرعي أن الإنسان محاسب على نيته فقط :

محرم أن تقطع غصناً، محرم أن تدوس جرادة، محرم أن تزهق روحاً، محرم أن تؤذي، إلا أن بيت الله الحرام مكان ينفرد فيه حكم شرعي أن الإنسان محاسب على نيته فقط، أنت حينما لا سمح الله ولا قدر قررت أن تؤذي إنساناً ثم لا تؤذيه لا تحاسب، لكن في بيت الله الحرام:

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الحج: 25]

على الإرادة فقط، حرمة لهذا البيت، وضماناً لأمنه، لا يسمح لك أن تقتل كائناً من كان عدا خمس كائنات استثناها النبي عليه الصلاة والسلام، العقرب، والحية، والفأرة.. ولا يسمح لك أن تؤذي نباتاً، ولا أن تشتم إنساناً، ولا أن تجادل.

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)

[سورة البقرة: 197]

لا جدال، ولا مشاحنة، ولا إيذاء، لا إلى إنسان، ولا إلى حيوان، ولا إلى نبات، فجعله حراماً أي له حرمته، وقد يلتقي الإنسان بقاتل أبيه فلا يستطيع أن يفعل شيئاً، هذا البيت آمن، وأرادنا الله أن نجعله آمناً هذا معنى بيت الله الحرام، حراماً أن تؤذي إنساناً، حرام أن تشتمه، حرام أن تجادله، حرام أن تؤذي حيواناً، حرام أن تؤذي نباتاً، بل إنك يجب أن تخضع لتوجيهات الله بكل التفاصيل.

لا تقوم سعادتنا إلا باتصالنا بربنا :

إذاً:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)

الحقيقة الشهر الحرام؛ رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، هذه أشهر حرم، وحكمتها كما قال بعض العلماء أن البشر حينما يقتتلون يفور الدم عندهم، وترتبط معركتهم بكرامتهم، وقد تستمر الحرب سنوات طويلة، وقد استمرت ثماني سنوات بين بلدين إسلاميين، وقد أزهقت أرواح مليوني إنسان، لكن لو أنهما طبقا حكم الله عز وجل أن القتال يقف في الأشهر الحرم بأمر الله عز وجل فليس هناك غالب ولا مغلوب، وكرامة الطرفين مصونة، وعندئذٍ يذوق الناس طعم السلم، فلعل هذا السلم الذي ذاقوه يعينهم على متابعة السلم والصلح، فلذلك الله عز وجل جعل الأشهر الحرم يحرم فيها الاقتتال، فهذا البيت هو آمن، وفي الأشهر الحرم أيضاً أمنٌ على أمن، وسلم على سلم:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ)

أنت لا تقوم سعادتك إلا باتصالك بربك، قد تنجح في حياتك الدنيا، ولكنك تشقى إذا كنت بعيداً عن الله عز وجل، والدليل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

كائناً من كان، ضعيفاً أو قوياً، غنياً أو فقيراً، صحيحاً أو مريضاً:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه: 124]

الحج هو شحنة العمر :

الله عز وجل:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ)

تقوم سعادتهم بزيارة هذا البيت، وتقوم سعادتهم بالاتصال برب هذا البيت.

((إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره))

[رواه الطبراني عن ابن مسعود]

لذلك إذا التقيت بإنسان حج بيت الله الحرام حجاً صحيحاً كما أراد الله، أو التقيت بمعتمر اعتمر بيت الله الحرام كما أراد الله يجب أن تشعر بثمرة هذه العبادة، وهي عبادة راقية جداً، ذلك أن الإنسان يشحن في الصلاة شحنة روحية تمكنه أن يبقى مع الله إلى الصلاة الثانية، شحنة محدودة، أما في يوم الجمعة في خطبة، وفي صلاة جماعة وأخوانك كلهم في المسجد، وفي خطبة مؤثرة تشحن شحنة أسبوعية، من أسبوع لأسبوع فالإنسان بعد خطبة الجمعة يشعر باندفاع إلى الدين، باندفاع إلى طاعة الله، باندفاع إلى الإنفاق، إلى عمل صالح، إلى دعوة إلى الله، هذا الاندفاع تخبو جذوته كلما ابتعدت عن يوم الجمعة، إلى أن تصل إلى يوم الخميس، وأنت في أمسّ الحاجة إلى شحنة جديدة.

لكنك في الصيام تشحن من عام إلى عام، ثلاثين يوماً، ثلاثين صلاة تراويح، ثلاثين قيام ليل، ثلاثين يوماً وأنت صائم، غاض للبصر، ضابط للسان، ضابط للجوارح، هذه شحنة تكفيك للعام القادم، أما الحج فهو شحنة العمر، لذلك جعل الله الحج رحلة إلى الله قبل الأخيرة، الأخيرة في التابوت، في النعش، هي قبل الأخيرة، من أجل أن تشحن شحنة تعينك على طاعة الله، والصلح معه إلى نهاية الحياة، لكن يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن عبداً أصححت له جسمه، ووسعت عليه في رزقه لم يفد إلي في كل خمسة أعوام لمحروم))

[رواه ابن عساكر عن أبي هريرة]

إذا كنت في بحبوحة من العيش، أيضاً هذه الحجة تضعف قيمتها بعد مضي خمس سنوات، إذاً لا بد أن تجدد هذه الحجة بحجة أخرى.

الهدي هي الأنعام التي تساق لتقدم هدية إلى الله عز وجل :

الآية اليوم عن الحج:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاس)

إنسان مضطجع، إنسان نائم، واحد قائم، معنى قائم بأعلى درجات النشاط، قائم بأعلى درجات اليقظة، يقظة ونشاط، فالقيام دليل الحركة والنشاط، فقيامك مع الله قيام سعادتك، قيام مصالحك، قيام سلامتك، قيام طمأنينتك، قيام تفاؤلك، قيام محبتك لله أساسه أن تأتي بيت الله الحرام:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاس وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ)

أي ضمن الله لحجاج البيت الحرام ولعماره أمناً من كل المستويات، أمن مع أخيك الإنسان ألا يشتمك، وألا يجادلك، وألا يحاورك، وألا تقوم علاقة غير صحيحة بين رجل وامرأة، حتى المباح، حتى الزوجة لا يمكن في أيام الحج أن تقربها، انقطاع عن المباحات بغية أن تصل إلى رب الأرض والسماوات.

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ)

الهدي هي الأنعام التي تساق لتقدم هدية إلى الله عز وجل، ويجب أن تكون لأهل مكة، أي الله عز وجل هذا الوادي الذي كما وصفه الله عز وجل:

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ)

[سورة إبراهيم: 37]

الهدي يساق له من أطراف الدنيا، والحقيقة أنه يذبح من الغنم في أيام الحج بالملايين، هذه تعود إلى أهل مكة، وإلى فقراء المسلمين الذين يطعمون من هذا اللحم الذي قدم هدياً لبيت الله الحرام.

على الإنسان أن يعلم أن الله يعلم :

قال تعالى:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

أي أراد الله سبحانه وتعالى من هذه العبادة أن تعلم أن الله يعلم، أراد الله من الصلاة قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت: 45]

أي أكبر ما فيها ذكر الله، هذه الصلاة، الصيام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 183]

من الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة: 103]

هذه الزكاة، الحج:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ)

الحج من أجل أن يرتقي الله تعالى بالإنسان إلى طاعته الطاعة المستمرة :

كلمة كبيرة جداً، حينما تعلم أن الله يعلم لا يمكن أن تعصيه، حينما تعلم أن استخدام الهاتف المحمول في أثناء قيادة السيارة فيه غرامة كبيرة جداً، وتلمح شرطياً فوراً تنزله طبعاً، واضع القانون يطولك من خلال هذا الشرطي، فإذا علمت أن الله يعلم، الله معك دائماً كلام دقيق جداً. أنت حينما تقف على إشارة حمراء، وأمام الإشارة شرطي، مجهز لكتابة ضبط، والإشارة حمراء، وأنت مواطن عادي، ما لك ولا ميزة، هل تتجاوز هذه الإشارة؟ لأنه مركب في أعماق أعماقك أن واضع نظام السير علمه يطولك من خلال هذا الشرطي ، وقدرته تطولك من خلال القانون، تحجز المركبة أحياناً، تسحب منك الإجازة، وقد تدفع غرامة كبيرة، أنت حينما توقن أن واضع نظام السير علمه يطولك، وقدرته تطولك لا يمكن أن تعصيه، لكن ممكن في الساعة الثالثة أن تتجاوز الإشارة الحمراء، لأن علم واضع القانون لا يطولك لغياب الشرطي الساعة الثالثة ليلاً، وإذا كنت أقوى من واضع القانون أيضاً لا تطولك قدرته، أما بالأحوال الطبيعية، بشكل مدني طبيعي لا يمكن أن تعصي جهة يطولك علمها، وتطولك قدرتها.

الحج من أجل أن تعلم أن الله يعلم، وإن علمت أن الله يعلم لا يمكن أن تعصيه، فالحج من أجل أن يرتقي بك إلى طاعته، إلى الطاعة المستمرة، في طاعة نوبية.

الآن الناس عندهم مشكلة، برمضان تأتيهم كريزة استقامة، اسميها أنا كريزة، يغض بصره، يصلي الفجر بالمسجد، يضبط لسانه، هذه غيبة، اسمحوا لنا، لا تناقشوني بهذا الموضوع، هذه غيبة، ينتهي رمضان، كل شيء فعله برمضان ينساه بعد رمضان، هذا الذي ما أراده الله من رمضان، أرادك أن ترتقي، فعدت إلى ما كنت عليه ولم ترتق.

حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمر الله :

أخواننا الكرام، القضية دقيقة، أرادك الله في رمضان أن تصفو نفسك، بطاعة ربك، لينسحب هذا الصفاء على كل أيام العام، أنت أردته بجهل منك أن يكون هذا الصفاء في رمضان فقط إذاً لم تنتفع في رمضان، وحينما اصطفى الله من كل الأماكن بيت الله الحرام، وقال: اذهب إليه، وتعال يا عبدي إلي، من أجل أن يشيع هذا الصفاء الذي ذقته في بيت الله الحرام في كل مكان، حتى إذا عدت إلى بلدك تابعك هذا الصفاء إلى بلدك، لكنك أردت رؤيته هناك فقط، أن يبقى الصفاء في بيت الله الحرام.

إذاً نحن إذا عدنا إلى ما كنا عليه بعد الصيام، وحينما نعود إلى ما كنا عليه بعد الحج عطلنا الحكمة البالغة من فرض الحج وفرض الصيام، أراد الله عز وجل أن تكون هذه الأشهر التي نصومها كل عام

كالدرج، كل سنة درجة، ثم تستمر، هكذا، لكننا أردناها حجراً ارتقينا عليه، ثم عدنا إلى المستوى السابق، بين أن تكون درجات متتابعة، أردناها صعوداً طارئاً، ونعود إلى ما كنا عليه.

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

إذاً حينما تعلم أن علم الله يتعلق بكل ممكن، وأن الله يعلم من الصعب جداً أن تعصيه، هل هناك إنسان في الأرض يضيف الماء إلى الحليب أمام المشتري؟ مستحيل، أنت حينما تعلم أن الله يعلم تستقيم على أمر الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (43 - 49) : تفسير الآيات 98 - 100 ، الخبيث والطيب.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-09-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم يقتضي البحث والدليل وعدم التقليد :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة المائدة ومع الآية الثامنة والتسعين، وهي قوله تعالى:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أولاً:

(اِعْلَمُوا)

أي تحققوا، الدين لا يؤخذ تقليداً، ولا يمكن أن يقبل مقلّد عند الله، لأنه لو قُبل مقلد عند الله لكانت كل الفرق الضَّالّة ناجية يوم القيامة، لأنهم قلّدوا رؤساءهم، رؤساء هذه الطوائف، ولكن لأن الدين تحقق، ولأن الدين بحث، ولأن الدين درس، ولأن الدين اعتقاد أساسه الدليل، لذلك قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد: 19]

العلم يقتضي البحث، يقتضي الدليل، يقتضي عدم التقليد، يقتضي العلم، المثابرة.

أيها الأخوة:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ألا ترون إلى أمراض عضالة تجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق؟ ألا ترون إلى فقر مدقع؟ ألا ترون إلى ذل لا يحتمل؟

هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله :

الله عز وجل في بعض ما يروى في كتب الأثر أن نبياً قال:

((يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقك، قال: يا رب إنك تعلم إني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

والله هناك بلاء لا يحتمل، لأن الله عز وجل يقول:

(رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

[سورة البقرة: 286]

والله الذي يصيب المسلمين لا يحتمل،

(لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)

العالم كله يحاربنا، المسلم في الأصل متهم ما لم تثبت براءته، ويصعب أن تثبت براءته، والطرف الآخر في الأصل معزز مكرم مبجل، هذا بلاء من الله، لأن الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: 11]

ولأنه هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله، ذكرهم ببلائي، هناك أمراض، هناك شدة.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ)

[سورة الأنعام: 65]

قديماً كانت الصواعق وأضيف لها حديثاً الصواريخ حارقة، وخارقة، وانشطارية، وعنقودية، وذكية، وجرثومية، وكيماوية، وما إلى ذلك.

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

الإنسان دائماً في قبضة الله :

كان قديماً، ولا يزال الزلازل، أضيف إليها الألغام.

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

[سورة الأنعام: 65]

الحروب الأهلية، الطغاة في العالم:

(وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

ذكرهم بآلائي، بالآيات الكونية الدالة على عظمته، ذكرهم بنعمائي، ذكرهم ببلائي، ذكرهم ببلائي كي يعظموني، ذكرهم بنعمائي كي يحبوني، ذكرهم ببلائي كي يخافوني، مستحيل أن يستقيم إيمانك من دون أن تخاف من الله، مستحيل أن يستقيم إيمانك من دون أن تحب الله، ينبغي أن تخافه، وينبغي أن تحبه، والأنبياء يعبدون الله رغباً ورهباً، خوفاً وطمعاً، رجاءً وحذراً:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

هذه للعصاة، للذين يبنون مجدهم على أنقاض الآخرين، للذين يبنون غناهم على إفقار الآخرين، للذين يبنون عزهم على إذلال الآخرين، هؤلاء الذين يحبون أن يعيشوا وحدهم، وأن يأكلوا وحدهم، ومن بعدهم الطوفان، هؤلاء ذكرهم أن الله شديد العقاب، أنت في قبضة الله، بدءاً من أصغر خلية في جسمك إلى أكبر مصيبة في الأرض، أنت في قبضة الله، أحياناً كآبة لا تحتمل، أحياناً ضيق، شدة، أحياناً وساوس متسلطة، مس جنٍ، إصابة عين، حسد فاسق، أحياناً مرض مادي، والله هناك أمراض تحيل حياة الإنسان إلى جحيم، لو تعطلت وظيفة ثانوية في أحد الأجهزة لقلبت حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، أنت في قبضة الله، إن كنت في قبضته فلا تقل: أنا، قل: أنا عبد لله، ارجُ رحمته واخشَ عذابه:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

الله عز وجل خلقنا ليسعدنا :

أنت في متناول قبضة الله، قد تأتي المصيبة من جسمك، أو من نفسك، أو ممن حولك، أو ممن فوقك، أو ممن تحتك، حينما تعلم أنك في قبضته، وحينما تخاف منه تستقيم على أمره، وليس الهدف أن تخاف منه الهدف أن تستقيم على أمره، وليس الهدف أن تستقيم على أمره، الهدف أن تسعد باستقامتك على أمره، خلقك ليسعدك.

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود:119]

خلقهم ليسعدهم:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

ما الذي يمنع أن تزور المستشفى من حين لآخر فتجد مصائب لا تحتمل؟ ما الذي يمنع أن تزور حياً متواضعاً من أحياء المدينة لتعرف مدى النعمة التي أنعم الله بها عليك؟

((انظري إلى من تحتك، ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر ألا تزدري نعمة الله عندك))

[رواه الطبراني عن أبي ذر]

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، ومن فجاءة نقمتك، ومن جميع سخطك))

[أخرجه مسلم من حديث ابن عمر]

الخثرة في الدماغ تأتي في ثانية واحدة، بثانية تعطل الكلام، وشل طرف الإنسان، وأصبح عالة على من حوله، يتمنى أقرب الناس أن يموت ويسمعه ذلك، هكذا:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

من لا يخاف الله لا يعرفه :

أخوتنا الكرام، الذي لا يخاف الله إنسان لا يعرفه.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

وقد ترون أحياناً ما يجري حولنا، كيف أن إنساناً كان في أعلى درجات القوة إذا هو يصبح في أدنى درجات الذل:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

هذه عينة، لأن الله لا يعاقب كل المسيئين في الأرض، يعاقب بعضهم ردعاً للباقين، ولا يكرم كل المحسنين يكرم بعضهم تشجيعاً للباقين.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

أخواننا الكرام، لا يعقل ولا يقبل أن يكون في الأرض قوي وضعيف، وظالم ومظلوم، وغني وفقير، وصحيح ومريض وأن تنتهي الحياة هكذا، ولا شيء بعد الموت.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون]

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة]

بنى مجده على أنقاض الآخرين، هؤلاء الطغاة في العالم ماذا يفعلون؟ يموت بسبب عدوانهم ألوف مؤلفة، بل ملايين مملينة، وهم ينعمون في عز الدنيا فيما يبدو، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ أدهش:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

قصة عن أحد العصاة المنحرفين الضالين المضلين :

الله عز وجل يقول:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

والله أيها الأخوة هذا الدرس يحمل قصصاً كثيرة، والله هناك قصص مما يجري حولنا، وتحت سمعنا وبصرنا من عبر رائعة ما لا يصدق:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لهؤلاء العصاة المنحرفين الضالين المضلين قصة واحدة: إنسان يضع مركبته في مكان لتستقر، مست مركبة أخرى، كتب ورقة بهاتفه وعنوانه كي يتولى تصليح هذا العطب الذي أصاب المركبة الأخرى، وهو من أهل العلم، ورعه يقتضي ذلك، بعد قليل جاء صاحب المركبة، أسمعه كلاماً لا يستحقه، بقسوة ما بعدها قسوة، بتجبر ما بعده تجبر، بتطاول ما بعده تطاول، والقصة طويلة، لكن هذا الذي تجاوز الحد، وتطاول على إنسان من أهل الله، والرجل يعتذر، ويقدم له أي مبلغ يغطي إصلاحها إصلاحاً كاملاً، أراد أن يتشفى منه، في اليوم التالي دعا أصدقاءه إلى طعام في مزرعة خارج دمشق، أحد أصدقائه لم يهتدِ إلى المزرعة، فاتصل به هاتفياً، قال له: أنا آتيك، أين أنت؟ قال له: في المكان الفلاني، في طريقه إليه ضربته مركبة فشلته نصفين، عمره ثلاث وثلاثون سنة، الآن طريح الفراش إلى أن يموت:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

علامة عقل الإنسان خوفه من الله :

قبل أن تستعلي، قبل أن تجمح، قبل أن تقسو، قبل أن تحتقر الآخرين، قبل أن تنسى أن لهذا الإنسان إلهاً سيحاسبك، علامة عقل الإنسان خوفه من الله، ورأس الحكمة مخافة الله:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

أخواننا الكرام، لكن أتمنى عليكم إذا استمعتم إلى قصة ألا تتبنوها إلا بحالة واحدة، أن تعرفها من فصلها الأول إلى فصلها الأخير، إن عرفتها من فصلها الأول إلى فصلها الأخير يقشعر جلدك من عدل

الله عز وجل، أما إن عرفتها من آخر فصولها ما لها معنى أبداً، بل إن رواية هذه القصة تسهم في خلل يصيب السامع:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذا الذي أناب إليه، وآمن به، واستقام على أمره، وأحبه، وخدم عباده، وبنى حياته على العطاء، أعطى من وقته، ومن ماله، ومن خبرته الشيء الكثير:

(وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

سيمحو له خطاياه التي لم يرتكبها قصداً، وسوف يرحمه في الدنيا وفي الآخرة:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الأنبياء لهم مهمة واحدة وهي أن يبينوا ويبلغوا :

هذه حقيقة أيها الأخوة، الخير بيد الله، والتأديب بيد الله، فإما أن تصلح للإكرام، أو أن تصلح للتأديب، الأمر بيدك والكرة في ملعبك، وأنت مخير إما أن تكون أهلاً لإكرام الله وإما أن تكون مستحقاً لعقاب الله، الأنبياء ما مهمتهم؟ لهم مهمة واحدة فقط؛ أن يبينوا، أن يبلغوا.

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)

[سورة النور: 54]

لأنك مخير، لأن الله حينما خلقك منحك حرية الاختيار، النبي الكريم يبين، والداعية يبين، والعالم يبين، والناصح يبين، وأنت حر إما أن تأخذ بهذه النصيحة أو ألا تأخذ بها.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

[سورة الكهف: 29]

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان: 3]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)

[سورة البقرة: 148]

هذا قرارك، وأنت وحدك تتحمل مسؤوليته.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام: 164]

كل إنسان يتحمل تبعة عمله :

كل إنسان يتحمل تبعة عمله.

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

النبي لا يستطيع أن يهدي أحداً قسراً.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[سورة القصص: 56]

(لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

[سورة الأنعام: 66]

لست عليهم بحفيظ.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية: 21-22]

هذا النبي، فكيف بإنسان داعية بسيط؟ النبي قال: لا أملك لكم نفعاً ولا ضراً، لا أعلم الغيب، ولا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك:

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ)

علامة إخلاصك أن تكون سريرتك كعلانيتك :

الذين يدلون عن الرسول ما عليهم إلا البلاغ، إلا البيان فقط، والله عز وجل:

(يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

قد تكون ذكياً، ذكاؤك يعينك على أن تظهر أمام الناس بمظهر رائع من التقى والصلاح، كإنسان يوم الجمعة يرتدي ثياباً بيضاء، يتعطر عطراً أو مسكاً، يحمل مسبحة، تغسل بشكل جيد، يتألق وجهه، يُظن أنه ولي، أين أمضى السهرة البارحة؟ ماذا كان يفعل في البيت؟ أنت أبديت الصلاح يوم الجمعة، لكن الله يعلم ماذا تخفي، ما الذي أخفيته عن الناس، لذلك علامة إخلاصك أن تكون سريرتك كعلانيتك، باطنك كظاهرك، خلوتك كجلوتك، علامة إخلاصك، ليس هناك ازدواجية أبداً، ما في قلبك على لسانك، ما تنطق به تعتقده، ما تعتقده تنطق به:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

لأهل معصيته شديد العقاب، ولأهل طاعته غفور رحيم و

(اعْلَمُوا)

لا تبقي هذا تقليداً، ولا سماعاً غير مسؤول:

(مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: 19]

كلمة:

(خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

يعني لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يضبط، في حالات كثيرة عينك تخون، وتنظر إلى الحرام، في آلاف الظروف لا يمكن لمخلوق أن يضبطك بخيانة العين إلا الله،

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

على النبي أن يبلغ، وعليك أن تستجيب لأمره، فإن استجبت فلك، وإن لم تستجب فعليك.

المال الذي يأتي بأساليب غير مشروعة يذهب بطرق مؤلمة جداً :

ثم يقول الله عز وجل:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً، هناك شيء طيب تطيب به النفس، وشيء خبيث تخبث به النفس، فالطيب الذي تطيب النفس به طيب ولو كان قليلاً، والخبيث الذي تخبث به النفس يبقى خبيثاً ولو كان كثيراً، عشرة آلاف ليرة مشروعة مقابل عمل مشروع دقيق، متقن، مخلص، نصحت به المسلمين أفضل من مليون ليرة جاءتك بالكذب والاحتيال، لأن العشرة آلاف ليرة من عمل مشروع مخلص منضبط متقن، نصحت به المسلمين هذا المبلغ يبارك الله فيه، يصرف عنك نفقات لا تعد ولا تحصى، أنت في أمسّ الحاجة أن تتلافاها، أما إذا طمعت بالكثير الخبيث هذا تنفقه في وجوه أنت في غنى عنها. بعض الأقوال في كتب الأثر: من أصاب مالاً في مهاوش أذهبه الله في مهابر. المال الذي يأتي بأساليب غير مشروعة يذهب بطرق مؤلمة جداً:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)

لا تستوي امرأة مؤمنة طاهرة عفيفة متحجبة تزوجتها، وامرأة جميلة جداً بغية منحرفة فاسدة مفسدة على جمالها الأخاذ، وتلك على جمالها المتواضع، هذه مؤمنة، في حكمة بالغة أنه أحياناً يكون الخبيث كثيراً كثرة مطلقة، أي كثيرة الجمال، أو كثيرة المال، أو كثيرة الجاه، وأحياناً المؤمن قد يكون دخله محدوداً جداً، قد يكون شأنه محدوداً، وقد يكون شكله متواضعاً، لكن البطولة في الدنيا أن تكون في المستوى الذي أرادك الله أن تكونه، أي كلمة الخبيث مال خبيث، مال من حرام، زواج خبيث من امرأة في دينها رقة.

الخبيث أحياناً يكون كثيرا في نوعيته وكميته والطيب قليلاً في نوعيته وكميته :

مثلاً سفر خبيث في رخاء، وفنادق، ومعاص، وآثام، سفر متعب إلى العمرة، والحج، ازدحام، وحر، ونفقات باهظة، ومناظر ليست محببة، جبال سوداء، وحر لا يحتمل، دائماً كلمة خبيث وكلمة كثرة، شيء تخبث به نفسك إذا فعلته، وقد يكون كثيراً، كثيراً في تألقه، كثيراً في كمه، كثيراً في نوعه، كثيراً في لذته:

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ)

لذلك أيها الأخوة، الإنسان في الدنيا قد يتمتع بعين باصرة وقد يتمتع بعين بصيرة. مثلاً: لو دخلت إلى بيت بمقاييس العصر أربعمئة متر، في أرقى أحياء المدينة، له إطلالة رائعة، شرفات واسعة، فيه كل الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، تكييف، على تبريد، على تدفئة، على أجهزة المطبخ، على أجهزة الصالون، لكنه اشترِي من مال جاء من بيع المخدرات، مثلاً، وبيت غرفتان متواضعتان في حي متواضع، الفرق بين البيتين لا يقدر بثمن، هذا البيت مشروع، صاحبه مؤمن، مطعم خمس نجوم، غلته اليومية مليون ليرة، ومطعم بسيط غلته اليومية ثلاثة آلاف، المطعم الفخم يقدم خمر، خبيث، والغلة كثيرة جداً، كلمات لطيفة خبيث وكثير، كثير في نوعيته. صالة للقمار كلفت ثلاثين مليون دولار، وقد تجد مدرسة أو جامعة متواضعة جداً تخرج أطباء ومهندسين، البناء متواضع لكن يقدم للأمة قادة وأطباء وعلماء، الخبيث أحياناً يكون كثيراً، كثيراً في نوعيته، في كمه، في متعته، وأحياناً الطيب قليل، قد يكون قليلاً في نوعيته، وقليلاً في كميته.

الإنسان دائماً بين خبيث كثير وطيب قليل :

أيها الأخوة، آية دقيقة:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أي اتقوا الله أن تتجهوا إلى الخبيث الكثير، وآثروا عليه الطيب القليل، أحياناً وظيفة في التعليم فرضاً، والتعليم صنعة الأنبياء، التعليم متعب، لكنك تربي النفوس، أو محل تجاري بأفسق الأسواق، والنساء فيه شبه عرايا، والله من حيث المتعة هذا المحل أجمل من هذا العمل الشاق مع طلاب متعبين، لكن التدريس مع الطلاب، والأخذ بيدهم إلى الله، وغرس القيم والأخلاق فيهم، وتعريفهم بالله مع التعب والمشقة والدخل القليل أفضل ألف مرة من محل تجاري تنتهك فيه حرمة الله كل يوم، ويكون فيه نوع من الزنا في كل دقيقة، زنا النظر، وزنا اللمس، وزنا الكلام. لذلك: أنت دائماً بين خبيث كثير، وطيب قليل، حتى في الزواج.

((من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه))

[رواه الطبراني عن أنس]

قد تكون المرأة الدينة أقل من المرأة التي ليس فيها دين إطلاقاً، قد يكون ذلك لذلك:

((إن المرأة تنكح لدينها، ومالها، وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك))

[رواه أحمد في مسنده ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر]

ملخص الآية: أن تختار زوجة صالحة، ولو كانت أقل من التي تعجبك، وأن تختار حرفة خيرة للمجتمع، وإن كان دخلها أقل من دخل حرفة لا ترضي الله، وأن تختار مكاناً تعبد الله فيه وإن كان في هذا المكان متاعب كثيرة، لا أن تختار مكاناً ترتكب فيه المعاصي على قارعة الطريق، وهذه مشكلة المسلمين أحياناً، يسافر إلى بلد بعيد يقول لك: كأنني في الجنة، الآن في الجنة، لكن بعد حين سوف يصيب هذا الإنسان من الألم ما لا يحتمله، حينما يرى أولاده فسقة وفجاراً، ولا ينتمون لا إلى أمتهم ولا إلى دينهم.

من حكمة الله أن الحرام محفوف بالمرغبات والتسهيلات أما الحلال فيحتاج إلى جهد كبير:

أيها الأخوة، الملخص: إن أردت الزواج فعليك بالطيبة، إن أردت العمل فعليك بالعمل الطيب ينفع الأمة، إن أردت السفر فعليك ببلد طيب، أما إن أردت الخبيث الكثير في الدخل، وفي الزواج، وفي الإقامة فسوف تدفع الثمن باهظاً في النهاية، والله عز وجل يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص: 83]

حدثني أخ أن أخوين أرادا الذهاب إلى بلد غربي للإقامة والعمل وجمع ثروة طائلة، أحدهما تمنى أبوه عليه ألا يسافر ليبقى معه، والثاني لم يعبأ برجاء والده وسافر، يحدثني أحد الأخوين قال لي: والله بين حالي في الشام ومع أهلي وأولادي وتوفيقي بالعمل وسعادتي المنزلية، وبين حال أخي الذي تزوج امرأة ليست مسلمة، وضاعت بناته، وضاع أولاده، ثم أصابه مرض عضال، قال لي: لو وازنت عملي الذي ابتغيت به رضاء الله عز وجل وعمل أخي الذي ابتغى الدنيا المسافة كبيرة جداً:

(قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

أي يا أصحاب العقول أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، أرجحكم عقلاً من أراد الآخرة.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

[سورة الإسراء: 19]

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل: 97]

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية أصل في اختيارك، كلما عرض عليك شيئين؛ سفراً أو إقامة؟ زواجاً من هذه أم من تلك؟ هذه الوظيفة أو هذه الوظيفة؟ هذا العمل أو هذا العمل؟ والله عز وجل يبتلي عباده دائماً، أنت بدخل لا يكفيك، يأتيك عرض وفير بشبهة كبيرة.

إذاً أيها الأخوة ينبغي ألا يغتر الإنسان بالخبيث ولا بكثرته، ولو كان محبباً، وينبغي أن يسعى للطيب ولو كان متعباً وقليلاً.

وبالمناسبة شاءت حكمة الله أن يكون الحلال صعباً والحرام سهلاً، الحلال صعب والحرام سهل، لأنه لو كان العكس لأقبل جميع الناس على الحلال، لا حباً بالله، ولا طمعاً بالجنة، ولكن لأنه سهل، الأوراق تداخلت، لكن العمل متعب، أما السرقة فسهلة، تأخذ مبلغاً كبيراً بلا جهد، وقد تنجو أحياناً، الزواج صعب جداً، أما الزنا فسهل جداً، الحرام محفوف بالمرغبات والتسهيلات، أما الحلال فيحتاج إلى جهد كبير، وهذا من حكمة الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (44 - 49) : تفسير الآيات 101 - 104 - التحليل والتحريم من شأن الله وحده.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-10-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله سبحانه وتعالى أمر بأشياء ونهى عن أشياء وسكت عن أشياء رحمة بنا :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الواحدة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

أيها الأخوة، أوضح مثلٍ لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وكان يجزئهم، ويقبل منهم أن يذبحوا أية بقرة، سألوا: ما لونها؟ ما شكلها؟ ما هي؟ حينما أكثروا هذه الأسئلة جاءت التقييدات، فبعد التقييدات التي عوقبوا بها الصفات التي أمروا أن يلحظوها في البقرة لا توجد إلا عند يتيم طلب بملء جلدها ذهباً، وكان يجزئهم، ويقبل منهم أية بقرة.

لذلك القاعدة: أن الله سبحانه وتعالى أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، وسكت عن أشياء رحمة بنا، فمن أخذ هذا القسم الثالث وبدأ يسأل ويسأل، وكلما جاء السؤال جاء التقييد:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بحكمة الله، أنّ الله حينما أمر، وحينما نهى، وحينما سكت، الحكمة من سكوته عن أشياء لا تقل حكمة عن أمره ونهيه. مرة إنسان سألني، قال لي: يجوز أن نرتدي ثياباً مصنوعة في بلاد الغرب؟ قلت له: يجوز، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، قال: لا، إنها من صنع أعدائنا، ينبغي ألاّ نرتديها، قلت له: لا ترتدِها، شددت فشددت عليك.

عندنا قاعدة أصولية: أن الأصل في العبادات الحظر ولا تشرع عبادة إلا بالدليل، فالأشياء العكس، الأشياء الأصل فيها الإباحة، ولا يحرم شيء إلا بالدليل، في الأشياء التحريم يحتاج إلى دليل، لأن الأصل هو الإباحة، أما في العبادات فالعبادة تحتاج إلى دليل لأن الأصل في العبادة الحظر.

للآية السابقة عدة توجيهات منها :

1 أن تعتقد أن الذي سكت الله عنه لا يقل عن الذي أمرك به أو نهاك عنه :

فأول توجيه لهذه الآية أن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

إن سألتم عنها جاء التقييد، وإن جاء التقييد جاءت المشقة، وقد تسوءك المشقة.

هذا أول بند من البنود، ينبغي أن تعتقد أن الذي سكت الله عنه لحكمة بالغة لا يقل عن الذي أمرك به أو نهاك عنه، بشكل أو بآخر أيّ شيء يقربك من الله مهما كان صغيراً أمرك الله به، إن في قرآنه، أو في سنة رسوله، وما من شيء يبعدك عن الله عز وجل مهما يكن صغيراً نهاك الله عنه إن في كتابه، أو في سنة نبيه، لكن سكت عن طريقة الطعام، لك أن تأكل على طاولة ولا شيء عليك، ولك أن تأكل على الأرض ولا شيء عليك، ولك أن تؤثث بيتك بأثاث معين ولا شيء عليك، ولك أن ترتدي قماشاً ملوناً أو غير ملون ولا شيء عليك.

في الأشياء العادية التي لا تقدم ولا تؤخر، ولا علاقة لها أصلاً بوجهتك إلى الله عز وجل سكت الله عنها رحمة بنا، وتوسعة على عباده، فهذا الذي يتنطع ويسأل: لو فعلت كذا، هل أعد آثماً؟ يضيق عليك إلى أن يلجئك إلى أن تحرم عليه، عقاباً من الله له، طبعاً هذا من عند الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بكمال الله وحكمته، يا من آمنتم أن الذي حرمه يحرمكم من السعادة، وأن الذي أحله تطيب أنفسكم به، وأن الذي سكت عنه رحمة بكم:

(لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

هذا هو المعنى الأول.

2 هناك أشياء أحياناً تقتضي الحكمة ألا تسال عنها :

المعنى الثاني: إنسان شكّ في والده، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام: من أبي يا رسول الله؟ فالنبي سكت، قالت له أمه:

((مَا سَمِعْتُ بِابْنٍ قَطّ أَعَقّ مِنْكَ؟ أَأَمِنْتَ أَنْ تَكُونَ أُمّكَ قَدْ قَارَفَتْ بَعْضَ مَا تُقَارِفُ نِسَاءُ أَهْلِ الْجَاهِلِيّةِ فَتَفْضَحَهَا عَلَى أَعْيُنِ النّاسِ؟))

[رواه ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة]

هناك أشياء أحياناً تقتضي الحكمة ألا تسال عنها، إنسان جالس بمجلس، لماذا طلقت زوجتك؟ سؤال محرج، لا ينبغي أن يفضحها، أو أن يقول: لقد خانتني، مع من خانتك؟ ومتى؟ وأين؟ هذه أسئلة تسبب إحراجاً، والله عز وجل ستير، وينبغي أن تتخلق بأخلاق الستير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

هذا بند آخر من بنود السؤال.

3 تجنب سؤال دس الفتنة بين الناس وسؤال الإحراج :

بند ثالث: أنك تسأل، وتعرف الجواب، من أجل أن تمتحن المسؤول، هذا فتنة، وليس سؤالاً لتفهم، لذلك كان بعض العلماء يقول: إن سألتني: قال العالم الفلاني في القضية الفلانية كذا وكذا، فماذا تقول أنت؟ كان هذا العالم الورع لا يجيب مثل هذا السائل، لئلا تقع الفتنة، أما لو سألتني أيها الأخ: ما حكم هذا الشيء؟ أقول لك: حلال أو حرام، حلال، وهذا الدليل، وحرام، وهذا الدليل، أما أن تأخذ من عالم إلى عالم، ومن جماعة إلى جماعة، ومن مفتٍ إلى مفتٍ، كيف تفتي بهذا، وقد أفتى فلان بخلاف ما تقول؟ هذه فتنة:

((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً))

[أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي أمامة]

البند الثالث: سؤال الإحراج، سؤال الامتحان، سؤال الفتنة، سؤال إحداث مشكلة، ذلك لأن الشيطان حينما يئس من أن يوسوس لهذا الإنسان بالكفر، أو بالشرك، أو بالكبيرة، أو بالصغيرة، أو بالبدعة، أو بالمباحات، بقيت عليه ورقة رابحة، ألا وهي التحريش بين المؤمنين، ما تقول في كذا؟ ما تقول في كذا؟ تقول له: هذا رأيي، قال فلان عكس ما تقول، من هو على صواب، أنت أم هو؟ هذا سؤال الفضول، سؤال الامتحان، سؤال الإحراج، سؤال دس الفتنة بين الناس. فالله عز وجل أدبنا بهذا الأب، وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

لا تسأل عن سؤال يشدد لك في نتيجته، ولا تسأل شيئاً تحرج الآخرين، ولا تسأل ممتحناً، ولا مستعلياً، ولا مستكبراً، ولا بادراً لفتنة بين الناس:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

لكن الله سبحانه وتعالى حينما ينزل حكماً يحسم الموضوع، حينما حرم الله التبني انتهى الأمر:

(وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ)

الله عز وجل حكيم، فإذا كانت حكمته أن يحرم، وجاء التحريم انتهى الأمر، وإذا كانت حكمته أن يحلل، وجاء التحليل انتهى الأمر، أما قبل أن يأتي القرآن بالحكم الشرعي فلا تسأل لئلا تُحرْج، أو لئلا تُحرَج، أو لئلا ينقلب سؤالك تشديداً عليك، كما فعل بنو إسرائيل.

الآية السابقة لا تمس سؤال التعلم :

هذه الآية أيها الأخوة لا تمس سؤال التعلم.

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة: 219]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة: 219]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة: 189]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة: 222]

إذا كنت تسأل سؤال المتعلم، وسؤال المستفهم فالسؤال سؤال العلم، والسائل محترم عند كل الناس، وينبغي لكل عالم أن يجيب السائل بتواضع وأدب جم، لأن هذا الذي يسأل يطلب العلم، وإنسانان لا يتعلمان، هما المتكبر والمستحيي، المستحيي لا يتعلم، والمتكبر لا يتعلم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة]

مرة سُئلت في رمضان الماضي وأنا على الإذاعة، وعلى الهواء مباشرة: كيف نصلي التراويح؟ نصليها ثماني ركعات أم عشرين؟ صلِّ ثماني ركعات، وصلِّ اثنتي عشرة، وصلِّ عشرين، صلِّ في بيتك، وصلِّ بالمسجد، ولا تحدث مشكلة، لا تحدث فتنة، الأمر واسع، والأمر على السعة.

السؤال والجواب إن لم يبتغَ به وجه الله ينقلب إلى جدل والجدل مذموم :

أيها الأخوة الكرام، السؤال والجواب إن لم يبتغَ به وجه الله عز وجل ينقلب إلى جدل، والجدال في القرآن مذموم، لأن الهدف إظهار ما عند الناس، وتحجيم الآخرين، الهدف من المجادلة ليس شريفاً، أما الحوار والسؤال والجواب بقصد التعلم فشيء آخر، أقره الشرع، وأكرمه العلماء الربانيون، مثلاً في سورة الإسراء:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً*أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً*أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 93]

سؤال التعنت، سؤال التعجيز، سؤال التحجيم، سؤال الكبر، سؤال الفتنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ)

إما أن تسألوا سؤال التضييق فيشدد عليكم، وإما أن تسألوا سؤال الإحراج فتقعون في إثم كبير، وإما أن تسألوا سؤال الامتحان، فيكون هذا كبراً واستعلاءً لا يرضي الله عز وجل.

أعرابي سأل النبي عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر: يا محمد، متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ رد عليه بسؤال، وماذا أعددت لها؟ أي لا تهتم بمتى ولكن اهتم بما أعددت لها؟!!

اتباع منهج الله وسنة رسوله والاستغفار يجعلنا في مأمن من عذاب الله :

لذلك أيها الأخوة الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال: 33]

هذه الآية تملأ نفوس المسلمين راحة، لأنهم في مأمن من عذاب الله ما دامت سنة الله في ظهرانيهم، إذا كانت سنة النبي مطبقة في حياتهم، في بيوتهم، في أعمالهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في تجارتهم، في أفراحهم، في أتراحهم، في سفرهم، في حلهم، إذا كان منهج الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وسلم مطبقة في حياتهم فهم في مأمن من عذاب الله، هم في مأمن آخر:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال: 33]

الآية التي تليها:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)

(مَا جَعَلَ)

ما نافية.

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

مهمة التشريع أن كل شيء خلقه الله أعطاه وظيفة :

أحياناً يأتي الرجل وبيده قطعة من الصابون، ويأتي بقطعة من الجبن يضعها في المطبخ، طبعاً الجبن للأكل، والصابون للغسل، جُعل الجبن من أجل الأكل، وجُعل الصابون من أجل الغسل، رَبُّ البيت جاء بقطعتين، قطعة للاستعمال، وقطعة لها استعمال آخر، لو أننا وضعنا هذا الصابون في الطعام لفسد الطعام، ولو وضعنا الجبن لغسل الصحون لما نجحت هذه العملية.

إذاً الذي جعله الله لشيء ينبغي ألا تجعله أنت لشيء آخر، في البراري مثلاً قد تموت بعض الحيوانات، وقد تتفسخ، وقد يصدر عنها رائحة لا تحتمل، لذلك خلق الله الخنزير لمهمة تنظيف هذه الأمكنة الخالية، وفيها حيوانات متفسخة، تموت قطة، يموت كلب، يموت حيوان آخر، فيأتي هذا الخنزير، ويرى أن هذا اللحم المتفسخ أطيب طعام له، هكذا صمم، الشيء الذي يُشمّ منه العفن من مئات الأمتار هو يراه طعاماً من الدرجة الأولى يأكله، إذاً جعل هذا الخنزير من أجل تطهير الفلاة من الحيوانات المتفسخة، فإذا جاء الإنسان، وأكل هذا الخنزير فقد خالف ما جعله الله للتطهير، فجعله طعاماً له، إذاً الجعل أن هذا الشيء بعد أن يخلق يخصص بشيء، الخلق شيء، والجعل شيء آخر، الذي صنع من لا شيء خلقه، لكن حينما خُلق هذا الشيء خصص بوظيفة.

مهمة التشريع أن كل شيء خلقه الله أعطاه وظيفة، هذا فرض، هذا واجب، هذا مستحب، هذا مباح، هذا مكروه تنزيهاً، هذا مكروه تحريماً، هذا محرم، الخمر محرمة، لكن هناك ألف نوع من المشروبات حلال، الخمر خصصت للتحريم، فقضية التحريم والتحليل من شأن خالق الأكوان.

أيها الأخوة الكرام، هذا موضوع دقيق، الله عز وجل خالق، وإذا خلق الأشياء جعلها حلالاً أو حراماً خصصها بالحرمة أو بالحل، لكن حينما حرم الله علينا لحم الخنزير قد يسأل سائل: لماذا خلقه؟ خلقه لمهمة أخرى واضحة جداً.

لذلك قضية الجعل، أي التخصيص هذا من شأن الله وحده، لذلك قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

[سورة يونس: 59]

أي أنت لستَ مؤهَّلاً أن تقول: هذا برأيي حلال ولا شيء فيه، وهذا لا أحبه وأحرمه، وأباحه الله عز وجل، يقولون: هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند، قضية الجعل أو التخصيص أو التحليل أو التحريم من شأن الله وحده.

نماذج مما جعله الجاهليون في التحريم :

الآن نقدم نماذج مما جعله الجاهليون في التحريم، قال الله عز وجل:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ)

البحيرة هي الناقة التي تشق أذنها، كعلامة على أنها محرمة، فلا يتعرض لها أحد، ولا ترد عن مرعى، ولا ترد عن ماء، ولا يشرب لبنها، ولا يركب ظهرها، ولا يجز صوفها، لأنهم قالوا: أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، من قال هذا؟ من شرع هذا؟ هذه الناقة أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، إذاً تشق إذنها علامة تحريمها، لا يتعرض إليها أحد، لا ترد عن مرعى، لا ترد عن ماء، لا يشرب لبنها، لا يركب ظهرها، لا يجز صوفها، من قال هذا؟ هذا تحريم من غير مبرر، هي ناقة خلقها الله لنا.

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ)

[سورة النحل: 5]

إذاً يمكن أن نركب ظهرها، وأن نشرب لبنها، وأن نأكل لحمها، وأن نردها عن مرعى ليس لها، الله عز وجل جاء بأمثلة، قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ)

أما السائبة فهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برأ من مرضه، أو قدم من سفره كنذر سائب، اذبحها وأطعم لحمها للفقراء، لا، لأنني شفيت من مرضي، ولأنني سلمت في سفري، هذه الناقة أسيبها، أيضاً محرم أن تؤكل، أو أن يشرب لبنها، أو أن تركب، أو أن يجز صوفها، الله عز وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ)

هذه الناقة السائبة لا يربطها أحد، وتأكل كما تريد، وتشرب ما تريد، وتنام في أي مكان، ولا يستطيع أحد أن يتعرض لها، وقد سميت سائبة أخذاً من الماء السائب.

معنى الوصيلة والحام :

قال تعالى:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ)

الوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها، كيف؟ الناقة عندما تحمل، وتضع المولود، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود، فإن كان ذكراً أكلوه، وإن كان أنثى أبقوها، لأنها تلد نوقاً أخريات، أما إذا أنجبت ذكراً وأنثى يستبقى الذكر، لأنه صاحب الأنثى، فهذه الأنثى حمته من الذبح والأكل، هذه اسمها وصيلة، أي ناقة أنجبت توأماً أنثى وذكراً، فلو كان ذكراً لذبح وأكل، ولو كانت أنثى لاستبقيت، لأنها

تحمل وتلد، أما إذا أنجبت هذه الناقة ذكراً وأنثى معاً إذاً الأنثى تحمي أخاها فلا يذبح، ولا يؤكل، هذه اسمها وصيلة، الله عز وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ)

الحام: هو الفحل الذي يحمى ظهره من أن يركب، ويترك لينطلق كما يريد، لأنه لقح عشرة أجيال من الإناث، كفاه، مكافأة له على هذا العمل العظيم، هذا يحمى ظهره من أن يركب، فالله يقول:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ)

الاقتصاد في الأحكام :

كان العلماء الكبار رحمهم الله تعالى يتحاشون أن يقولوا: حرام أو حلال، لأن التحريم من شأن الله وحده، والتحليل من شأن الله وحده، وأنا كنت في مكان سمعت أباً يقول: هذا حرام، قلت له: خفف من كلمة حرام، التحريم هذا من شأن الله وحده، أحياناً تخترع الأم أن السباحة حرام للبنت، إذا كانت في فتن طبعاً حرام، أما إذا كانت في مكان لا يراها فيه إنسان، مغلق، لا، ليست حراماً، ما من إنسان مسموح له أن يحرم وحده من دون دليل، ولا يحلل، لكن العوام أهون شيء أن تقول الأم لابنها: حرام، قد يكون غير حرام، من كثرة استعمال كلمة حرام سقطت قيمة الحرام، صار شيئاً لا قيمة له، لا تستخدم كلمة حرام إلا بدليل قطعي، من كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله بالمعنى القطعي، ليس الظني، أي يجب أن يكون الدليل قطعي الثبوت، وقطعي الدلالة، قطعي الثبوت أي قرآن، أو سنة صحيحة، أو قطعي الدلالة لا يحتمل شيئين، لذلك ينبغي أن تقتصد في أحكامك، فلا تقل: هذا حرام وهذا حلال، دع هذا لله عز وجل، لأن الله عز وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ)

[سورة يونس: 59]

الذي يقع في الإفراط والتفريط خرج من منهج الله عز وجل :

طبعاً الشواهد كثيرة جداً، هناك شخص يدعي أنه ورع، لا يرى أم زوجته، من أنت؟ أنت مشرع؟ أنت أورع من النبي عليه الصلاة والسلام، هناك إفراط في التحريم، وهناك تفريط، فالذي يقع في الإفراط والتفريط خرج من منهج الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((أشدكم لله خشية أنا، أنام وأقوم، أصوم وأفطر، أتزوج النساء، هذه سنتي فمن رغب عنها فليس من أمتي))

[متفق عليه بلفظ آخر عن عائشة]

بعض الجماعات في البلاد الإسلامية المجاورة يحرمون الزواج على الشبان، من سمح لك أن تحرم عليه الزواج، قضية الحلال والحرام قضية من شأن الله وحده، فأنت مكلف أن تبحث عن دليل التحريم القطعي الثبوت، والقطعي الدلالة قرآن أو سنة، وأن تبحث عن دليل التحليل، أن يكون الدليل قطعي الثبوت والدلالة، المشكلة أن العادات والتقاليد أحياناً تغلب على الإنسان، لذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

أحياناً تنشأ فتن، العادات والتقاليد في الأعراس تخالف الشرع، فإذا رفض الشاب المؤمن التائب أن يجاري أهله أو أهل زوجته في هذه الاحتفالات التي فيها منكرات، أقيم عليه النكير، وقامت الدنيا، ولم تقعد، ماذا فعل؟ أراد تطبيق منهج الله فرفض، لذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)

ملخص الدرس أن الله تعالى هو الخبير بجعل الأشياء حراماً وحلالاً :

أيها الأخوة الكرام، ملخص هذا الدرس أن الله سبحانه وتعالى اختص بجعل الأشياء حراماً وحلالاً، وهو الخبير.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

[سورة فاطر: 14]

وأنت ما عليك إلا أن تبحث عن الدليل، دليل التحريم أو دليل التحليل، وأن تنصاع لأمر الله، أما أن تُنصب نفسك مشرعاً، وأن تحرم أشياء، وأن تحلل أشياء، وتدعي أن هذه غير منطقية، هذا الشيء يقال يومياً، معقول المال لا أستثمره؟! هذا جهدي وعرقي، أضعه في مصرف ربوي، وآخذ فائدته، الزمن تغير، هو يحلل لنفسه، معقول أن أحجب نسائي؟! المرأة يجب أن تكون حرة، وأن تفعل ما تشاء، فكل واحد يضع لنفسه ديناً بتفصيله، يفصِّل الدين تفصيلاً على شهواته ومصالحه، الشيء الذي لا يكلفه شيئاً يعمله، يصلي، يضع:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

[سورة الفتح: 1]

ويضع آية الكرسي، ويضع المصحف بالسيارة، لكن إيداع المبلغ في البنك، وأخذ الفوائد يقول لك: هذه أصبحت ضرورة، الله عز وجل كان غافلاً حينما حرم الربا؟! هذا شيء غير مقبول، هناك من يدعي

أن العصر تغير، والأحكام الشرعية لغير هذا الوقت، هذه مشكلة الناس الآن، هو يجعل الشيء حراماً أو حلالاً كما يلوح له.

لكن هذا الدرس يعني أن الذي حرَّمه حرمه الله، والذي أحله أحله، والذي سكت عنه لا تسأل عنه، ولا تقيد نفسك بشيء كنت في بحبوحة منه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (45 - 49) : تفسير الآية 105 ، الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2004-10-08

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الآية من أدق الآيات الدالة على الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الخامسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه الآية أيها الأخوة من أدق الآيات الدالة على الحياة الاجتماعية التي ينبغي أن يحياها المؤمنون، لا بد من أمثلة كثيرة الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة النساء:29]

المعنى البديهي: لا تأكلوا أموال أخوانكم فجاءت الآية:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

أي إن مال أخيك هو مالك من زاوية وجوب المحافظة عليه، فلئن تمتنع عن أكله من باب أولى، أي إن هذا المال ملك المسلمين جميعاً، هناك ملك خاص وملك عام، أنت إنسان تملك مالاً هو لك، لكن ينبغي أن تنفقه بطريقة لا تؤذي بها المسلمين، المسلمون جميعاً لهم حق في هذا المال، لا أن يأكلوه، ولا أن يغتصبوه، ولا أن يأخذوه منك، ولكن أن تحسن إنفاقه في الصالح العام، فالمسلمون وحدة لا تتجزأ.

المؤمن حينما يستقيم ينتفع المجموع من استقامته :

أيها الأخوة الكرام:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

يجب أن تهتم بكل المسلمين، بكل المؤمنين، لم تأتِ الآية: عليك نفسك:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

ذلك أن المؤمن حينما يستقيم ينتفع المجموع من استقامته، ويتأذى الضلّال، لأن استقامته كشفت انحرافهم، المؤمن حينما يصدق ينتفع جميع الناس من صدقه، إلا أن الكاذب كشف كذبه، فالمؤمن حينما يحسن، وحينما يستقيم، ينتفع المجموع من استقامته وإحسانه، ويتأذى الضالون، لذلك هناك معركة قديمة أزلية أبدية بين الحق والباطل في أي عصر، في أي مصر، في أي مكان، في أي زمان، لا بد من هذه المعركة بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين المستقيم وبين المنحرف، المستقيم يكشف المنحرف، العفيف يكشف السارق، المخلص يكشف الخائن، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

لا يمكن أن يقبل من مؤمن أن ينجو وحده، لا بد من أن يسعى لهداية من حوله، أسرته، أقرباؤه، زملاؤه، جيرانه، أصدقاؤه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

معنى عليكم: أي الزموا، طبعاً جار ومجرور مصنفة في علم اللغة باسم فعل، هناك أسماء أفعال ليست أسماء، وليست أفعالاً، ولكنها اسم فعل، هي اسم ولكن تؤدي معنى الفعل، حي على الصلاة، أي أقبل على الصلاة.

المؤمن حينما ينقل الحق إلى الآخرين يعود الخير عليه أيضاً :

إذاً حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

كما تعلمون أن الله يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، يا من آمنتم بالله، آمنتم بعلمه، وبحكمته، وبكماله افعلوا هذا:

(عَلَيْكُمْ)

أي الزموا، الزم، ودقق، وأصلح، وصوب، وحاسب:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

معنى الزم، إن قلت لأب: الزم ولدك، أي انتبه له، دقق في تصرفاته، ابحث عن أصدقائه، دقق في تحصيله، لاحظ أخطاءه، حاول أن تصلحها، كامل العناية تفهم من كلمة الزم:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي الزموا، لذلك المؤمن حينما يصلح من حوله، وحينما يهدي من حوله، وحينما يحمل على طاعة الله من حوله، هذا الخير الذي عم يعود عليه بالخير، أنت مؤمن أمرك الله أن تكون صادقاً، فإذا أقنعت

مجموع الناس أن يصدقوا تصرفوا معك، ولم يكذبوا، أنت مؤمن لا تسرق، حينما تقنع مجموع الناس ألا يسرقوا إذاً هم لم يسرقوا منك، أنت مؤمن، حينما تقنع الناس أن يغضوا أبصارهم عن نساء لا تحل لهم، فإذا أقنعت الناس بطاعة الله هؤلاء الناس جميعاً غضوا أبصارهم عن أهلك، القضية رائعة جداً، أنت تحرص حرصاً كبيراً على أن تنقل هذا الحق إلى الآخرين، فإذا انتقل إليهم عاد الخير إليك، المثل واضح.

قد تفهم الآية التالية فهماً ما أراده الله :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

في الحقيقة أن هذه الآية سبحان الله! قد تفهم فهماً ما أراده الله، قد تفهم أن أيها الإنسان عليك نفسك، ولا تعبأ بمن حولك، مع أن الآية على عكس هذا المعنى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أي كل نفس تلوذ بك شئت أم أبيت، إن استقامت تنتفع أنت من استقامتها، وإن انحرفت تتأذى من انحرافها، أنت حينما تشتري بضاعة من بائع مسلم ينصحك، ويأخذ منك سعراً معتدلاً، أما إذا اشتريتها من إنسان غير منضبط فقد يغشك، وقد يأخذ منك سعراً فاحشاً، فحينما يعم الخير تنتفع بهذا الخير، وحينما يعم الشر تتأذى بهذا الشر، فالمؤمن يهتدي، ويسعى لهداية الناس، يستقيم، ويسعى لحمل الناس على الاستقامة، يصدق، ويسعى لحمل الناس على الصدق، لذلك الذي يبدو أن هناك فريقين من أقدم العصور وإلى نهاية الدوران، فريق مؤمن، وفريق غير مؤمن، يمكن أن نقول: هناك مؤمن وكافر، مؤمن آمن بالله، وطبق منهجه، وأحسن إلى خلقه، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة، وإنسان آخر كفر بالله، فلم يطبق أمره، وأساء إلى خلقه، فشقي في الدنيا والآخرة، ولن تجد إنساناً ثالثاً.

الله عز وجل يهلك الصالحين وينجي المصلحين وفرق كبير بين الصالح والمصلح :

أيها الأخوة الكرام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أما إذا فسد المجتمع يتضرر المؤمن، لا يجد صادقاً، لا يجد مخلصاً، لا يجد ناصحاً، لا يجد أميناً، لا يجد عفيفاً، وهذا حال فساد الأمة الآن، كل إنسان له علاقة معه لغم قد ينفجر، قد يخونك، قد يختلس منك، قد يضحك عليك، قد يكذب عليك، إذاً المؤمن من شأنه أنه يسعى لإصلاح الناس، وما لم تنشأ هذه

الرغبة عند المؤمن فإنه لن يفلح، لذلك ورد في بعض كتب الحديث:

((أن الله أرسل ملائكة لإهلاك قرية، فقال الملائكة: يا رب، إن فيها صالحاً، قال: به فابدؤوا، قالوا: ولِمَ يا رب؟ قال: وجهه لا يتمعر إذا رأى منكراً))

[ورد في الأثر]

لذلك الله عز وجل يهلك الصالحين وينجي المصلحين، فرق كبير بين الصالح والمصلح، يهلك الصالحين، وينجي المصلحين، فمعنى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

الزموا، انصحوا، ارشدوا، ادعوا، دققوا، حاسبوا، اخرج من ذاتك لهداية الخلق لا تتمحور حول ذاتك، لا تقل: لا يعنيني أمر هؤلاء، ينبغي أن تحمل همَّ المسلمين، ينبغي أن تسعى لهدايتهم، لذلك:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

جميعاً، إن صلح الناس سعد المجتمع، صلاح الناس يعود بالخير على المؤمن، وفساد المجتمع يعود بالشر على المؤمن.

المسلمون وحدة إذا صلحوا سعد الأفراد بصلاحهم وإذا انحرفوا شقي الأفراد بانحرافهم:

مرةً إنسان استنصحني قبل زواجي، قلت له: يتوهم معظم الأزواج أنه لمجرد أن يقترن بفتاة دخل في سعادة لا تنتهي، لا، ما لم تأخذ بيد الفتاة إلى الله، ما لم تدلها على الله، ما لم تحملها على طاعة الله، لن تنتفع منها، لن تسعدك، أما تسعدك إذا تعرفت هي إلى الله، أو ساهمت أنت في هدايتها إلى الله، الآن أنت لا تنجو من المجتمع، كله يكذب، كله يغش، كله يحتال، كله يقتنص، كله يأخذ ما ليس له، أما إذا ساهمت في هداية هؤلاء يعود الخير عليك، ولا تنسى أبداً أن الله نهاك عن أن تكذب نهى ملياراً وثلاثمئة مليون مسلم عن أن يكذبوا عليك، وإذا نهاك عن أن تسرق نهى ملياراً وثلاثمئة مليون مسلم أن يسرقوا منك، فكلما صلح المجتمع عاد الخير عليك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

المسلمون وحدة، كتلة واحدة، إذا صلحوا سعد الأفراد بصلاحهم، وإذا انحرفوا شقي الأفراد بانحرافهم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

الزموا، وجهوا، ائمروا بالمعروف، انهوا عن المنكر، خذوا بيد الآخرين إلى الله، دلوهم على الله، أعينوهم على طاعته، هيئوا لهم أسباب الهداية:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

ابدأ بنفسك، ابدأ بأولادك، ابدأ بأولاد أخيك، ابدأ بأولاد جيرانك، ابدأ بمن حولك، ابدأ بزملائك، ابدأ بأصدقائك، مثلاً:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ)

[سورة النساء: 5]

المعنى: أموالهم، السفيه المجنون له إرث كبير، المعنى: لا تؤتي هذا السفيه ماله.

مال الفرد هو مال المجموع :

الآية:

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ)

[سورة النساء: 5]

المال ملك المجموع، بمعنى أنه يجب أن ينفق بمصلحة المجموع، المال ملك جميع الناس، بمعنى أن يوظف هذا المال لمصلحة المجموع، أنت معك مال أسست معمل غذائيات، وطرحت بضاعة جيدة في السوق بأسعار معتدلة، فساهمت في خفض الأسعار.

إنسان معه مال، أنشأ معمل خمور، يقول لك: مالي، هو مالك فعلاً، لكن هذا المال مال الأمة، أن تنفقه في صنع شراب يعطل العقل فأنت أسأت إلى مجموع الأمة.

إذاً معنى مال الفرد هو مال المجموع بمعنى أن ينفق في صالح المجموع، هذا المعنى، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

المعنى الحرفي لا يستقيم، واحد له جيبان، أخذ مئة ليرة من هنا، وضعها هنا، ماذا فعل؟

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

لا أريد أن آكل أموالي من جيب إلى جيب، هذا المعنى غير مقبول، لكن الله عز وجل يلفت نظرنا إلى أن هذا المال الذي تملكه أنت ملك الأمة، مسموح أن تنفقه إنفاقاً لصالح الأمة، أما أن تنفقه إنفاقاً لإفساد الأمة، الأمة تمنعك من ذلك، هذا المعنى بالضبط، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

هو ماله، لكنه مال الأمة من حيث أن تكون رقيبة على إنفاق هذا المال.

للزوج الحق في أن يمنع زوجته من أن تستثمر مالها في طريق غير مشروع :

لو أن إنساناً متزوجاً، والزوجة تملك مالا وفيراً، أرادت أن تتاجر بالمهربات، لو أن هذا التهريب كشف تعتقل الزوجة، تتعطل الأسرة، يشرد الأولاد، يقول لها الزوج: هذا المال هو لك، ولكنه لمجموع الأسرة، أي أنفقيه لصالح الأسرة، لو أنفق هذا المال في مشروع يعود على الأسرة بالضرر فأنا أمنعك من ذلك، لذلك للزوج أن يمنع زوجته أن تستثمر مالها في طريق غير مشروع، يعود بالدمار، لو أنبأها تاجر مخدرات أن القرش بمليون فلزوجها أن يمنعها، لأن هذا قد يجلب إعدامها بحسب القوانين، فمع أن المال مالها ينبغي أن ينفق لصالح الأسرة، هذا المعنى، ومع أن المال مال زيد أو عبيد فينبغي أن ينفق لصالح المؤمنين، لذلك:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ)

[سورة البقرة: 188]

بعدئذٍ يقول:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

ما قال: أموالكم، هذه ملمح رائع جداً:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)

[سورة النساء: 6]

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

ينبغي أن تهتم بمن حولك، ينبغي أن تهتم بأولادك، بأسرتك، بأهلك، بجيرانك، بأصدقائك، بأقربائك، ينبغي أن تهتم بمجموع المسلمين، ينبغي أن تخرج عن ذاتك إلى هداية الآخرين، ينبغي أن تحمل هم الأمة، ينبغي أن تسهم بشكل أو بآخر في التخفيف عنها، في تقويتها، في صلاحها، في صلاح أبنائها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

أي اجتهد، مر بالمعروف، انهَ عن المنكر، وضح للناس الحق.

قد يغيب عنكم أيها الأخوة، وقد ذكرت هذا كثيراً أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، عينٍ، عينٍ وليس فرض كفاية، هي فرض كفاية على بعض المسلمين، إذا قاموا بها سقطت عن المجموع، التبحر، والتفرغ، والتعمق، وامتلاك الأدلة التفصيلية، والرد على كل الشبهات هذه فرض كفاية، إذا قام

بها بعض العلماء المتبحرين، المتفرغين، المتعمقين سقطت عن المجموع، يؤكد هذا قوله تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران: 104]

أما الدعوة إلى الله كفرض عيني تؤكدها الآية الكريمة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر: 1-3]

التواصي بالحق فرض عين على كل مسلم في حدود ما يعلم ومع من يعرف :

التواصي بالحق فرض عين على كل مسلم، في حدود ما يعلم، ومع من يعرف، يؤكد هذا الفرض العيني آية أخرى:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

[سورة يوسف: 108]

إن لم تدع إلى الله على بصيرة فأنت لست متبعاً لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وحينما قال الله عز وجل:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)

[سورة آل عمران: 31]

معنى ذلك أنك إن لم تتبع رسول الله عليه الصلاة والسلام فأنت لا تحب الله بنص هذه الآية. إذاً معنى:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

أن تسعى لهداية من حولك.

من لم يفكر بنشر الحق الطرف الآخر يقوى ويفرض عليه دينه :

قال تعالى:

(عَلَيْكُمْ)

الزموا، دققوا شددوا، اهتموا، احرصوا على هداية الآخرين، ذكروهم، أعطِ أخاك شريطاً تأثرت به كثيراً، اسمعه ورده إليه، أنت ساهمت، أعطِ أخاك مقالة قرأتها فتأثرت بها، اقرأها وردها إليه، اجلس مع أخوانك في لقاء لطيف قصير معتدل، ذكرهم بآيات الله، بيِّن لهم آية كونية، اشرح لهم آية قرآنية، بيّن لهم حديثاً شريفاً، بيّن لهم حكماً فقهياً، بيّن لهم موقفاً من مواقف الصحابة المشرفة، ذكرهم بالآخرة،

ذكرهم بعظمة هذا الدين، ذكرهم بعظمة هذا النبي الكريم، بيّن لهم عدل الإسلام، سماحة الإسلام، سمو الإسلام، تحرك، تكلم.

هناك حالة اسمها إدمان سماع، مدمن لسماع دروس، إلى متى؟ أيعقل أن يمضي إنسان كل عمره يسمع؟ ينبغي بعد أن سمع أن ينطق، أن يتكلم، أن يتحرك، أعطِ شريطاً إن كنت لا تحسن إلقاء الموعظة، إلقاء العلم، أعطِ شريطاً، وزع الحق بين الناس.

أيها الأخوة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

لماذا؟

(لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

إن لم تفعلوا ذلك ضركم من ضل، الآن الذين ضلوا ألا يضروننا؟ يصلون إلى أدق تفاصيل حياتنا، يريدون أن يبدلوا كلام الله، يريدون أن يضعوا بين أيدينا قرآناً من صنعهم، فرقاناً جديداً، فيه آيات عجيبة: يا محمد أأنت أضللت عبادي، فيقول محمد: يا رب، لقد ضللت فأضللتهم**!!!**

هذه إحدى آيات الفرقان الحق، يريدون أن يضعوا لنا قرآناً آخر، يريدون أن يمنعوا أولادنا من تعلم الشريعة، يريدون أن يوقفوا كل العمل الخيري، أليس كذلك؟ هذه الآية، إذا أنتم لم تفكروا بنشر هذا الحق الطرف الآخر يقوى، فإذا قوي فرض عليكم ثقافته، وفرض عليكم إرادته، وفرض عليكم دينه، أليس كذلك؟**!!**

عليكم أنفسكم حتى لا يضركم من ضلّ :

هذه آية العصر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

فإن لم تفعلوا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ:

(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا)

(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)

عندئذٍ:

(لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

أما إذا لم تهتدوا تدخَّلوا في أدق تفاصيل حياتكم، ومنعوا عنكم كل خير، ومنعوكم أن تؤدّوا عباداتكم ، منعوكم أن تدفعوا زكاة أموالكم، أليس كذلك؟ هذا ما يجري في العالم الإسلامي. في بلد إسلامي في

شرق آسيا أغلقت خمسة آلاف معهد شرعي، في مكان آخر منع من طبع المصحف، في مكان ثالث الأخبار سيئة جداً:

(عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ)

أو يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ، فلئلا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ:

(عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ)

كيفية إنكار المنكر بالقلب :

أخواننا الكرام، موضوع دقيق جداً، حينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ)

أي ينبغي أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أمرت بالمعروف، وانتهى الأمر، لكن هذا المنكر الذي أمامك كيف تنهى عنه؟ ابنك وجدت معه حاجة ليست له، هنا ينبغي أن تزيل هذا المنكر بيدك، لأنه ابنك، لعل ابن أخيك لا تستطيع أن تعامله كابنك، ينبغي أن تزيل المنكر بلسانك، لكن لو رأيت إنساناً لا تعرفه ولا يعرفك، وهو أقوى منك يرتكب منكراً كبيراً لا تستطيع أن تنصحه، يسحقك، مثلاً، كما أنه لا تستطيع أن تزيل هذا المنكر بيدك، ماذا تفعل؟ ينبغي أن تنكره بقلبك، هنا المشكلة، ما معنى إنكار المنكر بالقلب؟ قد يفهم الناس خطأ أن إنكار المنكر بالقلب بحيث تقول في قلبك: اللهم إن هذا منكر لا أرضى به، لكن هذا الذي يقترف هذا المنكر ينبغي ألا تبتسم له، ينبغي ألا تحتفل به، ينبغي ألا تعظمه، ينبغي ألا تقيم معه علاقة حميمة، ينبغي ألا تمدحه، إنكار المنكر بالقلب أيضاً حركة، لكن حركة سلبية، لا تمدحه أبداً، ولا تثن عليه، ولا تزره، ولا تعظمه، ولا تحتفل به، ولا تبتسم له إن رأيته، كل إنسان فعل منكراً فرأى المسلمين تجهموا به، وابتعدوا عنه، ولم يسلموا عليه فأنت حاصرته، وضيقت عليه، فحملته على أن يستقيم، إنكار المنكر بالقلب له معنى عملي.

مثلاً: إنسان له أخت متفلتة، متبرجة، مستهترة، تبرز كل مفاتنها في الطريق، دخلت عليه زائرة، قال بقلبه: اللهم هذا منكر لا أرضى به، كيف حالك يا أختي؟ إن شاء الله بخير، والله اشتقنا لك، لم نعد نراك، أطلت الغياب علينا، هكذا قلبكِ قاس علينا؟! بهذا المنظر البشع المتفلت؟! هذه الشقيقة حينما ترتدي هذه الثياب ينبغي ألا تستقبلها في بيتك، وينبغي أن يفعل هذا أخوك أيضاً، وأخوك الثالث، فإذا رأت أنها معزولة ومحاصرة عادت إلى رشدها، إنكار القلب أي أن تأخذ موقفاً سلبياً، ألا تثني على من يفعل المنكر، ألا تمدحه، ألا تحتفل به، ألا تبتسم له، ينبغي أن تأخذ منه موقفاً، هل تصدقون أن إنساناً إذا ظلَم، ونظر إليك، ولم تقل شيئاً، إلا أنك هززت برأسك، وكأنك أشعرته أنك توافق على هذا الظلم،

فقد شاركته في الإثم، لأنه:

((من أعان ظالماً سلطه الله عليه))

[رواه ابن عساكر عن ابن مسعود]

((من أعان ظالماً على ظلمه جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب: آيس من رحمة الله))

[أخرجه الديلمي عن أنس رضي الله عنهما]

صلاحنا بصلاح المجموع :

المفهوم الذي ينبغي أن نفهمه من إنكار القلب أن تأخذ موقفاً سلبياً، هذا إنكار القلب، أنت لا تستطيع أن تمنعه بيدك، كما أنك لا تستطيع أن تنصحه، لا يلقي لك بالاً، لكن بإمكانك ألا تقيم معه علاقة، دعاك إلى نزهة تعتذر، تعال زرنا، تقول: واللهِ أنا مشغول، ينبغي أن تشعره أنه معزول، وأن مجموع المسلمين قاطعوه، هذا الذي ينبغي أن يكون، إذا فعلنا هذا فقد طبقنا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

صلاحنا بصلاح المجموع، ثمة حالة استثنائية سأوردها لكم، قال عليه الصلاة والسلام حينما سئل مرة عن هذه الآية: يا رسول الله ما تعني:

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)

فقال:

((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامّ))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه عن أبي أمية]

من هم خاصة النفس؟ أولادك، أقرباؤك، جيرانك، أصدقاؤك، زملاؤك.

في هذا الزمان دع عنك أمر العامة وعليك بالخاصة ممن يثق بك وتثق به :

أنت لست مكلفاً بعصر وصفه النبي:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً))

مادية، يبيع دينه بمئة ليرة، يقسم يميناً معظماً كاذباً أن شراء هذه البضاعة أعلى مما يبيعها، وهو كاذب:

((حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً، وَهَوًى مُتَّبَعاً))

الجنس هدف كل إنسان:

((وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيِهِ))

كل إنسان محور العالم، تقول له حديث صحيح، يقول: الحديث غير واقعي، لا يطبق في هذا الزمان، الله حرم الربا، مستحيل، يقول لك: الحاجة أساسية:

((وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيِهِ))

في هذا الزمان بالذات دع عنك أمر العامة فقط، العوام لا علاقة لك بهم، لكن:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ))

بمن يلوذ بك، بمن يثق بك وتثق به، بمن يقبل نصيحتك لذلك الله عز وجل قال:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ* وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء: 213-214]

القريب واثق منك، القريب لا يخاف منك، القريب يستمع إليك، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((فإنّ مِنْ وَرَائِكُم أيَامَ الصّبْرِ، الصّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلَ أجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ))

[أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه]

إذاً عندنا حالة خاصة:

((إذَا رَأيْتَ شُحّا مُطاعاً، وَهَوًى مُتّبَعاً، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأيٍ برَأيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ وَدَع الْعَوَامّ))

خاصة النفس كل من يثق بك وتثق به ينبغي أن تبلغه هذه الرسالة، ينبغي أن تنصحه، ينبغي أن تأمره بالمعروف وأن تنهاه عن المنكر، حتى تسلم هذه الأمة، وحتى يتحقق قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[البخاري والترمذي أخرجه وأحمد في مسنده عن ابن عمرو]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (46 - 49) : تفسير الآيات 106 - 108 ، الوصية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-10-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات التالية حول الوصية :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية السادسة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنْ الْآثِمِينَ)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية والتي تليها حول الوصية، والوصية واجبة في الشريعة في حالات كثيرة، من هذه الحالات: أن تكون هناك أملاك ليست لك، سجلت باسمك لسبب أو لآخر، فإذا مات الإنسان فجأة فهذه الأملاك، وقد تكون بيوتاً وعقارات غالية جداً هي لك، ولا يستطيع أحد أن يأخذها منك، من حق الورثة، فإن لم تكن لك، ولم تكتب في وصية أنها ليست لك، وأنها لزيد أو عبيد، فقد أطعمت أولادك مالاً حراماً، قد تلقى بهذا العمل عند الله عقاباً كبيراً.

المال قوام الحياة فينبغي أن نحسن إدارته :

الذي في اسمه أملاك ليست له، أو عنده أمانات ليست له، أو عليه أداء واجبات لم تؤدَّ، أو عليه حقوق لم تعط، في مثل هذه الحالات لا يجوز أن تبيت ليلة واحدة من دون وصية، والشواهد والقصص التي نستمع إليها من خلال إهمال الوصية لا تعد ولا تحصى.

إنسان أمواله مصادرة، فتلافى مصادرة بيته الذي يسكنه بأن سجله تسجيلاً صورياً عند صديق له، وهذا الصديق لم يكتب في الوصية أن هذا البيت ليس له، فمات الإنسان فجأة، فهذا البيت له وللورثة من بعده، معنى ذلك أننا أطعمنا الورثة مالاً حراماً. لذلك من واجب المؤمن أن يدير أمواله في حياته، وأن يحسن إدارتها بعد مماته، أن يديرها في حياته بالعدل والإحسان، أما أن يديرها بعد مماته فعن طريق الوصية، كل شيء مكتوب.

أيها الأخوة، المال قوام الحياة، أحياناً الرجل يدع لأولاده مالاً فيشترون بيتاً يسكنونه، يتجرون بمبلغ، يتزوجون، يكون قد ترك لأولاده ما يقيم أودهم، فإذا كان هذا المال الذي تركه لهم لكن لم يحقق، كان باسم آخر، وحرم الأولاد منه، وفقدوا قوام حياتهم، فالمسؤولية تعود على الأب، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ، ثُمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ:]مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنْ اللَّهِ [، إِلَى قَوْلِهِ:]ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [ ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

كما أنك مكلف أن تدير مالك في حياتك فأنت مكلف أن تعطي كل ذي حق حقه، وأن تدير المال بعد حياتك، فهذه ملاحظة أولى. المال مرة ثانية قوام الحياة، فينبغي أن تحسن إدارته، الآن هناك علوم جديدة اسمها إدارة النفس، وإدارة الوقت، ومعها إدارة المال، إدارة المال جزء أساسي من سلوك المؤمن، يعطي كل ذي حقٍ حقه.

شيء آخر، أن الله عز وجل في هذه الآية أورد أن الموت مصيبة، فالذي جمعه الإنسان في كل حياته يخسره في ثانية واحدة، بمقياس الدنيا، بيوت، مزارع، مركبات، تجارة، أموال منقولة، أموال غير منقولة، لمجرد أن يقف القلب أصبحت هذه الأموال ليست له، إذاً الموت مصيبة، لكن بطولة الإنسان أن يجعل الموت كما قال عليه الصلاة والسلام عرس المؤمن، باستقامته وتوبته يجعل الموت أحلى لحظاته حياته الأبدية.

الهبة في الحياة والوصية بعد الممات ولا وصية لوارث :

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

يا من آمنتم بالله عز وجل، يا من دخلتم مع الله بعقد إيماني، يا من آمنتم أن الله عدل، ورحيم، وحكيم، وتشريعه مطلق في خيريته، افعلوا كذا وكذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

كلكم يعلم أنه لا وصية لوارث، لكن ماذا يمنع إن وجد الأب ابنته فاتها قطار الزواج، وقد تكون تحت رحمة أخوتها الذكور، بل تحت رحمة زوجاتهم، وقد تُهان، فقد هيأ لها بيتاً، منحها إياه في حياته، هذا هبة، والهبة حكمها نافذ في الشرع، ولكن الذي يهب من حوله في حياته ينبغي أن يهيأ لله عز وجل جواباً منزهاً عن الهوى، منزهاً عن المحاباة، لك أن تهب أولادك، أو من يرثك في حياتك أي شيء،

ولكن بشرط أن تهيئ لله عز وجل جواباً عن ذلك. إنسان عنده ابن معاق، فلا عليه أن يهبه في حياته بيتاً أو دكاناً، بحيث تدرّ عليه دخلاً، ويعيش عزيزاً، ويتأبى أن يكون تحت رحمة أخوته.

إذاً مبدئياً الهبة في الحياة، والوصية بعد الممات، ولا وصية لوارث، لكن الوصية هنا بمعناها الواسع، أيّ قضية مشكلة، أي إشكال في العقارات، في الأموال المنقولة، الغير المنقولة، في الشركات، لو أن إنساناً أودع عندك أمانة، مبلغاً ضخماً، وعندك صندوق حديد، ولم تكتب مع هذا المبلغ لمن هذا المبلغ، والإنسان مات فجأة، هل يستطيع الورثة أن يعطوا كل مدعٍ ما يقول؟ مستحيل، إلا أن تأتي ببينة، فأنت ما منحته إيصال لهذا الذي أودع عندك الأمانة، ولم تكتب مع المال أن هذا المال عائد لفلان أمانة يؤدى حين الطلب، ومات الإنسان فجأة، وحالات الوفاة المفاجئة كثيرة جداً. أراد إنسان أن يبدل بعض العملات، والقصة قديمة، فأعطى الذي يعمل في صرف العملة مبلغ مليوني ليرة، وعاده بعد المغرب أن يعطيه المقابل، بينهما وافته المنية باحتشاء في قلبه، لا هناك ورقة، ولا شيء، فكاد هذا الإنسان أن يختل توازنه.

يجب أن تُكتَب الوصية وأن يشهد عليها شاهدا عدل :

الوصية بمعنى أيّ علاقة مالية لك أو عليك، أي واجب لم يؤدَّ، عندك موظف وعدته بمنحة بعد فترة، الآن لا تملك هذه المنحة، الإنسان مات فجأة، هذا أصبح حقه، اكتب هذا الوعد على ورقة، كل قضية مالية تخشى أن تضيع أو ألاّ تؤدّى اكتبها في وصية، والوصية تتجدد، هناك أشخاص كل شهر يجدد الوصية، وأشخاص كل سنة، لكن لو فرضنا إنساناً ليس له علاقة مالية، ليس عليه حق يؤديه، وليس له عند الناس حق يأخذه، وعلاقاته نظيفة جداً، وقلما تجد هذا الإنسان، هذا الإنسان الوصية في حقه مباحة، أي إن كتبها يكون قد اقتدى بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، لكن العلماء يؤكدون أن الإنسان لا يجوز أن يؤوي إلى فراشه إلا ووصيته تحت وسادته، وأنا أعلم رجلاً مات بخثرة في الدماغ فجائية، هناك علاقات بالملايين، ولا وثيقة لديه، كلها اتفاقات شفهية، أذكر سنوات تزيد على عشرين سنة، والأمور لم تنتهِ، أتعب أهله تعباً لا حدود له، فالأولى أن تكتب العلاقات المالية، ما لك وما عليك، ما عليك من حقوق، ما عليك من واجبات، ما ينبغي أن تؤديه، ما يمكن أن تطالب الآخرين به، هذا كله يكتب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

اكتب الوصية، وأشهد عليها شاهدي عدل، ما معنى عدل؟ نحن في الحياة المدنية عندنا مصطلح اسمه الحقوق المدنية، الإنسان له حقوق مدنية، وأحياناً تسقط هذه الحقوق، لكن في الإسلام العدالة أحد

خصائص المؤمن، العدالة والضبط، وهذان المصطلحان يستخدمان كثيراً في علم الحديث، ولاسيما في الجنح والتعديل، فلان عدل، غير أنّ:

((مَن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

[سلسلة الأحاديث الضعيفة]

العدالة من صفات المؤمن :

هذا الإنسان عدل، لا يكذب، لا يزوِّر، لا يغير، لا يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، صادق، أمين، عفيف، العدالة من صفات المؤمن، تسقط إذا ظلمت الناس، تسقط إذا وعدتهم فأخلفتهم، تسقط إذا خالفت مبادئ الدين في تعاملك معهم، عاملهم فلم يظلمهم، حدثهم فلم يكذبهم، وعدهم فلم يخلفهم. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد في المسند عَنْ أبي أُمَامَةَ]

إذا خان أو كذب فليس مؤمناً، بل انسلخ من الإيمان، إذاً العدالة تسقط حين الكذب، وحين إخلاف الوعد، وحين الظلم، لكن العلماء من بعض الأحكام الشرعية، ومن بعض الأحاديث النبوية استنبطوا حالات كثيرة تجرح فيها العدالة مثلاً: من علا صياحه في البيت تجرح عدالته، من تنزه في الطرقات ليملأ عينيه من الحسان تجرح عدالته، من أكل في الطريق، من مشى حافياً، من بال في الطريق، من طفف بتمرة، الوزن ما كان دقيقاً، لم يرجح الميزان، من أكل لقمة من حرام، أكل حبة من الفاكهة، وأوهم البائع أنه سيشتري، بهذا جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان، السرعة العالية في قيادة السيارة، هذه تجرح العدالة، من ربى حيواناً مخيفاً أخاف به الناس، من قاد برذوناً بسرعة تجرح عدالته، من كان حديثه عن النساء تجرح عدالته، العلماء ذكروا عدة أشياء تزيد على الثلاثين بند كلها تجرح العدالة، من صحب الأراذل تجرح عدالته، أنت مستقيم مسلم، هذا الذي تمشي معه زانٍ، أو شارب خمر، وأقمت معه علاقة حميمة إذاً تجرح عدالتك، لا تقبل شهادتك، العدالة أن تتمتع بالحقوق المدنية في المصطلح الحديث، أو في المصطلح الإسلامي تقبل شهادتك، يقبل حكمك في أمور كثيرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ)

يجوز للذمي أن يشهد في السفر :

إضافة إلى هذه الشهادة التي كتبتها عليك أن تشهد اثنين:

(اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

يتمتعان بالعدالة، بالخلق القويم، لا يكذبان، لا يدلسان، لا يزوران، لا يبالغان، بالتعبير المعاصر موضوعيان.

(اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)

إن كان الإنسان مسافراً، ومعه غير المسلمين، هو المسلم الوحيد، في هذه الحالة:

(أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ)

العلماء رأوا من خلال هذه الآية أنه يجوز للذمي أن يشهد في السفر، وأن تنفذ شهادته.

(آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ)

أي سافرتم:

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

الموت مصيبة طبعاً، فضلاً عن أن الإنسان المؤمن تنتظره وينتظره قبر هو روض من رياض الجنة، وفضلاً عن أن المؤمن يرى مكانه في الجنة حينما يأتيه ملك الموت، والمؤمن يعرق من شدة خجله من الله عز وجل لعظم العطاء الذي ينتظره بعد الموت، وهذا يؤكده قول النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة حينما كان على فراش الموت. قالَ:

((لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ...))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ]

الحكمة من حبس الشاهدان اللذان حضرا موت المسلم من بعد الصلاة :

إذاً:

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

أيها الأخوة، الإنسان يولد كل من حوله يضحك وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي فبطولته أن يضحك وحده.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

[سورة ياسين: 26-27]

(فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ)

الآن هذان الشاهدان:

(تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ)

ما الحكمة؟ القافلة وصلت، والميت دفن في الطريق، والوصية مكتوبة، وهناك شاهدان، إما مسلمان أو غير مسلمين، أتيا إلى بيت المتوفى، وسلما ما عندهما من أمانة، قد تكون مالية، قد تكون ذهباً، قد تكون حاجات، قد تكون أدوات، قد تكون بضاعة، فهذان الشاهدان اللذان حضرا موت هذا المسلم يُحبسان من بعد الصلاة، الملمح الرائع في هذه الآية أن الإنسان حينما يصلي كأنه يصطلح مع الله، فمن الصعب جداً أن يزوِّر أو أن يكذب بعد الصلاة، ملمح أنه أنت حينما تدخل بيت الله كي تصلي، الآن بعد الصلاة، بعد هذا الدرس، لو خرجت إلى خارج هذا المسجد، وإنسان سألك سؤالاً: أمعك مئة ليرة تقرضني إياها؟ ومعك ألف وخمسمئة، تقول له: والله ما معي، هذه لا تتناسب مع صلاتك، لا تتناسب مع الصلاة التي أديتها، هناك تناقض مريع.

اصطفاء الله عز وجل لعلة هداية خلقه ولعلة حسن علاقتهم به :

الحقيقة هذا شيء يقودنا إلى موضوع في الصيام، الله عز وجل منعك من تناول الطعام والشراب وهو مباح في كل أشهر العام، منعك من اللقاء الزوجي في نهار رمضان وهو مباح في كل أشهر العام، فأنت في رمضان امتنعت عن المباحات، هل يعقل أن تأتي المعاصي والآثام؟ يختل توازنك، فكأن الله سبحانه وتعالى قوَّى إرادتنا على طاعته هذه، فالإنسان إذا ضبط نفسه ثلاثين يوماً في رمضان ففي الأعم الأغلب، وفي الأعم الأغلب مرة ثانية أنه يتابع هذه الاستقامة بعد رمضان، فالله عز وجل حينما اصطفى من بين الأشهر شهر رمضان كي تصفو علاقتنا مع الله في هذا الشهر، فمن أجل أن ينسحب هذا الصفاء لكل أشهر العام، وحينما اصطفى مكاناً هو بيت الله الحرام من أجل أن تصفو علاقتنا بالله في هذا المكان، العبرة أن ينسحب هذا الصفاء الذي أصابك في بيت الله الحرام إلى كل مكان تقيم فيه، وحينما اصطفى سيد الأنبياء والمرسلين ليكون سيد الخلق وحبيب الحق، من أجل أن يكون هذا المنهج، وتلك القدوة معممة على كل بني البشر، فاصطفاء الله عز وجل لعلة هداية خلقه، ولعلة حسن علاقتهم به. إذاً: هذان الرجلان يدليان بشهادة مدعمة بالأيمان:

(تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ)

أحياناً أهل الميت يعلمون أن معه مبلغاً ضخماً جداً، أو اشترى بضاعة غالية جداً، وأجهزة ثمينة جداً، وإذا بالذي يأتي إلى البيت أشياء تافهة، فصار هذان اللذان كانا مع الميت في سفره في ريب، وكتب

الميت وصية في ريب، وشهدا عليها في ريب، ثم جاءا بالبضاعة أو بالمتاع أو بالأموال في ريب، وعند الأهل تصور أكبر بكثير في ريب، فهنا دخل الشك، قال تعالى:

(فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنْ الْآثِمِينَ)

الشهادة من أعظم الأشياء في هذا الدين الحنيف :

الحقيقة أن هذه من نعم الله الكبرى، أنه عندنا في القضاء شيء اسمه اليمين الحاسمة، لو وجدت ألف مسلم لا يتجرّأ واحد أو اثنان أن يضع يديه على المصحف، وأن يقسم بالله قسماً مغلظاً مؤكداً أنه سيقول الحق، ويقول بغير الحق، فالقسم يعد حاسم.

مرة التقيت مع أحد المحامين، قال لي: والله أمام عيني قضية مالية كبيرة جداً بمئات الملايين، ومن أجل أن تنتقل من جهة صاحبة الحق إلى جهة معتدية لا تملك هذه الثروة يحتاجون إلى شاهد زور، وجاؤوا بالشاهد، قال لي: والله أمام عيني، وقف الشاهد أمام القاضي، ووضع يده على كتاب الله، وقال: أقسم بالله العظيم أن أقول كل الحق، ولا شيء غير الحق، وأقسم، وأدلى بالشهادة المزورة، ورفع يده فبقيت مرتفعة، فالقاضي انتبه فقال له: أنزل يدك، فارق الحياة، ثم وقع على الأرض، قال لي: والله أمام عيني رأيت هذه القضية، فاليمين الحاسمة كبيرة جداً. رجل عليه محاكمة فقيل له: ائتِ بشهود، ما عنده شهود، لكن له شهود بالأجرة، فخرج إلى ظاهر البناء فوجد أناساً كثيرين يعرضون عليه الشهادة، فاختار أحدهم، وساومه على خمسة آلاف، هي قضية تموينية، فلما دخل الشاهد أمام القاضي، ورأى مصحفاً، وعليه أن يقسم بالله، قال له: لحظة، خرج، وقال له: أريد عشرة آلاف، ظهر أن هناك يميناً، قضية لها ثمن. لذلك الشهادة من أعظم الأشياء في هذا الدين الحنيف، قال تعالى:

(إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى)

لو فرضنا إنساناً مات مسمماً، ويملك ألف مليون، والذي ساهم في تسميمه أحد أقربائه الذين يرثون حصة كبيرة، وجيء بالقاضي الشرعي، وأعطي خمسة ملايين، أو خمسة وعشرين مليوناً، صار الآن من يملك أربعة آلاف مليون خمسة آلاف مليون لو أعطى هذا القاضي الشرعي خمسة وعشرين مليوناً ليقول: الموت طبيعي، فقط، إذا كتب بالتقرير: الوفاة طبيعية، قبض خمسة وعشرين مليوناً، هذا القاضي مؤمن، قال له: والله لو تعطيني الألف مليون لا أكتب خلاف الحق، هذا ما اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، أما لو قبض خمسين مليوناً، لو قبض نصف الألف فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً.

الخوف من الله أحد أبرز معالم الشخصية الإسلامية :

في الإسلام شيء لا أحد ينتبه إليه، هذا الخوف من الله، الخوف من الله أحد أبرز معالم الشخصية الإسلامية، لا يبيع دينه ولا بالمليارات.

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه))

[سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري]

هذا هو الموقف، أنا أقول دائماً: المؤمن لا تثنيه عن مهمته في الحياة لا سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، ثابت.

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب: 23]

يروي بعض علماء التفسير سبب نزول هذه الآيات أن رجلاً مسلماً هو مولى العاص بن وائل السهمي كان على سفر لغير المسلمين، وحضرت له مقدمات الموت، فكتب ورقة فيما بينه وبين نفسه، ووضعها مع كل ما معه من متاع، ونادى على اثنين من غير المسلمين، وهما تميم الداري، وعدي بن بداء، وأوصاهما أن يسلما متاعه إلى أهله، أي بضاعته، وقد يكون تاجراً، ومات الرجل، لكن الاثنين فتحا المتاع، ووجدا فيه إناء مفضضاً ومذهباً، وله قيمة كبيرة، فأخذاه وباعاه بألف درهم، واقتسما المبلغ، وسلما المتاع لأهل الميت، أهل الميت عثروا على الورقة التي كتبها ميتهم في ثنايا المتاع، وفيها كل التفاصيل، بما فيها الإناء المذهب والمفضض، وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء، فأنكرا أية معرفة به، وأنكرا أيضاً أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه، وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع، وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء، فذهب أهل الميت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر الوصية، مما يروى بعد هذه الحادثة أن تميم الداري كان غير مسلم، لكنه أسلم، فلما أسلم ذهب إلى أهل الميت وأدى الخمسمئة درهم نصيبه من بيع الإناء.

تفريق الشهود أحياناً يكون سبب كشف الكذب :

حدثني أخ، والله له عندي مكانه بحسب ورعه، كان يعمل في لف المحركات ، قال لي: قبل أن أصطلح مع الله، وقبل أن أتوب قد يأتي محرك فيه شريط خارجي مقطوع، أصلحه في ثانية واحدة، نقطة لحام،

ويعود ليعمل هذا المحرك، المحرك أجرة لفه خمسة آلاف ليرة، والقصة قديمة، الآن أكثر، في بعض الحالات يأتي محرك، يفتحه فيجد الشريط الخارجي مقطوعاً، يضع له نقطة لحام، ويعود كما كان، قال لي: قبل أن أعرف الله يأتي صاحب المحرك بعد أسبوع أعرضه عليه يعمل بانتظام، وأقبض الخمسة آلاف ليرة زوراً وبهتاناً، قال لي: بعد أن اصطلحت مع الله أقول له: خمس وعشرون ليرة، قال لي: غير معقول، انظر إلى الفرق، الفرق بعد أن عرفت الله، وقبل أن تعرفه. فتميم الداري قبل أن يعرف الله أخذوا الإناء وباعوه، وأخذ نصف قيمته، بعد أن اصطلح مع الله، وأسلم ذهب من عنده مباشرة إلى أهل الميت وأعطاهم خمسمئة درهم نصيبه من بيع الإناء.

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

هذان الشاهدان المسلمان أو غير المسلمين كلاهما سواء:

(فَإِنْ عُثِرَ)

أي اكتشف صدفة، أحياناً هناك طريقة يتبعها القضاة في تفريق الشهود، ثلاثة أشخاص قدموا كتاباً زوراً وبهتاناً لإنسان مستقيم، أنه قبض رشوة على هذا العمل، فهذا إنسان مستقيم بريء طاهر، فلما جيء به إلى المحاكمة طلب من القاضي تفريق الشهود، فرق الشهود، جاء بالشاهد الأول، قال له: متى أخذت المبلغ؟ وكيف أخذته شيكاً أم نقداً؟ بأي عملة، وفي أي مكان، اضطرب الشاهد، تكلم بكلام ارتجالي، جاء الشاهد الثاني فتكلم بكلام آخر، جاء الشاهد الثالث فتكلم بكلام مغاير، فظهر أنهم كاذبون، أحياناً تفريق الشهود يكون سبب كشف الكذب.

لابدّ في الدين من أن نعتمد في النهاية على خوف الإنسان من الله :

قال تعالى:

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً)

يأتي شاهدان من طرف أهل الميت، ويقولان: نحن نعلم علم اليقين أنه كان في تجارة، كان معه أموال كبيرة جداً، واشترى بضاعة غالية، واتصل بنا هاتفياً قبل أن يغادر، وقال: شحنت لكم كذا وكذا وَكذا، فهناك أدلة قطعية من المتوفى قبل أن يموت عن طريق اتصال معين:

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنْ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

القضية كما ترون قضية ثقة وإيمان، أما في قضايا العلم فكل كلام يمكن أن يكون مزوّراً، أي لا بد في الدين من أن نعتمد في النهاية على خوف الإنسان من الله، لو ألغينا هذا الخوف لا تستقيم حياة على وجه الأرض، ممكن لإنسان أن يوصي، ويكتب وصية، ويشهد عليها مسلمان أو غير مسلمين، أما إذا اكتشف أن في القضية تزويراً أو اختلاساً أو باطلاً فعلى أهل الميت أن يعيّنا شاهدين معهم أدلة قوية على خلاف هذه الشهادة، ويقسمان أيضاً أنهما ما اعتديا على الشاهدين الأولين، إنهما:

(إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ)

حقوق العباد مبنية على المشاححة و حقوق الله مبنية على المسامحة :

أخواننا الكرام، حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

كل شيء له حل، لو أن إنساناً اعتدى على زوجته، وشهد شهادة كاذبة أنه رآها تزني، كيف نقابل هذه التهمة الظالمة، نقول: من حق الزوجة أن تشهد شهادة بالله أنه يكذب، في القضايا الحميمة من الصعب أن يكون معك دليل عليها، هذه قضايا ليس لها حل إلا الاعتماد على صدق الإنسان، وعلى خوفه من الله، وعلى مروءته، واليمين أيضاً حاسمة، لكن هذا اليمين الغموس سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار، وقد تعجبون أن اليمين الغموس ليس لها كفارة، لأنها تخرج الإنسان من الإسلام، واليمين الغموس يحتاج مَن حلف بها بعد حلفها إلى تجديد إسلامه، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، وحقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، وكل إنسان يتوهم أنه إذا زار بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً يعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه، مع أن في هذا حديث صحيح، إلا أن شراح الحديث يصرفون الحديث قطعاً إلى ما كان بينك وبين الله فقط، لكن ما بينك وبين العباد لا يسقط بحال إلا بالأداء أو المسامحة.

أيها الأخوة، الإنسان يظل بخير ما لم يسفك دماً، لكن مرة ثانية، ويظل بخير ما لم يأكل مالاً حراماً ليس له، ثمة أخطاء كثيرة الله عز وجل يعفو عنها، لكن حينما تأخذ ما ليس لك، تغتصب بيتاً، محلاً، شركة، تأخذ شيئاً ليس لك، وتحرم به الآخرين فهذه مشكلة كبيرة جداً، والله عز وجل بالمرصاد. وما قولكم إن صحابياً جليلاً خاض مع رسول الله كل الغزوات ومات وعليه دَين؟ عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

((تُوُفِّيَ رَجُلٌ فَغَسَّلْنَاهُ، وَحَنَّطْنَاهُ، وَكَفَّنَّاهُ، ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: تُصَلِّي عَلَيْهِ، فَخَطَا خُطًى، ثُمَّ قَالَ: أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قُلْنَا: دِينَارَانِ، فَانْصَرَفَ، فَتَحَمَّلَهُمَا أَبُو قَتَادَةَ،

فَأَتَيْنَاهُ، فقالَ أبُو قتَادَة: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أحِقَّ الْغرِيمُ، وَبَرِئَ مِنْهُمَا الْمَيِّتُ، قالَ: نَعَمْ، فصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ: مَا فَعَلَ الدِّينَارَان، فقالَ: إِنَّمَا مَاتَ أمْس، قالَ: فعَادَ إِلَيْهِ مِنْ الْغدِ، فقالَ: لقدْ قضَيْتُهُمَا، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ))

[أحمد عَنْ جَابِرٍ]

مرة ثانية وأخيرة: كأن هذه الآيات تنبئ أن حقوق العباد مبنية على المشاحة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ قالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَة فذَاكَرْتُهَا حَتَّى ذكَرْنَا الْقاضِيَ، فقالَتْ عَائِشَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قطُّ))

[أحمد عن عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (47 - 49) : تفسير الآيات 109 - 110 ، خصوصية السيد المسيح.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-10-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

الله تعالى سيجمع الخلائق ويجمع معهم الرسل ويسألهم عن استجابة الناس لهم :

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية التاسعة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

هذه الآية أيها الأخوة يتضح منها أن الله سبحانه وتعالى سيجمع الخلائق، ويجمع معهم الرسل، وسيسألهم: كيف كانت استجابة الناس لهم؟ لم يقل: بماذا أجبتم؟ ولو كان السؤال هكذا لكان الله عز وجل قد أراد التفاصيل، ولكن سألهم: ماذا أُجبتم؟ تماماً كما لو أن طالباً أدى امتحاناً مصيرياً، إذا دخل إلى البيت يُسأل سؤالا إجماليّا: كيف كنت؟ يقول: جيد، لكن في لقاء أطول يُسأل عن تفاصيل الأجوبة. إذاً السؤال الآن:

(مَاذَا أُجِبْتُمْ)

هل استجاب الناس لكم أو لم يستجيبوا؟ والآية الثانية التي توضح هذه الآية:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

[سورة النساء: 41]

أي استجابة من الناس للأنبياء هي استجابة في الظاهر لكن المضمون متعلق بالنوايا :

الرسل سوف يسألون:

(مَاذَا أُجِبْتُمْ)

ماذا قابل الناس دعوتكم؟ استجابوا لكم أو لم يستجيبوا؟ وأتباع الرسل يسألون أيضاً، هل استجبتم لدعوة أنبيائي أم لم تستجيبوا؟ فالرسول له سؤال، والذي أرسل إليه له سؤال، أما النبي عليه الصلاة والسلام فهو شاهد علينا يوم القيامة:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)

[سورة النساء: 41]

لكن جواب الأنبياء:

(قالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

الحقيقة أن الجواب يحتاج إلى تأمل، كيف لا علم لهم به؟ ألم يلتقوا بالناس؟ ألم يروا أن بعض الناس قد آمن بهم، والبعض لم يؤمن؟ لمَ قالوا: لا علم لنا؟ هو يسألهم كيف كانت استجابة الناس لهم؟ هم عاصروه، وهم عاينوه، هم الذين عاشوا مع الناس، فكيف يقولون: لا علم لنا، من أدق ما قاله المفسرون حول هذه الإجابة التي لا تعني التفاصيل أن الأعمال الظاهرة لا قيمة لها عند الله إلا إذا رافقتها نيات عظيمة ونيات مخلصة، فنحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فأي استجابة من الناس لأنبياء الله عز وجل فهذه الاستجابة في الظاهر، لكن المضمون متعلق بالنوايا.

الإخلاص لا يتطلع عليه أحد إلا الله :

لو أن إنساناً يملك أراضي شاسعة وجاء من أخبره أنك إذا تبرعت بأرض لمسجد البلدية تضطر أن تنظم الأرض، وأن تجعلها محاضر، وعندئذٍ ترتفع قيمتها إلى ضعفين، فهذا صاحب الأرض بدافع من حبه للربح، يقدم قطعة أرض لتكون مسجداً، فكل من شاهد هذا التبرع يثني عليه، ما شاء الله، محسن كبير، قدم الأرض لتكون مسجداً، لكن الله وحده يعلم أنه ما قدم هذه الأرض لتكون مسجداً إلا من أجل تنظيم الأرض، ورفع ثمنها، فلذلك نحن جميعاً كبشر نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فأنا حينما لا أزكي أحداً على الله أكون متأدباً مع الله، أنا حينما لا أزكي أحداً أكون متأدباً مع الله، لذلك كان السلف الصالح إذا أرادوا أن يزكوا إنساناً قال: نحسبه صالحاً، ولا نزكي على الله أحداً، إذاً: إجابة الأنبياء من هذا القبيل:

(قالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

بعض الناس استجابوا لنا، لكن بمَ استجابوا؟ ما مستوى إخلاصهم؟ ذلك لأن الإخلاص لا يتطلع عليه أحد إلا الله، لا ملِك ولا غير ملِك، تقوم بعمل طيب، من هنا جاء قوله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

عَنْ ثَوْبَانَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ أخوانكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجه عَنْ ثَوْبَانَ]

إذاً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)

[سورة الفرقان: 23]

الإخلاص في العبادة هو الذي يعطي العبادة قيمتها :

ذكرت مرةً أن رجلاً لزم الصف الأول في صلاة الفجر أربعين عاماً، وفي أحد الأيام غفل عن وقت صلاة الفجر فلم يحضر الصلاة، فقال: ماذا يقول الناس عني في هذا اليوم؟ فهم من هذا القلق أنه إنما يصلي من أجل الناس، فلذلك قضية الإخلاص قضية مهمة جداً، أنا لا أريد أن ألخص عمل كل إنسان، ولكن لينتبه الإنسان أن الإخلاص أساس الدين، الإنسان مكلف أن يعبد الله مخلصاً له الدين، الإخلاص في العبادة هو الذي يعطي العبادة قيمتها. إذاً من شدة أدبهم مع الله:

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا)

والنبي عليه الصلاة والسلام كان عند بعض أصحابه الذين توفاهم الله، كان من عادته عليه الصلاة والسلام أنه إذا توفي أحد أصحابه كان يأتي بيته قبل أن يغسل، من باب التكريم، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ:

((أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَداً بَعْدَهُ أَبَداً))

[البخاري و أحمد عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

نحن من باب علم اليقين، من هو الذي يدخل الجنة مؤكداً؟ عشرة أشخاص في الأمة الإسلامية، بشرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة، وما سوى ذلك فعلى الرجاء جميعاً، ليس معنى هذا أن عملك الصالح يضيع عند الله، لا، ولكن من باب الأدب مع الله لا يجوز لأحد أن يتألى على الله، أنت حينما تحكم على مصير إنسان حكماً قطعياً هذا سماه العلماء التألي على الله، قال لها:

((وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[البخاري و أحمد عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

خصوصية السيد المسيح عند الله عز وجل :

إذاً كلمة الأنبياء والرسل (لا علم لنا) كلمة توحيدية، وفي أعلى درجة من الأدب:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

أنت المطلع يا رب على الخبايا، أنت الذي تعرف السرائر، أنت الذي تعرف الظاهر، وتعرف الباطن، وتعرف السرائر، أنت الذي تعرف ما يخفيه الإنسان عن الآخرين، وتعرف ما يخفى عنه، وتعلم ما يخفي، وتعلم ما يخفى عنه، لذلك قال تعالى:

(لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الطور: 18]

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

الآن في سؤال موجه لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام خصوصية في هذا النبي الكريم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين، من الناس من استجاب لهم، ومن الناس من لم يستجب لهم، من الناس من كذبهم، من الناس من آمن بهم، لكن السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له خصوصية، ذلك أن الذين دعاهم إلى الله إما أنهم ألّهوه، أو أنهم وصفوه بأنه ابن الإله، إذاً لا بد من سؤال تفصيلي حول هذه الظاهرة التي ينفرد بها السيد المسيح.

لم يذكر في القرآن إلا السيدة مريم وحدها :

قال تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

ولم يذكر في القرآن إلا السيدة مريم وحدها، لأن سيدنا عيسى ليس له أب فقال الله عنه: عيسى بن مريم.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ)

والحقيقة هناك ملمح في الآية دقيق جداً، هو أن هذه النعم يعرفها السيد المسيح معرفة تامة، هو الذي تلقاها من الله عز وجل، أو جرت على يديه، ولكن هذا تقريع للذين لم يؤمنوا به، كل هذه النعم وهذه المعجزات التي أجراها الله عليه، مع ذلك لم تؤمنوا:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

أقدس ما في المرأة عفتها والسيدة مريم صدّيقة النساء :

حينما أراد الله جل جلاله أن تكون معجزة هذا النبي أنه ولد من دون أب، أمه السيدة العذراء ولدته من دون أن يمسها بشر، والمألوف عند الناس أن التي تلد ولا زوج لها تعد عند الناس زانية، وهذا الذي دعا السيدة مريم أن تقول:

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

[سورة مريم: 23]

شيء عظيم أن تتهم المرأة بعفتها، وأقدس ما في المرأة عفتها، وكانت هذه السيدة صدّيقة النساء:

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً)

[سورة مريم: 23]

وقال سبحانه:

(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً)

[سورة مريم: 28]

في الآية إشارة إلى أن الوالدين الصالحين من لوازم صلاحهما أن يكون الابن صالحاً.

(مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً)

[سورة مريم: 28]

لذلك لهذا النبي الكريم خصوصية.

تكلم عيسى عليه السلام في المهد ليبرئ أمه معجزة كبيرة :

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)

روح القدس هو سيدنا جبريل عليه السلام.

(تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ)

الطفل في المهد لا يملك شيئاً، فهو ضعيف ضعفاً مطلقاً، لا يستطيع لا أن يتكلم، ولا أن يأكل وحده، ولا أن يقضي حوائجه وحده، فحضيض الضعف حينما يكون الطفل في المهد، المهد فراش مهيأ له،

لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لو أن في الفراش بحصة لا يستطيع أن يزيلها، هذا الطفل الذي في المهد إذا به ينطق، ويتكلم، لأن أمه لزمت الصمت، هي متّهمة الآن، ودفاعها عن نفسها لا يقدم ولا يؤخر، والناس لن يصغوا لها، فكانت هذه المعجزة أن وليداً في المهد يقول:

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً*وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم: 30-31]

تكلم هذا الوليد وهو في المهد ليبرئ أمه، هذه معجزة كبيرة، هذا يذكرنا بماشطة فرعون، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهَا: ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي، قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ، قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْبَرَتْهُ، فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبّاً غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ، فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الْحَقِّ، قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا، فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِداً وَاحِداً، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ؛ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَشَاهِدُ يُوسُفَ وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ))

[أحمد عَن ابْنِ عَبَّاسٍ]

الأم آية من آيات الله الدالة على رحمته :

الأم آية من آيات الله الدالة على رحمته، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَمَرَّ بِقَوْمٍ فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ، وَامْرَأَةٌ تَحْصِبُ تَنُّورَهَا، وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا، فَإِذَا ارْتَفَعَ وَهَجُ التَّنُّورِ تَنَحَّتْ بِهِ، فَأَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَرْحَمَ بِعِبَادِهِ مِنْ الْأُمِّ بِوَلَدِهَا؟ قَالَ: بَلَى، قَالَتْ: فَإِنَّ الْأُمَّ لَا تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ، فَأَكَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْكِي، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَّا الْمَارِدَ الْمُتَمَرِّدَ الَّذِي يَتَمَرَّدُ عَلَى اللَّهِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))

[ابن ماجه عَنْ ابْنِ عُمَرَ]

أخوتنا الكرام، يكاد يكون قلب الأم آية دالة على عظمة الله، وعلى رحمته، بل إن أرحم الخلق بالخلق من دون استثناء هو سيد الخلق وحبيب الحق، ومع ذلك قال الله له:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ)

[سورة آل عمران: 159]

نكرة، كل هذه الرحمة التي حملته على أن يبكي طوال الليل على الكفار، يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً))

[الترمذي عنْ عَائِشَةَ وَعن أبي هُرَيْرَةَ وابن عَباسٍ وأَنَس]

لأنه يحمل هم البشرية، وقد يحمل أحدنا همّ أسرته فقط، وهناك من لا يحمل همّ أسرته، يضيعهم، هناك من يحمل همّ أسرته الموسعة، أخواته وإخوته، هناك من يحمل همّ المسلمين في بلدة صغيرة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لعلو مقامه عند الله كان يحمل همّ البشرية، لذلك كان أرحم الخلق بالخلق، ومع كل ذلك قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران: 159]

أحد أنواع النصر أن تموت موحداً :

الرحمة جاءت نكرة، وهي دليل أنها أقلّ من الرحمة التي قال الله عنها:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

[سورة الكهف: 58]

الرحمة كلها عند الله، هذه الأم لما رأت ابنها الرضيع على وشك أن يلقى في النار تضعضعت وسكتت:

((قَالَ: يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ))

[أحمد عَن ابْنِ عَبَّاسٍ]

هل انتصر عليها أم انتصرت عليه؟ لقد انتصرت عليه، أحد أنواع النصر أيها الأخوة أن تموت موحداً، أحد أنواع النصر ألا تستجيب لأي ضغط، لذلك أصحاب الأخدود هم الذين انتصروا على الذي أحرقهم، وقد تنسحب هذه الحقائق على ما يجري في العالم الإسلامي اليوم، هذا الذي يقتل موحداً، يقتل مستقيماً، يقتل صحيح العقيدة، هذا الإنسان هو المنتصر، مع أنه فقد الحياة، ولأن هناك حياةً أبدية فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لا قيمة لهذه الحياة الدنيا، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

النبي عليه الصلاة والسلام في الإسراء والمعراج شمّ رائحة ما شم مثلها قط:

((لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَوْلَادِهَا))

[أحمد عَن ابْنِ عَبَّاس]

إذاً تهمة كبيرة جداً امرأة متهمة بعرضها، إنسان متهمة بعفتها، إنسان متهمة بأثمن ما تملكه المرأة، لو أنها دافعت عن نفسها لا أحد يصدقها، لو أن أناساً دافعوا عنها لا أحد يصدقهم، شيء لم يكن له سابقة، غلام يولد من امرأة غير متزوجة، بحسب الوقائع والمألوف والعادات هي زانية قطعاً، واليهود اتهموها بالزنا لذلك جاء نطق ابنها أعظم تبرئة لها.

السيد المسيح كلّم الناس في المهد بمعجزة وسيكلمهم كهلاً بعد أن يعود إلى الأرض :

قال تعالى:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ)

روح القدس هو جبريل.

(تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ)

كنت ضعيفاً، فكلمتَهم بقدرتي.

(وَكَهْلاً)

كلّم الناس في المهد بمعجزة، وسيكلمهم كهلاً بعد أن يعود إلى الأرض.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ)

[سورة آل عمران: 55]

بعد أن تعود:

(فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 55]

هذه معجزة، وهذا فضل كبير أن الله برأ السيدة مريم بأن أنطق ابنها الوليد الذي هو في المهد.

أساليب الدفاع عن المؤمنين لا تعد ولا تحصى :

إذاً:

(اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ)

إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ والحمد لله على وجود الله، وحينما تكون بريئاً أمام الله جل جلاله يتولى أن يدافع عنك.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)

[سورة الحج: 38]

أساليب الدفاع عن المؤمنين لا تعد ولا تحصى، تكون متهماً فيأتي إنسان حيادي بعيد يشهد ما رأى فيبرئك، هذا الذي دافع عنك هو في الحقيقة دفاع الله عنك، وأنت حينما يحبك الناس، أحبك الله فألقى محبتك في قلوب الخلق، الآن دافع الله عنك، أي ألهم أناساً منزهين عن الهوى أن ينطقوا بالحق فيدافعوا عنك. والقصص أيها الأخوة التي تجري مع المؤمنين إذا كانوا أطهاراً ومتقين كيف يتولى الله الدفاع عنهم، والله لا تعد ولا تحصى، يكون في تهمة لا بد من أن تحيط به، فيأتي إنسان، ويتكلم بالحق، ويلغي هذه التهمة.

الكتاب هو الوحي المتلو والحكمة هي الوحي غير المتلو أي الحديث الشريف الصحيح :

قال تعالى:

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ)

بعضهم فسرها بالكتابة.

(وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)

كلامه كان حكمة، وكان كلام النبي عليه الصلاة والسلام هو الحكمة.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

[سورة الجمعة: 2]

الكونية:

(وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

[سورة الجمعة: 2]

الكتاب الوحي المتلو، والحكمة الوحي غير المتلو، وهو الحديث الشريف الصحيح، إذاً الذي تكلم به سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام هو الحكمة، وقد عُلّم الكتابة والتوراة، درسها وعلمها، والإنجيل أنزل عليه، هذه النعم التي تترى على هذا النبي العظيم.

شاع الطب كثيراً في عصر سيدنا عيسى فجاءت معجزته مما تفوق فيه القوم :

قال:

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)

وكمعجزة.

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)

لأنه الذي يخلق الطير طيراً هو الله عز وجل، أما البشر فمكّنه الله عز وجل أن يصنع من الطين شيئاً يشبه الطير، لكن الله تولى أن ينفخ فيه الروح:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي)

بقدرتي وعلمي.

(فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

جاءت بإذني مرتين:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)

وقد شاع الطب كثيراً في عصر سيدنا عيسى فجاءت معجزته مما تفوق فيه القوم، تفوقوا في الطب.

الله عز وجل أجرى على يد سيدنا عيسى معجزة إحياء الموتى :

قال تعالى:

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

نقل الميت من الموت إلى الحياة، الطب ما تقدم بعد، لو ذهبت إلى أكبر بلاد العالم تقدماً، لو جبت أعلى مستشفيات العالم، إذا توقف القلب ومات الدماغ انتهى كل شيء، يقف الطب عاجزاً أمام حالة الموت، ولا يستطيع أن يحيي الميت إلا الله، لكن الله سبحانه وتعالى أجرى هذه المعجزة على يد سيدنا عيسى عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام.

(فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

وحينما ائتمر عليه بنو إسرائيل كي يقتلوه ما استطاعوا أن يفعلوا ذلك، حفظه الله عز وجل، وقتلوا إنساناً شبه لهم، وكان خائناً.

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء: 157]

إذاً:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

يروى أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الغار قال له الصديق: يا رسول الله لقد رأونا، أي وقعت عينهم عليهما، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قول الله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

[سورة الأعراف: 198]

المعجزات التي جاء بها السيد المسيح كانت بإذن الله وقدرته لا بإذن المسيح وقدرته :

قال تعالى:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

إذاً هناك أسئلة تفصيلية لهذا النبي الكريم لأن له خصوصية، وهي أن الذين حوله والذين أرسل إليهم وصفوه بأنه إله أو أنه ابن إله، فجاءت هذه التفاصيل، فأن يخلق من الطين ما يشبه الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً كان هذا بإذن الله وقدرته ولا بإذن المسيح وقدرته:

(بِإِذْنِي)

جاءت مرتين:

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي)

لا بقدرة المسيح ولا بإذنه، ولكن بقدرة الله وإذنه:

(وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي)

أي: بقدرة الله وإذنه، لا بقدرة المسيح وإذنه، إذاً هو عبد يجري الله على يديه المعجزات.

لم تتحد المعجزة مع الكتاب عند السيد المسيح كتابه الإنجيل شيء ومعجزاته شيء آخر:

قال تعالى:

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ)

أحياناً الله عز وجل يحفظه، يعمي عنه الأبصار، أرادوا قتله ولم يستطيعوا:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)

[سورة النساء: 157]

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)

أيها الأخوة الكرام، لا بد قبل نهاية الدرس من توضيح هذه الحقيقة، إذا أراد الإنسان الحقيقة فأقلّ شيء في الكون يدله على الله، البعرة تدل على البعير، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير،

وإن لم يتخذ قراراً لطلب الحقيقة، وكان في أكبر محطة فضاء في العالم يرى المجرات بعينه، لو كان على مجهر إلكتروني يرى الخلية بدقائقها لا يؤمن، العبرة أن يكون هناك قرار ذاتي في أعماق نفسه في البحث عن الحقيقة.

فهؤلاء رأوا إنساناً يصنع من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فإذا هو طير حقيقي، يبرئ الأكمه، ويبرئ الأبرص، ويحيي الموتى، ينطق وهو في المهد، هذه كلها معجزات، والمعجزات هي في الحقيقة شهادة الله للناس أنهم أنبياء الله عز وجل.

ولكن لم تتحد المعجزة مع الكتاب عند السيد المسيح، كتابه الإنجيل شيء ومعجزاته شيء آخر، والله عز وجل لم يتولَ حفظ التوراة والإنجيل، وأمر بحفظهما، والأمر بالحفظ شيء، والحفظ التكويني شيء آخر، أمر بحفظ التوراة والإنجيل فبناء على قوله تعالى:

(بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ)

[سورة المائدة: 44]

الأنبياء نفذوا هذا الأمر التكليفي، وحفظوا التوراة والإنجيل، ولكن الأتباع لم ينفذوا هذا الأمر، وغيروا التوراة والإنجيل، لكن المعجزة شيء، والكتاب شيء آخر، ولكن في القرآن الكريم اتحد القرآن مع المعجزة، والمعجزة في القرآن علمية مستمرة إلى يوم القيامة، ففي القرآن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، بسبق علمي لا يصدقه عاقل على وجه الأرض أن يستطيع البشر وقت نزول القرآن أن يفهموا هذه القضايا العلمية، لكن تقدم العلم هو الذي كشف عن جوانب هذه الآيات، فكانت هذه الآيات في خانة الإعجاز العلمي في القرآن، والإعجاز العلمي في القرآن أكبر دليل على أنه كلام الله.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع الآيات التي تتحدث عن هذا النبي العظيم الكريم السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (48 - 49) : تفسير الآيات 111 - 118 ، قصة المائدة.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-10-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الوحي في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأربعين من دروس سورة المائدة، ومع الآية الحادية عشرة بعد المئة، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

أولاً أيها الأخوة، الوحي إعلام خفي، كالوحي إلى أم موسى، أحياناً يأتيك خاطر، هذا الخاطر يعد نوعاً من الوحي، ولكن كلمة الوحي في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة.

1 من معانيها الأمر :

فأولاً: من معانيها الأمر:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا* وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا* يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ*)

[سورة الزلزلة: 1-8]

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)

أي أمرها أن تخرج ما في بطنها، هذا الوحي للجماد أمر.

2 عندنا وحي غريزة :

في عندنا وحي غريزة:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

[سورة النحل: 68]

هذا الوحي غريزة.

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

[سورة النحل: 68]

3 وحي إلـهام :

هناك وحي إلهام، أي: إعلام بخفاء، من دون صوت، يعبر عنه الناس بخاطر.
بالمناسبة، الإنسان له ملك يلهمه، وله شيطانه يوسوس له، وكأن الملك مهمته أن يدعو الإنسان للعمل الطيب، وكأن الشيطان مهمته أن يدعوه إلى عمل خبيث، وكل إنسان مخير، فإما أن يستجيب لملك، وإما أن يستجيب لشيطان، فالوحي إعلام بخفاء:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ)

هنا الوحي ليس وحي رسالة.

4 أرقى أنواع الوحي وحي الرسالة :

بالمناسبة، آخر أنواع الوحي، بل أرقى أنواع الوحي وحي الرسالة، أي أن رسولاً هو جبريل عليه السلام ينقل للرسول الذي من بني البشر وحي السماء، هذا وحي رسالة، وهناك وحي إلهام، ووحي غريزة، ووحي أمر، هنا وحي إلهام.

المؤمن مادام يطلب الخير ويطلب العمل الطيب يلهمه الله عز وجل :

أحياناً قد تخطر في بالك أكلة تحبها، تأتي إلى البيت، فإذا هي في البيت، قد يخطر في بالك إنسان بعد دقيقة تلتقي به، قال العلماء: هذا نوع من الوحي، إلهام، الإنسان يُلهم، والحقيقة أن الإنسان المؤمن أحياناً بالذات يُلهم الخير، الله عز وجل حينما علم منه صدقه، وإخلاصه، وحبه للخير يُلهم هذا المؤمن أن يقول كلمة هي شفاء للسائل، هذا الشيء يقع في مجالس العلم كثيراً، يأتي إنسان وعنده مشكلة، فالمتكلم دون أن يشعر يُلهم أن يعالج هذه المشكلة. أحياناً المؤمن مادام يطلب الخير، يطلب العمل الطيب يلهمه الله عز وجل، هذه لكل مؤمن، لكل مؤمن، يُلهم أن يقول كلمة فيها حل لمشكلة، يُلهم أن يروي قصة فيها حل لمشكلة، يُلهم أن يزور إنساناً فيها حل لمشكلة، هناك قصص كثيرة جداً الإنسان يجد نفسه مسوقاً بدافع إلهام يقوم بعمل، فإذا بهذا العمل يكون له دور كبير جداً في الخير، فأنت كن مع الله، فالله عز وجل يستخدمك، أي يوظفك عنده.

فهنا الوحي موضوع إعلام بخفاء، وكل إنسان يمكن أن يكون له وحي من هذا النوع، أما وحي الرسالة فخاص بالأنبياء والرسل، وحي الغريزة بالحيوانات، وحي الأمر للجمادات، فكل إنسان يمكن

أن يلهمه الله عز وجل، إنسان دخله مشروع، وورع، ومستقيم أحياناً يكون في صفقة سيئة جداً، وهو رآها جيدة فيوحي له الله عز وجل بانقباض فينقبض، أحياناً يوحي الله عز وجل بإلهام لإنسان ألاّ يذهب لهذا المكان، يكون فيه مشكلة كبيرة، أنت حينما تكون مع الله تُلهم الصواب والسداد، وهذا من إكرام الله لك.

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: مستحيل إنسان يخطب ود الله عز وجل إلا والله عز وجل يريه نوعاً من الكرامات، هذه نوع من الكرامات، أن تُلهم أن تفعل شيئاً، هذا الشيء مهم جداً أحياناً. وأنا أؤكد لكم مرة ثانية: ما منكم واحد إلا وله مع الله تجربة في هذا الموضوع، والقصص لا تعد ولا تحصى، هذا شيء يحصل لكل المؤمنين، ولا يتميز بها مؤمن عن مؤمن، إلا أنك مادمت تطلب الحق والعمل الصالح والخير تشعر أن الله يلهمك الخير، يلهمك كلمة معينة، حركة معينة، امتناعاً معيناً، عملا معيناً، تعليقاً معيناً، يكون فيه خير كبير جداً.

الإنسان المخلص والنقي والصافي يستحق أن يوحي الله إليه وحي إلهام :

إذاً:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)

الحواريون مشتقة من الصفاء والنقاء والمحبة، الآن هناك تعبير معاصر شفافية، الإنسان الشفاف الذي عنده وضوح شديد، عنده نفس طاهرة، فهذه الشفافية جاء في القرآن التعبير عنها الحواريون، إنسان مخلص، نقي، صافٍ، هذا المخلص والنقي والصافي يستحق أن يوحي الله إليه وحي إلهام:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)

فلما جاء السيد المسيح آمنوا به فوراً:

(قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

بالمناسبة: ما من نبي في القرآن الكريم إلا وقد وصف بأنه مسلم، وكأن الأصل في الدين هو الإسلام، ولعل معنى قوله تعالى:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)

[سورة آل عمران: 19]

حقيقة الدين أن تسلم وجهك لله، أن تستسلم إليه، وأن تتوجه إليه، أن تستسلم إليه بسلوكك، وأن تتوجه إليه بقلبك، بانصياع بالجوارح، وتوجه بالقلب إلى الله.

اليقينيات ثلاثة يقين استدلالي ويقين شهودي ويقين تماس :

إذاً:

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا)

لما جاء السيد المسيح:

(قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)

منصاعون لمنهج الله، مقبلون على الله، ثم إن هؤلاء الحواريون يقولون:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أنتم آمنتم بالله، آمنتم بقدرته المطلقة، آمنتم بعلمه، آمنتم بحكمته، ماذا بعد الإيمان؟ أرادوا أن يكونوا كسيدنا إبراهيم.

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)

[سورة البقرة: 260]

الحقيقة أن الإيمان اليقيني هو إيمان قوي جداً، لكن الإيمان الشهودي أقوى منه، الإيمان اليقيني الاستدلالي العقلي هو علم يقين قطعي، تماماً كما لو نظرت إلى دخان من وراء جدار، تقول أنت: لا دخان بلا نار، أنت موقن مئة بالمئة باليقين العقلي الاستدلالي أن وراء الجدار ناراً، هذا يقين، لكن لو التفت إلى وراء الجدار فرأيت عين النار، هذا أول حالة علم اليقين، فلما رأيت عين النار هذا حق اليقين، فلما اقتربت من النار، وأصابك وهجها هذا عين اليقين، اليقينيات ثلاثة، يقين استدلالي، ويقين شهودي، ويقين تماس.

الأمر الإلهي مطاع قولاً واحداً :

أيها الأخوة:

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ)

أي هل يستطيع؟ هل يستجيب لنا إذا دعوناه أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ طبعاً الأرض فيها موائد، كل هذه الخيرات أنتم في الإفطار تأكلون على مائدة، طبعاً المائدة الخوان عليه طعام، من دون طعام اسمه خوان فقط، فالمائدة مرطبات، مشروبات، مقبلات، فتات، رز مع اللحم، هذه مائدة الله عز وجل، من خلق الرز، اللحم، الفواكه، الخضار، المقبلات؟ هذا كله من خلق الله عز وجل، ففي الأرض موائد

لا تعد ولا تحصى، وأحياناً الموائد لها منظر يلفت النظر، تنسيق بالأطباق، وجمال بالتزيين، هذه مائدة أيضاً، لكنهم يريدون مائدة من السماء لا من الأرض:

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ)

يا أيها المسيح لو سألنا الله أن ينزل علينا مائدة من السماء هل يستجيب لنا؟ هناك معنى آخر، هل تستطيع سؤال ربك؟ إما هل يستجيب، أو هل إذا أمر شيئاً أن يكون فيكون؟ أي هل الأشياء تجيب الله عز وجل؟ مع أن الحقيقة الصارخة أن كل ما في الكون إذا أمره الله عز وجل يطيعه صاغراً، كل ما في الكون.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

فالأمر الإلهي مطاع قولاً واحداً، العلماء عدوا معاني هل يستطيع؟ هل يجيب؟ هل يستطيع؟ من الطاعة، فلو أن الله أمر شيئاً أن يكون مائدة تكون، لقوله تعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس: 82]

أو هل تستطيع أن تسأل الله عز وجل:

(أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ)

الحواريون أرادوا أن ينتقلوا من يقين عقلي إلى يقين شهودي :

كما قلت قبل قليل في علم اليقين هم موقنون قولاً واحداً أن الله قادر، لكن لو أرادوا أن ينتقلوا من اليقين الاستدلالي إلى اليقين الشهودي، أنت في حياتك اليومية في حالات كثيرة جداً تستنبط أن الآلة معطلة، هذا يقين استدلالي، حينما تضع السلك الكهربائي في المكواة في المأخذ، وتبقى باردة، معنى ذلك أن المكواة معطلة، هذا استنباط عقلي، لكن لو فتحت المكواة فوجدت الوشيعة مقطوعة انتقلت من استدلال عقلي لاستدلال شهودي، فكأن الحواريين أرادوا أن ينتقلوا من يقين عقلي إلى يقين شهودي، لكن السيد المسيح رأى في ذلك تجاوزاً لمقام العبودية لله عز وجل، كل هذا الكون ينطق بوجوده ووحدانيته وكماله:

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أنت كمؤمن مهمتك أن تتقي الله فقط، أن تطيعه وعلى الله الباقي، مهمتك أن تطيع الله فقط.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر: 66]

الحواريون أرادوا من هذه المائدة أن تكون شهادة الله للمسيح أنه رسول الله :

قال تعالى:

(قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

ما دمتم آمنتم بالله عز وجل موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وخالقاً، ورباً، ومسيراً، وإلهاً، وأسمائه حسنى، وصفاته فضلى، يكفيكم هذا الإيمان، تابعوا:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

أن نأكل طعاماً أعد في السماء ولم يعدّ في الأرض، وأن تنزل علينا مائدة من السماء:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا)

أي ننتقل من اليقين العقلي إلى اليقين الشهودي:

(وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

كأن هذه المائدة شهادة الله لك أنك رسوله، ودائماً وأبداً حينما يرسل الله رسولاً إلى خلقه هناك من يكذبه، لا بد من معجزة تشهد للناس أن هذا الإنسان الذي يقول أنه رسول الله هو رسوله حقاً من خلال المعجزة:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

الحواريون أرادوا أن يكونوا رسلاً يشهدون للناس بقدرة الله عز وجل :

نريد أن ننتقل من الإيمان الشهودي بقدرة الله عز وجل إلى الإيمان الشهودي برسالته، وقبل كل هذا نريد أن نأكل:

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا)

لقدرة الله:

(وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

إلى أنك رسوله:

(وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ)

لمن حولنا، نحن نكون أيضاً رسلاً نشهد للناس بقدرة الله عز وجل من خلال هذه المائدة.

الفرق بين خطاب سيدنا عيسى وخطاب الحواريين :

قال تعالى:

(قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أنزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

طبعاً اللهم أصلها يا الله، لكثرة استخدام هذا النداء حذفت ياء النداء، وعوض عنها بالميم، اللهم أصلها يا الله، إذاً الحواريون توجهوا إلى الله: هل يستطيع ربك باسم الربوبية، لكن سيدنا عيسى توجه إلى الله باسم الألوهية، مقام الألوهية يقابله مقام العبودية، أي يا رب، أنت إله، ونحن عبيدك، والعبد عبد، والإله إله، وما على العبد إلا أن يطيع سيده، وكلما ارتقيت عند الله اقتربت من مقام العبودية، والنبي صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته حينما بلغ سدرة المنتهى قال الله:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

[سورة النجم: 10]

إذاً أعلى مقام تصل إليه أن تكون عبداً له، فالفرق بين خطاب سيدنا عيسى وخطاب الحواريين، الحواريون خاطبوا الله باسم الربوبية، لكن سيدنا عيسى خاطبه باسم الألوهية:

(قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أنزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

سيدنا عيسى بدأ بالهدف التعبدي أما الحواريون فبدؤوا بالهدف النفعي :

هم بدؤوا:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا)

سيدنا عيسى قال:

(تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)

أي تكون آية باهرة دالة على عظمتك يا رب، نعود بهذه الآية إليك، ونقبل عليك، فبدأ بالهدف التعبدي، هم بدؤوا بالهدف النفعي:

(نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا)

أما سيدنا عيسى فبدأ بالهدف التعبدي:

(تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا)

ونأكل أيضاً منها:

(وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)

لكن أيها الأخوة، هناك سُنة من سنن الله عز وجل، وهي أن جهة من البشر إذا سألوا الله شيئاً فلم يستجيبوا لله بعد هذا الشيء يستحقون الهلاك، لما طلبوا من سيدنا صالح ناقة، ثم عقروها، فدمرهم الله تدميراً، وأي جهة من البشر تسأل الله شيئاً ليكون سبب الإيمان، فإن لم يؤمنوا استحقوا بهذا الشيء الذي طلبوه الهلاك.

من سنن الله أن البشر إذا سألوا الله شيئاً ولم يستجيبوا بعده يستحقون الهلاك :

قال تعالى:

(قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ)

أحياناً الإنسان يقول: يا رب، لو نجحت في الامتحان سأجعل بعد هذا النجاح توبة نصوحاً لك، وكل إنسان يعاهد الله عز وجل يربط سيره إلى الله بشيء، ثم يقع هذا الشيء، ولا يسير إلى الله، يكون هذا دليل كذبه، ودليل استحقاق البعد عن الله عز وجل.

بالمناسبة قوم النبي عليه الصلاة والسلام:

(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)

[سورة الإسراء: 90-93]

قال علماء التفسير: النبي عليه الصلاة والسلام رحمة بقومه لم يسأل الله هذه الطلبات، لو سأل الله هذه الطلبات ولم يؤمنوا لاستحقوا الهلاك والدمار، فلذلك رحمة بهم لم يسأل النبي عليه الصلاة والسلام ربه هذه الطلبات التي طلبها قومه حينما بعثه الله نبياً.

الله سبحانه وتعالى يعبر عما سيكون بفعل ماضٍ تحقيقاً للوقوع :

أيها الأخوة الكرام، الآن:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

هذا القول يوم القيامة، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى يعبر عما سيكون بفعل ماضٍ تحقيقاً للوقوع.

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

[سورة النحل: 1]

معنى ذلك لم يأتِ بعد:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

المعاني الدقيقة لكلمة (سبحان الله) أن تنزهه وأن تمجده وأن تستجيب له :

أنت يا رب منزه أن يكون لك ولد:

(قَالَ سُبْحَانَكَ)

سبحان الله من ألفاظ التنزيه، والتنزيه أن تنزه الذات الإلهية عن كل نقص لا يليق بالله عز وجل، وأن تمجده، أن تنزهه، وأن تمجده، وأن تستجيب له، المعاني الدقيقة لكلمة سبحان الله أن تنزهه، وأن تمجده، وأن تستجيب له:

(قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

أي مستحيل أن يكون رسول من عندك يا رب، ويدعي أنه إله، هذا مستحيل:

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

والله عز وجل بالمناسبة لا يستفهم، لا يليق بذات الله أن يستفهم، الاستفهام له معنيان؛ إما أن السائل يطلب معلومة لا يعرفها من المسؤول، هذا الاستفهام على أصله، أسألك كم الساعة؟ أنا لا أعلم كم الساعة، أسألك هل حضر فلان؟ السؤال بمعناه الطبيعي أن السائل يطلب معلومة لا يعلمها من المسؤول، لكن الاستفهام قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر يطبق في هذه الآية هو التقرير، الله يعلم أن هذا النبي الكريم لم يقل هذا الكلام، لم يقل لقومه:

(اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

ولكن ليكون جواب السيد المسيح لله عز وجل حجة على من ادعى ألوهيته. إذاً هذا اسمه التقرير، إما طلب العلم بمجهول أو التقرير، فهذا الاستفهام في هذه الآية اتجه إلى التقرير.

ما من إنسان كالأنبياء يعلم مقام العبودية :

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

نزهه ومجده أن يكون له ولد، لأن الله عز وجل ليس كمثله شيء، وكل ما خطر في بالك فالله خلاف ذلك، سبحانك، ثم إنه لا يحق لي، ولا يمكن لنبي اصطفاه الله عز وجل، وأرسله للناس، ثم يدعي هذا النبي وهو عبد لله أنه إله، وثمة إشارة لطيفة جداً، أن الأنبياء كانوا يأكلون الطعام، والذي يأكل الطعام ليس إلهاً، ويمشون في الأسواق، مفتقرون في وجودهم إلى تناول الطعام، ومفتقرون إلى ثمن الطعام بالمشي في الأسواق.

لذلك الميكادو كان يعد في اليابان إلهاً، له طبيب أسلم، لماذا أسلم؟ لأنه رأى الإله يمرض، فيه علل لا تعد ولا تحصى في جسمه، ما دام قد رأى إنساناً ممتلئاً بالأمراض إذاً ليس إلهاً. إذاً يقول سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

إله عظيم اصطفى إنساناً، اصطفاه على علم ليكون رسوله إلى الناس، وما من إنسان كالأنبياء يعلم مقام العبودية، أيعقل هذا الإنسان أن يدعي أنه إله؟!!

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

ثم:

(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ)

الإنسان له نفس وهي مجموع جسمه مع روحه لكن نفس الله ندع لله تأويله :

أنت تسأل سؤال التقرير:

(إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

طبعاً الإنسان له نفس، وهي مجموع جسمه مع روحه، ذاته، لكن نفس الله عز وجل ندع لله تأويله، الله عز وجل له وجه، ولكن ليس كوجوهنا، وله نفس، ولكن ليست كنفوسنا، وله يد، ولكن ليست كأيدينا، كل ما خطر في بالك فالله خلاف ذلك:

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

(علّام) صيغة مبالغة، أي لا تخفى على الله خافية، علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون:

(إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

خطيب جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال له: ما شاء الله وشئت، قال له: بئس الخطيب أنت، أجعلتني لله نداً، قل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فأشد الناس توحيداً هم الأنبياء، وأشدهم عبودية هم الأنبياء.

تقييم الأشخاص من شأن الله وحده:

قال تعالى:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ)

أنا يا رب أشهد يوم القيامة عليهم أنني ما قلت لهم هذا الكلام، ومرة ثانية هذا السؤال خرج عن قصده الأصلي إلى قصد التقرير ليكون كلام السيد المسيح شاهداً ضد من ادّعى أنه إله:

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أنت عزيز، لو عفوت عنهم ليس في الكون جهة تستطيع أن تعترض على ذلك:

(أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(أنت) أيها الأخوة الكرام، إذا كان شأن السيد المسيح في هذا الموضوع هو عدم التألي على الله، فنبي كريم يقول: يا رب:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فما بال أقوام الآن يقولون: فلان إلى جهنم، فلان كافر، فلان مؤمن، من أنت؟ هذا تألٍّ على الله، مقام النبوة أعلى مقام، قمة في الكمال، هذا شأن الله عز وجل فاحفظوا هذه الكلمة، تقييم الأشخاص من شأن الله وحده، لكن هناك تطرف، شارب خمر، غارق في المعاصي، لا يصلي، لعله يكون وليّاً، هذا من أولياء الله، هذا كلام فيه لعب بالدين، هذا عاصٍ، هذا شارب خمر، هذا لا يصلي، ولكن يمكن أن يتوب، وأن يسبق السابقين، هذا عدم التألي، فإذا مدحت إنسان قل: أظنه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المائدة 005 - الدرس (49 - 49) : تفسير الآيات 119 - 120 ، الرضا والصدق في القول والفعل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-11-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

يستحيل أن يصطفي الله رسولاً ليدل عليه ثم يدّعي الألوهية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأربعين من دروس سورة المائدة وهو الدرس الأخير إن شاء الله تعالى، ومع الآية التاسعة عشرة بعد المئة وهي قوله تعالى:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

حينما سأل الله سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)

أي لا يمكن أن تصطفي يا رب رسولاً ليدل عليك ثم يدعي الألوهية:

(قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)

لكن الذي قلته لهم:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

ثم إنك أنت العزيز القدير، العزيز الحكيم، مالك الملك لا أحد يسألك عما تفعل:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

الآخرة ليستدار تكليف لذلك الصدق فيها لا ينفع :

أيها الأخوة، قال الله عز وجل:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

سيدنا المسيح كان صادقاً، وهو حجة على من أدعى أنه إله:

(قالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

الذي قال لهم:

(اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)

[سورة المائدة: 72]

صدقُه نجاه يوم القيامة، لكن ما كل صدق ينفع صاحبه، لما سئل إبليس يوم القيامة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

هذا صدق، هذا كلام صحيح، لكن الآخرة ليست دار تكليف، لذلك الصدق فيها لا ينفع.

الصدق الذي ينفع صاحبه يوم القيامة هو ما كان في الدنيا في دار التكليف :

فرعون كان صادقاً حين جاءه الموت، قال:

(قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

لا ينفع الصدق إلا في الدنيا، هذا الصدق في الدنيا ينفع صاحبه يوم القيامة، أما أن تعترف يوم القيامة بأنه لا إله إلا الله، وأن الجنة حق، والنار حق، هذا الإيمان أصبح محسوساً، ولا أجر لك في الإيمان به.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق: 22]

إذاً ما كل صدق ينفع صاحبه، الصدق الذي ينفع صاحبه ما كان في الدنيا في دار التكليف، يوم تكون صادقاً، يوم تصدق مع الناس، يوم تصدق مع الله، يوم تعبر عن الحقيقة الحقيقية في الدنيا، يوم تنصح الناس لله ورسوله ولكتابه ولدينه، هذا الصدق في الدنيا ينفعك يوم القيامة، أما حينما قال فرعون:

(قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

قال له الله:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

[سورة يونس: 91]

خيارنا مع الإيمان خيار وقت وليس خيار قبول أو رفض :

هذا الكلام أيها الأخوة ينقلنا إلى حقيقة دقيقة جداً، وهي أن الإنسان مخير، وخياره في ملايين الموضوعات خيار قبول أو رفض، تعرض عليك تجارة فترفضها، أرباحها قليلة، ومتاعبها كثيرة،

تعرض عليك فتاة لا ترضى أخلاقها، فترفض الزواج منها، تعرض عليك سفرة ترى المشقة عالية، والدخل قليل، فأنت مخير خيار قبول أو رفض، إلا أنه إذا عرض عليك الإيمان فأنت مخير خيار وقت، إما أن تؤمن الآن فتنتفع من إيمانك، أو أنك سوف تؤمن لكن لا تنتفع من إيمانك، لذلك أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات: 24]

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص: 38]

يوم جاءه الموت قال:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس: 90]

الحقائقُالتي جاء بها الأنبياء لا بد من أن يؤمن بها الناس قاطبة لكن بعد فوات الأوان:

إذاً الحقائقُ التي جاء بها الأنبياء لا بد من أن يؤمن بها أهل الأرض قاطبة إيماناً شهودياً، لكن بعد فوات الأوان، وهذا الإيمان لا ينتفعون به إطلاقاً.

بالضبط كما ولو دخلت إلى امتحان، ولم تستطع أن تكتب كلمة واحدة، لأنك لم تدرس، عدت إلى البيت، فتحت الكتاب، وقرأت الإجابة، وأصبحت تفهمها، هل لك أن تعود إلى الامتحان، وتقول: اسمحوا لي أن أقدم ورقة ثانية، نقول له: لا، الآن علمت الإجابة الصحيحة، لكن علمتها بعد فوات الأوان، انتهى الآن. فلذلك إبليس كان صادقاً حينما قال:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ)

[سورة إبراهيم: 22]

كان صادقاً، ولكن هذا الصدق لأنه جاء في دار الجزاء فلا قيمة له، ينبغي أن يكون في دار التكليف، حينما كلفت أن تكون صادقاً فصدقت تنتفع بصدقك، وحينما كلفت أن تكون صادقاً فكذبت، هذا الكذب تدفع جريرته وتبعته يوم القيامة، ولو كشفت له الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان.

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

الصدق في الأقوال والأفعال أكبر صفة من صفات المؤمنين :

أبرز صفة في المؤمن أنه صادق، صادق مع نفسه، وصادق مع من حوله، وصادق مع ربه، صادق في أفعاله تأتي مطابقة لأقواله، وصادق في أقواله تأتي مطابقة لحاله، هناك صدق الأقوال، وصدق الأفعال، قد يقول إنسان لأمه: أنا حينما أتزوج سأكون باراً بك، يأتي فعله بعد الزواج بعكس ما قال، نقول: يكذب بفعله، وقد تقول مقولة ليست صحيحة، هذا كذب الأقوال، على كلٍّ الصدق في الأقوال، وفي الأفعال أكبر صفة من صفات المؤمنين:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

الآن الأقوياء حينما يطرحون فكراً معيناً عدد لا يعد ولا يحصى من المنافقين والمنتفعين يلهجون بهذه الأقوال ويرددونها، ويعبرون عن إيمانهم بها، وهم كاذبون، لم يكونوا صادقين، إذا تكلم الإنسان بخلاف الحق، وتكلم بخلاف ما يقتنع ضيع الناس.

إنسان له مكانة، الإنسان لو تكلم بكلام ليس مقتنعاً به إرضاءً لقوي هذا الذي يتعلم منه يصدقه، معنى ذلك أنه ضيع معالم الحق، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس]

جاءك ضيف، وفي أثناء الحديث معك بيّن لك أنه من حين لآخر يشرب الخمر، ولا يصلي، وبعدما ذهب قلت لأهلك: هذا شخص محترم، لبق، ذكي، متفوق، يحمل شهادة عليا، وابنك سمع منه أنه لا يصلي، ويشرب الخمر، أنت حينما مدحته ضيعت ابنك، أوقعته في اضطراب، إذاً لا شيء على الإنسان لو شرب الخمر، ولو ترك الصلاة:

((إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق))

[أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من حديث أنس]

قد لا تستطيع أن تذمه، وأنت معذور، لكن لا ينبغي أن تمدحه، يقبل الله منك إذا كنت ضعيفاً ألاّ تذمه لأنك لا تستطيع أن تواجه بطشه، لكن لمَ تمدحه، ولست مكلفاً بذلك؟ كلمة الصدق ضرورية جداً، لأن معظم المترفين والأقوياء يطرحون كلاماً ليس صحيحاً، وكل من يردد هذا الكلام، ويوهم من حوله أنه مقتنع به فهو كاذب، وهذا الكذب إذا استشرى في الأمة أصبح مجتمع الكذب، مجتمع النفاق، فلذلك لا يمكن لمؤمن أن يكذب.

في عصور التخلف الإسلامي لا بد من ثبات الأخلاق :

مرةً وجهاء قوم يمدحون من استخلفه بعض الخلفاء ليكون خليفة بعده، فكل من في المجلس أثنى ومدح هذا الذي استخلفه الخليفة، كان أحد التابعين جالساً، وبقي صامتاً، صمته أربك المجلس، قال: يا فلان تكلم، قال: والله أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فكان تلميحاً أبلغ من تصريح. لا تكذب، لا أحد يستطيع أن يحملك على أن تكذب، لا تكذب، ابقَ ساكتاً:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)

أقول هذا الكلام لأنه في عصور التخلف الإسلامي يحل الكذب محل الصدق، يُكذَّب الصادق، ويُصدَّق الكاذب، يؤتمن الخائن، ويخوَّن الأمين، في مثل هذا الوقت ينبغي أن تكون صادقاً، وألاّ تقول: هناك ضغوط علي، لا بد من ثبات الأخلاق:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

رضي الله عنهم واضحة، أنت حينما تؤمن بالله الإيمان الصحيح، وحينما تستقيم على أمره، وحينما تنصح عباده، وحينما تقدم لهم كل خير ابتغاء مرضاته، وحينما تكون أداة خير، أداة أمن، حينما لا يتقيك الناس مخافة شرك، حينما تكون كذلك تستحق رضاء الله عز وجل، ولكن كيف ترضى عن الله؟ كان أحدهم يطوف حول الكعبة ويقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني؟ كان وراءه الإمام الشافعي، قال: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: سبحان الله! من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا محمد بن إدريس، قال: كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ فقال الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عنه.

إذا كنت راضياً عن الله رضي الله عنك :

حينما ترضى أن يكون دخلك محدوداً وتصبر، ولا تضجر، ولا تحقد، ولا تهمل عملك، تجد معلماً لا يدرِّس، يقول لك: المعاش قليل، إما أن تدرس بإخلاص أو أن تستقيل، أما أن تغش المسلمين بحجة أن الدخل قليل فهذا عند المؤمنين مرفوض أبداً، فترضى عن الله إذا كان دخلك بسيطاً، قليلاً، أو محدوداً، وترضى عن الله إن لم تكن زوجتك كما تتمنى، وترضى عن الله إذا كان في الجسم بعض العلل، وترضى عن الله إن زوي عنك شيء في الدنيا، لذلك علمنا النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

هو رابح في الحالتين، إنسان كان يتمنى شيئاً فزوي عنه، الفراغ الناتج من انشغاله من هذا الشيء: يا رب، اجعله في طاعتك.

مرة قال لي أخ: ما الحكمة من أن تكون الزوجة سيئة؟ أردت أن أداعبه، قلت له: حتى نراك في المسجد. أحياناً يتزوج الإنسان وينسى الجميع، ينسى كل شيء، لازمها، وسبح بحمدها، وانتهى كإنسان، الزوجة الوسط نعمة، فإذاً يجب أن ترضى عن الله، أن ترضى عن الله في زوجتك، وفي أولادك، وفي دخلك، وفي صحتك، وفي مكانتك، وفي مرتبتك، أحياناً أنت من أب فقير، وأنت اسمك عصامي، تجد إنساناً ابن شخص مترف، تتألم، تقول: لو كان أبي كهذا الإنسان لكنت في بحبوحة، ومركبات، وسيارات، وبيوت.

((فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أني فَعَلْتُ كَذَا كانَ كَذَا وكَذَا، وَ لَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَما شاء فَعَلَ، فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطان))

[رواه مسلم عن أبي هُريرة رضي الله عنه]

ينبغي أن ترضى عن أمك وأبيك، لأنك منهما، ولست مخيراً في ذلك، وأن ترضى عن البلدة التي ولدت فيها، وأن ترضى عن كونك ذكراً أو كونك أنثى، الله اختار لهذا المخلوق أن يكون أنثى، وأن ترضى عن الزمن الذي ولدت فيه، نحن ولدنا في زمن ضعف المسلمين، نحن ما رأينا قوة المسلمين، ما رأينا عزهم أبداً، كل الأخبار تأتي بخلاف طموحنا، هكذا أراد الله أن نكون في زمن ضعف المسلمين، فيجب أن ترضى عن الله في زمن ولادتك، وفي مكان ولادتك، وفي كونك ذكراً أو أنثى، وأن ترضى عن الله في دخلك، وفي صحتك، وفي زوجتك، وفي أولادك، فإذا كنت راضياً عن الله رضي الله عنك، معنى ذلك أنك تعرفه، وتعرف حكمته، وتعرف محبته لك، وتعرف أنه أعطاك العطاء المناسب لك:

((إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك))

[ابن عساكر عن أنس]

الرضا الحقيقي يوم القيامة حينما ترى مكانك في الجنة :

أمثلة كثيرة جداً؛ على الغنى ترك الصلاة، على الغنى عاشت معه زوجته ثلاثين سنة، وكان فقيراً، فلما اغتنى طلقها، وتزوج شابة، منتهى اللؤم، رضيت بك فقيراً، ووقفت معك طوال الحياة، فإذا قوي

مركزك، وزاد مالك لم تعد تعجبك، تريد شابة بسن بناتك، لا تريدها زوجة، تطلقها، وتقول لها: هذا الحاضر، وهذا مهرك، ألفا ليرة، خذيه وامشي منتهى اللؤم، لذلك:

((إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك.))

[ابن عساكر عن أنس]

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

لكن الرضا الحقيقي يوم القيامة، حينما ترى مكانك في الجنة، حينما ترى حياةً أبدية لا نغص فيها، ولا نصب، ولا تعب، ولا حقد، ولا فقر، ولا مرض، ولا زوجة سيئة، ولا ولد عاق، ولا ظروف صعبة، ولا قهر، حينما لا ترى شيئاً يزعجك.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ)

[سورة الحجر: 46]

عند ذلك ترضى عن الله، والله عز وجل يقول:

(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى: 4]

ينصحك الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

إلهنا وربنا ومولانا يقول:

(فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة: 38]

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص: 61]

الرضا في الدنيا هو مقام المؤمنين :

أيها الأخوة:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

يجب أن ترضى عن الله في كل شيء، في السراء راض، في الضراء راض، في الصحة راض، في المرض راض، في إقبال الدنيا راضٍ، في إدبار الدنيا راضٍ، هذا الرضا في الدنيا هو مقام المؤمنين، راضٍ عن الله:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

هناك إنسان ساخط، كل شيء يسخط عليه، يسخط عن دخله، وعن عمله، وعن وظيفته، حاقد، متبرم، ليس هذا من صفات المؤمن، المؤمن راضٍ عن الله.

لكن هناك معنى أخاف أن تفهموه، كسول جداً، غير متقن بعمله، يرجئ، دخله قليل، فقير معدم، أولاده يتضورون جوعاً، هو راضٍ عن الله، ما قصدت هذا المعنى أبداً، هذا المعنى مرفوض. أما حينما تبذل كل ما تستطيع، وتبلغ هذا المستوى، الآن ارضَ عن الله، أما إذا كان هناك مجال لتعمل، وتحسن وضعك، وتحسن عملك، وتحسن دخلك، وتربي أولادك، أن تطعمهم الطعام الجيد، أن تلبسهم الكساء الجيد، أن تدخل الفرحة على قلوبهم، أن تكرمهم، كسول، ومهمل، ومرجئ، ودخله قليل، وحوله أناس جائعون، وهو راضٍ عن الله، هذا جزاء التقصير وليس قضاءً وقدراً، لذلك هناك فقر الكسل، وهناك فقر القدر، وهناك الفقر المحمود فقر الإنفاق.

الله تعالى جاء بنا إلى الدنيا ورزقنا عملاً صالحاً هو ثمن الجنة :

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

[سورة الزمر: 74]

كنا في الدنيا، وقد وعدنا بالجنة، نحن في الجنة، وصدقنا الله وعده.

(وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر: 74]

أضرب مثلاً للتقريب: طبيب دخله كبير جداً، مر أمام جامعته فتذكر سبع سنوات أمضاها في دراسة متعبة، وفي قلق، وفي سهر، وفي عكوف على الكتاب، وترك لقاءاته مع أصدقائه، وترك نزهاته، وترك كل المناسبات الاجتماعية، وتقشف حتى نال هذه الدكتوراه، الآن يأتيه خيرها، يقول لك: ثمانون مريضاً جالسون في العيادة، وكل واحد ألف ليرة، كل يوم بثمانين ألفاً، لولا هذه الجامعة التي درست وتعبت ما كنت في هذه الحالة الرضية، هذا للتقريب طبعاً.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ)

[سورة الزمر: 74]

جئنا إلى الدنيا، ورزقنا عملاً صالحاً هو ثمن الجنة. الآن:

(نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

[سورة الزمر: 74]

هناك أشخاص كثر مركزهم قوي، درسوا دراسة عالية جداً، يعتمد عليهم في مراكز حساسة، مكانتهم عالية، وكرامتهم عالية، ولا أحد يستطيع أن ينال منه أبداً، نظير تعبه في الجامعة، ودراسته المتأنية، وتفوقه في الدراسة، وما قدم لأمته من خدمات، الكل يحترمه، فهذه المكانة العلية سببها ذاك الجهد الكبير:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

[سورة الزمر: 74]

الملكية المطلقة لله عز وجل مالك كل شيء :

ثم يقول الله عز وجل:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الملكية المطلقة لله، الله عز وجل مالك كل شيء، ومالك من يملك شيئاً، مالك ومالك المالكين، لكن في الدنيا سمح لعباده لأنهم مخيرون ومستخلفون في الأرض سمح لهم أن يملكوا شيئاً، فهذا يملك بيوتاً كثيرة جداً، وهذا يملك الغذاء، وهذا يملك الصناعة، وذاك التجارة، وهذا الزراعة، وهذا السلطة، وهذا وزير، وهذا محافظ، هؤلاء ملكوا ملكاً جزئياً في الدنيا، لكنهم في قبضة الله، وقلوبهم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

لكن في الدنيا مالكون كثر، أصحاب شركات عملاقة، أصحاب أموال كبيرة جداً، أصحاب مراكز حساسة، أصحاب سلطة، في الدنيا مالكون، لكن الله عز وجل في الدنيا مالك كل شيء، ومالك من يملك شيئاً، مالك الملوك، وقد ورد في بعض الآثار القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخطة والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاكم بصلاحهم))

[ورد في الأثر]

لا تناصر في الآخرة بل يأتي الناس فرادى :

لكن يوم القيامة ليس إلا مالك واحد هو الله، الذين يملكون بعض الأشياء في الدنيا، أو بعض الصلاحيات، أو بعض المراكز يتناصرون، ترون لما أرادت دولة أن تعتدي على دول، دول كثيرة ناصرتها، يقول الله عز وجل يوم القيامة:

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

لا تناصر.

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

[سورة الأنعام: 94]

الآن هناك شخص في الدنيا يحرك أضخم جيش، يعطي أمراً بالقصف، إذاً هو أمة، ودولة، وجيش، وسلطة، وسياسة، أما في الآخرة:

(جِئْتُمُونَا فُرَادَى)

[سورة الأنعام: 94]

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

قد تقع عين الأم على ابنها، تقول: يا ولدي، جعلت لك صدري سقاء، وبطني وعاء، وحجري غطاء، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم؟ قال: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنت منه تشكين:

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ)

[سورة الصافات: 25]

الله عز وجل مالك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً :

الله عز وجل يملك كل شيء، لكن مالك كل شيء سمح للعباد أن يمتلكوا أشياء، مع أنه سمح لهم أن يتملكوا فهو مالكهم لأن قلوبهم بيده، ومن قدرته أن ينهيهم، وأن يبطش بهم.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج: 12]

هذا الشخص الثاني في الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد؛ البرمكي الشخص الثاني، أمره نافذ بالمملكة كلها، فجأة رأى نفسه في السجن، فقال: لعل دعوة مظلوم أصابتنا، الله أيضاً بطاش، ورأيتم الذي كان جباراً قوياً كيف أخذ من قبر، الله بطاش، الله يعاقب بعض المسيئين ردعاً للباقين ويكافئ بعض المحسنين تشجيعاً للباقين، لكن تصفية الحساب يوم القيامة.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران: 185]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الملك أيها الأخوة الله عز وجل، مالك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، الإنسان أحياناً يملك بيتاً، يملك أن ينتفع به، يملك منفعته إذا كان بيتاً مستأجراً على النظام القديم، ولا يملك رقبته، وأحياناً إنسان يملك رقبة البيت، ولا يملك منفعته إذا كان مؤجراً، وأحياناً يملك رقبته ومنفعته، لكن يصدر قرار تنظيم أو استملاك فذهب البيت، لا يملك مصيراً، فالله عز وجل ولله المثل الأعلى يملك كل شيء خلقاً وتصرفاً ومصيراً، ويملك أيضاً الملوك، ومن لا يملك شيئاً، إنسان حجمه يقدر بتسعين ملياراً، هذا (بيل غيت)، إذا مات تنتهي هذه الملكية، الله عز وجل خير الوارثين.

كل شيء بيد الله وحده :

مات رجل، وترك ألف مليون ليرة، القصة من سنتين أو ثلاث، نصيبه تسعون مليوناً، فشمر وانطلق لإجراء المعاملات، بقي ستة أشهر خارج المحل التجاري ما دخل إليه إطلاقاً، ومات قبل أن يأخذ شيئاً، الله هو المالك، مالك كل شيء.

أحياناً يموت إنسان، ويظن شخص أنه الوريث الأول، قد لا يعيش ساعات بعد هذه التركة الكبيرة، إذاً:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وتوسعنا: قلبك بيد الله، دسامات القلب بيد الله، النبض الكهربائي بيد الله، قطر الشريان التاجي بيد الله، أن يسري الدم بأوعية الدماغ بشكل طبيعي بيد الله، وأن تنشأ خثرة بالدماغ بمكان شلل، بمكان جنون، بمكان عمى، بمكان فقد ذاكرة، خثرة لا ترى بالعين، تتجمد بأحد أوعية الدماغ، ينتهي كل شيء.

أيها الأخوة، كل شيء بملكه، عملك، صحتك، زوجتك، أولادك، من فوق، من تحت:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

الفوز الحقيقي أن تصل إلى الجنةوما سوى هذا الهدف لا يعد فوزاً :

إلا أنه لما قال الله عز وجل:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

عندنا فوز سطحي، معنى ذلك كما أن هناك فوزاً عظيماً فهناك فوز سطحي، كيف؟ إنسان في الدنيا ملك ثروة كبيرة، أحياناً تروج تجارته، يصبح وكيلاً لشركات عديدة، صار من جامعي الأموال.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف: 32]

هذا فوز لكنه سطحي، ما دام ينتهي بالموت فلا قيمة له عند الله، لذلك: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

إذاً عندنا فوز سطحي، وعندنا فوز حقيقي، الفوز الحقيقي أن تصل إلى الجنة، وما سوى هذا الهدف لا يعد فوزاً.

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

[سورة النساء: 77]

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعم: 44]

إذا كنا في العناية الإلـهية المشددة فهذه نعمة كبيرة :

هؤلاء الذين يعتدون على شعوب مسلمة والله عندهم أموال لا تأكلها النيران، لوحة زيتية لا تفهم منها شيئاً على الإطلاق مكتوب عليها: بيكاسو، ثمنها ستون مليون دولار، هذا المبلغ يحلّون به مليار مشكلة عندنا، هو ثمن لوحة زيتية. قضية البذخ والإنفاق شيء لا يصدق في العالم الغربي:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعم: 44]

ممثلة انتحرت، بيعت قطعة ثيابها بالمزاد بمبلغ فلكي، أموال لا تأكلها النيران، ترف، كبر، فسوق، فجور:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام: 44]

فإذا كنا نحن نعالج فهذه نعمة كبيرة، إذا كنا في العناية الإلهية المشددة، ونعالج لعل الله عز وجل يرحمنا عند الموت، فهذه نعمة كبيرة، لذلك ورد أنه:

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

الطغاة يموتون لكن عذابهم يبدأ من الموت :

نحن أيها الأخوة، والله أنا أصدُقكم إذا وصل أحدٌ إلى القبر نظيفاً ليس عليه شيء فهذا أسعد إنسان في الأرض، أما الطغاة يموتون، لكن عذابهم يبدأ من الموت.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر: 92-93]

هؤلاء الأقوياء يهدمون في اليوم سبعين بيتاً، يجرفون أشجار الزيتون، يقتلون قتل تشفٍّ، يدمرون، يقتلون الأطفال، تصدر زعيمهم على الشاشة ليقول: نحن نكافح الإرهاب، أي إرهاب هذا؟ شهد الله أنه ليس في الأرض من هو أغبى منه، لو أدخل في حساباته أن الله سيحاسبه.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم: 42]

البطولة أنا أقول دائماً: إن لم تكن طرفاً في مؤامرة قذرة هدفها إفقار المسلمين، أو إضلالهم، أو إفسادهم، أو إذلالهم، أو إبادتهم، أنت ملك الآن، إذا كنت نظيفاً لا علاقة لك بما يحاك ضد المسلمين فأنت في بحبوحة كبيرة، وأنت من أسعد الناس.

بهذا تنتهي سورة المائدة.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس